المجلس الأعلى للثقافة

العدو الأمريكى

أصول النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا

تأليف: فيليب روچيه
ترجمة: بدر الدين عرودكى

المشروع القومى للترجمة

816



L'Ennemi Américain

Généalogie de l'antiaméricanisme français

Philippe Roger

بريطانيا العظمى و ألمانيا و إسبانيا و إيطاليا وكلها دول خاضت الحرب ذات يوم ضد الولايات المتحدة الأمريكية. أما فرنسا فلم تخض ضدها حربًا على الإطلاق، لكن ذلك لا يحول دونها، كما ذكرنا بذلك ميشيل فينوك إثر الهجوم على مركز التجارة العالمى، ودون أن تكون البلد الذى " كانت فيه نزعة العداء المضادة لأمريكا - ولا تزال - شديدة الحدة ". ثمة مفارقة عنيفة تجعل من النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا دفعة واحدة لغزًا تاريخيا وثقافيا. ما السبب فى أننا معادون لأمريكا على هذا النحو؟ .

ليست النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا مجرد مزاج حديث أو حمى راهنة يكفى متابعة منحناها فى استقصاءات الرأى لربط تحولاتها بهذه المرحلة أو تلك من العلاقات الفرنسية الأمريكية. كان العاملون فى مجال استقصاء الرأى وعلماء السياسة يعلنون فى منتصف الثمانينيات، تراجعها القوى، وقرب تلاشيها، ولو صدقناهم لظننا أن النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا تقترب من نهايتها فقد تجاوزت أنماط السلوك الخاصة بها تاريخ صلاحيتها، وكان الناس يُخطَرون أن عليهم الحذر من الآن فصاعدًا من الصيغ الجاهزة المعادية، أى صيغ "الولع بأمريكا" المنتصرة، بل إنه كان يُقال لنا إن المثقفين أنفسهم قد اهتدوا، وكان يتم وصف "اهتداء الأنتلجنسيا" هذا بالتفصيل .

تصميم: وائل أحمد

المشروع القومى للترجمة

العدو الأمريكى

أصول النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا

تاليف: فيليب روچيــــه
(مع مقدمة للطبعة العربية)
ترجمة: بدر الدين عرودكى



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨١٦
- العدو الأمريكي: أصول النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا
- فيليب روچيه
- بدر الدين عرودكى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

L'ENNEMI AMERICAIN,
Généalogie de l'antiaméricanisme français.
(La Couleur des idées)
*Par **Philippe Roger***
La couleur des idées

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت:٧٣٥٢٣٩٦ فاكس:٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel:7352396 Fax: 7358084

المحتويات

مقدمة الطبعة العربية

ليس كتاب العدو الأمريكي، على الرغم من عنوانه المثير، مقالة هجائية ولا عريضة اتهام ضد الولايات المتحدة الأمريكية. إنه كتاب تاريخ: تاريخ ثقافي أو بصورة أفضل تاريخ "صور"؛ أي بالنتيجة صور سلبية عن أمريكا والأمريكيين الشماليين منذ أكثر من قرنين في فرنسا.

وُضعت العلاقات الفرنسية الأمريكية في الحقيقة تحت علامة المفارقة. فهناك، من جهة، تاريخ مشترك، تمجده خرافة مرحة تجعل من فرنسا والولايات المتحدة "جمهوريتين شقيقتين"، صادرتين عن ثورتين ديمقراطيتين متقاربتين في الزمان(١٧٧٦، ١٧٨٩) وفي مصدر وحيهما(تأكيد "حقوق الإنسان" التي لا يجوز التصرف فيها، ونظام تمثيلي ودستوري، وضمان الحريات الفردية). ومن جهة أخرى، هناك فرنسا البلد الأوروبي الذي تطور فيه أكثر من أي مكان آخر واستقر تقليدٌ، ويمكننا القول: "ثقافة" حقيقية معادية لأمريكا.

استثناء فرنسي مزدوج إذن: لم يكن الفرنسيون أبداً في حرب مع الولايات المتحدة ـ حتى ولو كادت الحرب أن تقع كما سنرى في نهاية القرن الثامن عشر، ومن جديد في عهد نابليون الثالث، لكنهم مارسوا ضد هذا البلد حرب كلمات(وحرب صور) لم تعرف في قرنين سوى فترات قصيرة من الهدنة، مؤقتة كلها. هذه الملاحظة ملاحظة تاريخية؛ فهي لا تدين بشيء لأحداث السنتين الأخيرتين. ولكي نقتنع بذلك لنستمع إلى ما كان يقوله من قبل، منذ ما يقرب من ثمانين عاماً، أندريه تارديو، السياسي الفرنسي الذي كان وزيراً عدة مرات ورئيس مجلس وزراء: "هذان البلدان، المتحدان بالعاطفة، لم يتعاونا دون أن يعرفا ضروباً من القطيعة الفورية، وفي كل الظروف، يفسر غياب الاتصال وحده بينهما غياب الاضطراب. وسأضيف أن هذه الفترات القصيرة من التعاون [...] خضعت لا إلى قوانين المشاعر، بل إلى قوانين المصلحة، وأنه ما إن تستنفد المصلحة حتى لا تكفي المشاعر لاستمرار التعاون". كان ذلك في عام ١٩٢٧! وكان تارديو في ذلك الوقت موضع تشهير بوصفه من المغالين في حب أمريكا!

هناك إذن كثافة تاريخية خاصة بنزعة معاداة أمريكا الفرنسية التي لا مثيل لها في العالم إلا في المكسيك على وجه الاحتمال، ولكن لأسباب على قدر من الوضوح

تتمثل فى تجاور خطير وحملات متكررة "يانكية" على الأرض المكسيكية. (بل إن مدينة مكسيكو قد أقامت متحفًا لها: "متحف التدخلات"...) هذه المدة الطويلة التى اختصت بها نزعة معاداة أمريكا الفرنسية تكفى لتمييزها عن سائر أشكال الخصومة مع الولايات المتحدة المتأخرة والأكثر ارتباطًا بالظروف السياسية (أو السياسية الاقتصادية العسكرية) بصورة دقيقة. فى عام ٢٠٠٣، جمعت ندوة فى مدرسة العلوم السياسية فى باريس خبراء قدموا من عشرة بلدان (بعضهم من الشرق الأوسط) ليواجهوا وليقارنوا نزعاتهم فى معاداة أمريكا على التتالى: لقد تبين بوضوح شديد أن "الشعور" المعادى لأمريكا فى معظم البلدان لم يصبح عنصراً من عناصر الحياة القومية والبلاغة السياسية إلا من تاريخ شديد القرب وعلى كل حال بعد الحرب العالمية الثانية. فرق زمنى يتوجب الحفاظ عليه فى الذاكرة، قبل أية مقارنة؛ لأنه يشير إلى فرق مقوِّم بين نزعة معاداة أمريكا الفرنسية ومعظم المظاهر المعاصرة للخوف من أمريكا حتى وإن وجدت بالطبع بعض الثيمات ونقاط التركيز هنا وهناك.

هذا يعنى أيضًا أن نزعة معاداة أمريكا الفرنسية (التى لا يتوجب خلطها مع نقد السياسة الخارجية الأمريكية، وهو نقد مشروع غالبًا ويُراد الظن به مفيداً أحيانًا بما فى ذلك للولايات المتحدة) تتوقف قليلاً على الظروف والأحداث ـ حتى الأحداث المهمة كحرب العراق. ففى نوفمبر ٢٠٠٢، وفى حين كانت إدارة بوش الأولى تتجه فى الظاهر نحو هذه الحرب مع أو دون موافقة الأمم المتحدة، كشف تحقيق واسع فى الرأى العام قامت به مؤسسة Pew فى واشنطن عن التدهور الكارثى لصورة الولايات المتحدة فى العالم أجمع. كان هذا التدهور مثيراً بوجه خاص فى العالم العربى وكذلك أيضًا فى البلدان القريبة و"الأكيدة" مثل بريطانيا العظمى وألمانيا، لكن فرنسا مرة أخرى تقدم الاستثناء؛ فقد بقيت نسبة الآراء السلبية ثابتة. (ولكى نكون أكثر دقة فقد تغيرت نقطة واحدة فى النسبة المئوية، وهو ما يتطابق مع هامش الخطأ فى مثل هذه التحقيقات). كان الفرنسيون دومًا أبطال معاداة أمريكا فى أوروبا الغربية، بل كانوا كذلك إن جاز لى القول على هواهم دون أى تأثر خاص (على الرغم من صدام الدبلوماسيتين)، مع الوضوح الهادئ الذى تعطيه العادات المتجذرة. لقد بيّن عدد من الباحثين منذئذ وبناء على كثرة من دراسات الرأى العام المتقاربة أن معاداة الفرنسيين لأمريكا خلال عشرات السنين الأخيرة كانت قد بلغت قمة فى سنوات ١٩٩٠، وخاصة حول السجال الخاص بـ"العولمة"، وقبل الصراع العراقى إذن.

إن ما يستنتج من استقصاءات الرأى التى تمت منذ الحرب العالمية الثانية، والتى تأتى لتعزز أطروحة "الاستثناء الفرنسى"، هو الطبيعة "المتوقفة" أكثر فأكثر

للشعور المعادى لأمريكا فى فرنسا. وخلافًا للكثير من الأفكار المسبقة، يبدو الشباب أكثر عداء لأمريكا من كبار السن، وحملة الشهادات أكثر ممن لا يحملونها، وأصحاب الدخل العالى أكثر من أصحاب الدخول المنخفضة. لكن يُلاحظ أيضًا خلال العشرين سنة الأخيرة أن هذه الاختلافات الفئوية تميل إلى التقلص كما لو أن نزعة معاداة أمريكا، وقد استقرت فى الثقافة المشتركة بين الفرنسيين منذ (على الأقل) نهاية القرن التاسع عشر، تصير كل سنة أكثر فأكثر سمة من سمات الهوية الثقافية القومية، ومستقلة أكثر فأكثر عن السلالم السوسيولوجية مثلما هى عن طوارئ الظروف الدولية.

إن ما سيكتشفه القارئ أو القارئة باللغة العربية إذن فى ترجمة بدرالدين عرودكى هو تاريخ فرنسى ـ فرنسى بصورة جوهرية، لكن هذا التاريخ اليوم يرن فيما وراء فرنسا والعلاقات الفرنسية الأمريكية وحدها.

إذا كان العدو الأمريكى يُنشر اليوم بالإنجليزية وبالعربية، وإذا كان قد ترجم من قبل إلى الإيطالية والصينية؛ فلأن مسألة نزعة معاداة أمريكا على جدول الأعمال بلا ريب. إنّ الولايات المتحدة منذ عام ١٩٨٩ ولأجل غير محدود فى وضع تفوق عسكرى وهيمنة سياسية، لكن الممارسه المتوحدة للقوة العظمى عامل عزلة و"القوة المتغطرسة" التى ترتبط بصورة لا مفر منها بمثل هذا التفوق مصدرٌ كما رأينا من قبل لرد فعل شبه عام ومن توتر القلق(حتى لدى أصدقائها وحلفائها) ضد التجاوزات الممكنة دومًا لمن يملك قوى غير عادية. فى هذه الظروف، يصير المعادون لأمريكا ظاهرة عالمية بقدر عالمية الهيمنة الأمريكية. وسواء أكانت صحيحة أم مزيفة، عادلة أم ظالمة؛ فهى اليوم واقع: لأنه حتى الفكرة المزيفة هى فى نظر المؤرخ واقعة حقيقية مع نتائجها وآثارها فى الواقع. وبانتظار تكاثر الدراسات المشابهة التى تسمح بإعداد "مقارنة نزعات معاداة أمريكا"، فإن الكتاب الحالي يود أن يسترعى الانتباه حول ظاهرة ذات أبعاد أشد تعقيداً مما يبدو وذات رهانات مهمة. إذا كانت "القوة العظمى" الأمريكية تتطلب انتباهنا المهموم غالبًا، فإن نزعة معاداة أمريكا هى الأخرى تتطلب يقظتنا.

لكن هناك سبب آخر للاهتمام بولادة وتطور هذا الخطاب الذى يمزج الحقيقى والمزيف والعسير على التحقق: إنه طبيعته ذاتها بوصفه خطابًا. إن نزعة معاداة أمريكا هى نتاج تراكم حكايات وصور. إنها خرافة مضادة تجمع كيفما اتفق القلق والخوف والحقد لأربعة أو خمسة أجيال من الفرنسيين. فى خطاب خصومة كهذا، يبدو البعد الإسقاطى شديد القوة: طريقة فى دفع مخاوفنا، وفى أن نخفى على أنفسنا نواقصنا وأن نعمى عن ضروب فشلنا. إن نزعة معاداة أمريكا فى عملها البلاغى تشرك عدداً من

الملامح الخاصة بالأحكام المسبقة (العودة المتكررة للصيغ المبتذلة، وللأفكار المسبقة، ومزاعم لم تخضع للنقد أبدًا) بملامح أخرى تقربها من الشائعة (إنها تغذى طواعية معلومات غير محققة وغير قابلة للتحقق، حسب نظام "الصدقى" كما كان يقول ميشيل فوكو، أى فى أفضل الأحوال نظام "كل الناس تعرف"، وفى أسوئها نظام نظرية المؤامرة).

يتوجب على كل مشروع بحث فى أصول نزعة معاداة أمريكا أن يتضمن كنتيجة طبيعية تأملاً فى آليات الاعتقاد الجمعى، وكمخرج نداء لفصل النقد المفصل عقلانيًا عن الأحكام المسبقة الإثنية الثقافية وعن الشائعة الاستيهامية أو المتلاعبة. يسمح التفكير تاريخيا فى ظاهرة كثيفة مثل نزعة معاداة أمريكا الفرنسية بالإحاطة على نحو أفضل بالعقد السياسية أو الثقافية أو الدينية حيث ينعقد الخطاب بالخصومة، لكنه أيضًا تحذير ضد أنفسنا. ضد ضروب السهولة فى التحقير الحاقد للآخر، والذى لا يعكس غالبًا إلا كراهية الذات. ضد آليات القوالب، التى يمكن لشبعها الكسول أن يلائم دعاة اللاعقلانى، لكنه لا يسعه إلا أن يضر مقاومتنا النقدية لكل ما يبدو لنا فى العالم غير مقبول على وجه اليقين.

فيليب روچيه

باريس، فى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٤

"كان جورج واشنطن قد عبر عن هذه الفكرة الجميلة والصحيحة: "إن الأمة التى تستسلم لمشاعر معتادة من الحب أو الكراهية إزاء أمة أخرى تصير بمعنى ما عبدة، عبدة كراهيتها أو حبها"

ألكسى دو توكفيل

عن الديمقراطية فى أمريكا

مدخل

بريطانيا العظمى، ألمانيا، إسبانيا، إيطاليا، كلها دول خاضت الحرب ذات يوم ضد الولايات المتحدة الأمريكية. أما فرنسا فلم تخض ضدها حربًا على الإطلاق، لكن ذلك لا يحول دونها، كما ذكرنا بذلك ميشيل فينوك إثر الهجوم على مركز التجارة العالمي، ودون أن تكون البلد الذى " كانت فيه نزعة العداء المضادة لأمريكا - ولا تزال - شديدة الحدة "(١). ثمة مفارقة عنيفة تجعل من النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا دفعة واحدة لغزًا تاريخيًا وثقافيًا. ما السبب فى أننا معادون لأمريكا على هذا النحو؟ يجدر طرح هذا السؤال لاسيما وأن نزعة معاداة أمريكا هذه تتجاوز مجرد علاقتنا الحقيقية أو الخيالية بالولايات المتحدة الأمريكية.

ليست النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا مجرد مزاج حديث أو حمى راهنة يكفى متابعة منحناها فى استقصاءات الرأى كيما نربط تحولاتها بهذه المرحلة أو تلك من العلاقات الفرنسية الأمريكية. كان العاملون فى مجال استقصاء الرأى وعلماء السياسة يعلنون فى منتصف الثمانينيات، تراجعها القوى، وقرب تلاشيها : ولو صدقناهم لظننا أن النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا كانت تعيش ربع الساعة الأخير من حياتها؛ فقد تجاوزت أنماط السلوك الخاصة بها تاريخ صلاحيتها، وكان الناس يُخطَرون أن عليهم الحذر من الآن فصاعدًا من الصيغ الجاهزة المعادية، أى صيغ "الولع بأمريكا" المنتصرة، لا بل إنه كان يُقال لنا إن المثقفين أنفسهم كانوا قد اهتدوا، وكان يتم وصف "اهتداء الأنتلجنسيا" هذا بالتفصيل (٢).

لم تكن كلمة "الاهتداء" فى الواقع تستخدم فى غير مكانها لو أن المعجزة على كل حال قد تحققت. وسواء كان هذا الاهتداء حقيقيًا أو مفترضًا، فإن هذا "الانفراج" لم يدم (٣). وقبل عبور الألف الثالث كانت عقارب الساعة قد وضعت فى مكانها؛ فالمزارعون يهاجمون مطاعم الماكدونالد. والحكومة تُعلِّق بيع الكوكا كولا لأسباب تتعلق بالصحة العامة. فى حين كانت المدرسة الثانوية المخففة وأمركة التعليم العالى موضع سخرية فى الشوارع. وفى خضم التدخل فى كوسوفو، كان الفرنسيون أنفسهم الذين كانوا يؤيدون ما يقوم به حلف الأطلسى إجمالاً يتكشفون فى إجاباتهم المسجلة فى استقصاء الرأى الذى قامت به مؤسسة CSA وصحيفة ليبراسيون أشد معاداة لأمريكا

من أى وقت مضى (٤). فقد استعادت فرنسا رشدها مثلما استعادت الأنتلجنسيا موقعها، مستاءة من الخلط بين غفوتها العابرة وبين الهروب؛ ففيما عدا استثناءات نادرة، برّأها ردّ فعلها على أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من كل شك فى الاهتداء.

إن النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا ليست قيمة على المدى القصير. إنها راسخة فى التاريخ، لكنها قليلة الحساسية جدا بالظروف. وكل محاولة لإدراكها من خلال مثل هذه التحولات الموسمية ستبوء بالفشل على وجه اليقين. ولما كانت قد تكوّنت فى الزمان وبواسطته، فإنها تتطلب من المحقق أن يقوم بالغوص فى هذا الزمان؛ فهى لا تؤرخ كما نظن عادة لا بحرب فيتنام، ولا بالحرب الباردة، ولا حتى بسنوات الثلاثينيات حين بلغت قمماً عديدة. لقد كانت كل توابلها منذ نهاية القرن التاسع عشر مجتمعة، مثلما كانت فصاحتها مجرّبة. لا بل إن ثمة ظاهرة أشد إثارة للدهشة: لقد كانت منذ ذلك الحين موضع إجماع. وكانت، فى وقت الانقسامات الصارخة، (أساساً) الشيء الفرنسى الأفضل اقتساماً. ومنذ تلك الحقبة، لم تكن من اليمين ولا من اليسار، كانت تصالح بين الروحانيين والعلمانيين، وبين القوميين والأمميين.

من المعروف أن تمثال الحرية قد أنجز قبل إنجاز قاعدته بزمن طويل. وتمثال العدو الأمريكى الذى نصبه الفرنسيون بقى، هو، بالضرورة ناقصاً : كل جيل يسهم فيه، ويشدّ مساميره، لكن القاعدة قديمة، وأسسها - هذه العدائية الغريبة التى عبر عنها عصر التنوير إزاء العالم الجديد، والتى سنتحدث عنها فى التمهيد - تبلغ من العمر مائتى عام.

إن أول قناعة قادت هذه الدراسة هى إذن أن من المستحيل فك لغز النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا خارج إطار المدة الزمنية الطويلة التى رسخت خلالها. وكيفما كانت الطريقة التى نعرفه بها فإن هذا الموضوع الثقافى الغريب ليس موضوعاً طارئاً، كما أن دوامات الموضة لا تؤثر عليه تأثيراً يستحق الذكر وليس بصورة دائمة. لقد أمكن لمصادفة الحدث أن تلعب دوراً كبيراً فى الفترات الأولى من تكوينه، وسنراها فى حالة حرب الانفصال والحرب الإسبانية الأمريكية عام ١٨٩٨. على أن تراكم الخطابات والصيغ التى احتازتها النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا سمحت لها بسرعة فائقة، مع ذلك، بتحمل الصدمات الخارجية دون أن تحيد عن مسارها المرسوم. إن الخطاب المعادى لأمريكا فى فرنسا ليس أحادىّ النزعة، لكنه يتمتع بضرب من الاكتفاء الذاتى لا يخلو من علاقة مع "سوء نيته". كم من الخطب النارية، وكم من الاتهامات المبالغ فيها ضد الولايات المتحدة الأمريكية كانت نتيجة الفكر المطمئن وغير

المعترف به بأن "كل ذلك لا يؤدى إلى نتيجة"؟ لكن ذلك بالطبع مجرد وهم إضافى، وليس أقل خطورة، حين يستكمل مثلاً العزلة الدبلوماسية والمالية والأخلاقية لفرنسا فى الثلاثينيات.

يعجز علم السيمياء عن أن يحدد بدقة اللحظة الحرجة التى "يتكون فيها هذا" كما يقول رولان بارت، اللحظة التى يتكون فيها خطاب ما، اللحظة التى يستطيع فيها أن يستمرّ بفعل قوته الذاتية. على أن السؤال مع ذلك يبقى أساسيًا لتحليل ولفهم كل ظواهر الموافقة. (لأن الموافقة تتم دومًا على خطاب ما وعلى الحركة التى ينتشر بواسطتها، لا على فرد أو على "شخصية"، كما يريد أن يقنعنا بذلك الإعلام السياسى.) تثير نزعة معاداة أمريكا فى فرنسا موافقة واسعة بوصفها قصة، دون أن تصحب هذه الموافقة بالضرورة عداوة محسوسة: ومن هنا الاحتجاج الصادق لهذا الصديق الذى بعد أن استخدم خطابًا نمطيا فى النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا يدافع عن نفسه بإنكار كل شعور عدائى إزاء الأمريكان. إن شأن مثل هذا الخطاب هو التكرار. وقوته فى عناده. بوسعنا – ولا شك– أن نرسم منحنى "قممها" فى الحدةً، لكن المهم يجرى فى مكان آخر: فى التراتب البطىء للصور، والتعليقات، والمزحات، والنوادر، والمعتقدات، والمؤثرات. ولإلقاء الضوء على كل ذلك، لابد لنا أكثر من مجرد "استقصاءات الرأى" (المسماة على نحو ردىء مادامت لا "تحفر" فى وضع ما، وإنما "تصور" لحظة ما): يجب التنقيب، والحفر، وشق الدهاليز، وتحرير الطرق، ومتابعة مسالكها.

هيا بنا إذن وبلا تأخر، مادامت الطريق طويلة. ليس بهذه السرعة، ليس بهذه السرعة، كما يجيب بصوت واحد حرّاس المنهج وموظفو جمارك الأيديولوجية.

* * *

صرح سارتر فى عام ١٩٤٦ : "لست معاديًا لأمريكا على الإطلاق، ثم إننى لا أعرف ماذا تعنى هذه الكلمة " (٥) . كان من الممكن لمنطق هذه الإجابة أن ترضى لويس كارول وأكثر منه صانع القبعات المجنون (*). ويستمر المنطق ذاته فى توجيه خطاب التعمية المعاصر ضد مفهوم النزعة المعادية لأمريكا. والحق أن الخط قد ازداد شدة منذ سارتر. فالنزعة المعادية لأمريكا لم تكن فى نظره إلا كلمة غير مفهومة – أو مفهومة

(*) لويس كارول Lewis Carroll (١٨٣٢–١٨٩٨): عالم رياضيات ومنطق ومصور وكاتب إنجليزى. من مؤلفاته «حكايات أليس فى بلاد العجائب». أما صانع القبعات المجنون فهو أحد أبطال واحدة من هذه الحكايات. (المترجم)

خلال فترة تقتصر على تبرئة نفسه منها. أما اليوم فهى "كلمة زائدة لا يمكن اعتبار استخدامها بريئًا "كما يجب استئصالها، مكيدة دبرها «"محبو أمريكا" الحانقون» (٦)، مؤامرة دلالات أعدّها الطابور الخامس اليانكى. وراء هذه العبارة الفارغة من المعنى يعرّى سيرج حليمى فى صحيفة اللوموند ديبلوماتيك أفرادًا تحفل رءوسهم بالأفكار المسبقة، مكلفين "بإرهاب آخر المتمردين على نظام اجتماعى تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية مختبره". وعلى من قد يجد اللهجة تنطوى على شىء من الترهيب، يجدر أن نجيب أن هذا الملف فى اللوموند ديبلوماتيك يحمل عنوان "ملف من أجل الشفاء من التسمم". لا نخلط بين الحرمان من الحقوق والتخويف: إذا ما أريد تحريم هذه العبارة علينا، نزعة معاداة أمريكا، التى "تتضخم وتنتشر"؛ فذلك لخيرنا وضمن إطار مكافحة المخدرات.

"نزعة معاداة أمريكا" ؟ لا أعرف ذلك. يؤلف هذا النفى منذ سارتر مقدمة لا غنى عنها لكل عرض للخطاب المعادى لأمريكا. والمقال الذى يحمل عنوان "كلمة زائدة" مثالى فى هذا المجال: كل شىء فيه يعمل عمل المرآة، منذ الاتهام "بالتخويف" الذى يتم إدخاله من أجل تبرير الرقابة، حتى اتهام الخصم زورًا "بالتعليل الثنائى المحكم تمامًا" لتمويه مانوية الرؤية السياسية التى تنطوى على التشهير؛ فالاعتراض "اللفظى" لم يستخدم إلا لإطلاق الجدال. يمكننا إذن، كما يقال فى المحاكم، الدفع فى الأساس.

* * *

اعتراض آخر، ذو طابع معرفى أشدّ، يتقدم على النحو التالى: مادمنا قبلنا بوجود نزعة معاداة أمريكا، وقبلنا أن من الممكن التعرف على مظاهرها؛ فهل يحق لنا بسبب ذلك أن نجعل منها مفهومًا، أو مقولة تحليلية أو حتى مجرّد أداة وصفية ؟ لقد صارت العبارة مألوفة فى اللغة، و كل الناس يتفقون حول ذلك. صحيح أنّ الأمر يعوم على نحو ظاهر فى "عالم الكلمة"، بل من الممكن أيضًا أن يحدد عددًا من المواقف وضروبًا من السلوك. أما أن يُنصَّبَ مفهومًا، ألا يعنى ذلك إضفاء شرعية – خطأً– على فكرة وجود "جوهر" لأمريكا، يقف فى مواجهته المعادون لأمريكا ؟ هل يتوجب لتوضيح ظاهرة يصعب إنكارها ضمان جوهر لاتاريخى لأمريكا ؟

لا يسعنا الرد على هذا الاعتراض دون فحص سريع للعلاقة التى يفترضها أوليًا بين "النزعة الأمريكية" و "نزعة معاداة أمريكا".

تنطوى النزعة الأمريكية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى نهاية القرن التاسع عشر على مجموعة من "القيم" تعتبر مقوّمة للهوية القومية، وكذلك على موقف الذين

يتبنونها ويجهدون فى الملاءمة بين هويتهم الشخصية والمثال القومى. إن هذه العبارة التى جعلها تيودور روزفلت فى بداية القرن العشرين شعبية لا تنفصل عن مفاهيم مثل "أمريكى مائة بالمائة" - بالمعارضة مع " أمريكى مرتبط بالاتحاد" (الأمريكيون من أصل ألمانى أو الأمريكيون من أصل إيطالى المتمردون على الانصهار الوطنى)، القصد واضح. أما المضمون فيبقى غامضاً، كما أشارت إلى ذلك مارى فرانس توانيه: "تعنى أمريكا فضائل الشجاعة، والشرف، والعدالة، والحقيقة، والإخلاص، والقوة - أى الفضائل التى صنعت أمريكا [٧]." لقد مالت النزعة الأمريكية، وقد حققت القوة والنصر ولا سيما مع نجاحات أمريكا نفسها إلى أن تضم عدداً من ملامح "الحضارة": الفعالية، الإنتاجية، الحصول على الرفاه المادى. ودخل شعار النزعة الأمريكية آنئذ مع احتفاظه بلونه القومى لا بل المتعصب فى علاقة مع تعريف آخر من ضرب تحصيل الحاصل: الطريقة الأمريكية فى الحياة American way of lif، الذى يؤلف الجزء المادى منه، والذى يتمم من ناحية "العادات" ما تعرّفه النزعة الأمريكية من ناحية "الأخلاق". المهم هنا أن النزعة الأمريكية التى ولدت من الحاجة إلى توثيق عرى التماسك الوطنى غير المضمون من خلال الانضمام العقلى والعاطفى لكل مواطن إلى "فكرة عن أمريكا" واسعة الانتشار على قدر غموضها، لم تبلغ على الإطلاق مستوى العقيدة أو البرنامج السياسى المحدد.

تبدو النزعة الأمريكية باعتبارها تسمية نرجسية وشعاراً للاستخدام الداخلى غير قابلة للتصدير الخارجى؛ ذلك أنَّ فيض القوة الأمريكية يدفع بها حتى أوروبا. فالفرنسيون يكتشفونها فى الوقت الذى سيطر الاهتمام بالولايات المتحدة الأمريكية (بصورة خلافية) على الجميع، وذلك فى نهاية سنوات ١٩٢٠، لكن جهدهم فى منحها مضموناً أيديولوجيا أو سياسيا اصطدم بمقاومة المادة ذاتها؛ فالنزعة الأمريكية تعنى قبل كل شىء فخر أن يكون المرء أمريكياً. أما ما عدا ذلك فهو كيس يتسع لكل شىء. إن النزعة الأمريكية لدى تيودور روزفلت لا يمكن مطابقتها على النزعة الأمريكية لدى فرانكلين ديلانو روزفلت، كما أن العقيدة "الأمريكانية" لفورد ليست هى عقيدة أوائل مؤسسى القدر الواضح Manifest Destiny الأمريكى. وعلى نحو منطقى قام الفرنسيون الذين استحوذوا على المفهوم بدورهم بمنحه مضموناً سلبيا فى أغلب الأحوال، يعكس رؤيتهم الخاصة للولايات المتحدة الأمريكية. ويسجل ذلك على نحو صحيح دافيد ستروس الذى كرَّس كتاباً للنزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا سنة ١٩٢٠: تعنى "النزعة الأمريكية" فى ترجمتها الفرنسية "القيم الثقافية والمؤسسات التى يعتقد الفرنسيون أنها تؤلف جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الأمريكية"[٨]. سيجهد سارتر

وحده غداة الحرب العالمية الثانية فى ترجمة النزعة الأمريكية ثقافيا : لا بمنحها مضموناً لا تنطوى عليه، بل بتحليلها بوصفها المفتاح النفسى لآلية الاجتماع فى أمريكا(٩). محاولة شخصية جدا لم تؤثر فى شىء على مصير تعبيرٍ مكرسٍ على كل حال للقدح (١٠). وقد لخص ريجيس دوبريه جيداً وضع معنى الكلمة (التى يقلُّ من ثم استخدامها بالتدريج) فى كتاب نشره فى عام ١٩٩٢؛ فبعد أن قام بوضع قائمة طويلة بمضامينها (١١)، يخلص دوبريه إلى النتيجة التالية: "إن النزعة الأمريكية هى أمريكا مدفوعة نحو الظلام، بعد طرح كل إيجابيتها". ليست النزعة الأمريكية على الطريقة الفرنسية فى نهاية مسارها المتردد إلا سجلاً من عبارات نزعة معاداة أمريكا المكررة ضدّ أمريكا.

يمكننا الآن أن نعود إلى الاعتراض الأساسى الخاص بجعل أمريكا جوهراً والرد عليه. يقوم الخطأ هنا على افتراض أن " نزعة معاداة أمريكا antiaméricanisme مشتقة من النزعة الأمريكية américanisme. هذا النقيض المزيف لا يدين لها بشىء، لا تاريخيا، ولا منطقيا؛ فوجود النزعة المعادية لأمريكا فى فرنسا يسبق جوهر أمريكا على النحو الذى تظل فيه "النزعة الأمريكية" عاجزة عن الإمساك به.

لهذا سنكتب على امتداد هذا الكتاب عبارة نزعة معاداة أمريكا antiaméricanisme ككلمة واحدة(*) دون استخدام الشارة التى تربط بين قسميها anti - américanisme.

* * *

الهم الأخير : يتناول التحقيق المعلن عنه قرنين من الزمان؛ أليس من المزعج أن لا يكون عمر عبارة نزعة معاداة أمريكا كل هذه المدة ؟ هل يسعنا أن نتحدث عن أصول مفهوم غير مسمى ؟

يجب أن نبدأ بتوضيح الترتيب التاريخى. لقد دخلت الكلمة فى القواميس الفرنسية فى وقت متأخر(عام ١٩٦٨ فى *قاموس روبير الصغير* *le Petit Robert*)، لكننا نعلم أن القاموس هو دائرة تسجيل متأخرة. إن أول استخدام لها أمكن لعلماء المفردات أن يسجلوه يعود إلى عام ١٩٤٨؛ و صارت تؤلف اعتباراً من سنوات

(*) لا أرى كيف يمكن ترجمة هذه الكلمة الفرنسية المركبة بكلمة عربية واحدة! إن قصد المؤلف من جعل هذه الكلمة المركبة كلمة واحدة واضح، ولذلك أبقى على هذا المقطع فى الترجمة العربية رغم غياب دلالته باللغة العربية! (المترجم)

١٩٥٠جزءاً من اللغة السياسية الدارجة (١٢). وليس من قبيل المغامرة القول إن العبارة قد انتشرت كمقابل لعبارة نزعة معاداة السوفييت، ويبدو استيطانها فى قائمة المفردات نتيجة للحرب الباردة.

أما من حيث الأساس، فالسؤال يجد جوابه لدى أحد رواد تاريخ المفردات الثقافى، رينهارت كوزليك Reinhart Koselleck، حين يحذر من الصرامة النظرية الوهمية (أو من الاسمية الجديدة) التى تعلق على نحو دقيق انبعاث مفهوم أو مقولة فكرية على ظهور تسميتها. "ليس من الضرورى أن يتطابق تغير معنى كلمة ما ودلالتها مع استمرار وتغير البنى التى تعود إليها"، كما يكتب كوزليك؛ لأن "الكلمات التى دامت لا تؤلف فى حدّ ذاتها قرينة كافية على الوقائع المادية التى بقيت مطابقة لها و[...] على العكس، تجد الوقائع التى لا تتغير إلا بعد زمن طويل نفسها وقد عبرت عنها عبارات شديدة الاختلاف..."(١٣). الدعوة واضحة والطريق مفتوح. ومن التبسيط أن نقوم باستخدام إشارات علم المفردات لقصر حقل البحث على المفاهيم أو على ضروب السلوك. توجد دون أى شك فى فرنسا منذ نهاية القرن التاسع عشر نزعة معاداة أمريكا دون الكلمة التى تسميها. (وربما تم بناء هذه الكلمة على "اليانكية" (١٤)). والدرس الواجب استخلاصه من القواميس يوجد فى مكان آخر؛ فهى تذكرنا على نحو مفيد أن "نزعة معاداة أمريكا" antiaméricanisme هو الاسم الموصوف الوحيد"-anti" المركب فى فرنسا على اسم بلد، وأن تئول هذه الكلمة الغريبة إلى الظهور، وأن تفرض نفسها (وأن تبدو اليوم عسيرة على الطرد منها): هو ذا ما يدل فى ذاته على معاملة استثنائية، بل على معاملة ممتازة.

* * *

أصول النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا - ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى ذلك أولاً أن نزعة معاداة أمريكا ستعالج هنا بوصفها سفسطة طويلة، حرب كلمات لانهاية لها تخوضها فرنسا مع الولايات المتحدة الأمريكية، وسيتوجب تصويب منطقها الجدالى. سنقتصر إذن على الجانب الفظ من العلاقة الفرنسية الأمريكية؛ حيث توزع اللطمات القاسية وتوجه الضربات القذرة. وسننشر فى وضح النهار الغسيل الوسخ الذى لا يكف عن أن يُغسَل دون أن نعرف جيداً إذا كان غسله يتم عائليا أو بين **أجانب محترمين** *perfect strangers*(*)، لكننا سنتابع أيضاً هذا الخطاب المعادى لأمريكا فى

(*) بالإنجليزية فى النص.

مناطق أقل انحداراً، أى حيث يسيل بهدوء، دون هدير الشتم العنيف؛ حيث يوجد إجمالاً بصورة بدهية.

أفتح مذكرات بول كلوديل، وأقرأ ما كتبه فى واشنطن فى عام ١٩٣٣: "يلاحظ ألكسندر هاميلتون فى كتابه (الفيدرالى Fédéraliste) أنه كان يعزى للجو الأمريكى فى ذلك الوقت تأثير انحطاطى. "حتى الكلاب فى هذا البلد لم تعد تعوى". ويضيف كلوديل بين قوسين: "وهو أمر صحيح تماماً"[١٥]. سوى أن كل ذلك خطأ. أولاً، إن الكلاب تعوى، ثم إن هاميلتون لا "يلاحظ"، بل يفضح الأطروحة الانحطاطية بوصفها عبثاً: "ثمة رجال نعجب بهم باعتبارهم فلاسفة عميقين أضفوا دون مواربة على سكان [أوروبا] تفوقاً جسمانيا، وقرروا على نحو خطير أن كل الحيوانات، ومعها الجنس البشرى، تنحطّ فى أمريكا، وأنّ الكلاب ذاتها قد كفت عن العواء بعد أن تنفست هواءنا." ليس هاميلتون من يتكلم، وإنما كورنيليوس دو بوو الذى يرجعنا إليه فى الهامش[١٦]، من طبيعىّ عصر التنوير هذا إلى الشاعر سفير فرنسا، رغم مرور قرن ونصف من التكذيب وكلمات هاميلتون ذاته؛ فقد قاومت السلسلة بنجاح، تلك التى تربط أمريكا بخرافة الكلب المعدوم الصوت. فى هذا الصباح، وفى راديو فرنسا الإخبارية، بينما يعلق مالك مقهى فى تولوز على الحملة ضد الكحول يجيب بأنه إن كان يجب عدم الإفراط فى تناول العرق فإن الكوكا كولا أشد ضرراً للمعدة : " حاول وضع قطعة نقود من فئة العشرين قرشاً فى كأس كوكا كولا..." هذه الخرافة العلمية أقل قدماً؛ فهى تعود إلى حرب الكوكا كولا فى عام ١٩٤٩ - أى منذ نصف قرن مع ذلك !. (ويجب أن يعلق شخص آخر ولا شك لكى يدخل اليورو...). إن صاحب المقهى والسفير، كل على طريقته، يؤلفان السلسلة التى سأطلق عليها نزعة معاداة أمريكا، وأن يكون كل منهما - أو لا يكون - معادياً لأمريكا، فهو أمر لا أهمية له على الإطلاق.

إن نزعة معاداة أمريكا ليست أسطورة بالمعنى البارتى (نسبة إلى رولان بارت) للكلمة، باعتبارها ليست "لغة ثانية" تفرض نفسها بصورة ماكرة على أنّها لغة "مطبّعة". (إنّها بدون خداع بنيوى).

إنها ليست كذلك أو إنها ليست مجرّد هوى بمعنى "الأهواء الفرنسية" على النحو الذى وصفها به تيودور زيلدين.

هل هى أيديولوجية ؟ إن الوفرة الوافرة من تعاريف الأيديولوجية تعرقل الجواب هنا. أحد أكثر التعريفات انفتاحاً يقدم الأيديولوجية بوصفها "تكويناً مقاليا جداليا يعمل بفضله هوى ما على تحقيق قيمة ما من خلال ممارسة السلطة فى المجتمع" [١٧].

يناسب الجزء الأول من هذا التعريف نزعة معاداة أمريكا، لكن الجزء الثانى لا يناسبه؛ فالعلاقة بين نزعة معاداة أمريكا والسياسة تبدو أشد تعقيداً، مادامت نزعة معاداة أمريكا تتفق من جهة مع أشدّ الخطابات السياسية خصومة على الصعيد الأيديولوجى، كما أنها من جهة أخرى تنتشر غالبًا خارج كل مفكرة أو هدف سياسى يمكن التعرف عليه.

إذن، ماذا ؟

نجيب ببساطة: ***نزعة معاداة أمريكا هى خطاب***، إلا أنه يجب تخفيف كلمة كثيراً ما استخدمتها الفلسفة (بوصفها ترجمة للفظة لوجوس logos) والبنيوية (من كلود ليفى ستروس إلى ميشيل فوكو). الخطاب discours هو أولاً كما يشير إليه مصدره (discorrere) وكما تبرهن عليه استخدامات الكلمة حتى عصر النهضة، طريقة فى "الركض هنا وهناك". نزعة معاداة أمريكا خطاب مطلق العنان: لا لأنه مخترق بالمؤثرات و محرّز بالأمزجة، بل كذلك لأنه يتبع نظام المقالة لا نظام المبحث الأدبى أو البرهانى. (إنه لا يستجيب "لتعليمات": فليست هناك مؤامرة ضد أمريكا). منطقها هو منطق التراكم، والتجميع، وانزع لى هذا من هنا، و"مزيداً لو سمحت، شكراً" - وبإيجاز: دوران يرتفع منه مبدأ عدم التناقض. (لا يعيق نزعة معاداة أمريكا على الإطلاق أن توجه فى الوقت نفسه مأخذين كل منهما يصدُّ الآخر.) ومع ذلك فإنها ليست على الإطلاق من خلال هذه القفزات وهذه الوثبات "مجانية"، كما أنها ليست عبثية. وحده تعقيد إستراتيجياتها المتصالبة - والتى يتعين علينا تفكيكها- يضفى عليها المظهر الخادع لباقة من النزوات الفردية. النزوات هى هنا، لا نشكنّ فى ذلك، فهى التى تكسو الكلمات لحماً والجمل أعصاباً، لكن الخطاب المعادى لأمريكا يضعها موضع الاستخدام.

تصحب كلمة "خطاب" معها اسم فوكو، سيكون ميشيل فوكو الأول أو الأخير بالتعارض مع فوكو الذى جعل فى سنوات ١٩٧٠ من الخطاب تعبيراً عن الممارسات أو بديلاً عن السيطرة. إن الخطاب المعادى لأمريكا قائم، لكنه يبقى مستقلاً و"لا نقديا" - كما كان بارت يقول عن الخطابات غير المرتبطة بالسلطة. الأمر الذى لا يعنى أنها دون مكان أو رابط. فالأنتلجنسيا تنتجه بكثافة، كما أنه يصدر عنه؛ ففى مفردات استحضار الأرواح تكون نزعة معاداة أمريكا طبقة الهيولى البرانية للمثقفين.

هذا يعنى القول أيضًا كل ما لا ينطوى عليه هذا الكتاب؛ فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة حاضرة دومًا فإنه ليس كتابًا عن الولايات المتحدة، و لا هو تاريخ

جدالى للعلاقات الفرنسية الأمريكية وقد أعيد النظر فيها فى الظلام، و لا هو سبر إثنولوجى لضروب سوء التفاهم بين الثقافات "فى الحياة اليومية" (١٨)، كما أنه ليس كشفًا حسب الموضوعات بدوافع نزعة معاداة أمريكا التى تنتشر اليوم فى فرنسا، ولا إحصاءً "للصور المتصالبة" التى ستعكس البلدين، والتى يتوجب جردها لتقديم بيان "متوازن". لقد تم تناول نزعة معاداة أمريكا حتى الآن بوجه خاص بوصفها أحد جوانب علاقة ملتبسة، وغامضة، ومتناقضة: وجه آخر لميدالية نقبل فى الوقت نفسه أنه كان مرئيًا أكثر من الوجه الأول. ستختلف الطريقة هنا اختلافًا جذريا : بعيداً عن زعم شمولية مستحيلة، ولا موازنة وهمية بين الأنصار والمناهضين، سنتناول نزعة معاداة أمريكا بوصفها كتلة دلالية منضدة تاريخيا من الممكن بل من المفضل عزلها من أجل تحليلها. لا تتدخل فى الصفحات التالية إذن الصور المناصرة لأمريكا، واللحظات (الوجيزة) من الفرح المشترك بين الفرنسيين والأمريكان إلا بقدر ما يجب أن تتدخل لإضاءة هذا الانعطاف أو هذا النقصان الجديد فى الخطاب المعادى لأمريكا. كثرة من قراء أمريكا "الجيدين"، وأشد كتاب أساطيرها كرمًا ستودع على هامش العرض أو ستعالج بطريقة غير مباشرة (بسبب الأزمات التى يؤلفون موضوعها أو الهجمات المضادة المعادية لأمريكا التى استثاروها). يترجم هذا الحضور المتواضع خياراً أساسيًا فى الطريقة، لا جهداً ماكرًا لفرض خافضٍ لأصوات محبى أمريكا.

ما سيلى يودُّ أن يكون إذن أصول نزعة معاداة أمريكا منظوراً إليها بوصفها "خطابًا"، – الأصول التى سيخرس فيها التاريخ وعلم الدلالات نزاعاتهما المجانية: التاريخ إذ يقبل أن " قصا " مزيفًا يمكن أن يكون واقعة حقيقية (١٩)، وعلم الدلالات إذ يتحمل عبء الدنس الذى كان بارت قد دعاه إليه فى "الدرس"، وهو يصير أخيراً "هذا العمل الذى يتلقى دنس اللغة، ونفاية الألسنية، والفساد المباشر للرسالة: لا أقل من الرغبات، والمخاوف، والألغام، والتهديدات..."(٢٠).

هوامش

(١) M. Winock, *entretien avec Marion Van Renterghem*, Le Monde, 25-26 novembre 2001.

(٢) إننى أستخدم هذه الأمثلة من الكتاب الجماعى المنشور فى تلك الحقبة من قبل :

D. Lacorne, J. Rupnik, M.-F. Toinet, *L'Amérique dans les têtes. Un siècle de fascinations et d'aversions* (Hachette, 1986)

والذى يبقى أحد الكتب القيمة فى هذا الموضوع. انظر على التتالى المدخل تحت عنوان :

«*La France saisie par l'Amérique* » de D. Lacorne et J. Rupnik (p. 38)

ومساهمة :

D. Pinto, " La conversion de l'intelligentsia" (PP. 124-136).

(٣) العبارة هى لأندريه كاسبى André Kaspi الذى كانت مساهمته تختتم الكتاب المذكور أنفًا، والذى يسجل فى عام ١٩٩٩ أن تسجيل وفاة النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا الذى قام به عدد من المشاركين كانت مبكرة. انظر :

Mal connu, mal aimés, mal compris. Les Etats-Unis aujourd'hui, Plon, 1999, P. 31.

(٤) ليبراسيون، ١٠ و ١١ أبريل ١٩٩٩.

(٥) J.-P. Sartre, " *A letter from M. Sartre*" (en date du 18 novembre 1946), New York Herald Tribune, 20 novembre 1946, P. 2 ; traduit et cité par M. Contat et M. Rybalka, Les Ecrits de Sartre, Paris, Gallimard, 1970, P. 137.

يرد الفيلسوف على الذين اتهموه بإعطاء صورة تخلو من الإطراء عن أمريكا (البيضاء) فى مسرحيته " البغى الفاضلة ".

(٦) S. Halimi, "Un mot de trop" et "les "philo-américains" saisis par la rage, Le Monde diplomatique, Mai 2000, P. 10 ;

يشير العنوان الثانى " محبو أمريكا الحانقون " إلى مقالة سارتر الشهيرة التى احتج فيها على إعدام روزنبرج، والتى تحمل عنوان "الحيوانات الحانقة " «Les animaux saisis par la rage».

والحانقون هم حسب الترتيب :

Bernard بعد وفاته François Furet وزير الدفاع أنئذ Michel Wieviorka, Alain Richard, Henri Lévy, Pascal Bruckner, Jean François Revel et Guy Sorman.

(٧) M.-F. Toinet, "*L'antiaméricanisme existe-t-il?*", L'Amérique dans les têtes..., p.269

(٨) D. Strauss, *Menace in the West. The Rise of Anti-Americanism in Modern Times,* Westport,Connecticut & London, Greenwood Press, 1978, P. 6 .

يعرف دافيد ستروس النزعة الأمريكية بوصفها " مجموعة من القيم والممارسات والمؤسسات ذات الأصل الأمريكي، لكنها تحمل طابع استمرارية أكبر من استمرارية السياسات الرسمية " (المرجع السابق). إن معتنقى النزعة المعادية لأمريكا من الأمريكيين ينهلون باستمرار من التقليد الأمريكى ذاته الحجج والأسلحة ضد النسخة الرسمية من النزعة الأمريكية.

(٩) سيكون سارتر الوحيد الذى قام بجهد من أجل منح " النزعة الأمريكية " معنى غير إسقاطى فى الولايات المتحدة. إن سؤال " هل أنا أمريكى بما فيه الكفاية ؟" هو السؤال الذى تطرحه- تفرضه أمريكا على كل أمريكى بوجه خاص ، باعتبار أن " رؤية الجار " قد صار ت عامل تطبيع لمجتمع مهووس بالتقيد بالأعراف. إنّ النزعة الأمريكية فى نظر سارتر هى قضية محض أمريكية - فى الوقت نفسه الذى هى فيه ظاهرة سارترية نمطية.

(١٠) وفى الوقت نفسه صارت النزعة الأمريكية فى الصحافة الشيوعية مفهومًا يستخدم للرفض دون أى مضمون متميِّز. وأشد الأمثلة دلالة ما جاء فى مجلة (*La Nouvelle Critique, N*º *3,* févrer 1949, P. 15) ذلك أن "الكتاب الفرنسيين الذين ينحطون إلى درجة جعل مبدعاتهم بوصفها ترجمات أمريكية " يتهمون بأنهم يقلدون " النزعة الأمريكية " فى أشد ما تنطوى عليه من دناءة ".

(١١) " [..]نزعة فى استنفاد القوى دون نهاية أو راحة، هيمنة السلع الكاملة والاعتقاد بحياد التقنية، اختفاء المواطن وراء المستهلك، فقدان الحساسية أمام المآساوى، الخلط بين العام والخاص، عبادة النجاح والمال، ضرورة تقليص الحياة البشرية إلى مجموعة من النشاطات المفيدة ماديا،...إلخ."

R. Debray, *Contretemps. Eloges des idéaux perdus*, Paris, Gallimard, 1992, P.103.

تتجلى جدة ريجيس دوبريه فى أنه يعترف تمام الاعتراف بالطبيعة النمطية لنزعة معاداة أمريكا التى يتبناها.

(١٢) فى مقالة فى مجلة Esprit يندّد " بنزعة جديدة فى معاداة أمريكا تبدو جديدة سواء بحججها أو بمفرداتها بنزعة معاداة أمريكا فى سنوات ١٩٤٢-١٩٤٤ " : C. Marker, *Esprit n*º *7,* juil-let 1948. وهو مرجع أعطاه :

Pierre Enckell, *Donations et Documents lexicographiques*, deuxième série, nº 20 (1982). وحتى مجلة La Nouvelle Critique وهى المجلة الثقافية للحزب الشيوعى الفرنسى، فإنها تستخدمها - والحق يقال - بين قوسين (" إنسان لا يمكن الشك بتبنيه " لنزعة معاداة أمريكا " كالسيد إتيين جيلسون "، العدد ١٢، يناير ١٩٥٠).

(١٣) Reinhart Koselleck, *Le Futur passé. Contribution à la sémantique des temps historiques*, tr. Par J. et M.-Cl. Hoock, Paris, Editions de l'Ecole des Hautes Etudes

en Sciences Sociales, 1990 [publication en langue originale : 1979], P. 114.

(١٤) تقترح M.-F. Toinet في المقال المذكور آنفًا (الهامش رقم ٧) أن عبارة نزعة معاداة أمريكا قد " استخدمت في القرن التاسع عشر"، لكنها لا تقدم للأسف أية مراجع، لكنني من جهتي لم أصادف هذه العبارة على الإطلاق بين ١٨٦٠ و ١٩٠٠ حول أمريكا، وهو ما يشير على صعيد عدة آلاف من الصفحات المعادية لأمريكا إلى ندرتها الشديدة على الأقل.

(١٥) P. Claudel, *Journal II*, 18 janvier 1933, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, 1969, P. 5.

(١٦) A. Hamilton, The Federalist, n° 11, 23 novembre 1787 ; éd. Par E.M. Earle, New York, 1941, P. 69. La note indique: »Recherches Philosophiques sur les Américains".

(١٧) J. Baechler, *Qu'est-ce que l'idéologie* ? , Paris, Idées-Gallimard, 1976, P. 60.

(١٨) موضوع عالجه بتوفيق كبير كتاب: Raymonde Caroll, *Evidences invisibles. Américains et Français au quotidien*, Paris, Editions du Seuil, 1987.

(١٩) انظر : J.-N. Jeanneney (sous la dir.de), *Une idée fausse est un fait vrai. Les stéréotypes nationaux en Europe*, Paris, Editions Odile Jacob, 2000

(٢٠) R. Barthes, *Leçon*, Seuil, 1978, P. 33 ; Ouevres Complètes, Edition établie par E.Marty, Editions du Seuil, 1994, t. III, P. 809.

تمهيد

هذا "العالم المنكوب"

معاداة عصر التنوير لأمريكا

"ها نحن يا واشنطن، ها نحن يا لافاييت. تلك، بإيجاز، الأسطورة الهوليودية للولايات المتحدة الأمريكية..." كان لابد من جرأة إتيامبل Etiemble الجدالية ليجعل من القصة المؤسَّسة للعلاقات الفرنسية-الأمريكية "أسطورة هوليودية"(١). من الواضح أن البادرة الشخصية والجماعية للافاييت ورفاقه فى السلاح إنما بدأت تُكتب بعيداً عن الأستوديوهات الكاليفورنية وفى قلب باريس الثورية. فى باريس أيضًا، وفى عام ١٨٣٠، إنما شاركت الأسطورة اللافاييتية والأمريكية بإخراج ثورة غامضة ستصادر عما قريب. واستمر الأمر على هذا النحو حتى إعادة التنشيط المحموم "للصداقة الخالدة" الفرنسية الأمريكية فى عام ١٩١٥، فى فرنسا الراغبة فى جذب أمريكا إلى الحرب. ويتوجب علينا أن نقول على عكس إتيامبل: "ها نحن يا واشنطن، ها نحن يا لافاييت. أى، بإيجاز، الأسطورة الفرنسية - الجمهورية عن الولايات المتحدة الأمريكية...".

تتعدد وظائف هذه الأسطورة على الأقل بقدر ما تتعدد تحولاتها، لكن تأثيرها الأعم تجلى فى مصادرتها ولحسابها تاريخ أوائل العلاقات بين فرنسا والولايات المتحدة. كان بارت يقول إن الأسطورة هى كلام، وهى هنا كلام جاء ليغطى ضروباً أخرى من الكلام؛ فقبل أن تشجع عدداً من "الحكايات الكبرى" (الثورة، النزعة الجمهورية، الحلف الفرنسى - الأمريكى) عملت على أن تُنسى قصصٌ أخرى. فقد أوحت لمعاصرى لافاييت أن ينسوا الصور غير اللبقة عن أمريكا المتراكمة فى فرنسا خلال الثلاثين السنة السابقة؛ إذ اقترحت السماح بالدخول فى تاريخ أخوى مجيد لقارة كانت حتى ذلك الحين محصورة ضمن تاريخ مفجع. أما بالنسبة لأولئك الذين سيستولون عليه بعد ذلك بزمن طويل، فى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين، فإنّها تعدهم أن تحجب مرارات تضامن خائب وحلف بلا مستقبل. وإذ تقوم بتوجيه الإضاءة كلها على عشر سنوات مرحة، فإن رمز لافاييت يستخدم فى البداية كـ"مخبأ" لنصف قرن من التشهير بأمريكا، ويستخدم فى الخاتمة لنهاية قرن تنهمك خلالها

فرنسا وأمريكا بعد خمسة عشر عاماً من انتصارهما المشترك فى "الانشقاق الأكبر" وتوجه كل منهما السلاح ضد الأخرى.

عصر التنوير ضد أمريكا

ليس للنزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا تاريخًا فحسب، بل لها ما قبل تاريخ – مجهول، ومنسى، ومدفون تحت طبقات متتالية من التصور الجماعى. يحتل ما قبل التاريخ هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر. إنه يسبق انبعاث الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها أمة مستقلة، ويمثل الطبقة الأولى فى ترسب بطىء. إنها القارة بكاملها التى تهان خلال هذه الدعوى الغريبة التى تقيمها أوروبا ضدها، والتى أطلق عليها قديمًا أنطونيلو جربى **Antonello Gerbi** "خصومة العالم الجديد"(٢)، لكن الولايات المتحدة الوليدة هى التى سترث هذه الخصومة، وجيفرسون شخصيًا هو من سينزع القفاز(*).

هذه "الخصومة" التى بدأت حوالى عام ١٧٥٠، بلغت ذروتها فى سنوات (١٧٧٠ – ١٧٨٠). لقد استحالت آنئذ جدالاً فرنسيًا أمريكيًا. وعلى أنهم حلفاء فى معارك حرب الاستقلال؛ فقد كان الفرنسيون والأمريكيون يتواجهون بمهارة حول نسبة الرطوبة فى فرجينيا، ومحتوى الأرض من النيترات فى بنسلفانيا، ومحصول الحنطة ونسبة خصوبة المستوطنين؛ لأن هذه الخصومة أقرب إلى أن تكون دعوى تقام بصورة علمية ضد العالم الجديد من قبل علماء وفلاسفة العالم القديم. والرهان ليس هزيلاً؛ فالمقصود معرفة ما إذا كانت هذه الأرض ستفى بوعودها أم إذا كانت الطبيعة، على العكس، "قد أخطأت فى النصف الآخر من الكرة الأرضية بأكمله"(٣). المقصود إعادة النظر بالصور المفرطة فى سذاجتها أو المفرطة فى تقواها، والتى روجَ لها خلال آخر نصف قرن بوجه خاص المدافعون عن أمريكا. والمقصود هو بيان أنها فى الواقع قارة مخيبة، وتلك إجمالاً حملة صليبية ضد كذبة عبادة أمريكا التى تبدأ فى نصفها اعتراضًا علميًا وفى نصفها الثانى حرب صور. وفى متابعة هذا الهدف، سيعمل العلماء والفلاسفة و"الأدباء" بدأب مدهش وحميّة مفاجئة. ويمكن لهذا التمهيد أن يحمل كذلك عنوان: عصر التشهير المحيّر.

تعود المفاجأة الأولى إلى أصل هذه الخطابات؛ فخلافًا لكل التوقعات، وعلى

(*) أى من سيبدأ المبارزة. (المترجم)

العكس على كل حال من كل الكليشيهات التي تربط في القرن الثامن عشر العالم الجديد والأفكار الجديدة، ولدت هذه النزعة في معاداة أمريكا، وازدهرت في معسكر الفلسفة؛ فهي ليست معاصرة لعصر التنوير في قمة إشعاعه فحسب، بل لقد صنعت وأذيعت على أيدي رجال لاشك في مشاركتهم في برنامج "الروح الفلسفية" وتقدمها. واعتباراً من المركز الباريسي، سيمتد الشجار عما قريب حتى أوروبا بكاملها لكي ينعكس في نهاية القرن في الولايات المتحدة. أما مسببوه فليسوا هامشيين، أو منعزلين، ولا نفوساً آلت إلى الحزن بسبب شيء من الغيظ الخاص من أمريكا. إنهم رجال من مثل بوفون **Buffon** أو فولتير **Voltaire** أو رينال **Raynal** وآخرون ممن هم أقل شهرة اليوم، لكنهم كانوا ذوي شهرة في زمانهم شأن كورنيليوس دو بوو **Cornelius De Pauw** ساروا على هديهم. لقد أخذوا جميعاً على عاتقهم مهمة إخطار أوروبا العمياء أو المخدوعة، عارضين عيوب العالم الجديد. "إذا كان جهد الفلسفة هو الذي سمح باكتشاف أمريكا" كما كتب فولتير في كتابه "مقال في الأخلاق **Essai sur les mœurs**"[٤] بعد قرنين ونصف من كريستوفر كولومبوس، فإنَّه بجهد الفلسفة أيضاً إنما تم اكتشاف أمريكا من جديد أو بالأحرى أعيدت زيارتها، بين الخيبة والاشمئزاز.

الملمح الثاني: تعتبر هذه النزعة في معاداة أمريكا نفسها بتصميم علمية بل وبصورة أشد دقة "طبيعانية". ولم تصبح سياسية وأخلاقية إلا بعد لأي، أي في مرحلة ثانية منطقيا وتاريخيا؛ إذ لم يتم انتقال مركز الثقل في النزاعات الأمريكية نحو الفلسفة السياسية إلا بعد عام ١٧٨٠، هذا دون أن تخفَّ شراسة الجدال الطبيعاني. ولقد احتد الجدال على العكس مع دخول حلبة النزاع هجَّائين أمريكيين مصممين على الانتقام بأنفسهم من "النمائم" الفرنسية. وسنراهم آنئذ وعلى رأسهم جفرسون مهمومين بإثبات جودة طبيعة بلادهم بقدر الدفاع عن مؤسساتهم السياسية. اعتمد هذا الخطاب المعادي لأمريكا حتى في تحولاته المتأخرة والمسيَّسة، على المعارف التي جمعها "التاريخ الطبيعي": من الجيولوجيا إلى علم الحيوان والنبات وصولاً إلى الأنثروبولوجيا. وكان بوفون المحرّك والضمان، وسيقف مجموع خصوم أمريكا بعده في ظلِّ هذا "العلم الطبيعي الذي لن نبتعد عنه أبداً إلا آسفين"، كما يقول كورنيليوس دو بوو[٥]. إنه يقدم الذخيرة، بل وكذلك القاعدة الخلفية وعند الحاجة إلى المعسكر المحصّن. ويضيف دو بوو: "عندما نهاجم كتابًا كتب حول علم ما فإن من الواجب استخدام الحجج المستقاة من هذا العلم وليس من غيره"[٦]. ولما كانا قد تحصنا على نحو متين على هذه الأرضية فإن دو بوو شأن بوفون ينتظران باستعداد كامل أبطال أمريكا. فتاريخهما الطبيعي "حديث": إنه يقوم على التعليل أكثر من قيامه على الوصف أو كما

هو الأمر لدى بوفون، الذى يجعل من الوصف ذاته برهانًا. ليس من الضرورى فى نظر هؤلاء الطبيعانيين الذين لم يعبر أحد منهم المحيط الأطلسى وصف الطبيعة الأمريكية بالتفصيل من أجل رفضها بمجملها؛ فعلم الحيوان وعلم النبات مكلفان لا بجرد ملون "للمنتجات المحلية"، بل باستخلاص الخصائص الطبيعية لأمريكا نفسها من هذه الكثرة. وأكثرها تميزًا سيكون – ويا لعجبنا – "حقارة" منتجاتها. بوصفها رد فعل على التألق اللامتناهى للقصص السابقة، قُلصت الطبيعة الأمريكية إلى جدول قصير من العناصر: البرودة (حتى فى خط الاستواء، اشتهرت الأرض بأنها باردة على عمق قليل...)، والرطوبة، والملوحة. كذلك فإن الركام الهائل من الحيوان الغريب يُرَدُّ إلى بعض الأرقام: الوزن؟ القامة؟ العلامات المميزة؟ يراد على وجه الخصوص أن تؤخذ مقاسات حيوانات العالم الجديد هذه؛ إذ ما إن توزن ويحكم عليها حتى تشهد ضد أرض مغذية رديئة.

الملمح الثالث: يتم هذا النقد العلمى لرذائل القارة على حساب تنوع صورها؛ فالشجار يتناول العالم الجديد الذى أعيد توحيده، وهو فى حد ذاته أمر جديد. تكدس أوصاف أمريكا، منذ القصص الأولى عن اكتشافها وحتى التقارير الأخيرة لمبشرين من أمثال لافيتو وشارلفوا، لوحات شديدة الاختلاف. فمن مملكة الإنكا إلى أمم الشمال الضالة، هناك لوحة مرصعة هائلة من ضروب البيئة، ومن الأنماط الجسمية، ومن العادات. وباعتبارها أراضى تناقضات عنيفة، لم تكن "بلاد الهند الغربية" تبدو قابلة للتعميم، كما كان سكانها يبدون للمراقبين – حتى من كان يعتبرهم ذوى أصل مشترك – مختلفين اختلاف بيئات حياتهم. غرابة الأمكنة اللا متناهية، تفرقُ البشر، تعفرُ العادات: تلك هى الرؤية الأوروبية لأمريكا ما بعد كريستوف كولومب. إنه إذن تغيير هائل يدخل مع هذه المدونات التى تلحّ، دون أن تتخلى عن كل ذكر للخصائص المثيرة – التى يحتفظ بأكثرها إزعاجًا، على تجانس القارّة. تظهر أمريكا على هذا النحو، وللمرة الأولى، وبأقلام خصومها أنفسهم، موحدة وفى آن واحد كقارة (من باتاغونيا Patagonie إلى لابرادور Labrador وكجزر الأنتيل Antilles والكراييب Caraïbes التى تحتل مقامًا ممتازًا). وبعد أن كان قديمًا حافلاً بالأسرار وبالتناقضات صار العالم الجديد من أجل حاجات الجدال القائم ضدّه مجموعة متصلة يتغلب فيها المتشابه على المختلف، والمتسق على المتنافر. ضمن هذا المجموع الضخم، كانت "المستوطنات البريطانية" أى الولايات المتحدة القادمة، تتعثر فى ظهورها على السطح؛ فقد كانت لا تزال فى عام ١٧٥٠ غارقة كليا ضمن الكتلة. ومن مائتى مؤلِّف استشهد بهم بوصفهم مراجع مختصة بأمريكا فى الأنسيكلوبيديا، يسجل دوران

إشفريا Durand Echeverria أن ثمانية منهم فقط تحدثوا عن المستعمرات البريطانية بوصفها كذلك ("بوجه خاص specifically")(٧).

الملمح الرابع والأخير: تعتبر نزعة معاداة أمريكا لدى رجال عصر التنوير هؤلاء نزعة معاداة للاستعمار. فالحطّ من قيمة البلد، والقدح فى سكانها ما هما إلا بعض الوسائل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بردع الاستعمار عنها. يقول دو بوو: "فلندع هؤلاء المتوحشين يجترون حياتهم فى سلام. ولنأسف إن كانت آلامهم تتجاوز آلامنا وإذا كنا لا نستطيع الإسهام فى إسعادهم، فلا نزيدنّ من بؤسهم"(٨). فأمريكا التى أرهقتها الطبيعة دمرها الفتح. إنها مقبرة واسعة للبشر واللغات والعادات، ومسرح منهار "لإبادة" تمَّ إنجازها. لم يكن خصومها أنفسهم بأى حال عديمى الإحساس بهذا البعد المأساوى للمصير الأمريكى، بل على العكس تمامًا: فكل من دو بوو وريْنال (أو ديدرو تحت اسم رينال) يعدُّ من أشد من أدان الجرائم الأوروبية، لكن كراهيتهم للجلادين لا تدفعهم إلى تمجيد الضحايا. ولا توحى حضارات العالم الجديد المدمرة لهم إلا بالأسف الخالى من معرفة الآخر؛ فالمهم بالنسبة لكورنيليوس دو بوو الذى يعتنق فى ذلك سياسة معلمه فريديريك الثانى المناهض لكل نزيف سكانى لصالح أمريكا، والجوهرى فى نظر محررى كتاب *تاريخ الهندين* *L'Histoire des Deux Indes* الذين ينسخون مونتسكيو هو إبعاد مواطنيهم عن الشواطئ وتثبيط عزمهم عن "العبور". حملة صليبية ذات بعد فلسفى مزدوج إذن، مادام الهدف منها توفير السكان الأصليين، وفى الوقت ذاته تلافى نزيف أبناء أوروبا، لكنها مموّهة فى قانون طبيعى: "إنه قانون البيئة الذى يفرض على كل شعب وعلى كل جنس حى ونباتى أن ينمو، وأن يموت فى بلده الأصلى"(٩).

لحظة فاصلة إذن، فقد تلا الرسوم الملونة المنوعة التى خلّفها المكتشفون، والزخارف المنمنمة على أيدى الرحالة، واللوحات السلالية التى رسمها المبشرون بدقة، إخراجٌ ضخمٌ للقارة ككتلةٍ واحدة. وكانت خرائط نصف الكرة الأرضية لا تزال مبيضة بأراض مجهولة حين فرضت نفسها صورة ملتحمة لأمريكا؛ فهذه ***الأراضى المجهولة*** ***terrae incognitae*** التى كانت مأهولة قديمًا بمخلوقات غريبة حسب نزوات رسامى الخرائط، كما لو كان يجب تأثيث انتظار مكتشفاتهم بالأحلام، لم تعد الآن إلا أراضىَ "غير مرتادة"، وفضاءات مؤجلة: نواقص مؤقتة لعالم تم تجميعه وتوحيده تحت أنظار عالم الطبيعة والفيلسوف.

ترسم نزعة معاداة أمريكا المبكرة العالم الجديد إذن كما لو كان عالمًا واحدًا، لكن هذا الرسم ليس منتظمًا فحسب، بل إن ألوانه كئيبة؛ إذ يستبدل بإشعاع الموزاييك لوحة جدارية فاترة – صورة رمادية لأمريكا.

ماذا عندهم من مآخذ على العالم الجديد هؤلاء الخصوم المفاجئون الذين ينهضون ليقولوا خيبتهم، ويصرخون باشمئزازهم أو يقذفون لعنتهم ضد قارة بأكملها، ضد حيوانها ونباتها وكيفما اتفق ضد سكانها الأصليين ومستعمريها ؟ وأية ذبابة أو أى رتيلاء رهيبة شبيهة بالعناكب التى أسكنوها بأريحية فى القارة الأمريكية لدغت كل رجال عصر التنوير هؤلاء حتى يغضبوا هذا الغضب ؟ أول مآخذ على هذا العالم "الجديد" هو على وجه الدقة أنه جديد بوفرة، والصورة السلبية عن "الشباب" الأمريكى تبدأ هنا، بين علماء الطبيعة، لم يكن ذلك فى نظرهم إطراء.

علينا هنا أن نعود إلى عصر الطوفان؛ فمسألة عمر العالم هى إحدى كبرى سجالات القرن الثامن عشر التى كانت تنطوى على نتائج دينية و"فلسفية" خطيرة. وفكرة الطوفان التى نقدها المفكرون الأحرار قد استعادت اعتبارها، وقد عوّم قصة نوح من جديد إذا صح هذا التعبير أكثر الحلفاء غرابة: علماء الجيولوجيا وأوائل "مؤرخى الأديان". نيكولا أنطوان بولانجيه Nicola-Antoine Boulanger هو هذا وذاك. كان مهندس جسور وطرقات، وبهذه الصفة كان يعمل على شق الطرق فى منطقة التورين فى فرنسا؛ حيث كشف الرمل المحارى لبصيرة ريومور Réaumur (*)وجود "القواقع" الشهيرة - متحجراتنا - التى تبرهن على أن حديقة فرنسا كانت زمنًا طويلاً حديقة مغمورة. هذا الكيميائى وعالم الأساطير "المقارن" الملحد كان من الذين يقولون لا للتوراة ونعم للطوفان. لا لتسلسل الحوادث التوراتى ولمغامرات السفينة السماوية. نعم للواقع المادى لطوفان عام، تعزز آثاره المادية ("القواقع") آثار ثقافية ودينية. إذا كانت كل أديان العالم تحدثت عن طوفان الكرة الأرضية؛ فلأنها كانت جميعًا فى نظر بولانجيه آثار الإرهاب الوهمى الموحى به آنئذ للبشر. تعيد إعادة الاعتبار للطوفان صياغة التساؤلات حول عمر الإنسانية؛ لأن السؤال سيتناول من الآن فصاعداً معرفة ما إذا كانت الإنسانية قد وجدت قبل الطوفان، واستطاعت البقاء بعده بعد أن تضاءلت تضاؤلاً شديداً - تلك هى أطروحة بولانجيه، أو ما إذا كانت الإنسانية على العكس تعود إلى ما بعد الطوفان، وما إذا كانت قد ولدت من الجزر التدريجى للغمر العام، كما يعرض ذلك فى عام ١٧٤٨ بنوا دو مابيه Benoît de Maillet فى كتابه ***تيلياميد Telli-amed*** يتطابق عمر الشعوب ضمن هذا النظام الثانى مع عمر الأرض التى يسكنونها؛

(*) عالم فيزياء وطبيعة فرنسى (١٦٨٣- ١٧٥٧)، من بين اهتماماته العديدة دراساته عن الحيوانات عديمة الفقار. (المترجم)

فالحضارات القديمة تتطابق والأراضى التى طفت منذ زمن طويل، أما الأراضى التى جفت منذ زمن قريب فتتطابق مع شعوب جديدة تبدو كأنها سقطت مع آخر الأمطار. ستكون أمريكا موضع فحص حذر فى ضوء فرضيات مختلفة.

يسود الإجماع فى الحقيقة على "شباب" الشعوب الأمريكية. يتفق فى ذلك علماء الطبيعة والفلاسفة؛ فهذه الشعوب تقدم مشهد عدم النضج الفيزيولوجى والعقلى، كما أن مؤسساتهم لا تزال فى بداياتها أو أنها غير موجودة أصلاً، تلك هى "البداهة" الأنثروبولوجية التى يتوجب على علم الجيولوجيا أن يشرحها، وسيقوم بذلك طواعية وبكل الطرق الممكنة.

الإمكانية الأولى: تكونت القارة الأمريكية فى وقت متأخر بالنسبة للعالم القديم[١٠]. وسكانها الذين يفترضون أصليين هم كذلك حديثو العهد. الإمكانية الثانية: عمر الأرض فى كل مكان هو نفسه، لكن أمريكا مرت بـ"انقلاب" فى حقبة أكثر حداثة من القارات الأخرى؛ فهى تتمتع إذن بالمقارنة معها بشباب نسبى، يحسب اعتباراً من "طوفانات" زائحة زمنيا - مع النتيجة ذاتها بالنسبة لشباب سكانها. الإمكانية الثالثة (وقد تبناها دو بوو): حدث الطوفان فى كل القارات بصورة متزامنة، لكن حظوظ البقاء لم تكن متساوية. لم يستطع السكان فى أمريكا البقاء على قيد الحياة على "قمم جبالهم العقيمة والقاحلة بقدر ارتفاعها"، والتى "لا يسعها إنتاج ما فيه الكفاية من النباتات الغذائية لتغذى العائلات التى لجأت إليها مع قطعانها". فى هذا السيناريو الأخير، كان الأمريكيون بشراً قدماء كالآخرين، لكنهم لم يتمكنوا من البقاء بعد الكارثة التى استطاع (التارتار Tartares مثلاً) تحملها؛ لأن جبالهم كانت عبارة عن مجرد "تحدبات"[١١]. ولما لم تكن لأمريكيى ما قبل الطوفان شأنهم "جبال مسطحة"، فإنَّ سكان أمريكا الحاليين شعوب جديدة، يعود عمرها إلى ما بعد الطوفان. تنتمى هذه الصور الافتراضية الثلاث إلى "أنساق" متنافرة فيما بينها، لكن المهم أنَّها تؤدى إلى النتيجة نفسها: تعليل طفولة الإنسانية الأمريكية.

لكن هذا ليس كل شىء؛ لأن الطوفان الأمريكى، سواء أكان قد حدث فى وقت متأخر، أم لأسباب أخرى يتوجب توضيحها، لا يزال حاضراً. إنه يضفى على القارة طابعها الأكثر عمومية والأكثر ضرراً: الرطوبة. أمريكا جديدة ترتسم، كتلك التى نسيناها قليلاً، منذ حكايات أوائل المكتشفين[١٢]. إنها مساحة شاسعة كئيبة، أقل عدائيةً وأشد تنفيراً، أقل رهبةً وأكثر حزناً. فى أمريكا هذه، تنطفئ الألوان، وتتلاشى الحدود، كما تضيع خطوط كل شىء فى الآفاق الضبابية: المحيط، والأراضى، والأهوار،

كل شيء يختلط ويرتج. نبات غامض يتسلق أو يتعانق ضمن أجمة غامضة المعالم، والحيوانات ذاتها مريبة بلا سحنة محددة: الكلاب لم تعد تعوى، والنمر جبان، والبشر بلهاء. يبيِّن لنا بوفون هذه المساحات الشاسعة بوصفها مكان عبور أكثر منها مكان إقامة "أمم مزعومة"(١٣)، ظلٌ شغوبٍ ضالةٍ فى ظلمة الغابات. إن أمريكا علماء الطبيعة هؤلاء هى إمبراطورية المياه، والسحاب، والضباب، والرياح. المياه خاصة؛ لأنها تطوق السواحل، وتستعمر الأراضى. وراء الواجهة البحرية تبدأ أمريكا المستنقعات. قارة من سبخ بلا حدود، "أرض منفرة ومستنقعية"(١٤)، خليج بلا حدود يطل عليه من بعيد، من بعيد جداً من جهة الغرب، قمم لا ترحم، وحواجز صخرية تعادى الحياة بقدر معاداة العنصر المالح الذى تغطس فيه أقدامها الضخمة. وكصدى لبوفون يكتب دو بوو: "تبدو الأرض، سواء أكانت حافلة بالجبال ذات القمم الحادة، أم مغطاة بالغابات والمستنقعات، صحراءً جدباءً شاسعة"(١٥).

يُثقِلُ فى نظر هؤلاء الأوروبيين الذين يعيدون اكتشاف أمريكا من مكاتبهم الباريسية أو البرلينية، نفس النير الجيولوجى والجغرافى على القارة التى استطاع خبل أو مكر مكتشفيها أن يقدمها قارة خصبة بالروائع. فبأقلامهم، كان هناك عالم جديد يتجسد مجدداً، لكن هذا الجسد الذى يمنحونه له مشوه التكوين، كما أن هذا العالم غير قابل للحياة. إن "المصير الظاهر" لأمريكا فى نظر بوفون أو رينال أو دو بوو، هو الجمود. من الصعب تصور تناقض أشد حدّة فى هذه التصورات؛ فبينما تؤكد مستعمرات إنجلترا الجديدة تطلعاتها إلى حياة جديدة، كانت الأصوات الأكثر استماعاً فى أوروبا تكرس أمريكا للعقم وللموت.

كان بالوسع فيما يبدو البقاء هنا: عند ملاحظة الطوفان لأمريكا التى فاتها قطار الانطلاق إلى الأبد، لكن علماء الطبيعة والفلاسفة لم يكونوا على استعداد لسماع ذلك. لا نقاطعنهم، فما زالوا فى طور الاستعداد.

بوفون وتقليص أمريكا

أمريكا إذن هى قارة سيئة التشذيب، لم تكد تخرج من طوفان الأمس؛ فلا قممها الممزقة، ولا مساحاتها الشاسعة الآسنة، ترضى الحياة. وإذا كانت لا تزال اليوم – أى فى ١٧٧٠– مسكونة فبتقتير. ومن قبل شعوب طفلة لم يرعها دب الزمن الكبير. ربما قدمت من بعيد، ولِمَ لا تكون من آسيا ؟ أو ربما انبثقت من جيل محلى وعفوى؟ مسألة لا يمكن حسمها، ومن ثم فهى مجرد حشو. وما الفائدة؟ كما يتساءل فولتير

ساخراً، من التساؤل "كل يوم كيف أمكن عثورنا على بشر فى هذه القارة، ومن الذى أتى بهم" وكيف "لا ندهش من وجود ذباب فى أمريكا"[16]؟! وفى الحالتين، لقد جاءوا على نحو قاطع فى وقت متأخر. وهذا التأخر صار مشئوماً يوم التقى تاريخهم الذى كان يبدأ لتوه بتاريخ الآخرين - الخارجين من الأمواج، محتذين الجزم، ومعتمرين الخوذ، وراكبين نعاجاً غريبة.

لكن الأسوأ لم يقل بعد، لم يبد هذا العالم وقد فحصه التاريخ الطبيعى مخيباً فحسب. إنه عالم ضئيل: عالم مسخ، عالم ضامر؛ حيث يعيش الأحياء بخمول، وحيث يذوى البشر، وحيث تصغر الأجناس؛ ذلك هو الكشف المدهش للتاريخ الطبيعى، وتلك هى الرؤية الغريبة أو القناعة العجيبة التى استولت على العقول الطيبة فى النصف الثانى من القرن.

هناك رجل لعب هنا دوراً كبيراً: بوفون؛ فهو الذى قرر الدونية المادية لأمريكا ولمنتجاتها. إنه يملك سلطة العالم، وهيبة العبقرى، والاحترام الذى يحيط به يقترب من العبادة. يمثله الرسامون فى خلوة مع الطبيعة العاكفة على كشف أسرارها له. هكذا تنمو عبادة لا تقل فى حماسها عن عبادة فولتير أو روسو. كان الناس يذهبون إلى مونتبار Montbard لمجرد لمح هذا الرجل العظيم. ليس من السهل مناهضة مثل هذه السمعة. وحين سيرد عليه جفرسون فى عام ١٧٨٤، فإنه سيراعى (فى الطبعة الإنجليزية وفى الطبعة الفرنسية) أن يفيض فى المديح وفى علامات التقدير لعالم الحيوان الشهير «celbrated zoologist». يشرح جيفرسون أن الجمهور قد "سُحِرَ فى حكمه بقلمه المتقد ذكاء". ويجد نفسه هو ذاته مرغماً على مناقضته، ولكن ليس دون "كل الشهادات التى يستوجبها من التعظيم والتقدير"[17]. يُظهِرُ الفرجينى المودة؛ إذ لن يربح شيئاً عند الفرنسيين إذا ما خدش "صديق الطبيعة الحميم". وقد فضل على وعى منه بخطر محاربة الأيقونات أن يخفف من نقده، وأن يأخذ حريته فى التفسير إلى حد أنه كتب للمركيز دو شاستيللو أن "انحطاط الإنسان الأوروبى الذى انتقل إلى أمريكا لا يؤلف جزءاً من منظومة السيد دو بوفون"[18]. من الأفضل على وجه اليقين أن يكون بوفون معك من أن يكون ضدك! يقوم جفرسون هنا بدور الرسول، لكنه فى كتابته الخاصة، حين يعلق على هامش نسخته الشخصية، يبدو أقل مودة نحو عالم الحيوان الشهير: "ليس هناك كاتب أفضل من السيد دو بوفون للبرهان على سلطة الفصاحة وعدم يقين النظريات"[19]، لكن جفرسون يعلم أكثر من أى إنسان آخر دور بوفون الحاسم فى تكوين القاعدة الطبيعانية لنزعة معاداة أمريكا، جفرسون الذى كرّس فصلاً طويلاً من كتابه *Notes on the State of Virginia* ليردّ عليه.

الحيوانات المريضة من أمريكا

ما الذى يقوله بوفون من أقوال ممتازة بمناسبة القارة الأمريكية ؟ هذا – وهو ما سيبدو لنا شديد الغرابة لكثرة ما تسوله لنا صور العظمة الأمريكية، بل وطابعها الخارق – كل شيء على هذه القارة الجديدة صغير، أشدّ صغراً بكثير مما هو عليه فى العالم القديم؛ فالأجناس فيها ضئيلة، والحيوانات أكثر ضعفًا، بل إن الإنسان نفسه يجد نفسه ذا قامة متواضعة، إذا ما استثنينا العمالقة الباتاغونيين الشهيرين المشكوك فى حقيقة وجودهم. وعلى امتداد عدة دراسات متتالية: التنوعات فى الجنس البشرى *Variétés dans l'espèce humaine (1749)*، حيوانات القارة القديمة، حيوانات العالم الجديد، حيوانات مشتركة بين القارتين *Animaux de l'ancien continent, Animaux du nouveau monde, Animaux communs aux deux continents (1761)* عن انحطاط الحيوانات *De la dégénération des animaux (1766)*، يردد بوفون البداهة نفسها: تأتى الحياة على هذه القارة الكبيرة ضامرة. بسيط هو الدرس الأصولى الذى يكرره من فصل إلى فصل ومن بحث إلى بحث: "قلنا إنّ كل حيوانات العالم الجديد بصورة عامة كانت أكثر صغراً من حيوانات القارة القديمة"(٢٠)، ولكن ماذا يعنى ذلك على وجه الصحة؟

هذا يعنى مثلاً أن التابير(*) أقل إدهاشًا من الفيل، والكركدن من فرس النهر، وأن اللامة(**) أصغر من الجمل، وأن الفيكونة(***) تبدو نموذجًا مصغراً من النعجة، وأن البيكارى(****) يبدو للمراقب الحيادى كما لو كان خنزيراً مصغراً؟ لا لأن بوفون يقيم فى كل حالة علاقات الأبوة؛ فالبيكارى ينتمى – دون أى شك – إلى "النوع" ذاته الذى ينتمى إليه مثيله الخنزير، لكن التابير بالمقابل لا يؤلف جزءًا من عائلة فرس النهر ولا من عائلة الكركدن ولا من عائلة الفيل. إن لكلّ من اللامة والفيكونة، باعتبارهما يؤلفان حالة ثالثة، علاقات غامضة مع مراسليهما فى العالم القديم. يبدأ بوفون بالقول لنا إنهما "يبدوان مالكين لعلامات مميزة" أكثر من التابير من "قرابتهما القديمة" مع زميليهما فى النوع فى العالم القديم، وهما على التتالى: الجمل والنعجة، لكن علاقة القرابة تتمزق على الفور لتصير مجرد اقتراب – اقتراب تبقى طبيعته الدقيقة غامضة

(*) حيوان أمريكى إستوائى أشبه بالخنزير.

(* *) لامة : جمل أمريكى صغير.

(***) فيكونة : لامة جزر الهند، حيوان شبيه بالخروف.

(****) بيكارى : خنزير برى أمريكى.

غموض الكلمة التى استخدمها بوفون، أى كلمة المجاورة : "إنهما جاران وليسا قريبين"(٢١). هل الفيكونة جارة وليست ابنة عمّ (أمريكية) للنعجة ؟ هو ذا ما لا يبدو على الفور خاليًا من المعنى؛ فبدلاً من القرابة المقترحة ثم المنكرة، يُحِلُّ بوفون هنا مفهوماً غامضاً بقدر ما هو لا معقول، عندما يكون الأمر بصدد حيوانات تفصل بينها آلاف الأميال.

يجب النفاذ إذن أكثر فى نظامه الذى ستكون نتائجه على التصورات عن أمريكا حتى نهاية القرن شديدة الأهمية. يتجلى معنى الطريقة فى حالة التابير القصوى؛ لأن التابير وهو أبعد من أن يكون قريبًا من الكركدن أو فرس النهر أو الفيل، ليس حتى مجرد "جار"؛ فهو لا يشترك مع هؤلاء بأى علامات تماثل قوية، بل يقدم بعض التشابه الثانوى فى المظهر الخارجى أو فى العادات - ومنها عادة قليلة التميّز فيما يبدو: "فهو كفرس النهر، يقف باستمرار فى الماء"... ويقول بوفون إن الحيوانات الثلاثة التى قورنت معه لا تقدم سوى "علاقات بسيطة"، وهى من البساطة بحيث يسعنا التساؤل ما معنى القيام بهذه المطابقة؟

إن ما يبرز هذه المقارنات فى نظر بوفون هو الوضع الذى يحتله كل من الحيوانات الملحوظة فى سلم كائنات المنطقة الجغرافية الخاصة به. وهكذا، فلأن التابير يوجد فى قارته "الأول فى الضخامة" فإنه قد قورن مع الكركدن، وفرس النهر والفيل، على الرغم من أنه لا يملك، كما يعترف بوفون، إلا "قامة حمار". على أن طريقة بوفون مخيبة : فبعدم اعتمادها على ملاحظة ملامح مشتركة يجيز عددها إجراء المواجهة من قارة إلى أخرى، بدت تختار سهولة ملاحظة الشكل الخارجى. ومع ذلك فهى ليست انطباعية بالقدر الذى توحى به لوحة ما كلوحة اللامة: " اللامة مثل الجمل، السيقان عالية، والرقبة ضخمة وطويلة، والرأس خفيف، والشفة العليا مشقوقة؛ إنه يشبهه أيضاً بعذوبته الطبيعية،...إلخ". إنها تعتمد على عودة صريحة ومعترف بها للقياس.

ليس للقياس سمعة حسنة، من وجهة نظر علمية محضة، إلا أن بوفون يخاطر فى إعادة الاعتبار له: من جهة كروية سليمة ومتماسكة للكائن الحى، ومن جهة أخرى كأداة استقصاء أشد مضاء تأتى لتكمل أو تعمل على استقامة الملاحظة البسيطة. والحق أن الفكرة القياسية تفرض نفسها عليه، على الصعيد النظرى، بوصفها متلازمة مع أطروحة الوحدة الأصولية للأنواع الحيوانية وللنوع البشرى- بما فى ذلك فى هذا العالم المنفصل ظاهراً وهو العالم الجديد. هذه المسلمة حول الوحدة جوهرية لفكر بوفون؛ فهى عقيدته بوصفه عالم طبيعيات وبوصفه فيلسوفًا، وهو يسحبها دون تردد

على الأمريكيين: "أما بالنسبة لأصلهم الأول فلا أشك – وذلك بمعزل حتى عن الأسباب اللاهوتية – أنّه نفس أصلنا"(٢٢). هو ذا إذن التاريخ الطبيعى فى مواجهة مهمة التعرف أو بالأحرى الاستكشاف. فالمقصود إقامة علاقة النسب بين العالم القديم والجديد عندما يكون ذلك ممكنًا، أو فى حال عدم إمكان ذلك، إلقاء الضوء على العلاقات المخفية تحت الاختلافات الظاهرية. إن وحدة الكائن الحى على الأرض تقتضى صلة شاملة من عالم إلى آخر. يستطيع الحيوان الأمريكى وحيوان العالم القديم إذن، بل ويجب عليهما عند وضعهما وجهًا لوجه، أن يقدما صلاتهما المشتركة.

المنهج بسيط، سنعرض – كبداية – القائمتين العامتين لحيوانات القارتين، وسيسمح وضع القائمتين جنبًا إلى جنب بتعرف الأقرباء، أو أبناء العم، أو "الجيران". ولما كان عالم الطبيعة شأن الطبيعة قديمًا يخشى من الفراغ، فإنه سيرجو حيوانات العالم الجديد أن تملأ الخانات الموضوعة تحت تصرفها بالقياس مع الحيوانات المجانسة لها، والتى تم فرزها من قبل، وهو ما يسمح لبوفون أن يكتب بمناسبة التابير الذى يواجه فرس النهر والكركدن والفيل، بأنّه "وحده يمثلها ثلاثتها بناء على هذه الاعتبارات البسيطة"، والتى هى على سبيل المثال "شفتها العليا المعضلة والمتقدمة" أو ميلها للتخبط فى الماء. إنه فعل يمثل دلالة، فهو يذكر من جهة، بدور تصوير الحيوانات من قبل عالم الطبيعة: بوصفها البلاغى ورسمها كأساس للتاريخ الطبيعى، إلا أنه فى مقطع كالمقطع الذى أتينا على الاستشهاد به فإنه فعل مثل مشحون بمعنى آخر؛ فهو يحيل إلى لعبة الصلات بين قارة وقارة، ويأتى لتسويغ الطريقة القياسية برصانة. إن تمثيل فرس النهر بالتابير بهذا المعنى الثانى، يحيل إلى فرضية النظام ذاتها؛ أى أن حيوان العالم الجديد وإن كان شديد الاختلاف فى الظاهر وحتى فى الواقع، يحتل مكان حيوان واحد أو عدة حيوانات فى العالم القديم. إنه ممثلها فيما وراء الأطلسى، هذا التاريخ الطبيعى هو إذن تاريخ مقارن على مستوى مجموع القائمتين؛ فهو لا يقارن بين حيوانات خاصة بقدر ما يعمل على إمكان تطابق مجموعين متسقين توجد فيهما حيوانات كل قارة بأجمعها. إن ما يقترحه بوفون ليس رواق صور بل جداول تطابق.

اجتثاث وانحطاط

نص آخر ظهر فى عام ١٧٦٦ واستعاده كل المشاركين فى الشجار الأمريكى، يحمل عنوان *انحطاط الحيوانات*، يهتم بتبرير الرجوع نظريا إلى "القياس" بمشاركة "التجارب". هناك حالات – كما يقول بوفون – لا تكفى فيها الملاحظة؛ لذلك تجب آنئذ

"العودة إلى المراقبة شديدة اليقظة، بل وحتى إلى التجارب وإلى القياس"(٢٣). ما هذه الحالات؟ هى حالات الاجتثاث والنفى الإجبارى للحيوانات "المرغمة على هجرة موطن ولادتها" من قبل "ثورات الكوكب أو بقوة الإنسان". إن الحيوان المنقول هو حيوان مشوه.

تصبح لعبة بوفون هنا شديدة الوضوح، فى الوقت الذى تتأكد فيه العلاقة لديه بين منهج القياس والمشكلة الأمريكية؛ فالمنهج القياسى، هذا المبدأ الواضح المطبق على المورفولوجيا، هو السلاح السرى لعالم الطبيعة ليكشف "الطبيعة" الحقيقية للحيوانات المجتثة، أى "المنحطة" بالضرورة. إن الحيوانات الملتبسة فى العالم الجديد تتطلب من عالم الطبيعة جهوداً مضاعفة؛ فالدقة الرياضية للقوائم العامة تبقى حروفاً ميتة إذا لم تأت البصيرة القياسية لتمنحها معنى. يصرخ بوفون: فلنكن يقظين، بل شديدى اليقظة! إننا إذا لم نلاحظ عن قرب شديد، وإذا لم نتجاوز المظاهر، وإذا اكتفينا بنظرة دون أفكار مسبقة، فلن نرى شيئاً، ولن نتعرف عليها، من كثرة ما كانت مصائب حيوانات العالم الجديد هذه فى ظل بيئات مخيفة قد جعلتها لا تُعرَف. من هنا العودة إلى اللوحة الصينية، وإذا كان هذا الحيوان نعجة ؟ حسناً، إنه فيكونة... إن علم الحيوان لدى بوفون، وهو يقف أمام أمريكا، يصير سلسلة من الأحاجى المورفولوجية، سلسلة من صور فى سجادة، وحده المراقب المختص سيعثر على صغاره.

إن حيوان بوفون ليِّن، ومتقلب، وخاضع للبيئة، وللنظام الغذائى بالطبع، وكذلك لكل تقلبات الاستخدام التى طبعت عليه "بصماتها"، كذلك الإنسان. يعتبر بوفون – كما نعلم – أن لون السود يتوقف على البيئة، ويتخيل تجارب حية لتحديد "كم من الزمن ضرورى" لهؤلاء السود "المنقولين" إلى الدانمارك، "لاستعادة طبيعة البشر" – أى استعادة البياض الأصلى لجلدهم... إن البشر والحيوانات والنباتات يعيشون خاضعين لقانون "التغيِّر" : تلك هى الكلمة الجوهرية فى تفسير بوفون؛ فنحن نعثر عليها منذ الجملة الأولى فى نص "انحطاط الحيوانات": "ما إن بدأ الإنسان بتغيير السماء التى يعيش تحتها وبالانتقال من بيئة إلى بيئة، حتى تخضع طبيعته للتحولات"، وهو تحول يتجلى فى تغير لون البشر، تحول يتجلى فى تغير قامة الحيوانات الأمريكية وشكلها، تحول وانحطاط لا تغير أو تطور: يبقى العالم القديم المرجع، وعلى الأقل بصورة مضمرة، الأصل.

لكن ما سيطبع قراء بوفون – الذين لا يحصون – وما سيستهوى – على نحو خاص – خصوم أمريكا لن تكون الطريقة بقدر ما ستكون "النتائج"؛ أى رؤية التفاوت

بين الأنواع المأخوذة فى مجموعها مرسومًا، بل وأفضل من ذلك، مُقاسًا، دومًا على حساب القارة الجديدة. أى رؤية البرهان، استنادًا إلى الحيوان، على "انحطاط" الطبيعة الأمريكية العام. هناك بعض الظلال المنهجية على قوائم بوفون: شيء من الدوران[٢٤]، مسحة من التحيز. لا يهم، فبوفون البليغ – كما يمكن أن يقول جفرسون – يتوصل إلى الإقناع، وتخرج أمريكا لتبقى زمنًا طويلاً مفتقرة إلى الموكب الكبير لحيواناتها المتفاوتة. وملاحظته الخاصة "بانحطاط الحيوانات فى أمريكا" تضع خاتم العلم على خطاب الدونية الأمريكية، دمغة ثمينة وتسويغ مفاجئ: إنّ تصغير الكائن الحى على القارة الأمريكية كان يحتاج إلى هذا الضمان كى يقلب قرنين ونصف القرن من الشهادات المؤيدة أو المتحمسة أو بكل بساطة المصدقة.

الانحطاط الأمريكى

تحليل بوفون تحليل أصولى؛ فمنه تنحدر نزعة معاداة أمريكا "الطبيعانية" بأجمعها؛ فهو لا يقدم إقرار القصور الأمريكى فحسب، وهو قصور يستعاد ببراعة شيطانية فى الصفحات الأولى من كتاب ***أبحاث فلسفية حول الأمريكان*** **Recherches philosophiques sur les Américains** لدو بوو، بل يُفصِّل المستقبل الأمريكى حسب التصور البلاغى للانحلال؛ ذلك أن النظرة المقارنة تبدو، منذ البداية، موجَّهة. إن مهمتها كشف وتسجيل علامات "التحول" فى العالم الأمريكى. ليست "ضآلة" الأجناس الأمريكية المثيرة للرثاء فحسب هى الموضحة تحت هذه النظرة، بل كل عملية انحلالها: "تضاؤلها الكبير فى الضخامة "، كما يقول بوفون فى صيغة غريبة وموحية، تشى بالتوجيه المسبق للنظرة المقارنة؛ إذ هناك أحد أمرين من الآن فصاعدًا؛ فإما أن حيوانات العالم الجديد ستكون على وجه اليقين شديدة البعد عن (لا جارة ولا "حليفة") حيوانات العالم القديم، وفى هذه الحالة سيُعترفُ بأهليتها فى الوقت نفسه الذى يشار فيه إلى ضآلتها بالنسبة إلى "نظرائها" البعيدين، وإما أن الحيوان (شأن البيكارى) يمكن أن يحال إلى "أصل" موجود فى القارة القديمة ("جنس" الخنزير)، وفى هذه الحالة "فإنه يكون قد انحلَّ إلى درجة بات معها يكوِّن اليوم جنسًا متميزًا ومختلفًا عن الجنس الذى ينحدر منه"[٢٥]. إن التحليل فى الحالتين سيؤدى إلى غموض أمريكا التى أنجبت أجناسًا رديئة أو التى دمغت بالضمور كل الأجناس التى جاءتها من مكان آخر.

إن ما يجده خصوم أمريكا لدى بوفون إذن إنما هو تفصيل نظرية بيئة معادة صياغتها بوصفها أقوى نظريات الحتميات الفيزيولوجية ومجموعة من "الملاحظات" التى تستنتج إما التطور الضئيل وإما الانحلال فى أمريكا لكل الأجناس الحية. إن المناخ

لدى مونتسكيو يؤثر على الأجسام، ويصنع السلوك الذى يهيئ هذا الضرب من العادات سلفًا؛ إذ يشجع هذا النوع من المؤسسات السياسية أو ذاك. أما لدى بوفون فالمناخ طاغ ومباشر ومطلق على نحو أشد؛ فهو يغتصب الحيوانات والبشر حتى فى تكوينهم المورفولوجى، كما ينجز تغييرات حتى فى الملامح التى تميز الأجناس؛ فهو الذى "طلا"الإنسان" بالأسود فى المنطقة الحارة"، والذى "صبغه وصغَّره بالبرد الصقيعى" فى المنطقة القطبية(٢٦)، وهو الذى سيعيد للزنجى أيضًا أو للابونى(*) وقد عاد ليعيش تحت سماوات أكثر اعتدالاً "ملامحه الأصلية وقامته البدائية ولونه الطبيعى"(٢٧)، وهو الذى يحقق دومًا تغييرات أكثر "حدةً وضخامة" لدى الحيوانات؛ "لأنها أقرب إلى الأرض فى وضعها من الإنسان"(٢٨)، ويتحمل نزواته دون أية واحدة من الوسائط الحامية التى ابتكرتها الثقافة. إذا استطاع مثل هذا المناخ أن "يصغر" الإنسان فقد أمكنه أن يقلص البيكارى...

إن مفهوم التحول يأتى ليتمم بصورة مفيدة هذا الجهاز التفسيرى؛ لأن هذا التحول الذى يمس كل أشكال الحياة، والذى يعيده بوفون إلى المناخ وإلى الأرض الأم يصير نتيجة حتمية لمجرد الانتقال المكانى للأجناس (بما فى ذلك الإنسان) من مناخ إلى آخر، ومن أرض إلى أرض ثانية. ينفتح كتاب انحطاط الحيوانات لا على سيادة الحيوان، بل على الإنسان وعلى مرونته. "ما إن بدأ الإنسان بتغيير السماء، والانتقال من مناخ إلى مناخ آخر، حتى خضعت طبيعته للتحولات: تحولات خفيفة فى المناطق المعتدلة نفترضها قريبة من مكان أصله، لكنها ازدادت بقدر ما ابتعد عنه..."(٢٩). ليست الحيوانات وحدها إذن من " ينحط "؛ فطبيعة الإنسان "تتحول" هى أيضًا حتى ولو كانت مصادره الخاصة (السكن، الملابس،...إلخ) تجعل من هذا التحول أكثر بطأً وأقل آلية. وإذا كان "التحول" ورقة رابحة لا يُستهان بها فى نظر متابعى بوفون المعادين لأمريكا، فإنه أكثر المفاهيم جبنًا. وقد فهمه كورنيليوس دو بوو بسرعة؛ فإذا تبدى البيكارى مصادفة بدينًا أكثر مما هو متوقع، فلأن "التحول" قد أثَّر على نحو مختلف، على الشكل مثلاً : "إن الخنازير التى تضمر فى بنسلفانيا [!]، يتغير شكلها فى أماكن أخرى دون أن تفقد شيئًا من قامتها..."(٣٠). وهكذا يكتسب كل بيكارى لم يضمر وضعًا استثنائيا يؤكد القاعدة، باعتبار أن "التحول" قد عبرعن نفسه صدفة بطريقة مغايرة لطريقة "تضاؤل الضخامة".

(*) لابون Lapons: هم سكان منطقة لابونى Laponie، وهى منطقة فى أوروبا الشمالية تغطى شمال النروج وفيلندا، وهى أقلية من السكان المحليين، ويتكلمون اللغة اللابونية.

هذا الاتهام للهجرة بوصفها عامل تحول وانحطاط سيغذى بعد تعميمه وتجذيره خطابًا كاملاً سياسيًا طبيعانيًا حول الخسوف الفيزيولوجي والذهنى للأوروبى المهاجر. هكذا يوجد بوفون فى أصل موجة من التشهير العلمى بأمريكا، التى ستستمر، خلال عشرين عامًا، على الاستناد إلى التاريخ الطبيعى. صحيح أن كورنيليوس دو بوو قد قذف عددًا من السكاكين باتجاه المعلم العجوز، هذا "العالم الطبيعانى الماهر بقدر، وأحيانًا أكثر من الطبيعة نفسها"(٢١)، وأنه خاصمه حول عمر الإنسانية الأمريكية أو حول فرضية أخرى اعتبرها اعتباطية، لكن كتابه ***أبحاث فلسفية حول الأمريكان*** ***Recherches philosophiques sur les Américains*** يبقى مدينًا فى حيويته إلى الاختراق الذى قام به بوفون.

أمريكا السامَّة

العالم الجديد شديد الجدة؛ فالمناخ العدائى يجعل من القارة مملكة البرد، أو الرطوبة، أو الاثنتين معًا. مملكة عقيمة، وفى أقل الأحوال قليلة الخصوبة، صحراوية غالبًا، وقليلة السكان دومًا. كل ممالك الطبيعة توجد فيها "متحولة" - دون استثناء الإنسان، الذى تبدو إنسانيته فيها إشكالية. فى أمريكا لا نعيش، وإنما "نخمل". هكذا تكلم بمهارة أول خطاب معاد لأمريكا. إنه لا يتكلم فحسب بل يرسم أيضًا؛ فأمريكا لم تكن مفتقرة إلى فنانين شعبيين كجيروم بوش **Jérôme Bosch** لتسكينها بكائنات بلا رءوس، وبالمعاكسات وبأشجار ذات خراف، كما كان لها شبيه الفنان جريكو **Greco** مع لاس كازاس **Las Casas** الذى عرض بالألوان الخام عذابات قارة شهيدة. أما لافيتو **Lafitau** وشارلفوا **Charlevoix** وصحبة يسوع **La Compagnie de Jésus** والفرنسيسكان فقد كانوا قد كسوا متوحشيهم بالنبل وأضاءوا اللوحة من أعلى كما لو كانت لوحة البشارة. وفى عام ١٧٦٨ عثرت أمريكا على غويا خاص بها، وهو كورنيليوس دو بوو.

ولد دو بوو فى هولندا، وعاش فى بلاط فريديريك الثانى، وكتب باللغة الفرنسية، وحين نشر كتابه ***أبحاث فلسفية حول الأمريكان*** لم يكن له من العمر ثلاثين عامًا. وصار اسمه بين ليلة وضحاها معروفًا فى أرجاء أوروبا المفكرة؛ فقد أحدث كتابه ضجة، وصار الناس يتحدثون عنه، ويقومون بجهد الرد عليه. وعانى دو بوو فى برلين نفسها هجوم الراهب البندكتى أنطوان جوزيف بيرنيتى **Antoine-Joseph Pernety**؛ فمن هجوم ضد الكتاب إلى دفاع يقوم به بوو إلى إجابة مضادة من بيرنيتى، أحداث أمسكت بأنفاس المدينة والبلاط والأكاديمية سنتين. أهى مشادات محلية، وصراع نفوذ

بين أعضاء الحلقة الفلسفية التي جمعها فريديريك الثاني؟ لاشك في ذلك، لكن تأثير الكتاب تجاوز حدود العالم البرليني. ذلك أن تاريخ الهندين ***Histoire des Deux Indes*** الذي جمع رينال **Raynal** آنئذ أول نصوصه يحمل آثره. وإذا كان لبيرنيتي، وهو مدير مكتبة فريديريك الثاني، أسباب شخصية جدا ليعارض النجم الصاعد لخصم شاب، فليس ذلك هو حال دليسل دو سال **Delisle de Sales** مثلاً حين يدمج مناقشة دو بوو في كتابه ***نظام الطبيعة*** ***Système de la nature***، الذي لم يكن السجال الأمريكي يفرض نفسه فيه، كما لو أنه لم يكن من الممكن حوالي عام ١٧٧٠ الكتابة حول الأسباب والنتائج دون كسر بعض السهام ضد أو لصالح دو بوو.

دو بوو مفرط النشاط في الإنكار؛ فهو يهدم البناء الذي رفعته التقارير الورعة أو الحماسية المتراكمة حول أمريكا، كما أنه يرفض - دون تمييز - نظام العلماء المزيفين والمبشرين المشكوك بأمرهم والأدباء الرديئين. ويكاد يكون كل الرحالة موضع شك في نظره: "من الممكن وضع قاعدة عامة تقوم على أنه يوجد من بين مائة رحالة، ستون منهم يكذبون دون مصلحة، ويوجد هناك - كما لو أنهم يفعلون ذلك بغباء - ثلاثون يكذبون بمصلحة، أو إن شئنا بمكر، وأخيراً ثمة عشرة، وهم الذين يقولون الحقيقة، وهم الرجال(٣٢)." لا بل لابد حتى لدى هؤلاء العشرة من فرز المعلومات... يضرب دو بوو بقوة ودون توقف. إنه يدوس التقليد الفلسفي المزيف الذي كان لا يزال عزيزاً على عديد من الفلاسفة، والذي كان الأدب العاطفي يبدأ في الاستيلاء عليه(٣٣). إنه يرسم لوحة جدارية ذات سواد مدهش. وربما أشد من أحلك حالات غويا، تحمل أمريكا دو بوو على تذكر المواد المصهورة المميتة من الحمم والدم في الجداريات المكسيكية - لا ريفيرا **Riv-era** المفعم حياة في قلب الفظاظة، بل أوروزكو **Orozco** وملونه المفحم ببشاعة. على أن الهول لدى دو بوو أشد عضالاً؛ فالموت لا ينزل في أمريكا مجللاً مع الغزاة الأوربيين؛ إنه يصعد ويُشتّم من الأرض ذاتها، عفن ومعد. لا لأن دو بوو يهمل أن يعيد قول أهوال الغزو، أو أن يفضح أوروبا المجرمة. إنه يقوم بذلك بعنف، لكن الشر في نظره أشد عمقًا. إن المذابح دنيئة وهو يدينها، لكن أمريكا ملعونة وهو يفضحها.

يكتب دو بوو: "سأضع على رأس هذا الكتاب بعض الملاحظات المدهشة والحاسمة". مدهشة، وإنها لكذلك. أول رشقة على شرف بوفون، أُطلقت ضد الحيوان. "كانت بيئة أمريكا لحظة اكتشافها مضادة بشدة لمعظم الحيوانات ذوات الأرجل الأربع التي وجدت فيها أصغر بمقدار السدس من نظيراتها في القارة القديمة." تلي رشقة ثانية على الفور لا توفر ذوي الساقين الإنسانيين : "كانت هذه البيئة بوجه خاص ضارة بالبشر المرهقين، وواهني الأعصاب، والفاسدين في كل أجزاء عضويتهم بطريقة

مدهشة." أما الرشقة الثالثة فموجهة للطبيعة بأجمعها: "صحراء عقيمة وشاسعة". لا يوفر دو بوو لا آثاره ولا قراءه؛ ففي ثلاث ضربات فرشاة فعالة، هاهو الديكور ينتصب ليتمكن الإسبان من التقدم على نحو لا مفر منه، ولكن أي إسبان! إنهم ليسوا أمثال كورتس Cortés وبيزار Pizarre الذين يدخلون في مقدمة الكتاب. إنهم ليسوا هادى الإمبراطوريات، وفاتحى القارة، ولا حتى جلادى الجماهير، بل هم عصابة من الأوباش المجهولين. إنهم "مغامرون" يتضورون جوعًا - إنهم جائعون إلى درجة أنهم سيلتهم بعضهم بعضاً. "اضطر الإسبان من وقت لآخر إلى أن يأكلوا الأمريكيين، بل والإسبان أيضًا لانعدام الغذاء"، والفرنسيون أيضًا: "فقد انتهى أوائل المستعمرين الفرنسيين المرسلين إلى هذا العالم البائس إلى أن يأكل بعضهم بعضًا". على أن البريطانيين كانوا أكثر حظًا بقليل (أو اعتدالاً) : فقد هربوا من هذا الجحيم، وعادوا إلى بلادهم، ولكن في حالة من الجوع بلغت حداً أنه "نظر إليهم في لندن كما لو كانوا أشباحًا"!

نحن في الصفحة الثالثة - وهناك ٧٧٢ صفحة في الطبعة الأصلية - يالها من مقدمة! يحقق دو بوو، بهذا المشهد البدائي الخارق، ضربة مزدوجة، فهو يبرهن على القحط المثير لليأس لبلد لا يمكن العيش فيه، ويوحى " بالثورة " المرعبة التى تحققها أمريكا على غزاتها أنفسهم، بتحويلهم - على نحو مؤكد - إلى أكلة لحوم بشر بقدر تغير زوار سيرسيه(*) Circé إلى خنازير. ضربة مثلثة في الواقع؛ لأن هذه البداية المذهلة تُقرأ كذلك بوصفها مجازًا لمصير الأمم المستعمِرة: هذا الالتهام الذاتي للأوروبيين يرمز لابتلاع قواهم الحية كخسارة محضة من قبل اللجة البشرية التى تؤلفها أمريكا. يؤكد دو بوو أن عدة مستعمرات لا تزال اليوم في حالة "عجز عن أن تتغذى من منتجاتها الخاصة". وهكذا فبدلاً من أن تُغذى أمريكا البشر فإنها تلتهمهم. يبدو دو بوو هنا في انسجام مع العصر الفلسفي بأجمعه، من مونتسكيو إلى ديدرو؛ فهو ينادى دفعة واحدة بأن مصائر الشعوب الأصلية والشعوب المستعمرة تتقارب في المصيبة. إنه يوسّع اللوحة التقليدية للمصائب التاريخية المفروضة على أمريكا ليجعل منها لوحة جدارية لمصيبة خالدة وطبيعية جاء الأوروبى يندرج فيها ليزيد من شقاء سكان البلد الأصليين، بل وكذلك من شقائه. ولأنه رسامٌ لا للمعارك بل للخراب، لم يهتم دو بوو بركام الجثث التى سببها الفتح بقدر ما اهتم بالفساد الذى نال أعماق قارة مميتة، ستصير قبر فاتحيها الوهميين.

(*) سيرسيه Circé: هى ساحرة شهير في الأساطير اليونانية، كانت لها قدرة تحويل البشر إلى حيوانات. (المترجم)

يسعه الآن أن يتناول الجوهرى؛ أى الأرض وبيئتها، ويمكنه أن يتبع الخط المشئوم الذى يقود من الملح بوصفه غذاءً إلى الماء المملح بوصفه سُمًا. من الآن فصاعدًا، سيتكلم العلم.

الملح أولاً: إنه فى كل مكان، فهو يرتفع من المياه الكلية الحضور، ومن مستنقعات لا نهاية لها، إلى الجو كى ما يسقط راسبًا قدريًا على المزروعات. إن المياه الأمريكية "الفاسدة، والشريرة، بل والمميتة"، هذه المياه المكرسة "للتخمر"، تطلق تحت تأثير الشمس ملحًا بحريا "يتبلر فيما بعد على كل ورقة مغمورة فى هذه المياه المملحة"(٣٤). إن الطبيعة الأمريكية فى نظر دو بوو ليست حية حقًا، بل هى معلبة، كرنب هائل مملح ومخلل؛ فَتَحتَ سحابةٍ سميكة مالحة، تختنق النباتات، وتكف عن أن تكون "طرية ومعشوشبة شأنها فى أوروبا ولا تعيش إلا فى شكل "الألياف التى نراها تحت الجنبات"؛ إذ لكى يزداد الأمر سوءًا، انضاف إلى آثار الملح آثار "ملح البارود الأرضى" الذى يجفف من الداخل هذه المنتجات الهزيلة. ويضيف دو بوو: إنها لظاهرة تؤكدها التجربة، ولا يمكن إنكارها: حين أراد مستعمرو فرنسا الجديدة أن يبيضوا غسيلهم بواسطة رماد الخشب، كما كانوا يفعلون فى بلدهم الأصلى، دهشوا إذ "رأوا هذا الضرب من الصابون يقطع فى لحظة واحدة كل القماش، ويحيله إلى مزق، ويقلّصه بعد ذلك إلى نسيج حشوى، وهو ماعُزِىَ بحق إلى قوة ملوحة الملح وكثافتها التى كان الرماد يحتويها"(٣٥). وراء هذه التجربة المغيظة فى الكيمياء خيالٌ واسع من العجائب الأمريكية لا يزال يهتز، وتتجلى عبقرية دو بوو فى التقاط بلاغتها، وفى محاكاة صورها كى ما يعيد توجيهها ضد أمريكا. إنه يحتفظ بحركة الدهشة سليمة، سوى أنه لا شىء هنا يؤدى إلى الافتتان. ممنوع أن تحلم، انتهى وقت اللعب، ألعاب طبيعة غريبة افتتن بها الفضول الأوروبى خلال قرنين، كان دو بوو يكتبها من جديد كسلسلة طويلة من المفاجآت السيئة: كالمفاجآت التى تواجه بها الإنسانَ طبيعةٌ منكدة أو سادية صراحة. لا يزعم دو بوو أنه يسلينا بهذا الغسيل الشره الذى يبدو خارجًا لتوه من متجر للألعاب والخدع المسلية، بل يريد فعلاً أن يطبع فى ذهن قارئه القلق والقرف من طبيعة خصبة بالمكائد فقط.

"أم شرسة" كتلك التى سيصفها ساد، تراكم الطبيعة الفخاخ وتكثر من الغدر، إلى درجة أنها قدمت مع ملح البارود هذا المادة الضرورية للإسبان كى يجددوا مخزونهم من البارود، ويسيطروا على المكسيكيين الذين راحوا ضحية خيانة أرضهم؛ لأن هذه الأرض الرديئة أرض خبيثة. وإعادتها تسليح غزاتها هو أقل آثامها. فمنذ أزمان سحيقة وهى تقتل البشر، وتود بكل طاقتها الضعيفة أن تفرغ القارة من

سكانها، وهي تنجح في ذلك نجاحًا نسبيا (يلح دو بوو شأنه في ذلك شأن من سبقه، على الفراغ البشرى في الفضاءات الأمريكية). ليست أمريكا مقيتة وعقيمة فحسب، بل هي مسمومة، وأرضها "المقززة والمستنقعية" تسمح "بتطور ضروب من الأشجار المسمومة لا نعثر على مثيلها في كل أجزاء باقي العالم المعروف"(٣٦). إنها بطلة في الرقي المؤذية، ونباتها ينضح بالموت من خلال كل عصاراته. ويكتسب الكرار، أي المادة التي استخدمها هنود أمريكا لتسميم السهام، والتي ذكرها كل الرحالة، لدى دو بوو قيمة رمزية. إن السمَّ إذ يوجد في الصفحة الأولى من البحث، ويؤلف موضوع الفصل الأخير حول "استخدام السهام المسمومة"، إنما يؤطر حرفيا كتاب الأبحاث. إن وفرة السموم النباتية تثبت جريمة الطبيعة الأمريكية، لا بل إن الكرار لا يؤلف شيئًا بالمقارنة مع ويلات مادة المنيهوت؛ ذلك لأن النباتات النادرة التي تتقدم لتغذى البشر هي ذاتها مسمومة. وباعتماده على "الخاصة الكاوية" للنشويات التي تؤلف أساس الغذاء الأمريكي، يركب دو بوو هذه المفارقة المدهشة لإنسانية عاشت بفضل سمٍّ – غذاء في السمّ alimentum in veneno يكتب ذاكرًا زمن الاتصالات الأولى: "كان الغذاء الأساسي للأمريكان عبارة عن نبات مسموم لا يمكن جعله قابلاً للأكل إلا ببراعة". وتقوم البراعة على طبخه، لكن دو بوو – بهذه الكلمة البسيطة – يوحي بهذه المبارزة الماكرة التي تقوم بها طبيعة فظيعة وإنسانية عاجزة. يطوف الموت بين النيئ والمطبوخ. إن اليُكَّة والمنيهوت في الحالة الطبيعية عبارة عن معاش قاتل: "أتكلم عن العديد من الأجناس كاليُكَّة والمنيهوت، وهي جميعًا على وجه التقريب قاتلة إذا ما أكلت نيئة، كما تخرج من رحم الأرض. ومع ذلك فإن المنيهوت هو الذي كان لدى الهنود يقوم مقام الجودر والخميرة اللذين لم يكونوا يعرفونهما أبدًا". "تلك هي أمريكا المذهلة التي تكاد تغذي أبناءها من أجل أن تقتلهم على نحو أفضل! وكما يكتب دو بوو: "يجب الاعتراف أن تاريخ القارة القديمة لا يقدم لنا أمثلة مشابهة، وأيا كان عدد المصائب فيها فلم نر فيها على الإطلاق شعبًا بأكمله مرغمًا على استخراج غذائه الأول من نبات سام".

كيف العجب مادامت أرض السموم جميعًا هذه قد سممت أوروبا أيضًا – لا بواسطة المنيهوت ولا بواسطة اليُكَّة بل بغمرها "بالجراثيم السامة" لمرض الزهرى؟ يجد دو بوو "مضحكة" كل الفرضيات التي تجعل من ولادة مرض الزهرى في أمكنة أخرى غير أمريكا (في أفريقيا مثلاً): "لقد ولد طاعون الزهرى في أمريكا"، تلك نقطة مبرهن عليها و"لا ردّ عليها"(٣٧). والقول بعكس ذلك هو ما يمكن أن يدهش، لكنه لا يغامر في أن يعزو له مصدرًا مجددًا على وجه الدقة، بل يؤطر حديثه عن الزهرى بملاحظتين "طبيعانيتين"، كما لو أنه يريد ربط المرض بالأرض الأمريكية؛ لأنه إذا كان من

المستحيل على دو بوو أن يقول بكل أمانة أصل المرض، فإنه لا يحرم نفسه من أن يؤكد أنه يتفاقم، وأحياناً ينتعش باستهلاك الإغوانة بلا حدود. هناك إذن اتحاد وثيق مشبوه بين المرض المسمى خطأ "نابولى"، مادام قد ولد فى العالم الجديد، و "العظاية الأمريكية" التى يعتبر التهامها "مميتًا لمن أصيب بالمرض". ثم، أليس لهذا المرض القارض الذى يهاجم حتى ينابيع النسل نفس أسباب "ضعف"الأمريكان" المجردين جميعًا من هذه القوة الحية والمادية التى تنتج عن توتر ومقاومة العضلات والأعصاب"[٣٨]؟ يميل دو بوو إلى اعتقاد ذلك: إنه أيضًا وبومًا انغمار القارة، إنها "رطوبة الجو الكبرى"، إنها "كمية هائلة من المياه الآسنة المنتشرة على سطحها" التى "عابت وأفسدت مزاج السكان"[٣٩].

فى هذا المقام المرعب المتمثل فى أمريكا ولدت الإنسانية خاسرة وكسيحة. كان التاريخ الراهن للأمريكيين مؤلمًا، لكن التاريخ الطبيعى لأمريكا، منذ فجر العصور، تاريخ حظ عاثر، وسوء تفاهم عضال. ليست أرض أمريكا وهى "المصابة بالتفسخ"، و"المغمورة بالعظاة، والحنش، والحيات، والزواحف، وبالحشرات المرعبة "[٤٠]، الضارة بالصحة والعدوانية، أرض كنعان الشيوخ الجليلين التى وصفها المبشرون المتحمسون[٤١]: إنها مصرُ المصابة بقدر من الجروح لا يستطيع البشر تحملها.

" عبقرية الأمريكان الوحشية "

لأن الضحية الرئيسية لهذا "العالم المنكوب" هو الإنسان، بدءًا بالطبع بالمتوحش الذى أعلن دو بوو قبل جوزيف دو مايستر **Joseph de Maistre**، ولأسباب أخرى، عن انحطاطه الكامل.

"عن عبقرية الأمريكان الوحشية ": يعطى هذا العنوان على رأس الجزء الرابع من الأبحاث، لهجة فصل يقدمه مؤلفه ذاته بوصفه حاسمًا. إن النتيجة المباشرة للعوائق التى راكمتها على رأسه طبيعة رديئة تتجلى فى أن الأمريكى صار واهن الجسم والعقل. وينبه دو بوو أن "حماقة غبية تؤلف أساس طبع الأمريكيين كافة"، حاكمًا عليهم بأنهم "محرومين فى آن واحد من الذكاء ومن قابلية الكمال"[٤٢]، ولكنه بدلاً من أن يبحث عن السبب فى "إخلال بالواجب" استثنائى، أو فى خطيئة خارقة ارتكبها أجدادهم، كمؤلف كتاب ***Soirées de Saint-Pétersbourg***، فإن دو بوو يجده بصورة أكثر طبيعية فى دوران الدم الردىء الذى يولد "ضعف الفهم"[٤٣]. إن أفكار الهنود "مطبوعة على نحو ردىء" بسبب "الأمزجة اللزجة والفظة" الخاصة بطباعهم. إن استعدادهم الأساسى هو فقدان الحساسية. "فقدان الحساسية هو فيهم عيب فى

تكوينهم الفاسد؛ فهم كسالى على نحو لا يغفر، إنهم لا يبتكرون شيئًا، ولا يباشرون شيئًا، ولا يوسعون من أجواء فهمهم إلى ما وراء ما يرونه: جبناء، خوافون، عصبيون، بلا نبل في العقل، كما أن فتور الهمة والعيب المطلق الذى يكوّن الحيوان العاقل يجعلهم غير مفيدين لأنفسهم وللمجتمع." لهذه الكائنات التى "تعيش خاملة بدلاً من أن تعيش فعلاً" يجد دو بوو نفسه "مدفوعًا إلى أن يرفض أن تكون لها نفس"(٤٤).

منذ المداخلة الأولى لبوفون فى عام ١٧٤٩، لم تكف هذه الملاحظة عن التفاقم؛ فكتاب ***أنواع فى الجنس البشرى*** ***Variétés dans l'espèce humaine*** كان يلح بوجه خاص على صفة عدم الاكتمال الخاصة بالأمريكى الأصلى. يرسم دو بوو لوحة كائنٍ موضوع على الحدود الفاصلة بين الإنسانية واللا إنسانية، مصابٍ على الصعيد الفسيولوجى "بالعيب السرى" الذى فرضته عليه الطبيعة الأمريكية، ومنه ينتج الضعف فى الجسم وفى العقل، وعدد آخر من العاهات أيضًا: عجز جنسى محتمل، فقدان الشهوة الأكيد لدى الرجال للنساء ("نفور من الجنس")، لا بل إن ثباتهم نفسه عند التعذيب، هذا الكلام المكرر عن نبل المتوحش، ينقلب برهانًا إضافيا على ضمور نظام الإحساس عندهم؛ فليس من البطولة فى شىء ثباتهم على عمود التعذيب، بل هو مجرد نقص فى "ألیافهم العصبية".

هل هو إنسان أو هو وحش هذا الذى يسكن "العالم المنكوب"؟ يَستشعرُ التاريخُ الطبيعى فى هذا المتوحش الكئيب والمحدود سيادة الشذوذ؛ فالرجل فى أمريكا بلا رجولة ولا شعر على الجسم، غالبًا ما يوجد الحليب فى ثدييه، يهرب من المرأة ليستسلم إلى ميله المفضل: الميل "المضاد للمادة"(٤٥). والأمر من الذيوع بحيث إن دو بوو يتوقف عنده قليلاً. أما ديدرو فيتكلم عنه باستفاضة، و كتاب ***تاريخ الهندين*** يصادق على ذلك: "لهم قليل من الأطفال؛ لأنهم لا يحبون النساء أبدًا، وتلك رذيلة قومية لا يكف كبار السن عن مؤاخذة الشباب عليها." ويتسلى دو بوو: موعظة لا طائل من ورائها ولا "يمكنها أن تروّضَ الطبعَ، ولا كذلك أن تروض حيث يُنصح بالعكس". والنساء شهوانيات استسلمن للغزاة بحمية، وكان يمكن لهم بدونهن أن يفشلوا فى إخضاع هذه البلاد الشاسعة. على أن هذه الشهوانية التى تتناسب عكسًا فى قوتها لدى الرجال لا تجعل منهن أكثر أنوثة بسبب ذلك. إنهن يؤكدن تعاكس الأدوار الجنسية، ثم إننا لا نميز جيدًا بين الأمريكى والأمريكية : من " الصعب تمييز الجنسين من خلال الوجه"(٤٦). وبينما يأتى الحليب بسهولة للرجال "لا تشعر الأمريكيات فى عدة قرى بأى سيلان فى أى وقت"(٤٧). إن تواجه الجنسين الأمريكيين هو تواجه اللواطى والسحاقية.

على أن الحب ليس هو الوحيد الشاذ فى أمريكا؛ فالشذوذ يملأ الغابات ويعمر الأحراج. فـ"الشاحب اللون" يكثر فيها، وكذلك "الأمهق الغريب" الذى تساءلنا زمنًا طويلاً عما إذا كان نتيجة تصالب أشباه القرود، لكن دو بوو - شأنه فى ذلك شأن بوفون - لا يعتبره إلا "نوعًا جاءت به الصدفة". وكثرته عرَضٌ إضافى من أعراض "الانحطاط الأمريكى". ولما كانوا ينحدرون من نقص "فى السائل المنوى لآبائهم "فإنهم هم أنفسهم "محرومون بصورة مطلقة من القوة التناسلية أو إنهم لا ينجبون أطفالاً يشبهونهم"(٤٨). ولن ندهش إذا ما جاءوا زرافات يعمرون الكتابات الأمريكية للطبيعانيين. وأخيراً هناك الخنثى التى لا تقل رمزية عن شحوب اللون، والتى تؤلف الرمز التركيبى للفوضى الجنسية الأمريكية. وبوصفه مخلوقًا شاذًا منحطًا، لا يحقق خنثى فلوريدا على الإطلاق كمالية الرجل الخنثى: إنه رجل "أقل كمالاً من الذين لا يملكون إلا عضواً جنسيا واحداً". أنكر لافيتو وجودهم، وأكد أنهم رجال يلبسون ويعاملون بوصفهم نساء. ويعترض دو بوو على الجزويتى أن "العرف الغريب القائم على تنكر الرجال واضطهادهم [...] يثير الدهشة فى النظام الأخلاقى بقدر كمية الخنثى فى النظام المادى"(٤٩). لم لا يكون هناك بعد كل شىء شعب حقيقى من الخنثى على أرض تستمتع فيها الطبيعة باغتصاب قوانينها كافة؟

مشكلة "المولَّدين البيض"

تلك هى صورة الأمريكى فى هيئة منحط، حين لا يكون فى هيئة شاذ، والذى تتم إعادة إنتاجه دون كلل بين سنوات ١٧٥٠ و ١٧٧٠. هل المقصود المتوحش وحده؟ يجيب بوفون و دو بوو و رينال: على الإطلاق، بل المقصود "سكان العالم المنكوب" كافة. على أن أصواتهم تبدو هنا - والحق يقال - أشدّ تنافراً، وأقوالهم أكثر تردداً، لكن الخط العام واضح: كل شىء يحمل على الاعتقاد وعلى الاستنتاج بأن االبصمات المخيفة التى تركتها طبيعة فظيعة على الإنسان لم توفر الأوروبيين المهاجرين أكثر مما وفرت الدجاج الذى صار عقيمًا والكلاب التى لم تعد تنبح. ويسمحُ دفاع دو بوو فى الأبحاث الفلسفية حول الأمريكيين جوابًا على دوم بيرنيتى، له أن يضيف بعض اللمسات على لوحة شديدة الظلمة أصلاً، وأن يمدّ دون لبس إلى المولَّد الأبيض - الأوروبى المولود فى أمريكا - قاعدة التشويه والانحطاط التى وضعها بوفون. نحن أمام تطور حاسم؛ إذ ارتبط مصير الهندى والمولَّد الأبيض من الآن فصاعداً فى هذا الخطاب المعادى لأمريكا المستوحى من التاريخ الطبيعى. يكتب دو بوو معتمداً هذه المرة على عالم الطبيعة

السويدى بيتر كالم Peter Kalm الذى اقتبس كتابه بالفرنسية لتوّه *التاريخ الطبيعى والسياسى لبينسلفانيا* " *Histoire Naturelle & Politique de la Pensilvanie* فى أمريكا الشمالية ينحط الأوروبيون على نحو محسوس، ويتغير تكوينهم بقدر ما تتكاثر الأجيال"(٥٠). إن "انحطاط الأوروبيين المقيمين فى أمريكا" أمر ثابت لاشك فيه. وكما أن الدجاجات المنقولة بالسفن فيما وراء الأطلسى تبقى غالبًا ثلاثين عامًا دون أن تحضن على امتداد أربعة أو خمسة أجيال، كذلك علينا أن نتوقع رؤية المولَّدين البيض مصابين "بالفتور فى الحب" وبعقم شبه كامل شأنهم شأن السكان الأصليين(٥١). يؤكد دو بوو هنا بقوة الفرضية التى سبق له تقديمها فى الأبحاث: "كل الحيوانات المقادة من العالم القديم إلى الجديد تحمّلت – دون استثناء أحد منها – تغيرًا محسوسًا سواء فى شكلها أو فى غريزتها"، ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك بالنسبة للبشر، "وعلى قدر تكرار الملاحظات حول هذا الموضوع " بمقارنة المولَّدين البيض المستقرين منذ بعض الوقت بالأوروبيين الواصلين حديثًا "نقتنع بأن هذا الانحطاط الذى ظنناه ممكنًا هو حقيقى"(٥٢). إن هذه النون فى «نقتنع» تعنى بالطبع بوفون الذى لا يكف دو بوو عن الاعتماد عليه فى الوقت الذى يأخذ عليه خجله، والذى سينتهى إلى الكشف عن التحريف الذى يحمله على مكابدته هذا التلميذ قليل الاحترام.

لا يمكننا القول – مع ذلك – إن دو بوو قد استعان بفكر بوفون فى حالته التى كان عليها عام ١٧٦٦ على نحو مفرط. والحق أن انحطاط الحيوانات يسمح – على سبيل الفرضية فى أقل الأحوال (كما يقول بدقة شديدة دو بوو)– سحب قانون البيئة فى انحطاط الحيوانات على البشر. ومع تتالى النصوص، ازدادت العاهة التى يثقل بها التاريخ الطبيعى على الحياة فى أمريكا ثقلاً؛ "فانحطاط " سكانها الأوائل صار يعتبر ثابتًا، أما انحطاط المستعمرين الأوروبيين فيعتبر فى أقل الأحوال محتملاً. وفى الوقت نفسه – أى سنوات ١٧٧٠– انتشر هذا الوصف خارج مجال التاريخ الطبيعى، سواء فى حالته العلمية أو فى حالته الشعبية. لقد قفز من فوق عوائق الأنواع، وفرض فى كل مكان خطته التفسيرية. أقلق هذا النجاح المستعمرين الذين رأوا اللائحة المرضية للدونية الأمريكية وفرضية عجزهم المحتم يستقران كمكتسبات علمية فى كتب واسعة الانتشار ككتاب *تاريخ الهندين*.

لم يكن الموضوع الأول لكتاب *تاريخ الهندين* فى الواقع هو التاريخ الطبيعى لأمريكا، بل "المستقرات الأوروبية" فى العالم؛ فهو يقدم نفسه بوصفه "اقتصاديًا، وفلسفيًا، وسياسيًا". ولما كان قد حرره عدد من الكتاب بتوقيع الأب رينال، فضلاً عن

خضوعه لتعديلات عديدة لدى كل طبعة جديدة، فهو يقدم دراسات متباينة، وأحيانًا متناقضة. فتقديم القارة الأمريكية فيه مدين بشدة إلى المخططات التفسيرية التى قدمها بوفون الذى نُقلت نظريته عن التغير والانحطاط بصورة أمينة، وكذلك إلى القائمة السامة التى وضعها دو بوو – الذى كان فى معادلاته للاستعمار يتفق مع رينال تمام الاتفاق. ويبدو أثر الانجذاب محسوسًا بوجه خاص فى الطبعة الأولى (١٧٧٠)، التى تستقبل فرضية انحطاط البشر، لا بل إن رينال يزيد من ثقل الملاحظة؛ فهو يكتب عن "البشر الأحرار" فى "أمريكا الإنجليزية" فى هذه الطبعة الأولى: "لقد انحطت [هذه الطبقة من البشر] بصورة مرئية؛ فليس كل المولدين البيض فيها أشداء فى العمل وأقوياء فى الحرب بقدر الأوروبيين". ومع ذلك فأطفال هؤلاء الأوروبيين المنقولين، المولودين حيث انتقل آباؤهم، "معتادون على البيئة منذ ولادتهم": يوحى رينال بهذه الملاحظة أننا لا يسعنا تفسير هذا القصور بمجرد مشكلة التكيّف، بل ربما هناك ما هو أسوأ: "فتحت سماء أجنبية يكون العقل ثائر الأعصاب شأن الجسم". وينهى رينال الملاحظة بتأكيده على غياب كل "إنسان عبقرى" فى أمريكا المستعمرة: "لابد وأننا دهشنا من أن أمريكا لم تنجب حتى الآن شاعراً جيداً، أو رياضيا ماهراً، أو عبقريا ما فى فن واحد أو فى علم واحد على الأقل." والسبب فى ذلك هو "السهولة" فى كل شىء والنضج المبكر المرتبط بالبيئة؛ بحيث تنطفئ النيران على نحو مبكر جداً: "لما كانوا مبكرين فى النضج قبلنا فإنهم يكونون وراء نا حين نبلغ نحن أجلنا [أى حين نبلغ سن النضج]"(٥٢). إن الإنجليز الأمريكيين ضعيفو العقل والجسم، ومبكرو النضج، وشديدو الحيوية فى شبابهم، لكنهم عاجزون عن التفكير المستمر، ولا يقل وضوح دونيتهم العقلية عن إمكانية "رؤية" ضعفهم المادى.

كان ممثلو المستعمرات الثائرون على استعداد أن يدفعوا غاليًا كى تمحى صفحة مثل هذه من *تاريخ الهندين*، لكنهم سينجحون على الأقل فى العمل على إعادة كتابتها.

" اصطبلات أوجياس " الخاصة بالتعصب الفرنسى

وصل بنيامين فرنكلين إلى باريس فى شهر ديسمبر ١٧٧٦، بعد عدة أشهر من إعلان الاستقلال، ليُمثلَ المستعمرات الثائرة. كان قد مضى على الصدمة العسكرية الأولى بين الميليشيا الأمريكية والجيش البريطانى فى لينسنجتون Lexington، فى ١٩ أبريل ١٧٧٥، ثمانية عشر شهراً – كانت شديدة الصعوبة على الثائرين. وقد ذا ع

صيت فرنكلين وقبعته ومعطفه فى المدينة وفى البلاط. وشغف الناس بهذا الإنسان الجديد، اعتبرته كثرة شبيه كويكر(*) Quaker، أما من الناحية الدبلوماسية فقد كان يشعر أن الأمور لم تنضج بعد؛ إذ لن ينخرط الملك لويس السادس عشر إلا فى اللحظة التى سيقرر ذلك فيها على نحو أكيد فيرجين Vergennes الذى صار الأقوى منذ رحيل تورجو Turgot صبراً: إنّ "ريشار الطيب" يغذى شعبيته ليوم الحصاد. وتمضى سنة، وأخيراً يستسلم فى ساراتوجا يوم ١٧ أكتوبر ١٧٧٧، جيش إنجليزى قوامه بين خمسة وستة آلاف رجل، منهك ومقطوع عن مصادر تموينه، للثائرين. كان تأثير الصدمة هائلاً، وقد وصل لندن فى ليلة ٢ إلى ٣ ديسمبر. ورغم الجهود الوزارية المبذولة للتخفيف من الأمر، فقد استشعر الجميع منعطفاً فى الحرب، ولم يقل تأثير الخبر فى باريس، إما أن يتم الأمر فى هذه اللحظة وإما أنه لن يتم على الإطلاق. هكذا قرر فيرجن، وهكذا ففى السادس من ديسمبر يعلم لويس السادس عشر فرنكلين بقراره الاعتراف باستقلال المستعمرات وإبرام اتفاقية تجارة وصداقة وتحالف مع الثائرين، يوقعها فيرجن وفرنكلين يوم ٦ فبراير ١٧٧٨.

غير أن "الشجار" يستمر خلال التحالف؛ فولع واشنطن بالمجتمع الممتاز بلا حدود – كما كان يقول كريبيون Crébillon –لم يمنع الطبيعانيين من التمسك بنظرياتهم، ولا "الكتاب السياسيين" من الدخول فى السجال ونقد الدساتير الأمريكية على نحو ما فعل مابلى Mably . والوضع غريب على الصعيد الثقافى؛ فالولع الاجتماعى بالثائرين الذين تهدى إليهم الأغنيات ويُقص الشعر على مثالهم يشكل تضاداً غريباً مع الصورة السلبية إجمالاً عن أمريكا الراسخة على نحو قوى فى الجمهور المثقف بفضل شهرة بوفون والنجاح المدهش الذى حققه دو بوو: فكتابه «*أبحاث*» يطبع للمرة الحادية عشرة فى عام ١٧٩٩ (وكان لجوابه على برنيتى طبعة جديدة) وإليه، هو الذى كان المشنع بلا تحفظ، يُطلب أن يحرر مقال "الأمريكيون" من أجل ملحق الأنسيكلوبيديا فى عام ١٧٧٦، وهى سنة بالغة الدلالة على الصعيد الرمزى. ولكى يزداد الأمر سوءاً، قدم الباحث الإنجليزى روبرتسون فى عام ١٧٧٧ ملخصاً مستوحى إلى حدٍ كبير من بوفون وشديد السخرية من القارة الأمريكية التى تتجلى فيها الطبيعة "أقل خصباً" و"أقل قوة فى إنتاجها" من أوروبا، كما أن الحيوان فيها "كسول وخجول"، وبدلاً من أن يتميّز الإنسان نفسه بطاقة وحشية، يبدو "***حيواناً مفكراً***

(*) كويكر: عضو طائفة أسسها جورج فوكس فى القرن السابع عشر فى إنجلترا ضمن إطار تجديد البروتستانتية، ويطلق عليها أيضاً جمعية الأصدقاء. (هـ.م.)

كئيبًا "a pensive melancholy animal[٥٤] سيحقق الجرثوم البوفوني عبر رويرتسون تقدمًا جديدًا في أوروبا، وبصورة خاصة في ألمانيا؛ حيث تلقت أطروحة فقر الدم الأمريكي بركة همبولد Humboldt.

لم يستهن فرنكلين ولا جفرسون الذي خلفه في باريس عام ١٧٨٥ بهذه القصص الحبلى بالدجاجات العقيمة وبالنمور الجبانة، وكان بوسعنا أن نتوقع منهما أن يقلقا أكثر من النقد السياسي الموجّه ضد الحلف الفرنسي الأمريكي، كالنقد الذي وجّهه المحامي لنجيه Linguet، وهو مجادل بارع وغريب، الذي توقع في حالة استقلال المستعمرات تعدد الطغاة الصغار المحليين، وعلى المدى الأبعد انبعاث "*دولة ماكرة* *rogue stat*" قبل الأوان، مستعدة لكل المغامرات العسكرية كيما تستولي على التجارة العالمية. كان بوسعهما أيضًا أن يهتما بالنقد المؤسساتي القاسي الذي قام به الأب مابلي في كتابه *ملاحظات حول حكومة وقوانين الولايات المتحدة الأمريكية* (١٧٨٤). وبطريقة شديدة الإيحاء مع ذلك، لن تتناول إجابة الأمريكيين المتفق عليها فيما بينهم هؤلاء؛ فقد رؤي إهمال لنجيه، في حين تُرك مابلي لقلم مازي Mazzei، وهو فلورنسي صار مواطنًا أمريكيًا، والذي لم يلق ردّه المنشور في باريس نجاحًا ما، أما جفرسون فسيهتم بتدبير أمر من لم يكن مسموعًا.

ذلك لأن المعركة الحاسمة في نظر مجموعة الخبراء المطلعة التي يديرها جفرسون هي معركة التاريخ الطبيعي والصور الفاجعة عن أمريكا التي ينتجها؛ ففيه إنما يجب تركيز الجهد الرئيسي من خلال الإفادة من الحيرة التي أوجدتها أحداث أمريكا في صفوف الخصم: ألا يزال بوسعنا أن نصف المقاتلين في فالي فورج Valley Forge ولونج أيلاند Long Island وساراتوجا Saratoga بالمنحطين؟ إن منظري "العالم الأقل" الأمريكي أخذوا في تمزيق بعضهم بعضًا؛ فقد أحنق دو بوو بوفون حين سخر من أمريكا العجوز على الرغم من أنها لا تزال في سن الشباب: " ليس من السهل أن نتصور كيف يمكن لكائنات ما أن تصير عند خروجها من الولادة في حالة عجز وشيخوخة". إذا كان الأمريكيون منحطين – والجميع متفق على ذلك – فإن شباب أمريكا زعم "لا سند له"[٥٥]. ويرد عليه بوفون في عام ١٧٧٩ في بحثه *حقب الطبيعة* *Epoques de la nature* بجفاء، ولكن بقدر من الارتباك؛ فهو يدخل تمييزًا بين أمريكا الشمالية (التي كانت قيمتها في ارتفاع على نحو ثابت) وأمريكا الجنوبية حيث "الطبيعة بدلاً من أن تكون منحطة بسبب قدمها، قد ولدت متأخرة، ولم يسبق لها أن وجدت أبدًا مع القوى نفسها، ولا الطاقة النشيطة نفسها الموجودة في المناطق الشمالية". لكن انتهاء التطور يعمم من جديد على أمريكا كلها فرضية "مبدأ" أقل

نشاطًا"، وطبيعة "أقل فاعلية" مما هو عليه الأمر فى أوروبا. يا علماء الطبيعة، مزيدًا من الجهد...

لم تكن الأمور تتقدم على نحو أفضل من جهة الأب رينال وكتابه المسهب *تاريخ الهندين*؛ فالرهان على قدر من الأهمية نظرًا لنجاح الكتاب فى فرنسا وفى أوروبا. كيف يمكن خداع الأب ؟ يبدو أن فرنكلين قد اتجه فى البداية إلى استخلاص درس الأشياء؛ فبشهادة جفرسون كان قد جمع حول مائدته فى حى باسى Passy عددًا متساويًا من الأمريكيين والفرنسيين – ومنهم رينال، ضيف الشرف. فبعد أن استثار الأب رينال حول "صِغَرِ" الأمريكيين، أوقف فرنكلين المحادثة فجأة وجعل المدعوين يقفون وقد جُمعوا حَسب جنسياتهم : كان الأمريكيون جميعًا أطول قامة من أطول الفرنسيين جميعًا. ويبدو أن رينال نفسه، وكان ذا قامة صغيرة ("a mere shrimp")، قد استقبل المزحة برضى، لكنه رفض الحجة. من المرفوض اللجوء إلى أكثر النزعات التجريبية ابتذالاً عندما تتفق أكبر عقول أوروبا على عجز الطبيعة الأمريكية. ومع ذلك، فإنّ طبعتى ١٧٨٠ و١٧٨١ من كتاب *تاريخ الهندين* تحملان أثرًا واضحًا تمام الوضوح إن لم يكن لهذا الإخراج فعلى الأقل لتأثير فرنكلين الممتاز؛ فقد صححت عدة مقاطع من الكتاب لصالح أمريكا. وتناول الانقلاب الأشد إثارة نقطة كان أمريكيو باريس بالطبع شديدى الحساسية لها: "انحطاط المولدين البيض" – أى انحطاطهم. كل الحديث الموجود فى طبعة ١٧٧٠ حول العقم فى عبقريات القارة الأمريكية استعيد، ولكن على أساس اعتباره المثل على الأفكار المسبقة بالذات الواجب مقاومته! سنقرأ من الآن فصاعدًا: "لتبديد هذا الحكم المسبق الظالم، كان يجب أن يُعلِم فرنكلين فيزيائيى قارتنا المندهشة السيطرة على الصاعقة،...إلخ"(٥٦). لقد اخترعَ دافع الصواعق فى عام ١٧٥٢، وكان بوسع محررى *تاريخ الهندين* أن يتنبهوا مبكرًا لعبقرية فرنكلين، سوى أنّه من الأفضل أن ينتبه المرء متأخرًا من أن لا ينتبه على الإطلاق.

على أن الانتصار فى المباراة لا يزال بعيد المنال؛ إذ لا يزال كتاب *تاريخ الهندين* حتى فى استدراكاته يستمر فى المدح ("إن فخر وسعادة تغيير [الأمريكيين] يجب أن تكون من صنع أمريكا الإنجليزية") وفى الهجاء ("وهو ما لم تفعله بعد"). فالمآخذ والتنقيحات تركت صفحات كاملة من "الأحكام المسبقة" بلا مسٍّ؛ إذ لما كان كتاب *تاريخ الهندين* قليل الاهتمام بالنقد الذاتى وبخيلاً بإعادة النظر، فإنه يديم القوالب الجاهزة عن أمريكا شمالية قاسية على البشر وخالية من المصادر ولا يمكن لأحد حتى للاستقلال أن يخرجها من فقرها الفطرى. كان دو بوو قد حسم الأمر بقوله: "تفتقر أمريكا لكل شىء"(٥٧)، لكن رينال فى عام ١٧٨٠ لم يكن على هذا القدر من الجزم؛ فقد

قَبِلَ أن البلد عند اللزوم "سيستطيع بخلاف بعض الأمور الثانوية أن يكفى نفسه بنفسه"، ولكن دون أى شيء إضافي ودون أى أفق في النمو. فعلى هذه الأرض "التى تنحط بسرعة كبيرة" كما يسجل رينال، "إذا استطاع عشرة ملايين من البشر أن يجدوا قوام معاشهم مضمونًا، فذلك كثير"(٥٨). وفى الفصل الختامي: "أية فكرة يجب تكوينها عن الولايات المتحدة الثلاثة عشرة"، لا يزال يلح على النوعية الرديئة للأراضى وعلى نضوبها السريع. في الجنوب، لم تكن المزروعات تعطى إلا ثلث التبغ الذى كان يُحصد "في الماضى". أما فى الشمال (فى الميريلاند، ونيويورك، ونيو جرسى)، فإنّ الأكر الذى كان يعطى ستين صاعًا من الحنطة "لم يعد ينتج عشرين صاعًا إلا نادرًا جدًا"، من كثرة "ما ساءت فيها حالة الأرض". لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية فى نظر رينال تشبه عن كثب شديد "العالم المنكوب" الذى وصفه دو بوو: بعض "الأراضى السيئة عمومًا أو من نوعية رديئة"، وفيما بعد هناك "المستنقعات"، و"حين يرتفع البلد، فلسنا إلا أمام رمال متمردة أو صخور فظيعة، تتخللها من بعيد لبعيد مراع من طبيعة الأسل". يمكننا لدى قراءتنا هذه السطور التى كتبت خلال الحلف الفرنسى الأمريكى من قبل أنصار معروفين للمتمردين أن نقيس مدى تجذر الحكم المسبق "الطبيعانى" ضد أمريكا، ونفهم على نحو أفضل لماذا قذف جفرسون بنفسه شخصيا فى المعركة؟!

وشأن فرنكلين، أراد جفرسون أن يجتث الشر من جذوره، وأن يعيد الاعتبار "علميًا" لأمريكا فى ذهن الفرنسيين الذين ارتووا منذ ثلاثين عامًا بصور مفجعة عنها. إن المهمة الضرورية الأعمق سياسيًا من أى خصام سياسى أو مؤسسى تتجلى فى هدم وبعثرة هذه الكمية من الأحكام المسبقة التى يقارنها جون آدامس فى رسالة تعود إلى عام ١٧٨٥ بصورة شديدة الإيحاء "بإصطبلات أوجياس"(٥٩). إن الدفاع السياسى عن الولايات المتحدة الأمريكية يمر بالكشف عن قابليتها للحياة ماديًا واقتصاديًا. فليرفض الآخرون النقد أو التحفظات التى تكثر فى كل مكان تقريبًا ضد المؤسسات الأمريكية؛ إذ إن الملحّ الآن، والأولى، فى نظر جفرسون، هو تصحيح الصورة المفجعة عن أمريكا المنهارة. إن مصداقية التجديد السياسى الأمريكى يتطلب أن تجتث الميثولوجيا السلبية التى استقرت منذ بوفون من جذورها فى فرنسا.

فى كتابه *ملاحظات على ولاية فرجينيا* ***Notes on the State of Virginia*** يردّ جفرسون جملة واحدة على خصوم العالم الجديد، ولكن مع حسٍّ حاذق بالمراتبية وبحدس كامل بالخطوات الأكثر خاصية لاكتساب الجمهور المستهدف: الأنتليجنسيا الباريسية المشبعة بالفلسفة، سيعامل دو بوو (وهو حتى غير فرنسى) بالاحتقار. لقد نقد رينال نقدًا لاذعًا بحدة، ولكن بإيجاز، والذى نسب إليه أطروحة انحطاط البيض فى

أمريكا، كما أنه أخذ عليه أيضًا أنه أكد بخفة قبل أن يندم على ذلك، أن أمريكا لم تنتج أى رجل عبقرى، فى حين أنها كانت تملك أصلاً ثلاثة: واشنطن، وفرنكلين، و ريتنهوس Rittenhouse، وهو ما يتساوى بالنسبة لثلاثة ملايين من السكان مع المتوسط الأوروبى(٦٠).

لكن من يرد عليه بوجه خاص نقطة بعد نقطة هو بوفون، إلى درجة أنّه أعطى على عدة صفحات لوائحه الخاصة بالحيوانات فى كل من القارتين، مستعينًا بمقارنة الوزن بينها. يطلب جفرسون من قرائه الفرنسيين قائلاً: زنوا واحكموا، احكموا أولاً إذا كان من المعقول - ومع احترام قواعد اللعبة - مواجهة أمريكا مع بقية العالم. أليس من الأفضل عدلاً فى الحقيقة أن نواجه جزءًا من العالم بجزء آخر من العالم، ومن ثم، مادامت المشاجرة قادمة من أوروبا، أن نواجه أمريكا بأوروبا وحدها؟ ثم زنوا وانظروا إذا كان الدبُّ فى أوروبا (١٥٣,٧ ليبرة) يوازن الدب فى أمريكا (٤١٠ ليبرة)(٦١). انظروا بوجه خاص إلى أى حد يتغير الجزء العلوى فى اللوحتين؛ لأن البيسون أو الثور الأمريكى لدينا يتجاوز تجاوزًا هائلاً دبّكم الذى صار أكبر حيوان عندكم ويزن (١٨٠٠ ليبرة) وربما كان هذا العملاق الذى عثرنا على هياكله العظمية، والذى يؤكد هنود دلورس أنه لا يزال موجوداً فى الشمال الغربى، هو هذا الماستودون الذى لقبناه بالماموث.

ولكن حتى لو لم نلجأ إلى بطل العظمة الأمريكية هذا المنقرض على وجه الاحتمال، فإن التجربة المضادة تبرهن على أن الكونت دو بوفون كان يفتقر إلى الحذر إن لم يكن إلى الفطنة؛ "فرأيه "الثلاثى - أولاً أن الحيوانات المشتركة مع العالم القديم والعالم الجديد هى أصغر فى الأخير، ثانيًا أن الحيوانات الخاصة بالعالم الجديد تنتمى إلى السلم الصغير، ثالثًا أن الحيوانات التى أهلت فى العالمين قد انحطت فى أمريكا، قد أبطل كليا بالمنهج المقارن، أى المنهج ذاته الذى نادى به حتى وإن تم تطبيقه مع بعض التردد. أما فيما يخص الاعتبارات البيئية التى تحدث عنها السيد دو بوفون والمتعلقة بالطابع البارد والرطب لأمريكا بصورة عامة، فإن جفرسون سوف يتجاوزها تقريبًا، لكنه يسجل أن الرطوبة التى تم قياسها فى فيلادلفيا تبدو على نحو واضحٍ أدنى من مثيلتها فى باريس أو فى لندن، ويتساءل من ثم، وبصورة محترمة دومًا، عن الأساس العلمى لرأى السيد دو بوفون، الذى ينظر إلى الرطوبة باعتبارها مضادة بصورة ضمنية للحياة... ويستنتج جفرسون بأنه لا شيء على وجه اليقين يسمح "لعالم الحيوان الشهير" أن يكتب (ويستشهد به فى نصه) أن "الطبيعة الحية هى أقل فعالية وأقل قوة بكثير"(٦٢) فى أمريكا منها فى العالم القديم.

هكذا يتقدم إلى منصة الرأى المستنير الأبُ المؤسس، قارئُ مونتسكيو والدستوريين الإنجليز، ومهندسُ العالم الجديد السياسى، وعلى هذا النحو يدافع عن أمريكا مرتديًا لباس المسّاح، وعالم الأرصاد الجوية، وعالم النبات، هكذا نراه بدهشة وتسلية يرصف، متجاهلاً الأذى، أرقام هطول الأمطار، ويعرض الأنواع النباتية، ويعيد قياس الحيوانات المفترى عليها فى الوطن الأمريكى. إن شحن "الطبيعة الأمريكية" بالنشاط لم يعد قضية التاريخ الطبيعى بل قضية التاريخ نفسه، كل شىء كان يجرى كما لو أن المصير السياسى والدبلوماسى للولايات المتحدة الأمريكية، وتوطيد الجمهورية الشابة كانا يتوقفان أيضًا (على الأخص؟) على اجتثاث الأحكام المسبقة الخارقة التى تغذت من علم الفلاسفة على حساب القارة الجديدة.

تخاض المعركة من الآن فصاعداً على جبهة الصور، تلك هى فكرة جفرسون دون أن تسمى التى تملى عليه استراتيجيته. ولئن ذهب يبحث عن الخصم على أرضه – أرض التاريخ الطبيعى التى يتحصن فيها بوفون ومنافسوه – فلكى يستملكه بصورة هادئة. للأمريكيين أن يقولوا أمريكا: سنجد آنئذ أن الأرض أقل مستنقعية مما هى لدى بوفون، وأقل "سمًا" مما تصورها دو بوو، وليست "فاسدة" بالقدر الذى وصفها به الأب رينال. ويرد جفرسون على الأرقام بأرقام أخرى، وعلى النظريات بالملاحظات، وعلى الوصف بالعينات، وعلى الفرضيات المزعجة بالافتراضات المادحة (كوجود الماموث العملاق)، وعلى مقال التحقير بشعرية التعظيم. أينعت هؤلاء السادة فى أوروبا النمر الأمريكى بالجبان؟ حسنًا. ليكن: إذ يقذفهم جفرسون بـ"وشق هائل" فى منتهى الجمال؛ فالأمور تجرى فى حرب الصور كما تجرى فى الحرب.

لم يوفر جفرسون إذن أى جهد ليعيد فرنسا العالمة إلى مشاعر أفضل، ولا حتى ماله؛ فقد أهدى إلى بوفون الذى كان يتمنى رؤية علند أمريكى علنداً moose من فيرمونت(٦٣)؛ فقد كلفه تذكار الصيد وشحنه ستين جنيهًا، كان يتحسر عليها، لكن الحقيقة لا ثمن لها، و لا كذلك الشرف المغسول من كبار مشترى العالم الجديد. على الرغم من هذه التضحيات المالية (فقد حصل أيضًا على جلد نمر أمريكى جميل المظهر)، فقد مات دو بوفون فى عام ١٧٨٨ دون أن يفى بوعده بإعادة الاعتبار تمامًا للطبيعة وللإنسان الأمريكيين. أما بالنسبة لرينال، الذى دللته الثورة بوصفه الفيلسوف الوحيد "الوطنى" الباقى على قيد الحياة، فإنه يسقط بعنف من مقامه العالى؛ لأنه تجرأ ونقد الفوضى الثورية فى عام ١٧٩١. سيعيش دو بوو حتى عام ١٧٩٩، لكنه سيهتم من الآن فصاعداً باليونان وبالمصريين، ويترك – متبعًا فى ذلك نصيحته الخاصة به – أمريكا "فى سلام". لم تنطفئ "خصومة العالم الجديد" معهم، لكن لفرنسا من الآن

فصاعداً دوافع أخرى للتناحر مع الولايات المتحدة الأمريكية غير قامة العلند أو قوة الوشق الهائل.

جعل ميشليه من سنة ١٧٩٠ سنة الثورة الفرنسية الزاهية ومن عيد الاتحاد أوجها المرح. ولا شك أنه في عام ١٧٩٠ بلغ الاحتفال بأمريكا في فرنسا أوجه حين تقررت الأيام الثلاثة حداداً على موت فرنكلين. لحظة مثيرة، وتتويج بلا غد؛ إذ سيقطعها تجذر ثورة فرنسا بسرعة كبيرة عن أى عودة إلى أمريكا إلا إذا كانت للبهرجة فقط؛ فقد غادر الناطقون باسم النموذج الأمريكي والرجال الذين كانوا يرمزون للحلف المنصة أو أنهم لم يعودوا أحياء. وتتوتر العلاقات الدبلوماسية بين الحكومة الاتحادية وفرنسا ثورية كان وزيرها المناضل فى واشنطن، جينيه، يكثر من التصريحات الصارخة، ويشرع فى تكوين فرقة متطوعين على الأرض الأمريكية ذاتها ليهاجم الإنجليز فى جزر الأنتيل. وكان الإرهاب الذى سجن بين Paine قد حرم الثورة الفرنسية من عطف الحكومة الأمريكية التى كانت حريصة على أن تتلافى أى عدوى لليعاقبة، ومن عطف جزء كبير من الرأى العام الذى صدمته أحكام الإعدام. ولم يتح سقوط روبسبيير أى تهدئة؛ فقد فاوضت الولايات المتحدة، وأبرمت معاهدة سرية مع بريطانيا العظمى (*Jay's Treaty*) وما إن عرفت فى باريس حتى أذهلت معاهدة الخيانة هذه حكومة المديرين، وأثارت حملة صحفية عنيفة ضد الولايات المتحدة الأمريكية. سيهاجم القراصنة الفرنسيون من الآن فصاعداً البواخر الأمريكية، وبعد عشرين عاماً من معاهدة "التجارة والصداقة والتحالف" باتت فرنسا والولايات المتحدة فى حالة حرب. سيسميها المؤرخون الأمريكيون "حالة ما قبل الحرب **the Undeclare War**"، ولكى تكون حرباً لم يكن ينقصها فى الواقع إلا الاسم. خاتمة غريبة لعصر التنوير الذى بدأت فيه، حتى قبل ولادة الأمة الأمريكية، حرب الصور الفرنسية المعادية لأمريكا – "إصطبلات أوجياس" هذه التى سيكون تنظيفها عملاً من أعمال سيزيف لا من أعمال هرقل.

هوامش

(١) Etiemble, Parlez-vous franglais ? , Paris, Gallimard, 1964, P. 291.

(٢) A. Gerbi, *La Disputa del Nuovo Mondo. Storia di una polemica (1750-1900)*, Milano-Napoli, Riccardo Ricciardi Editore, 1955.

هذا المؤرخ للأفكار، وهو تلميذ الفيلسوف الإيطالي كروتشه، كان قد هاجر من إيطاليا إلى أمريكا اللاتينية، كان قد جمع على امتداد الطبعات المتتالية (بالإسبانية، والإنجليزية، والإيطالية)، مواد مهمة حول هذه "الخصومة"، ولا يزال عمله غير منشور في فرنسا. وقد قام مؤخراً جيمس و. كيزر James W. Caesar بمنح "خصومة العالم الجديد" امتدادات مهمة حين واجه على امتداد القرن التاسع عشر سلالة "طبيعانية" ازدهرت في "العلوم العنصرية" من جهة، وتقاليد العلوم السياسية من جهة أخرى. انظر كتابه:

Reconstructing America. The Symbol of America in Modern Thought, New Haven & London, Yale University Press, 1997.

(٣) J.-B. Delisle de Sales, *De la Philosophie de la Nature*, A Londres, 1777, t. IV, P. 247.

تعود الطبعة الأولى إلى عام ١٧٧٠ (للأجزاء الثلاثة الأولى) وإلى عام ١٧٧٤ (للأجزاء الثلاثة التالية) .

(٤) Voltaire ? *Essai sur les m urs, édité par R. Pomeau*, Paris, Classiques Garnier-Bordas, 1990,t.2,P.340.

(٥) C. De Pauw, *Recherches philosophiques sur les Américains ou mémoires intéressants pour servir à l'histoire de l'espèce humaine*, [1768], Paris, Jean Michel Place, 1990 (éd. En fac-similé de l'édition de Berlin, 1774), préface de Michèle Duchet ; tome second, P. 191.

(٦) Ibid., P. 137.

(٧) Durand Echeverria, *Mirage in the West: A History of the French Image of American Society to 1815*, Princeton University Press, 1957, P. 15.

(٨) C. De Pauw, *Recherches*... Dissertation préliminaire,éd.Cit., tom premier, P.V.

(٩) G.T. Raynal, *Histoire philosophique et politique des établissement et du commerce des Européens dans les deux Indes*, Genève, 1781 (dix volumes in-12º),

t. IX, chap. XXVII, p. 133.

(١٠) كذلك الأمر عند إنجل، انظر :

S.Engel, *Essai sur cette question : quand et comment l'Amérique a-t-elle été peuplée d'hommes et d'animaux?*, Amsterdam,1767.

(١١) C. De Pauw, Lettre sur les vicissitudes de notre globe Recherches..., éd. cit., vol.2, p. 30.

(١٢) أدخلت أوائل الرسائل الإسبانية والبرتغالية مخطط المياه الموجودة فى كل مكان، ومنذ ذلك الوقت فسر شذوذ الأرض الأمريكية فى اتجاه لم يكن فى مصلحة البشر الذين يسكنونها، وستشتهر كلمة نسبت إلى الملكة إيزابيل شهرة أسطورية خلال قرون عديدة: "على هذه الأرض التى لا تتجذر فيها الأشجار، هناك قليل من الحقيقة وأقل أيضًا من الوفاء لدى الرجال"؛ مذكورة فى:

A. Gerbi, *La Disputa*..., p. 45.

(١٣) Buffon, *Variétés dans l'espèce humaine [1749], Ouvres complètes, Diom-Lambert*, puis Paris, J. Poulain & Cie, puis Imprimerie et Librairie Générale de France, 1859 ; V, p. 441.

(١٤) C. De Pauw, Recherches ..., éd. cit., tome premier, p. 3.

(١٥) Ibid., p. 2

(١٦) Voltaire, *Essai sur les m urs*..., t. II, p. 340

(١٧) T. Jefferson, *Notes on the State of Virginia*, London, Pinguin Classics, edited with an introduction and notes by Frank Shuffelton, 1999, P. 68.

(١٨) T. Jefferson, *letter au marquis de Chastellux*, 7 juin 1785; Notes..., éd. cit., p. 267. (18)

(١٩) Ibid. p. 308, note 111

(٢٠) Buffon, Dégénération des animaux [1766], Ouvres complètes, VIII, p. 240

(٢١) Ibid., p. 241.

(٢٢) Buffon, Variétés.., p. 451.

(٢٣) Buffon, *Dégénération des animaux* [1766], Ouvres complètes, VIII, p.219.

(٢٤) الذى يفترض العلاقة بين حيوانات القارتين ثابتة منذ البداية؛ مما يسمح بالانتقال إلى المقارنات

الخاصة حسب المكان المشغول فى كل قائمة (" الأول فى الضخامة "...إلخ). هذه المقارنات الخاصة (من اللامة إلى النعجة) جاءت مخيبة؛ فهى لا تقدم سوى تشابهات فى التفاصيل، ومن ثم فإن غايتها ليست السماح بتحقيق اكتشافات على هذه الحيوانات، بل جعل تسويغ العملية الأولى مقبولاً : انظر إلى القائمتين.

(٢٥) Buffon, *Variétés*..., p. 241.

(٢٦) Buffon, *Dégénération*..., p. 217.

(٢٧) *Ibid.*, p. 218.

(٢٨) *Ibid.*, p. 219

(٢٩) *Ibid.*, p. 217

(٣٠) C. De Pauw, *Défense des*...Recherches philosophiques sur les Américains, par Mr. De P***, [1770]. Recherches..., vol. II, p. 205.

(٣١) C. De Pauw, *Recherches*..., tome premier, p. 188

(٣٢) C. De Pauw, *Défense des Recherches*..., p. 320.

(٣٣) أول مسرحية ذات موضوع هندى قدمت على مسرح الكوميدى فرانسيز كانت فيما يبدو الهندية الشابة La jeune indienne، فى عام ١٧٦٤، وكانت هذه المسرحية أول نجاح لشامفور Chamfort، الذى كان له من العمر أنئذ أربعة وعشرين عاماً.

(٣٤) C. De Pauw, *Recherches*..., tome premier, p. 3.

(٣٥) *Ibid.*, p. 4

(٣٦) *Ibid.*, p. 3

(٣٧) *Ibid.*, p. 19.

(٣٨) *Ibid.*, p. 31.

(٣٩) *Ibid.*, p. 20.

(٤٠) *Ibid.*, pp.4-5.

(٤١) المقصودون هنا من قبل المناظرين المعادين لأمريكا الآباء لافيتو Lafitau مؤلف كتاب *Mœurs des Américains comparées aux mœurs des premiers Temps* (1724) وبوفيه وشارلفوا، الذى يقارن الهنود بالآباء فى كتابه "Journal historique: تذكرت أنئذ هؤلاء الآباء القدماء الذين لم يكن لهم سكن، ويسكنون تحت الخيام..." انظر : (*Histoire et description générale de la Nouvelle France. Avec le Journal historique d un voyage fait par ordre du roi dans l Amérique septentrionale*, Paris, Vve Ganeau, 1744-1746, vol. 6, p.254)

(٤٢) C. De Pauw, *Revherches...*, toms second, p. 108.

(٤٣) *Ibid.*, p. 109.

(٤٤) *Ibid.*, p. 160. ، يرسم هنا صورة طبيعانيى كاليفورنيا، لكنه يشير إلى أنها " مطابقة للصورة التى أعطيناها عن الأمريكيين كافة ".

(٤٥) انظر : M. Delon, Du goût antiphysique des Américains , *Annales de Bretagne*, nº 2, 1977.

(٤٦) C. De Pauw, *Défense des Recherches...*, Recherches..., vol. 2, p. 145.

(٤٧) C. De Pauw, *Recherches...*, tome premier, p. 51.

(٤٨) *Ibid.*, pp. 354, 352. .

(٤٩) C. De Pauw, *Recherches...*, tome second, p. 53.

(٥٠) ظهر كتاب رحلات فى أمريكا الشمالية لبيتر كالم Peter Kalm, *Les Voyages en Amérique du Nord* باللغة السويدية عامى ١٧٥٣ و ١٧٦١، وقد ترجم جزئيًا إلى الفرنسية عام ١٧٦١، وتم " اقتباسه " بتوقيع روسلو Rousselot وسورجى Surgy تحت عنوان التاريخ الطبيعى والسياسى لبينسلفانيا (*Histoire Naturelle & politique de la Pensilvanie* باريس ١٧٦٨)، وقد استشهد به دو بوو فى : C. De Pauw, Défense des Recherches..., *Recherches...*, vol. 2, p. 136.

(٥١) C. De Pauw, *ibid.*, pp. 206, 145.

(٥٢) C. De Pauw, *Recherches...*, tome second, p. 118.

(٥٣) G. T. Raynal, *Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens dans les deux Indes*, Amsterdam, 1770, t. VI, p. 376.

(٥٤) W. Robertson, *History of America*, London, W. Strahan, 1777; t. I, p. 398

(٥٥) C. De Pauw, *Recherches..*, éd. cit., tome premier, pp. 20,91.

(٥٦) G. T. Raynal, *Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européen Dans les Deux Indes*, A Genève, chez Jean-Léonard Pellet, 1780, t. IV, ch. XXXII, De quelles espèces d'hommes se sont peuplées les provinces de l'Amérique septentrionale , p. 353.

(٥٧) C. De Pauw, *Défense des* Recherches.., *Recherches* ... , vol. 2, p. 250.

(٥٨) G.T. Raynal, *Histoire des Deux Indes...*, Genève, 1780, t. IV, p. 459 ; même texte dans l'édition de Genève in-12º de 1781.

(٥٩) J. Adams à Mazzei, 15 décembre 1785 (Jefferson papers, VIII, 678); cité par D.

Echeverria, *Mirage*..p. 123.

(٦٠) لقد تصور وحقق العبقرى الأمريكى الثالث فى نظر جفرسون، دافيد ريتنهوس (١٧٣٢-١٧٩٦)، وهو عالم فلك ورياضيات، عدداً من أدوات القياس. وقد احتل عدداً من المناصب السياسية، وكان أول مدير للنقد فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد خلف صديقه فرنكلين على رئاسة الجمعية الفلسفية الأمريكية.

(٦١) انظر : T. Jefferson, *Notes*..., éd. cit., p. 51؛ إن ردّ بوفون مفصل فى الجواب عن السؤال السادس ("Query VI")

(٦٢) Buffon, cité par Jefferson (*Notes*..., p. 48) dans l'édition de Paris de 1764 (XVIII, p.122)

(٦٣) العلند Elk: هو ظبى ضخم فى أمريكا، والـ : moose الأصلى يقال له أيضاً علند من كندا.

القسم الأول
ارتقاء اليانكى الذى لا يقاوم

الفصل الأول

١) زمن الاحتقار

"يالها من رائحة مخزن ! كما كان يقول جوزيف دو ميستر".

بودلير

"... وهناك لا وجود للأوبرا".

ستندال

ماتت الإمبراطورية للمرة الثانية فى واترلو. "رأينا من جديد أبناء الشمال، وفرسان أوكرانيا يقرضون لحاء أشجار حدائقنا[1]." انطوت فرنسا المهزومة على سلامها العائد، وسيشكو عما قريب جيل كامل من الاختناق فى عالم صغر فجأة. لابد من جواز سفر للذهاب من باريس إلى بونتواز Pontoise(*)، ولابد من جواز أيضًا (ويكلف عشرة فرنكات) للذهاب إلى أمريكا أو بعبارة أكثر دقة للخروج من فرنسا؛ لأنه يمكن للمرء فى أمريكا آنئذ أن يدخل بدون أوراق رسمية أو جواز سفر أو سمة دخول.

لكن أمريكا شديدة البعد ماديًا: لابد من شهر فى البحر ضمن شروط مثلى، ومن ثمانية أسابيع إذا تعكرت الأمور. فى عام ١٨١٧، قضى أسقف أورليان الجديدة المسكين، المونسنيور دوبورج Mgr. Dubourg، خمسة وستين يومًا انطلاقًا من بوردو للوصول إلى آنابوليس Annapolis، صحيح أن فولنى Volney الذى لم تسعفه العناية الإلهية قضى تسعة وثمانين يومًا فى عام ١٧٩٥ ... كانت المعلومات تنتقل على الوتيرة نفسها: شهران كاملان لوصول رسالة رسمية، ولم يكن العمل الدبلوماسى سهلاً بسبب ذلك. وهكذا فقد علم وزير فرنسا فى واشنطن رو دو روشيل Roux de Rochelle بثورة ١٨٣٠ بعد أربعين يومًا من حدوثها. وبعد إنشاء الخطوط المنتظمة بواسطة السفن الشراعية فى سنة ١٨٣٠، جاء التحسين الكبير من سفن كُنارد Cunard البخارية التى كانت تعبر المسافة خلال خمسة عشر يومًا. بدأت هذه السفن بالعمل عام ١٨٤٠، ولكن انطلاقًا من إنجلترا فقط، أما الخط الفرنسى الأول فلم يتم إنشاؤه إلا فى عام ١٨٦٤. هذا الفرق فى التاريخ أشد فصاحة من كثير من الإحصاءات.

(*) بونتواز: مدينة تقع على بعد ٣٢ كيلو مترًا من باريس، فى منطقة فال دواز.

هذا فيما يخص "المسافة"، يبقى ما أسماه رنيه ريمون "البعاد"[٢]؛ لأن هذه المسافة ليست جغرافية فحسب، بل هي نفسية أيضًا. لقد عقّد الحصار، والحصار المضاد، والحرب الإنجليزية المبادلات التجارية عبر الأطلسي، ولكن الخيبة بوجه خاص من الحقبة الثورية بردت إلى حد كبير الحماس، وذلك قبل أن يقطع انفصال لويزيان حبل السرة مع أمريكا القارية. ولم يعوّض اختفاء العلاقة الاستعمارية بهجرة بقيت حتى بعد عودة السلام ذات مستوى شديد الانخفاض.

رحل عدد من البونابارتيين في عامي ١٨١٥-١٨١٦، وقد تبعهم بعض الطوبايين ولا سيما بعد عام ١٨٤٨. هجرات جماعية متواضعة: فأتباع كابيه Cabet(*) وجمهوريته الطوباوية إيكارى Icarie هم الأكثر عددًا، ومع ذلك فلم يكونوا يتجاوزون الخمسمائة. على أن ***أمريكا القاحلة*** *tabula rasa* لم تكن تفتن المجددين الاجتماعيين جميعًا. وتراجعُ الحركة السان سيمونية اعتبارًا من سنة ١٨٣٠ ذو دلالة في هذا المجال: ففي حين أن سان سيمون نفسه، وهو رفيق لافاييت وعضو حركة سينسيناتوس Cincinna-tus، كان يعطى الولايات المتحدة دومًا كمثل جدير بالتأمل، كان ورثته الروحيين يكثرون من النقد، ويحولون دون تهجير الخلية السان سيمونية نحو العالم الجديد[٣]. أما بالنسبة إلى هجرة البؤس فهى تؤلف ساقية صغيرة بدلاً من الدفق. ويقدر رنيه ريمون إجمالاً عدد المسافرين إلى أمريكا وسطيًا بـ ٤٢٠٤ شخصًا في السنة، وذلك بين عام ١٨٢٠ و ١٨٥٠. وليس في ذلك ما يتيح إنشاء روابط عديدة وقوية بين الوطن الأم وبلد الاستقبال.

ويضيف رنيه ريمون أن "انخفاض المراتب" يلعب دوره في هذه الهجرة. وصورة المهاجر تعكس ذلك؛ فهى غالبًا صورة منبوذة، يشهد على ذلك أدب تلك الحقبة؛ ففي أدب بلزاك لا يذهب إلى أمريكا إلا التافهون كي يعودوا أشد سوقية أيضًا كما هو حال فيليب بريدو، الأخ المعيب لجوزيف الرقيق والأصيل (***المُعكِّرة*** La Rabouilleuse). لابد حقًا من أن تكون الشخصية شخصية منفرة (وثانوية) في الرواية الفرنسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر كي تعبر المحيط. إذا كانت أمريكا تبدو لفيليب بريدو طيبة، فإنها تبدو لفوتران أسوأ من الانتحار (***في عظمة وبؤس العاهرات***). أما لدى

(*) إتيين كابيه: اشتراكى فرنسى (١٧٨٨ ديجون - سان لويس في الولايات المتحدة ١٨٥٦). هاجر إلى الولايات المتحدة بعد أحداث ١٨٣٠، وكتب عددًا من المؤلفات حول الثورة الفرنسية، كما كتب رواية فلسفية تحت عنوان ***الرحلة إلى إيكارى*** *Le Voyage en Icarie* (١٨٤٠-١٨٤٢) التى دعا فيها إلى شيوعية مسالمة وطوباوية. والإشارة هنا تخص هذه الرواية. (المترجم)

ستندال فإن فابريس دلدونجو لا يفكر فيها أبداً من شدة سعادته للبقاء في السجن قريباً من كليليا كونتي المحبوبة، وإذا كان الكونت موسكا يفكر فيها بدلاً منه، فإنه ما يلبث أن يستبعد من فوره الفرضية: "في أمريكا، وفي ظل الجمهورية، يجب على المرء أن يسأم طوال النهار من مغازلة أصحاب الدكاكين في الشارع بصورة جدية، وأن يصير غبياً مثلهم، وهناك لا وجود للأوبرا(٤)".

كان يبدو غريباً للفرنسيين (وللأدباء منهم بوجه أخص) أن يذهب المرء للعيش هناك دون أن يكون مدفوعاً نحو ذلك من قبل أشد الضرورات قسوة أو من قبل أشد ضروب العار خزياً. كتب تاليران إلى مدام دو ستايل: "لو بقيت عاماً هنا لمتُّ"(٥). لابد وأن إمكان انتزاع أمريكا مثل هذه الصرخة من أكثر المنفيين السياسيين تجربة قد أذهل مراسلته الشهيرة. ليس هذا الحزن اختلاقاً؛ إذ تشترك فيه على نحو واسع جالية الفرنسيين المشاغبة على قلة عددها في بنسلفانيا؛ فهم يذبلون، ويحنون إلى باريس، ويفقدون الشعور ذاته بالوجود. وسواء أكانت جحيماً على الأرض أم أطرافاً أبدية، تبتلع الولايات المتحدة الأمريكية المنفي على نحو هو من الجودة؛ بحيث إنه إن ظهر من جديد صدفة لَنُظر إليه بوصفه عائداً. وعلى هذا النحو يقص رينان ظهور لاكانال Laka-nal الذي اضطر إلى الهجرة بوصفه عضو الجمعية التأسيسية وممن صوتوا على قتل الملك في عام ١٨١٦. كانت عودته واستعادة مقعده من جديد في المعهد Institut في عام ١٨٣٧، وذلك بعد اثنين وعشرين عاماً قضاها في أمريكا، مشهداً أشبه بمشاهد رواية بلزاك *الكولونيل شابير*: لقد استقبل زملاءه وقد تحجروا "كما لو كان شبحاً"، الوزير السابق للتربية العامة، طيف الجمعية التأسيسية الذي غدا معتوهاً أمريكياً.

كانت العلاقات بين فرنسا والولايات المتحدة خلال طوال نصف القرن هذا تفتر بالتدريج. هناك الاحتكاكات المتكررة حول العقبات التَعرِفية أو حقوق الملاحة التي كانت تضفي ضرباً من الغيظ على علاقات عبوسة بصورة عامة. وقامت أزمة جدية حول التعويضات التي طالبت بها الولايات المتحدة في عام ١٨٣٤–١٨٣٥، ولقد تم إيقافها بسرعة، لكنها تركت ذكريات سيئة للغاية(٦). وإذا كان الهدوء هو الذي ساد عموماً فهو هدوء الفتور. من بين نتائج هذا اللااهتمام "استقرارالصور"، أي شيخوخة الصور بالمقارنة مع الواقع الأمريكي. تقدم أمريكا "مظهراً وحشياً لغابة تكاد تكون عامة تتقدم اعتباراً من شاطئ المحيط، وتستمر كثيفة بالتدريج داخل الأراضي"، كما كتب في عام ١٨٠٣ فولني الذي كان أكثر اعتياداً على صحراء الشرق الأوسط(٧). وفي كتاب صدر في عام ١٨١٦، لم يتغير المشهد: " ليست أراضي الولايات المتحدة بمعنى ما سوى غابة

شاسعة تبدأ عند المحيط[٨]. ولن تتغير قريبًا. فرنيه ريمون يسجل إعادة إنتاج هذه الملاحظات دون تغيير حتى سنوات ١٨٤٠ فى كتب يعود تاريخ كل المعلومات التى تعتمد عليها إلى ما قبل الثورة. وفى بعض الحالات، كان "تأخر المعلومات حول الحدث" يبلغ نصف قرن، وسيكون "من الوهم الظن بأن التأخر قد تضاءل بعد ١٨٣٠"[٩].

مرحلة عابسة إذن، لكنها أقل عقمًا بالصور المعادية لأمريكا مما يمكننا أن نظن؛ لأنه إذا كانت الأوصاف والمعلومات تتكرر دون تغيير كبير، فليس الأمر كذلك فيما يخص التعليقات أو الأحكام التى تتناول الولايات المتحدة. يجب إذن تصحيح فكرة "استقرار الصور" بفكرة انتقال المنظور، بتوجيه جديد للنظر. لقد فقد القدح "الطبيعانى" فى القارة شيئًا فشيئًا من حدّته أو أنه يعيد استثمار قواه فى فرضيات يتغلب فيها التاريخ على التاريخ الطبيعى. أما بالنسبة للجدل حول النموذج الدستورى، فإنه فقد إلحاحه: حتى لو أن جزءًا جمهوريا من الرأى العام يثنى من حيث المبدأ على بلد "الجمهورية الحقيقية"، فإنه لا يتوصل إلى التحمس لأندرو جاكسون، وهو سياف صار رئيسًا مرتين[١٠]، ولا إلى الاعتياد على الاستمرارية المحرجة لنظام العبودية.

فى هذا الفراغ النسبى الذى خلفه هذا الانسحاب العام، قام خطاب جديد ضد الولايات المتحدة: خطاب نزعة معاداة أمريكا جمالية، وهو قاعدة بدائية لنزعة معاداة أمريكا ثقافيًا الخاصة بالقرن العشرين. فبعد نظرات عالم الطبيعة والسياسى، هى ذات نظرة أخرى تلقى على أمريكا، نظرة الفنان، وعالم الجمال، والمتعى. لم يكن الثالبون الجدد هؤلاء ليهتموا بلوائح بوفون المقارنة ولا بنموره الجبانة وكلابه الخرساء. ولم يكونوا ليهتموا أكثر بالجدل السياسى والقانونى حول المؤسسات الأمريكية التى ألهبت حماس سابقيهم؛ فهم يعتبرون أمرًا مفروغًا منه أن أمريكا ما بعد الاستعمار هى "ديمقراطية" (وهى قناعة ستكف عن أن تكون مشتركة على هذا النحو بعد جيلين)، لكنهم يزعمون الحكم على هذه الديمقراطية بناء على ثمراتها الأدبية، والفلسفية، والفنية، وكذلك على تأثيرها المستنتج على العادات، و "طرق التصرف"، والسلوك – وهذا الحكم شديد القسوة. ليس "انحطاط" الطبيعة الأمريكية هو ما يقلقهم: إنهم لا يتأثرون إلا من العقم الفنى لأمريكا، بل إنهم لا يهتمون إلا قليلاً بمخاطر عدم الاستقرار أو الفوضى فى الجمهورية الفيدرالية: إنهم يرعدون ضد ديمقراطية مسح الفروق كلها، المهمومة بـ"المفيد"، والمعادية للمواهب، والخانقة للعبقرى. على أنهم ليسوا جميعًا ممن يتبنون نظرية الفن للفن، بل أكثر من ذلك. قد يكون ستندال متمردًا سياسيًا، ومعارضًا عميقًا للعالم القديم، وللكهنة وللملوك، لكن أبطاله لا يتكلمون عن الولايات المتحدة

بخلاف أبطال المُدافع عن الشرعية بلزاك. وعندما ينهض هنرى بيل(*) الذى يكاد يتقنع بشخصياته للحرب ضد أمريكا الدكاكين، فإنه يفعل ذلك مع الكلمات نفسها التى يستخدمها جوزيف دو مايستر، المدافع عن العرش، وعن المذبح وعن الجلاد. ولن يتوجب على بودلير الذى ستكتمل معه هذه الحملة الصليبية إلا أن يجمع الشكاوى المتراكمة منذ ثلاثين عامًا ضد الأمريكيين غير المستنيرين لكى يضع لائحة الاتهام التى سيضيف لها العلامة الحاسمة والمنذرة عن العبودية للمادة وللآلة.

وفى نهاية نصف القرن هذا ذى اللون الباهت، وعشية حرب الانفصال، تغيرت صورة الولايات المتحدة الكامنة وراء استقرارها الظاهرى على نحو عميق بفعل عمل العرقلة الصامت الذى جهد به بعد نسيان كل ضروب الكراهية: رجال الدين والليبراليون، الصوفيون والعقلانيون، داعمو النظام القائم ومخربوه.

نسيان روسو، ترك أمريكا

هذا الانحراف الكبير نحو هجاء جمالى للديمقراطية الأمريكية تم إعداده خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، بواسطة عمل كامل من إعادة النظر المعادية لأمريكا والمعادية لروسو فى آنٍ واحد. يجب القيام هنا بعودة موجزة إلى الوراء، حتى سنوات حكومة المديرين هذه؛ حيث تَصاحَب التدهور الخطير للعلاقات الفرنسية الأمريكية بحجم مهم من المنشورات حول الولايات المتحدة، مرتبط بعودة المنفيين السياسيين، ككتاب "*رحلة داخل الولايات المتحدة*" لفرديناند بايار Ferdinand Bayard (1797) أو الأجزاء الثمانية من كتاب "*رحلات فى الولايات المتحدة*" لمؤلفه لا روشفوكو- ليانكور La Rochefoucauld-Liancourt (1799). ضمن جو العداوة الذى أنتجته المعاهدة الأنجلو- أمريكية فى جاى، فإن هذه الشهادات المتحفظة وأحيانًا المعادية التى قدمها فرنسيون ذهبوا إلى أمريكا انطلاقًا من شعور تعاطف مع هذا البلد، تكتسب ثقلاً خاصًا؛ فالجمهور يلاحظ (والصحافة تعلق على) الخيبة والشكوك لدى هؤلاء الذين لم يكونوا يظهرون من قبل سلبيين.

تحمل هذه الكتلة الوثائقية الجديدة بوصفها أدب مهاجرين، علامة اضطراب وحرمان أفراد اقتلعوا بعنف من حياة الصالونات الباريسية، وغرقوا فى عالم كان

(*) هنرى بيل Henri Beyle، هو الكاتب المعروف باسم ستندال Stendhal مؤلف رواية الأحمر والأسود ودير بارم بوجه خاص. (المترجم)

غريبًا عليهم بصورة عميقة. ويسجل واحد من أكثرهم اعتدالاً بُعيد وصوله إلى فيلادلفيا: "كل من رأيته من فرنسيين حتى الآن يحب أمريكا قليلاً وأقل منها أيضًا الأمريكيين الذين يصفهم بأنهم عبثيون وبخلاء ومتعطشون للخداع ومهمومون به فى كل الصفقات التى يقومون بها"[١١]. غياب العادات (أو عادات سيئة)، والمحادثات الفارغة، واهتمام مضيفيهم الضئيل بالتأمل الفكرى: كل ذلك خلف لدى هؤلاء الفرنسيين أثرًا سيئًا سيقومون بنقله إلى معاصريهم. فخشونة الطباع، واللامبالاة إزاء أمور الفكر، وعدم الفهم الكامل للفن، كل ذلك سيكون من الآن فصاعداً ملامح تذكر فى المقام الأول فى كل وصف للولايات المتحدة. غالبًا ما فسرنا موقف الازدراء الذى كان يعبر عنه الجيل الرومانتيكى إزاء الأمريكى الفظ غير المستنير على أنه نسخة حرفية نسبيا عن الاحتقار البريطانى، كانت تفوح فى مؤلفات فرنسيس ترولوب Frances Trollope أو الماجور هول Hall، ودون تجاهل تأثيرهما - سنعود خلال لحظة للحديث عن تأثير ترولوب، يجب أن نلح على هذه الموجة الأولى الفرنسية إلى حد كبير من الرسوم غير المجاملة، تلقاها الجمهور بثقة لا سيما وأن الظروف كانت تميل إلى الشدة، وأن تعاطف هؤلاء الشهود السابق مع أمريكا كان يضفى على نقدهم مصداقية متزايدة.

منذ ما قبل الثورة الفرنسية ، كان بريسو Brissot وهو معجب متحمس بالولايات المتحدة (التى قضى فيها تسعة أشهر) أول من طرح كنتيجة لنزعة المساواة الأمريكية ميل الأمة بأجمعها إلى توجيه جهودها نحو "الفنون" المفيدة، لكن إيمانه بمبادئ جان جاك روسو كان يقود رئيس الجيروند القادم نحو نتيجة أقرب إلى أن تكون لصالح الأمريكيين : أليس من الأفضل امتلاك جسور وطيدة، وبيوت مريحة وشوارع جيدة الإنارة بدلاً من هذه النصب الباذخة التى تزدهى بها أوروبا عبثًا[١٢]؟ من الممكن لنا تمامًا أن نضحى بالفنون الترفيهية من أجل رخاء أكثر تعميمًا وأفضل توزيعًا.

ملاحظة رحّالة ١٧٩٠ هى الملاحظة ذاتها؛ فهم لا يتجاهلون التقدم المادى السريع الذى حققته المستعمرات البريطانية القديمة، لكن استنتاجاتهم مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التى استخلصها بريسو. لاشك أن ذلك يعود إلى اختلاف الشخصيات، والسلالة: فبين هؤلاء المهاجرين نجد جزءًا من النخبة الاجتماعية فى المجلس التأسيسى(*)، لكن ذلك يعود أيضًا إلى أن الثقافة والآداب والفنون قد اكتسبت

(*) الجمعية الوطنية التأسيسية التى كانت قائمة فى عام ١٧٩٠.

شرعية جديدة منذ اضطهادها فى فرنسا تحت راية المساواة. فمنذ ترميدور(*) و"البلطجية الثورية" فى مقعد الاتهام. لم يعد عدوُّ الفنانين والأدباء الوزيرُ أو الرقيبُ "المستبد" قبل عام ١٧٨٩، بل هو "الإرهابى المتوحش" الذى يستشهد به روسو إلى جانب مارا(**) Marat. لقد خرج المرجع الروسوى الذى كان يسوغ حماس بريسو من أكثر ضروب استخدامه النضالية جذرية مشبوهاً.

ينضاف إلى هذه الحركة الواسعة من الارتداد عن مبادئ جان جاك روسو ما قبل الثورية، والثورية ارتداد عن أيديولوجية التقدم العام للإنسانية التى كان عصر التنوير وكوندورسيه بوجه خاص قد أورثاها للجيل نفسه. لقد بددت شهادة المنفيين الفرنسيين هذه القناعة بصورة جدية، لا لأنهم ليسوا فى مجموعهم على وعى بالنمو الاقتصادى للبلد ولا يقفون غالباً موقف الإعجاب أمام سرعته؛ إذ يستطيع عدد منهم ممن قاتل فى حرب الاستقلال أن يعقد المقارنات بسهولة، وأن يقيس المسافة التى تم اجتيازها، بل لأنهم يؤكدون بصوت واحد أن هذا التقدم المادى بدلاً من أن يترافق مع تقدم معادل فى الفنون والآداب هذا دون الحديث عن الممالك التى لا يمكن لمسها أى ممالك الذوق والفكر، يبدو وكأنه قد تحقق على حسابها. ذلك هو رأى لاروشفوكو؛ وسيكون رأى فولنى الذى ستصدر لائحته عن ***بيئة الولايات المتحدة الأمريكية وأرضها*** ***Tableau du climat et du sol des Etats-Unis d'Amérique*** فى عام ١٨٠٣؛ فالاتهام خطير والدرس الأمريكى مرٌ. كان الجميع يتوقعون العثور فى أمريكا "الشابة" على التأكيد التجريبى لتقدم الإنسانية العام والمستمر فى آنٍ واحد، فى حين أنهم لم يضعوا أيديهم على شىء من هذا وتقدم ملاحظاتهم "قائمة متناقضة ومحيِّرة"، بما فى ذلك، بالنسبة لهم، "ضروب التقدم والتراجع المتزامنة"(١٣).

هل يتوجب إذن بعد الارتداد عن الإنسان الطيب بصورة طبيعية التخلى عن الاعتقاد بأن التقدم واحد لا يقبل الانقسام ؟ وهل سيتوجب أن نخشى من الآن فصاعداً أن ندفع فداء كل انتصار مادى تراجعاً ثقافيا؟ فى الأفق غير البعيد لضروب إعادة النظر الممزقة هذه: بودلير، وعداؤه الجذرى لروسو، ونفوره من التقدم، ورؤيته المدمرة لـ"الأمركة".

(*) ترميدور العام الثانى (Thermidor an II) يوم ٩، (٢٧ يوليو ١٧٩٤): هو اليوم الثورى الذى كان من نتيجته سقوط روبسبيير وحلفائه ونهاية حكومة الاتفاق.

(**) مارا: سياسى وصحفى فرنسى من أصل سويسرى (١٧٤٣-١٧٩٣).

إلا أنه بانتظار ذلك، تقوم كتابات هذه الفرقة الصغيرة التى انتخبت أمريكا ملجأ لها من العاصفة الثورية بتقويض الأسطورة الإيجابية التى كونها - خلال السنوات العشر قبل الثورية - الصحفيون الملتزمون من أمثال بريسو. إن سورات الانزعاج التى تتخلل حكاياتهم، وخطبهم ضد سأم أو ابتذال أو فراغ الحياة الأمريكية كانت ذات مغزى يتجاوز معناها كنوادر تجاوزًا كبيرًا؛ إذ لما كان نفور هؤلاء الرجال إزاء أرض منفاهم يقوم على أرضية التخلى عن التفاؤل البدائى وعن التفاؤل التقدمى، فإنّ النقد اللاذع الذى يوجهونه للحياة اليومية، والحكم الدامغ الذى يصدرونه على الحياة الثقافية، كان يذهل قراءهم الفرنسيين ويؤسس تفاهة جديدة: أمريكا التى - على الرغم من كل الإرادات السياسية الطيبة فى العالم - لا يمكن لفرنسى صحيح العقل والجسم، أى صديق الفنون والآداب والملذات، أن يعيش فيها سعيدًا.

الجحيم والهلاك : من تاليران إلى جوزيف ميستر

تثير حالة تاليران الاهتمام. إنه أشهر المنفيين سيئى السعادة؛ فالدور الكبير الذى قام به فى الجمعية التأسيسية، ووظائف رئيس الدبلوماسية الفرنسية التى لا غنى عنها، والتى سيمارسها عند عودته خلال حكومة المديرين، وعهود القنصلية والإمبراطورية وعودة الملكية، تضفى ثقلاً خاصا على عدم تعاطفه. وحتى خلال فترة منفاه الأمريكى، كانت شهرته كإنسان خارق الذكاء وشبكة علاقاته الواسعة تردد صدى آرائه، وتجعل من أمزجته تتنفس عبر أوروبا كلها.

والحق أنه ما إن هبط تاليران الأرض الأمريكية فى عام ١٧٩٤، حتى كره البلد الذى قاده إليها تجذر الثورة. وصار يفيض فى أقواله الساخرة خلال العشاءات الفيلادلفية وفى اجتماعات المنفيين التى كان يؤويها موريا دو سان ميرى Morea de Saint-Méry فى مكتبته وفى مطبعته. وستسمح له مراسلاته الفياضة أن ينقل اشمئزازه لأصدقائه العديدين ومعارفه الذين ظلوا فى أوروبا. لقد رأينا بأى طريقة كان يشكو إلى مدام دو ستايل إقامةً كل شىء فيها يزعجه، وكان إحباطه من ابتعاده عن السلطة ومن فشله فى مشروعاته المالية التى كان يتمناها رابحة يكمن فى خلفية مرارةٍ تتناول قبل كل شىء رداءة الحياة الأمريكية. كان تاليران ضمن إطار فيلادلفيا الضيق يعانى من سأمٍ مهلكٍ فى الحقيقة فى غياب الحفلات والمؤامرات والطعام الفاخر والكلمات الأنيقة. كان هو نفسه يذوى فى هذا الوسط المصاب بفقر الدم؛ بحيث إنه -حسب رواية لاروشفوكو ليانكور - لم يكن يبدو إلا "بوصفه كاهنًا بليد الذهن لم يكن يفهمه أحد"[١٤]. كان يرى بصورة عامة فى الأمريكيين الذين لم يكن يتعاطف معهم

معاداتهم للفرنسيين، ويسجل ليانكور نفسه أنه "من المستحيل أن يمتلك المرء رأيًا فيهم أشد سوءًا في كل التقارير، وأن يتكلم عنهم بصورة أكثر شرًا" من تاليران(١٥).

لهذا التنافر في الطباع يجد تاليران سببًا يحول لومه الشخصي إلى مشكلة سياسية؛ فتحت الأمريكي يتعرف بسرعة على الإنجليزي. في حين أن الكثير من مواطنيه ورفاقه في المنفى بقوا - على الرغم من خيبتهم - مطبوعين بأخوة السلاح الأخيرة التي جمعت الفرنسيين والأمريكان ضد الإنجليز. يكتشف تاليران بدهشة قلقة أن الأمريكيين هم أكثر بريطانية مما يُعتقَد عمومًا في فرنسا؛ فمع كل الضغينة المتراكمة خلال حرب الاستقلال، "تبقى أمريكا مع ذلك إنجليزية كليا"(١٦). إن قوة الروابط القديمة، وثقل المصالح الراهنة وميزة اللغة المشتركة تجعل التقارب الأنجلو-أمريكي منطقيًا ومحتومًا. تبدو الملاحظة في أزمنة بغض الإنجليزهذه مزعجة. على أنها ستستعاد بصورة فائضة في فرنسا، وسيضفي عليها فولني في عام ١٨٠٣ ضمانة علمية.

أمريكا ؟ "اثنان وثلاثون دينًا وطبق واحد"، كما يقول بابيجاز أسقف أوتون Au-tun السابق، ستفتن هذه الكلمة ستندال؛ فهي تعكس بصورة بارعة الجانب المتعي من هجاء للولايات المتحدة لا يزال ينتمي إلى النظام القديم. كثير من الفرنسيين الأقل حنينًا من شارل موريس دو تاليران بيريجور يوافقون بحماس على هذا التهكم. وسيبقى تكاثر "الطوائف" وضيق قائمة وجبات الطعام (حيث يسود لحم البقر والبطاطس كطاغية) حتى نهاية القرن التاسع عشر المطعنين الأساسيين للرحالة الفرنسي. تكمن قوة نزعة معاداة أمريكا لدى تاليران في وضعه فيلادلفيا موضع السخرية: كان يجب أولاً إثارة الضحك على هذه الأمريكا المُجملة حتى الابتذال قبل إخضاعها لنيران النقد الأكثر جدية. لقد زعزعت "كلمات" أمير بينيفان Bénévent المقبل، الطيب منها والأقل طيبة، الوثن المعبود. وأعلن نجاحها عن هجر الفرنسيين لأساطير خطيرة عن الرومان الجدد، المزارعين الفضلاء، كانوا قد كونوها لأنفسهم عن أمريكا جورج واشنطن..

ليس التهكم لدى تاليران نفسه، سوى مرحلة تحضيرية؛ ذلك أنّ الاستخفاف المعلن إزاء البساطة الخشنة يشق الطريق نحو نقد "فلسفي" يريد أن يكون أساسيًا. وسنرى خطوطه في "*مذكرة حول العلاقات التجارية للولايات المتحدة مع إنجلترا*" قُرئت في المعهد في الخامس من جرمينال من العام السابع(١٧). قد تبدو هذه المذكرة صغيرة إذا ما قورنت بالكتب الضخمة التي كتبها لاروشفوكو وفولني، لكن تأثيرها الفوري كان كبيرًا. كان تاليران وزير العلاقات الخارجية في حكومة المديرين، وبقي في هذا المنصب

فى عهد القنصلية. وفى لحظة حرجة كان الخوف خلالها من تحالف أنجلو أمريكانى خطير على جزر الأنتيل الفرنسية يدفع باتجاه تطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة، اكتسبت هذه المذكرة "العلمية" فى المعهد صدى سياسيا خاصا، لكن أشد مقاطع المذكرة إيحاء هو دون شك النقد الموجه لروسو والمقحم فى وسط العرض الجغرافى السياسى الاقتصادى. يرسم تاليران فيها لوحة أنثربولوجية يقل الإطراء فيها على الأمريكى كما عرفه، وإذ يتخلى هنا عن اللهجة العابثة لمآخذه الشخصية ضد افتقار الحواضر الأمريكية للتهذيب، فإنه يشرع فى نزع الهالة الأسطورية عن الأمريكى الخشن، مالك الأرض على التخوم، والمزارع الذى حولته *رسائل* ***Lettres*** جون كريفكور **John Crèvecoeur** إلى مثل أعلى.

وفى ذلك تشويه للصور الأمريكية أشد خطراً؛ فهو يشمل الخطاب عن البراءة العادلة والبساطة السعيدة الذى تم نسجه حول شباب الولايات المتحدة وواشنطن – سينسناتوس. أن يكون تجار بوسطن بجشع تجار أوروبا، أمر يمكن السكوت عليه، وأن يكون الصاحبيون **Quakers**أنفسهم قد كفوا عن أن يكونوا كما كانوا عليه من قبل، أمر يمكن التسامح فيه(١٨)، ولكن أن يتم الحطُّ من ساكن الأرياف ومعمر الغابات لتصنيفه فى آخر درجة من النوع البشرى، هو ذا ما يثير القلق على نحو أشد. والحق أن تاليران قد التقى هؤلاء الأمريكيين الحقيقيين؛ فقد ذهب حتى أقصى مستقراتهم، فى الصحراء **wilderness** التى عسكر فيها المزّاحون الروسويون كل الفضائل وكل الطاقات. يرد عليهم تاليران؛ كذب فى كذب. فليس فى عمق الغابات سوى أكواخ رديئة البناء، يسكنها بشر خشنون بليدون. وبدلاً من المزارعين الفخورين لا نلتقى فى هذه الأماكن الخالية سوى فلاحين أشراراً وحطابين متكاسلين "يشبهون كثيراً سكان البلاد الأصليين المتوحشين الذين أخذوا مكانهم". وآخر تحوّل للمولد الأبيض فى نهاية القرن: يتمثل فى المستعمر الأنجلو ساكسونى الضال فى ثغور التوحش، الذى بدلاً من أن يجدد قواه فيها أو يعيد إحياء خصاله التى شب عليها يصير نسخة شاحبة عن متوحش دو بوو، نسخة خاملة اكتسبت صفات الحيوان. "مسكين بلا رغبات"، هذا الفظ ذو الطبع البارد يفتقر إلى الأخلاق مثلما يفتقر إلى الذكاء: "فرذائله تتفاقم بجهله". أما بالنسبة لانسجامات الطبيعة البكر الشهيرة، والتى غناها برناردن دو سان بيير أو شاتوبريان، فالأوربيون أحرار فى أن يصدقوها أو أن يحلموا بها: هؤلاء الأمريكيون المستوحشون لا يملكون عنها أى مفهوم؛ إذ لا يرون شيئاً من المشهد الهائل الذى يحيط بهم، وبما أنهم محرومون من الحساسية بقدر حرمان أهل المدن من الذوق، فهم لا يهتمون إلا "بعدد ضربات الفأس الضرورية لقطع شجرة". كان يمكن لهؤلاء المتوحشين

الجدد أن يكونوا محاسبين لو لم يكونوا حطابين في الأصل. لن يكون وجود المرء على هذا النحو على تخوم العالم المتحضر بلا عاقبة كما يوحى تاليران. تلتقف الوحشية المتهور الذى يحتك بها: ها هو فى فخ خمود غريب، فى "بلادة" سرعان ما انتزعت منه إنسانيته. هكذا غيرت الرحلة فى أعماق أمريكا معناها جذريا. وبدلاً من أن تمثل تدفقًا جديداً أو استعادة جديدة لطفولة الإنسانية الصلبة، تمثل الرحلة الأمريكية صعوداً على طريقة كونراد نحو قلب الظلمات: "إذ يخامرنا الشعور بالترحال على طريق تعاكس تقدم العقل البشرى". وباعتبارها مضادة لربوبية التقدم تمثل الرحلة نحو أمريكا الداخلية غوصًا يائسًا فى لجج البدائية. "إننا نهبط أكثر فأكثر نحو الأسفل" كما يقول تاليران، ونحن نضيع "يومًا بعد يوم أحد هذه المبتكرات التى جعلت منها رغباتنا بتكاثرها ضرورات"؛ فدخول الصحراء **wilderness** لا يعنى "نهب رجل عجوز"، بل الاضطرار إلى القيام بسير معاكس نحو درجة الصفر، أى العقل البشرى فى حالة العدم.

لا تعارض فرضية فولنى التى تشهر "بالخطأ الروائى للكتاب الذين يسمون شعبًا جديداً وبكرًا اجتماع سكان أوروبا القديمة من ألمان وهولنديين ولاسيما إنجليز الممالك الثلاث" فرضية تاليران هذه إلا ظاهريا(١٩)؛ لأن تاليران على الرغم من مفردات لا تزال تسخر من الصيغ ذاتها التى يهجرها، لا يصف "شبابًا" حقيقيا للعالم، بل هو يصف عملية انتزاع الثقافة، ويرسم خريطة تراجع، ويندد بالسقوط درجة بعد درجة : غرق بطىء للإنسانية الضالة على دروب التوحش. بين أمريكا فولنى المقتلعة من أسطورة "شبابها" وفرضية تاليران؛ حيث لم يعد "الأصل" إلا المرحلة الأخيرة من طوبوجرافيا ارتدادية، هناك اتفاق عميق لإقصاء الخطاب حول "الجدة" الأمريكية. الحط من قيمة "التوحش" وتماهى الأمريكيين فى شعوب أوروبا القديمة: هذه الإشارات المختلفة تتجه باتجاه واحد، اتجاه زوال سحر أمريكا، هذا السحر الذى يكف فى الوقت نفسه عن أن يكون نافذة على الحالة الطبيعية ومسرح مواجهة صعبة، لكنها منعشة بين الوحشية والحضارة.

يزعم كتاب فولنى ***Tableau du climat et du sol des Etats-Unis*** الاكتفاء بدقة وحياد الجغرافيا، لكن مقدمته تفضح مزاجًا آخر؛ إذ لما كانت تقدم بين يدى كتاب علمى تتجلى الرسالة المعادية لأمريكا فيه مدهشة والدرس المستخلص منه دائمًا لاسيما وأنه سيصير مرجعًا طوال نصف قرن؛ لأنه حان الوقت كما يشير فولنى إلى قرائه فى عام ١٨٠٢، أن يكوّن الفرنسيون لأنفسهم فكرة أكثر صوابًا عن الولايات المتحدة" بتصحيح عدد من الأحكام المسبقة التى صيغت خلال حقبة من الحماس"(٢٠). كان ذلك

خطاب رينال الذى كان فى غمرة شهر العسل الفرنسى الأمريكى يحضّ على " مقاومة فيض الرأى وفيض الحماس"(٢١)... لن يفصّل فولنى بسبب انعدام الوقت لديه تفكيره حول الحالة السياسية والاجتماعية للولايات المتحدة؛ العلم أولاً! فهناك الكثير مما يقال، وهناك الكثير من الأفكار الخطأ الواجب تصحيحها: سيكون ذلك فى المرة القادمة.

كل ذلك لا يزيد عن أن يكون غمزًا، على أن فولنى يقدم فى الطريق موجزًا فعالاً عن انطباعاته عن أمريكا؛ فهو يثقل شهادته شأن المهاجرين الآخرين، بثقل التجربة الشخصية. ويقوى من مصداقيتها بإلحاحه على مشاريعه فى الاستقرار الدائم فى الولايات المتحدة؛ إذ لم يكن يستعجل العودة أبدًا على العكس من الكثير من الآخرين (ومنهم السيد تاليران) كما يقول لنا، إلى فرنسا مادام الخطر قد ولى، لكنها عداوة الأمريكان اعتبارًا من ربيع ١٧٩٨ هى التى أرغمته على العودة. لقد وجد فى الولايات المتحدة، هو الذى فرّ من الإرهاب، *إرهابًا حقيقيا* " يمارس ضد الفرنسيين(٢٢). العبارة قوية. كان لهذا الإرهاب على الطريقة الأمريكية فضل فتح عينيه وتنبيه نظرته. "سأقول ذلك بأسف: لم تقدنى أبحاثى إلى العثور فى الأنجلو - أمريكانيين على هذه الاستعدادات الأخوية والعطوفة التى أطراها بعض الكتاب." لقد كانت لفولنى - شأن تاليران من قبله - ملاحظة معاكسة تمامًا. يظل الأمريكان إلى حدٍّ كبير بريطانيين، "فهم يحتفظون إزاءنا بمسحة قوية من الأحكام المسبقة القومية التى كانت لهم فى وطنهم الأصلى". ويضيف فولنى بأن أخوة السلاح الوجيزة بيننا لم تغير شيئًا كبيرًا، يقول هذا دون أن يعرف أنه يطلق هنا ثيمة للمستقبل: هذه الأحكام المسبقة "تغيرت على نحو ضعيف بتحالفنا خلال التمرد، وألهبتها مؤخرًا من جديد على نحو قوى المطاعن"؛ لأن سياسييهم يهاجمون فرنسا، فى حين أن أساتذتهم يفرضون على التلامذة "جوائز على المغالاة وأطروحات التشنيع ضد الفرنسيين"، هكذا وضعت "كلية برنستون" فى المسابقة موضوعات مضادة لفرنسا خلال سنتين على التوالى، فى ١٧٩٧ وفى ١٧٩٨(٢٣).

لكن يتوجب على "التصحيح" أن يطال قاع الأشياء؛ ففيما وراء الأزمة الظرفية فى عام ١٧٩٨، وبمعزل عن الإنذارات التى توحى بها الشراكة الدموية الأنجلو أمريكانية، يريد فولنى أن يبين أن الولايات المتحدة قد خانت الوعد السياسى لولادتها، وأنها باتت أصلاً كافرة بمثلها العليا. وفى الوقت ذاته الذى كان فيه جوزيف دو ميستر يرفض الولايات المتحدة بوصفها هوية لا تطاق ولدت من عيب فى الشكل، كان فولنى يقوم - وفق مسار معاكس تمامًا وموجه لجمهور مختلف تمام الاختلاف - بإطلاق فكرة أن الولايات المتحدة ذاتها قد أنكرت المبادئ الجيدة فى ذاتها التى أسست قيامها: أنها

"تراجعت"، ويؤكد فولنى أنه كان هناك بين نهاية حرب الاستقلال وقيام الحكومة الفيدرالية انحطاط فى المثل العليا وفى السلوك: تغير الطيبة والبساطة البدائية"(٢٤). الاستقامة، وطهارة الأخلاق، والعدالة فى العلاقات بين المواطنين: "تراجعت الأمة فى كل هذه المجالات عن مبادئ تكوينها". لا ينتظر ميستر شيئًا من هذه الجمهورية سوى أن تتفضل وتزول طبقًا لاستحالتها الأصلية، ويصف فولنى ربما برصانة أشد، انحطاطًا يتمّ على مرأى النظر. أيا كان ما يقوله الأمريكيون، وأيا كان ما يزعمه "المتحمسون" الأخيرون لهم، "لم يهيمن – خلال السنوات الأخيرة – فى الولايات المتحدة حسب نسبة السكان وكمية الأعمال، وتعدد التدابير، اقتصادٌ أكثر فى إدارة المال، ولا طيبة أشد فى المبادلات التجارية، ولا حشمة أكبر فى الأخلاق العامة، ولا تواضع أكثر فى روح التحزب، ولا عناية أشد فى التربية والتعليم مما هو الأمر عليه فى معظم دول أوروبا القديمة"(٢٥).

ربما كان ذلك أفضل، كما يستخلص فولنى الذى أجّلتُ إلى ما بعد عرض لوحته السياسية للولايات المتحدة؛ "لأن نتائجى ستبدو غريبة"، لا سيما – كما يضيف – إن كان علىّ أن أتحدث عن أمريكا بمفردات "السعادة" الممكنة بالنسبة للفرنسى؛ لأننى آنذاك "لم أكن لأشجع كثيراً من فرنسيينا على اتباع مثالى"(٢٦) – مثال الانتفاء هذا الذى لم يكن ليعطيه خلال زمن طويل.

أمريكا لعنة جوزيف دو ميستر

اتخذت حركة تجريد أمريكا التى شملت أوروبا فى كل بلد أشكالاً خاصة بها؛ ففى ألمانيا قدم هردر Herder نسخة أنثروبولوجية ولاهوتية عن الأطروحة الطبيعانية حول"القارة المنكوبة": لا تدخل أمريكا فى الخطة العامة للعناية الإلهية وليس المتوحش إلا "غصنًا جافًا" من شجرة الإنسانية. الاستبعاد نفسه لدى هيجل باسم منطق آخر: تبقى أمريكا، محض الطبيعية والمادية، فى نظره خارج اللعبة؛ إذ لما كانت غائبة عن المجال المغناطيسى للتاريخ العام، ومستبعدة من الثلاثى: أوروبا – آسيا – أفريقيا، فإنها محصورة ضمن حدود "عجز" تكوينى(٢٧). يعلق "أنطونيلو جربى Antonello Gerbi": خطأ فاحش": ذلك أن هيجل يغذى "بفروض" غير دقيقة (هى فروض التاريخ الطبيعى المعادى لأمريكا فى القرن الماضى) تعليلاً خادعًا. ويبدو أن مما لا يمكن الاعتراض عليه فى الواقع اهتمام هيجل بوجه خاص بتلقف كل ما يمكن تبرير استبعادٍ مقررٍ مسبقًا من الملف المشكوك فيه، والذى جمع عناصره علماء الطبيعة فى عصر التنوير.

لم يكن طلاق أمريكا الأعنف فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر غريبًا عن درس هردر، لكنه يتخذ اتجاهًا جديدًا بقلم كاتب غالبًا ما ألحقته فرنسا بها مثلما ألحقت وطنه: جوزيف دو ميستر من مقاطعة السافوا Savoie، هذا المغترب الذى كان يرفض باستعلاء أن يقول عن نفسه "مهاجرًا" ترك مقاطعة السافوا التى انضمت للثورة إلى برن ثم إلى سان بطرسبرج فى خدمة ملك سردينيا. وبوصفه ناطقًا متحمسًا باسم "الفكر الرجعى" (سيوران Cioran)، ومعاديًا جذريا للديمقراطية وثيوقراطيا إشكاليا، يرى مؤلف كتاب ***تأملات حول فرنسا*** *Considérations sur la France* وكتاب ***أمسيات سان بطرسبرج*** *soirées de Saint-Pétersbourg* فى الولايات المتحدة الأمريكية شذوذًا يؤسف له، لكنه مؤقت لحسن الحظ. إنه يلعن الإنسان الأمريكى فى نوعيه: أوروبى أمريكا بوصفه ضالاً والمتوحش بوصفه منبوذًا، لكنه ليس فى ذلك إنما يبدو شديد الأصالة. كانت إستراتيجية الدفاع المشتركة للمولودين فى أمريكا والمستعمرين التى تبناها جفرسون وأصدقاؤه فى سنوات ١٧٨٠، قد أثارت سخرية فولنى الذى كان يجد من الغريب إطراءهم للمتوحشين، "كما لو أنهم بمخيلة غريبة، يعتبرون أنفسهم ممثلى السكان الأصليين والمنتقمين لهم، وسابقيهم"(٢٨). ويردّ المعادون لأمريكا فى بداية القرن منطقيًا على هذه الدفاعات المتضامنة بخليط متناظر بصورة سلبية، لكن هذه الإدانة المزدوجة تتخذ لدى ميستر شكلاً خاصًا؛ فباعتباره مضادًا مطلقًا لروسو، يضع خاتم العقيدة الكاثوليكية على التشهير بأمريكا المتوحشة الذى بقى حتى ذلك الحين علمانيًا. إن التنديد اللاهوتى بالمتوحش والإقصاء السياسى للحكومة الأمريكية يتعلق لديه بالمعركة ذاتها ضد عصر التنوير؛ فالمتوحش المثالى مخلوق ولد من سفسطات روسو، والديمقراطية الأمريكية مجرد صنم من التفلسف. فمن كتاب ***تأملات حول فرنسا*** فى عام ١٧٩٧ إلى كتاب ***أمسيات سان بطرسبرج*** الذى يعود إلى عام ١٨٠٩، لكنه لم يظهر إلا بعد وفاته، فى عام ١٨٢١، يُنسِّق ميستر على هذا النحو نقدًا لأمريكا هو فى آن واحد معاد للطبيعانيين ومعاد للحداثة، وسيكون بودلير خليفته المباشر والصريح.

لقد تخلص ميستر أساسًا من الولايات المتحدة عام ١٧٩٧ فى كتابه ***تأملات حول فرنسا***؛ ففى هذه الصفحات اللهوية المضادة للثورة التى تجهد فى تبيان أن الجمهورية الفرنسية ليست قابلة للحياة، نشعر بأن أمريكا هى شوكة، شظية مزعجة فى جلد المجادل. ولن يقحمها ميستر فى السجال إلا على نحو متأخر: "يمكننا على الأكثر الاستشهاد بأمريكا، لكنى سبق وأجبت مسبقًا بقولى إنه ليس هناك متسع من الوقت للاستشهاد بها." وفى أسفل الصفحة يعيد القارئ إلى الفصل الرابع: "هل يمكن للجمهورية الفرنسية أن تدوم؟"، لكن أمريكا ليست مسماة مع ذلك، ويكتفى ميستر

بتكرار عقيدة عصر التنوير (وروسو الذى يبغضه) حول استحالة الجمهوريات الكبرى: "هل أتت ما نسميها الثروة، ونحن نلقى بزهر النرد دون توقف منذ أربعة آلاف عام، بالجمهورية الكبرى؟ لا. إذن، هذا الرقم لم يكن أبداً على زهر النرد(٢٩)." الخلاصة الصريحة: فرنسا الجمهورية هى وهم، الخلاصة الضمنية ("سبق وأجبت مسبقًا..."): الولايات المتحدة غير موجودة. ويطلق ميستر وقد راقته اللعبة هذا الرهان الغريب حول مدينة واشنطن: "يمكننا أن نراهن بألف مقابل واحد على أن مدينة واشنطن لن تُبنى، أو أنها لن تُسمى واشنطن، أو أن الكونجرس لن يقيم فيها(٣٠)." لا حظَّ للسيناتور؛ فقد خسر ميستر هذا الرهان التناوبى بصورة حذرة ثلاث مرات؛ فهذا المنطقى القوى يستسلم أمام أمريكا إلى أشد ضروب ***التفكير الرغبى*** **wishful thinking** جموحاً: "كل ما فى دستورهم من جديد فعلاً، وكل ما ينتج عن التشاور المشترك، هو أكثر الأشياء فى العالم هشاشة، ولن يكون بوسعنا أن نجمع عدداً أكبر من أعراض الضعف والشيخوخة." و من جديد تستأنف التمنيات المتهورة: "لست فى حالة لا أعتقد فيها أبداً فى استقرار الحكومة الأمريكية فحسب، بل إن المستقرات الخاصة لأمريكا الإنجليزية لا توحى لى بأى ثقة(٣١)"، سيعرفون الاستغناء عنها.

بعد أن حكم على الولايات المتحدة بالإخفاق، بقى عليه أن يكرس المتوحش للموت. ليس الإنسان الديمقراطى موضع احترام ميستر؛ لكن "المتوحش النبيل"، وهو من ابتكار مبشرين شديدى الكرم أو فلاسفة سيئى النية، لا يملك عدواً أشد عنفًا. إن أسوأ أخطاء روسو، "وهو أحد أخطر سفسطائيى عصره"، يكمن فى أنه حَسِبَ الإنسان المتوحش "الإنسان البدائى، فى حين أنه ليس – ولا يمكن أن يكون – إلا سليل إنسان مقتطع من شجرة الحضارة الكبيرة بواسطة إخلال ما بالواجب"(٣٢). إلا أنه "ليس هناك أى نوع من التحديد لطبيعة هذا الإخلال بالواجب" كما يعلق سيوران(٣٣). لا أهمية لذلك فيما يبدو. المهم هو الصورة – الاتهام؛ فبعكس جذرى بقدر ما هو جرىء للحجة البدائوية يجعل جوزيف دو ميستر من المتوحش الكائن "المنحط" بامتياز؛ فشخصه، ولغته، وأخلاقه لا تشير إلى أى أصل: إنها "شظايا"، و"أنقاض". هكذا يُعاد المتوحش إلى ماضٍ سحيقٍ وإلى خطيئة ضخمة بقدر ما هى غامضة. إنه النسخة المذنبة من "الغصن الجاف" لهردر: لقد تم فصله عن الشجرة عقاباً على جريمة رهيبة، وصار، على قارة منفصلة، الكائن الذابل الذى التقاه الأوربيون. ومن أجل وصفه يعثر ميستر على نبرات دو بوو وهو يرسم الهندى (بل إنه يعلن انتسابه إليه بصراحة فى كتاب ***دراسة حول السيادة*** ***Etude sur la souveraineté***(٣٤)) أو تاليران وهو يرسم لوحة مالك الأرض

على الحدود. "إنها أقصى درجات الخبل تلك التى يسميها روسو وأصحابه حالة الفطرة." هذه "الحالة الرهيبة" زُيِّنت باسم العصر الذهبى الرعوى من قبل الفلسفة "لكى تدعم طعونها الباطلة والآثمة ضد النظام الاجتماعى". ولما كان المتوحش بشعًا وغبيًا فإنه يحمل اللعنة "المكتوبة، لا أقول على روحه فحسب، بل حتى على الشكل الخارجى لجسمه". إن "اليد المرعبة" للعناية الإلهية قد نزلت على "هذه الأجناس المنذورة"، كما يضيف ميستر: المتوحش هو نذر devotus، مخلوق للتضحية، "إنه فى الظاهر متفان، إنه ممسوس فى أعمق أعماق جوهره الأخلاقى". والخصائص التى لا غنى عنها للبقاء: أى الفطنة وقابلية الكمال، قد محيت من وعيه. كل قرن يمضى يجر هذا البدائى المزيف بعيداً بعض الشىء عن الأصل الوحيد، وهو إلهى، بقدر من الحتمية؛ بحيث إن الإنسانية، لدى تاليران، تفقد قليلاً من نفسها لدى كل خطوة تخطوها باتجاه الصحراء wilderness.

إن الحملة التى يشنها جوزيف ميستر ضد روسو وضد الفلسفة هى حملة صليبية بالطبع، وهى كذلك أيضًا – وبدون أى شك – حملة صليبية معادية لأمريكا تعيد بصورة لاهوتية صياغة "اللعنة" الطبيعانية الخاصة بعصر التنوير؛ فأمريكا الجديدة تزعجه بوصفها نموذج حداثة بغيضة، وأمريكا المتوحشة تغيظه بوصفها أوقح ضروب الكذب الفلسفى.

بداية القرن التاسع عشر المرتبط على نحو وثيق فى الآداب الفرنسية باسم شاتوبريان هى إذن لحظة منعطف لهذه الصور الأمريكية التى لا يزال يُربط فيها لأمد قصير سمو المتوحش إلى عظمة أمريكا. إن عمل الساحر(*) يتوسط، بنفس الكرم الذى يأخذ بموجبه ميستر على المبشرين المأخوذين بهنودهم التوراتيين، بين النظرة الباردة لمناهضى روسو وبين ضحيتهم المعروفة، المتوحش الذى صار من الآن فصاعداً منذوراً، لكن كل أشجار الميسيسيبى، "من شجر القبقب إلى شجر الزنبق، ومن شجر الزنبق إلى.."[٣٥]، لا يمكن أن تخفى غابة العلامات المنذرة بخيبة الأمل من أمريكا. وقبل أن تفرض نفسها على الوعى الأوروبى بزمن طويل بداهة انطفاء أشد سرعة مما تنبأ به رينال، قام جوزيف ميستر بإقصاء الهندى بصورة عنيفة من الإنسانية، وقام هردر بإقصائه من التاريخ، لكن أو لم يتم إقصاؤه بصورة رائعة لدى شاتوبريان؟ أليس طفل ناتشيه الميت الذى رسمه دولاكروا هو الصورة المجازية لهذا الاختفاء؟ هل يقيم

(*) شخصية خرافية، نبى وساحر، تلعب دوراً مهماً فى روايات المائدة المستديرة (حلقة أرثر).(المترجم)

شاتوبريان تحت الزخارف الرائعة لجملته شيئًا آخر غير قداس جنائزى؟ إن أول صفحة هندية كتبها شاتوبريان، أى الليلة الشهيرة التى وضعت فى هامش مقال ***حول الثورات Essais sur les Révolutions*** عام ١٧٩٧، كانت تلبس الحداد على شعب متوفى. كان شارلفوا **Charlevoix** ولافيتو **Lafitau** يزيّنون الهندى بامتيازات العهد القديم، فى حين يعطرها شاتوبريان برحمة المسيح؛ ذلك أن متوحشيه الرومانتيكيين يحملون على ذرف الدموع على الرغم – ولا شك – من جوزيف دو ميستر؛ لكن وجوههم الملحمية أو الرفيعة لا تقل عن كونها صورًا جانبيةً ضائعة، ووجوهًا منذورة للاختفاء، ما إن نلمحها، تحت إضاءة الكلمات البليغة الكرم – كما تتلاشى الصور الجدارية فى فيلم فيلليني – روما، فى اللحظة ذاتها التى يبلغها نور النهار.

"يستدعى وصف أمريكا المتوحشة بالطبع لوحة أمريكا المتحضرة"، كما يكتب شاتوبريان فى مقدمته لكتاب **نيتشه** ***Natchez*** عام ١٨٢٦، "لكن هذه اللوحة ستبدو لى فى غير مكانها ضمن كتاب تخييلى"(٣٦). سينقل إذن "أمريكا المتحضرة" إلى رحلاته **Voyages**، هكذا يصير التاريخ تكملة للتاريخ، ولن يكون من الممكن خلط مختلف الموضوعات". لا يمكن التعبير – على نحو أفضل – عن الفصل بين الأسطورة الهندية والتاريخ الأمريكى. خرج الهندى لدى شاتوبريان أيضًا، من التاريخ: من الأعلى، من الجانب الرفيع، ومن ملحمة شعب ضائع، لكنه خرج على كل حال. يمكن لجوزيف دو ميستر أن يندد لدى شاتوبريان – كما لدى لاس كازاس **Las Casas** وشارلفوا أو لافيتو – "بأخطاء الإحسان" لصالح الهنود، لكن شاتوبريان لا يقترف على كل حال "الخطأ الروائى" الذى أدانه فولنى؛ فهو لا يؤمن لا بشباب أمريكا، ولا ببقاء المتوحش.

من السيدة ترولوب إلى آريجو بيل

وسواء أكانوا متوحشين ملحميين، أم منبوذين عظماء أم ممثلين صامتين يفيضون عن العدد المطلوب فى ربوبية العقل، يتلاشى الهنود عند أفق الأسطورة أو يعبرون بوابة التاريخ الأرضية. وسواء أكان خروجًا من الأعلى أم طرحًا من الأسفل، فإن استبعادهم يتمّ فى النصوص الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر، وها هم يُحصَرون فى الكتب "التخييلية" قبل أن يزربوا فى الأراضى المخصصة لهم فى سلاسل الأطفال. لقد هزلت صورة أمريكا فيها كثيراً، وسيرتفع من حيث كان يتصاعد دخان المخيمات عما قريب دخان المصانع. أما فى الوقت الراهن فإن القرى ذات الأسماء الضخمة – روما، باريس، سيراكوز – تحمل الرحّالة على الاستهزاء. ضِيَعٌ هزيلة تطمح إلى لقب عواصم دول، ومدن دون نصب تُراكم دون رصفٍ مبانٍ لا يمكن تمييزها؛

فالسكن يفتقر إلى الأناقة، والبذلة تفتقر إلى العناية، واللياقة تفتقر إلى الوجود. وإذ ينسون ولعهم المتأخر ببساطة فرنكلين يتعب الرحالة الفرنسيون بسرعة من شدة الشظف: كانت البذلة الصاحبية المزيفة تثير الإعجاب فى بلاط لويس السادس عشر، فى حين أنها وهى ترى يومياً فى طرق فيلادلفيا تبعث على نفور هؤلاء الفرنسيين الذين ظلوا على رأى فولتير الذى كان يعتبر أن ***السأم ولد يوماً من التماثل***، وستتهم عما قريب هذه البساطة المعلنة بكثرة بالنفاق.

ليس الفرنسيون وحدهم - والحق يقال - الوحيدين الذين يستنكرون الحياة الثقيلة التى تُعاش فى أمريكا. وحين كانت حكايات "العائدين" تبدأ فى النضوب، كان يكفيهم الالتفات نحو الجار البريطانى. لقد صار الإنجليز، ولفترة عشرين عاماً بين ١٨١٥ و١٨٣٥، ممونى أوروبا بالعدوانية ضد مستعمرتهم القديمة، وكانت فرنسا تدخل فى مرحلة جديدة من الولع بإنجلترا، وهى الثانية خلال أربعين عاماً. وسواء تعلق الأمر بالخيل أو بالروايات أو بالغسالات، فقد كانت إنجلترا هى المرجع، وبينما كان جيزو Guizot يلقى دروساً فى التاريخ الإنجليزى يتابعها كثير من الناس (١٨٢٨-١٨٢٩)، كان الباريسيون يتزودون فى لندن ببرادع الترويض وبالمغامرات القروسطية والرودنجوت، وبالأحكام المسبقة فيما يخص الولايات المتحدة، ومن هو أفضل من الإنجليز لاغتياب الأمريكيين؟

ولم يقصر فى ذلك لا الكُتّاب ولا الرحّالة ولا كُتّاب المذكرات البريطانيين. لقد أنعشت حرب ١٨١٢ غلاً لم يخمد تماماً، عدد من العسكر الذين خرجوا من الخدمة، ومنهم "الكابتين" هول Hall، و"الماجور" هاميلتون Hamilton، عادوا لشن حرب بالأقلام ضد الضعف الأمريكى؛ فعلى الوطنية اليانكى المثارة بفعل هذا الصراع الجديد يرد البريطانيون برشقة كتب مميتة. وأول نجاح فى هذا المجال يعود إلى بازيل هول على كتابه الذى صدر فى عام ١٨٢٩، ***رحلات فى أمريكا فى سنتى ١٨٢٧ و ١٨٢٨*** ***Travels in America in the years 1827 and 1828***، وسيكون له منافسون منهم توماس هاميلتون، مؤلف كتاب ***البشر والعادات فى أمريكا الذى صدر عام ١٨٣٣*** ***Men and Manners in America***، لقيت كل هذه الكتب نجاحاً كبيراً، إلا أنه فى هذه المباراة الحرجة، سيعود سعف الانتصار البريطانى ثم الأوروبى دون أى شك إلى فرنسيس ترولوب Frances Trollope عن كتابها ***عادات الأمريكان اليومية*** ***Domestic Manners of the Americans*** الذى ظهر بالإنجليزية عام ١٨٣٢.

ليست سيرة فرنسيس ترولوب عادية؛ فقد ولدت فى عام ١٧٧٩ فى بريستول

لقس مبتكر غريب الأطوار يميل إلى بترارك Pétrarque وإلى الشراب، وقد تزوجت فى عام ١٨٠٩ من محام خابت آماله فى الميراث، وانهارت مشاريعه الزراعية. واتخذت فى عام ١٨٢٧ القرار بالاستجابة إلى دعوة صديقتها الكبيرة فانى رايت Fanny Wright، وهى مناضلة من أجل تحرير العبيد وحقوق المرأة كانت قد أسست فى تنيسى -Tennes see جمعية يوتوبية وتربوية مخصصة للعبيد. وكان على فرنسيس ترولوب – وقد رحلت عن إنجلترا مع ابنها الروائى المقبل أنطونى ترولوب ومع ابنتين من بناتها كانتا لا تزالان طفلتين – أن تكتشف لدى وصولها أن المدرسة كانت تتألف من عدة أكواخ مبنية من جذوع الشجر لا سقف لها فى غابة تعيث فيها الملاريا، وإذ تحملت هذا البلاء فقد رحلت إلى سينسيناتى؛ حيث فتحت "بازارًا" غريبًا كان فى آنٍ واحد خليطًا من مخزن للموضة ومن قاعة للفنون ومركزًا ثقافيا قبل الأوان، ولم يكن المبنى – وقد قامت بتزيينه– يلفت النظر؛ فقد حكم عليه توماس هاميلتون بأنه مستوحى من "الفن الإغريقى والعربى والقوطى والصينى"(٣٧)، أما السيدة مارتينو فقد وصفته على أنه "قوطى وإغريقى وتركى ومصرى"، وعرفته بمحبة أقل على أنه "أضخم تشويه فى المدينة the great diformity of the city"(٣٨) وبعد إفلاس المشروع ومغادرة السيدة ترولوب فى عام ١٨٣١، كان على البازار أن يتحول على التتالى إلى مدرسة للرقص، ثم إلى مقر لجمعية علمية، وأخيرًا – بصورة أكثر دوامًا – إلى دار للبغاء شهيرة.

ولما لم تكن السيدة ترولوب محظوظة فى مشاريعها الأمريكية فقد قفلت عائدة بالباخرة إلى بريطانيا العظمى فى أغسطس عام ١٨٣١، كانت قد رحلت ليبرالية whig، ومناصرة للمرأة وإصلاحية، لكنها تعود مشمئزة من أمريكا ومن نزعة المساواة، ومن الوصوليين الجهلة، ومن الخدم الوقحين، ومن الطوائف الدجالة، ومن التجار الجشعين. وفى سنها الخامسة والخمسين، وبعد أن عادت إلى أحضان أسرتها وتصالحت مع بريطانيا، استخلصت هذه المرأة النشيطة من خيباتها الأمريكية مادة مجد أدبى؛ فمع أربع طبعات إنجليزية وأربع طبعات أمريكية منذ السنة الأولى، تبعتها ترجمات سريعة بالفرنسية والإسبانية والألمانية والهولندية، عاد عليها كتابها *Manners of* Domestic *the Americans* برخاء قصير الأمد (إذ ستهرب منذ عام ١٨٣٤، هى وزوجها من دائنيهما من جديد) وبشهرة أطول أمدًا من عائداتها من الكتاب.

شاتوبريان يتذوقها، أما ستندال فكان يلتذ بها، ويحدث عند قراءة الكتاب أننا نتساءل لماذا؛ لأن هذه اللوحة عن الولايات المتحدة فى ١٨٣٠ (حيث تخرس السيدة ترولوب مغامراتها الشخصية) تبدو طويلة غالبًا. وعبرة القصة شديدة القصر: "I do not

like them. I do not like their principales. I do not like their manners. I do not like their opinions"[٣٩] (إنهم لايعجبونى، ولا يعجبنى مسئولوهم، ولا تعجبنى عاداتهم، ولا تعجبنى آراؤهم). تستخدم السيدة ترولوب النميمة بشىء من الحمية، ولكن مع قليل من الفكاهة ومن غياب الابتكار؛ فمآخذها تتلخص أساسًا فى عدة عناصر اتهام معروفة: جهل الأمريكى المتوسط، ولع فطرى بالربح، سوقية فى العادات، فظاظة فى اللهو، بشاعة البلد عامة ولا سيما المدن، عدم قابلية هذا الشعب "للاستراحة" (استخدمت الكلمة بالفرنسية فى النص: délassement)، الفصل الاجتماعى بين الجنسين اللذين لا يهتمان بالاقتراب فيما بينهما فى ما وراء الضرورة، كل ذلك ليس شديد الجدة، ولا تزعم السيدة ترولوب ذلك أساسًا، وإنما تتمثل الجدة فى الحصر الكامل حين تستعيد النواقص "المشار إليها غالبًا"[٤٠].

سوى أن مفتاح نجاحها إنما يكمن هنا؛ إذ بوصفها مصنفة لعقيدة doxa فى طور التكوين منذ الاستقلال، فإنها تضفى سلطة الشىء المرئى والمعيش على مجموعة من الملامح السلبية المقبولة سابقًا من الجمهور الأوروبى المثقف على نطاق واسع. لم تنس ابنة عصر التنوير هذه تاريخها الطبيعى، ولا الدروس التى أعطاها بوفون واستعادها روبرتسون. تُستهل قصتها برؤية خراب يعجز عنه الوصف، على مياه موحلة، وأراض عقيمة، و"ركام من أوراق شجر تأسن هنا منذ الطوفان"[٤١]. إنه الميسيسيبى ودلتاه. تستشهد السيدة ترولوب بدانتى، لكنها تعيد كتابة كورنيليوس دو بوو. لا يشعر القراء الفرنسيون بالغربة، سوى أن ثمة أسبابًا أخرى للولع الذى تستثيره فى فرنسا؛ فهذه الإنجليزية المحبة لفرنسا، والتى تنشر فى حكايتها التعابير الفرنسية، لا تتردد بالاستشهاد مع الثناء عليها بكلمة قالها تاليران لنابليون. إنها تقدر فوق كل شىء تبادل الأفكار، وتدافع عن فن المحادثة على النحو الذى يمارس فيه فى الصالونات الفرنسية فى عصر التنوير: كتوازن بين المجاملة والقناعة، أناقة الجملة وجرأة الفكرة. والأمريكيون الذين "لا يملكون لا الجمال ولا اللطف فى المحادثة" يقدمون النقيض المضاد الكامل له[٤٢]. هذه المحافظَةُ الجديدة الغريبة الأطوار بقدر ما، تغمر بالراحة الأعداء الأيديولوجيين لأمريكا الجمهورية، دون أن تزعج اليسار الأدبى، لاسيما وأنها بقيت وفية لشبابها فى نقطتين مهمتين: مناهضة الإكليروسية ومناهضة الرق. والحق يقال إن فانى ترولوب، حتى ولو لم يكن لها هذا المسار الشخصى - أى إجمالاً مسار يسارية رزنت، لكنها بوهيمية على الدوام - ما كانت لتعجز عن سحر القارئ الفرنسى الذى كان قبل أن يقرأها يفكر أساسًا مثلها.

" سأملٌ فى أمريكا ... "

مَثَلُ ستندال بليغ؛ فهو يعلق على هامش كتاب السيدة ترولوب عام ١٨٣٤ دون أن يحرد من سعادته، بل إنه سيطلب على وجه السرعة الكتاب التالى المخصص للبلجيكيين. كل شيء يعجبه، وكل شيء يسليه فى كتاب **Domestic Manners of the Americans**. إنه سعيد، بالطبع، أن وجد فيه تاليران وقد سأله نابليون عن طبع الأمريكان يجيب بصراحة: "يا صاحب الجلالة، إنهم خنازير كبيرة وخنازيرمتوحشة"، وكانت فانى ترولوب توافق على هذا التعريف(٤٣)، أما ستندال فيصفق بكفيه، ويكتب على الهامش "حسن"(٤٤).

لكنها – والحق يقال إنها – تحاول إقناع مقتنع؛ فرواية الأحمر والأسود ظهرت فى عام ١٨٣٠، أى قبل سنتين من الطبعة الإنجليزية من كتاب **Domestic Manners**. فى الفصل الأول: "مدينة صغيرة" يخلِّد ستندال مدينة فيريير. من يمكنه أن ينسى بعد أن قرأ هذا التشخيص الإشعاعى السريع "لإحدى أجمل مدن منطقة فرنش كونتيه" – التى يجعل منها شعار المنطقة الخانقة ؟ وكذلك، من الذى يتذكر السقطة الغريبة؟ "فى الواقع، يمارس البشر الحكماء فيها أشد ضروب الاستبداد سأمًا، وبسبب هذه الكلمة الخبيثة فإن الإقامة فى المدن الصغيرة لا يطاق بالنسبة لمن عاش فى هذه الجمهورية الكبيرة التى تسمَّى باريس." باريس ضد فيريير وانتهى الأمر؟ لا، وإنما باريس ضد أمريكا؛ لأن ستندال يخلص إلى أن "طغيان الرأى العام، وأى رأى عام ! هو أحمق فى المدن الصغيرة فى فرنسا حماقته فى الولايات المتحدة الأمريكية(٤٥). أمريكا مقياس كل حماقة، المتر المعيارى للطغيان. أمريكا: فيريير واحدة، اثنتان، ثلاثة...

لا يقوم ستندال فى كل كتاباته اللاحقة إلا بأن يطرح بصورة إنشائية مشكلة تم حلها منذ الصفحة الثالثة من رواية *الأحمر والأسود*. ففى رواية دير بارم، كما سبق وقلنا، يستبعد الكونت موسكا القلق على فابريس، الفرضيةَ الأمريكية. وفابريس نفسه الذى لا يفكر إلا بكليليا لم يعد يفكر فى أمريكا مطلقًا، لكنه سبق وفكر فيها قبل عدد من السنوات عند عودته من واترلو. ما الذى يفعله بحياته؟ لما كان قليل القناعة بميله إلى أن يكون أسقفًا، فإنه "يقذف أولاً بعيداً جدا بحزب الكنيسة. وكان يتحدث عن الذهاب إلى نيويورك ليجعل من نفسه مواطنًا وجنديا جمهوريا فى أمريكا". وفى هذه المشاورة الأولى، كان على الدوقة أن تتلفظ بالصيغ الشائعة ضد الحياة الأمريكية: "تجيب الدوقة: أى خطأ هو خطؤك! لن تكون لك حرب، وستسقط من جديد فى حياة المقاهى، ولكن بلا أناقة، بلا موسيقى، بلا حب. صدقنى، ستكون الحياة فى أمريكا

حياة حزينة لك مثلما هى لى." ويتابع ستندال: "وشرحت له عبادة الإله دولار والاحترام الذى يتوجب التعبير عنه إزاء حرفيى الشارع الذين يقررون بتصويتهم كل شىء(٤٦)." وتستعيد رواية ***لوسيان لوين*** ***Lucien Leuwen***، وهى رواية ذات طابع فرنسى أشد، كما أنها أشد رسوخًا فى التاريخ المباشر من رواية ***دير بارم***، مفردات المعضلة التى كان يواجهها، فى فرنسا، أكثر من شاب "متهور" سياسيا - بدءًا بهذا الشاب أوغست هرفيو، الرسام والمتآمر، الذى تلقفته أسرة ترولوب، وجعلته يشاركها رحلتها الأمريكية. أما لوسيان لوين اللطيف الذى طرد من البوليتكنيك نظرًا لنزعته الجمهورية وتعاطفه مع الضباط الذين يتآمرون بأسماء مستعارة رومانية، فيطرح على نفسه السؤال ذاته: "من الأفضل ركوب البحر جميعًا إلى أمريكا... هل أركب البحر معهم؟" مرة أخرى لا يجرى التأمل لصالح أمريكا. "تنزه لوسيان لوين وقتًا طويلاً بهيئة مضطربة حول هذه السؤال. لا، قال لنفسه أخيرًا... ما الفائدة من الاغترار؟ [...] سأملُّ فى أمريكا، وسط رجال عادلين تمامًا وعقلاء إن شئنا، لكنهم كانوا فظين، لا يحلمون إلا بالدولار." هذا الاعتراف هو أيضًا جهر بعقيدة. يقدم فيه ستندال المبدأ الأساسى لنزعة معاداة أمريكا جمالية ومتعية على الطريقة الفرنسية: "لا يسعنى أن أعيش مع بشر يعجزون عن الأفكار الرفيعة مهما كانوا فضلاء، أفضل ألف مرة أخلاق بلاط فاسد. كان يمكن لواشنطن أن يسئمنى حتى الموت، وأفضل أن أوجد فى الصالون نفسه الذى يوجد فيه السيد تاليران. إذن، إن الإحساس بالتقدير ليس كل شىء بالنسبة لى، أحتاج إلى مسرات تعطيها حضارة قديمة...".

هذا المقطع هو الأول من نوعه فى الرواية الفرنسية: تقيم نزعة معاداة أمريكا فيه من نفسها "حكمًا مسبقًا" وجوديًا قادرًا على أن يقاوم بانتصار "قناعات" الشخص. ينتصر هنا أصلاً "الثقافى" على "السياسى". ويلح ستندال على ذلك على نحو قصدى تمامًا: "ولكن، يا حيوان، تَحمَّل الحكومات الفاسدة، نتاجَ هذه الحضارة القديمة"، لكن لا فائدة من توبيخ النفس، وينهى لوسيان المخلص، كستندال البصير، بصعود مستمر مقطعًا يعلن بعد أن بدأ من تاليران إلى بودلير: "إننى آنف من الحس السليم المضجر للأمريكى. إن قصص حياة الجنرال نابليون الشاب، الذى انتصر فى معركة جسر أركول، تسحرنى؛ إنه فى نظرى هوميروس، لو تاس Le Tasse، لا بل أفضل بمائة مرة. إن الأخلاق الأمريكية تبدو لى سوقية بغيضة، ولا أشعر لدى قراءتى لمؤلفات كتابهم المتميزين إلا برغبة واحدة: هى ألا ألتقى بهم أبدًا فى المجتمع. يبدو لى هذا البلد النموذج انتصارَ الرداءة الغبية والأنانية، وتحت طائلة الهلاك تتوجب مغازلته(٤٧)".

مغازلة الرداءة، "مغازلة جدية لدكنجية الشارع" واحترام "حرفيى الشارع": إن لوسيان وموسكا والدوقة يتكلمون بصوت واحد - صوت هنرى بيل المقماق.

بعد قرن من ذلك، طلب أندريه موروا قراءة دير بارم إلى طلابه فى جامعة برنستون. "وصلوا شديدى الاستياء." شديدة الطول، شديدة الغرابة. "وقال بلوج : ثم إنه معاد لأمريكا هذا الستندال، هناك هجوم شرير ضد "الدولار الملك"... هل كانت الموضة فى أوروبا فى عام ١٨٣٠ اغتيابَ أمريكا؟"(٤٨) إن حدس بلوج الشاب لم يخدعه؛ فهناك موضة أوروبية لثلم أمريكا فى فترة ١٨٣٠. ونجاجات السيدة ترولوب لم تستنفذ كل شىء؛ ففى عام ١٨٤٢ يبحر شارل ديكنز للولايات المتحدة، ويعود منها مع "*ملاحظات أمريكية*" *لاذعة* *American Notations*، لكنه سيحتاج إلى رواية *Martin Chuzzlewit* كى ما يفرغ على نحو أفضل جعبته المعادية لأمريكا. والحملة لدى ديكنز هى فى آن واحد أشد تهذيباً للأخلاق وأشد اجتماعية، وليس من المؤكد أن يكون بوسعه تسلية ستندال بقدر ماكانت تسلِّيه لمعات السيد تاليران. سؤال بلا جواب؛ فعندما بدأت رواية ديكنز فى الظهور فى عام ١٨٤٣، كان ستندال قد مات من وقت قريب. تبقى وسائطه الروائية التى كانت رواية بعد رواية تكسو على الطريقة الفرنسية النزعة البريطانية فى معاداة أمريكا بتفضيلها تاليران على واشنطن، وبمنحها الأوبرا بعض الأولوية على الديمقراطية.

توكفيل وشركاه : " أمريكا الحلوة "

"أعتقد أنه لا وجود على سطح الأرض لبلد تقل فيه حرية الرأى حول كل موضوع يثير خلافات واسعة فى الرأى كهذا البلد" - أمريكا بالطبع. أهى مسودة توكفيل؟ لا، بل رسالة كتبها ديكنز [وضعت بالفرنسية(٤٩)]. كتب الروائى هذه السطور إلى فورستر لدى عودته من رحلته الأمريكية فى عام ١٨٤٢. أما توكفيل فكان قد كتب فى الجزء الأول من كتابه عن *الديمقراطية فى أمريكا* عام ١٨٣٥: "لا أعرف بلداً تسود فيها بصورة عامة حرية العقل وحرية حقيقية فى النقاش أقل مما هى عليه فى أمريكا. [...] فى أمريكا، ترسم الأكثرية دائرة رائعة حول الفكر. الكاتب حر داخل هذه الحدود، ولكن يا لمصيبته إذا جرؤ على الخروج منها(٥٠)." يتفق توكفيل وديكنز على ذلك: ليس أعسر على الإنسان من أن يكون مخالفاً فى الأفكار. سيقول ذلك بودلير عما قريب فى واحد من مقالاته المخصصة لبو: ليس هناك ما هو أصعب من ممارسة حقين من حقوق الإنسان نسيتهما كل التصريحات، حق التناقض مع الذات وحق الذهاب(٥١)... هذه السطور التى كتبها توكفيل وكل الفصل الذى توجد فيه، "عن سلطان الأكثرية المطلق"،

ستصير فى فرنسا خلال أكثر من قرن أكثر الصفحات التى يستشهد بها من كتاب *الديمقراطية فى أمريكا*. من الممكن الحديث بهذا الصدد عن استخدام توكفيل فى معاداة أمريكا: وعن هذا الاستخدام لا عن توكفيل نفسه إنما سنتحدث هنا. يجب إذن اتخاذ مسافة من الكتاب والتعامل بحرية مع تتابع الأحداث لذكر "الاستعادات" نادرة السذاجة لكتاب عن *الديمقراطية فى أمريكا* من قبل المعادين لأمريكا خلال الجيلين التاليين؛ فلنلق نظرة على توكفيل كما يرى من النهاية.

هناك مسرحية أحدثت فضيحة فى باريس عام ١٨٧٣، تحمل عنوان *العم سام* لفيكتوريان ساردو، تقدم شاباً فرنسياً يصل الولايات المتحدة مع كتاب *عن الديمقراطية فى أمريكا* زاده الوحيد. ولحسن الحظ، تحذره على الفور مواطنة علمتها التجربة، هى مدام بيلامى، من مثل هذه القراءات الخطيرة: "أمريكا الحلوة... ثق بها!(٥٢)".

كان توكفيل قد كتب: "تتكفل الأكثرية فى الولايات المتحدة بتقديم كمية من الآراء الجاهزة للأفراد"(٥٣)، كما لو أن العقيدة المفضوحة فيما وراء الأطلسى قد صممت على الانتقام من نفسها فى فرنسا؛ فغداة وفاته التى وقعت فى عام ١٨٥٩، كان توكفيل حبيس صورته الكاريكاتيرية. وسيقدم خلال عدة عشرات من السنين بوصفه رجل الفكرة الواحدة (المعتبرة خاطئة): الولايات المتحدة هى ديمقراطية جوهرياً، وبوصفه مناضلاً فى سبيل قضية واحدة: تنمية فكرة الديمقراطية بواسطة التقريظ المستمر لأمريكا. وسيعتبر فى آن واحد (وبصورة متناقضة) عقائدياً تجريدياً وعضو جماعة ضغط معروف، مضاعفاً بنبى مقدّس، لكن الحدث يكذبه دوماً. لم تخدم الحرب الأهلية الأمريكية سمعته. كان توكفيل قد استبعدَ على أساس عدم احتمالها الشديد وجودَ رغبة فى انفصال ولاية أو عدد من الولايات. وحتى لو حدث ذلك ضد كل احتمال، فقد أكد أنه لن ينتج عن ذلك أى صراع، وأن الاتحاد سيذعن لهذه الرِدّات(٥٤). وسيقل غفران هذا "الخطأ" المزدوج له خلال وبعد الصراع، لا سيما وأن كتابه لا يمنح شيئاً مرضياً لأىّ من المعسكرين؛ فأنصار الجنوبيين ليس لهم ما يحمدوا أنفسهم عليه بناء على اللوحة التى رسمها توكفيل بطريقة سلبية إلى حدّ بعيد عن الجنوب، العاجز عن منافسة الشمال المتعصب والديمقراطى "بنموذج آخر" للمجتمع. أما المدافعون عن الاتحاد، والذين يعتبرون مسألة العبودية مسألة أساسية، فإنه لا يسعهم إلا السخط من موقف توكفيل الذى يعتبر بعد أن أكد موقفه المضاد للعبودية من حيث المبدأ أن المحافظة على الوضع القائم أطول زمن ممكن هو الخيار الوحيد الذى يملكه الجنوبيون لكى لا يتلاشوا.

وبتصريفه كتاب الديمقراطية فى كلمتين: "أمريكا الحلوة"، لا يوجز فيكتوريان ساردو على نحو سيئ الفكرة المختزلة التى يمكن أن يكونها عن توكفيل فى عام ١٨٧٣ جمهور باريسى لم ينتظر نصائح السيدة بيللامى ليكف عن قراءته. يدهش هذا الكتاب اليوم برفعته الفريدة وعزلته الفكرية، لكن الصورة التى يملكها أو يريد أن يعطيها خصومه حتى نهاية القرن التاسع عشر مختلفة جداً. وحين يشار إليه (لا يستشهد به أبداً تقريباً)، فغالباً ما يتم الأمر بصحبة وبمستوى مؤلفات جوستاف بومون Gustave Beaumont، رفيقه فى السفر، وميشيل شفالييه Michel Chevalier أو فيلاريت شاسل Philarète Chasles[٥٥]. هذه الكتب القليلة الشبه، يتم إدانتها جملة، باعتبارها مملاة من قبل التحزب الدفاعى نفسه. أما مؤلفوها فيُقدمون بوصفهم نادياً صغيراً أو عصبة. وهكذا يقال: انظروا إليهم كيف يتبادلون الكرة؟ كيف يقوم السيد دو توكفيل بالدعاية لزميله بومون[٥٦]؟ كيف يسند فيلاريت شاسل بعد خمسة عشر عاماً إلى سلطة توكفيل وشفالييه منذ الصفحة الأولى كتابه الذى ظهر فى عام ١٨٥١: ***دراسات حول الأدب والأخلاق الأنجلو-أمريكية فى القرن التاسع عشر*** *Etudes sur la littérature et les mœurs des Anglo-Américains au XIX* siècle*[٥٧]؟! هذا ما يكفى للمعادين المبكرين لأمريكا فى سنوات ١٨٨٠ لكى يخلطوا كل شيء.

إذا كان هؤلاء العملاء المفترضون لأمريكا وللديمقراطية قد لعبوا دوراً فى تكوين النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا، فذلك إذن على الرغم منهم وبصورة مضادة لهدفهم؛ فالخطاب المعادى لأمريكا الذى ازدهر سنة ١٨٨٠ قد طلب إليهم الإسهام حسب صيغتين يمكن جمعهما – وغالباً ما جمعتا. أولاً، بمجانسته بطريقة اصطناعية هذه المجموعة من الكتب ليجعل منها تعبيراً عن جماعة ضغط أمريكية، إنما يبرر نفسه بوصفه خطاب هجوم مضاد؛ فمن توكفيل إلى شاسل تدان إذن خطة سرية، نصيحة لتقليد أمريكا، غائبة مع ذلك لدى أحدهما مثلما هى غائبة لدى الآخر. لا يهدف الوصف لدى توكفيل، بأى حال، إلى الإلزام بمقتضاه؛ أما بالنسبة لشاسل، فإنه يحذر بصراحة ضد محاولة تقليد أمريكا ومؤسساتها: "هل أطفال عالمنا المتقزز العجزة محقون فى أن يقلدوا الآن، على الرغم من ماضيهم، الاستقلال الأمريكى الذاتى الذى لا يملكون منه حتى نواته ؟ هل سينجحون فى هذه المحاولة ؟ يمكن لنا الشك فى ذلك[٥٨]." لا يهم خصومهم الذين يستخلصون شرعية محل نزاع من هذه المؤامرة المفترضة.

استخدام آخر لتوكفيل و"صحبه" يظهر فى نهاية القرن: وهو يقوم على عزل عدد من المقترحات "المضادة " لدى هؤلاء المؤلفين المعروفين بدفاعهم عن أمريكا من أجل استخدامها فى تغذية ملف الاتهام ضد الولايات المتحدة. بدأ كتاب ***عن الديمقراطية فى***

أمريكا فى أن يزار آنئذ، ولكن كما تزار هذه النصب المهجورة؛ حيث يأخذ كل واحد منها من أجل بيته المتهدم الحجر الذى يلائمه. وما سهّل الاختلاس المتجزئ للكتاب هو عدم الاهتمام به. إنه "كتاب شهير يتكلم عنه كل الناس ولم يعد يقرؤه أحدٌ أبدًا" كما يُلاحظ فى عام ١٨٩٢ مؤلف *الحياة الأمريكية La vie américaine*(٥٩). يوافق أخصائيو توكفيل اليوم على ذلك. كان توزيع كتاب *عن الديمقراطية فى أمريكا* خلال حياة المؤلف كقصة القدح نصف الممتلئ أو نصف الفارغ. عندما ظهر الكتاب فى جزأين عامى ١٨٣٥ و ١٨٤٠ كان قد طبع منه ٥٠٠ نسخة، و"لم يتجاوز أبدًا ١٠٠٠٠ نسخة فى حياة المؤلف. كان له إذن قليل من القراء!". ويستشهدون بروييه كولار Royer-Collard وجيزو Guizot وشاتوبريان وفينيي Vigny ولامارتين Lamartine(٦٠). أهو فشل نسبى، أم أنه نجاح حقيقى لكن ضمن طبقة ما؟ يمكن للتقديرات أن تتباين حول هذه الفترة الأولى من استقبال الكتاب، لكن الكسوف الذى تلا ذلك لا يمكن إنكاره؛ فبينما كان الجمهور الباريسى يصفق لمسرحية *العم سام* وتستقر الجمهورية الثالثة مع تتابع السنوات الجيدة والرديئة فى مقراتها، كان توكفيل يدخل فى مرحلة "نسيان طويل"(٦١).

الوحيدون الذين لم ينسوه كليًا كانوا – على وجه الدقة – المجادلين المعادين لأمريكا. نادرون هم الذين يستشهدون به كما قلنا، ولا أحد يجهد فى رفضه، لكن اسمه يلفظ بصورة شعائرية كى يطرد على الفور. لم يكن المعادون لأمريكا فى نهاية القرن التاسع عشر يتعبون من استعادة ثيمة "أمريكا الحلوة". ومأخذهم الأساسى هو للفرنسيين مأخذ ساردو نفسه. لقد لوّن توكفيل الواقع الأمريكى، وباع للفرنسيين أمريكاه الديمقراطية كما لو كانت قطعة حلوى مغشوشة. هناك حول هذه النقطة إجماع مدهش لدى هؤلاء المعادين المبكرين لأمريكا الذين سنلقاهم فيما بعد، والذين ينتمون إلى عائلات سياسية متباعدة: فريديريك جاياردييه Frédéric Gaillardet الذى يُعَنوِنُ كتابه *عن الأرستقراطية فى أمريكا De l'Aristocratie en Amérique* كى يدعو قراءه "لقلب" توكفيل؛ والبارون دومندا – جرانسى Mandat-Grancey الذى يعتذر لأنه من أقرباء الفيكونت بعض الشىء، لكنه يفخر؛ لأنه لا يشاركه أيًا من آرائه الديمقراطية المؤسفة، وبول دو روزييه Paul de Rousiers مبعوث المتحف الاجتماعى الذى يدين الخطأ الذى ارتكبه توكفيل عندما "ألقى فى الجمهور الفرنسى هذه الفكرة التى تفيد بأن الولايات المتحدة تقاد بالديمقراطية وحسب،" وأنه "لا يُعذر [...] لنشره هذا الرأى"(٦٢). فتوكفيل المبعّد يتضاعف غالبًا فى الافتتاحيات والمقدمات بتوكفيل التسويغ: الأول مرادف للتزوير، والثانى للفشل. لم تسلمه أمريكا أسرارها، ويبقى كل شىء ليقال، وكتابه لتعاد كتابته. تلك هى إستراتيجية بول بورجيه فى عام ١٨٩٥، الذى لم يشر إلى

توكفيل إلا ليؤكد نواقصه: "الكتاب الذى يلخص مجتمعًا مماثلاً ينتظر الكتابة"(٦٣). وأخيرًا جاء بول بورجيه...

وعلى أنه احتقر وصُرِّفَ بلا جُمل من قبل معظم المجادلين المعادين لأمريكا حتى نهاية القرن التاسع عشر، فقد عرف توكفيل مع منعطف القرن عودة غريبة للشهرة تشبه سوء حظ جديد؛ إذ يكتشف آنذاك أنه ليس من المستحيل جعله يخدم بالرغم عنه القضية الجيدة، ولا أن يستمد من كتاب *الديمقراطية* أسلحة ضد أمريكا. وهناك كتاب يؤلِّف بهذا المعنى حلقة وصل بجمعه هذين الاستخدامين لتوكفيل: *مبادئ علم النفس السياسى للشعب الأمريكى* Eléments d'une psychologie politique du peuple américain لإميل بوتمى Emile Boutmy. تعود النصوص المجموعة فى هذا الجزء من قبل مؤسس المدرسة الحرة للعلوم السياسية إلى أعوام ١٨٩٠ – ١٨٩٢، وقد حُيِّنت وأكملت من قبله فى عام ١٩٠١. يبدو بوتمى منذ البداية آسفًا لفقدان الاعتبار الذى سقط ضحيته توكفيل، وإذ يقوم بذلك إنما يؤكد الجو المعادى لتوكفيل الذى كان سائدًا فى تلك السنوات: "فقد كان يقال بصورة عفوية إن كتاب *الديمقراطية فى أمريكا* كتاب صار من الآن فصاعداً كتابًا قديمًا تم تجاوزه، ولم يعد الرجل السياسى يتوجه إليه لاكتساب المعرفة." كان يلتفت إلى مؤلفين أقل "تجريداً"، مثل بريس Bryce، مؤلف *الكومنولث الأمريكى* *American Commonwealth*، الذى يعلمنا بوتمى أنه قد "أنزل عن العرش" توكفيل(٦٤).

تحمل مثل هذه الفاتحة على توقع إعادة الاعتبار كاملاً، لكن لم يكن الأمر على هذا النحو أبداً؛ فباسم إعادة فتح الدعوى، وإعادة النظر فى الحكم كما أمكن لنا الظن، يُهينُ بوتمى المحكومَ عليه. فتوكفيل فى نظر بوتمى ليس مراقبًا سياسيا أو محللاً اجتماعيًا بقدر ما هو "واعظ قليل الصبر". وبوصفه هاديًا رديئًا فى مجال العمل فقد ارتكب أخطاءً فادحة فى "عدد من تنبؤاته"، كالانحلال الدائم للأحزاب وللاتحاد الفيدرالى: "أقنع توكفيل نفسه أن الاتحاد لن يكون عما قريب، دون أن يكف عن الوجود قانونيًا وفعليًا، إلا ظلاً واسمًا. والخطآن كاملان: فالاتحاد قد توثقت عراه، وهجرت نظرية *حقوق الولايات* *state rights*، وبقى الحزبان الكبيران إطارين لكل نشاط سياسى." وبوصفه محللاً رديئًا، وعالم مستقبل سيىء الحظ، يملك توكفيل العيب الإضافى لمنهجية متخلفة، غير جديرة بهذا العلم المتعذر نقضه، وهو من الآن فصاعداً "علم النفس السياسى": "إن الاستنتاجات السياسية التى كانت تروق لتوكفيل لم تكن تطال إلا الإنسان العام، وهو شخصية ليس لنا علاقة بها أبداً. أما بالنسبة لسيكولوجية العرق أو الأمة ولا سيما تلك التى من مصلحة السياسى خصوصاً أن يصير سيدها،

فليس هناك أفضل من الوقائع الخاصة لإبرازها، تهذيبًا واهتمامًا بالفروق الدقيقة، على القاع العادى للسيكولوجية التجريدية." وفى نهاية الأمر يعود بوتمى إلى السيد برايس، ويوصى بقراءته على أساس أنها أفضل من قراءة "المراقبين المناضلين"، كالسيد دو لا بولاى De La Boulaye، والسيد كلوديو جانيه Claudio Jannet، والسيد دو توكفيل. وذلك، لا لأن البريطانى يفوقهم علميا على نحو كبير، بل لأن مؤلفاته "تتضمن لمن يريد أن يعثر عليها، عناصر أكثر ضروب الاتهام حججًا التى وجهت ضد شعب ما"(٦٥). ليس هناك بين الفرنسى "التجريدى" ذى التساهلات المذنبة والبريطانى ذى القسوة المضمونة بالعلم، ما يمكن الموازنة فيه.

إذن، هل يتوجب علينا أن ننسى توكفيل؟ نعم، ولكن ليس كليا؛ فبعد أن رفض بوتمى دعواه فى الاستئناف، لا يأنف من أن يجعله يعود شاهدًا، ولكن كشاهد إثبات بالطبع. عودة رزينة، وظهور متواضع، لكنه يدشن على كل حال دورًا جديدًا أنيط بكتاب ***الديمقراطية فى أمريكا*** القيام به: تقديم ضمانة لا يشك فيها من خلال مقتطفات مقنعة للخطاب المعادى لأمريكا. وعلى هذا النحو، فإن بوتمى وهو المهموم بإقناع قارئه أن الولايات المتحدة الأمريكية تؤلف "بيئة لا تحتمل"، وأنه ليس هناك فرنسى واحد يمكنه بحسِّه السليم أن يبقى فيها على قيد الحياة، سيشدُّ توكفيل من كمه ويلتمس موافقته. يبدو بوتمى وكأنه يقول: تظنون أننى أبالغ، صدقوا توكفيل : "لقد أضفت هذه الديمقراطية الروحانية على العنف"(٦٦). يمكننا أن نصدقه، هو، ولكن حين يتكلم ضد الولايات المتحدة فقط.

يكتب توكفيل فى التمهيد لكتابه عام ١٨٣٥: "يخطئ الناس خطأ غريبًا إذا ظنوا أننى أردت التقريظ"(٦٧). على أن خصومه فى بداية القرن العشرين لم يكونوا أبدًا على استعداد لتصديقه بناء على كلامه فحسب، لكنهم فهموا المصلحة فى تصديقه. فصاروا ينهلون من الآن فصاعدًا من بعض المقاطع، وهى نفسها دومًا، حججًا تزداد قيمتها بقدر انتزاعها من العدو. إن حدَّة ذهن توكفيل وتعرجه الحصرى، وكذلك – لابد من القول أيضًا – تناقضاته، تسهل مهمة عصابة الحدادين. ديوان صغير من الأفكار التى يمكن استعادتها: لا توجد الاستمرارية التشريعية فى الولايات المتحدة، ولا تملك الحكومة فيها استقرارًا إداريا، كما أنها ليست مقتصدة كما يُظن فى أوروبا، فى حين أن مجلس النواب مجلس فظ على نحو لا يصدق؛ أما اللاأخلاقية الأمريكية، وهى لا أخلاقية محدثى نعمة؛ فهى أشد خطرًا من لا أخلاقية "الكبار" فى النظام الملكى، كل ما هو ثقافى هو "لغير صالحها"، "لا تزال أمريكا لا تملك كُتَّابًا كبارًا"؛ لأنه "ليس ثمة حرية فكر فى أمريكا"، ليس كل شىء هناك إلا ضوضاء وحركة، ومظهر المجتمع "مضطرب

ورتيب"، والأمريكيون "قلقون وسط رفاههم"، و"رصينون وشبه حزانى فى مسراتهم"(٦٨). كل ذلك يوجد فى الواقع فى كتاب ***الديمقراطية فى أمريكا*** وأشياء أخرى أيضًا، كهذا المأخذ الذى سبق وأخذته السيدة ترولوب على الأمريكيين، والذى يتمثل فى عجزهم عن تحمل النقد(٦٩)...

كل هذه المقتطفات والمقاطع المختارة المنتزعة من الأجمة التوكفيلية سنجدها من الآن فصاعداً مزروعة من جديد كيفما اتفق فى حديقة نزعة معاداة أمريكا، مع باقة مركزية تتمثل فى الصفحة الشهيرة حول "السلطة التى تمارسها الأكثرية فى أمريكا على الفكر" فى الفصل السابع من الجزء الأول من كتاب ***الديمقراطية فى أمريكا***. "سلاسل وجلادون، تلك هى الأدوات الفظة التى كان الطغيان يستخدمها قديمًا، لكن الحضارة فى أيامنا حسَّنت كل شىء حتى الاستبداد نفسه الذى يبدو مع ذلك أنه لا حاجة به إلى أن يتعلم أى شىء(٧٠)." لقد ابتعدنا كثيراً عن فيريير والاستبداد الصغير لأمريكا الريفية التى حطّ ستتدال من قدرها، لكن هناك بالقرب منا، بالمقابل، المخاوف الحديثة الكبرى؛ حيث يمارس الاستبداد سلطته فى الرءوس مباشرة دون الحاجة "لضرب الجسد بقسوة".

بودلير : من أمريكا البلجيكية
إلى النهاية الأمريكية للعالم

يبقى أن نحدد فى ما لم يؤلف بعد جوقة، بل متتابعة من الأغانى المعادية لأمريكا موقع صوت بودلير المؤثر بوجه خاص: بودلير المقالات حول بو، بالطبع، ولكن أيضًا وبصورة خاصة الصفحة المدهشة من كتاب ***صواريخ*** ***Fusées***؛ حيث يرسم مستقبل العالم "المتأمرك".

كانت السيدة ترولوب – وهى تحت ضغط الديون فى أثناء محاولة رأسملة نجاح كتابها الأمريكى – قد ألقت بنفسها على بلجيكا. لو أن بودلير قد تفضل وعلق عليها لما استطاع إلا أن يوافق على مثل هذا التتابع فى الأفكار. من هو أكثر بلجيكية من أمريكا فى الحقيقة؟ بلجيكا الشابة وأمريكا الشابة تضليلان مزدوجان ومسخان قريبان. نفس المنفعية، نفس العواطفية، نفس الحقارة الديمقراطية، نفس كراهية العبقرية – وبالطبع نفس "رائحة المخزن"(٧١). هكذا يفكر بودلير وهو يجمع البلدين فى كراهية مشتركة. إن إدانتهما معًا تؤلف جزءًا من مشروعاته الأخيرة أو من رغباته الأخيرة. كتب لدانتو عام ١٨٦٦، أى قبل عامين من وفاته: "آن أوان قول الحقيقة عن

بلجيكا مثلما هو الأمر عن أمريكا، الحديقة الساحرة الأخرى للأوباش الفرنسيين"(٧٢). فى الكتاب الشهير عن بلجيكا الذى لا نملك منه إلا بعض المخططات، أمريكا حاضرة فى أول ورقة من حجة الكتاب: "كما كنا نغنى فى بلدنا قبل عشرين عاماً مجد وسعادة الولايات المتحدة الأمريكية، نقوم بالحماقة نفسها بمناسبة بلجيكا(٧٣)." ويتملكنا غالبًا الشعور؛ إذ نتصفح ***أوراق بلجيكا العارية هذه (أو بلجيكا المسكينة)***، بأن بودلير يصفى حسابين فى آن واحد. "رعب عام ومطلق من العقل"، "روح الإذعان والامتثال"، "روح الجماعة، وبالاجتماع يعفى الأفراد أنفسهم من التفكير فرديًا"، "عدم نزاهة تجارية (نوادر)"، "كل الناس تجار حتى الأغنياء"، ***كراهية الجمال، للتناظر مع كراهية العقل،*** "دراسات مهنية، كراهية الشعر، تربية لتكوين مهندسين أو أصحاب مصارف"، صحيح أن بودلير يلقى بكل هذه الحجارة على بلجيكا، لكن أمريكا وراء ها.

أى أن أمريكا ليست البلد الذى عذب بو بشدة حتى الاستشهاد فحسب. إن كلمة عذب بشدة حتى الاستشهاد ليست بالنسبة لبودلير مجرد صورة؛ فحين يريد أن يرغم نفسه على صلاة يومية فإنه يسمى بو بوصفه أحد الوسطاء الثلاثة، هو "الذى تألم من أجلنا كثيرًا"(٧٤). إن إخلاص بودلير لبو الذى كان آسلينو Assellneau يسميه "امتلاكًا" هو حقيقة عشقى. إنه يقوم فيما وراء الإعجاب الذى يشعر به نحو "الرومانتيكى الوحيد على الطرف الآخر من المحيط"(٧٥). إنه انفعال مشع يتسع ليشمل الكائنات النادرة التى كانت غوثًا للشاعر، شأن السيدة كليم التى يجعل منها بودلير شخصية من شخصيات الإحسان. وفى غياب أية معلومات وثيقة بنى بودلير لنفسه أولاً -اعتماداً على الصحافيين الأمريكيين - شخصية لبو هى شخصية بو المزاجى، والغندور الجنوبى، والأرستقراطى المولد كما هو فى العبقرية. وما إن علم أنه لا أساس لذلك، وأن بو لم يكن المُنعَمَ الذى ظنه، وأنه عاش بصعوبة وانتهى بصورة بائسة، حتى ضاعف بودلير من حنانه "لإدّى Eddie المسكين" هذا الشديد الاختلاف عن إدجار بو الذى كانت مخيلته قد رسمته له: "هذه الأطروحة المضادة الساحرة تملؤنى بحنان لا يمكن تجاوزه"(٧٦).

كان بودلير - بوصفه محاميا متحمسًا للشاعر وللرجل - يحقد، بصورة حماسية، على أمريكا الشرسة التى جهلت أحدهما وقتلت الآخر: "لم يكن إدجار بو ووطنه من المستوى نفسه(٧٧)." تقيم حياة بو شأن موته لائحة الاتهام ضد بلده. "لقد أوجدت الوثائق التى أتيت على قراءتها فى نفسى هذه القناعة بأن الولايات المتحدة كانت بالنسبة لبو قفصًا واسعًا، مؤسسة كبرى للمحاسبة، وأنه قام طوال حياته بجهود مستميتة ليفلت من هذا الجو المزعج(٧٨)." لقد كان لا يمكن - والحق يقال - تلافى

الاضطهاد. "كان بو وقد بَهَرَ أبصار بلد فتى بشع الشكل يصدم بعاداته رجالاً كانوا يظنون أنفسهم أنداده، قد صار حتماً واحداً من أكثر الكتاب شقاء[٧٩]." كان في آن واحد دقيقًا وواسع الخيال، "نقيض الأطروحة صنع من اللحم"[٨٠]. وكان ذلك كافيًا ليكرهه عملاء المفيد والعاطفي الشركاء. لقد كان بو بوصفه أمريكيا مهدداً أكثر من أي إنسان آخر؛ فقد كان يقاتل في الخط الأول؛ لأن "هناك في الولايات المتحدة الأمريكية منذ زمن طويل حركة نفعية تريد أن تقيد الشعر، شأن الباقي"[٨١]. ألم يصل بهم الأمر أنهم أرادوا أن يجعلوه يكتب "كتاب الأسرة" ؟. "طلب كتاب الأسرة من إدجار بو ! صحيح إذن أن الحماقة البشرية ستكون هي ذاتها في كل البيئات، وأن النقد سيريد دومًا ربط الخضار الثقيلة بأشجار الزينة ؟[٨٢]".

هي ذاتها في كل البيئات: أي أن أمريكا ليست وحدها موضع الاتهام، "ثم إن المجتمع لا يحب هؤلاء الساخطين المساكين" - المجتمع بوصفه كذلك دون مراعاة للجنسية، ولم يفت الأوباش في فرنسا أن يبصقوا على جثة جيرار دو نرفال، منتحر هذا المجتمع[٨٣]. كلنا بلجيكيون في هذا، كلنا أمريكيون، كلنا ديمقراطيون، كما يريد أن يقول بودلير. وإذا كان صحيحًا أن بو كان "مخنوقًا [...] بالجو الأمريكي"[٨٤]، فإنه لا يزال يتوجب علينا أن نعرف وأن نُعرِّف أن هذا "العالم الشره، المتعطش للمادية"، والذي هو في الوقت نفسه عالم "الطفح الديمقراطي"، هو عالمنا، عالمك - أيها القارئ المنافق. الأمريكيون ديمقراطيون أطيب من أن يكرهوا عظماءهم، وكان عليهم أن يخنقوا بو، لكن أمريكا ليست إلا التسمية الجغرافية للديمقراطية. والديمقراطية، لدى ستندال، لم تكن إلا غزلاً يوجه لأصحاب الدكاكين. أما بودلير فقد "سمع أنه يوجد في الولايات المتحدة طغيان أشد قسوة وأكثر تصلبًا من طغيان الملك، وهو طغيان الرأي العام"[٨٥]. هذا التجديف الرهيب "ينشّ الوطنية المجروحة" على شفاه الأمريكيين. خطأ؛ فهذا الاستبداد لم يعد له وطن أصلاً: إنه مستقبل العالم، أي نهايته.

"سوف ينتهي العالم" - ذلك هو الاستهلال الأطول لكتاب ***صواريخ Fusées*** الذي حرره بودلير اعتباراً من ١٨٥٥. وسوف ينتهي متأمركًا. توجد أمريكا على هذا النحو على عتبة وفي نهاية (لم تكتمل) آخر مشروع بودليري. على العتبة؛ لأن بودلير يضع مشروعه مرة أخرى تحت الإلهام الحارس لبو، الذي يستعير منه العنوانين اللذين يوازن بينهما "صواريخ **Fusées**" و"إيحاءات **Suggestions**[٨٦]". في النهاية، مادامت الورقة ٢٢ التي تتضمن الذكر المشئوم للإنسانية المتأمركة ستكون الأخيرة. وكما لو أن الوقت متأخر جداً، يخضع غضب الصفحات الأولى النبوي كيما يختتم إلى استسلام وصائي: "ومع ذلك، سأترك هذه الصفحات؛ لأنني أريد أن أؤرخ غضبي." ويضيف

بودلير إلى هذه الجملة الأخيرة كلمة أخيرة (أليستبدل كلمة غضب؟): هى كلمة "حزن". لم يصب الصاروخ الأخير جيداً، وتحول المقطع إلى إسهاب أو، كما يقول بودلير، إلى "مُقبَلات صحفية". وتغلبت الليلة الأمريكية على الكتابة الجوهرية وعلى الطاقة النبوية للشاعر؛ لأن أمريكا بودلير بدلاً من أن تكون شباب العالم هى "شيخوخة" الإنسان - "التى تتطابق مع المرحلة التى سندخلها قريبًا والموسومة بدايتها بتفوق أمريكا والصناعة"(٨٧). تدق أمريكا ساعة البطلان العقيم، عدو الانحطاط الخصب.

يتحدث أندريه جيو فى طبعته لكتاب *صواريخ* *Fusées* عن هذا المقطع كما لو أنه "شهاب مشحون بآخر نيران العالم"(٨٨). ويجب الاستشهاد بتوسع بهذا التنبؤ؛ حيث يصف بودلير قبل قرن من بودريار مجيء عالم اللاحدث الذى جاء فعلاً: "عاصفة لا تنطوى على أى شيء جديد، لا معرفة ولا ألم". إن النهاية الأمريكية للعالم هى ركود دم قاتم بلا إشعاع، نهاية عالم لا يسبقها وحى، مجرد توقف عن النشاط الروحى، انطفاء أخلاقى، "إذلال كامل للقلوب"، ولكن أيضًا انحلال كل علاقات الأسرة، والغرق فى مياه الحساب الأنانى، والعهر العام للمال الإله، بل أيضًا المجتمع المتفكك، والدين المتلاشى، وإرهاب خارق على جدول الأعمال، وأبالسة من اللاعدالة. "هل أحتاج إلى القول إن القليل مما سيبقى من السياسة سيتخبط بألم فى معانقة الحيوانية العامة، وأن الحكومات سترغم من أجل بقائها ومن أجل إيجاد شبح نظام على أن تلجأ إلى وسائل سترتعد من جرائها فرائص إنسانيتنا المعاصرة التى اشتد مع ذلك عودها"؟!

هذه الصفحة (التى يمكن لبودلير أن يكون قد كتبها فى عام ١٨٦١) لن تعرف من الجمهور قبل عام ١٨٨٧ أى بعد عشرين عامًا من موت الشاعر. ومن بين القراء الذى أسرهم على الفور "عنف ولهجة الحقيقة فى هذا الصوت القادم مما وراء القبر"، يمكن أن نذكر بلوا **Bloy** وكلوديل **Claudel** وبروست **Proust**، وكان أحد الأوائل نيتشه الذى قرأ وعلق على الجزء الخاص ***بالأعمال اللاحقة*** ***Oeuvres posthumes*** فى بداية ١٨٨٨؛ فقد وجد فيها "ملاحظات لا تقدر حول سيكولوجية الانحطاط"(٨٩). لكن الورقة ٢٢ تستبق أيضًا أدبًا كاملاً للانحطاط يرتبط ارتباطًا وثيقًا كما سنرى فيما بعد بوسواس الأمركة. كان بودلير هو أول من عقد هذه الرابطة فى هذه الصفحات اللامعة. إذا كان الانحطاط يمكن أن يكون فرحًا وحتى "قويا" (كما كان يتمناه بورجيه)، فإن انحطاط أوروبا لن ينطوى على أى شيء ملحمى، وستكون نهاية هذا "العالم الخبيث" باهتة كالتقدم، باردة كالآلة، قاسية كأمريكا. إنها ليست حتى الموت، بل بالأحرى اللاحياة." أطلب إلى كل إنسان يفكر أن يرينى ما الذى سيتبقى من الحياة".

أن تكون هذه الرؤية لمستقبل بلا غد، وأن تكون السماء خالية، وهذه الإنسانية مستغرقة فى "عناق الحيوانية العامة"، وأن يكون توقف التاريخ وإقامة طغيان لا يتغير، وأن يكون كل هذا المنظر بعد الهزيمة يحمل اسم أمريكا، كل ذلك يجعل من المقطع الأخير من صواريخ نصًا تنبؤيًا ومن بودلير الذى كان يشعر بنفسه فيه "نبيًا مضحكًا"، رائد المقاومة ضد الأمركة بوصفها موت الإنسانية العيادى. إذا صار العالم أمريكيا يتساءل بودلير: "ما الذى سيبقى على العالم من الآن فصاعداً أن يعمله تحت السماء؟".

إذا نحت بودلير فعل *أمرَكَ* *américaniser*، وهو فعل موعود لمستقبل باهر فليس الأمر صدفة أوحت بها قريحته أو طارئًا من طوارئ مزاجه. إن اللفظة الجديدة تنبجس منطقيًا وبالضرورة من تتابع نصوص تعطيها الحياة والقوة. فبين أول استخدام لها فى عام ١٨٥٥ والاستخدام الذى يقوم به بودلير فى الورقة ٢٢، كانت الكلمة قد تضخمت بالمعنى – وبالتهديدات. ظهرت للمرة الأولى فى مقال نشرته صحيفة *البلد* *Le Pays* حول المعرض العالمى فى عام ١٨٥٥، من خلال مقطع طويل ضد "فكرة التقدم"، هذا "الخطأ الذى صار على الموضة"، هذه "الفكرة الفظة التى ازدهرت على الأرض الفاسدة للغطرسة الحديثة". إن إنسان التقدم هو فرنسى الخمّارة، قارئ الصحف الذى تختلط لديه "الأمور ذات الطبيعة المادية وذات الطبيعة الروحية"، صاحب العقل الحديث المسكين والمخ الذى غسلته الفلسفة المادية: "لقد تأمرك الرجل المسكين إلى درجة كبيرة بفعل فلاسفته الحيوانيين والصناعيين؛ بحيث إنه أضاع مفهوم الاختلافات التى تسم ظواهر العالم المادى والعالم الأخلاقى، الطبيعى وما فوق الطبيعى(٩٠)." رؤية تدعو بالأحرى للرثاء، رؤية عام ١٨٥٥ هذه؛ حيث كان "الانحطاط" يتخذ مظهر "نوم الضعف المهذار". إنها هذه الرؤية نفسها المقدمة بوصفها رؤية مأساوية، وصارت مرعبة، هى التى يضخمها مقطع "العالم سوف ينتهى" من صواريخ. "إن الآلية ستكون قد أمركتنا جداً، والتقدم قد قلص فينا كل الجانب الروحى، بحيث إنه لا شىء من بين الأحلام الدموية، أوالمدنّسة، أو المضادة للطبيعة للطوباويين يمكن أن يقارن بنتائجه الإيجابية".

كفَّ المتأمرك من نصٍّ إلى آخر، بين عامى ١٨٥٥ و ١٨٦١ (إذا كان هذا هو تاريخ المقطع)، عن أن يكون غبى الخمارة، عماد المقهى المسمم بقراءة "صحيفته"؛ إنه أنا، إنه أنتم، إنه بودلير، إنه "نحن" الإنسانية المنتهية. يصرخ النبى بصوته بإيقاع: "الأزمنة قريبة"، ونهاية العالم هى هذه الليلة الأمريكية؛ حيث تتراءى، وراء أنقاض "الروحى"، أخطار رهيبة لا تزال عسيرة على الوصف.

هوامش

(١) G. de Nerval, *Promenades et souvenirs, Paris*, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade,1974, t. I, p.136.

(٢) Voir René Rémond, *Les Etats-Unis devant l'opinion française.* 1815-1852, Paris, Armand Colin, (2) 1962 ; La distance et l'éloignement «est le titre de son premier chapitre.

(٣) Voire à ce sujet R. Rémond, p. 60 ; ainsi que A.S. Tillet, "Some Saint-Simonian Criticism of the States befor 1835", The Romanic Review nº 52, 1, février 1961, pp. 3-16.

(٤) Stendhal, *La chartreuse de Parme, Paris,* Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, 1952, t.1, p. 431.

(٥) Cité par G. Lacour-Gayet, *Talleyrand,* Paris, 1928, vol. 1, p. 199.

(٦) تتناول هذه الأزمة تعويض الخسائر التى تحملتها البحرية التجارية الأمريكية فى ظل الإمبراطورية ؛ انظر فى هذا الكتاب الفصل الثانى من القسم الثانى.

(٧) Volney, *Tableau du climat et du sol des Etats-Unis* [1803], Ouvres, Paris, Fayard, 1989 ; t.2, p.37.

وكان فولنى قد اكتسب شهرته مع كتابه عن الرحلات والتأملات الذى يحمل عنوان الأنقاض Les ruines (1791) .

(٨) G[iraud], *Beautés de l'histoire d'Amérique d'après les plus célèbres voyageurs,* Paris, 1816, p. 186; Cité par Rémond, Les Etats-Unis devant l'opinion..., t. 1, p. 258.

(٩) Ibid.

(١٠) انظر حول الصورة الرديئة لجاكسون لدى الفرنسيين : (Ibid. t. 1, pp. 359-360 R.Rémond) ومع أزمة ١٨٢٤-١٨٣٦، لقد غدا "رديف الديماغوجى، والديكتاتور، والمفسد، و"يجسد الأنانية التافهة، والطمع، والقسوة اليانكية".

(١١) La Rochefoucauld-Liancourt, *Journal de voyage en Amérique et d'un séjour à Philadelphie*, édition Par J. Marchand, Paris, Droz,1940, p.62; كان الدخول فى ٢٧

نوفمبر ١٧٩٤: تم وصول لاروشفوكو-ليانكور فى الشهر السابق

(١٢) J.-P. Brissot de Warville, *Nouveau voyage dans les Etats-Unis de l'Amérique septentrionale fait en* 1788, Paris, Buisson, 1791 ; t. I, p. 139

(١٣) "[...] a contradictory and confusing picture of simultaneous progress and retrogression"; *Durand(13) Echeverria* , Mirage in the West: A history of the French Image of American Society to 1815, Princeton University Press, 1957, p. 190.

(١٤) La Rochefoucauld-Liancourt, *Journal de voyage* ..., p. 68

(١٥) Ibid., p. 73.

(١٦) Talleyrand, *Correspondance diplomatique*, La Mission de Talleyrand à Londres. Ses lettres d'Amérique à Lord Lansdowne, édition établie par G. Pallain, Paris, Plon, 1889, Lettre à Lord Lansdowne, 1er février 1795, p. 424 (souligné par Talleyrand).

هذه الرسالة الطويلة تقدم الحجة التى ستنفصل ضمن مذكرة تليت فى المعهد عام ١٧٩٩.

(١٧) Talleyrand, *Mémoire sur les relations commerciales des Etats-Unis avec l'Angleterre*, Recueil des Mémoires de l'Institut, classe des Sciences Morales et Politiques, II, an VII.

(١٨) لقد تصدعت أسطورة الكويكر Quaker (أى الصاحبى، وهو فرد من أفراد شيعة الصاحبيين البروتستانتيين التى تدعو إلى السلام والبساطة وحب البشر – المترجم) ذاتها فى نهاية القرن. إن رواية *Allon ça va, ou le Quaker en France* لبفروا دو رينيى - Beffroi de Reigny وهو مؤلف ذو شهرة شعبية كبيرة خلال الثورة عرف باسم ابن العم جاك – تضع على المسرح فى عام ١٧٩٣ كويكر أمريكى خاب أمله من الفساد المتزايد فى وطنه فانضم إلى الثورة الفرنسية.

(١٩) Volney, *Tableau* ..., p. 23.

(٢٠) *Ibid.*

(٢١) G. T. Raynal, *Histoire des Deux Indes, A Genève*, chez Jean-Léonard Pellet, 1780, t. IV, p. 451 .

(٢٢) Volney, *Tableau* ..., p. 22.

(٢٣) *Ibid.*p. 29.

(٢٤) *Ibid.* p. 25.

(٢٥) *Ibid.* p. 27.

(٢٦) *Ibid.* pp. 28-29.

(٢٧) Voir A. Gerbi, *La Disputa del Nuovo Mondo. Storia di una polemica* (1750-1900), Milano-Napoli, Riccardo Ricciardi Editore, 1955, pp. 463-495 et, sur "l'erreur au carré" de Hegel, p. 491.

(٢٨) Volney, *Tableau* ..., t. II, p. 31.

(٢٩) J. de Maistre, *Considérations sur la France [1797]*, avant-propos de J. Boissel, textes établis, préfacés et annotés par J.-L. Darcel, Genève, Ed. Slatkine, 1980, p. 98.

(.٣٠) J. de Maistre, *Considérations sur la France...*, p. 134.

(٣١) *Ibid.*, p. 133-134.

(٣٢) J. de Maistre, *Les soirées de Saint-Pétersbourg ou Entretiens sur le gouvernement temporel de la Providence*, Paris, Librairie grecque, latine et française, 1821, Deuxième entretien, t. 1 ; cette citation et les suivantes figurent dans les pages 108 à 114.

(هذا الاستشهاد والاستشهادات التى تليه موجودة فى الصفحات ١٠٨– ١١٤)

(٣٣) E. M. Cioran, *Essai sur la pensée réactionnaire. A propos de Joseph de Maistre*, Montpellier , Fata Morgana, 1977, p. 33.

(٣٤) ليس متوحشو أمريكا بشراً على نحو تام، تماماً لأنهم متوحشون : إنهم فوق ذلك كائنات منحطة ظاهرياً ومادياً وأخلاقياً، وحول هذا المقال على الأقل لا أرى أنه تم الردّ على المؤلف الأريب لكتاب *Recherches philosophiques sur les Américauns(Etudes sur la souveraineté* , Ouvres Complètes, Lyon, Vitte et Perrussel, 1884, t. 1, p. 453).

(٣٥) Chateaubriand, *Atala, In Atala, René, Les Natchez*, éd. J.-Cl. Berchet, Paris, Le Livre de Poche, 1989, p. 99.

(٣٦) Chateaubriand, *Préface des Natchez* [1826], éd. Cit., p. 69

(٣٧) Thomas Hamilton, *Men and Manners in America* (II, 169); cite par A. Gerbi, La Disputa..., p. 528, note 1

(٣٨) Cité par A. Gerbi, *ibid.* إن السيدة هارييت مارتينو Harriet Marti هى مؤلفة عدد من الكتب من بينها (1837) *Socety in America* و (1838) *Retrospect of Western Travel*

وقد قضت سنتين فى الولايات المتحدة بين عامى ١٨٣٤ و ١٨٣٦. كانت مصلحة ومنادية بتحرير العبيد، وقد أخذت على فرنسيس ترولوب عداء كتابها المبالغ فيه.

(٣٩) F. Trollop, *Domestic Manners of the Americans* [1838], édition, intrododuction et notes de Pamela Neville- Sington, Penguin Book, London & New York, 1997, p. 314.

(٤٠) *Ibid.* p. 138

(٤١) *Ibid.*, p. 37

(٤٢) *Ibid.*, p. 40

(٤٣) *Ibid.*, p. 241.

(٤٤) Sur ces annotations, voir R.L.Doyon, Stendhal. Notes sur l'Angleterre et l'Amérique,Table Ronde nº 72, décembre 1953, p. 25.

(٤٥) Stendhal, *Le Rouge et le Noir...*, t. 1, p. 222.

(٤٦) Stendhal, *La Chartreuse de Parme...*, t. 2, p. 135

(٤٧) Stendhal, *Lucien Leuwen...*, t. I, pp. 822-823.

(٤٨) A. Maurois, *En Amérique*, Paris, Flammarion, 1933, pp. 93-94.

(٤٩) " I believe there is no country, on the face of the earth, where there is less freedom of opinion on any subject in reference to which there is a broad difference of opinion than in this -there!- I write the words with reluctance, disappointment and sorrow; but I believe it from the bottom of my soul"; letter à John Forster, 24 févrler 1842; *The Letters of Charles Dickens*, éd. par M. House, G. Storey et K. Tillotson, Clarendon Press, Oxford, 1974, vol. 3 (1842-1843), pp. 81-82.

(٥٠) A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique* (I), Paris, Robert Laffont, collection "Bouquins", Ed. procurée par J.-Cl. Lamberti et F. Mélonio, 1986, p. 246.

(٥١) من بين التعداد المتكرر لحقوق الإنسان الذى تعيده حكمة القرن التاسع عشر غالبًا وبمجاملة، حقان على قدر من الأهمية تم نسيانهما، وهما حق التناقض مع النفس وحق الذهاب". ويلمّح بودلير هنا إلى إدمان إدجار بو على السكر الانتحارى ("إدجار بو، حياته وأعماله" [1856] Ouvres Complètes, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1976, t.2, p.306).

(٥٢) L'Oncle Sam لمؤلفها V. Sardou، مسرحية قدمت على مسرح الفودفيل للمرة الأولى فى ٦ نوفمبر ١٨٧٣، الفصل الثانى، المشهد ٣. وسنود من جديد إلى العم سام فى الفصل الثالث.

A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique* (II)..., P. 434.

(٥٣) A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique* (I)...., P. 341". يبدو لى إذن من

(٥٤) المؤكد أنه إذا أراد جزء من الاتحاد الانفصال جدياً عن الآخر، لا نستطيع أن نمنعه من الإقدام على ذلك فحسب، بل لا يمكن حتى محاولة القيام بذلك " ؛ يتبع ذلك عدد من الصفحات التى تفصل فكرة أن "الأمريكيين لديهم مصلحة كبيرة فى البقاء متحدين " (ص ٣٤٢) وأن أى اختلاف فى المصلحة لا وجود له، وأن المصلحة كبيرة بما فيه الكفاية لتدفعهم نحوه : "أرى جيداً فى مختلف أنحاء الاتحاد مصالح مختلفة، لكنى لا أكتشف بعضها يضاد البعض الآخر" (ص ٣٤٣). وليس هناك سوى التوسع الكبير فى الأراضى الذى يمكن له أن يؤلف على المدى البعيد أخطاراً بعيدة عن المركز.

('F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique*, Paris, Dentu, 1883, p. 7.

(٥٥) A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique* (I)...., P 316, note 2. .

(٥٦) Ph. Chasles, *Etudes sur la littérature et les m urs des Anglo-Américains au XIXº siècl*, Paris, Amyot,1851; Introduction, p. I.

(٥٧) *Ibid.*, p. 507.

(٥٨) P. de Rousiers, *La vie américaine*, Paris, Firmin-Didot, 1892, p. 528.

(٥٩) Fr. Mélonio, Introduction à A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique*...., pp. 9 et 397.

(٦٠) *Ibid.*, p.9.

(٦١) P. de Rousiers, *La vie américaine*..., p. 528.

(٦٢) P. Bourget, *Outre-Mer. Notes sur L'Amérique*, Paris, Alphonse Lemerre, 1895, p. ii.

(٦٣)

(٦٤) كان جيمس برايس James Bryce، أستاذ القانون فى جامعة أكسفورد، قد نشربنجاح كتاب *The American Commonwealth* فى عام ١٨٨٨ (لندن، ماكميلان (London, Macmillan؛ وقد أعيد نشر الكتاب فى عام ١٨٩٠ و ١٩٠٣ ؛ أما الترجمة الفرنسية تحت عنوان *La République américaine* فقد ظهرت بين ١٩٠٠ و ١٩٠٢ (Paris, Giard et Brière, 4 vol.

(٦٥) E. Boutmy, *Eléments d'une psychologie politique du peuple américain* [1902], Paris, Armand Colin, 1911, pp. 3, 5, 7.

Ibid., p. 289.؛ لا يوجد الاستشهاد الدقيق فى توكفيل، من المفترض أن بوتمى قد نقل على طريقته

(٦٦) المقطع من الفصل السابع الشهير من الجزء الأول من كتاب *الديمقراطية فى أمريكا*: "كان الأمراء قد جسدوا - إن صح التعبير - العنف، وجعلته الجمهوريات الديمقراطية فى أيامنا

عقلانيًا قدر عقلانية الإرادة الإنسانية التى يريد إخضاعها" (éd. cit., 246).
A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique*, p. 49. ...
(٦٧) *Ibid.*, I, 241 ; I, 206 ; I, 216 ; I, I, 199-200 ; I, 218 ; I, 284; I, 247; I, 235; II, 583;
(٦٨) II,520.
Ibid., I, 231 et 247.
(٦٩) *Ibid.*, p. 246.
(٧٠)
(٧١) التعبير الذى سيستعيده بودلير لتطبيقه على أمريكا كان مستخدمًا من قبل جوزيف دو ميستر ضد لوك Locke، الذى يجسد فى نظره فلسفة التنوير المزيفة. يهاجم ميستر لهجته المنحطة: قال لوك: آمل أن القارئ الذى سيشترى كتابى لن يأسف على نقوده. يالها من رائحة مخزن! انظر: Les Soirées de Saint-Pétersbourg..., t.1, sixième entretien, p. 450)
(٧٢) Baudelaire, lettre à Edouard Dentu du 18 février 1866 ; cité dans Fusées. *Mon c ur mis à nu. La Belgique Déshabillée*, éd. d'André Guyau, Gallimard, Folio , 1986, p. 629 (2, note 5).
Baudelaire, *La Belgique déshabillée* (feuillet 352), Ibid.,p. 293.
(٧٣) Baudelaire, "Hygiène. Conduite. Morales" (feuillet 93), *ibid.*, p. 128
(٧٤) Baudelaire, [Edgar Allan Poe, sa vie et ses ouvrages] *Revue de Paris*, 1852],
(٧٥) (E.C...., t. 2, p. 274.
Baudelaire, Dédicace des *Histoires extraordinaires, ibid.*, p. 291.
(٧٦) Baudelaire, Edgar Poe, sa vie et ses oeuvres [1856], *ibid.*, p. 299.
(٧٧) "Baudelaire, Edgar Allan Poe, sa vie et ses ouvrages *ibid.*, pp. 250-251".
(٧٨) *Ibid.*, p. 270.
(٧٩) *Ibid.*, p. 273.
(٨٠) *Ibid.*, p. 262.
(٨١) *Ibid.*, p. 269.
(٨٢) Baudelaire, Edgar Poe, sa vie et ses øœuvres , *ibid.*, p. 306 ; l'allusion de
(٨٣) Baudelaire viseun article de Veuillot.
Baudelaire, Notes nouvelles sur Edgar Poe, [1857], *ibid.*, p. 321.
(٨٤) Baudelaire, Edgar Allan Poe, sa vie et ses ouvrages , *ibid.*, p 252 .
(٨٥) Voir la préface d'André Guyaux, *Fusées. Mon c ur mis à nu. La Belgique désha-billée...*, p. 15. Le Feuillet 22 se trouve aux pages 82-85.
(٨٦)

Baudelaire, L'Art philosophique, O. C..., t. 2, p. 603.

A. Guyaux, Préface, *Fusées*..., p. 16. (٨٧)

F. Nietzsche, lettre à Peter Gast du 26 février 1888 ; cité par A. Guyaux, *Fu-* (٨٨)
sées..., p. 10. (٨٩)

Baudelaire, "Exposition universelle" (1855) , (E. C..., t. II, p. 580).

(٩٠)

الفصل الثانى
الولايات الأمريكية غير المتحدة

يوم ١٩ يونيو هو يوم أحد. على شواطئ بحر المانش، كان النهار يَعِدُ بيوم رائع. منذ صباح السبت، كانت مدينة شربورج Cherbourg الصغيرة المعتادة على الملابس الرسمية أكثر من اعتيادها على القرينول(*) يغزوها جمهور واضح الملامح الباريسية. ويكاد المرء يظن أن مجتمع الإمبراطورية الثانية بعد أن أثرى مدينتى بياريتز Biarritz ودوفيل Deauville قد صبَّ اهتمامه على الميناء العسكرى الشظف لمنطقة كوتانتان Co-tentin. لقد فرحت إدارة السكك الحديدية الغربية؛ إذ ما إن أطلقت صيغة إجازة نهاية الأسبوع الحديدية بستة عشر فرنكًا ذهابًا وإيابًا انطلاقًا من محطة سان لازار (اثنا عشر فرنكًا فى الدرجة الثالثة) حتى لاقت نجاحًا كبيرًا.

لكن قطار العودة المتوقع يوم الأحد صباحًا، سينطلق شبه فارغ؛ فلا شمس يونيو، ولا آخر فرمان فى الموضة، ولا هذه التعرفات المغرية مسئولة عن هذا الاجتياح الأنيق الذى يحوّل شربورج يوم الأحد الجميل هذا إلى منتجع أنيق. هؤلاء المصيفون المبكرون لم يأتوا لاستنشاق هواء البحر، ولا لشم رائحة الدم. إنهم هنا من أجل مشهد يعد بأن يكون أكثر إثارة من دربى(**) إبسون وأشد اضطرابًا من أول تقديم لأوبرا تانهاوزر. كل هذا العالم الأنيق جاء ليصفق لمعركة: فى هذا اليوم، ١٩ يونيو، تقوم حرب الانفصال بجولة فى منطقة الكوتانتان. وعلى الإعلان: شمال ضد جنوب، طرادة يانكى ضد سفينة قرصنة اتحادية، يو إس إس كيرزيرج ضد س إس إس ألاباما. ولكى لا يضيعون شيئًا من المشهد يتزاحم الفضوليون وقد اختلطوا - باريسيون ونورمانديون، وعسكريون ومدنيون جنبًا إلى جنب - على الأرض، وعلى الحواجز، وعلى الأرصفة، ويتسارعون نحو المنحدرات الوعرة لرول، ويمضون حتى قرية كيركفيل Querqueville الصغيرة التى تتيح أشد المناظر اتساعًا على الشاطئ؛ كل ذلك فى زوبعة هائلة من العربات وعربات الجياد والمراكب ذات الدواليب الأربعة وسواها. وكان لحفنة من المشاهدين ذوى الحظ، ومن بينهم الروائى أوكتاف فوييه Octave

---

(*) قرينول crinoline: تنورة مسلكة منتفخة قاسية القماش قديمًا.

(**) دربىDerby: سباق خيل يجرى كل عام فى لندن، أو مباراة فى كرة القدم بين مدينتين متجاورتين.

Feuillet وزوجته الحق بمقعد الشرف فى الزورق البخارى لنائب الأميرال أوغستين دوبوى، المحافظ البحرى. وقبل الساعة العاشرة كان الناس جميعاً قد احتلوا أماكنهم، وكان يمكن للمعركة أن تبدأ.

الألاباما فى عام ١٨٦٤ هى باخرة أسطورية؛ فخلال عامين، وتحت قيادة رفائيل سيمز، زرعت الرعب فى أسطول التجارة الشمالى محتالة على طرادات الاتحاد المستنفرة لتدميرها. ولما كانت عبارة عن مبنى مختلط من الخشب، وغير مصفحة، ومجهزة بثلاثة صوارى للاقتصاد فى الفحم، ومعدة للسرعة والمناورة، فقد استطاعت أن تفلت دوماً من مطارديها عندما لا تقوم بإغراقهم فى الأعماق، *كالزورق المسلح المدرع* ***USS Hatteras***، وبلغت الخسائر التى أنزلتها بالاتحاد حداً، لدرجة أن الولايات المتحدة ستطالب بعد نهاية الحرب بتعويضات ضخمة من بريطانيا العظمى؛ لأنها سمحت ببناء سفينة قرصنة شرعية على أراضيها(١).

لا ينفصل مصير الألاباما فى الحقيقة عن السياسة الملتوية المناصرة للجنوبيين المتبعة فى إنجلترا وفى فرنسا تحت ستار الحياد المعلن أكثر مما هو متبع حقيقة. ولما قد تم بناؤها سراً فى ليفربول بمبادرة من جيمس د. بللوك، الموفد الخاص للمجلس الكونفدرالى، فستعرف الباخرة الأنيقة المسماة آنئذ آنريكا عبور البحر قبل أن تجبر مطالبات الاتحاد الحكومة البريطانية على إيقافها. ولما كانت قد أنذرت بهذا الخطر من قبل أصدقاء الجنوب العديدين الموجودين فى الأوساط الحكومية البريطانية، فقد خرجت الباخرة من ليفربول فى ٢٩ يوليو ١٨٦٢، بحجة القيام بنزهة بحرية مع الموسيقى والشمبانيا، لكنها كانت نزهة بلا عودة – إلا للمدعوين، وهم مجرد ممثلين لا إراديين لهذا الإخراج، الذين ستصحبهم سفينة جرارة إلى الميناء. وتلقت فى جزر الآسور، أى خارج المياه الإقليمية للبرتغال المحايد، اسمها الحقيقى، ومدافعها، وذخيرتها، هناك أيضاً تتلقى قائدها، رفائيل سيمز Raphael Semmes، أشهر "مقتحمى الحصارات". ورفع علم الكونفدرالية، وبدأت حياة سفينة القرصنة الشرعية: ستقودها من جزر الأنتيل إلى بحر الصين، موقعة أشد الأضرار بالتجارة الأمريكية الشمالية.

بعد ثلاثة وعشرين شهراً واثنتين وسبعين غنيمة فيما بعد، دخلت الألاباما بحر المانش، عائدة إلى مقرها. كانت الباخرة متعبة؛ فمواقدها تحتاج إلى ترميم، وسيمس نفسه منهك، فقرر التوقف فى شربورغ. وما إن توقف على الرصيف حتى عرفت الألاباما بما أصابها من أضرار، وطلبت السماح لها بالإقامة من أجل تصليحها.

ليس الموقف جديداً؛ فهناك سفن أخرى جنوبية استقرت متعبة فى الموانئ

الفرنسية، لكنه لا يقل إحراجًا؛ فإنجازات سفينة القرصنة جعلت منها العدو اللدود لحكومة الاتحاد، والنصوص التى تحكم الحياد الفرنسى تشترط أنه فى أى حال من الأحوال "لا يستطيع محارب أن يستخدم ميناء فرنسيًا لزيادة قوة نيرانه أو أن يقوم بحجة إصلاح أضرار لتنفيذ أشغال غايتها زيادة إمكاناته الحربية". ولما كان الأمر يتعلق بسفينة قرصنة قوتها فى سرعتها، فإنّ المنع المقرر يمكن أن يمتدّ ليشمل إصلاح المواقد... ولربح الوقت – ما دامت النصوص ذاتها تحدد مدة توقف المتحاربين باثنتين وسبعين ساعة، فقد سميت لجنة لذلك، وتقوم مهمتها على فحص حالة السفينة وتقديم تقرير بذلك إلى سلطات الميناء، وبوجه خاص إلى السلطات السياسية؛ فالقضية أخطر من أن تحسم فى شربورج.

على أن الأحداث ما لبثت أن تسارعت؛ فبعد ثلاثة أيام، فى ١٤ يونيو، أعلنت الطرادة الشمالية **كيرزرج** ***Kearsarge*** عن نفسها عند منفذ المرسى. كان التحدى واضحًا. قرر رفائيل سيمز رفع التحدى، على الرغم من عيوب سفينته، وطلب فى اليوم نفسه أن يزود بالفحم، متخليًا بفعل الواقع عن طلبه السابق على توقفه من أجل إصلاح الأضرار كما لم يفت أن يذكره بذلك المحافظ البحرى. وفى يوم ١٥، يرسل مذكرة إلى خصمه (ورفيقه السابق فى الدراسة) وينسلو **Winslow**، عارضًا بدء المعركة.

وفى يوم الأحد التالى، فى الساعة العاشرة صباحًا، خرجت الألاباما من ميناء شربورج، مصحوبة حتى حدود المياه الفرنسية بالبارجة لاكورون **La Couronne**. سارت على خط مستقيم إلى كيرزرج التى بدأت بجرّها إلى عرض البحر، حسب التعليمات التى تلقتها من قائدها، ثم اتخذت الوضع القتالى. أطلقت الألاباما النار، هل كان سيمز يجهل أن خصمه يتمتع بحماية مدرعة مموهة تحت نفخ الخشب ؟ ذلك أن كيرزرج، وهى ذات قوة نيران مماثلة، سفينة فى حالة ممتازة يقودها طاقم جاهز وعلى استعداد كامل. لم يكن الطرفان متساويين؛ فقد أصيبت الألاباما إصابة مميتة وغرقت خلال دقائق، لكن سيمز لم يقتل فى المعركة، ولم يقع فى أسر أعدائه؛ فقد تلقفه غنى إنجليزى متعاطف مع قضية الاتحاديين على يخته ***درهاوند*** ***Deerhound*** وصحبه إلى سوثمبتون **Southampton**.

فى منتصف النهار، وتحت وطأة شمس صيفية، عبر الكابتن جون وينسلو منتصرًا وقد وضع مسدسه على حزامه، أرصفة شربورج التى كانت خلال أسبوع ملجأ لآخر سفينة قرصنة جنوبية، وانتشر الجمهور الباريسى وهو يشعر ببعض الخيبة فى المدينة – بانتظار القطار التالى.

مانيه، رسَّام الحكاية

لئن كنت أبرزت معركة ١٩ يونيو فليس لأهميتها العسكرية - التى لا يمكن مع ذلك التغاضى عنها؛ لأن تحطيم الألاباما يسجل نهاية حرب سباق خصبة، ويدمر آخر آمال الجنوبيين فى كسر الحصار الرهيب المفروض منذ بداية الحرب من قبل بحرية الاتحاد. ولأنه يصنع الصورة للمعاصرين بالمعنى المباشر وبالمعنى المجازى؛ فقد خصصت صحيفة *L'Illustration* فى ٢٥ يونيو للحدث حكاية حافلة بالتفاصيل وزينتها برسم بالحفر قام به لبرتون Lebreton : فى مقدمة الصورة تتلقى الألاباما الطلقة القاتلة، تميل وتبدو جاهزة للانقلاب على جانبها، نحو المشاهد؛ أما راية الكونفدراليين التى ترفرف على مؤخر السفينة فتحتل مركز الرسم، ومن كريزرج نحو الوراء قليلاً على اليسار، يصعد دخان الآلات الأسود ودخان المدافع الأبيض، وفى أقصى اليمين وفى القاع نحزر خيال اليخت البخارى الإنجليزى درفاوند، وهناك عدة زوارق أخرى ترى من حول المقاتلين؛ أما خط الأفق فليس بحريا بل أرضيا: إنه الشاطئ الفرنسى الذى يؤلف الإطار الخلفى للمشهد، كما لو أن المبارزة قد تمت على مدرج جامعى أو فى حلبة مصارعة. وبالتضاد، تبين الصورة الأمريكية الشمالية الأوسع انتشاراً السفينتين وجهاً لوجه، صدر كل منهما موجه نحو الأخرى كما لو أنهما يريدان أن يتصادما: مشهد فى عرض البحر، مبارزة بلا شهود، بعيداً عن العيون الأوروبية.

هذا التضاد بين الصور الأمريكية الشمالية والمسرحة الفرنسية للحدث تظل أشد إثارة حين نستدير نحو المبدع الأصيل الذى أثارته مبارزة ١٩ يونيو: معركة كيرزرج والألاباما، لوحة زيتية رسمها مانيه خلال السنة نفسها ١٨٦٤[٢]. وصفت هذه اللوحة البحرية غالبًا باعتبارها أول لوحة له تتحدث عن "الأحداث الراهنة"، ولكنها بجرأة تأطيرها المناهض للواقعية شأنها فى المقصد الذى يوجه إخراجها تفلت من أية أيديولوجية خاصة بالتحقيق الصحفى وتعيد الصلة بالأحرى، من خلال طموحها التفسيرى، مع رسم الحكايات فى العصر الكلاسيكى [دفتر الرسوم، ص١].

للوهلة الأولى يبدو العمل شديد القرب من رسم الحفر المنشور فى صحيفة *L'Illustration* إلى درجة إمكان افتراض وجود تأثير مباشر[٣]. يحتل الجنوبى ذو التجهيزات الفخمة وسط اللوحة، رائعًا ومحتضراً. أما الشمالى فهو، فى الخلف، حضور رائع، لكنه شبه غير مرئى، مقنع بشبح الألاباما وبدخان المعركة الكثيف. ومن الجهتين، فى القاع الأيمن وفى المقدمة الشمالية، معوانان وتافهان، الإنجليزى والفرنسى: درهاوند البريطانى جون لانكستر وزورق يقترب من جناح القيادة؛ حيث

يسيطر البياض الناصع للهدنة وللاستسلام. أما البحر الكثيف الخضرة وشبه العمودى فيبدو وكأنه يقذف رأسنا بهذه الحكاية التى لا تعنيه.

لم يحضر مانيه على وجه الاحتمال مبارزة ١٩ يونيو؛ فهو لا "يعطينا" المشهد كما كان يمكن أن يعيد بناءه لنا المصور الفوتوغرافى روندن الذى كان قد أقام آلته فى برج أجراس، لكن صورته ضاعت؛ فهو يظهر المشهد مثلما يظهر المشاهدين أيضًا (البحارة الفرنسيون المشدودون إلى مقدمة زورقهم الصغير)؛ إنه يترجم فى آن واحد واقع حرب الانفصال والنظرة الفرنسية الملقاة على هذه الحرب. فما تبينه لوحته البحرية الغريبة هو شريط كامل لعلاقة مؤلفة من تعاطف عفوى أو مدبر مع الجنوب، ومن تريث، ومن ذبذبة، وأخيرًا من تلصص عاجز.

إن تحطيم الألاباما عند مخرج ميناء شربورج صار لدى مانيه لحظة حقيقة، "الحقيقة – الصاعقة" التى تصير حكاية الحدث الفريد وفرادة هذا الحدث ذاتها. وسواء كانوا موظفين أو سياسيين أو عسكريين أو أدباء أو صحفيين أو عاديين، فإن شهود المعركة جميعًا قد حضروا غرق سياسة: سياسة فرنسا الإمبراطورية. ومع غرق الألاباما غرق الأمل الحذر بتفكك دائم للولايات المتحدة. وهذا ما يرسمه مانيه أيضًا؛ فهو لم يصغر البواخر ويقذف بها إلى الأفق من قبيل "التظرف" كما كتب حينئذ باربى دورفيللى Barbey d'Aurevilly الذى أعجب من ثم باللوحة، ودافع عنها دون أن يقرأ فيها الأحجية السياسية(٤). فخيار مانيه أفضل تعليلاً؛ لأن الرسام يريد أن يبين لا المعركة فحسب بل نظرة فرنسا إلى هذه المعركة وفيما وراءها إلى الحرب الأهلية الأمريكية. يقول مانيه، هى ذى الطريقة التى تنظرون بها إلى هذه الحرب: من خلال تضخيم التفاصيل الصغيرة. دون منظور صحيح، بل دون منظور على الإطلاق؛ فأمريكا هذه التى عادت بمثل هذا العنف إلى مجال رؤيتكم، لا تعرفون كيف تؤطرونها. (اقترح الفكاهى شام Cham وهو يهاجم لوحة مانيه كما فعل كثيرون غيره هذا الشرح الغريب والأشد حقيقة مما كان يظن: " كيرزرج والألاباما وقد اعتبرا بحر السيد مانيه غير محتمل سيتقاتلان عند حافة الإطار(٥)"). إن لوحة مانيه مجازية. إنها، وإن لم تكن كذلك فحسب كما يريد السيد باربى، "إحساس بالطبيعة وبالمنظر [...] شديد البساطة وشديد القوة"، بل إنها أقل وثائقية أو حكائية، لا بل إن المتهكمين أنفسهم قد شعروا بذلك: يرسم مانيه خيالاً، ويصور صورة. "يسعنا أن نقرأ على محيًا السمك انطباعاتها خلال المعركة التى قامت على رءوسها"، كما يعلق فكاهى آخر(٦). للأسماك متن جيد: إنه سيماء فرنسا الإمبراطورية التى يقدمها مانيه للقراءة.

مانيه أو حقيقة الرسم السياسية: ألا تكون هذه الحقيقة عن التلصص الأعمى لفرنسا الإمبراطورية على الصراع الأمريكي صالحة لأن تقال، هو ذا ما يثبته حجم وعنف النقد الموجه ضد اللوحة(٧)، وأن يكون حدس مانيه عميق الصحة، وأن تكون فرنسا التي خرجت بعنف من فترة طويلة من اللامبالاة تعاني الكثير لاعتياد مفاجأة هذه الحرب المذهلة؟ فهو ما تشهد عليه مماطلات الدبلوماسية وازدواجيات الشعور العام.

حرب شديدة الإثارة

تسجل الحرب الأهلية الأمريكية الشمالية في الواقع العودة الكبرى للولايات المتحدة إلى المسرح الأيديولوجي والخيالي الفرنسي؛ فقد أثارت من ١٨٦٠ إلى ١٨٦٥ في الصحافة ولدى الرأي العام اهتمامًا حماسيًا يمكن أن يبدو غير متكافئ مع رهانات الصراع الحقيقية بالنسبة للفرنسيين. يتعجب المؤرخ ريد ويست W. Reed West من مثل هذا الاستنفار للعقول "في حين تجري أحداث ذات أهمية كبرى في أوروبا، وكان يمكن لتطور الوضع في إيطاليا وفي روسيا وفي ألمانيا أن يشغل بصورة مشروعة فكر الفرنسيين الأذكياء"(٨). إن التركيز الفرنسي على الصراع الأمريكي الشمالي يبدو له انحرافًا لهذا الذكاء، وخطأً خطيرًا في الحكم، واستثمارًا رديئًا للانتباه العام المصروف عن المشكلات الحقيقية، شأن ازدياد قوة بروسيا. وبصورة إجمالية، كان متسكعو شربورج عام ١٨٦٤ يعلنون عن مندهشي سادووا Sadowa عام ١٨٦٦، ويحملون على التنبؤ بهزيمة ١٨٧٠.

ليس هناك في الواقع شيء يبدو في الصراع الأمريكي الشمالي ماسًا بالمصالح الحيوية لفرنسا؛ فآثاره المشئومة على بعض قطاعات الاقتصاد (صناعة النسيج التي حرمت من القطن والهبوط المريع في تصدير الحرير والخمر) كانت محسوسة منذ عام ١٨٦١، لكن حجمها كان متواضعًا. أما بالنسبة لنتائجها في النهاية، فلم تكن تبدو من النوع الذي سيقلب توازن القوى العالمي، ولا الذي سيهدد موقع فرنسا، وذلك أيًا كانت محصلة الصراع. كان ويست على حق في التأكيد على ذلك: فما كان يجري في أوروبا في الوقت ذاته كان له خطورة مختلفة؛ فالمسيرة الطويلة نحو الوحدة الإيطالية تدخل مرحلتها النهائية – استعادة روما وفينيسيا – وتصير هاجس فرنسا الدبلوماسي بوصفها ضامنة الممتلكات البابوية لروما منذ ١٨٤٩. وبينما كانت الدبلوماسية الإمبراطورية تتورط فيها، كان بسمارك الذي انتصر على الدانماركيين يحمل على المصادقة في جاستين Gastein في شهر أغسطس ١٨٦٥ على سيطرته على كل من

Schleswig و Lauenbourg: مقدمة Blitzkrieg المنتصر فى السنة التالية ضد النمسا، صعود لا يقاوم لبروسيا، وانعزال متزايد لفرنسا: هو ذا فى الواقع ما كان يمكن أن "يستأثر بأفكار الفرنسيين الأذكياء". أما بالنسبة لحساسيتهم، فهى لا تحتاج إلى موضوع، فى أوروبا ذاتها، لتمارس عليه: بدءًا بالتمرد البولونى عام ١٨٦٣ وقمعه الوحشى من قبل روسيا.

على أن فرنسا لم تلتفت خلال هذه السنوات بحماس مفاجئ إلى المعارك الأخوية فيما وراء الأطلسى دون سبب؛ فإلى الأهمية الجوهرية للصراع بوصفه بوتقة ممكنة لإعادة تكوين القارة ومخبراً للحرب الحديثة، تنضاف رهانات داخلية لا يستهان بها بالنسبة للسلطة الإمبراطورية كما هو الأمر بالنسبة لمعارضيها.

من الجانب الحكومى، هناك الكثير من المبالغة فى رد الحماس الذى أثارته الحرب إلى مجرد نزوة كما يمكن أن توحى بذلك النتيجة النهائية والمفجعة للسياسة الأمريكية والمكسيكية لنابليون الثالث. وما سيظهر فى نهاية الأمر بوصفه حساباً رديئًا سيبدأ بوصفه مضاربة مثيرة؛ فقد راهنت الدبلوماسية الفرنسية على تفكك الاتحاد الأمريكى – وهو تفكك لن يصيب منه فرنسا إلا الحسنات. كان هناك حلم فى أن يكون الصراع الأمريكى الشمالى طويلاً لا يمكن إخماده، دون نتيجة، ودون منتصر، يترك البلد خائر القوى. لقد بدت الحرب الأهلية التى كان يأسف لها بعض الأدباء الحزانى وعدد من الجمهوريين شديدى الحزن نعمة للمهرة فى الحساب "الواقعيين" أو من يظنوا أنفسهم كذلك. وهكذا تلقت بالفرنسية اسمًا يرن كوعد: لا "الحرب الأهلية الأمريكية"، بل "حرب الانفصال". لم يكن هذا الهدف الكبير المسبق ليعلن على الملأ؛ فنجاحه يتطلب بالأحرى الصمت والحذر والصبر. وسواء أكان حلم دواوين القنصليات، أم رؤيا براقة للبورصة ولغرفة التجارة، فلم يكن لهذا الرهان على الانفصال الأمريكى نزعة إلى إثارة النقاش. أما استنفار الصحافة والرأى العام فى الواقع فهو قادم من مكان آخر: من معارضة عثرت فيه على حظها فى الوجود.

أمريكا على الساحة العامة

فى نظام صحافة واقعة تحت إشراف الحكومة الكامل شأن صحافة الإمبراطورية الثانية، لا تملك المعارضة غالبًا خيار الميدان ولا معارك الرأى التى تريد خوضها؛ فالهيمنة الحكومية تستجيب لهاجس الإمبراطور الشخصى، وهى من الشهرة بحيث إن كاتبًا كسانت بوف Sainte-Beuve يجد فيها عذراً للانتقال من صحيفة ***Con***

stitutionnel (شبه الرسمية) إلى *Moniteur* (الرسمية): "مادامت كل صحيفة فى هذا الوقت بأيدى الحكومة، فمن الأفضل أن يكون المرء مع الحكومة نفسها(9)". والمرسوم الصادر فى ٢٤ نوفمبر ١٨٦٠، والذى افتتح عهد "الإمبراطورية الليبرالية" لم يضع بأى حال من الأحوال حداً للوصاية الإدارية على الصحف؛ فالإنذارات والتوقيفات تستمر فى الهطول - دون أن تضرّ بالمخالفات وعقوبات السجن التى تأمر بها المحاكم. فمن الصعوبة الشديدة بمكان ومن المهلك لمن هو أكثرها جرأة أن تتجادل حول الأزمات الأشد قرباً واضطراماً؛ حيث تمارس الدبلوماسية الإمبراطورية بنشاط (إن لم يكن بفعالية) عملها.

على أن المسألة الأمريكية بالمقابل سوف تناقش من جميع جوانبها مواجهة: تماماً لأنها أكثر ابتعاداً وأقل "حساسية" بصورة مباشرة، وكذلك لأن انفجار الحرب السريع قد فاجأ النظام الإمبراطورى. غداة انتخاب لينكولن فى نهاية عام ١٨٦٠، كان غياب الخط الرسمى صريحاً. صحيفتان تقليديتان *Le Constitutionnel* و*Le Pays* كانتا تعطيان الحق للشمال حول نقطة جوهرية: رفضه إعادة العبيد اللاجئين إلى الولايات المؤيدة للعتق إلى أسيادهم الجنوبيين. وفيما وراء هذا المطلب للولايات المناصرة للرق، والمقدم بوصفه مطلباً غير معقول، فإن "المؤسسة المكروهة" للرق هى التى تعتبرها الصحافة بما فيها الصحف شبه الرسمية، أكثر رجعية من أن يدافع عنها؛ فصحيفة *Le Constitutionnel* تأسف لتسوية يمكن أن تحفظ الاتحاد "مع رق معترف به دستورياً على امتداد أراضيه". إذا كانت هذه هى الحالة كما يضيف كاتب المقال، "فإن القرن التاسع عشر الذى يحب التقدم سيعانى من خيبة إضافية". أما "تمنيات" الصحيفة فى يوم ٢٦ ديسمبر ١٨٦٠هذا، فهى "فى آن واحد لتحية الجمهورية الأمريكية الكبرى ومن أجل خفض تدريجى للرق"(10). أما صحيفة *Le Pays* فقد كانت قد طرحت فى نوفمبر مسبقاً أن "قضية إلغاء الرق قضية ممتازة للدفاع عنها ولجعلها تنتصر"، مع تساؤلها حول أفضل الوسائل من أجل الوصول إلى ذلك(11). ومع ذلك فسوف تصحح اعتباراً من شهر ديسمبر مسارها، وتشرع فى جدال مع صحيفة *Le Constitutionnel* التى تعبر عن إعجابها بأمريكا. نشر جرانييه دو كاسّانياك Granier de Cassagnac فى ثلاثة أعداد توضيحاً تاريخياً مطولاً: "استحسنوا الأمريكيين ما طاب لكم، واعتبروهم جمهوريين إن كان ذلك يسركم، ولكن لا تخدعوا قراءكم، الذين يؤمنون بعلمكم، بقولكم لهم إن مؤسسى الجمهورية الأمريكية كانوا قد وضعوا فى الدستور تماماً عكس ما يوجد فيه(12)". إن المدافعين عن الشمال، وهم متملقون سذج لجمهورية ليست كذلك، لا يتعامون عن كرم الشماليين أقل من ذلك." إن

الشمال إنما يهاجم الرق لا حبًا فى العبيد أو شعوراً بالمساواة، وإنما انطلاقًا من روح التكافل، ومن حب للخصام، ومن مبدأ فلسفى[١٣]". والحجة الأخيرة المستخدمة بانتظام من قبل أصدقاء الجنوب حتى نهاية الصراع هى: إن الرق فى طريقه للتلاشى و لا يبرر إلغاؤه الفورى بأى حال من الأحوال حربًا أهلية.

ولما كانت ميول الإمبراطور إلى الجنوبيين معروفة ومكشوفة فإن الصحافة الحكومية دخلت من جديد كيفما كانت المعركة، وصارت تمحو ما يمكن أن يوجد فى تحليلاتها دفاعًا عن الشمال. على أن صحافة المعارضة – وعلى رأسها صحيفة ***Journal des débats*** – وجدت الوقت الكافى لتنخرط فى هذا الفضاء الممهد على نحو ردىء. ولما كانت مرغمة على الرد عليها فإن الصحافة الرسمية وشبه الرسمية صادقت على شرعية جدال لن يتوقف إلا مع الحرب. وهكذا فإن تحليل الصراع الأمريكى الشمالى والتعليق عليه سيسمحان للمعارضة الأورليانية الليبرالية والجمهورية أن تزيد من ضرباتها ضد الإمبراطورية. وفى مواجهة المساعى الملتوية والمكشوفة التى يقوم بها الإمبراطور لصالح الجنوب، كانت الفرصة مواتية للمعارضة كى ما تعلن عن نفسها سواء من خلال دعمها العلنى للشمال شأن ***مجلة العالمين La Revue des Deux Mondes***، أو من خلال إطراء حياد "حقيقى" وإدانة الضربات الموجهة سراً إلى الاتحاديين من قبل حكومة مؤمنة بقضيتهم لكنها وجلة، وبفضل الحرب التى تمزق الأمريكيين أمكن لمعارضة مرغمة على السكوت أن ترفع صوتها.

وسترفع صوتها دون زعيق؛ ذلك أن الحرب الكلامية ستستمر هادئة، ويعود هذا الاعتدال – فى جزء منه – إلى قواعد اللعبة الصارمة المفروضة على الصحافة، ويعكس من جانب المعارضة حذراً مفهومًا تمام الفهم، لكنه يكشف أيضًا جانبًا من الوضع غير متوقع على الإطلاق: التقارب الشديد فى تحليل الوضع الأمريكى الذى يقوم به أنصار الشمال وأنصار الجنوب. هناك اختلاف عميق بين "تعاطف" هؤلاء وهؤلاء وبين الأمنيات التى يعبرون عنها بالنسبة لمآل الصراع، والتى تتعارض تعارضًا تامًا، إلا أن هناك أساسًا اتفاقًا حول ثلاث نقاط لا يمكن اعتبارها ثانوية: الشرعية القانونية للانفصال، واللاشرعية الأخلاقية والسياسية للرق بوصفه مؤسسة، واستحالة انتصار واحد ما من المعسكرين. إن الإجماع هنا شديد الاتساع، ويكاد يكون كاملاً فى بداية الصراع، وحتى أولئك الذين ابتعدوا عنه خلال الحرب الكلامية يبدو أنهم فعلوا ذلك عن غير قناعة تامة، وسيتوجب عليهم فى كل الأحوال أن يكيّفوا حجتهم لجمهور يقبل فى مجموعه هذه المقدمات.

من بين النقاط "المجمع عليها" والمذكورة أعلاه، تبدو الأولى لصالح الجنوب، والثانية لصالح الشمال، أما الثالثة فلصالح الاثنين معًا حسب أطوار الحرب ونتيجة المعارك؛ أى أنه كى يدمجها فى محاجته كان على كل واحد من الفريقين وهو يواجه الرأى العام الفرنسى أن يبتكر، وأن يقدم خطابًا دفاعيًا أو نقديًا مبتكرًا، بعيدًا أحيانًا عن "الخط الرسمى" للمعسكر الذى يفضله. هكذا تنزعُ مرافعة الدفاع أو الاتهام حول الاتحاد والكونفدرالية نحو استقلال واسع بالعلاقة مع "أصولها" الأمريكية؛ ذلك أن كتاب افتتاحيات هذه الصحف مرغمون على التعامل مع واقع المواقف الأمريكية بحُرية لا من أجل الأخذ بعين الاعتبار الرهانات "الفرنسية - الفرنسية" فحسب، بل كذلك لوضع عرضهم فى الأفق الذى ينتظره قراؤهم. وشأن كل إكراه، فإن هذا الإكراه سيعطى القوة والشكل للصور الجديدة عن أمريكا المتولدة عن حرب الانفصال. لا تضع هذه الحرب إذن أمريكا تحت أضواء الأحداث الراهنة فحسب، بل تتيح انبثاق كثرة من المفاهيم والحكايات والأحكام فى صحراء خيال ترك منذ عشرات السنين فى راحة تامة.

وبتطعيمهم قدرًا من الخصومة (الاتهامات التى يوجهها كل معسكر ضد الفريق الأمريكى المدعوم من المعسكر الآخر) للإجماع (قبول المعسكرين كأساس للنقاش عددًا من "البداهات" حول أمريكا وحول الحرب)، فإن الفرنسيين هؤلاء الذين يعيدون تفسير مأساة الحرب الأهلية يومًا بعد يوم وخلال خمس سنوات يؤلفون دون أن يعرفوا قاعدة نزعة معاداة أمريكا القادمة، سوى أن علينا محاولة إدراك الأشياء عن كثب أكثر.

تعاطف عقيم

سرعان ما اتضحت عواطف السلطة؛ فنحو الجنوب والكونفدرالية إنما أراد الإمبراطور أن يميل الميزان. هذا الميل يبقى غير معترف به فى العلن، سوى أنه سر شائع. وكعادته، كان نابليون الثالث يهمس به خلال الاجتماعات الثنائية، ويجعله يرشح بواسطة كتاب الصحف الذين يختارهم. ولما كانت الإمبراطورية معادية للشمال، ولكن لا إلى درجة الاعتراف الفعلى بالكونفدرالية، وعلى استعداد لإغماض العينين عن قدر من الخروج عن الحياد (كبناء بواخر للجنوبيين فى فرنسا)، ولكن دون الوصول إلى تحمل مسئوليتها عندما يجعلها تسريبها قضية عامة؛ فقد استقرت فى ترقب يتخلله التردد فى التدخل أو فى "الوساطة". وفى موازاة ذلك، رمى نابليون الثالث بنفسه فى الحملة المكسيكية مع هدف إنشاء إمبراطورية كاثوليكية ولاتينية تصورها بوصفها "حاجزًا لا يمكن عبوره أمام اعتداءات الولايات المتحدة"[١٤].

سيؤدى السلوك الضال الذى تتبعه الحكومة الإمبراطورية على المستوى الدبلوماسى إلى فشل كامل، وقد ضاعت الفرصة الوحيدة الجادة للقطيعة مع الاتحاد بالاتفاق مع إنجلترا. تلك هى قضية *ترنت Trent*، هذه السفينة البخارية الإنجليزية التى اعتقلت فى البحر يوم ٨ نوفمبر ١٨٦١، بموجب "حق الزيارة" من قبل باخرة حربية للاتحاد هى *سان ياسنتو San Jacinto*. كان هناك على متن ترنت موفدان من الجنوب، الفرجينى جيمس م. ماسون واللويزيانى جون سليدل، المعتمدين بوصفهما مفوضين كونفدراليين لدى بريطانيا العظمى ولدى فرنسا على التتالى. أُسرَ الرجلان من قبل الكابتين ويلكز. هناك خرق واضح لقانون الحياد كما تشير إلى ذلك فى فرنسا مذكرة توفنيل Thouvenel التى يوافق عليها حتى أنصار الشمال، فى حين أن الصحافة شبه الرسمية تطالب صراحة بدخول فرنسا وبريطانيا العظمى الحرب ضد الاتحاد و"استبداده". لقد استقبل الكابتين ويلكز استقبال الأبطال لدى عودته إلى الأرض الاتحادية، ولكن إزاء الاستنكار الدولى، سيأمر لنكولن بالإفراج عن المفوضين الجنوبيين. لقد كان الإنذار حاراً، ولم يكن الحادث الذى اعتبر منتهياً بعد تراجع لنكولن الحكيم، قريبًا من النسيان فى فرنسا؛ إذ سينبعث بعد سنوات كما سنرى بأقلام المعادين الفرنسيين لأمريكا، الذين سيأخذون على الإمبراطور المخلوع تضييعه هذه الفرصة السانحة. وفى خريف ١٨٦٢، سيتم تجاهل أو رفض المقترحات الفرنسية المتأخرة جداً أو القليلة البراعة فى "الوساطة"(١٥). وسيستقر الحذر بين فرنسا وبريطانيا العظمى – حذر يتفاقم من الجانب الإنجليزى بسبب حضور القوات الفرنسية فى مكسيك مكسيمليان، التى كانت رأس جسر ممكن للتدخل الفرنسى فى المستعمرات الإسبانية سابقًا.

سينتهى الجنوب بالتفكك، ولن يتلقى من فرنسا أكثر من الكلمات الطيبة. أما الشمال، فسيحتفظ بحقد دائم من جراء الموقف الذى تبنته باريس. وستتجلى أول إشارة للمنتصرين فى عام ١٨٦٥ فى رفض الاعتراف بماكسيميليان دو هابسبورج، الذى وضعته فرنسا على عرش المكسيك، موقعة بذلك على مصير الإمبراطورية الوهمية هذه وعلى مليكها المنكوب.

"القدر المحتوم"

عن قضية ترنت، "كان يمكن لنا أن نعدّ على أصابعنا تقريبًا كل من كانوا فى أوروبا – فيما عدا الأمريكيين – يأملون أقل أمل أو يملكون أقل ثقة فى استمرار اتحادنا"، كما يكتب فى مذكراته جون بيجلو John Bigelow، قنصل ثم قائم بأعمال

الشمال فى باريس، ويضيف مشيراً إلى الدائرة الصغيرة التى تدور فيها اتصالاته المطبوعة بميولها اليسارية شأن باجس Pagès أو ركلو Reclus . لقد وهنت عزيمة أصدقائنا السياسيين فى فرنسا كليًا" *[our political friends among the French people].* وبصورة عامة، "كنا نعتبر أن من المسلم به أننا سنظل نقاتل حتى نقبل فكرة أنه ليس هناك أى سبب للقتال، وأننا سنتفق آنئذ على كيفية الانفصال"(١٦). سيبقى هذا الشعور الذى كان جماعيًا فى نهاية عام ١٨٦١ شعور الأكثرية حتى بعد حادثة ترنت بزمن طويل، حتى النهاية القصوى للحرب. وفى مقطع آخر، يعزو بيجلو هذا "الشعور شبه العام" إلى عمل المبعوثين الجنوبيين الصامت الذين "أشاعوا بصورة ماكرة خلال ثلاث أو أربع سنوات أننا سنوجد فى نهاية الصراع على الأقل مع جمهوريتين على الأراضى التى تحتلها الولايات المتحدة وحدها فى السابق(١٧). ومن الصعب مع ذلك إعادة هذه القناعة الفرنسية الواسعة الانتشار وصعبة الاقتلاع إلى مجرد أثر الحرب النفسية التى كان يخوضها عملاء الكونفيدرالية؛ فهؤلاء لم يفعلوا سوى سقاية أرض خصبة أساسًا.

إذا كان الجنوبيون فى حججهم الموجَّهة للفرنسيين يركزون على فكرة تقسيم البلد المحتومة فلتَملُّق الصولجان الإمبراطورى وإطراء هذه "الطبقات الذكية" التى تؤلف فى نظرهم أشدَ الدعامات ثقة فى أوروبا. التقسيم – كما قلنا – هو الحلم الذى يكاد يكون سريًا للدبلوماسية الفرنسية. حرب طويلة يتبعها تقسيم للولايات المتحدة لم يعد ممكنًا تلافيه بسبب الأحقاد والآلام المتراكمة: هو ذا السيناريو المفضل عندها. يُفسر التريث الإمبراطورى نفسه جزئيًا بواسطة هذه "الرؤية". من جهة، جنوب لا يبحث عن النصر بل يريد استقلاله، ومن جهة أخرى شمال لا يسعه الانتصار على هذا الجنوب ولا يستطيع إخضاعه على الدوام. وضمن هذا المنطق، ليس المقصود المساعدة على انتصار الجنوب بقدر ما هو منع نجاح حاسم للشمال. إن تدهور حرب على هذا القدر من الفظاظة لابد من أن يستثير بالطبع – ودون ضغط خارجى – تفكك الاتحاد هذا الذى يعتبر ملائمًا للمصالح القومية. ويكفى إجمالاً ترك مهلة للزمن كى يفعل فعله، والاستسلام لشراسة المتقاتلين. هذا إن لم نشجع بريطانيا العظمى على التدخل لصالح الجنوب، وهو تدخل ننفر منه نحن أنفسنا.

يتغذى الميل إلى الجنوب من الواقع الاقتصادى ويتلون بانفعالات معقدة كما سنرى، لكنه يبدأ وينتهى مع "نتيجة الحرب" الجنوبية هذه: التقسيم، الذى يتوافق مع التوقعات الدبلوماسية لفرنسا الإمبراطورية. وفى كل الأحوال، وأيًا كان مصير القتال، فإن انفجار الاتحاد يبدو بوصفه النتيجة الضرورية لصراع بلا نتيجة. هذا ولا سيما

وأن معظم المعلقين فى الأساس، وعلى الرغم من توكفيل، يقبلون ضمنًا فكرة أنه لابد لدولة بمثل هذا الاتساع لا تترابط فيما بينها إلا برابطة هشة من الفيدرالية، إلا أن تستسلم يومًا ما للقوى البعيدة عن المركز التى ستهزها بالضرورة؛ فالولايات المتحدة بقامتها عام ١٨٦٠ لا يمكنها أن تستمر: يشترك فى هذا الشعور كل الطيف السياسى، ولكن مع مقدمات مختلفة؛ فالملكيون والإمبراطوريون يعتبرون أن النظام أشد ديمقراطية من أن يكون قابلاً للحياة، فى حين أن العديد من الليبراليين يستمرون فى الشك (شأن القرن الثامن عشر بأجمعه) فى ملاءمة الشكل الجمهورى للإمبراطوريات الواسعة.

هذا اليقين الغريب فى شهود حرب ستبقى دون منتصر يستخف بالانشقاقات الحزبية؛ فالمدافعون عن الاتحاد يفكرون حول هذه النقطة كما يفكر خصومهم؛ فلا أحد فى فرنسا لا يؤمن بسحق معسكر للمعسكر الآخر. كان ينظر إلى هذا الأمر فى عام ١٨٦١ بوصفه بعيد الاحتمال بصورة قوية، وكان يبدو كذلك مستبعد الحدوث بل و"مستحيلاً" فى عام ١٨٦٣؛ ذلك هو رأى أوجين شاتار **Eugène Chatard** فى صحيفة مصنفة على أنها "تقدمية" كصحيفة ***لابرس La Presse***. يكتب فى ٢٤ يونيو ١٨٦٣: "إن الاتحاد بواسطة قوة الدول المنفصلة يصير كل يوم أكثر استحالة. وليس النضال إلا فعل هدم يوحى به العناد الوحشى". ويخلص إلى القول: "لم يبق شىء سوى رسم خطوط الحدود[١٨]". وحتى معركة جيتيسبورج **Gettysburg**، وهى نجاح شمالى صريح وحاسم دون شك، تفسر بوصفها برهانًا إضافيًا على أن الصراع لن يكون له من نتيجة عسكرية على الإطلاق، أكثر من كونها علامة تنبئ بانهيار الجنوب[١٩]. لقد فشل الشماليون أربع مرات فى الأراضى الجنوبية، وفشل الجنوبيون لتوهم للمرة الثانية فى الأراضى الشمالية، وهو برهان على أن الميزان شديد التساوى. والصحافيون الذين يقومون بهذا الحساب يتكهنون أن تكون كل المباريات متعادلة، لا بل حتى لو أن الشمال حقق فى النهاية ميزة ميدانية فإننا نستبعد أن يتمكن من أو أن يريد احتلال الجنوب عسكريًا؛ إذ ترى نصيرة الجنوب ***مجلة العالمين La Revue des Deux Mondes***، أن جنوبًا مكتسحًا سيصير "إيرلندا الأيام السيئة، هنغاريا، بولونيا" العالم الجديد، أى شوكة أبدية فى لحم من ينتصر عليه، أرضًا مغلوبة لكن السلام لا يسودها أبدًا. "فلكى يحتفظ على جانبيه بمثل هذا الجرح سيرغم الاتحاد الأمريكى على التخلى عن مؤسساته، وأن يسترق نفسه؛ إذ كيف يمكن لجمهورية فيدرالية أن تحكم بالقوة أرضًا بمثل هذه السعة وملايين من البشر المناهضين لسيطرتها؟[٢٠]" إن الشمال المنتصر سيكون الاتحاد المهزوم ونهاية بروميثيوس الأمريكى المقيّد بيديه إلى فتحٍ قارض.

هذه النتيجة الحاسمة، هذا الوضع الأقصى، لا يبدو أن أحدًا فى فرنسا يتمناه،

بما فى ذلك أنصار الشمال، الليبراليون منهم والديمقراطيون، الذين يخشون على بطلهم دوار نجاح عظيم، بل والذين يتخوفون انبعاث "رجل قوى" مكلل بالانتصار، يهدد الحريات الأمريكية؛ فها هى الصحيفة الحكومية لا تتردد فى التنبؤ منذ يناير ١٨٦١ بأنه إذا كان على الشمال أن ينتصر فإنه سيصبح حتمًا دولة ديكتاتورية: "لن تصير الولايات المتحدة أبداً كونفدرالية ولايات متساوية فى اتحاد ذى سيادة، بل كونفدرالية ولايات غير متساوية فى اتحاد يضمّ سادة ورعايا"، وهذا الاتحاد المستحيل سيؤدى مباشرة إلى الاستبداد: "هذه الدكتاتورية التى يمارسها قسم فاتح على قسم مهزوم لا تعيد الانسجام القديم، بل تؤدى مباشرة إلى إمبراطورية، إلى الحكم المطلق للواحد"(٢١). ودون المضى بعيداً على هذا الدرب، تقلق الصحف الليبرالية من انحرافات الاتحاد السلطوية، شأن توقيف الديمقراطى فالانديغام **Vallandigham** نائب أوهيو **Ohio** والخصم الشرس لسياسة لنكولن، والدعوى المقامة عليه عام ١٨٦٣ أمام المحكمة العسكرية لسينسناتى **Cincinnat**. فإدانته والحكم عليه بالسجن، وهى عقوبة استبدلها لنكولن بالنفى، كانت موضع تعليقات واسعة فى فرنسا. "ففى وسط هذا النشر للقوة العسكرية، تختفى الحرية المدنية تماماً"، كما تكتب صحيفة ***لابرس La Presse*** التى تقارن فالانديغام بمديرها المؤسس جيراردن: "إنه تكرار حلقة توقيف السيد إميل دو جيراردن **Emile de Girardin** بأمر من الجنرال كافينياك **Cavaignac**"(٢٢). إن العقوبات المتخذة بحق منتخب الشعب تصدم وتحرج الأنصار الفرنسيين للشمال، كما أنها تعقد مهمة "الشرح" التى يقوم بها القنصل الشمالى بيجلو الذى يكتب أحد المقربين (الأمريكيين) إليه معبراً عن رأيه بصراحة من أن هناك "حماقة فعلاً فى توقيف فالانديغام وفى إغلاق ***شيكاغو تايمز Chicago Times***"(٢٣).

إن قضية فالانديغام هى من القضايا التى تثبت التحليل المتشائم الذى قامت به الصحافة الفرنسية منذ بداية الحرب. وتؤكد الخوف (لدى البعض) من والشك (لدى البعض الآخر) فى تحول جذرى للنظام السياسى للشمال. ألا يوشك منطق الحرب أن ينسف الحريات والضمانات الدستورية؟ ألم يسوغ أصلاً قرار لنكولن المتخذ فى سبتمبر ١٨٦٢ والقاضى بإحالة كل من حاول إعاقة التجنيد إلى المحاكم العرفية، الانحرافَ نحو الديكتاتورية العسكرية؟ منذ ١٨٦١، كان المتعاطفون بحرارة مع قضية الشمال وهم محررو صحيفة ***Journal des débats*** يقلقون من "المخاطر القصوى للوضع"، ويتمنون على حكومة واشنطن "أن تفتح العيون على الأضرار الجسيمة لسياستها"، والمتميزة "بسلسلة من الأعمال الاستبدادية المنافرة بعمق لعبقرية الشعوب الأمريكية؛ [...] إجراءات ثورية مضادة لروح الدستور، والتى تصدم أخلاق البلاد"(٢٤).

وربما لم يكن "تفكك الاتحاد" الذى يعتبره الكاتب نفسه محتملاً[٢٥]، أسوأ الشرور التى تترصّد أمريكا.

لما كانت السيناريوهات الفرنسية مستوحاة من الخصومة أو من الاهتمام فإنها تتشابه. تقتضى الحرب الشاملة رقابة الصحافة، والاعتقالات الوقائية، والحدّ من انتقال الأشخاص، كل هذه الإجراءات المؤسفة توشك فى حد ذاتها أن تثير اضطرابات يمكن بدورها أن تدفع الشمال لتبنى قوانين استثنائية. هنا تستمتع الصحافة الحكومية بإحراج الصحافة المؤيدة للشمال، وهى التى لا تكاد تخفى قلقها: إنها تخشى "الإجراءات الثورية" نفسها - تلك التى كان ماركس وإنجلز يأخذان على لينكولن عدم اتخاذها[٢٦] - التى يسعها أن تحمل إلى الديكتاتورية جنرالاً شعبيًا على أنقاض الحريات الأمريكية.

لا يتعلق الإجماع الغريب الذى يتم فى فرنسا حول فكرة حرب بلا منتصر أو مهزوم إذن فقط ولا حتى أساسًا بتحليل علاقات القوى، بل إنه يترجم فى أحد المعسكرين أمنية رؤية استمرارية الانفصال، وفى المعسكر الآخر همّ إنقاذ ما هو جوهرى، أى الشكل الديمقراطى، حتى ولو فى اتحاد عدد أقل من الولايات. كان أشد المراقبين حيادًا يحكمون بأن انحلال الكونفدرالية منطقىٌ وأكثرمن محتمل؛ أما المراقبون الملتزمون فكانوا يرون فيه حسنات لصالح بطلهم، أيًا كان. كان الفرنسيون يجتهدون إذن بضمير مخلص فى تقطيع وإعادة تقطيع خريطة الولايات المتحدة، والصحافة تضيع فى حسابات بارعة حول هذا التقطيع، وفى كل مدينة صغيرة كان أشباه تاليران من الثرثارين يصفّون كأحجار الدومينو الولايات الجديدة وليدة خيالهم.

الولايات الأمريكية غير المتحدة فى الشمال، كم عدد الفرق العسكرية؟ وكم قطعة سيتقطع هذا الجسم الكبير؟ اثنان على الأقل، بالطبع. يقصر أصدقاء الشمال فى فرنسا آمالهم على تمنى بقاء القطعة الكونفدرالية أصغر الاثنتين. كانت صحيفة *Le Journal des débats* - كما رأينا - تعتبر الانفصال فى بداية عام ١٨٦١ أمرًا واقعًا، وستستمر وقتًا طويلاً فى الحكم باحتمال عدم عودة عدد من الولايات تتمنى أن يكون محدودًا بأكبر قدر ممكن إلى الاتحاد. فى حين أن بعض المراقبين الأشد نهمًا يميلون إلى اقتسام الحلوى الأمريكية ثلاثًا. يبدو أن هذا السيناريو الثلاثى يحظى بتفضيل الديوان الإمبراطورى. يتوجب على الولايات المتحدة بعد الحرب أن تنقسم إلى شمال يعيد الصلة حتمًا مع الأسرة البريطانية، وجنوب يصير حليفنا الطبيعى، وغرب يمكن - وقد انتهز فرصة التحرر هذه - أن يرعى علاقات متميزة مع فرنسا باسم

قرابة ذات حدود على قدر من الغموض، ولكن فى الحقيقة لماذا التوقف هنا ؟ تتجرأ الصحافة الحكومية فى لحظات نشوتها على أن تعد حتى خمسة! إنها صحيفة *La Pa-trie* بقلم أوسكار دو واتفيل Oscar de Watteville التى تقدم فى مارس ١٨٦١هذا التشخيص: "فصل بين جمهوريات الشمال والوسط والجنوب والغرب والباسفيك، تلك هى الاتجاهات التى تظهر فى هذه الجمهورية التى تحمل بطريقة مثيرة للسخرية الآن اسم الولايات المتحدة(٢٧)". "منع هذه الحركة، هذا الانفجار، هو ذا الحلم المخصص للسيد لنكولن"، كما تضيف الصحيفة بصورة ضاحكة، هى التى لا تحلم وتؤمن بصلابة بواقعية رغباتها.

مع انهيار الجنوب، واحتلاله العسكرى وإعادة البناء السريع للبنية الفدرالية، لم يكن الحلم المستحيل لدبلوماسية متذبذبة إذن هو الذى يهرب فحسب، بل هو سراب جماعى يتبدد.

حق الجنوب، "حجّة" الشمال

إن ما يفاجئ الفرنسيين هو عنف وشراسة الصراع أكثر من الانفصال ذاته؛ فمعظم المراقبين يحكمون على هذا الصراع باعتباره منطقيًا ومطابقًا لمعانى التوافق الأصلى. يعتبر أنصار الجنوب حق الانفصال الذى أتى على ممارسته الكونفدراليون حقًا ملازمًا لدستور الولايات المتحدة. أما خصومهم فيتلافون الميدان الشرعى الذى يعتبرونه كما يظهر أقل ملاءمة، ويجهدون فى وضع النقاش على صعيد المبادئ المناهضة للرق. جهد ضائع، ذلك لأن أنصار الجنوب يعتبرون ويعلنون أنفسهم مناهضين للرق شأنهم أيضًا.

إننا نمس هنا أشد المظاهر إثارة للحيرة على وجه الاحتمال فى الموقف الفرنسى إزاء حرب الانفصال؛ فتعاطف الغالبية مع الجنوب يتعايش مع إدانة شديدة للرق. ذلك تناقض لابد من حله على الأقل خطابيًا بإعادة صياغة المشكلة. ألا يكفى للتوفيق بين أنصار الجنوب وأنصار تحريم الرق فى الواقع أن نقرر أن الرق ليس هو رهان الحرب الأهلية الحقيقى؟ هكذا تطور فى فرنسا بمساعدة الدعاة الجنوبيين شديدى الانتباه لهذه المسألة خطاب كامل يميل إلى فصل مسألة الحرب عن مسألة الرق المقدمة باعتبارها مجرد عذر للاعتداء الشمالى.

لأنه إذا كانت فرضية التدخل تفزع، فإن التعاطف مع الجنوب يبدو بما لا يقبل الجدل يؤلف الأكثرية، وقويًا على وجه الخصوص فى قمة السلم الاجتماعى. إنها

"النخب" باستثناء بعض المثقفين، التى هى من أنصار الجنوبيين. لقد كان سليدل Sli-dell، سفير الكونفدرالية فى باريس، سعيداً بإعلام وزيره بنيامين Benjamin، أن "شعور الطبقات الذكية يكاد يكون بالإجماع لصالحنا"(٢٨). يتغذى هذا التعاطف من واقع مصالح اقتصادية وعلاقات تجارية لا يستهان بها، كما يتغذى أيضاً من حماس الأوساط الكاثوليكية، وتدعمه الأسطورة الحية عن الأصول المشتركة (فالجميع يفكرون ويرددون طواعية أن نصف سكان الجنوب يملك دماً فرنسياً(٢٩))، وتنوب عنه صحافة محلية وباريسية متضامنة مع قضية الكونفدراليين على نحو واسع - يقدر عميل الدعاية الجنوبية هوتز Hotze نسبة الصحف الباريسية المشايعة لحكومته بثلاثة أرباع ولا يعد إلا صحيفتين فقط مناهضتين لها صراحة.

على أنه مهما بدا ذلك متناقضاً فإن رفض الرق لا يزال يحظى بالإجماع، وأول من يسجل ذلك، ويتعجب منه، ويقلق منه، هم مبعوثو وموظفو الجنوب. يرى فيه دو ليون De Leon فى رسائله السرية عائقاً ضخماً فى وجه عمله، بل إنه يحكم بأن المشكلة أكثر حدة حتى مما هى عليه فى بريطانيا العظمى حيث الجمعيات المنادية بتحريم الرق مع ذلك قوية وفعالة. "يمكن أن يبدو ذلك بالكاد قابلاً للتصديق"، كما يكتب دو ليون إلى بنيامين نفسه، "لكن *مسألة الرق* *[the slavery Question]* هى عقبة أكبر فى وجه الاعتراف الدبلوماسى هنا فى فرنسا منها فى إنجلترا؛ لأن هناك فعلاً وحقيقة استعداداً عاطفياً لدى الفرنسيين، وهم أكثر ميلاً دوماً للاستسلام إلى هذا الضرب من الاعتبارات من جيرانهم فيما وراء المانش الذين هم أشد برودة وتقديراً للعواقب"(٣٠). ويلح دو ليون فى الرسالة ذاتها قائلاً إن لدى الفرنسيين "نفوراً عاطفيا" من الرق.

سواء أكان هذا الاستعداد "عاطفياً" أم لا، فإن الملاحظة تبدو صحيحة. أصلب دعم للجنوب فى فرنسا يختلف بلا غموض عن مذهب الكونفدراليين حول شرعية "مؤسساتهم الخاصة" - وهى تورية عزيزة على الجنوبيين، لكنها تبقى دون صدى فى فرنسا. لا شىء يبدو قادراً على زعزعة قناعة فرنسية تختلط فيها نزعة عصر التنوير الإنسانية ونزعة الإنسانية المسيحية، ويسود فيها اليقين بأن الرق غير مبرر أخلاقيا فحسب، بل هو لاغٍ تاريخيا.

والحق، على وجه الدقة، أن هذه الفكرة المسبقة عامة حول عدم تلاؤم الرق مع العالم الحديث هى التى ستعطى الجنوبيين أفضل حظ لهم فى ذهن الفرنسيين؛ فالرق مدان من قبل التاريخ أكثر مما هو مدان من قبل الأخلاق، من لا يرى ذلك؟ حتى الجنوبيون يعرفون ذلك، ولا يمكنهم ألا يعرفوه. والصحافة الفرنسية تردد ذلك

بالتنافس: لا يمكننا دون نية سيئة الشك فى أن الجنوب يريد استمراراً أبديا "لمؤسسة" باطلة ظاهرياً. ما جانب السذاجة لدى هؤلاء المدافعين الفرنسيين عن الجنوب؟ وما قدر الرياء؟ لا يهم. فى حين يحلم هوتز الذى حلّ محلّ دو ليون بوصفه عميلاً مؤثراً أن يجند تحت راية الكونفدراليين علماء على قدر كاف من النزاهة والتخلص من الأحكام المسبقة ليمتلكوا "نظرة صحيحة عن المقام المخصص من قبل العناية الإلهية لمختلف فروع الأسرة الإنسانية"(٣١)، فإن الصحافة الفرنسية المناصرة للجنوبيين تجد بنفسها إجابات أكثر ملاءمة "للنفور العاطفى" الشديد لقرانها من الرق.

تقدم صحيفة *Le Constitutionnel* مثلاً عن هذا الخطاب المبرر للجنوب، وهو مثل جدير بالملاحظة، لاسيما وأن الصحيفة كانت فى البدء مؤيدة بشدة للشمال. فى مايو ١٨٦١، وهى تعمل على الانعطاف بصعوبة، أكدت – كما لو أن الأمر بداهة، "نعلم ذلك أكثر من اللازم" – أن هذه "الحرب بلا فكرة" لا غاية مباشرة لها إلا "استئصال الرق". وتضيف الصحيفة – وهى تستعيد ثيمة عزيزة على الصحافة المؤيدة للجنوبيين– أن "الزنوج ليس لهم أصدقاء بين الذين سيدافعون عن مدينة واشنطن"، التى كانت محاصرة آنئذ من قبل القوات الكونفدرالية(٣٢). ستؤلف الصحافة بأجمعها جوقة؛ فهى تلح "فوق كل شىء على أن الرق لا يزن شيئًا فى أسباب الصراع "(٣٣). وبعد سنة، تعترف صحيفة *Le Constitutionnel* نفسها، وقد فقدت على وجه اليقين براعتها، بأن "الحقيقة" هى فى "هذه الكلمات المتأخرة للسيد جلادستون : الشمال يقاتل من أجل السيطرة، والجنوب يقاتل من أجل استقلاله". وتقوم بالوعظ لصالح الجنوب: "إننا ننسى دومًا من ثم أن المقصود إخضاع ستة ملايين نفس" بحجة تحرير أربعة ملايين من السود(٣٤). وسنجد الاتهام بعد الفعل بقلم كتاب المقالات المعادين لأمريكا فى سنوات ١٨٨٠؛ فالحيرة محسوسة حتى فى الأوساط الليبرالية كما هو الأمر فى المجلة المعاصرة *Revue Contemporaine*، التى تعتبر فى صيف ١٨٦٢ أن معنى الحرب قد تغير وتقابل بين جنوب يعرف أو "يحس" أن الرق مدان وبين شمال يستخدمه بوقاحة كما يستخدم سلاحاً فى حرب: "لم يعد الشمال يحارب ضد الرق، وإنما يستخدم هنا وهناك تحريم الرق كأداة حرب، كوسيلة للإضرار بالعدو. ولم يعد الجنوب يقاتل اليوم من أجل الرق، فهو يشعر تمام الشعور أن الحرب – أيًا كانت نتيجتها – قد قضت قضاء مبرمًا على الرفاه القائم على العبودية، لا بل إنه يرتاب فى أن الوسيلة الوحيدة للإبقاء على وجوده بعض الوقت، ولأن يُحمّس مؤسسة قيد الاحتضار، هى إعادة وضعها تحت حماية الحكومة الفدرالية(٣٥)". إن فرنسا التى عرفت فى تاريخها إعلانين حول إلغاء الرق لا تفهم مماطلات لنكولن؛ إذ إن "إعلان التحرير المبدئى" الذى أذاعه فى

عام ١٨٦٢، والذى لا يقول بالتحريم بكل بساطة تَمّ تلقيه بكثير من الذهول من قبل الأصدقاء الفرنسيين للشمال. وقد سجلت صحيفة *La Presse* أن "الحلول النصفية لا ترضى أحداً"[٣٦]. أما صحيفة *Le Constitutionnel* فهى تسخط وتنتصر من ناحيتها أمام هذا النفاق: "بدلاً من أن يدين الرق فإنه [لنكولن] يعد باستمراره، ويجعل منه جائزة تشجيع لصالح الولايات التى ستنضم للاتحاد من الآن وحتى الأول من يناير القادم." بعد هذا الإنكار الذى لا يصدق للمبادئ "من يجرؤ على القول الآن إن الشمال يقاتل من أجل القضاء على الرق؟"[٣٧].

أدى الإجماع ضد الرق الذى رافق التعاطف السائد مع الجنوب إذن إلى هذه النتيجة الغريبة، لكنها ليست لا منطقية، وهى ترسيخ القناعة لدى الرأى العام الفرنسى على نحو دائم بأن الحرب الأهلية لم تكن أبداً الحملة التحريرية التى غنتها النفوس الطيبة بل مشروعاً عديم الشفقة من الاستعباد السياسى والاقتصادى للجنوب من قبل الشمال. لا شك أن الجنوب على خطأ حين يتأخر فى تصفية "مؤسسته الخاصة"، لكن ألا يستحق الشماليون اللوم مائة مرة لاستغلالهم بوقاحة مسألة الرق لإقحام الجنوب؟

هل هى حرب "محض صناعية"؟

إن الحرب التى يخوضها الشماليون على النحو المعلق عليها فى فرنسا ضمن الأغلبية الساحقة من المنشورات هى كل شىء إلا حرب حق؛ فهى لا تستحق هذا الاسم لا تقنياً – مادام "الحق بمعناه الدقيق" هو فى جانب الكونفدرالية – ولا أخلاقياً – مادام تحريم الرق حجة خداعة، و"سلاح" بين أسلحة أخرى فى ترسانة الاتحاد، ولكن ما المقصود إذن؟

للكونفدرالية جوابها الذى تكلف ببثه – على نحو واسع – الناطقون باسمها فى أوروبا: هذه الحرب هى حرب اقتصادية. إن المقصود بالنسبة للشمال ترسيخ هيمنته الصناعية والمالية، وذلك يتم من خلال التعرفات الحامية والتحريمية، التى لا يوافق عليها الجنوب ويوشك أن يغيرها إذا ما تحرر. إنه قانون القلز(*) هذا وليس المثل الأعلى المتمثل فى تحريم الرق ما يجعل أى تسوية مستحيلة؛ فالشماليون لا يهتمون بحرية العبيد بقدر ما يهتمون بحرية انتقال منتجاتهم الصناعية فى كل القارة وبفرض الرسوم الفادحة على الصناعات المنافسة حتى ولو كان ذلك على حساب الاقتصاد الزراعى

(*) قانون القلز La loi dairain: نظرية اقتصادية تحدد أجر العامل بالحد الحيوى الأدنى.

للجنوب، الذى تعرقل أسواقه التدابير الثأرية الأوروبية. ويضيف الجنوبيون: إنه لما كانت هذه الحرب قد ولدت من الاقتصاد فإنها بقدر ما تستمر بقدر ما تتخذ مظهر حرب تخريب؛ فمن الموانئ إلى المزروعات، يتمسك الشمال بتدمير نظامى لوسائل الإنتاج على أراضى الكونفدرالية كافة، وهى خسائر سينضاف إليها فى حالة التحرر خسائر فادحة فى "رأس المال البشرى".

الحجة جوهرية فى المنشور الموزع لحساب الجنوب من قبل إدوين دو ليون، والذى يحمل عنوان : ***الحقيقة حول الولايات الأمريكية الكونفدرالية*** ***La Vérité sur les Etats confédérés d'Amérique***. وعلى أنه ماهر فى سكب حججه فى قالب الأحكام المسبقة الفرنسية، فإن العميل الجنوبى يتحاشى الدفاع عن "المؤسسة الخاصة" الشهيرة – أى العبودية، ويكتفى بإدانة نفاق الاتحاديين الذين يرفعون راية التحرير فى حين أن هناك تمييزًا عنصريًا يوميًا يجعل من حرية السود فى الشمال كلمة لا معنى لها[٣٨]. ولما كانوا لا يبالون أية مبالاة بمصير السود فإن اليانكى – كما وصفهم دو ليون – لم يستخدموا مسألة الرق إلا عذرًا لعدوانهم. وفى توتر العلاقات الذى ولد بين الشمال والجنوب خلال السنوات التى سبقت الصراع، "لم تكن مسألة الرق تدخل فى الحساب بأى حال، وإن كان الشمال اتخذها عذرًا بلباقة ليرد على أوروبا"[٣٩]. ويلح دو ليون على أن هذا التوتر فى العلاقات من طبيعة أخرى تمامًا؛ فهو عبارة عن تناقضات حقيقية فى مصالح محض مادى : "إن المصدر الحقيقى للمصاعب الحالية يتمثل فى مسائل محض صناعية؛ فالشمال صناعى، فى حين أن الجنوب زراعى[٤٠]". سببية اقتصادية إذن وخصومة بنائية. إن ما يجرى بين الشمال والجنوب يشبه ما يجرى مثلاً بين فرنسا وإنجلترا. "لم تكن فرنسا وإنجلترا أكثر انقسامًا من جهة مصالحهما، ومشاعرهما، وعاداتهما، وتجاربهما مما هما عليه منذ عشرين عامًا الأخيرة. الشمال والجنوب قسمان فى الجمهورية الأمريكية الكبرى[٤١]". تبدو كلمة قسم غريبة وحاذقة؛ فهذه الحرب – كما يوحى دو ليون – لن تفعل شيئًا سوى المصادقة على انفصال الكيانين "المقسومين" أصلاً بفعل اقتصادهما وتاريخهما...

هذا التفسير مقبول طواعية من قبل الفرنسيين؛ فمنذ ما قبل ظهور منشور دو ليون، اعتمدت الصحافة شبه الرسمية – وعلى رأسها صحيفة ***Le Pays*** – أطروحة الأصل الاقتصادى للصراع. إن "الأسباب الحقيقية" للصراع مختلفة تمام الاختلاف عن الدوافع التى يذكرها الشمال: "فالرق ليس مسئولاً عن شىء فى هذا المجال: نحن إزاء مسألة اقتصادية معقدة بمسألة زراعية[٤٢]". ومع الزمن وما عاشته الحرب من خراب فى الجنوب تأثر الرأى العام الفرنسى أكثر فأكثر مما بدا له سياسة مدبرة

للقضاء على البنى التحتية والثروات. وبعد عشرين سنة قويت هذه الانطباعات، واستحالت يقينًا، وصارت الدوافع الاقتصادية لحرب الانفصال جسراً يعبر عليه كل تحليل فرنسى للصراع. وسنرى آنئذ أنصار الملكية غير النادمين والجمهوريين النادمين يتفقون مع المنظرين الماركسيين للمصادقة على الأطروحة التى عبر عنها إدوين دو ليون منذ عام ١٨٦٢: "إن الروح التى قادت هذه الحرب والغاية التى نزعت إليها"، هى "الاستئثار بممتلكات الجنوب" من قبل الشمال(٤٣).

إلا أنه فى الوقت الحاضر، وخلال الحرب ذاتها، تُنافس هذا المنطق المادى لدى الرأى العام الفرنسى مقاربة من وحى مختلف أشد قدرة على التعبئة. إن اعتماد أطروحة الحرب الاقتصادية للقضاء على مزاعم الاتحاد الأخلاقية، أمر حسن، لكنه غير كاف فى نظر أشد الأصدقاء حماساً للجنوب. إذا لم يكن الصراع الأمريكى إلا شجاراً من أجل المال بين "قسمى" الولايات المتحدة المتوفاة، فلماذا يتدخل الفرنسيون فيها؟ ذلك أن الآثار الإيجابية لانتصار الجنوب المحتمل – أى خفض التعريفة الجمركية مثلاً – لا تبرر مع ذلك دخولاً مباشراً فى حرب مكلفة ومغامرة، هنا تجد الدعاية المناصرة للجنوبيين نفسها فى مواجهة صعوبة مزدوجة.

الصعوبة الأولى : يجب استثارة العطف الواجب للضحايا لصالح الجنوبيين مع تقديم الكونفدرالية بوصفها حصينة ولا تقهر. يجب أن يكون الجنوب داوود فى مواجهة جالوت؛ لأنه إذا كنا نحب دعم "الصغير" فى مواجهة "الكبير" فبشرط أن يقاوم الصغير مقاومة كبيرة. يعمل دو ليون ما فى وسعه للتوفيق بين هذين المطلبين بيانيا؛ فهو يقدم منذ البداية مزاعم الشمال على أنها وهمية: "يجب أن يظهر إخضاع الجنوب حلماً لكل إنسان يريد أن يفكر جديا"(٤٤)، لكن استهلاله يعزف على وتر يثير الرثاء حين يقدم "إجراءات المصادرة التى اتخذها مجلس الكونجرس فى الشمال" بوصفها "حكمًا بالإعدام على اثنى عشر مليون نسمة"(٤٥).

الصعوبة الثانية : بعد أن أفرغت حرب الانفصال من كل شحنة عاطفية أو أخلاقية أو أيديولوجية بتقديمها مجرد صدام مصالح؛ فمن الضرورى القيام بإعادة شحنها بمعنى تاريخى على نحو يهتم بها الفرنسيون على الرغم منهم بدلاً من يكفوا بكل بساطة عن الاهتمام بها.

هذا المعنى، سيقدمه "شرح" جديد، وبما أنه يقع على صعيد آخر غير الصعيد الاقتصادى فإن من الممكن جمعه مع هذا الأخير. إنه يقوم على جعل حرب الانفصال مواجهة إثنية وثقافية بين الأنجلو ساكسون وبين اللاتينيين، وهو سيناريو مبتكر

وجذاب بالنسبة للمدافعين الفرنسيين عن الجنوب، ومعظمهم محافظون أو رجعيون؛ فهو يسمح لهم أن يتجاوزوا (بعد استغلالها) قراءة اقتصادية تكرس حيزًا كبيرًا للشئون المادية لدى خصمهم السياسى، وخاصة أنهم ينقلون هذه الحرب الغريبة إلى حقل المصالح الفرنسية؛ فالصراع يكف عن أن يكون حربًا أهلية بين أمريكيين ليصبح حلقة فى حرب عالمية بين الإثنيات.

اللاتينية ضد "الجنس الأنجلو - أمريكى"

فيما يلى الكيفية التى سينتظم بموجبها الخطاب الجديد: إن ثقل المصالح المادية فى هذه المبارزة شديد الوضوح، لكن هذا الوضوح لا يجب أن يعمى الفرنسيين عن بعد خفى، وسرى للصراع؛ فالحرب يمكن أن تخفى وراءها حربًا أخرى، وحرب التحرير المزعومة تحجب خطة واسعة للاستعباد، والحملة لصالح الجنس الأسود تخفى حملة تأديبية ضد الجنس اللاتينى، وأولئك الذين يجعلون من أنفسهم محررين عنصريين يهدفون للسيطرة العنصرية المطلقة. وبإيجاز، فوراء دخان المظاهر وخطابات النية السيئة، يُدعى الفرنسيون لرؤية هذه الحقيقة وجهًا لوجه: إن حرب الانفصال هى نضال حتى الموت أراده العنصر الأنجلو ساكسونى لتوطيد تفوقه على القارة الأمريكية.

مثل هذه القراءة تمر من خلال عولمة خيالية للصراع. على أن هذه الإستراتيجية ليست إلا مجرد رسم أولى لدى الدعاة الجنوبيين. وهكذا الأمر لدى دو ليون مقارنًا الولايات الأمريكية الكونفدرالية بإيطاليا التى بدت جديرة " بأن يعترف بها من قبل أمم أوروبا" وذلك "بنضالها من أجل استقلالها ودستورها"(٤٦). ولم يقو على ألا يضيف: ومن أجل وحدتها... لكنه يعود إلى الدعاة الفرنسيين الذين استغلوا بانتظام طريقة "المتوازيات" مع هدف مزدوج يتمثل فى إحراج أنصار الشمال ودفع الفرنسيين اللامبالين أو المترددين للانخراط فى الصراع.

ونحن مدينون إلى هذه الإستراتيجية فى الخطاب بوجه خاص فى المشابهة بين أمريكا وروسيا التى تصر عليها الصحافة الرسمية. فى سنة ١٨٦٠، أى قبل ثلاثة أرباع القرن من بداية التنافس الإنتاجي بين النظامين، لم يكن التقريب بينهما تحصيل حاصل، لكن الاتحاد المعزول دبلوماسيًا يحاول بذل كل ما فى وسعه للنجاح؛ فزيارة رسمية صاخبة للبحرية القيصرية فى موانئه عام ١٨٦٣ تجسد الاتهامات حول التواطؤ بين حكم ألكسندر الثانى الاستبدادى وحكومة لنكولن الحربية. وقد قاس مبعوثو الجنوب فى أوروبا الصدمة التى يمثلها فى فرنسا خاصة التفاهم الودى فى الظاهر

بين سفاح بولونيا وبطل السود. ولا يخفي دو ليون فرحته: "إن علامات العطف التي تبادل إغداقها الاستبدادان النكولني والروسي قد أطلعت العالم الأوروبي بوفرة وفاجأته، ولم تحرج قليلاً الأصدقاء الديمقراطيين *"للجمهورية المثلى"* *[the Model Republic]* أي أنصار بولونيا الساخطون. ولكي يخفوا حزنهم، فقد أطلقوا من جديد شكواهم القديمة حول الرق، هذا "العدو" الحقيقي للخيال الفرنسي(٤٧)." وفي الوقت نفسه، تقدم الصحيفة اليومية الحكومية *La Patrie* إلى قرائها "مفتاح" الصراع الأمريكي هذا: الاتحاد هو سفاح الولايات المنشقة شأن روسيا القيصرية التي هي سفاحة الأمم الباحثة عن الحرية، ولكن بعيداً عن أن يكون تمرين أسلوب لرجل ظريف أو مهووس، فإن مقال "روسيا والولايات المتحدة الأمريكية" الذي نشرته صحيفة *La Patrie* قد فُحِصَ ووفق عليه من قبل نابليون الثالث نفسه، حسب شهادة دولامار، مالك الصحيفة. في هذه السنة التي قمع فيها التمرد البولوني بوحشية، كان الهدف بالطبع أن تُفرض لدى الجمهور صورة الجنوب الشهيد المشابهة لصورة البولوني بين يدي قوة عنيفة لا تعرف التردد. مناورة خطابية ذات أهداف محدودة (إثارة الاضطراب لدى المعسكر الليبرالي والجمهوري)، والتقارب بين أمريكا الشمالية وروسيا موعود لمستقبل مشرق – حتى وإن كان الهجاء ون الذين استعادوها في سنة ١٩٣٠، لم يستعجلوا في الاعتراف بدينهم الخطابي تجاه الإمبراطورية الثانية...

ليست هذه الموازاة بين الروس واليانكي في ترسانة أنصار الجنوب سوى أداة تكتيكية. أما السلاح الإستراتيجي ذو المدى البعيد، أي السلاح الذي يوسع من ميدان المعركة فيما وراء الأطلسي ليشمل "العالم المتحضر"، فيتمثل في فكرة مواجهة بين العنصر الأنجلو ساكسوني والشعوب اللاتينية، وهي فكرة عزيزة على الإمبراطور؛ فقد رأينا أنها كانت تقود "هدفه الكبير" المكسيكي الهادف إلى احتواء ضغط الولايات المتحدة، كما أنها فكرة جذابة لعديد من الفرنسيين المستعدين للتأثر من التهديد الذي يمكن للولايات المتحدة، التي يسودها العنصر "الأنجلو ساكسوني"، وهي تشكل كتلة مع بريطانيا العظمى المثيرة دومًا للقلق، أن تمثله. في هذا التحليل، تغير حرب الانفصال من منزلتها ومن دلالتها؛ فلم تعد حرباً أهلية محصورة نسبيا، بل هي أول فصل في مباراة عالمية؛ إذ إن الخصومة بين الشماليين والجنوبيين تعكس انشقاقًا إثنيا وثقافيًا أشد اتساعًا، وتترجمُ عدوانيةُ وشراسةُ اليانكي عطشًا للسيطرة لن يوقفها انتصار محتمل على الجنوب.

ليست هذه القراءة للحرب غائبة كليا عن الخطاب الجنوبي الموجه للفرنسيين. يستشف إدوين دو ليون المناسبة، ويلصق عدداً من الاعتبارات العنصرية على عرضه

الخاص بالجذور الاقتصادية للحرب. يكتب: "بالإضافة إلى الأسباب [الاقتصادية] هناك اختلافات العرق والقابلية التى توجد بين شعبين". هاهو يضع موجزاً لحالة الانقسام الإتنى والثقافى بين الشمال والجنوب: "وكما تبين الإحصاءات، كان الشمال مأهولاً بأجناس أنجلو ساكسونية، والجنوب كان مأهولاً بصورة أساسية بالجنس اللاتينى. وهاهو الآن حفيد الطهريين(*)، الجنرال بتلر، الذى دأب على خوض الحرب ضد النساء، يشغل وظيفة والى الشمال فى النوفيل أورليان؛ حيث تكشف اللغة والعادات الفرنسية عن أصل السكان[٤٨]". طريقة ماهرة لإثارة اهتمام الفرنسيين بقضية أكثرية المواطنين الذين أساء معاملتهم طهرى فظ، على أن طلقة السيد دو ليون ربما كانت أقل دقة حين قدم جيوش الشمال بوصفها عصابة من المهاجرين: "يجب الاعتراف بأن المهاجرين الألمان والإيرلنديين يؤلفون القسم الأعظم من جنود هذا الجيش الذى تقوم مهمته على "ترميم الاتحاد"[٤٩]. "إنه ينسى أن الإيرلنديين ينتمون بحق إلى المجموع الأسطورى السلتى - اللاتينى الذى يؤلف مرجع الخطاب الفرنسى الأشد معاداة للشمال كما سنرى؛ ذلك أن الموظف الجنوبى يفكر فى موضوع بيض أمريكا بمفردات الطبقات، والثقافات، والأديان، لا بمفردات عنصرية. اليانكى هم فى نظره "طهريون" أكثر منهم إنجليز، و"المهاجرون الألمان" هم مهاجرون أكثر منهم ألمان، أى "حمر"، كما يشرح الأمر فيما بعد: "لقد جذب الشمال أيضًا إليه كل الثوريين الجائعين والساخطين من ألمانيا، كل الجمهوريين الحمر [...] لدعم جيشه[٥٠]". إن الانقسام الإتنى هنا ليس حاسمًا ولا مطلقًا؛ ففى نظر دو ليون هناك بالضرورة أيضًا أناس أنجلو- أمريكيون بدءًا بهذا "العنصر الأنجلو ساكسونى الذى سنجده فى الجنوب" والذى يعارضه بالأصل الطهرى جاعلاً إياه يعود إلى "الطبقة النبيلة المنفية زمن كرومويل"[٥١]... بين البيض، يتقدم الدين والسياسة حتمًا على الإتنى، مزيداً من الجهد أيها الجنوبيون إن شئتم أن تكونوا "لاتينيين"!

ينقلب ترتيب الحجج لدى التدخليين الفرنسيين؛ فقد حل محل السببية الاقتصادية غير الصالحة للتعبئة تصور للتنافس العنصرى على الصعيد العالمى؛ ففى نظرهم أن مجرى الأحداث الحالى (والقادم) يرتبط بمنطق أكثر إلحاحًا من منطق الحساب والمصلحة: منطق الدم و"الحضارة". لدى هذه القوى التى تقذف بالاتحاد وببريطانيا العظمى الواحدة نحو الأخرى، على الرغم من الاحتكاكات فى بداية الحرب،

(*) طهرى Puritain: عضو فى جماعة بروتستانتينية فى إنجلترا وإنجلترا الجديدة (أمريكا) فى القرنين السادس والسابع عشر طالبت بالتمسك بأهداب الفضيلة.

لا تزن علاقاتنا المسكينة مع عالم أمريكا الشمالية شيئًا يذكر؛ إذ سرعان ما ستمحى الذكرى الذابلة للافاييت وروشامبو إن لم تكن ممحية من قبل. المكان إذن "لقرابات الجنس" و"لتقاليد الأصول"(٥٢): هذه الوقائع الأشد واقعية من المصلحة الاقتصادية هي التي تربطنا بالجنوبيين، وبالأحرى فهي تقيّد مصيري اليانكي والبريطانيين.

إن انتصار الشمال هو في الحقيقة انتصار اليانكي المدعو بصوت الدم للاتحاد عاجلاً أم آجلاً مع الإنجليزي في جبهة مشتركة موجهة ضد اللاتين، ومن ثم ضد الفرنسيين، أسياد وحماة اللاتينية. الشمال ليس فكرة ولا مبدأ ولا طريقة في الحكم. إنه إعمار معاكس لإعمار الجنوب: "مختلف أصلاً، مادام أحدهما قد تكون من الفرنسيين والإسبان في حين يتكون الآخر أساسًا من الإنجليز والهولنديين والألمان والسويديين، ولما كانت هناك مسافات كبيرة تفصل بين الشعبين، حيث يعيش كل منهما في مناخات أخرى وينهمكون في مشاغل مختلفة [...]، فقد اعتبر الشعبان نفسيهما دومًا خصمين(٥٣)". الشمال المنتصر هو العنصر "الأنجلو - أمريكي" الملتحم من أجل فتوحات أخرى.

سنعثر على هذه الفكرة الملحة، على تشتتها في صحف الإمبراطورية، في حالة مركزة ضمن كتيّب نشر في عام ١٨٦٣ تحت عنوان *عن اللاتينية Du Panlatinisme* مع عنوان فرعي: "ضرورة التحالف بين فرنسا وكونفدرالية الجنوب"(٥٤). نجد فيه وقد جمعت في ثلاثين صفحة كثيرًا من الملامح المعادية لليانكي التي ستؤلف هيكل الخطاب المعادي لأمريكا في نهاية القرن التاسع عشر.

منذ السطور الأولى، يرتقي المنظور ولا تعود حرب الانفصال تبدو أمريكية الطابع؛ إذ يجب، لفهمها على نحو جيد ولتفسيرها على نحو صحيح، أن نرى الأمور على نحو أوسع: "هناك ثلاثة قوى، عناصر حضارة، تنتشر في العالم، وتحاول اقتسام المستقبل. يمكننا أن نسميها على هذا النحو: الروسية السلافية، الأنجلو ساكسونية، والغالية اللاتينية(٥٥)". تبدو أول هذه القوى للمراقب السطحي على أنّها الأشد تهديداً، إلا أن الأمر ليس كذلك. حقًا، "إن سيطرة الروس، وهي خير على الشعوب الجاهلة والمتوحشة، أو المفسدة بفعل آفات الحضارة المنهكة، ستكون نكبة على أوروبا"، لكن للروسية السلافية ميل للاتساع في آسيا "وما دامت أوروبا ستكون على ما هي عليه اليوم، أي منضبطة وقوية، فإن مدافع القيصر ستضرب بلا فائدة على بابها"(٥٦): إن "حيوية" الشعوب الأوروبية ستصونها.

أما الأنجلوساكسونية، "عتلة الحضارة" الثانية هذه، التي يقوم "شعبان على

خدمتها، الإنجليز والأمريكان، أرستقراطية وديمقراطية" فهى مختلفة كليًا. جنس ممتاز فى كل الأحوال بقابليتيه على "ألا يعتمد إلا على نفسه" وعلى "أن يستخلص أكبر فائدة ممكنة من نشاطه الخاص": *"self-reliance"* و *"help yourself"*، بلغة المؤلف. جنس فعال وصناعى، يجب أن نستوحى نجاحاته دون أن نقنط؛ لأنه ليس هناك سبب للاعتقاد "أن الجنس الأنجلو ساكسونى هو بطبيعته متفوق على الأجناس الأخرى"، "كالإنجليز والأمريكان الذين يقتربون من فعل ذلك".

هناك مع ذلك اختلاف بين بريطانيا العظمى ومستعمراتها التى توجب عليها الانفصال عنها بفضل سياسة فرنسية لم ينقصها "لا البصيرة ولا البراعة"، أى الدعم العسكرى المعطى للثائرين. إن بريطانيا العظمى هى فى أن واحد "صور وقرطاج" – هذا التوازى المزدوج يعود إلى القرن الثامن عشر. إنها تحتاج إلى عالم مفتوح لتجارتها، وبما أنها قوة عريقة رزينة، "فإنها لا تدع نفسها تذهب إلى ضلالات الشبهات". إنها تفضل "تعليم الحضارة الأوروبية بواسطة التجارة لشعوب لا تحصى فى آسيا وأفريقيا وأوقيانوسيا". وبإيجاز، فإننا يمكن أن نتفاهم معها، ولكن ليس مع "أحفاد أبنائها"! لأنه إذا كانت بريطانيا العظمى تمثل الجانب الجيد من "عتلة الحضارة" الأنجلو ساكسونية، فإن أمريكا الشمالية تجسد عدوانيتها المدمرة للحضارات الأخرى. إن الأمريكيين باعتبارهم مستبسلين لا متصلبين، وأقل قوة لا أقل عنفًا، فى مقدمة أبناء جنسهم الذين يسببون أحداثًا يعجزون عن إيقافها. وبوصفهم محدلة أطلقت على العالم، فإنهم "يزيلون غابات أمريكا الشمالية"، ويمهدون القارة، و"يرتجلون مدنًا" ؛ و"يخلقون شعوبًا"، كما أنهم يدمرون المدن والشعوب بنفس الطاقة: "على هذا المسرح الواسع، محا العنصر الأنجلو ساكسونى أو يميل إلى محو كل العناصر الأخرى: الهولنديون على ضفاف الهدسون، والسويديون فى الديلوير Delaware، والفرنسيون فى الميسورى وميشيجان والأركنساس وتكساس ولويزيانا وإنديانا وإيلينوا والويسكنسن والألاباما، والإسبان فى فلوريدا وكاليفورنيا والمكسيك الجديدة، وهو فى طريقه لابتلاع كل تنوعات الجنس الأبيض. أما بالنسبة للجنسين الأحمر والأسود، فقد دمر الأول فى جزء كبير منه أو أنه قذف بكل ما تبقى منه بعنف إلى أقصى حدود مجال عمله؛ أما بالنسبة للثانى فى الشمال، فقد طرده ببرود وكبرياء الطبقة التى ترى الدنس حتى فى مجرد مجاورته، فى حين أنه جاوره فى الجنوب ضمن شروط أكثر اجتماعية هى شروط السيد والعبد(٥٧)".

هو ذا الظرف، هو ذا المنظور الذى يتوجب على الفرنسيين أن يتبصروا بموجبه حرب الانفصال.

يجب رؤيتها أولاً – ولن نتعجب من ذلك – بوصفها نعمة أو على الأقل وقف تنفيذ بالنسبة لأوروبا. "كنا نستنتج منذ ثلاث سنوات تقريبًا أن الأراضي التى كان الجنس الأنجلو ساكسونى مدعواً للانتشار فيها كانت تعادل ثلاثة أرباع أوروبا"، وكنا نقدر من خلال إسقاطات ممكنة أن عدد السكان سيبلغ "رقم مائة وخمسين ونصف مليون نسمة" بعد مائة وخمسة وعشرين عامًا من الآن(٥٨). "كنا نتساءل من سيوقف توسع الشعب الأمريكي، من؟ من المحتمل أن يتحمل الأمريكيون أنفسهم عبء هذه المهمة، على الأقل فى الوقت الحاضر." من الصعب التعبير بصورة أوضح عن الآمال الكبرى التى علقتها فرنسا على حرب الانفصال، هذه الوقفة العنيفة التى سترغم أمريكا نفسها عليها. يظهر آنئذ خطاب التفكيك المحتوم: "لقد تلقى الاتحاد ضربة من المستحيل أن ينهض منها كما كان من قبل، أيًا كانت نتيجة الصراع الذى نشهده".

لكن هذا التفاؤل لن يعمر طويلاً؛ إذ من يعرف فى الأساس ما يقدر عليه الشمالى المتعصب؟ من يسعه أن يقول إلى أىّ حدود قصوى سيصل حنقه؟ حين يلاحظ بخشونة أن جنوبًا مهزومًا لكنه ليس خاضعًا سيكون رأس جسر مثاليا و"مرتكزًا لكل قوة أجنبية ستدخل فى حرب مع الولايات المتحدة"، فإن مؤلف كتاب ***اللاتينية*** يستخلص بدلاً من الشماليين النتيجة المحتومة: يجب على هذه الحرب بالضرورة أن تصير حرب "إبادة"، وهى كذلك أصلاً مادام الشمال "قد شرع جديًا فى أن يستأصل بالموت وبالإبعاد شعبًا تعداده ثمانية ملايين نسمة". لا شىء يستحيل على هذه القلوب المتحجرة: "يعلمهم التاريخ أن هذه التضحية الكبرى لا تنطوى على أى شىء مستحيل، ودون الذهاب للبحث عن أمثلة فى العالم القديم لا تنقصنا حقًا، يملك الشمال منها فى جواره بل وحتى فى ماضيه: [...] ألم يتوصل طهريو إنجلترا الجديدة إلى محو حتى آخر آثار الجنس الأحمر؟"

ليست هذه المرة الأولى التى تدان فيها إبادة الهنود فى فرنسا، لكنها المرة الأولى فيما يبدو التى يستشهد فيها بهذه الإبادة لدعم ضربٍ من ميل لدى الأنجلو أمريكيين إلى الإبادة؛ المرة الأولى أيضًا التى يُعَرَّفُ فيها طهرىُّ إنجلترا الجديدة الذى أعيد إليه الاعتبار مؤخراً من قبل توكفيل بوصفه مصدر الحريات الديمقراطية الأمريكية كمحض ومجرد سفاح. سفاح قديمًا للهنود الحمر، وسفاح اليوم لهذا الجنس الآخر الذى يجرؤ على مقاومته: بيض الجنوب. "لا يتوهم الكونفدراليون حول المصير الذى ينتظرهم، إن هم هزموا: فهم يعرفون إلى أين يمكن أن يصل تعصب متعصبى الشمال، تعصب ليس لدينا عنه على وجه اليقين فكرة صحيحة فى فرنسا، والذى هو فى حقيقة الأمر الهوس الطموح والحانق لشعب يظن بنفسه فعلاً جيش الإله المختار، الإله المبيد

للأماليسيين Amalécites والموآبيين Moabite[٥٩]". إن وحدة الشعور هنا كاملة مع الخطاب المعادى للطهرية الذى يعتمده دو ليون، والذى كان يلخص على هذا النحو "المذهب الطهرى القديم" الذى أعاد وضعه على جدول الأعمال من جديد محاربو الشمال:

"١) إن الأرض وما تنطوى عليه ملك القديسين، ٢) إننا نحن أنفسنا قديسون[٦٠]".

إنه أيضًا أول ظهور لنظرية فى الدومينو على الطريقة الفرنسية، والتى ستبتذل فى سنوات ١٨٨٠-١٨٩٠؛ فالغول الأمريكى الشمالى يلتهم الوجبة لقمة بعد لقمة، لكن الجنوب يؤلف قطعة كبرى، وطبقًا رئيسيًا، ولن يجعل ابتلاعه الغول يشبع. على أن مأدبة الأراضى ستستمر. ومن الواضح أن هناك شعوب أخرى تم إعدادها للذبح، ذلك أن "التهامها" لم "يؤجل" إلا بسبب الدفاع البطولى للجنوب[٦١]. وبعد الجنوب، أمريكا اللاتينية. كل اللاتينيين يعرفون ذلك، ويتحسسونه، وتصرخ به "غريزتهم فى البقاء": إن "الجنسية" الأنجلو ساكسونية هى العدو، عدو الجنوب فى هذه اللحظة بالذات، وعدو الغد لأمريكا اللاتينية التى "سيتم" اجتياحها "حتمًا عاجلاً أم آجلاً" إن لم تضع نفسها فى موقع الدفاع عن النفس من خلال "تجديد نفسها"[٦٢]، ومن خلال بحثها عن دعم فرنسا.

حين يُنظَرُ إلى حرب الانفصال من هذه الأعالى الإثنية والإستراتيجية، يتغيّر وجهها، ولا شك أن تحرير السود ليس إلا "حجة " للشمال[٦٣]، ولكن حتى لو كان أكثر من ذلك قليلاً: "قضية عارضة"، فإن على الفرنسيين أن يخففوا من هذا الرهان وألا "يسمحوا لاندفاعات قلوبهم الكريمة أن تضل حكمهم". يالها من قضية، قضية إلغاء نظام "تمّ تعديله وتخفيفه"، وسيموت ميتة طبيعية عما قريب! إن المقصود فى حقيقة الأمر خطير وحاسم. إنه مصير العالم الذى يراهن عليه فى ميدان المعركة فى المريلاند أو فى فرجينيا: "عندما نتأمل مستقبل أوروبا، سنرى أن المقصود بالنسبة لهذا الجزء من العالم المتحضر شيءٌ آخر تمامًا غير الرق وتحرير الزنوج فى هذا الصراع الذى استمر طويلاً. هل سيمدُّ أمريكيو الشمال على كل القارة الأطلسية سيطرة شبيهة بسيطرة الرومان على العالم [...]؟[٦٤]" النتيجة: إن السياسة المكسيكية لنابليون الثالث هى "سياسة كبرى"، لكنها "ناقصة" وأقل "ضمانًا" إن لم يصحبها تحالف عسكرى مع الكونفدرالية.

لا يجب أن توهمنا هذه "الجسارات" الأخيرة؛ فهذا المنشور يقف تقريبًا على

مقربة من المواقف الفرنسية شبه الرسمية، كما أنه يستعيد ملامح بل وحتى العادات التى تميز الصحافة الحكومية، ولا سيما فى إدانة "الحلف بين اليانكى والمعتدين على بولونيا"(٦٥). وإذ يجعل المؤلف من المواجهة بين الأجناس والحضارات الثلاثة الكبيرة مفتاح المصير الأوروبى، فإنه لا يفعل أكثر من أن ينظم إطاراً للفكر هو إطار فكر الحكام الفرنسيين وجزء كبير من "الطبقات الذكية" للكلام على طريقة سليدل. وإنه لأمر بالغ الدلالة أن مورنى، حين استقبل فى يناير ١٨٦٥ جون بيجلو، والذى احتل مقام سفير الاتحاد مكان ديتون، اختار أن يركز المحادثة حول هذا المفهوم "الجنس اللاتينى" كى يبين أنه لا يجعل منه محور سياسته. وعلى هذه المسارّة التى تحمل ملامح النفى، كان لبيجلو مهارة الإجابة على الصعيد ذاته الذى يدعى مورنى التميّز عنه، مشيراً إلى أن هناك أفراداً من "الجنس اللاتينى فى مدينة نيويورك أكثر مما فى كل جمهوريات الجنوب، وأن هناك من الكاثوليك فى ولاية نيويورك أكثر مما فى الكونفدرالية بأكملها"(٦٦)، وهى طريقة أنيقة ليقول إنه ليس مخدوعاً بالمسافة التى يعلنها مورنى تجاه "نظرية" إتنية إستراتيجية تؤلف فعلاً الإطار الفكرى للسياسة الإمبراطورية.

من هذا الجهد فى التنظير الخيالى، يقدم منشور فورنييه حالة مركزة: فكتاب *عن اللاتينية Du Panlatinisme* هو أشبه بتصفية لهذه الكمية من الخطابات الدعائية التى تمتزج فيها خلال فترة الحرب بكاملها الوقائع والأوهام. فى هذا الملخص من أنصار الجنوب تظهر بوضوح المقومات التى ستفيد عما قريب فى الإشارة إلى الجرعة المعادية لأمريكا.

تتمثل العلامة الأبرز – وفى الوقت نفسه الأكثر جدة – فى جعل الإتنية تطبع السياسة التى تستند إلى مراجع "علمية" (يخصص المنشور عدة صفحات لمخاطر "التهجين mongrelisme(*)" التى تهدد أمريكا الجنوبية، ويحيل بصراحة إلى الأنثروبولوجيا العنصرية الشابة الأمريكية التى تسمى على هذا النحو "اختلاط الأجناس الأبيض والأسود والأحمر"(٦٧))، لكنها تنطلق اعتباراً من خيال وهمى عن الانحطاط. يقدم كتاب *عن اللاتينية Du Panlatinisme* على هذا النحو حالة مبكرة بوجه خاص عن الوهم الفرنسى فى نزع الملكية والانحطاط فى مواجهة "الشعوب الكبرى" الجديدة – أمريكا وروسيا، المتكبرتين والواثقتين بنفسيهما(٦٨). لن تتم مقاومة ما

(*) mongrelis : كلمة مهجورة فى اللغة الفرنسية، نقترح كلمة التهجين مقابلاً لها بالعربية باعتبارها تعنى اختلاط أجناس مختلفة.

سيسمى عما قريب "اليانكية" من خلال دروس التاريخ الخادعة ولا من خلال التأملات الفلسفية السياسية الضبابية: إنها، بل ويجب أن تكون قفزة حيوية، ورد فعل فيزيولوجى ضد "روح الفتح" لدى أمريكا أنجلو ساكسونية تؤمن "بقدرها المعلن"(٦٩) فى فتح القارة حتى رأس هورن- Cap Horn بانتظار الأفضل؟

الشمال ضد الجنوب، الرواية

هل يعتبر كتاب *عن اللاتينية Du Panlatinisme* نصًا "نموذجيا" ؟ لا، إذا ما بحثنا عن الموقف المتوسط للرأى العام الفرنسى حول الحرب الأمريكية غير الموجود. نعم، إذا أردنا أن نقبل نفس المنطق، وقد دفع إلى منتهى نتائجه، والذى كان طوال فترة الصراع فى أساس قرارات (أو مماطلات) السياسة الإمبراطورية؛ المنطق نفسه الذى يعبر عن نفسه بحذر أكثر فى كل الصحافة القريبة من الحكومة؛ والمنطق نفسه أخيراً الذى يؤثر قليلاً أو كثيرًا على كثير من التعليقات المستقلة سياسيًا. والواقع أن آثاره الدائمة لا تأثيره المباشر هى التى تجعل من هذا الخطاب عنصراً مقومًا مهمًا فى النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا القادمة. إن أنصار الجنوب من رعايا الإمبراطور يهيئون لمعاداة اليانكية من قبل رعية جول فيرى Jules Ferry.

هل كان فرنسيو سنوات ١٨٦٠ جميعًا من أنصار الجنوب؟ يقينًا لا، كما لم يكونوا أيضًا من أنصار "اللاتينية"، لكنهم كانوا بالمقابل أقل ميلاً للحماس لمثل لنكولن أو جرانت كما تشيع ذلك صورٌ ذائعة لاحقة عن الصراع: صورة اندفاع لا يقاوم من التعاطف مع الشمال المعادى للرق؛ فللذاكرة الجمعية أيضًا ذكرياتها الحاجبة، وهذه الذكريات الحاجبة قد وضعت قصداً؛ إذ ما إن استقرت الجمهورية الثالثة حتى انكبت على المهمة القاسية المتمثلة فى إعادة وصل خيوط تضامن مفترض بين الجمهوريتين الأطلسيتين. وستسجل العداوة المعروفة لفرنسا إزاء الاتحاد خلال الحرب فى سجل سلبيات نظام نابليون الصغير المشنع عليه من الآن فصاعداً، وسيُسَجل لصالح "البلد الحقيقى" تضامنٌ مع الشمال لم يكن من قبل إلا موقف أقلية ضئيلة مناضلة. وفى هذه العملية من التطيين الأيديولوجى ستتمكن الجمهورية الثالثة من الاعتماد على ضمان فيكتور هوجو السابق واللاحق الذى كان انتصاره الثابت للاتحاد سيستخدم كعباءة نوح لتغطية سياسة الانتظار والغموض التى سادت خلال الصراع، ولكن من أجل صورة أقل شرحًا علينا أن نلتفت إلى جول فيرن.

هوجو هو المنارة، أما جول فيرن فهو المصور: أحدهما يفيد فى تقديم فرنسا

المتضامنة مع المنتصرين، أما الآخر فيتيح لنا فى روايتين يفصل بين كتابتهما اثنتان وعشرون سنة رؤية كل الغموض الفرنسى. يحتفظ جول فيرن بمفاجأة لقارئه الميال إلى الظن بأن التقدمية والعلمية تتفق بالضرورة مع معاداة الجنوب. بالطبع هناك رواية شمال ضد جنوب؛ حيث يظهر كنصير متحمس لقضية الشماليين. تدور أحداثها فى فلوريدا . البوربانك، وهم مناضلون معادون للرق جاءوا من نيو جرسى، ومزارعون بوجه إنسانى، صاروا فيها الهدف المفضل للمشاغبين الانفصاليين الذين يقودهم فاسد مثير للقلق، لا أسرة له ولا جذور، هو تكسار القاسى. نهبٌ، وقتلٌ، وأحكام جائرة تلفظ ضد أبرياء من قبل محكمة محلية مذعورة، وخطف أطفال: كلها أمور صالحة لهذا الشيطان ذى الوجه المزدوج. (لأن سر وجود تكسار فى كل مكان ومفتاح إفلاته من العقاب، هو وجود توأم له وبديله المتواطئ...) كل شىء ينتهى بالنسبة للبوربانك ولفلوريدا بفضل زيرمه على وجه الخصوص، وهى خلاسية ذات قلب كبير. وحين وصلت التعزيزات الشمالية متأخرة بعد انتظارها طويلاً لم يكن لها من الوقت إلا ما يسمح لها بتحية الجمهور قبل سقوط الستارة من خلال جهر مدوٍ بما تؤمن به: "– نعم أيها الاتحاديون، أيها الشماليون، المعادون للرق، المنادون بالوحدة! يجيب الرجل الذى يبدو فخوراً بإعلان كل هذه الصفات المختلفة الممنوحة لحزب القضية الصالحة(٧٠)"، وهو ما يسمى الاستغراق فى الخطأ أو غرز المسمار.

لكن فيرن يغرز هذا المسمار فى نعش: نعش جنوبٍ تفكك ومات منذ زمن طويل؛ لأن رواية ***شمال ضد جنوب***، وذلك تفصيل لم يُقصد به هز الضمائر الصبيانية، لكنه لا يخلو من أهمية بالنسبة للمؤرخ، لم تُكتب أبداً خلال حرب الانفصال كما تحمل على الاعتقاد لهجتها "الملتزمة" وإعلاناتها الصاخبة. بل على العكس! فقد نشرها جول فيرن فى مجلة التربية عام ١٨٨٧، أى بعد ربع قرن من الحدث. تضفى هذه المسافة على تبشيره مذاقًا باليًا نسبيًا. ما أجمل وأطيب قضية الاتحاد تحت أشعة شمس الجمهورية الثالثة! لكن الجنوب حتى ذلك الوقت كان قد وُضِعَ تحت الإشراف و"أعيد بناؤه"، وماتت الإمبراطورية، واستقرت الجمهورية. هل كان جول فيرن يدرك "القضية الصالحة"؟ يرى أحد كُتَّاب المقدمات المتأخرين فى ***شمال ضد جنوب*** فرصة جديدة [لجول فيرن] فى أن يعبر عن نفسه بوضوح حول "تحرير وحرية الشعوب فى أن تقرر مصيرها بنفسها"(٧١). لا يسعنا القول إن فيرن قد انتهز هذه الفرصة على نحو كامل فى حقبة كان فيها حظ السلاح غير مؤكد، وكان فيها أصدقاء الشمال النادرون يعانون الأمرّين لإسماع صوتهم.

فى الحقيقة إن رواية ***شمال ضد جنوب*** هى تبكيت ضمير قلم، تعديل متأخر على

صورة سريعة مختلفة استخرجت من رواية أخرى، مجهولة تماماً، هى رواية ***مخترقو الحصار*** *Les Forceurs de blocus*، عولج فيها "موضوع" الانفصال فور وقوعه؛ فقد ظهرت الرواية فى المجلة فى شهر أكتوبر ١٨٦٥، قبل أن تنشر ضمن كتاب فى عام ١٨٧٠[٧٢]، وهى تروى حكاية أخرى مختلفة تماماً عن الرواية الصحيحة سياسياً ***شمال ضد جنوب***. إذ تضع الحرب الأمريكية تحت إضاءة مائلة لا تضىء المشهد الفرنسى الجماعى أقل مما تضىء اللوحة التى رسمها مانيه فى السنة السابقة على إثر معركة شربورج البحرية.

فى عام ١٨٦٥ بدا عنوان ***مخترقو الحصار*** عنواناً فصيحاً؛ فقد فهم الناس جميعاً أن المقصود هو حصار الموانئ الجنوبية من قبل البحرية الحربية الوحدوية، ولم ينس أحد أن هذا الإجراء الذى طبق بعنف قد وضع إنجلترا وفرنسا على حافة حرب مع الاتحاد، ويضيف المطلعون على الأمور أن نابليون الثالث شخصياً كان قد عبر حين لقائه بالسفير الكونفدرالى سليدل يوم ١٦ يوليو ١٨٦٢، عن أسفه لعدم إدانة وخرق هذا الحصار الذى خنق الكونفدرالية. ولا يعطى جول فيرن شكل الرواية لحرب لم يجرؤ الإمبراطور نفسه على إعطائه، بل إنه يضع على المسرح على نحو سياسى أشد الأمنية الأكثر ثباتاً لدى الديوان الإمبراطورى: الحرب ضد الشمال التى تخاض بالوكالة. لا وجود هناك منطقياً إذن لفرنسى واحد فى هذه القصة، ولا لأمريكيين كذلك. إن ***مخترقو الحصار*** هى رواية إنجليزية، تبدأ أحداثها فى ليفربول: ميناء ارتبط منذ زمن طويل بالمصالح الجنوبية، والذى يريد على الرغم من الحرب أن تستمر تجارة القطن بصورة مربحة أكثر من أى وقت مضى، ميناء يقف إلى جانب أصدقاء الجنوب تماماً؛ حيث بنيت فيه الألاباما سرياً تحت الرقم الرمزى "٢٩٠". الحصار الذى يتوجب اختراقه هو حصار شارلستون؛ فالكابتن البريطانى مدفوع باعتبارات تجارية جوهرياً، لكنه أيضاً يقول خطاباً معادياً للشمال بصورة عامة حول حرية الملاحة فى البحار والاعتداءات على حق الناس التى ارتكبها الاتحاد. ولما كان بطل المغامرة فهو يجر القارئ فى ممر يناصر الجنوب "موضوعياً"، لكن الوضع يتعقد (والتوازن يتحقق) حين يتبين أن مسافرة غامضة فى اللحظة الأخيرة هى فتاة أمريكية، عازمة هى الأخرى على الدخول فى شارلستون ولكن لتحرر فيها أباها، وهو ضابط من الشمال وسجين مهدد بالإعدام. سيُخترق الحصار، وستُعبأ السفينة بالقطن، وسيُحرر الأب - وستتزوج الفتاة الباسلة الكابتن الشجاع. والحدث الأخير، وهو الإفلات الدرامى من ميناء شارلستون، يكتسب أهمية رمزية خاصة.

لم يتم اختيار موقع شارلستون بالصدفة من قبل الروائى. لقد قلنا إن الطريقة

التى عومل بها مرسى شارلستون الرائع قد أدين بالإجماع فى أوروبا بوصفه عملاً "وحشيًا"(٧٣)؛ إذ لم تكتف حكومة الاتحاد فى الواقع بمحاصرة الداخل، وإنما أغرقت فيها "أسطولاً كاملاً من الحجارة"(*stone fleet*)، لقد اعتبر إغراق هذه البواخر المثقلة بالحجارة لإغلاق المنافذ آنئذ جريمة حربية حقيقية، ولم تقلّ الصحافة الفرنسية فى عنف إدانتها عن الصحافة الإنجليزية، بحيث إن الصحيفة الرسمية ***Moniteur*** سجلت "أسفها العميق" و"اشمئزازها"(٧٤). وليس من قبيل عدم الاهتمام اختيار جول فيرن مسرحًا لمغامرته مدينة "شهيدة" للكونفدرالية، لكن الأكثر رمزية أيضًا ولا شك هو الانتصار النهائى للكابتن جيمس بلايفير الذى غادر هذا الميناء الجهنمى محمّلاً بقطنه وحماه القادم تحت النيران المتصالبة لليانكى الراغبين فى إغراق مخترق الحصار والكونفدراليين الذين فهموا دوره فى هرب سجينهم.

يالها من ملحمة فى المهارة الرائعة والخطف الجميل وهى ترى من فوق باخرة بريطانية، هذه الملحمة من الحرب الأهلية! إذا كان قارئ جول فيرن يلمح فيها حرب الانفصال، فذلك من بعيد جداً وبواسطة المنظار، مثلما تأمل المتسكعون فى شوارع شربورج المعركة الأخيرة للألاباما. مجاز سياسى آخر للنظرة الفرنسية على الانفصال، يتجلى فى أن رواية ***مخترقو الحصار*** تستحق أن تسمى ***لا شمال ولا جنوب*** – مع عبارة تكتب فى صدر الكتاب: "أيها السادة الإنجليز، تفضلوا بالضرب أولاً!

هو ذا إذن الظرف الغريب الذى أعاد فيه الفرنسيون اكتشاف الولايات المتحدة: أثناء حلمهم بتفككها، وبعد نصف قرن من لا مبالاة شبه كاملة لو لم يمسها صوت توكفيل المتوحد، استعادت فرنسا اهتمامها بالجمهورية الأطلسية فى اللحظة التى بدت فيها هذه الأخيرة بلا أمل. لم يسبق أبدًا أن كتب فى الماضى بهذه الوفرة عن حق الولايات وامتيازات الحكومة الفدرالية، حول تطوير الاقتصاد فى "قسمى" البلد، حول الأحزاب ومسئوليها، وبالطبع حول كل الجوانب المادية والأخلاقية لحرب تعطى لأمريكا وجهًا جديدًا، عسكريا وفاتحًا. وفى هذا السجال الفرنسى الفرنسى الذى سادته القناعة بتلاشيها من على خارطة العالم كسبت الولايات المتحدة قوامًا عجيبًا لم يكن لأمريكا الرومانتيكية الروائية.

إن الحلم الخائب لتجزئة البلد خلف آثارًا فى فرنسا؛ فليس هناك ما هو أكثر إحراجًا من أمنية شريرة بقيت دون تحقق. كانت هناك خشية لم تتحدد بعد عبر كل السيناريوهات والتفصيلات التى لذ للصحافة الفرنسية وللدبلوماسية تصورها؛ فولايات

إعادة البناء المتحدة ستبدو على درجة من الروعة لاسيما وأن الجميع تقريبًا فى فرنسا كان مقتنعًا باختفائها. فى مثل هذه المحنة لا بد للشعب من أن يتحطم أو أن يتقوى: لم يتحطم الأمريكيون، وسرعان ما ظهر هذا الانتصار الذى حققوه ضد أنفسهم كما لو أنه مقدمة لمشاريع موجهة ضد آخرين.

حرب الانفصال إذن مرحلة مهمة فى عملية تبلور النزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا؛ فهى تعيد استنفار اهتمام الجمهور المترنح بمصائر الجمهورية الأطلسية. لقد انتهى الحديث عن "المسافة والبعد"؛ لكن القرب الجديد شكاك أكثر مما هو ودى. لم يحن بعد أوان العنف اللفظى؛ فاللهجة لهجة رجاء، يكاد يكون أحيانًا مشبوهًا أمام أضرار هذا الصراع الأخوى، سوى أنه كان من نتيجة النقاش على المستوى القومى الذى أثارته فى فرنسا، وتكاثر الحجج مع وضد، أن تكونت ترسانة سيمتح منها جيل ١٨٨٠. وسنرى آنئذ حججًا تنبعث فى نيران الجدل، غير مثمرة غالبًا، وأحيانًا معكوسة: مآخذ ضد الشمال وملامات للجنوب ستقذف بالكميات، وسيعاد استخدامها ضمن نقد شامل لهذه الولايات المتحدة التى "أعيد بناؤها" ضد كل التوقعات. وفى وجه الاتحاد المعادة صياغته، سنتذكر آنئذ تحذيرات سنوات الحرب ضد الانحراف السلطوى. وستعود الأطروحة المنتشرة منذ ١٨٦١ عن شمال لا ينتصر إلا لقاء ثمن تغير خطير فى طبيعته السياسية إلى السطح بقوة نبوءة تحققت، وستبدو معاملة المهزومين الجنوبيين التى اعتبرت جائرةً كعلامة نذيرة بعطش للسيطرة ما كان خضوع المتمردين وحده ليستطيع عزلها.

هوامش

(١) Charles Grayson Summersell, CSS *Alabama : Builder, Captain and Plans*, University of Alabama Press, s.d.

(٢) E. Manet, *Le Combat du Kearsarge et de l'Alabama*,1864, Huile sur toile, 134X127, Philadelphie, The John G. Johnson Collection.

(٣) Voir dans Manet, catalogue de l'exposition Galeries nationales du Grand Palais, Paris et Metropolitan Museum of Art, New York, Ed. de la RMN, 1983, la notice de Françoise Cachin, pp. 218-221.

(٤) "Barbey d'Aurevilly, Un ignorant au Salon", *Le Gaulois*, 3 juillet 1972, cité par F. Cachin, *ibid.*

(٥) Cham, Le Salon pour rire , *Le Charivari*, 1872 ; *ibid.*

(٦) Stop, *Le Journal amusant*, 23 mai 1872, *ibid.*

(٧) يبدو أن مانيه كان قد عرض لوحة *Le Combat du Kearsarge et de l'Alabama* فى واجهة مخزن جيرو – " بيالوترى، لوحات، وإفانتاى "، الواجهة نفسها التى عرضت فيها قبل ثلاثة عشر عامًا لوحة نانا التى رفضها المعرض. انظر حول هذا الموضوع O. Batschmann, Transformations dans la peinture religieuse , dans *Mort de Dieu, fin de l'art* (dir. Daniel Payot), Cerf, CERIT, 1991, p. 61, note 7, ainsi que Anne Coffin Hanson, Manet and the Modern *Tradition, New* Haven et Londres, Yale University Press, 1977, p. 111. ، وقد عرضت من جديد فى معرض ١٨٧٢ قبل أن تباع إلى نيويورك عام ١٨٨٨.

(٨) Warren Reed West, *Contemporary French Opinion on the Civil War*, Baltimore, The Johns Hopkins, 1924, p. 9.

(٩) Sainte-Beuve, cité par A. Billy, *Sainte-Beuve, sa vie et son temps*, t.II, pp.63-64.

(١٠) *Le Constitutionnel*, 26 décembre 1860, p. 1.

صحيفة أسسها آليتز Alletz فى الأول من يناير ١٨٤٩ وأدارها لامارتين Lamartine فى عام ١٨٥٠، ثم ما لبثت أن انضمت إلى معسكر قصر الإليزيه.

(١١) *Le Pays*, 22 novembre 1860.

(١٢) *Le Pays*, 29 décembre 1860.

(١٣) *Le Pays*, 21 décembre 1860.

(١٤) مذكرة سرية من نابليون الثالث إلى الجنرال فورى؛ استشهد بها فى:
P. Gaulot, *La Vérité sur l'expédition du Mexique*, Paris, Ollendorff, 1889, t. 1, p. 92.

(١٥) فى ١٠ نوفمبر، نقلت فرنسا اقتراحًا رسميًا لوزارة الخارجية للعمل ثلاثة مع روسيا للحصول من المتقاتلين على هدنة لمدة ستة أشهر.

(١٦) J. Bigelow, *Reteospections of an Active Life*, New York, The Baker & Taylr Company, 1909, vol. 1, p. 385.

(١٧) *Ibid.*, p. 252.

(١٨) *La Presse*, 24 juin 1863.

(١٩) Voir W.R. West, op. cit., ch. VIII, "From Gettysburg to the Close of the War" particulièrement pp. 130-131.

(٢٠) *Revue des Deux Mondes*, Vol. XXXV, p. 243-244, 1er septembre 1861, (E. Forcade).

(٢١) *Le Pays*, 31 janvier 1861 (Camille de la Boulée)

(٢٢) *Le Presse*, 8 juin 1863 (Eugène Chatard).

(٢٣) Weed to Bigelow, 27 juin 1863; J. Bigelow, *Retrospections...*, p. 23.

(٢٤) *Journal des débats*, 28 septembre 1861.

(٢٥) *Journal des débats*, 15 août 1861 (F. Camus).

(٢٦) نجد هذا النقاش فى الفصل الثامن.

(٢٧) La Patrie, 25 mars 1861.

(٢٨) Slidell to Benjamin, nº 24, 21 janvier 1863 ; cité par W.R. West, *Contemprary French Opinion...*, p.108.

(٢٩) *Le Constitutionnel* du 13 décembre 1861، كانت الصحيفة وهى لا تزال غير مستسلمة تمامًا للتخلى عن حبها لأمريكا، تعدّ لانضمامها للخط الرسمى بحديثها عن "قرابة الجنس" و"تقاليد الأصول التى توجد حتى فى أسماء مختلف المحافظات فى الجنوب" – وهى قرابة يتوجب "الاستماع" إليها [كذا] حين "تظهر ضرورة اتخاذ موقف على نحو واضح".

(٣٠) E. De Leon to Benjamin, 19 juin 1863; cite par Bigelow, *Retrospection...*, t. II, p.20

(٢١) Hotze to Benjamin, nº 38, 12 mars 1864; cite par W.R. *West, Contemprary French opinion...*, p. 111.

(٢٢) *Le Constitutionnel*, 7 mai 1861.

(٢٣) W.R. West, Contemprary French opinion..., p. 65.

(٢٤) *Le Constitutionnel*, 22 mai 1862.

(٢٥) *La Revue contemporaine* (J.-E. Horn), 31 juillet 1862, pp. 425-426.

(٢٦) *La Presse*, 8 octobre 1862.

(٢٧) *Le Constitutionnel*, 8 octobre 1862.

(٢٨) E. De Leon, *La Vérité sur les Etats confédérés d'Amérique*, Paris, E. Dentu, 1862, p. 25.

(٢٩) *Ibid.*, p. 29.

(٤٠) *Ibid.*, p. 30.

(٤١) *Ibid.*, p. 27.

(٤٢) *Le Pays*, 20 décembre 1861.

(٤٣) E. De Leon, *La Vérité...*, p. 31.

(٤٤) *Ibid.*, p. 13.

(٤٥) *Ibid.*, p. 32.

(٤٦) *Ibid.*, pp. 5-6.

(٤٧) E. De Leon to Benjamin, 19 juin 1863 ; cité par J. Bigelow, *Reflexions...*, t. II, p.20

(٤٨) E. De Leon, *La Vérité...*, p. 30؛ بتلر، حاكم المنطقة بعد السيطرة على النوفيل أورليان، كان متهمًا بالفظاظة تجاه السكان.

(٤٩) *Ibid.*, p. 15.

(٥٠) *Ibid.*, pp. 30-31.

(٥١) *Ibid.*, p. 30.

(٥٢) *Le Constitutionnel*, 13 décembre 1861.

(٥٣) *La Patrie*, 12 janvier 1864, p. 1.

(٥٤) Dr. Alfred Mercier, *Du Panlatinisme*, Paris, Librairie Centrale, s.d.[1863.

(٥٥) *Ibid.*, p. 5.

(٥٦) *Ibid.*, p. 7.

(٥٧) *Ibid.*, pp. 9-10.

(٥٨) مع ٢٤٩ مليون من السكان فى عام ١٩٩٠، يتجاوز الواقع إلى حد بعيد هذه التوقعات التى تعتبر نفسها متشائمة.

(٥٩) *Ibid.*, p. 12.

(٦٠) E. De Leon, *La Vérité...*, p. 31.

(٦١) Dr. Alfred Mercier, *Du Panlatinisme*, p. 19.

(٦٢) *Ibid.*

(٦٣) *Ibid.*, p. 28.

(٦٤) *Ibid.*, p. 30.

(٦٥) *Ibid.*, p. 28.

(٦٦) J. Bigelow, *Rellexions ...*, p. 17.

(٦٧) Dr. Alfred Mercier, *Du Panlatinisme...*, p. 17.

(٦٨) *Ibid.*, p. 28.

(٦٩) *Ibid.*, p. 20.

(٧٠) J. Verne, *Nord contre Sud*, [1887], Hachette, 1966, p. 403.

(٧١) Charles-Noêl Martin, J. Verne, *Nord contre Sud*, éd. cité. Préface, p.vii., يفسد هذا " الوضوح " بعض الشىء قاع عنصرى ملحّ؛ فشخصية الزنجى المطالب بغباء وشخصية وكيل الأعمال العنصرى لكنه الطيب (السيد بيرى) لا تعطيان على وجه الدقة فكرة عن تحرر طبيعى.

(٧٢) وقد ألحقت برواية ***الجزيرة العائمة*** *Une ile flottante* التى تفوقت عليها فى استثارة الاهتمام.

(٧٣) استخدم وصف "وحشى" من قبل صحيفة *Le Constitutionnel* الصادرة فى ١٢ يناير ١٨٦٢.

(٧٤) "استقبل الفعل الذى أشارت إليه برقيات نيويورك سواء فى إنجلترا أو فى فرنسا بشعور عميق من الأسف والاشمئزاز"؛ انظر: *Le Moniteur universel*, 11 janvier 1862.

الفصل الثالث
مس ليبرتى وأعداء التقاليد

– لديكم إذن أرستقراطية ؟
– واحدة ؟ بل لديهم اثنتان!
فيكتوريان ساردو، العم سام.

كانت حرب الانفصال إذن بالنسبة لنزعة معاداة أمريكا لحظة ترسب مهمة، وقد أكثر المراقبون الفرنسيون من التحليلات بالغة الاستخفاف بهذا المعسكر أو ذاك، باعتباره رد فعل على أحداث ما وراء الأطلسى وحسب روزنامة كل منهم السياسية. نقد وإدانة يتصالبان خلال أربع سنوات، ليغيّرا – على نحو صامت، ولكنه عميق – كل الصور عن الولايات المتحدة.

ومع ذلك فلا بد من مرور زمن – عشرين عامًا – لكى يظهر هذا التغير فى الصور بكل حجمه واضحًا، ذلك لأن انتباه الفرنسيين فى الوقت الحاضر ومنذ انتهاء المعارك بين الاتحاديين والكونفدراليين يتوجه نحو مكان آخر، وقد استنفره الوضع الأوربى كلية؛ ففى عام ١٨٦٦ حدثت يقظة السوديت الصعبة وصدمة وحدة ألمانية التى تمّت بعملية جراحية، وكذلك أيضًا التدخل الفرنسى فى إيطاليا المعترض عليه لصالح البابا ضد قوات غاريبالدى، كما أننا نغض النظر عن القضية المكسيكية المفجعة بحرج؛ ذلك أن عيون فرنسا تحدق من الآن فصاعداً فى بروسيا، أى من حيث سيأتى العدو. لقد أعادت هزيمة ١٨٧٠ التى تلتها كومونة باريس وسحقها الحرب الأهلية إلى فرنسا. أما المذابح الأخيرة فى الصراع الأمريكى فإنها تختفى ببساطة وراء هذه المأساة الأهلية. لقد ولى زمن الفضول البصاص نسبيًا إزاء حرب بعيدة وخطط لمشاريع وهمية وضعت فى سكون الصالونات الباريسية؛ فهناك موضوعات أخرى أشد إلحاحًا من مصير ولايات الجنوب تستقطب الألباب والقلوب؛ ذلك أن ذكرى أطلنطا المقصوفة بالقنابل أو المزروعات المحروقة تشحب أمام نار باريس الثائرة.

جروح كثيرة، وأيام قادمة مجهولة، أثارت الأعصاب القومية. وإذا لم يعد لدى الفرنسيين الوقت للاهتمام بأمريكا إعادة البناء، فإنّ شعورهم بالمرارة لا يقل من جراء الجروح الرمزية التى أوقعتها بهم حين تكاثرت مثلاً فى عام ١٨٧٠ المظاهرات المؤيدة

لبروسيا فى المدن الأمريكية التى تسكنها أكثرية ألمانية من السكان، أو ما هو أسوأ أيضاً حين يهنئ الرئيس أوليس جرانت غليوم الأول ببرقية على ولادة إمبراطورية أعلن عنها فى قاعة المرايا فى قصر فرساى فى فرنسا المنهكة والمحتلة والمهانة. وسواء أكان ذلك رعونة أم ركلة غبية فإن الفرنسيين لن يغفروا عما قريب هذه البلادة فى الأحاسيس نحو مصائبهم.

غروب نموذج، وانتصاب وثن معبود

تتجلى مفارقة سنوات ١٨٧٠ العشر فى أن ظرفاً سياسيا مواتياً مسبقاً لإعادة اكتشاف النموذج الأمريكى قد أدى إلى طلاق شبه عام لهذا النموذج من قبل من كانوا هم أنفسهم أشد المدافعين عنه حماساً فى فرنسا: الملهمون الجمهوريون للنظام الجديد، وفى مقدمتهم جامبيتا **Gambetta**.

ما إن تم تحرير الأراضى الفرنسية المقتطعة من "المحافظتين الضائعتين"، الألزاس واللورين (أو بالأحرى تسديد ثمنهما بالفرنك الذهبى)، حتى طرحت بحدة مسألة المؤسسات الواجب منحها لفرنسا، وأعادت هذه المسألة الولايات المتحدة إلى مقدمة الأحداث الراهنة. كان "حزب واشنطن ولنكولن" على امتداد الفترة الإمبراطورية المرجع الأكبر للمعارضة الجمهورية، لكن هؤلاء الجمهوريين لم يكونوا أكثرية فى مجلس الأمة المنتخب عام ١٨٧١، إلا أنه ينضاف إلى هيبتهم بوصفهم معارضى نابليون الثالث الرصيد الذى اكتسبوه بوصفهم منشطى الدفاع القومى. وكان من الممكن أن نتوقع أن يضعوا هذه الهيبة وهذا الرصيد فى الميزان، وأن يدافعوا بقوة عن دستور مستوحى من *نموذج الجمهورية* ***Model Republic***. هل يمكن للنواب المحافظين أنفسهم أن يبقوا بلا مبالاة إزاء الاستقرار المثالى للمؤسسات الأمريكية التى بلغت الآن من العمر مائة عام تقريباً وبرهنت عن فاعليتها ببقائها حية بعد أزمة الانفصال؟

لكن الأشياء ستجرى بصورة مختلفة تمام الاختلاف على مرأى من محبى أمريكا الذين لم يروا تغير اتجاه الرياح. لقد كان من الممكن لحادث سياسى مسرحى غريب أن يحذرهم. كان مسرح البولفار فى تلك الحقبة أفضل مقياس للرأى العام الباريسى، وكان فيكتوريان ساردو هو الذى يسطر عليه؛ فقد كتب غداة الهزيمة مسرحية هزلية تحت عنوان *العم سام*، كانت هجاءً عنيفاً للولايات المتحدة، وكانت الهجمة من القسوة بحيث إن تيير **Thiers** منع عروض المسرحية التى "يمكن أن تجرح بقوة شعباً صديقاً"(١). على أنها ستقدم أخيراً فى مسرح الفودفيل يو ٦ نوفمبر ١٨٧٣.

يتعمق ساردو بصورة واضحة أكثر من سابقيه؛ فهو لا يكتفى بأن يضع على خشبة المسرح بعض النماذج الأمريكية المضحكة أو السمجة. ذلك أن مسرحيته تسوط كيفما كانت طريقة الحياة والمؤسسات، وتدين فساد الصحافة وخيانة عالم الأعمال، وتفضح الكذبة الديمقراطية ومهزلة "الأديان" التى يطلقها النصابون. جهل، وشراسة، ووقاحة مبتذلة: تلك هى أمريكا. "- عندما أفكر أنه وُجِدَ حيوان لاكتشافها!" هذا الرد يعطى فكرة عن لهجة المسرحية. لقد صار النموذج مرفوضاً. تقدم هذه الرسالة منذ المشهد الأول: تصرخ البطلة الفرنسية للمسرحية فى وجه الأمريكان قائلة "لم نعد نملك إذن على الإطلاق هوس أن نهديكم لأنفسنا كنموذج"[٢]. تأنيب نذير صُفِّقَ له على المسرح فى عام ١٨٧٣، وسيُصَفق له من جديد بعد سنتين من ذلك على مقاعد المجلس.

سيكون "انبعاث النموذج" الأمريكى فى فرنسا ما بعد الإمبراطورية، وهو منطقى ومتوقع، "عابراً" على نحو مدهش[٣]؛ فقد انتهى منذ ١٨٧٥، هجوم الجمهوريين المعتدلين من "المدرسة الأمريكية" خلال المناقشة الدستورية بالفشل، وهو أيضاً فشل شخصى لزعيمهم، إدوار رنيه لوفيفر دو لابولى Edouard René Lefèbvre de Laboulaye. ولد فى ١٨١١، وهو حفيد لسكرتير لويس السادس عشر، وكان قانونياً ومؤرخاً، دخل الحلبة السياسية تحت تأثير ثورة ١٨٤٨ وسمى فى عام ١٨٤٩ أستاذ التشريع المقارن فى الكوليج دو فرانس، وكان فى عهد الإمبراطورية أحد أبرز الناطقين باسم النزعة الجمهورية المعتدلة ذات الوحى الليبرالى. ومنذ ذلك الحين تمسك بالدعوة لاعتماد النموذج الأمريكى ضد مصادرة السيادة التى يقوم بها النظام الإمبريالى، بالطبع، وكذلك أيضاً ضد جذرية التقاليد الثورية الفرنسية منذ سييس Sieyès. ففى عام ١٨٦٣ نشر كتابيه: ***الدولة وحدودها*** ***L'Etat et ses limites*** ***والحزب الليبرالى*** ***Le Parti libéral***، وهما كتاباه الرئيسيان والمذهبيان، وفى عام ١٨٦٥ إنما تصور المشروع الغريب المتمثل فى إهداء تمثال الحرية للأمريكيين بمناسبة عيد ميلاد ثورتهم. والمدهش ليس فى فشل لابولى فى خطته التى لم يكن فيها ما يخالف المعقول فى أن يجعل فرنسا التى ولدت من سيدان تتبنى دستوراً جمهورياً يستوحى النموذج الأمريكى بليونة، بل فى أنه نجح فى مشروع أشد غرابة تمثل فى وهب أمريكا تمثالاً ضخماً صنع فى فرنسا. ما إن انتخب لابولى فى المجلس النيابى عام ١٨٧١ حتى بدأ على الفور حملته لصالح مؤسسات على الطريقة الأمريكية، وتوجه إلى الجمهور ناشراً منذ شهر مايو١٨٧١ كتابه ***الجمهورية الدستورية*** ***La République constitutionnelle***. يذكر لابولى فى هذا النص البرامجى الذى ظهر فى صورة ردّ على أوجين يونج Eugène Yung، مدير صحيفة ***ليون*** ***Journal de Lyon***، بأن الأمريكيين هم "المنظمون الكبار للديمقراطية

الحديثة"(٤). ليس هناك أى شك فى ذلك فى نظره: "إن الجمهورية التى تناسب فرنسا هى الجمهورية التى تشبه حكومة أمريكا وسويسرا(٥)." والأفضل أمريكا... ففى كتابه **موجز دستور جمهورى** ***Esquisse d'une constitution républicaine*** الصادر فى عام ١٨٧٢، يقابل النموذج الأمريكى ولصالحه بنموذج المدرسة الثورية الفرنسية، دون أن يحسم لابولى على كل حال مسألة الحكم الرئاسى. وفى عام ١٨٧٣، يقوم بدور مقرر لجنة الثلاثين المكلفة بفحص مشروعات القوانين الدستورية، كما يشارك أيضًا وادينجتون **Waddington**، رئيس مجلس الوزراء القادم، مسئولية دراسة مقارنة للدساتير الأوروبية والأمريكية. فى بداية عام ١٨٧٥، وفى حين كانت ساعة القرار تقترب، كان إدوار لابولى قد وضع إذن سلسلة من التمهيدات يمكن أن تجعله يأمل فى نهاية تتناسب ونظراته للأمور، لكن الاقتراح الذى يقدمه فى ٢٩ يناير يرفض بأكثرية ٣٥٦ صوتًا مقابل ٣٣٦ صوتًا. وقد صيغ تعديله على هذا النحو: "تتكوّن حكومة الجمهورية من مجلسين ومن رئيس". وفى اليوم التالى انتزع تعديل والون **Wallon** الأكثرية كما نعلم بصوت واحد، وأسس الجمهورية على هذه العبارة: "ينتخب رئيس الجمهورية بأكثرية أصوات مجلس الشيوخ ومجلس النواب المجتمعين ضمن المجلس القومى".

لقد رفضت أكثرية النواب فرضية حكم رئاسى على الطريقة الأمريكية نفسها مع تعديل لابولى. يشير جاك بورت إلى دلالة هذا الرفض: "ليس من غير المهمّ أن يكون تعديل لابولى [...] على شكليته وافتقاره للقيمة، قد رفض، باعتباره شديد القرب من المثل الأمريكى الذى لا يمكن لاسم لابولى إلا أن يرتبط به ارتباطًا وثيقًا(٦)." تحليل يؤكده هجوم جامبيتا بعد عدة شهور من ذلك. لقد أحرز زعيم اليسار الجمهورى، وهو محب كبير لأمريكا فى ظل الإمبراطورية، نجاحًا حقيقيا حين استهزأ بالنموذج الأمريكى السابق: "لقد استشهد بمجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة الأمريكية بصورة مجلجلة، لا بل وصل الأمر إلى حد جعلٍ أمريكىٍ (ضحك على اليسار) أشك فى أن يكون من منطقة السين والواز (ضحك عام) يكتب استشارة حول ضروب التشابه التى يمكن أن توجد بين مجلس الشيوخ الفرنسى ومجلس الشيوخ الأمريكى... ليس هناك أى نوع من المقارنة بين أمريكا وفرنسا، وفى هذه المرة كان من الأفضل أن نقوم بالذهاب ببساطة من باريس إلى فرساى بدلاً من الذهاب من باريس إلى أمريكا (موافقة وضحك على اليسار)(٧)".

ودون أن نجعل هذه الحلقة البرلمانية تقول أكثر مما يمكن أن تكشف عنه، يمكننا الحكم على هذه المسافة التى اتخذت من النموذج الأمريكى بأنها ذات مغزى، وعلى

الرضا المعلن عنه بصخب على مقاعد اليسار بأنه كشاف. حين وضع الضاحكين إلى جانبه على حساب الولايات المتحدة، بل وأكثر على حساب متملقيها - وفي مقدمتهم نواى Noailles ولابولى - Laboulaye، فقد أتاح جامبيتا استشعار حركة أشد ضخامة: تراجع اليسار الجمهورى بالنسبة "للجمهورية النموذج" التى طالما مدحها فى عهد الإمبراطورية. هل صار الجمهوريون جاحدين لأمريكا ؟ سنبالغ لو قلنا ذلك. يبقى أن الروابط الثقافية والعاطفية تنحلّ، فطلاق الولايات المتحدة بوصفها "نموذجًا" ينبئ بتراجعات أكثر جذرية: ففى مقدمة صفوف المعادين المبكرين لأمريكا سنجد منذ عام ١٨٨٣ شخصًا باسم فريديريك جاياردييه، وهو جمهورى تراجع عن حبه لأمريكا إلى درجة تخصيص كتاب كامل ليحرق فيه ما كان يُجلّه من قبل. وسواء أكانت من آثر المنبر أم مناورة تكتيكية فإن خطبة جامبيتا لا تخلو من دلالة على منعطف غير ظرفى - وهو منعطف يعززه فى اللحظة نفسها اختفاء المرجع الأمريكى من أدب دعاية التيار الجمهورى. هذا لا يعنى القول إن الولايات المتحدة ستصير من الآن فصاعداً بلا أصدقاء ولا أبطال على المشهد السياسى الفرنسى، لكن هؤلاء المخلصين لم يعودوا يمثلون سوى مجموعة صغيرة أرستقراطية من الجمهوريين المحافظين تختفى شخصياتها البارزة واحدة بعد الأخرى، وسيتوفى لابولى نفسه فى عام ١٨٨٣ قبل أن يرى حلمه الكبير فى خليج نيويورك قد تحقق.

مصيبة مس ليبرتى

إن النجاح الكبير والوحيد لهذا التجمع الصغير من محبى أمريكا هو هذا التمثال الشهير لبارتولدى الذى تجنّس باسم مس ليبرتى: نجاح ضخم، لكنه حافل بالغموض.

يبدأ الغموض فى فرنسا؛ فعلى امتداد الحملة الفرنسية للاكتتاب، ثم الاحتفالات، ساد الغموض فى الخطابات الرسمية التى كانت تتوزع بين الثناء على الحرية بوصفه مبدأ، وتمجيد الجمهورية بوصفها نظامًا، وإطلاق الصداقة الفرنسية الأمريكية الذابلة والدفاع عن التبادل الحر فى مجال التجارة والصناعة(٨). كما نرى، فإن للتمثال كتفين عريضين. وإذا كانت الفكرة التى أطلقت خلال مأدبة ٢١ مايو ١٨٨٤ لإقامة تمثال مشابه عند مدخل قناة باناما القادمة، تجد تفسيرها فى حلول فرديناند دو ليسبس محل لابولى على رأس الاتحاد الفرنسى الأمريكى، فإنها تسهب أيضًا فى تفسير التقلبات الرمزية للمسئولين عن المشروع.

ويستمر الغموض ويتفاقم مع الاستقبال الذى خصّت به أمريكا أكثر الهدايا التى لم يسبق لأمة أن أهدتها لأمة أخرى إرباكًا. وقد صار نَصبُهُ على الأرض الأمريكية شديد الصعوبة بسبب رفض الكونجرس، ثم السلطات النيويوركية، تحمّل أعباء بناء القاعدة. ويبين كاريكاتير أمريكى فى عام ١٨٨٤ التمثال فى شكل عجوز منهك (يشبه بصورة غريبة فولتير عجوزًا وقد نحته بيغال)، جالس على صخرة بدلوز أيلاند Bedloe's Island، فى وضع إحباط كامل. وعلى قدميه، معمارى ينهمك كيفما اتفق من حول كتلة مسماة "حجر الأساس". لا يحمل شرح الرسم القارئ على التفاؤل: "تمثال الحرية لا يزال ينتظر بعد مرور ألف عام[٩]".

لن ينتظر طويلاً؛ فبعد سنتين، فى ١٨٨٦، ستقام حملة اكتتاب قومية وصحفية سيبرز خلالها بوليتزر تسمح له بالوقوف على قدميه، لكن إذا أثارت هذه المغامرات المحرجة قريحة الرسامين الأمريكيين الذين قدموا التمثال فى هيئة امرأة بائسة، أو متسولة، أو متشردة، فإنها لم تُضحك الفرنسيين. إن جماعة محبى أمريكا التى يديرها لابولى، بإهدائها للأمريكيين عربونًا للعاطفة الفرنسية بمثل هذا التفاوت، قد خاطرت مخاطرة كبرى: رؤية السعداء الذين وجهت لهم الهدية يشحبون أمامها. لا شىء يبدو أكثر شؤمًا على الحب من هدية يُساء قبولها. لما كانت قد ولدت من إحباطات ليبرالى فرنسى فى عهد الإمبراطورية، وأهديت من قبل جمهورية لم يصلب عودها بعد إلى "أخت" وهمية بعيدة وغير مبالية، لا تلخص مس ليبرتى برنامجًا أيديولوجيًا (وغامضًا فوق ذلك) فحسب، بل إنها تجسد على نحو يثير الإعجاب الحب كما كان يعرّفه جاك لاكان: الحب هو الذى يقوم على "إعطاء ما لا نملك إلى شخص لا يريده".

لم تكن البلبلة حول تمويل القاعدة قد انتهت حين قرر بارتولدى واللجنة الفرنسية تغليف التمثال مهما كان الثمن وشحنه باتجاه نيويورك. ولم نكن بعيدين عن الانقلاب من الهزل البيروقراطى إلى المأساة الدبلوماسية، ولو لم يتم تدارك الأمور فى آخر لحظة، ولو لم تُغطِ الاكتتاباتُ الأمريكية عجزَ السلطات، ولو لم يشترك كليفلاند نفسه، هو الذى صوّت ضد تخصيص المال لبناء القاعدة بوصفه حاكم نيويورك، بتدشين التمثال بصفته الجديدة كرئيس الولايات المتحدة، لكان الإنذار حاميًا، ولكان موقف أمريكا الرسمية غير مفهوم، ولما احتمل فى فرنسا إلا بنفاد صبر. ولما كانت مس ليبرتى قد صممت لتخليد "التفاهم الأخوى بين الجمهوريتين"، كما يعلن (بالفرنسية) الشريط المعلق على قوس النصر الذى أقيم فوق برودواى على طريق الموكب التدشينى، فإنها ستصير بعد عدة سنوات من استقرارها فى نيويورك موضوع احتجاج فرنسى ضد أمريكا؛ فمن كل هذه المغامرة لا يحتفظ إدمون جوهانيه، مراسل الفيجارو، إلا

بشحّ الكونجرس و"الشتيمة التى وُجّهت لفرنسا من قبل نواب ينكرون الجميل تجاه أمة أسهمت بقوة شديدة فى الاستقلال الأمريكى"(١٠). ويسخر صحفى آخر، إميل باربييه، وهو يدفع بالتشهير المتقزز بعيداً، من التمثال نفسه، "هذه اللعبة الفنية الضخمة التى تتعزز بوظيفة نافعة" (مادامت تقوم بدور منارة)، ويتهكم على "الفكرة الحاذقة" التى قادت فرنسا "لتحزر الذوق الأمريكى" عندما اختارت هذه اللهوة المخيفة(١١). إنّ المبعوث البرونزى للأمة الكبرى، أى حصان طروادة السلمى المسبوك لإدخال فرنسا فى قلب المدينة الأمريكية، لم يكن فى نظر باربييه عام ١٨٩٣ سوى كبش ضخم جدير بسوق سينسناتى: أحد هذه الأشياء المربكة التى نهديها لعمّةٍ فى الأرياف ذات ذوق مشئوم صراحة.

ربما كان تمثال بارتولدى قد وصل بكل بساطة متأخراً جدا، متأخراً جدا بالطبع للاحتفال بعام ١٧٧٦، كما كان يمكن للابولى أن يتمنى، متأخراً جدا أيضًا للاحتفال بالذكرى الاستدراكية التى أرادتها اللجنة الفرنسية: ذكرى معاهدة ١٧٨٣ التى وضعت حدا لحرب الاستقلال. وحين دشن فى ٢٨ أكتوبر ١٨٨٦، فإنه لم يندرج فى النهاية ضمن أى احتفال تذكارى، وكانت الشعائر الرديئة التى أحاطت انتقال ملكيته (الخطابات، المواكب، اللوازم الغنائية) تملأ هذا الفراغ بصورة سيئة، لكن المجاز تأخر أيضًا من الجانب الفرنسى عند خيال سياسى جمهورى لم يعد يجد فيه ما يستثمره. بارتولدى الألزاسى المبلبل من هزيمة ١٨٧٠، والمدافع عن كولمار فى الحرس الوطنى، ورفيق جاريبالدى الذى أرسلته حكومة تور لتمثيلها لديه، كان قد تخيله يطأ أصفاداً محطمة، لكن لابولى سيفضل رؤيته يحمل موائد الدستور الأمريكى(١٢). لا شك أن هذه الحرية قريبة بعيدة للمقاتلة الجميلة على المتاريس التى رسمها دولاكروا. هذه الفتاة الهائلة لها من العمر ما لرسامها الذى صممها فى عهد الإمبراطورية، وكذلك أيضًا عمر العجوز الكبير الذى سيقوم بزيارتها زيارة رسمية قبل رحيلها: الشاعر القومى، صديق أمريكا الدائم، فيكتور هوجو.

فى ٢٩ نوفمبر ١٨٨٤، يدخل فيكتور هوجو - وقد صار شديد الضعف - بصحبة حفيدته جان فى مبانى جاجيه جوتييه، فى شارع شازيل. قام بهذه الزيارة أو هذا الحج من قبله كثر: وزراء وسفراء ووجهاء من كل المستويات وحتى الرئيس جريفى، ولكن فى هذا اليوم، وفى اللحظة التى قام بها الشاعر بعد أن ارتقى بصعوبة السلم الداخلى للتمثال، بالنفاذ إلى الطبقة الثانية من البناء، إنما تم اللقاء وجهًا لوجه. كل واحد شعر بذلك وصاح شخص من بين الجمهور المحتشد صارخًا: "عظيمان يتبادلان النظر"(١٣). إن مجاز بارتولدى جيد فى الواقع، تمثال ضخم معاصر لهذا الجوهر

المعاصر، الأخت المسبوكة لهذه الهويات الضخمة- الحرية، العدالة، المستقبل- المطيعات لساحر جيرنيزى Guernesey، والتى جاءت تلبى نداءه لتطرق على الموائد الدائرية مواقف القدر التى أعيد ترميزها بواسطة الموازين الشعرية. توفى لابولى فى العام الفائت، أما بارتولدى فهو حى يرزق، لكنه رجل وسيط بين البشر والأرواح أكثر منه رجل رسالة، لاشك فى أنه يحب الحرية بل ربما أمريكا أيضًا، لكن التماثيل الضخمة هى التى تستهويه فى النهاية، ولم يتردد فى عام ١٨٦٩ فى أن يقترح واحداً منها يماثل مس ليبرتى لصديقنا الخديو لإنارة مدخل قناة السويس... لا، حتمًا، لم يبق من أجل القيمة الرمزية الإضافية، ولإعطاء بعض المعنى لكثير من المواد، إلا واحداً هو هذا - العجوز هوجو.

إنه يعرف مهنته كنبىٍّ؛ فقد ذهب ورأى وتكهن. " قلت وأنا أرى التمثال: - البحر، هذا الهائج الكبير، يلاحظ وحدة الأرضين الكبيرتين الساكنتين. طُلِبَ إلىَّ أن أترك هذه الكلمات محفورة على القاعدة." هو ذا ما يسجله فى الغداة فى يومياته، مع الشعور بواجب أتمَّ القيام به(١٤).

مات هوجو بعد عدة أشهر هو الآخر قبل التتويج النيويوركى. إنه إذن التمثال اليتيم لجيل نزل فى القبر هو الذى ينتصب من الآن فصاعداً فى مواجهة مانهاتن كعلامة على أرض مستريحة. لقد مات دون أن يعرف بالطبع أن جهده الأخير فى النقش لن ينفذ كما لن تحفر أبداً فى أسفل التمثال الكلمات التى أوحى بها إليه. مات دون أن يعرف أن شخصًا آخر - امرأة أخرى - سيكون لها شرف المنقوشة الكتابية، وأن هذه المنقوشة ستدخل التمثال، ناسية فرنسا، فى مسار رمزى جديد. إن أشعار الشاعرة إيما لازارو Emma Lazarus المنقوشة على القاعدة لم تعد تجعل من تمثال بارتولدى ضامن الرابطة الفرنسية الأمريكية بل الألوهة الحامية لفقراء البلدان جميعًا، الأم الطيبة للمهاجرين المكدّسين على مسافة عدة أمتار، على إليس أيلاند Ellis Island. "Give me your poor, your Wretched.."دع فقراءك وبؤساءك يأتون إلىّ. كانت إيما لازارو، إذ تحتفل بالفقير، أكثر هوجوية من هوجو العجوز نفسه الذى أهدى التمثال إلى تحالف الأمتين. وكان على أشعارها التى بات يحفظها تلامذة أمريكا جميعًا مع ذلك أن تختم الانفصال بين مس ليبرتى تجنّست بسرعة وبين بلدها الأصلى. وبما أن تمثال بارتولدى أشد ليونة بصورة سميولوجية مما يبدو عليه فى مشده المصهور، فإنه لم يمثل وقتًا طويلاً "التفاهم الأخوى بين الجمهوريتين". وبما أنه يجامل مواطنيه الجدد، فإنه سرعان ما ترك لهم أمر تقرير معناه.

إذا كانت الوعود لا تلزم، كما نعلم، سوى من يتلقاها، فإن الهدايا لا تلزم إلا من يهديها، ولم يكن الجهد الدائب الذى بذله لابولى وأصدقاؤه ولا شك يهدف لاستعادة رأى عام أمريكى غير مبال بفرنسا بقدر ما كان يتطلع إلى أن ينعش لدى الفرنسيين عاطفة غير ثابتة ومترددة أصلاً نحو "الجمهورية الأخت" القديمة؛ فوراء هذه الهدية التذكارية هناك القلق الأصم من انكفاء الحب الفرنسى الأمريكى.

لم يكن التمثال الكبير قد غادر أرض مولده حتى دخل المسرح أوائل أعداء التقاليد: أولئك الذين سيتخدون أسلوب الشراسة فى الكشف عن انعدام العلاقة الفرنسية الأمريكية، وفى قول بطلانها وتضليلها. فى بداية سنوات ١٨٨٠ هذه أعاد الاستقرار السياسى لفرنسا الجمهورية الولايات المتحدة إلى أقلام الكتاب والرحالة. يمكننا أن نتوقع عودة ودية، تقريظية، وفى أقل الأحوال متفهمة وفضولية. فى حين أن نغمة أخرى تبدأ منذ هذه اللحظة فى فرض نفسها: مجموعة أجراس غريبة معادية لأمريكا تختلط فيها نبرات غير منتظرة تهيئ ناقوس الخطر فى عام ١٨٩٨.

تتجسّد هذه اللحظة الفاصلة التى انفك فيها السحر أصلاً واستلت العداوة، فى شخصيتين متناقضتين ومتكاملتين: شخصية فريدريك جايارديه Frédéric Gaillardet وماندا جرانسىMandat-Grancey. لاشىء مشترك بين رجل الشارع والبارون. لاشىء سوى معاداتهما المبكرة لأمريكا على وجه الدقة. كان جاياردیه وماندا جرانسى بوصفهما رائدين غامضين لموجة العداوة القادمة، أول من أهدى الجمهور الفرنسى على عدة مئات من الصفحات (كل منهما) صورة تتّهمُ أمريكا المعاصرة، وكذلك إعادة نظر سلبية كلها عن العلاقات الفرنسية الأمريكية. ولما كانا مجادلين وبهلوانيين بماض وبقناعات متعارضة تمام التعارض فإن هذين الرائدين لا يزالان مثاليين فى ما يقدمانه منذ منتصف سنوات ١٨٨٠، ومثلاً كاملاً عن التقارب بين اليمين واليسار الخاص بالنزعة الفرنسية فى معاداة أمريكا.

يمكن أن تبدو لغة انكفاء الحب عاطفية ومجازية على نحو مفرط، حين يتعلق الأمر بالعلاقة بين الأمم، ومع ذلك فإنها هى اللغة المستخدمة بإلحاح من قبل أوائل الثالبين المنتظمين للولايات المتحدة - ولاسيما جاياردیه، هذا الذى خيبت الأمريكانية أمله. لقد ظهر كتابه ***الأرستقراطية فى أمريكا*** ***Aristocratie en Amérique*** فى عام ١٨٨٣. الإشارة شفافة والطموح معلن: تصحيح توكفيل وإلغاء الصورة الإيجابية التى أعطاها عن أمريكا، لكن كتابه الكبير - والحق يقال - ليس على مستوى هذا الطموح

الكبير، كما أن كلماته الجارحة لا تسيء أبداً إلى ضحيته الشهيرة. على أنّ كتاب ***الأرستقراطية فى أمريكا*** لم يلق النجاح الذى كان ينتظره جاياردية الذى كان العنوان الوحيد الذى خلفه للمستقبل (وسيبقى) أنه وقع مع ألكسندر دوما قبل نصف قرن من ذلك عملاً مربحًا بعنوان ***برج نيل*** ***Tour de Nesle***. ومع ذلك يستحق كتابه أن ينبش لثلاثة أسباب على الأقل:

الأول أنه يجمع وينظم للمرة الأولى مجموعة كاملة من المآخذ التاريخية والسياسية، بل وكذلك الثقافية التى لن تكف فيما بعد عن أن تُفَصَّل من قبل المناظرين الفرنسيين ضد الولايات المتحدة. إذا لم يكن كتاب ***الأرستقراطية فى أمريكا*** ***Aristocratie en Amérique*** الترياق المعلن عنه ضد الكتاب المعلم لتوكفيل فإنه يقدم نفسه جيداً بوصفه أول عرض تركيبى لنزعة شمولية فى معاداة أمريكا. الدافع الثانى فى الأهمية: ماضى مؤلفه فى نصرة أمريكا؛ فكتاب ***الأرستقراطية فى أمريكا*** ***Aristocratie en Amérique*** ليس مؤلف أحد هؤلاء الدعاة الذين احترفوا مهنة احتقار الولايات المتحدة مثل أوهنيه **Ohnet**، على سبيل المثال، المحرر فى صحيفة الفيجارو والناقد الشهير لكل ما هو أمريكى(١٥). على العكس تمامًا، لم يقض المؤلف عشر سنوات من حياته فى أمريكا فحسب (بين ١٨٣٧ و ١٨٤٧)، بل إنه – حسب تعبيره – "بجلها منذ خمسة وأربعين عامًا" ولا سيما فى مجلة ***Courrier des Etats Unis*** التى كان رئيس تحرير لها زمنًا طويلاً. يجسد جاياردية باعتباره عاشقًا نادمًا ومناضلاً مغتاظًا وداعيةً صار مرتدًا، شخصية جديدة تمام الجدة فى المشهد الثقافى الفرنسى: إنه خائب من الجمهورية النموذجية، عائد إلى صوابه بعد وقوعه تحت سحر العالم الجديد. إنه يعيد زيارة أمريكا بالمعنيين الحقيقى والمجازى. ولقد عاد من هذه الرحلة مع صورة قليلة المجاملة بل (وهو يفضل تحذير قرائه) "وشديدة القسوة"(١٦) بالنسبة للبلد الذى أثنى عليه طيلة حياته. ولما كان جاياردية لم ينكر شيئًا من مثله الأعلى الجمهورى فلا بد أن تكون أمريكا هى التى وهنت. أما الخاصة الثالثة التى تجعل من شهادته جديرة بالاهتمام فترتبط فى الواقع بشخصيته الثقافية والتزاماته السياسية. إن فريديريك جاياردية "تقدمى"، وجمهورى على طريقة ١٨٤٨، ويعقوبى جديد حسب اتجاه كافينياك، وخصم للكومونة، لكنه مخلص بشدة لمبادئ الثورة – الثورة الفرنسية بالطبع. وتنطوى عريضة اتهامه للولايات المتحدة على نبرات شخصية جداً، لكنها تندرج أيضًا ضمن حركة أوسع هى حركة تخلى الجمهوريين الفرنسيين فى سنوات ١٨٨٠ عن النموذج الأطلسى.

ذلكم هو الإنسان الذى جفت عيناه فجأة. يقر جاياردية بالذنب جهاراً؛ فهو

يمسك بالقلم ليُدينَ وهمًا كان أيضًا وهمه: وهمٌ عزيزٌ على الفرنسيين منذ لويس السادس عشر فى أنهم "محبوبون" من الأمريكان. لقد آن الأوان أن يتبع هؤلاء الفرنسيون مثله ويفتحوا عيونهم.

الاعتراف الأمريكى بالدعم الذى قدم فى الماضى للمتمردين فكرة بالية، نزوة فرنسية لا تجد صدى لها على الجانب الآخر من الأطلسى. أليست القاعدة الأولى لدى الأمم هى نسيان ديونها؟ أولم يبرهن الأمريكيون بصورة مبكرة ومنذ عام ١٧٩٢ حين كانت فرنسا تواجه وحدها تحالف الملوك على أن ذاكرتهم قصيرة وعلى أن اعترافهم بالجميل سلبى؟ لقد عذرهم توكفيل لهجرانهم لنا بسبب أن ذلك كان قرارًا حكيمًا يتلاءم مع مصالحهم الحيوية. يرى جاياردييه أن العذر فى الأنانية القومية لا يكفى، لكنه يحتفظ بدرس الواقعية السياسية. إذا كانت العاطفة تموت بين الأمم لأقل صدام، ولأدنى احتكاك بين مصالح كل منها فلنكف على الأقل عن خداع أنفسنا بأسطورة صداقة وهمية بقدر ما هى عاطفية.

التضامن "الطبيعى" بين أمم ثورية أسطورة خطيرة، خطأ فى المنظور وفى الحكم؛ لأن الأمريكان هم "ثوريون بلا ثورة"[١٧]. (إن جاياردييه المعادى لتوكفيل ينهب توكفيل هنا: "لم يعرفوا أبدًا ثورة ديمقراطية"[١٨])، كما أنهم يكرهون ثورتنا. والبرهان: أن الولايات المتحدة الوليدة قد أشاحت بوجهها عن فرنسا المحسنة إليها فى اللحظة التى كانت تصير فيها جمهورية، و"اعترافها بالجميل" المفترض إلى حدّ كبير، والذى بقى من ثمّ "أفلاطونيًا" قد "همد منذ السنوات الأولى للجمهورية التى أقامها آباؤنا فى عام ١٧٩٢"[١٩]، ولم يفد عهد الإرهاب وتجاوزاته إلا كحجة. إن هذا التضامن الجمهورى هو إذن خرافة تاريخية وتضليل سياسى. والحقيقة أن فرنسا وقد أسست جمهورية حقيقية أجبرت أمريكا على خلع قناعها لتظهرأرستقراطية متنكرة؛ فالأمريكيون (وزوجاتهم، تلكن "الجمهوريات المتغطرسات كالدوقات(*)[٢٠])، يشعرون بنفور غريزى إزاء الميراث الجوهرى للثورة الفرنسية: التطلع إلى ديمقراطية اجتماعية ملازمة لروح ١٨٩٢ والتى وضعتها الجمهورية الثالثة على جدول أعمالها.

يسخط جاياردييه: أية حماقة كانتها حماقتنا، كانتها حماقتى! كان لابد من كل سذاجة أجدادنا، ومن كل محاباة توكفيل، ومن كل تعامى ميشيل شوفالييه Michel Chevalier وجوستاف بومون Gustave Beaumont وسواهما من أمثال الماجور

(*) مفرد دوقة، زوجة دوق أو امرأة تحمل لقب الدوقية (المنهل).

بوسّان(*) Major Poussin لاشتقاق وهم الأخوة هذا وتعويدنا عليه[٢١]! لاشىء أشد حقداً تجاه مثلنا العليا الخاصة بنا من هذه الجمهورية. وليس هناك فى العالم من هو أبعد عن الجمهورى الفرنسى من الإنسان الأمريكى - إن لم يكن ربما فى نسخته الأنثوية التى يتجسد فيها النفاق العميق للنموذج البشرى الأمريكى الشمالى. يكتب جايارديه: "تلكن الديمقراطيات بالاسم هن أرستقراطيات حقيقيات بالطبيعة"[٢٢]. وسواء أكان مرتبطًا بالحكاية كحكاية أم بسيرة حياته فإن هذا الهذيان الخفيف الذى يسيطر على جايارديه بمناسبة الأمريكيات يحتل مكانه على كل حال فى اللوحة الدلالية عن نزعته فى معاداة أمريكا؛ فالخطاب التوبيخى مغلوط وتعتوره نفحات من التخييل، كما أن خيط المحاجة مشدود بضروب المزاج، والعواطف والأحكام المسبقة والذكريات. وعلى علم الدلالات أن يصير هو الآخر "مغلوطًا" كى يستقطب آثار هذه المؤثرات.

على أن كتاب *الأرستقراطية فى أمريكا* *L'Aristocratie en Amérique* كتاب جاد على طريقته؛ فهو حافل بالمعلومات، كما أنه يعتمد تاريخيا على الوثائق أكثر من كثير من الأبحاث اللاحقة، والتى أعدها على عجل ورثة لا يملكون من المعرفة حول الموضوع شيئًا تقريبًا. فلا هو ألبوم يحتوى على رسوم من غير نموذج، ولا هو مجرد ممارسة إنشائية؛ فالمؤلف يعرف موضوعه جيداً، ولا يسعنا قول الأمور ذاتها عن عشرات الرحالة المستعجلين والبحاثة الملتهبين الذين كانوا يقدمون "انطباعاتهم" الأمريكية للجمهور الفرنسى بين عام ١٨٨٠ والحرب الكبرى. وإذا كان جايارديه يسمح لنفسه ببعض النزوات فلم يكن يستسلم لها أبداً وقتًا طويلاً؛ فنزعته المعادية لأمريكا محملة بتاريخ شخصى طويل، لكنها لا تفيض على نحو متبجح. يسع هذا الرجل أن يعكف على ماضيه، وعلى خمسة وأربعين عامًا من عمره قضاها فى إطراء أمريكا بصدق وإخلاص؛ إنه يفضل أن يتساءل عن ماضى الوهم الذى يغذيه الفرنسيون، وهو أن يكونوا محبوبين من الأمريكيين، ولئن كان يتكهن أحيانًا فإنه كان فى أغلب الأحيان يبرهن ويجهد فى إقامة الدليل.

سيقول كوكتو ذات يوم: "ليس هناك حب، بل هناك براهين على الحب"؛ ذلك هو أساسًا رأى فريديريك جايارديه. لقد بحث عن هذه البراهين على حبٍّ أمريكى للفرنسيين عبثًا، لا بل إنه كان فى قراءته التى كانت تعيد النظر فى العلاقات الفرنسية الأمريكية خلال القرن التاسع عشر يجد أثرًا فى كل خطوة لاستعدادات معاكسة تمامًا لذلك. فما كان يتكشف له وما كان يظهره للقارئ إنما هى الحكاية الخفية لعداوة طويلة،

(*) الماجور بوسّان: ضابط سابق، ومؤلف كتاب رحلة فى أمريكا، يميل إلى الولايات المتحدة. (المترجم)

إنه الاستفحال المحتوم للخصومات، إنه الصعود الذى لا يقاوم للعدوانية الأمريكية ضد فرنسا، بعد قرن أو أقل من الضغينة الصماء. فالدسائس مريبة، والعقبات الغامضة ليست حديثة العهد بل تعود إلى السنوات ذاتها التى كان عليها أن تقرب أخوياً بين الجمهوريتين: تلك السنوات المرعبة التى كانت تقوم خلالها الثورة الفرنسية بخطواتها الأولى. لا بدّ إذن من العودة إلى الوراء واستعادة تاريخ سوء النية الأمريكية؛ فمنذ عام ١٧٩٤ كما يذكر جاياردية تخوننا أمريكا سراً، وتتحالف مع أمّها الاستعمارية الشرسة، فتوقع معاهدة سرية مع إنجلترا تسمح لهذه الأخيرة بمصادرة السفن الفرنسية[٢٣]. أول زردة فى الشبكة المضللة التى كانت الطيبة الفرنسية تقع فيها باستمرار؛ ففى عام ١٨٣٥ كان الرئيس أندريو جاكسون **Andrew Jackson** هو الذى يهدد فرنسا، ويعلن عليها الحرب لمجرد مسألة تسديد تعويضات بحرية، وهو الذى يرغم لويس فيليب على شراء السلّم لقاء ٢٥ مليوناً من الفرنكات. وفى عام ١٨٣٨ ضغطٌ فى المكسيك وحادثُ فيرا كروز **Veracruz**، ثم حرب القرم **Crimée**؛ فبدلاً من أن يدعمنا الأمريكيون فضلوا الروس علينا. وفى عام ١٨٦٢ ضغط من جديد فى المكسيك، كانت تلك بالتأكيد الحرب المعلنة ضد تولية مكسيمليان. وفى عام ١٨٧٠ وفى قلب المصائب الكبرى لفرنسا التى هزمها البروسيون، "صفق الأمريكيون لانتصار الألمان فى كل مكان"[٢٤]. وبالأمس أيضاً، فى عام ١٨٨١، وبمناسبة الاحتفال بذكرى مدينة يوركتاون **Yorktown**، انفجرت الميول الأمريكية نحو ألمانيا الشنيعة فى وضح النهار مع دعوة سبعة ألمان مقابل فرنسى واحد[٢٥]، لكن لابد من القول إن جاياردية قد تجنب الحديث عن حرب الانفصال والميول الفرنسية الواضحة إلى قضية الجنوب.

يستطيع محبُّ أمريكا المخدوع معتمداً على البراهين أن يعيد طرح السؤال: "هل يحب الأمريكيون الفرنسيين؟". يبدو له أن لا، لم يعد هناك على وجه أمريكا الجديدة الصلّف والبارد أقل ابتسامة، بل ضروب من التكشير والرياء؛ فالأمريكيون، وقد فهم أخيراً ذلك، "لم يكن لديهم إزاء فرنسا والفرنسيين إلا عواطف محض شكلية"[٢٦]. سوى أن الشكل ليس امتيازهم، فاليانكى يفضلون عليه المضمون، والواقائع الملموسة. إن التعاطف ترف، ولا يمنحه الأمريكى لنفسه إلا إذا لم يكلفه شيئاً. ومن هنا هذا الاستنتاج المرير، صدى بعيد لخطبة فيجارو: "لا يشعر الأمريكيون بالعواطف نحونا إلا فى الحالة التى لا نكون فيها فى صراع مصالح معهم، ولا مع الصينيين، ولا مع المكسيكيين، ولا مع أى واحد من الشعوب فى النهاية التى تخدمهم كأدوات وكأسواق[٢٧]".

"الإنسانية جمعاء فى فلكها"

هانحن إذن، أين ؟ فى الأساس المادى للأشياء. فى وضوح الأرقام الشديد. فى مبدأ الواقع هذا الذى يؤلف مجمل الدين المدنى لأمريكا الجديدة؛ فليكف المثاليون الفرنسيون عن التعامى! ولينظروا وجهًا لوجه فى الماضى الذى أزيلت عنه المساحيق، وليتأملوا فى علاقاتنا الحقيقية مع الولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر! ولتكن لهم الشجاعة بوجه خاص فى أن يتساءلوا عن المستقبل فى ضوء حاضرٍ كفَّ عن أن يكون أسطوريًا! مثل هذا الفحص يجب أن يفيد من أجل تلافى مصائب كبرى؛ ذلك أن ما سيظهر لهم آنئذ وبوضوح هو فيما يبدو مصير الغازى لهذا البلد، "الذى كان لا يزال بالأمس القريب كوكبًا غامضًا فى فلك القوة الإنجليزية"، والذى "لا يتطلع اليوم إلى شىء آخر أقل من جذب الإنسانية جمعاء لتجرى فى فلكه"(٢٨). اليوم المكسيك وغداً العالم؛ ذلك هو المبدأ الحقيقى والوحيد لهذه الجمهورية الإمبريالية والتاجرة، الإمبريالية لأنها تاجرة فى العينين المطبقتين للمُعجَبِ القديم بها.

وضد الأمل الساذج للذين يصرون منذ حرب الانفصال على الحلم بتمزق الاتحاد، يرد جايارديه بأن هذا الأخير لن يتمزق؛ فالرغبة فى التماسك ستتغلب على محاولات الابتعاد عن المركز؛ لأنه يملك كمحرك "عطشًا للاستيلاء" خارقًا، عسيراً على الكبت، لاعقلانيا، سيحمى الأمريكيين من جنونهم(٢٩). لا يهتم أمريكيو الشمال والجنوب والغرب بالمشاعر الأخوية. إن ما أكثر يوحدهم على وجه اليقين وما سيوحدهم على الدوام زيادة إنما هو "الطموح الذى يغذونه أيضًا فى مدٍّ إمبراطوريتهم إلى ما وراء الحدود الحالية. لم يكن هذا الطموح يتجاوز بالأمس مكسيكو، لكنه يمتد حتى مضيق باناما" منذ أن صمم فرديناند دو ليسبس فيها مشروع القناال الضخم(٣٠) - القناة التى لم تكف عن مدّ المعادين لأمريكا بالحجج سواء قبل أو بعد مصادرتها من قبل أمريكا تيودور روزفلت ذات العضلات. يعترف جايارديه أنه لابد إذن من الاستسلام للوجود الدائم للولايات المتحدة الأمريكية؛ ذلك أن ملاط الاتحاد ليس هو الديمقراطية، ولا الحلف الفدرالى الذى سخر منه الشمال فى عام ١٨٦٠، ولا المبادئ التى أعلنها الآباء المؤسسون. هذا الملاط هو مبدأ مونرو Monroe، الذى جعلوا منه من الآن فصاعداً "عقيدة قومية"(٣١).

لم يكن لمونرو فى أوروبا القديمة أى سمعة طيبة، وليس بوسعنا أن نرى كيف يمكن لمبدأ "أمريكا للأمريكيين" الحافل بالتهديدات أن يجعل منه شعبيًا. حين تمت صياغته فى عام ١٨٢٣، كان الفرنسيون والإنجليز والإسبان والهولنديون لا يزالون

شديدى الحضور من المحيط الهادئ إلى جزر الكراييب، أى على مسافة قريبة أحيانًا من القوة الأمريكية الشمالية الجديدة، إلا أنه فى غياب أزمة كبرى (فيما عدا أزمة المكسيك غير المباشرة والشديدة الخصوصية)، فإن "المبدأ" لم يؤثر إلا على أوساط محدودة من الدبلوماسية الفرنسية كانت تميل إلى التسويات، كما أنه كان أبعد من أن يثير الجماهير. وتسجل السنوات بين ١٨٨٠-١٨٩٠ من هذا الوجه منعطفًا، ويعلن تحليل جايارديه وعيًا جماعيًا ستستعجله الحرب الإسبانية الأمريكية فى عام ١٨٩٨. وراء تأكيد مبدأ لا غبار عليه فى سيادة الأمريكيين على قارتهم، يصغى الفرنسيون من الآن فصاعداً إلى صقل الأسلحة ضد هذه الأوروبا التى بدأ الأمريكيون الشماليون بتسميتها "مع قليل من الازدراء: *العالم القديم*"[٣٢].

هذه القراءة الجديدة لـ"مبدأ مونرو" بوصفه "عقيدة قومية" هى نتيجة مباشرة لحرب الانفصال وما تلاها من أيام خائبة الآمال. لقد قلنا كيف استطاع الفرنسيون الذين شغلتهم أحداث درامية محدقة أن ينصرفوا عن القضايا الأمريكية خلال السنوات بين ١٨٦٥ و١٨٧٥. فترة لم تكن فترة نسيان بل فترة حضانة ستصير فى نهايتها حرب الانفصال من جديد الموضوع المفضل للتحليلات والتفكير الاستذكارى. فالجنوب المدمر والمهان يكتسب أنصاراً جدداً يثيرون العجب أحيانًا؛ فهو يتمتع بتعاطف عفوى يمحض فى فرنسا عفويًا للمهزومين، لا بل إنه يتمتع به على نحو أفضل لا سيما، وأن إلغاء العبودية قد رفع رهنًا مزعجًا. صار من الممكن دون أى حرج أن يرثى المرء لحالة الجنوبيين، ضحايا الإمبريالية الشمالية، لا بل صار بالوسع كما سنرى، التماهى معهم إلى درجة رؤية مصيرهم كما لو أنه إرهاص بمصير الأوروبيين.

هذه العودة إلى الحرب الأهلية بعد عشرين سنة من الكمون، هى لحظة تدشين الخطاب المعادى لأمريكا الذى اتخذ آنئذ ممثله النجم وشرّيره المفضل: اليانكى؛ إذ لا تتمثل النتيجة الأوضح للصراع من وجهة نظر المعلقين الفرنسيين خلال سنوات ١٨٨٠-١٨٩٠ فى إلغاء العبودية (الذى كان يحلو أن يشار إلى أنه قد دمّر الجنوب دون أن يُحسِّن من وضع السود) بقدر ماتتمثل فى هيمنة "اليانكى" على كل أراضى وثروات الولايات المتحدة. وفيما وراء الانشقاقات الأيديولوجية، تمَّ تحليل انتصار الشمال على بصورة استرجاعية بوصفه فشلاً لفرنسا. هكذا تستقر معاداة أمريكا على قاع من الأسف على الفرص الضائعة. يتخذ هذا الصراع "المحلى" والبعيد فجأة أبعاداً مفاجئة. لم يكن استسلام الجنرال لى بالأمس سوى خاتمة لا تستحق الذكر لحرب غريبة على الفرنسيين، لكن هاهو الشك يستقر، وماذا لو أن شبكة العلاقات الدولية تجد ذاتها والحالة هذه رأسًا على عقب؟ وماذا لو تغير وجه العالم بسبب ذلك؟ تلك هى الأسئلة

التى كانت تشغل المؤرخين المتأخرين لهذه الحرب الخاسرة لا من قبل الجنوب فحسب بل كما سيقال، من قبل فرنسا.

حسرة تضايقهم: الحسرة على عدم التدخل؛ فالنتيجة التى يستخلصها جايارديه الجمهورى فى عام ١٨٣٣ تعطى الحق لاحقًا لممثلى الجنوب المؤثرين وللصحافة الرسمية الأمبراطورية: كان يتوجب العمل دون تحفظ من أجل انتصار الجنوب، ومن ثم لفك الاتحاد؛ ذلك "أن الحق الملزم كان إلى جانب الجنوب، أى الحق الدستورى، الناتج عن الحلف الفدرالى وعن صك الاستقلال الأمريكى نفسه"[٢٣]. لا يتراجع اليعقوبى (أوالمتعصب للديمقراطية المركزية) أمام الشكلية القانونية الأشد مماحكة، كما أن حسراته الجمهورية تُكرِّرُ حتى لتكاد تكون هى ذاتها أحلام الإمبراطور المتهم لا بالتواطؤ مع الجنوب بل بالضعف المفرط إزاء الشمال: "مادام نابليون الثالث يشترك مع إنجلترا فى وجهات نظرها [المعادية للشمال] فما الذى يتوجب على القوتين الأوروبيتين عمله؟ لا الاعتراف باستقلال كونفدرالية الجنوب فحسب [...]، بل إبرام حلف عسكرى دفاعى وهجومى مع هذه الكونفدرالية، لفرض السلام على الشمال. "هيهات! فبدلاً من هذا "المسلك الشجاع والمستقيم، اتبعت إنجلترا وفرنسا مسلكًا رعديداً ومراوغًا". إعادة نظر هائلة وانقلاب مذهل في المنظور. كانت الجمعيات الليبرالية والعسكر الجمهوريون خلال الصراع، يأخذون على الحكومة الإمبراطورية بمرارة سياسة شديدة المحاباة لـ"المستعبدين" وشديدة التحفظ إزاء الشمال. هو ذا المأخذ المقلوب: كان يجب التدخل من أجل الجنوب والقذف فى ميزان القوى بكل قوة السلاح الفرنسى الإنجليزى! وبدلاً من ذلك سمحت فرنسا وإنجلترا بسبب جمودهما إعادة اتحاد الولايات المنشقة الرهيب تحت سيطرة الشمال.

إلا أن هناك ما هو أسوأ؛ إذ إن الفشل بين الفرنسيين والإنجليز ليس على قدر المساواة. فبريطانيا العظمى خاسرة، بمعنى أن بلدًا يتوحد من جديد ذا ثروات هائلة سوف ينافس صناعتها، ويعرقل تجارتها، ويطالب على المدى القصير باعتباره القوة البحرية الكبرى، لكن هذه النتيجة السلبية فى النهاية، مع ذلك، سوف تعوضها ظاهرة يعتبرها جايارديه رئيسية، وستصير خلال عشر سنوات الأخيرة من القرن هوسًا فرنسيا: الطابع الأنجلو ساكسونى للقارة الأمريكية؛ إذ يتضاعف فى الحقيقة الاندفاع الذى لا يقهر للولايات المتحدة الجديدة الخارجة لتوها من حرب الانفصال داخل الاتحاد نفسه، وذلك من خلال مصادرة كاملة للسلطة قام بها "العرق الأنجلو ساكسونى". والحق أن الحركتين فى ذهن جايارديه ليستا إلا حركة واحدة، هى السيطرة الأنجلو ساكسونية من خلال استبعاد أو تهميش الأجناس أو الثقافات الأخرى مهينة ومعلنة

بذلك عن فتوحات أوسع. إن طموحات الأمريكيين الجدد "لا تهدف إلى أقل من سيطرة الجنس الأنجلو ساكسوني على قارة أمريكا الشمالية بأكملها"(٣٤). كان إخضاع الجنوب محطة حاسمة ضمن مخطط السيطرة هذا، لكنها ليست إلا محطة فحسب. ففي عام ١٨٦٥ كان عِرقُ المنتصرين يلقى بنظراته نحو البعيد. وكان يطمع آنئذ بفرائس أخرى. هل هو اتهام لا أساس له؟ يجيب جاياردية: على الإطلاق؛ فالوقائع تتحدث بذاتها وهى بليغة. إن القراصنة اليانكى يعملون فى المكسيك. أما وولكر فقد صار خلال سنتين سيد نيكارجوا، هذه الحملات التى يقال إنها غير نظامية هى مقدمة اتساع منتظم للاتحاد خارج حدوده. تقلق أوروبا من ذلك، لكن قلقها يشبه القلق الذى تشعر به إزاء أخطاء ارتكبت على حدودها من قبل قوة فتية محمومة؛ ذلك يعنى الجهل بطبيعتها الحقيقية، كما ينبه جاياردية. والواقع، أن الاندفاع نحو الجنوب هو استمرار منطقى لهذه الحرب التى تحمل اسم حرب الانفصال، والتى هى فى الحقيقة مجرد اختبار لحرب واسعة من الفتوحات الأنجلو ساكسونية.

تصير حرب الانفصال بقراءتها على هذا النحو صك ولادة أمبريالية يانكية محضة. وكنتيجة طبيعية، يرى الجنوبيون أنفسهم وقد أسند إليهم فى الخطاب الفرنسى الدور الحاسم للضحية المثالية: هذا الخاسر للتاريخ يصير الشخصية الجوهرية لإعادة تفسيره من قبل المعادين لأمريكا. كان الهندى لزمن طويل هو الشخصية الوحيدة، والصورة الحية للمظالم المرتكبة على قارة اصطبغت بدمه. أما العبد الزنجى الذى نُفِىَ بغياً وأسيئت معاملته بشناعة، فقد لحق به فيما بعد، لكن هذه الضحايا فى نهاية القرن التاسع عشر فقدت الكثير من امتيازاتها المؤلمة؛ فالأسود المتحرر لم يعد يبدو شديد "الأهمية"؛ أما الهندى وقد نهبت منه هالته الرومانتيكية فيبدو منذوراً دون علاج لانطفاء بلا هيبة. لقد جاءت مصيبتهم من بعيد - من أمريكا الاستعمارية، من الممارسة "القروسطية" للعبودية - لحقبة تعيش هيجان المستقبل. أولم تَنقَضِ حياة قضيتهم منذ أن كفت العبودية عن الوجود، ومنذ أن انقرض الهنود على وجه التقريب؟

ومن المفارقة أن ترقية الجنوبى إلى مرتبة أول شهيد للإمبريالية اليانكية هى التى ستحيى فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الاهتمام بمصير الهنود ومصير السود أو، بصورة أدق، خطاب "التضامن" مع الامهم؛ لأن هذا الخطاب – كما سنحكم عليه فيما بعد – يفتقر بصور خاصة إلى معرفة الآخر؛ فهو خالٍ من الإعجاب أو من الحساسية اللذين كانا يغلبان على خطاب الرومانتيكيين أو المناهضين للعبودية. إنه خطاب تكتيكى للغاية، مادام المقصود قبل كل شىء تضخيم زمرة المشتكين وراء الجنوبى المهان والذين جاءوا يشكون من الظلم الأمريكى. يلعب الجنوبى (وهو أبيض)

على هذا النحو دوراً أساسيا فى إنجاز أداة جوهرية لنزعة معاداة أمريكا فى القرن العشرين: إن مرافعة الاتهام ضد أمريكا التى ألقيت بالفرنسية باسم "الضحايا" الأمريكيين للأمريكية ـ الهندى والأسود، والأبيض من "الأقلية" (بدءًا من الإيطالى الأمريكى المنبوذ حتى الشيوعى غير ـ الأمريكى فى نظر المكارثية). ومن السخرية التركيبية أن هذا التضامن المعلن مع"أمريكا الأخرى"، أمريكا المذلين المهانين، ينمو خلال السنوات ١٨٨٠ـ١٩٠٠ انطلاقاً من جعل الجنوبى المهزوم فى بلده مثاليًا من قبل الجنس الخصم والمسيطر. لن يستعيد الهندى الذى خاب أمله هالته (إلا لدى جاياردييه بصورة سريعة)، ولن يكفً الأسود وقد تحرر عن أن يكون سمجًا، ولن يحمل العامل الذى يتسلح ضد شرطة أرباب العمل على الطمأنينة أكثر: كلهم مع ذلك عرضوا بلا حياء من قبل المعادين الفرنسيين لأمريكا بوصفهم شهوداً ضد الولايات المتحدة. سيستعيدون، خلال فترة مثولهم، بعض رونقهم القديم، شأن هذه الشخصيات غير الفاضلة، والتى تُلبَسُ طقمًا غامق اللون وربطة عنق رزينة لتؤثر على نحو إيجابى على المحكمين. هكذا تبدأ "أمريكا الأخرى" فى المحكمة الفرنسية الخاصة بالجرائم الأمريكية سيرة طويلة وخصبة. سنرى خلال النصف الأول من القرن العشرين كله، العقول الأقل اهتماماً بمصير الشعوب المستعمرة من قبل القوى الأوربية تتحمس لهنود أمريكا وتميل بعناية مذهلة إلى السود ـ شريطة أن يسكنوا الألباما أو الإيلنوا. هذا التنوع الصارخ فى النظر يبدو لنا اليوم علامة نية سيئة قوية. ومن الواضح أن الطريقة لا تستثنى منه قبل الأمس لدى أندريه سيجفريد **André Siegfried**، وأمس فى إنشائيات نادى المثقفين(*) **GRECE**، واليوم فى خطاب الجبهة القومية، بل إنه من الخطأ مع ذلك قصرها على ذلك. إذا كان المعادون الفرنسيون لأمريكا، بمن فيهم العنصريون، يستطيعون، على امتداد القرن العشرين، أن يذكروا استئصال الهنود واستبعاد السود كبراهين فى الدعوى التى يعدونها، إذا كانوا يستطيعون دون أن يرفّ لهم جفن أن يجعلوا من أنفسهم الناطقين غير المتوقعين باسم هذه الضحايا ـ فذلك بفضل هذا السيناريو الأصلى، هذا المخطوط الأساسى (الذى كان جاياردييه واحداً من أوائل محرريه)، هذا الخطاب الرحمى الذى أوجد بين الإمبريالية "اليانكى" فى الخارج والهيمنة "الأنجلو ساكسونية" فى الداخل رابطة ضرورية، وحاسمة، وقاطعة.

(*) هو رمز لناد للمثقفين فى سنوات ١٩٨٠، كانوا من المدافعين عن "القيم الغربية"، ويعتبرون من اليمين. كما أنهم نخبويون وشديدو القرب من موضوعات الفاشية التاريخية. (تفسير قدمه المؤلف للمترجم).

يجدر إذن أن ننظر عن كثب كيف يُخرِج كتاب *الأرستقراطية فى أمريكا* *L'Aristocratie en Amérique* السياسةَ العنصرية "الأنجلو ساكسونية"، وقد اتسعت لتشمل البلد بأجمعه منذ انتصار عام ١٨٦٥.

أعداء أعدائنا

على الخط الأول: "الجنس الأهلى"، كما يقول جاياردية، الهنود. إن تقليد التعاطف مع الهنود قوى فى فرنسا وقد تغذى من مصادر مختلفة، ويعتمد على إدانة فلسفية وأخلاقية للأذى الذى لحق بهم لم تتوقف من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، من مونتينى Montaigne إلى ديدرو Didrot و رينال Raynal ومارمونتيل Marmontel مرورًا بكتابات العديد من المبشرين. أما فى الحالة الخاصة بأمريكا الشمالية، فإنها تعود إلى الأحلاف المضادة لإنجلترا الخاصة بالحروب الهندية بقدر ما تعود إلى الافتتان بنثر شاتوبريانChateaubriand. منذ ما قبل رواية *أتالا*، كان الولع بالهنديانية يشجع الجبليين Les Montagnards على التماهى فى الإيروكوا Iroquois كما يحمل صحيفة عام ١٧٩٤ على نشر أغانى حرب هندية لتبين القرابة مع أغنية *ça ira* التى غناها الفلاحون الفرنسيون sans-culotte سنوات الثورة الفرنسية، لكن وقتًا طويلاً مضى منذ ذلك الحين(*). لقد شهدنا منذ نهاية القرن الثامن عشر، سقوط قيمة المتوحش؛ فالهندى "المنحط" الذى كان رحالو نهاية القرن التاسع عشر يلتقونه لم يعد يستثير لديهم إلا شفقة مشمئزة، وكانت أول مهمة لجاياردية تقوم على إحياء الألوان الشاحبة لأسطورة منهكة. سيكون هنديّه هو هندئ البدائية الملحمية، وهو مزيج من الأوسيان Ossian والشاكتاس Chactas، لأن "فى الهندى شىء من الهوميرية والتوراتية، شىء من العظمة الشرقية والبدائية"، كما كتب مستشهداً بالأب روكيت Rouquette، المبشر فى لويزيانا والذى أطلق عليه لقبَ "محامى الهنود" - وهو لقب كان يحمله لاس كازاس Las Casas – (٣٥). فهنديّه يرتبط من جديد بالفضائل العريقة والسامية التى كان قد أضفاها عليه على التتالى حماسُ الفلاسفة الإنسانيين وحمية الشعراء الرومانتيكيين، لكن إعادة التقدير هذه محض تكتيكية؛ فالهندى يصير من جديد "توراتيًا" بالتعارض مع جلاديه الذين يرفعون التوراة، ويعود من جديد "هوميريًا"،

(*) يقول المؤلف حرفيًا: إن مياهًا غزيرة قد جرت على امتداد نهر الميسيسيبى أو ميشاسيبيه Meschacebé كما هو اسمه الحقيقى، كما يقول شاتوبريان فى رواية أتالا.

نبيلاً، وحراً وشاعرياً بالتضاد مع أمريكا اليانكى، هذه "الجماعة البشرية" المشئومة، وهذه "الخلية المتسقة التى يؤلف العملُ مجملَ شعرها"(٣٦).

كذلك يبدو جدالياً القيام لصالح الهندى بإحياء أسطورة الأخوة المدانة بوصفها كذبة فيما يخص اليانكيين؛ فبعد الأسطورة البدائية، يستدعى جاياردية الخرافة التاريخية. ويبعث ضد اليانكى الصحبة القديمة الفرنسية ـ الهندية خلال الحرب ضد الإنجليز. معارك خاسرة ولا شك، لكن ضروب التضامن فيها لم تكن عبثية ولا وهمية. لقد وُجِدَ الهنود والفرنسيون لكى يتفاهموا ولكى يعيشوا باتفاق تام، وفى مواجهة الإنجليزى المستخف الذى خلفه اليانكى الجزار، يبدو فرنسى جاياردية رجل التعايش، والاشتراك فى البيت واختلاط الدماء. وفى مواجهة الخطة الأمريكية الشمالية بإطفاء الجنس الهندى فى الأمكنة المحجوزة لهم يعارض جاياردية بذكرى سان لويس الفردوسية، ورأس الجسر الفرنسى على الميسيسبى و"المدينة الكريول créole(٣٧)" ـ بالمعنى الذى لم يعد معنى القرن الثامن عشر، أى "الخليط". لقد وضع طرد الفرنسيين، الذى نحزره فيما بين سطور هذا الاستذكار الحزين، نهاية لهذا العصر المنسجم. وعلى هذا النحو ترتسم نواة تعذيب، وشهداء مشتركين. إن محنة الأكاديين الذين ألقى بهم إلى البحر، وغالبًا إلى الموت من قبل "الأنجلو ساكسون"، تتكرر اليوم على حساب الهنود، المحكوم عليهم بـ "هجرة لن يكون لها إلا مخرج واحد هو الموت، والاختفاء التام"(٣٨).

وبعد ذلك السود؛ فهم بوصفهم ممثلين صامتين بلا دور فى الدراما العنصرية الأمريكية، كما يخرجها المُناظِرُ الفرنسى، يتم عرضهم بصورة منتظمة باعتبارهم ضحايا مثاليين: لا للعبودية، بل لتدمير الجنوب الأبوى. تملى مصادرة مزدوجة موجودة لدى جاياردية كل التحليلات اللاحقة على التحرير؛ فإلغاء العبودية كان كذبة سياسية؛ إذ بدلاً من أن يُحَسِّنَ من المصير الاقتصادى للسود، فقد ضاعف من خطورته. لا يجب إذن أن ندهش من أن السود المحررين صوّتوا مع أسيادهم القدماء، "ذلك لأن العبيد كانوا قد فهموا، فى سذاجتهم، أن الحرية التى كان الشمال قد أنعم بها عليهم ستكون فى نظرهم حرية ألا يفعلوا شيئًا(٣٩)"، لكن جاياردية لا يتوقف هنا عند مجرد الحقيقة المروعة التى تجلت فى تحرر غير مفيد، بل يعود إلى مصادر الكذب، ويجدها فى الشمال. تجلت الكذبة الأصلية فى اعتبار الشمال أرض عدالة للسود، فى حين أنهم لا يحسدون على وضعهم فيه؛ فهم ليسوا مواطنين حقًا، بل إنهم لا يقبلون حتى للخدمة فى الميليشيا: "فالحرية والمساواة والإخاء تسمح لهم أن يتطلعوا إلى مستوى عازف مزمار أو بائع خمور أو حيوان المرتفعات، ولا شىء غير ذلك"، كما يشير جاياردية(٤٠).

وبابيجان، لم يربح السود شيئًا من هزيمة الجنوب، ولم يأملوا شيئًا من "محررهم" فى الشمال، لا بل إنَّ الأحرى بهم أن يخافوا منه كل الخوف؛ إذ وراء كذبة التحرير تتراءى حقيقة انقراضهم القادمة. "الانقراض الكامل"، هو ذا مستقبل أفريقيى أمريكا: "سيتكبد الزنوج فى الولايات المتحدة ذلك شأن الهنود؛ لأنهم كهؤلاء لا يتوالدون إلا فيما بينهم(٤١)"، هى ذى أمريكا البيضاء وقد قامت بدور المبيد مرتين.

هل هذا كل شىء؟ وهل استنفد جاياردیه كل ما يخص أمريكا المقدمة كضحية؟ لا، ما دام قد بقى عليه أن يذكر أنبل ضحايا "روح الاستئثار والسيطرة" الذى يميز أمريكا اليانكى الجديدة. هذا المضطهد، وهذا "المنبوذ" كما يسميه جاياردیه، ما هو إلا سيد الجنوب القديم. ودون أن يتأثر من مناقضة تحليله السابق الذى جعل من السود المحررين الخاسرين الكبار من التحرر، يكتب الآن أن الشماليين جعلوا من المزارعين منبوذين نصبوا عليهم سادة عبيدهم القدماء"(٤٢). ثمة ضمن هذا الرسم الأولى الذى جاء ليستقر فوق السابق، "إفراط قديم" "استبدل بإفراط أكبر". وينضاف إلى كذبة التحرر ظلم الاغتصاب و"استعباد" المزارعين. إن القليل من الصلابة التى يُنعِم بها هذا الخطاب على السود؛ فقد بقوا مفتقرين إلى كل قوام تاريخى واجتماعى أو بكل بساطة "إنسانى" - يسمح كما يشاء المرء أن يقدمهم بوصفهم مضطهَدين أو مضطهِدين، وأن يلوم على هذا النحو الشمال، أى أمريكا الجديدة فى آن واحد على أنها لم تحرر السود حقًا وعلى أنها سلَّطتهم على أسيادهم السابقين. هذا الاستخدام للأسود الأمريكى بوصفه صالحًا لكل الحجج المتناقضة فيما بينها مرهون هو الآخر أيضًا لمستقبل زاهر، وسنرى أكثر من باحث فى "الإنسانيات" فى سنوات ١٩٣٠، من أندريه سيجفريد André Siegfried إلى جورج ديهاميل Georges Duhamel يعلنون بجرة قلم فى غاية العنصرية عطفهم على سود أمريكا.

يتوجب التوقف قليلاً عند هذه العقدة التاريخية - الإتنية التى ستنعش الخطاب المعادى لأمريكا على الدوام؛ إذ إن أحد أسرارِ طولَ حياته أنه منح نفسه فى مواجهة العدو الأمريكى (المشبَّه باليانكى وبـ "الأنجلو- ساكسون") أصدقاءً من أمريكا: السود، والهنود، والجنوبيون. ولا يهم إن كان هؤلاء الأصدقاء لا يتعاشرون فيما بينهم ولا يتجاورون إلا فى آلاف الصفحات المطبوعة بالفرنسية حول موضوعهم. وحَسَنٌ أن أبطال الحكاية الفرنسية هم قبل كل شىء شخصيات إسقاطية؛ فالجمهور الفرنسى هو الوحيد فى نهاية المطاف من تستهدفه هذه الحكايات المجازية. والمماثلة لم تُجفِل ختى ولو كانت بقدر ما وحشية اختصاصيى أمريكا عندنا، بل على العكس من ذلك؛ إذ بدلاً من أن يهابوا التماهى فإنهم يضطلعون به ويشجعونه. هكذا يقارن جاياردیه سياسة

القضاء على الهنود بالمضايقة العدوانية للبلدان الأجنبية: "إن السياسة المتبعة من قبل الأمريكان إزاء الجنس الأصلى فى البلد الذى يحتلونه(!) كانت ضرباً من القرصنة التى كانت لا تمارس فى الخارج بل فى الداخل(٤٢)". تود مثل هذه المقارنة أن توحى بالطابع الشمولى لسياسة الهيمنة التى يمارسها سادة أمريكا. إذا كان الهنود يخضعون فى أرضهم لنفس أعمال العنف القرصانية التى تعانى منها نيكارجوا والمكسيك وغداً كوبا وربما بعد غد جزر الآنتيل، فما الذى يجعلنا نضمن ألا نكون ذات يوم منذورين لنفس "انطفاء" الهنود؟ إن استئصال أو استعباد الهنود والسود والجنوبيين فى نصوص كنص *الأرستقراطية فى أمريكا* *L'Aristocratie en Amérique* يعنى إنذاراً.

على أن الأهم هو التدخل الكثيف للمرجع العنصرى، الجذر المركزى للخطاب المعادى لأمريكا فى نهاية القرن؛ فأمريكا تتلاشى كبلد أو كأمة لكى تصير مجالاً حيوياً lebensraum فى توسع دائم لعرق واثق من نفسه ومهيمن. إن نقد جايارديه اللاذع الطويل الذى لا يزال مطبوعاً بحبٍّ خائبٍ سيستفحل وينتشر بترف "علمى" من الحجج خلال السنوات العشر التالية التى سيُعَدُّ خلالها خطاب جديد حول الولايات المتحدة. ليست تربته التخييل الروائى أو المسرحى، بل علوم شابة تحمل هالة هيبة فيها بعض القدر من الهرطقة: علم النفس السياسى و علم الاجتماع وعلم الأجناس. وسيكون على هؤلاء الاختصاصيين الجدد، هؤلاء الخبراء الذين يعملون فى أذيال المؤسسات الجامعية والعلمية أن يكشطوا جرح حرب الانفصال الذى ساء التئامه حتى صدمة ١٨٩٨ التى ستفتحه.

ما الذى يقوله هذا الخطاب الجديد الذى لم يكن جاياردية إلا رائده؟ هذا على وجه التقريب: لم يعتقد الأمريكيون والفرنسيون حتى الآن أنهم منفصلين إلا بسبب نسيان تضامنهم العميق ونزعتهم العميقة لتجسيد قيم العام، لكن هذا الاعتقاد كان فى حد ذاته وهماً؛ فالحقيقة هى أمر آخر تماماً. لقد خرجت من أنقاض شارلستون Chrleston ومن مدفن جيتسبورج Gettysburg. وتقول هذه الحقيقة الجديدة، إن الأمريكيين والفرنسيين منفصلون تمام الانفصال: لا بالمنافسة الدبلوماسية والاقتصادية فحسب، والتى تظل دوماً قابلة للمفاوضة وأحياناً للعلاج، بل فى كينونتهم ذاتها، المحددة باستعدادات عرق كل منهم والتكوينات الاجتماعية الناتجة عنه. إن لغة سوء التفاهم لم تعد لغة الأرقام والبيانات والتعرفات فحسب: إنها الصوت الأصم والعميق للدم والأصل والملامح الجماعية والاستعدادات الوراثية، التى تصدر عنها وتؤكدها فى آن واحد الأجهزة الاجتماعية. ثلاثة عشر عاماً قبل إدمون ديمولان Ed-mond Demolin وكتابه *علام يعتمد التفوق الأنجلو سياكسونى؟* *A quoi tient la supéri-*

orité des Anglo-Saxons?، أنجز فريديريك جاياردية عملاً رائداً حين أبان الفرنسيين والأمريكان منفصلين بصورة مزدوجة بفعل "حقائق العرق" وبسبب "الواقع الاجتماعي".

طغيان الاجتماعي

رغم عنوانه، لا يبدأ كتاب ***الأرستقراطية في أمريكا*** *L'Aristocratie en Amérique* إذن أي حوار وإن كان حرباً كلامية مع كتاب ***عن الديمقراطية في أمريكا*** *De la démocratie en Amérique*. فاسم ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville، المعلن في المقدمة مع اسم جوستاف دو بومون Gustave de Beaumont، رفيق السفر في عام ١٨٣٣، يختفي بسرعة من النص. لا ينكر جاياردية توكفيل، بل يكتفي على نحو غريب بقلب الأطروحة التوكفلية عن "تساوي الشروط" كحقيقة منتجة للواقع الأمريكي. يطرح توكفيل: "إن الحالة الاجتماعية للأمريكيين ديمقراطية للغاية"(٤٤). فيجيب جاياردية: على الإطلاق، إن الحالة الاجتماعية للأمريكيين أرستقراطية للغاية. وعلى مسافة عشر سنوات، يتفق مؤلف المسرحيات الهزلية القديم مع فيكتوريان ساردو، تسأل إحدى شخصيات مسرحية ***العم سام***: "-عندكم إذن أرستقراطية؟"؛ "- واحدة؟ عندهم منها اثنتان!"(٤٥) ويزاود جاياردية: الأرستقراطيات، لا وجود لغيرها في الولايات المتحدة. هناك أرستقراطية العرق: جماعة wasp بأكملها(٤٦)، وهناك أرستقراطية "الثروة": الطبقة التي أثرت بفضل الرأسمالية، لكن هناك وعلى وجه الخصوص أرستقراطية الشعب - هذا الشعب "الذي لا تجرؤ أية صحيفة على أن تغتابه"، هذه الدهماء التي تؤلف موضوع "ممالقة قومية"(٤٧)، هذه السوقة الحاكمة التي ثار ضدها فجأة جنود ١٨٤٨. "إن التكوين السياسي والاجتماعي للولايات المتحدة قد جعل من القوة شعراً ومن السوقة مثالاً [...]، وحيث لا يرى الأوروبي إلا رثيثي الثياب، يرى الأمريكي اجتماعاً سياسياً...(٤٨)".

في حين أن توكفيل كان يتساءل حقًّا عن الأشكال الباقية من الأرستقراطية التي يمكن أن تنطوي عليها "حالة اجتماعية ديمقراطية" كحالة الولايات المتحدة. لقد وجد منها لدى الهنود ذوي "التهذيب الأرستقراطي"(٤٩). وكان يحزرها، بوصفها رواسب، في مؤسسات كالضمان (الأجار) الموروث عن الإنجليز، والذي كان على ديمقراطية يشكل فيها الفقراء الأكثرية منطقياً أن تبطله. وكان يعثر في التراتب الاجتماعي ذاته على ما يوازي الأرستقراطية، لا لدى الأغنياء، بل لدى الفقهاء(٥٠). لم يعد لدى جاياردية أية ذكرى أو اهتمام بهذا التحقيق: فهو يصف المجتمع الأمريكي بأجمعه كما لو أن الأرستقراطيات المتنافسة تتواجد فيه جنباً إلى جنب، لكنها متنافسة كلها من أجل

اضطهاد حقيقي يمكن تحسسه تحت الحريات الشكلية. لا جدال فى أن مواطنى الولايات المتحدة يتمتعون بالحرية السياسية، بل و"بحرية سياسية لا حدود لها"، كما يعترف طواعية، سوى أن "الحرية الاجتماعية تخضع فيها لعديد من القيود"، لكن "الحرية الاجتماعية" هى أهمّ الاثنتين. "تؤلف إحداهما فدية للأخرى، لكن الحرية الأثمن هى التى يُضحّى بها. ففى حين أن الحرية الاجتماعية هى حرية مطلوبة فى كل لحظة فإن الحرية السياسية ليست حاجة إلا فى بعض الحالات المعينة(٥١)"، نجد أنفسنا لدى هذا الجمهورى من المدرسة القديمة، أمام ثورة ثقافية، ولكن فيما وراء حالة جاياردييه الخاصة، نحن أمام تحول كامل فى خطاب اليسار عن أمريكا يرتسم ويتخذ شكلاً: تحوله "الاجتماعى". خلف حق المراجعة فى المعسكر الجمهورى الصديق لأمريكا تقليدياً الانتماء المجرد. ولم تعد الديمقراطية الانتخابية، وهى أفق النضال حتى سقوط الإمبراطورية الثانية، تظهر كفاية فى حدٍ ذاتها، وعما قريب لن تظهر حتى بوصفها بداية. ودون أن يخشى التجديف بحق الاقتراع العام يؤكد جاياردييه مباشرة أن حق التصويت حول كل شىء وأى شىء ليس أوج ممارسة الحريات. إن الحياة الديمقراطية الحقيقية هى فى مكان آخر و"حق الذهاب أو عدم الذهاب إلى الكنيسة أو إلى المسرح، أو حق شرب ما يراد، هو أفضل أيضًا!". وبوصفه أول واحد فى موكب الرحالة الساخطين أو المراقبين المنفرين، فإن محرر صحيفة ***بريد الولايات المتحدة Courrier des Etats-Unis*** يضع كيفما اتفق على الورق كل موانع الحرية التى يضاعف منها فى الولايات المتحدة طغيانُ الاجتماعى: مسرات بريئة محرمة، تفتيش فى ممارسات الحياة الخاصة أو فى الممارسة الدينية، امتثالية السلوك، دين العمل. أشكال من الاضطهاد اليومى ينضاف إليها اضطراب فى عمل عنصر"اجتماعى" أشد إزعاجًا منه نجوعًا: اختلال فى الأمن يبلغ حداً أن أصحاب كومونة باريس الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة يأسفون لغياب الدرك على الطريقة الفرنسية، "دونية" نظام العدالة، رداءة الاختصاصات المهنية، ريب فى قيمة الشهادات (يثير القلق على وجه الخصوص فى مجال الطب)، "ضعف معنويات الموظفين العامين"، تكاثر سوء الائتمان الذى تتقاسم فى مجاله الولايات المتحدة وروسيا مجده، إلخ. يبين حجم الكاتالوج أن ضيق جاياردييه لا يمكن تلخيصه فى حرمانه بوصفه كاتب هزليات من مشاهدة مسرحيات جميلة ومن مشروب جيد. فمن كان يأخذ عليه أنه يضع فى الميزان حق التصويت والحق فى تناول المشروب، فقد كان سيسهل عليه أن يرد بالتذكير أن ***مقاهى الجعة Beer Riots*** فى شيكاغو التى أثارت فى مارس وأبريل ١٨٥٥ شعباً بأكمله من أصل ألمانى بوجه خاص ضد استبداد المسؤولين البلديين "الأنجلو- ساكسون" الذين كانوا يزعمون منع تناول

الجعة يوم الأحد. إن الحرية الحقيقية تبدأ أمام كأس الجعة. إن المجتمعات التى تنظم "الاستعراض المخفف المضحك" كما يشير جاياردیه، "ليس أقل اضطهاداً" من المجتمعات الدينية التى تزعم فى أوروبا الوصاية على الأخلاق الفردية(٥٢). إن "الفدية" شديدة الغلاء فى الحقيقة إذا كان الغلّ الموضوع على العادات هو الثمن الواجب دفعه من أجل وضع البطاقة فى صندوق الاقتراع.

ليس خطاب جاياردیه إذن استدراكًا سياسيا. إنه حقًا ـ حتى وإن كانت الكلمة ساحقة بالنسبة للمؤلف المشارك فى كتاب *برج نيل La Tour de Nesle* ـ تحولٌ معرفى. لقد تغير عهد الشيك على بياض المحرر لأمريكا على أساس وعد مؤسساتها الوحيد فى نظر "التقدميين" فى نهاية القرن هذا. إن أولوية الاجتماعى على السياسى تفتح الطريق أمام اتهام أمريكا على صعيد "الحضارة" ـ وهو باب لن تكف أهميته عن الازدياد فى الخطاب المعادى لأمريكا. إذا هيمنت على المرحلة الممتدة حتى الحرب العالمية الأولى إدانة أشد أشكال "الخطر" الأمريكى عنفًا، وإذا احتلت السخرية الثقافية فيها مكانًا متواضعًا نسبيًا، فإن نقد "طريقة الحياة" يشق طريقًا سيصير ملكيا. قبل أن يثير طريق الحياة الأمريكى الهلع فى حكايات مثقفى سنوات ١٩٣٠ بوقت طويل، كانت هناك مرافعة اتهام تُعَدُّ ضد الهول الأمريكى، أكثر سوسيولوجية وأقل جمالية من النفور الستندالى أو البودليرى: هلع من حياة خاضعة للكدّ يؤلف "العمل الشعر الوحيد فيها"، هلع مجتمع مسطح حيث "لا وجود لطبقة متوسطة، والحق أنه ليس هناك سوى العمال، عمال لا يملكون شروى نقير، وعمال يملكون الملايين، لكنهم يشتغلون دومًا"(٥٣). هلع من "الخلية المتسقة"، من "جماعة البشر"، من "قرية النمل"(٥٤). سيتذكر خلفاء جاياردیه ذلك عند وصفهم "مجتمع الجماهير" ـ ناسين بحكمة العلامة الأرستقراطية التى كان قد طبعه بها لمجرد الإثارة.

بارون عند الكوى ـ بوى

لقد منحت علاقة فريدريك جاياردیه القديمة مع الولايات المتحدة بعض التشجيع سلفًا، لكن حملته المعادية لأمريكا لن تبقى زمنًا طويلاً منعزلة؛ فبعد عشر سنوات، ستظهر الخلية الكبرى الكتابية حول أمريكا، وسيتمّ التهافت على العم سام. أما فى الوقت الحالى فإن على جاياردیه أن يكتفى بصفته رفيق طريق بصحبة إدمون دو ماندا – جرانسى.

وعلى أنه من الأقرباء البعيدين لتوكفيل الذى يفتخر بعدم مشاركته أفكاره، فإن

البـارون دو مـاندا ـ جـرانسى رجـعى مـتطرف. وبوصـفـه عنصـريًا هادئًا، مـعـاديًا للديمقراطية عن قناعة (لقد توقع تغطية ميناء نيو يورك بالرمال الذى صار لابد منه بسبب "روح الغفلة المحايث للحكومات الديمقراطية")، فإنه يبدو أكثر اهتمامًا بتحسين جنس الخيول منه بعمل المؤسسات الأمريكية. نضر ومصلّح، لا يفتأ يزخرف يوميات رحلته بملاحظات يفوح منها عطر الضاحية النبيلة. هكذا الأمر حين يسجل، مستنكرًا، أنه يرى فى نيويورك "قليلاً من عربات السادة" وأن "العربات التى ترى مربوطة على نحو ردىء، وفى حالة مبتذلة، يقودها حوذيون ذوو شوارب مزعجة"(٥٥)، أو كذلك حين يستنكر "الجهل الواسع فى فن الطبخ" الذى يعانى منه ستمائة ألف نسمة يعمرون شيكاجو، والذين لا يملكون أية فكرة عن سرطان النهر على طريقة مدينة بوردو، فى حين أن "هذه القشريات المدهشة تعج عمليًا فى كل الجداول المجاورة"(٥٦). هذه المآخذ الخطيرة، لابد لتفصيلها من قحة البارون النزق بأكبر قدر من الجدية وتضخيم ملف الدعاوى التى يحقق فيها ضد الولايات المتحدة. من الواضح أنه وجاياردييه لا ينتميان إلى الأسرة الفكرية ذاتها ولا إلى الاتجاه السياسى ذاته، لكن إذا كانت مؤلفات ماندا ـ جرانسى تحظى بأسهم لدى الأجيال القادمة أقل مما يحظى به كتاب ***الأرستقراطية فى أمريكا*** ***L'Aristocratie en Amérique***، فإن أهميتها تكمن على وجه الدقة فى تقارب النظرات الذى يلاحظ فيها مع مقال جاياردييه.

فى كتـابه ***الجبال الصخرية*** ***Les montagnes Rocheuses*** الذى نشر فى صحيفة ***Le Correspondant***، ثم لدى منشورات **Plon** عام ١٨٨٤، يكرر ماندا ـ جرانسى الأمر منذ ١٨٨٥. فكتاباه أثناء زيارة ***العم سام*** ***En visite chez L'Oncle Sam*** ونيويورك وشيكاجو يرسمان بسرعة، هذه المرة، أمريكا المدن بالحدة ذاتها. توسّع الهدف وتجذر الخطاب. وباتت اللهجة تنتقل بسهولة من السخرية إلى الاستنكار. إن ماندا ـ جرانسى مؤلف ذو اندفاع عابر، وكذلك مفكر ذو أفكار ثابتة. كان جاياردييه مسكونًا بالدوقات الديمقراطيات؛ فى حين أن باروننا مهووس بالكو ـ بوى. وليس هذا الهوس غريبًا عن استغلال مزرعة عائلية فى الداكوتا **Dakota** أطلق عليها اسم "زهرة الزنبق **Fleur de lys**"، سيذكرها رحالة لاحق هو بول روزييه فى كتابه ***الحياة الأمريكية*** ***La vie américaine*** عام ١٨٩٢ بوصفها ضربًا من مختبر وطنى يتم فيه تلقيح إناث الخيول الأمريكية بخيول الحراثة الفرنسية(٥٧)، لكنه على يقوم كل حال فى كتابه الجبال الصخرية برسم لوحة لا زخرفة فيها عن الكو ـ بوى، هؤلاء الرجال "الأكثر كسلاً من أن يعملوا فى المناجم أو فى المزارع، [...] وهم فى حرب دائمة مع الهنود"، ومنهمكين فى "إرهاب السكان" البيض أنفسهم(٥٨). إنهم "جرح الغرب"، ولا يزالون يتابعون ماندا –

جرانسى حتى المدن التى يكرس لها حكايته الثانية. لا يمتطى فيها "الكو - بوى المحتوم" جواده بلحمه وعظمه بالطبع. إذ لما صار "البطل المفضل لروائيى أمريكا المحدثين" فإنه ينطنط عبر الأدب. هذه الأسطرة الشاملة للكو - بوى - التى كان لا يزال أبعد من أن يتصور مستقبلها المزدهر والهوليودى - تثير حنق البارون وتخرجه عن طوره. أن تعتبر هذه البروليتاريا الرثة من "الشياطين المساكين" فروسية جديدة، وأن يتلف لاعبو الحبل هؤلاء "من أجل أجر شهرى من ٤١ دولار"، وأن يكونوا شجعانًا ومغامرين، هو ذا ما يكفى للبرهنة على أن ثمة شىء ما فاسد فى مملكة اليانكى[٥٩]... بل إن استياء ماندا - جرانسى من هذا المجد الأدبى للكو - بوى بلغ حدًا أنه وجد حلاً جذريًا ليخلص أمريكا منه: إحلال الهنود محلّهم. إن الهندى فى الواقع يمكن أن "يحل محل الكو - بوى على نحو مفيد"، ويضيف مستهدفًا الساخرين: "إن الفكرة التى أقدمها ليست يوتوبيا[٦٠]"، لنراهن أنه على قناعة بذلك.

هذا المشروع المدهش لإحلال الهنود محل الكو - بوى، والذى يبدو خارجًا لتوه من حكاية لألفونس آليه **Alphonse Allais**، يأتى فى نهاية تحليل لـ "المسألة الهندية" مطابق تمام المطابقة لتحليل جاياردبه: تذكير بالتضامن الحربى القديم بين الفرنسيين والهنود، استنكار سياسة الاستئصال التى يقودها اليانكى، تماهى مع الضحايا. "إن سياسة الأمريكيين إزاء الهنود بصورة عامة فظيعة"، كما يكتب ماندا - جرانسى. "إن هدفهم هو استئصالهم. ولا يخفى السياسيون ذلك، لكنهم يعتذرون، إذ يقولون إنها الطريقة الوحيدة لحل المسألة الهندية." لا يقبل ماندا - جرانسى هذا العذر، بل يعلن أن هذا التبرير للمذبحة "مزيف كل التزييف"، ويبرهن هو أيضًا على ذلك بالتعايش المنسجم بين الفرنسيين والهنود فى كندا القديمة، فى أكاديا **Acadie** الملغاة و ***in Acadia ego***...

ولكن مهما فعل البارون: فلا يبدو عليه أنه شديد الاقتناع بالسعادة القادمة للهنود وقد رقوا إلى مرتبة الكو - بوى بفضل وساطة فرنسا. يتساءل: "ما الذى سيكون عليه مستقبل هذا العرق الذى يتوجب علينا نحن الفرنسيون تجاهه أن نهتم به على وجه خاص؛ لأنه كان طوال أكثر من قرن حليفنا المخلص؟"[٦١]. لا يبدو أن البارون أو فرنسا يملكان الجواب عن هذا السؤال، ذلك لأن الهندى المخلص هنا كما هو الأمر لدى جاياردبه ليس إنسان أى أرض موعودة؛ إذ لما خرج من الفردوس المفقود (أمريكا المثالية والمزخرفة التى كان يتقاسمها بصورة أخويةً مع الفرنسى)، فإنه منذور للرحيل الجماعى وللموت. وذكىٌّ من يسعه أن يمرر إصبعه بين الكآبة القومية لجاياردبه والعنصرية الحنينية لماندا - جرانسى. إن الهندى الطيب الخاص بالمعادين لأمريكا

الفرنسيين هو شأن هندى الجنرال كيستر: هندى ميت، يسمح النواح السهل عليه فى آن واحد بتمجيد أمريكا الفرنسية المفقودة وبوضع المذبحة اليانكية موضع اتهام.

هكذا نرى نشوء وحدة خطاب، على صعيد متواضع فى نزعة معاداة أمريكا التى لا تزال تتلعثم. هؤلاء الفرنسيون المنقسمون بسبب أصولهم، وبسبب قناعاتهم، وبسبب قرن كامل من الأهواء السياسية المتناقضة، يتكلمون فجأة اللغة ذاتها. لقاءات خيالية، أو بالأحرى فى الخيال، دون شك. لكن إذا كان الإجماع الأيديولوجى حول أمريكا مجرد سراب، فإن تقارب العبارات هو فى حد ذاته "واقع"، يولد بدوره آثاراً أيديولوجية وسياسية. إن آلية التقارب انطلاقاً من حدود قصوى والتى لن تتوقف عن تأكيد ذاتها فى التاريخ الطويل للنزعة الفرنسية المعادية لأمريكا كانت مرئية منذ ذلك الحين لدى روادها: ذلك الذى يؤمن بالجمهورية وذلك الذى لا يؤمن بها ولا يشتركان تقريباً بأية فكرة، لكنهما يلتقيان فى رفض الولايات المتحدة. هذه الحركة فى التقارب الغريب تثير الدهشة على وجه الخصوص حين يتعلق الأمر بمصير الهنود والسود.

يحافظ فريديريك جاياردية إزاء الهنود على خطاب هو فى آن واحد ما بعد رومانتيكى وجمهورى، يختلط فيه التعاطف الأدبى وتمسك بمبدأ عالمية حقوق الإنسان. أما البارون دو ماندا - جرانسى فهو معاد للديمقراطية "حديث": إنه يؤمن بالعروق ولاسيما بالعروق الدنيا. ولا تبعث لوحته التى رسمها للهنود من قريب ولا من بعيد المتوحش النبيل. يكتب هذا الحامى بلا محاباة أن الهنود ذوى "بشاعة منفرة ومخيفة". إنهم ينحدرون من فرس النهر ومن وحيد القرن. "إنهم يبدون مع ملامحهم الكبيرة القاسية والساكنة مفتقرين لما لا أدرى لأىّ لمسة نهائية ويعطون الانطباع نفسه بعدم الاكتمال" الذى يعطيه هذان الحيوانان[٦٢]. نحن بعيدون عن هنود شاتوبريان، وبعيدون أيضاً عن اللوحة الحساسة الخالية من اللطف المتكلف التى رسمها لهم توكفيل فى عام ١٨٣٥. إن هندى ماندا - جرانسى هجين، نصفه شبه حركى(*) قبل الساعة[٦٣]، ونصفه الآخر شبه جنس مهدد بالانقراض. يُوصَفُ لنا هذا "الحليف المخلص" على أنه أقرب إلى الحيوانية منه إلى الإنسانية. ويسمح فى أفضل الأحوال، للبارون العطوف أن "يتصور إنسان ما قبل التاريخ"، لكن لا شىء من كل هذا يجرده من صفته ليقوم بالدور الذى يقوم به هنا بشرف كما يقوم به لدى جاياردية بوصفه شاهد اتهام ضد اليانكى المبيد. يوضح ماندا - جرانسى بصورة ممتازة المسلمة المعبر عنها أعلاه: يبدو الدفاع الملتهب عن جنس الهنود وجنس السود بوصفهما مضطهدين من قبل الأنجلو -

(*) حركى Harki: متطوع فى الجيش الفرنسى فى شمال أفريقيا قديماً. (المترجم)

ساكسون، فى الخطاب المعادى لأمريكا، منسجمًا تمام الانسجام مع العنصرية الصريحة أو الخفية لـ "محاميهما". والتنافر فى مواقف جايارديه وماندا – جرانسى سواء على صعيد المبادئ أو فى الساحة السياسية الفرنسية، يفقد هنا كل وضوح، كما لو أنه انحلّ بفعل الأثر الذى لا يقاوم لمنظورات المساحات الشاسعة الأمريكية.

إن معالجة "مسألة السود" تتسم فى أن واحد بأنها أشد عنفًا وأكثر احتيالاً؛ فعنصرية ماندا ـ جرانسى ليست معبدة هنا بأى نية طيبة. وبدون مراوغة يُعلن أنّ جنس السود هنا "أدنى من الجنس الأبيض بصورة مطلقة"(٦٤). إن مذهب العتق رجس فى نظر البارون الذى لم يغفر لفيكتور هوجو (فى هذه السنة ١٨٨٥ التى تنظم له فيها فرنسا مأتمًا قوميا) أنه "ذرف كثيراً من الدموع على مصائب جون براون وكل أمثال دومبروفسكى وكرابوسكى من الكومونة(٦٥)". ربط شديد الإيحاء بالعالم الثقافى لماندا ـ جرانسى كهذا الربط الذى يقيمه بين أبناء الكومونة ذوى الأسماء التى يصعب لفظها والمنادى الشهير بالعتق الذى شنق عام ١٨٥٩ فى شارلستاون Charlestown؛ لأنه حرض السود على التمرد، لكن هذه العنصرية المبدئية والمعبر عنها دون كتمان، لا تحول دون ماندا ـ جرانسى نفسه من أن يلقى على اليانكى المبغوض المسئولية الكاملة عن الوضع المزعزع المتفجر الذى أوجدته "مسألة السود". ولولا دعاية الشمال المنافقة لبقى السود فى مكانهم. إن اليانكيين هم الذين فتحوا علبة باندورا(*)، وبهذا المعنى فإنهم أشد سوءًا من العبيد القدماء الذين ضلوا بسبب وعودهم. ومن ثمّ كيف يُلامُ الجنوبيون لاتخاذهم بعض إجراءات الدفاع عن النفس ـ كإنشاء الكوكاوكس كلان ـ كردّ فعل على "حالة أشياء" لا تحتمل؟ وكيف لا يحلم المرء (بصوت عال) بإبادة اليانكيين على يد أولئك الذين زعموا تحريرهم بأى ثمن؟ يتنبأ ماندا ـ جرانسى بمرح: "إذا استمر ذلك، فإن اليانكيين الذين بذلوا جهداً كبيراً لتحرير الزنوج سينجذبون إليهم، كما انجذب التتار إلى الصينيين، أو سيتوجب عليهم إبطال الاقتراع العام"(٦٦).

بعد الهنود الذين حلوا محل الكو ـ بوى، لِمَ لا يحل السود فى الحقيقة محل اليانكى؟ إن البديل المقدم لأنجلو ساكسون أمريكا ينطوى على ميزة الوضوح. إن عليهم الاختيار بين زوالهم وتحطيم مؤسساتهم المؤسَّسَة بدءًا من *رجل مقابل صوت* one

---

(*) باندور بالفرنسية وباندورا باليونانية: امرأة أرسلها زيوس فى الأساطير اليونانية إلى الأرض لينتقم من بروميثيه ويعاقب الجنس البشرى الذى صار متكبراً بسبب امتلاكه النار المقدسة، تحمل جرة مليئة بالشرور جميعًا. (المترجم)

man, one vote ويكاد السود أن يحظوا برعاية (رعاية مؤقتة جدا) ماندا ـ جرانسى. سوى أن العدالة المتأصلة تود أن يكونوا أدوات العقاب ضد هؤلاء اليانكيين أنفسهم الذين أطلقوهم بكل معانى الكلمة. كان فريديريك جاياردية يرضى من سخرية التاريخ أقل رهبة، مشيراً إلى أن السود المحررين كانوا قد استخدموا حقهم فى الاقتراع لصالح أسيادهم القدماء، لكن لدى هذا أو ذاك يعمل الجدل نفسه الذى يقوم على تقديم اليانكيين فى آن واحد بوصفهم مستأصلى "الأجناس" غير الأنجلو ساكسونية وشأن مطلقى جنّ تحرير كاذب ومشئوم.

هل معركة كل من جاياردية وماندا ـ جرانسى معركة واحدة؟ لا فى فرنسا على وجه اليقين، لكن يكفى أن يضع أحدهما قدميه فى أمريكا ليتحدثا بصوت واحد تقريباً. تقارب مثير لا بدّ أن نقول عنه فى النهاية إنه لا يقتصر فى وجه من الوجوه على المسائل العرقية، ولا على هذه الاستراتيجية فى التضامن مع ضحايا اليانكيين التى قلنا عنها إنها ستؤلف فى المستقبل أساس قوة الخطاب المعادى لأمريكا. والواقع، أن تقارب تحليليهما التاريخيين فيما يخص العلاقات الفرنسية الأمريكية، ربما كان أيضاً أشد إثارة للذهول نظراً لانتمائهما لأسر فكرية نذرت كل منها للأخرى كراهية عميقة ومتبادلة منذ عام ١٧٨٩؛ لأن ماندا ـ جرانسى يتفق تمام الاتفاق مع تشخيص جاياردية حول عدم حب الأمريكيين للفرنسيين. فقد سجل هو الآخر أيضاً، لامبالاة أو عدائية الأماكن والأوساط التى اجتازها مع إشارة خاصة لمدينة شيكاغو: "نادراً ما التقيت عداء لفرنسا على هذا القدر من التميّز كالعداء الذى يصدر عن اللهجة العامة لصحافة شيكاجو"(٦٧). هناك فى فرنسا حول هذا الموضوع سوء تفاهم يتوجب إعادته إلى نهاية القرن الثامن عشر، شأن جاياردية، ولكن حسب منطق معاكس تماماً؛ لأنه إذا كان جاياردية يتهم الولايات المتحدة بخيانتها للجمهورية الفرنسية الفتية منذ عام ١٧٩٢، فإن ماندا ـ جرانسى يأخذ على حرب الاستقلال الأمريكية أنها قوضت استقرار الملكية وشقت طرق الثورة المشئومة. فى نظر الأول، برهن الشعب الأمريكى عن نكران للجميل رهيب، يتوجب عليه أن يجعلنا فى وضع حذر فى المستقبل؛ أما الثانى فيرى أن هذا الشعب الأمريكى نفسه منذ خطواته الأولى نحو الاستقلال كان بالنسبة لنا "مشئوماً"(٦٨)، ولكن الاثنين يتوصلان بهذه الطرق المتعاكسة، إلى النتيجة نفسها، ويوصيان باليقظة الدفاعية ذاتها، والقائمة على دروس التاريخ، تجاه شعب وهميّ الصداقة حقيقيّ المعاداة.

وجهة النظر نفسها حول حرب الانفصال كفرصة ضائعة. على أن تعاطف ماندا

– جرانسى أقل توقعًا من تعاطف جاياردیه: كيف لا يكون هذا الأرستقراطى المحافظ إلى جانب الفدراليين؟ لكنه حتى لو امتلك أفضل إرادة فى العالم لا يتوصل نصير الملكية الشرعية إلى أن يظهر أكثر تحزبًا للجنوب من نصير الجمهورية. وشأن جاياردیه، يخلط أوراق اللعب، ويطلق النرد ويعيد لعب الضربات مستعينًا بـ "كان يجب" و "كان يكفى أن"؛ لأنه كان يكفى دعم [الكونفدراليين] بصراحة لكى تكون أمريكا منقسمة إلى الأبد فى دولتين متنافستين تشلّ كل منهما الأخرى، إحداهما مؤلفة من شعب أكثريته ذات أصل فرنسى، كان يمكن أن تكون بالنسبة لنا حليفا ثمينًا..."[٦٩]. كانت المصلحة والشرف هنا على اتفاق: "مادام قد بدأ الحرب فى المكسيك، فقد كانت تلك هى الطريقة الوحيدة للخروج منها بشرف". إننا نتعرف السيناريو! فقد ترك الهرب الفرنسى من المسئوليات نشوء هذا الوحش المفترس: "الولايات المتحدة التى أعيد تكوينها"، والتى، منذ اليوم، "قادت الفتح الاقتصادى للمكسيك من خلال بناء شبكة سككها الحديدية، وسوف تستولى قريبًا على مضيق باناما كى تستفيد من الملايين التى نصرفها فيها بجنون". يبدو ماندا ـ جرانسى نبيا أفضل حين يعلن المصائب لفرنسا منه حين يتمناها للولايات المتحدة. إن مصادرة قناة باناما ستتم، كما توقع ذلك، ولكن لن يتم انفصال الغرب الأمريكى الذى حكم بأنه لا مفرّ منه[٧٠]. لقد لعبت فرنسا أوراقها على نحو ردىء لدى صراع عام ١٨٦٥ إلى درجة كان من اللباقة ومن التسامح معها مع ذلك أن تعطيها فرصة ثانية بتكرارها حرب الانفصال...

الطاعون وقمل النبات

لم يكن ماندا ـ جرانسى على العكس من جاياردیه خائب الأمل من رحلاته، لم يأت هو من أجل أن يسأل الديمقراطية، "هذه القوة السرية فى أوسع معبد لها"[٧١]، بل من أجل أن يكشف عن التضليل، وأن يدفع بقوةٍ ركيزةَ هذه النبيّة الرخيصة التى تدعى أمريكا. لا يحملنا البارون مع ذلك رغم كل احتقاره وصلفه على الشعور بالخوف؛ إذ حين تنفذ القريحة الساخرة تتيح استشفاف تكشيرة قلقة؛ لأنها مع كل عيوبها: فساد كامل للمسؤولين؛ ورداءة "مستوى المهاجرين" المتأخرين[٧٢]، وحماقة "الصيغة الجمهورية" التى "قلصت ميزات" السكان، لا تكف أمريكا عن أن تكون خطرة.

إنها خطرة ماديًا بقامتها، ووزنها الاقتصادى المتزايد، وبجشعها الفطرى، وهذه الطاقة العنيفة التى تنعكس حتى فى الاستخدام الذى يقوم الأمريكيون به للغة الإنجليزية. يكتب البارون وهو ليس جبانًا: "إن ألفاظهم الجديدة تحمل أحيانًا على القشعريرة، بالنظر إلى نشاطهم". وعلى الرغم من لهجته التى تعكس تفوقًا متلهفًا، فإن

صفحاته تفضح القلق؛ فالسخرية تنسحب من سطر إلى آخر لتفسح المجال لهلع حقيقى، أقل وضوحاً لكنه أكثر حدة من القلق المعقول لجاياردبه؛ إذ ما إن يبتعد ماندا ـ جرانسى عن الموضوعات المضحكة التى يتسلى بها بصوت عال، حتى تصير لهجته كئيبة. فجأة، هاهى العدوانية الأمريكية تذكره بـ"حكاية رفيق أسرَةُ الكاناك Canaques الذين كانوا يريدون أكله"(٧٤). ترابط أفكار غريب لا توضح التتمة معناه، لكنه يترجم ضرباً من فزع الفكر الذى كان مرتعاً لأمريكا. يكتب ماندا ـ جرانسى "نحن إلى حد ما فى الحالة ذاتها" التى كان عليها هذا الرفيق المهدد بمرجَلِ الكاناك. "إننا نعى ما تمَّ هنا، ونرى بوضوح تام ما سيتم هنا :[...]هذا المستقبل، إن لم ننظمه فسنواجه هلاكنا، وانقلاباً عاماً، تتقلص فى إثره فرنسا إلى ١٥ مليوناً من السكان." هل نتجه نحو إبادة الفرنسيين؟

الصيغة قوية وتنذر بالصراع، متى ستوضع المدافع الفرنسية على نهر هدسون Hudson River؟ من المدهش، هنا أيضاً، رؤيةُ عدوانية ماندا ـ جرانسى الجامحة نسبيا تلتحق بريبة جاياردبه الأكثر حذراً حول ثيمةٍ سوف تطلق عنان الخيال حتى نهاية القرن عن حرب قريبة مع الولايات المتحدة. يبدو ماندا ـ جرانسى يتمناها حرباً وقائية لا غنى عنها لبقائنا. فى حين أن جاياردبه كان يسجل باعتدال ولكن بيأس أن الحرب كادت فعلاً أن تقع فى عام ١٨٨١، عند التدخل الأمريكى فى الصراع بين شيلى والبيرو. "لو استمرت الوزارة فى واشنطن فى الإلحاح على فرض تحكيمها على شيلى والبيرو [...]، لوقعت الحرب مع قوى أوربا البحرية(٧٥)." ومع تأكيده أن "الجيل الأمريكى الجديد [...] يظن نفسه على قدر من القوة يسعه معها أن يلقى بظله على أوربا بأجمعها"، فإن جاياردبه لا يزال يريد الاعتقاد بحكمة الأكثرية. إن معادى أمريكا فى سنوات ١٨٩٠ لا يشاركونه تفاؤله النسبى، بل يجهدون على العكس فى البرهنة على أن ما يسود بين فرنسا والولايات المتحدة إنما هو منطق الحرب. والسؤال الوحيد سيكون فى نظرهم معرفة أى شكل ستتخذه هذه الحرب: صريحة؟ أم مقنعة؟ أم فى أماكن متفرقة؟ بانتظار ذلك، يمكن للجميع أن يستنتجوا شأن بول دو روزييه Paul de Rousiers فى عام ١٨٩٢ (قبل ست سنوات من حرب كوبا) : "الموقف الوحيد الواجب اتخاذه هو إذن التسلح بانتظار الصراع الذى لا مفرَّ منه(٧٦)".

على أن ما تعده أمريكا بهدوء على قدر ماندا – جرانسى ليس بالضرورة صراعاً بواسطة القوة الصريحة؛ فكما هو الأمر مع علبة باندورا، يُخرِجُ البارون منها كما يشاء أنقاض معاركنا من خلال تنافس الخمور الكاليفورنية ولحم البقر بـ ٨ قروش لخمسمائة جرام (مقابل ٢٠ قرشاً فى مدينة الهافر: "لا يمكن لهذا الأمر أن يدوم"(٧٧))

أو تخريب المجتمع بواسطة "مدرسة المعجبين" بأمريكا هذه، والتى تجعلنا "نتبنى المؤسسات الأمريكية" واحدة بعد الأخرى، بدءًا من نظام المحلفين المحزن(٧٨). أمركة ماكرة يدبرها فى فرنسا طابورٌ خامس يمتدّ من المرحوم الخال توكفيل، المذنب بتقديمه "استشهادات لعدة أجيال من المذهبيين"(٧٩)، ويصل إلى "شيوعيين" غامضين(٨٠) متعاطفين مع أمريكا مرورًا بفيكتور هوجو الذى مجّد جون براون.

إن ما تتعرض له فرنسا من خطر ضمن المنظور الأخير لن يكون الغزو بقدر ما ستكون العدوى. وربما كان ماندا - جرانسى أول معاد لأمريكا منذ دو بوو يشير إلى أمريكا بوصفها عاملاً ناقلاً للعدوى بل وحتى (وهو ما يجعلها أشد إرهابًا) بوصفها حاملاً سليمًا للأمراض السياسية والاجتماعية. "ثمة كثرة من المؤسسات هى بالنسبة للأمريكيين ما هو قمل النبات بالنسبة لكرومهم. إنهم يتألمون منها لكنهم لا يموتون بسببها، لكنها ما إن تنتقل إلينا حتى تصبح مميتة(٨١)." كانت الصورة المجازية من واقع الحال؛ إذ امتد المرض فى أعوام ١٨٧٠ إلى كروم الجنوب الغربى ووعى الفرنسيون تمام الوعى آنئذ مدى الكارث؛ لأنّ *قمل النبات* ***phylloxera vastatrix*** وابن عمه الأمريكى ***pemphigus vitifolia*** الذى تم التعرف عليه فى عام ١٨٥٤ كان إلى حد كبير كابوس فرنسا الريفية والمختصة بزراعة الكروم والمحبة بكثافة للخمر. سوف تستخدم هذه الصورة اللغوية كثيرًا بانتظار أن يحل محلها صورة أخرى أشد درامية أيضًا: "السرطان الأمريكى"، التى ستكون عنوان بحث كتب عام ١٩٣١. أليس قمل النبات ذاته مؤامرة؟ يكتب إميل باربييه **Emile Barbier** فى عام ١٨٩٣: "ذات يوم ستأتى إلى بوياك **Pauillac** حمولات من خمر البوردو الأمريكى ليحل محل خمورنا التى قضى عليها قمل النبات"(٨٢).

ياله من قمل ثمين! فهو يقدم باعتباره مرادفًا فى آن واحد للغزو وللتخريب، صورة بلاغية مثالية لهذا الشر الزاحف المتمثل فى الأمركة؛ لأن الأمركة ليست مجرد تبنٍّ أو نسخة أو حتى فرضٍ لملامح مؤسساتية أو اجتماعية أو ثقافية أمريكية، بل هى آلية عدوى وفساد. إن ما ينتقل من أمريكا إلى أوروبا ويستقر فيها بمعنى انتقال العدوى ينتمى دومًا إلى ما هو أسوأ. لم يحدث أبدًا أى انتقال منتج "بينهم" و "بيننا"، بل مجرد مبادلات فاسدة. كان جاياردييه يرى فى ذلك نوعًا من القانون الطبيعى: "تتأمركُ أوروبا كل يوم، لكن العرقين يستعيران من بعضهما البعض عيوبهما لا ميزاتهما(٨٣)." عبر خيال العدوى هذا تكتشف أوروبا وتصف نفسها للمرة الأولى هشة، وواهنة ومفتقرة إلى المناعة: "قارة عجوز صارت فريستهم" كما يكتب رحالة فرنسى فى عام ١٨٩٣(٨٤).

على أنهما قناصان رائدان لنزعة معاداة أمريكا فى نهاية القرن، لكنهما لم يكونا الناطقين باسمها؛ فخوفهما، وخيبتهما، وغضبهما شخصى إلى حد كبير، سوى أن شهادتيهما فى دوائرها الأساسية، لا تقلان استباقًا لنزعة معاداة أمريكا الواعية خلال السنوات العشرين التالية.

إننا نشهد لديهما وضعهما المبكر لإنجيل معادٍ لأمريكا مؤلفٍ من أفكار عامة مشتركة. عرض تاريخى شائع مع إعادة قراءة خائنةٍ للعلاقات الفرنسية الأمريكية، أسف على الحياد الفرنسى خلال حرب الانفصال؛ واستنكار أهداف الهيمنة على القارة التى تعمل على تحقيقها الولايات المتحدة "المعاد تكوينها". عرض عنصرى شائع، مع استنكار المصير المكرس لغير اليانكيين، والذى يشبه الإبادة، وبالتضاد تمجيد ماض "هجين" خاص بالوجود الفرنسى فى أمريكا؛ اللجوء المنتظم لمفهوم "العنصر الأنجلو ساكسونى" لتسمية العنصر المسيطر فى أمريكا الجديدة. وأخيراً عروض ثقافية شائعة، وهى أكثر لدى مناظرينا من أن تستعاد من جديد، لكن قائمتها تنتظم، مع تركها المكان للأمزجة الشخصية (الكو ـ بوى عند ماندا ـ جرانسى)، فى عناوين ستُكَرَّسُ أمداً طويلاً: بشاعة المدن وافتقار الرجال للذوق، ضعف التبادلات الثقافية وسطحية المحادثات، مكانة مبالغ فيها تحتلها المرأة فى بيتها وفى المدينة؛ عدم فعالية وفساد والمؤسسات العامة القابلة للرشوة، بالطبع، عبادة الدولار، العجل الذهبى لهذه الديمقراطية التى يفضل جايارديه تسميتها بـ"الأرستقراطية"، والتى يدينها ماندا ـ جرانسى بوصفها حكومة الأثرياء.

هوامش

(١) استشهاد في :

Simon Jeune, *Les Types américains dans le roman et le théâtre français* (1861-1917), Paris, Didier, 1963, p. 168. يختلف عنف ساردو اختلافًا جذريًا مع المعالجة المسرحية للأمريكي قبل ١٨٧٠، بناء على نموذج "الهزلي الضخم" (المرجع السابق، ص. ١٦٢).

(٢) Sardou, *L'Oncle Sam*, Acte I, scène 3.

(٣) العبارة هي لجاك بورت، انظر : Jacques Portes, *Une fascination réticente, Les Etats Unis dans l'opinion française*, Presses Universitaires de Nancy, 1990, p.154.

(٤) E. de Laboulaye, *La République constitutionnelle*, Paris, Charpentier, 1871, p. 16.

(٥) *Ibid.*, p. 9.

(٦) J. Portes, *Une fascination rétlcente* ..., p. 155.

(٧) L. Gambetta à la Chambre des députés, 28 décembre 1876 استشهد به ج.بورت (*Ibid*) الذي يشير إلى أن التلميح يستهدف بوضوح لابولي، مؤلف «Lettre d'un Américain» التي ظهرت في اليوم السابق في صحيفة *Journal des débats*.

(٨) Voir de Catherine Hodeir, "La campagne française ", dans *la Statue de la Liberté. L'exposition du centenaire* (Musée des Arts Décoratifs/New York public Library, 1986-1987), Musée des Arts Décoratifs et Sélection du Reader's Digest pour la version française du catalogue, 1986 ; pp. 132-153.

(٩) *Frank Leslie's Illustrated Newspaper*, 30 août 1884; Ibid.,p. 174, ill. 371.

(١٠) *E. Johanet, Autour du monde millionaire*, Paris, Calmann-Lévy, 1898, p .56. 10)

(١١) لنذكر أن كلمة جادجيت gadget (لهوة) تجد جذرها المحتمل في اسم بيت جاجيه الذي كانت له فكرة تسويق نسخ مصغرة عن التمثال.

(١٢) حول تطور التصاميم، انظر L'Idée et la forme لبيير بروفوايور Pierre Provoyeur الذي يشير أيضًا إلى أن هذه الأصفاد الموضوعة عند القدمين يمكن ألا ترى أو ألا تعرف (*La Statue de la Liberté*, édition citée, p. 86-109) .

(١٣) Voir C. Hodeir, La campagne américaine, ibid., p. 153.

(١٤) V. Hugo, O.C., sous la dir. de Jules Massin, Club Françals du Llvre, 1970, t. XV-XVI, 2, p. 915.

(١٥) لقد قدم على هذا النحو فى :

Le Voyage en Amérique et principalement à Chicago de marquis de Chasse-loup-Laubat (Paris, *Extraits des Mémoires de la Société des Ingénieurs Civils de France*, 1893, pp. 49-50).

(١٦) F. Gaillardet, L'Aristocratle en Amérique, Paris, Dentu, 1883, p. 6.

(١٧) *Ibid.*, p. 5.

(١٨) A. de Tocquevllle, *De la Démocratie en Amérique* (II), Paris, Robert Laffont, collection Bouquins, édition par J.-Cl. Lamberti et F. Mélonio, 1986, p. 432. p. 123.

(١٩) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique*,

(٢٠) *Ibid.*, p. 157.

(٢١) *Ibid.*, p. 7.

(٢٢) *Ibid.*, p. 157.

(٢٣) وهى المعاهدة التى أبرمها جاى Jay، يعتمد جايارديه على مقال بيرا Peyratالذى نشرته صحيفة La Presse فى ٢٨ اكتوبر ١٨٦٠.

(٢٤) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique*, 144.

(٢٥) مرارة أخرى فى العام التالى؛ فقد توجب تأجيل الاحتفال التذكارى تكريمًا للاسال بسبب فيضان الميسسبى، لكن جايارديه يمتنع على كل حال عن استخلاص حجة من ذلك ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢٦) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique*, p. 123.

(٢٧) *Ibid.*, p. 146.

(٢٨) *Ibid.*, p. 3.

(٢٩) *Ibid.*, p. 358..

(٣٠) *Ibid.*, p. 348.

(٣١) *Ibid.*, p. 349.

(٣٢) Edmond Demolln, A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons?, Paris, Didot,

1897, p. III.

ملاحظة ديمولان عرضية أكثر منها دقيقة : فتعبير ثابت منذ ١٨٣٧ في الولايات المتحدة لتسمية أوروبا. و الازدراء " هو الآخر لايعود إلى عام ١٨٩٧...

(٣٣) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique*, p. 341.

(٣٤) *Ibid.*, p238.

(٣٥) *Ibid.*, p. 264.

(٣٦) *Ibid.*, p. 5.

(٣٧) *Ibid.*, p. 254.

(٣٨) *Ibid.*, p. 250.

(٣٩) *Ibid.*, p. 66.

(٤٠) *Ibid.*, p. 233.

(٤١) *Ibid.*, p. 267 .

(٤٢) *Ibid.*, p343.

(٤٣) *Ibid.*, p. 24.

(٤٤) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique*, p. 75.

(٤٥) V. Sardou, L'Oncle Sam , Acte I, scène 3.

F. Gaillardet, L'Aristocratie en Amérique, p. 66.

(٤٦) *Ibid.*, p. 211.

(٤٧) *Ibid.*, p. 236.

(٤٨) *Ibid.*, p. 58.

(٥٠) إذا ما طلب إلى أين أضع الأرستقراطية الأمريكية، فسأجيب دون تردد أنني لن أضعها بين الأغنياء الذين لا يملكون أي رابطة مشتركة تجمع فيما بينهم. إن الأرستقراطية الأمريكية هي على مقاعد المحامين وعلى كراسي القضاة": A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique* (I),...p. 257.

(٥١) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique*, p. 155.

(٥٢) *Ibid.*, p. 235.

(٥٣) *Ibid.*, p. 221.

(٥٤) *Ibid.*, p371.

(٥٥) E. de Mandat-Grancey, *En visite chez L'Oncle Sam*. New York et Chicago, Paris, Plon, 1855, p. 47.

(٥٦) E. de Mandat-Grancey, *Dans les Montagnes Rocheuses*, Paris, Plon, 1884, p.178.

(٥٧) فى مزرعة (!) Au Fleur de lys مثلاً ، فى داكوتا (!) Dacotat، يشارك خمسة أو ستة فرنسيين السيد البارون دو جرانسى فى تربية الخيول وينفثون بوطنية دم خيول الحراثة فى إناث الخيل الأمريكية الأخف من أن تقوم بالحراثة - انظر :

Paul de Rousiers, *La Vie américaine*, Paris, Didot, 1982, p. 53.

(٥٨) E. de Mandat-Grancey, *Dans les Montagnes Rocheuses*, Paris, Plon, 1884, p.13.

(٥٩) E. de Mandat-Grancey, *En visite chez L'Oncle Sam...*, pp. 51-52.

(٦٠) E. de Mandat-Grancey, *Dans les Montagnes Rocheuses*, Paris, Plon, 1884, p.32.

(٦١) *Ibid.*, p. 31.

(٦٢) *Ibid.*, p. 19.

(٦٣) بمناسبة سيتينج بول يكتب ماندا - جرانسى أنه كان " يسعه أن يكون جنرالاً فى سلاح الفرسان " - سلاح الفرسان الفرنسى كما هو مفهوم (*Dans les Montagnes Rocheuses* ص. ٢٣٦).

(٦٤) E. de Mandat-Grancey, *En visite chez L'Oncle Sam...*, p. 203.

(٦٥) *Ibid.*, p198.

(٦٦) *Ibid.*, p. 202.

(٦٧) *Ibid.*, p. 255.

(٦٨) *Ibid.*, p. 268.

(٦٩) *Ibid.*, p. 269.

(٧٠) E. de Mandat-Grancey, *Dans les Montagnes Rocheuses...*,P.164.

(٧١) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique...*, p. 3.

(٧٢) منذ *Mayflower*، يكتب ماندا ـ جرانسي الذي يسافر على باخرة *La Provence*، " إن مستوى المهاجرين لم يتحسّن " (*En visite chez L'Oncle Sam...*, p. 11)، ثيمة للمستقبل، هنا أيضاً.

(٧٣) *Ibid.*, p. 81.

(٧٤) *Ibid.*, p. 266.

(٧٥) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique..*, p. 357.

(٧٦) Paul de Rousiers, *La Vie américaine*, Paris, Didot, 1982, p. 682.

(٧٧) E. de Mandat-Grancey, *Dans les Montagnes Rocheuses...*,P.302.

(٧٨) E. de Mandat-Grancey, *En visite chez L'Oncle Sam...*, p. 273.

(٧٩) *Ibid.*, p. 59.

(٨٠) *Ibid.*, p. 270.

(٨١) *Ibid.*, p. 68.

(٨٢) Emile Barbier, *Voyage au pays des dollars, Paris, Marpon et Flammarion*, 1893, p. 337.

(٨٣) F. Gaillardet, *L'Aristocratie en Amérique...*, p. 367.

(٨٤) *Ibid.*, p. 339.

الفصل الرابع
من هافانا إلى مانيلا :
العالم للأمريكيين

إن للكوكب حدوداً... ما الذى ستصير عليه أوروبا المتفرقة أمام هذا الغول الواقعى؟

جول هوريه، فى أمريكا (١٩٠٥)

سيسيطر الشعب الذى يملك هذه القارة على العالم فى القرن العشرين، لا يمكن أن يكون هناك شك من هذه الناحية.

أوربان جوهيه

شعب القرن العشرين فى الولايات المتحدة (١٩٠٣)

كانت سنوات ١٨٨٠ عصر الشك، هل كانت حقا هذه الولايات المتحدة التى كثيراً ما مُجِّدت والفخورة بنفسها، جديرة بإعجابنا وبتقديرها لنفسها ـ المعلن عنه بأكثر مما يحتمله ذوق الرحالة الفرنسيين؟ كان جاياردیه وماندا ـ جرانسى، القادمان من الطرفين الأقصيين للطيف الأيديولوجى، قد حملا السؤال إلى الساحة العامة، وأجابا معًا بالسلب. صوتان منعزلان، كما سبق وقلنا؛ ولكن إلى أمد قصير. هاهما يجدان منذ سنوات ١٨٩٠ من يلتحق بهما ويتجاوزهما؛ فالجماعة المعادية لأمريكا تتضخم، والشائعة تتورم، واللهجة تتغير، وهاهو عصر الظن يخلف زمن الشك. لم نعد نكتفى بالأسف على عدم الحساسية أو اللامبالاة الأمريكية، بل ندين العدائية النشطة والطموح العنيف الجمهورية عبر الأطلسية. إننا نقلق من تحولها "الإمبراطورى". ويصير الخوف الأصم خلال سنوات حالة إنذار حقيقية؛ فـ"الخطر الأمريكى" لم يعد افتراضيًا، ولا منتظراً على المدى البعيد. إنه منتظر غداً وهو أكيد.

على أن فكرة أمريكا خطيرة على فرنسا ليست مع ذلك مجرد تحصيل حاصل أيًا كانت قلة مشاعر التعاطف التى يُعبَّرُ عنها تجاهها. ومما لا شك فيه أنها لم تكن لتنبث بمثل هذه السرعة دون الحدث الذى جاء قبل سنتين من نهاية القرن ليطبع ختم "الواقع" على مجموع لا يزال غامضًا من الحذر ومن التخمين. وفى الواقع تلقت تنبؤات

المتشائمين القاتمة فى عام ١٨٩٨ تأكيداً مذهلاً؛ فقد أعلنت الولايات المتحدة الحرب على إسبانيا، وحطمت أسطولها، وهبطت فى كوبا وعما قريب فى الفيليبين. كان لهذه الحرب الإسبانية الأمريكية دويٌّ هائل فى فرنسا. سيصف فاليرى فيما بعد هذه "الصدمة المفاجئة" بوصفها رضّة مؤسِّسَة. أما بالنسبة لنزعة معاداة أمريكا لدى كثرة من الفرنسيين على كل حال، فقد شكل هذا "الاعتداء" حافزًا قويًا.

اثنتا عشرة سنة فقط مضت بين الحفلة البحرية التى احتفلت سلمياً بنصب مس ليبرتى فى خليج نيويورك وقصف القوات البحرية الأمريكية لهافانا، لكن هذه السنوات الاثنتا عشرة زلزلت عالمًا بأكمله من التصورات. ففى نهايتها، برزت عصبة وفيرة نابهة وصاخبة كان يسعها أن تضم مستصلحى نزعة معاداة أمريكا أو بالأحرى كان يسعها أن تكون امتداداً لهم، مزودة بمطاعن جديدة وقوية بحجج جديدة.

لو كان هناك معنى لمنح نزعة معاداة أمريكا الفرنسية صك تعميد لوجب إذن تأريخه بعام ١٨٩٨، إشارة قليلة التوافق مع منطق هذا التحقيق؛ فأية منظومة تصورات لا تنمو كالفطر، بل هى نتيجة ترسب بطيء للخطابات. يبقى أنه فى لحظة معينة قابلة لأن تُعرَف تختمر: فالأفكار التى كانت تتمشى فى شوارع صغيرة متباعدة تتبختر فى جادة الآراء العريضة، أو لنقل على نحو أفضل: إنها تتخذ شكلاً. أحكام مسبقة متفرقة، ومطاعن متناثرة، وذكريات تاريخية تعيسة: مواد كاملة من المآخذ سيئة الصياغة وأحقاد عائمة تترسب وتستقر. إنّ الإشارة إلى سنة ١٨٩٨ هذه لا تفيد إذن ضمان وهم وجود "نقطة انطلاق". يمكننا الحديث عن عتبة بالمقابل من حيث إن نزعة معاداة أمريكا الفرنسية اعتباراً من هذه اللحظة، بلغت حالتها الثابتة. لا يحمل ذلك على القول إنها لن تتغير فى شيء، بل إن تنوعاتها اللاحقة (الأيديولوجية، والسياسية، والأخلاقية) لن تكون سوى مشتقات من هذا الراسب من نهاية القرن. لن تضمحل إبداعية عائبى أمريكا بسبب ذلك، ولا كذلك حيوية المناظرين. سيسمح كل ظرف تاريخى للأجيال المتعاقبة بإثراء الحجج المعادية لأمريكا. وسوف تنعش "مداخلات" أخرى، وحروب أشد قسوة من حرب ١٨٩٨، السخطَ ضد قانون الأقوى المفروض بصورة إمبريالية، ولسوف يعيد العديد من الخلافات الاقتصادية أوالجيو سياسية أو الرمزية أو الأخلاقية على نحو منتظم تجهيز نزعة معاداة أمريكا بالذخيرة، لكن التصميم الأساسى كان قد ثبت منذ نهاية القرن التاسع عشر.

لم تكن صدمة ١٨٩٨ "غير متوقعة" بالنسبة لكل الناس. لم تكن على كل حال غير متوقعة بالنسبة لكل من عبّروا بالزعيق خلال أكثر من عشر سنوات عن قلقهم دون جدوى؛ فالإهانة التى وُجِّهت لإسبانيا جلبت لهؤلاء المتنبئين(*) بالمذلّة الفرنسية والأوروبية الرضا المرّ المخصص لأنبياء الشؤم؛ فإنذارهم حول استفحال القوة العسكرية للولايات المتحدة، وتحذيرهم ضد شهية "الغول" الأمريكى التى تقل السيطرة عليها بالتدريج: كل ذلك يجد المصادقة عليه من قبل الحدث، إلا أنه فى ثغرة الثقة الفرنسية هذه تتجمع شكوك أخرى قادمة من مكان آخر. أعراض مقلقة، لكنها معزولة، هى الآن مجتمعة، ومترابطة، وموجودة على لوحة وصف الأمراض لمرض أمريكى لا يقتصر على مجرد حكّة إمبريالية؛ ففى الوقت نفسه الذى تظهر فيه أمريكا قاهرة وإمبريالية، يكشف هذا التشخيص الجديد أمريكا فظة وغير عادلة. وفى ضوء أزمات العمل المذهلة فى سنوات ١٨٧٠ – ١٨٩٠، يكتشف الفرنسيون فى دهشة وفى رعب عنف العلاقات الاجتماعية التى كانوا يظنونها سلمية بفعل الثقافة الديمقراطية.

ظهر هذا الوعى، شيئًا فشيئًا، بفضل المعارض العالمية بوجه خاص والعلاقات التى يقيمها المندوبون العمال أو الحرفيون الفرنسيون خلال إقامتهم الأمريكية(١). ومنذ معرض فيلادلفيا فى عام ١٨٧٦، انتهز ممثلو عشرين مهنة فرصة هذا التواصل الاستثنائى مع العالم الجديد لكى يتفحصوا بدقة الأساطير والوقائع حول الوضع العمالى الأمريكى. وكان حكمهم خاليًا من الحماس؛ فمن خلال نظرتهم، يظهر فردوس العمال الذى حلم به جمهوريو ما قبل ١٨٧٠ كما لو أنه فردوس ضائع. وتنظيم العمال فيما وراء الأطلسى أبعد من أن يكون قد وفى بوعوده. إن أمريكا بلد رأسمالى كالبلدان الأخرى - وربما أسوأ من الأخرى. (سوف تثير هذه المناقشة كما سنرى فى فصل تالٍ خلال عدة عشرات من السنين الاشتراكية الأوروبية). ومما لا شك فيه – على كل حال بالنسبة لهؤلاء الزوار العمال، وهم هنا ميكانيكيون – أنَّ الفصل حاسم هنا شأنه فى أوروبا بين "الذين يعيشون من عمل الآخرين والذين ينتجون"، و"هؤلاء هم، بكل بشاعة التعبير، تحت رحمة أولئك"(٢). يذهب بعض المندوبين إلى أبعد من ذلك: "وبدلاً من أن تكون الأرض الموعودة للعمال، فإن الجمهورية الأمريكية الكبرى صارت على شاكلة

(*) استخدم المؤلف كلمة Cassandre، وهى شخصية من الأساطير اليونانية منحتها الآلهة قدرة التنبؤ بالمستقبل دون أن يصدقها أحد، (وهى تتنبأ لدى هوميروس بمصائب طروادة، لكن أحداً لم يصغِ إليها). (المترجم)

أوروبا، جهنمًا اجتماعيةً حقيقية. فالتنافر الذى يتكشف يومًا بعد يوم أشد حدّة وأكثر اضطرامًا بين العمل ورأس المال يجب أن يُبَدِّدَ آخر أوهام الذين يروق لهم أن يجعلوا من الولايات المتحدة آخر ملجأ للهناء البشرى". يشير جاك بورت الذى يستشهد بتقرير خياطى الثياب هذا أنه "ليس استثنائيًا حقًا" فى قسوته[٣]. وسيكون المعرض المذهل المنظم فى شيكاغو عام ١٨٩٣ مناسبة أمام وفد العمال كى يجد تأكيداً لهذه التحليلات المتشائمة، التى يفاقم من خطورتها الهلع المتزايد (الذى يشارك الشعور به رؤساء الصناعة) أمام اكتمال وتعميم هذه الآلات - الأدوات.

هذه الملاحظات وهذه التحليلات هى صنع جماعات محدودة، وكان يمكن لإذاعتها أن تظل محصورة ضمن حدود التعاونيات المناضلة، لكن الانفجارات الاجتماعية المريعة فى عام ١٨٧٧ و١٨٨٦ أعطتها صدًى مدويًا، فى حين أن محاكمة هايماركت Haymarket سوف تصوب ضربة قاتلة لوهم آخر: الوهم الذى كان ينزع للجمع فى ذهن الجمهوريين الفرنسيين بين المؤسسات الديمقراطية وتساوى الجميع أمام العدالة.

لا يمكن لتدشين تمثال الحرية من هذه الناحية أن يتم فى أسوأ وقت كما هو وقت نهاية السنة المرعبة ١٨٨٦؛ فبعد أقل من عشر سنين مضت على المصادمات شبه التمردية *للانتفاضة الكبرى* - *Great Upheaval* لعام ١٨٧٧، كانت موجة من الإضرابات شديدة القسوة تهز البلاد بأجمعها من جديد: ما يقارب ألفًا وخمسمائة إضراب خلال سنة واحدة فى عشرة آلاف شركة أمكن تقدير إضرارها لنصف مليون من الأشخاص. وقد ضمت منظمة فرسان العمل، التى أنشئت فى عام ١٨٦٩ من قبل زمرة من عمال النسيج ما يقارب أكثر من ٧٠٠٠٠٠ عضو فى منتصف عام ١٨٨٦ (مقابل ١١١٠٠٠ قبل سنة من ذلك)[٤]. ولما كانت هذه الإضرابات موجهة قبل كل شىء ضد تخفيض الأجور الذى فرضه أرباب العمل فى كل القطاعات، فقد انتصر بعضها كإضراب Southwestern Railroad System الذى جعل Jay Gould الملقب بـ"Wizard of Wall Street" يتراجع، لكن الكثير منها فشل أمام الاستخدام المنتظم لمحطمى الإضرابات والميليشيات الخاصة، دون أن يكون ذلك على حساب اللجوء للقوة العسكرية.

وقد زادت حركة يوم العمل بثمانى ساعات التى أطلقت على صعيد البلاد عدد المواجهات، وكانت مدينة شيكاغو التى أخرس فيها النقابيون والفوضويون وفرسان العمل خلافاتهم هى مركز المراكز. هنا سيجرى الحدث المكرس ليكون تاريخيًا لفترة

طويلة، فيما وراء ولاية إلينوا لا بل وفيما وراء الولايات المتحدة. كان يوم الأول من مايو هو يوم الإضراب من أجل ثماني ساعات عمل في اليوم إضرابًا ناجحًا، مع أكثر من ٣٠٠٠٠ مضرب عن العمل. كانت الانتصارات تتراكم قطاعًا بعد قطاع مشجعة بذلك إضرابات أخرى. وفي الثالث من مايو، وفي الوقت الذي كانت فيه الحركة تبلغ أوجها تطلق الشرطة النار على المضربين الذين كانوا يتشاجرون بعنف مع "صُفر" مصنع ماكورماك McCormack، مما أدى ذلك إلى أربعة قتلى وعديد من الجرحى. كان قد تمّ الإعداد لعدد من اجتماعات الاحتجاج، وكذلك لاجتماع جماهيري في هايماركت سكوير يوم الرابع من مايو مساء. لم يضم هذا الاجتماع إلا القليل، ولقد جعلته الأمطار في نهايته يقتصر على ثلاثمائة شخص. تدخلت الشرطة آنئذ لتفريقهم، وأطلقت قنبلة تسبب عنها قتيل وعدة جرحى بين الشرطة. أثار هذا الاغتيال الذي أسند إلى الفوضويين المقيمين في شيكاغو حملة صحفية عنيفة ضد المضربين، وقمعًا شديداً. تم القيام باعتقالات جماعية وتعسفية، وأدين سبعة فوضويين وحكم عليهم بالإعدام رغم غياب الشهود وانعدام البراهين، وأعدم منهم شنقًا أربعة.

كان تأثير هذه الأحداث على الرأي العام الفرنسي هائلاً، ولم يقتصر أبداً على عالم العمال؛ فقد هيأ له النقابيون والاشتراكيون دعاية واسعة من خلال احتجاجاتهم، لكن الصحافة المحافظة لم تُقصِّر: فالفرصة شديدة المناسبة لتحقير ***الجمهورية النموذج Model Republic*** التي كانت عزيزة على خصومهم الجمهوريين ولمحو مصداقية "التقدميين". وسوف تخلِّدُ الحركة النقابية الفرنسية سنة بعد سنة هذه الذكرى من خلال أيام عطلة غير شرعية وغالبًا ما كانت دموية. ووضع قرار الاحتفال من الآن فصاعداً بيوم الأول من مايو كيوم نضال اجتماعي في العالم في مركز الذاكرة العمالية جريمة ارتكبتها أمريكا. إن ذكرى هايماركت، ولا سيما القمع البوليسي والشرعي، والذي كان الاغتيال مناسبة له سيبقى في قلب نزعة معاداة أمريكا اليسارية مع قدر من الإصرار؛ حيث سيتم إحياؤها بعد ثلاثين سنة من قبل حدثين دراميين سياسيين وقضائيين نظر إليهما وأحس بهما بوصفهما تكراراً للجريمة القضائية الأصلية: محاكمة ساكو وفانزيتي Sacco et Vanzetti ومحاكمة روزنبرج Rosenberg.

وينضاف إلى إبطال صفة القداسة عن النظام السياسي بفعل قصص الفساد وشائعات تزوير الانتخابات إذن خيبة جذرية إزاء النموذج الاجتماعي وخيبة أمل واسعة بالنسبة إلى ممارسة العدالة. وسيزداد هذا الإدراك السلبي استفحالاً لا سيما وأن الإضرابات المميتة التي تشبه في ملامحها الحرب الأهلية باتت، بدلاً من أن تهدأ، تستمر دون هوادة ولا رحمة (كارنيجي Carnegie في عام ١٨٩٢، وبولمان Pullman في

عام ١٨٩٤)، فى حين كان الدخل العمالى يركد حتى الحرب العالمية الأولى، وأصبحت مس ليبرتى (تمثال الحرية) فى نظر الكثير من المناضلين العماليين بعد سنة من نصبها فى ميناء نيويورك، "إلهة القتل"(٥).

مونرو : من المذهب إلى "العقيدة"

فى حين تستقر فى الجمهور هذه الصورة الجديدة، العنيفة، بل والدموية، عن أمريكا الصناعية، تقلق حلقات لا تزال سرية، لكنها قريبة من مراكز القرار السياسى، من عنف آخر: العنف الذى تهددنا به فى النهاية العسكرة المتزايدة للولايات المتحدة. هذا الاهتمام التقنى الموجه لأسلحة الأمريكيين (البحرية على وجه الخصوص) يترافق بإعادة قراءة "مذهب مونرو" بوصفه ميثاق نزعة توسعية بل إمبريالية من نمط جديد. منذ ما قبل أزمة فنزويلا فى عام ١٨٩٥، وبالأحرى الأزمة الكوبية فى عام ١٨٩٨، بدأت صورة الجمهورية الكبرى المسالمة تتلاشى وراء صورة قوة عازمة على إتمام "مصيرها"، حتى ولو كان ذلك لقاء مواجهة مسلحة مع أوروبا.

خلال حرب الانفصال ومجازرها الآلية، كانت هناك بعض الأصوات التى ارتفعت لتحذير الفرنسيين من قوة عسكرية باتت رائعة، لكن الخفض القوى للقوات العسكرية للاتحاد بعد انتصاره كان قد فرض تخفيضًا مؤقتًا لهذا الخطاب الذى كان توافقه الكبير مع دعاية الإمبراطورية الثانية يجعل منه مشبوهًا بأثر رجعى. كان فى الفترة الأولى، يجعل من نفسه إذن مسموعًا بشىء من الصخب، وذلك فى بداية سنوات ١٨٩٠.

كان جوستان بروسبير دو شاسلوب لوبا Justin Prosper de Chasseloup-Laubat، وزير البحرية فى عهد نابليون الثالث، وهو رجل رزين وتقنى، أحد أوائل الاختصاصيين لوصف جهد التسلح البحرى للولايات المتحدة. وليس كتابه ***رحلة إلى الولايات المتحدة وبصورة رئيسية إلى شيكاغو*** *Voyage en Amérique et principale-ment à Chicago*، الذى ظهر فى عام ١٨٩٣ فى شكل "نبذة من مذكرات جمعية المهندسين المدنيين فى فرنسا"، فى الظاهر موجهًا للجمهور الواسع ولا هو من نوع الكتب التى تثير المشاعر. إن شاسلوب لوبا هو رجل الوقائع لا رجل الآثار؛ فهو يصف بدقة هادئة القوة و"السلاح الرائع حقًا"(٦) للبواخر الحربية التى رآها: الطرادة كولومبيا، التى دشنت فى ٢٦ يوليو ١٨٩٢، النيويورك، وكذلك الأوريجون، والإنديانا والمساشوستس، "ثلاثة بواخر حربية متجانسة" تم إنتاجها كنماذج متكررة. بواخر

مرعبة لكن ليس للفرنسيين أن يخشوها؛ لأن شاسلوب لوبا يتصورها مكرسة بالأحرى "لتدمير التجارة الإنجليزية، فى حال صراع قليل الاحتمال بالتالى بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى"[٧]. لا شىء ينذر بالخطر إجمالاً بالنسبة لقارئ متطوع ضلّ طريقه فى سلسلة "المذكرات" الموجهة للمهندسين المدنيين، بل إن أسلحة الأمريكيين المضادة لبريطانيا هى بالأحرى "حدث سعيد" بالنسبة لفرنسا، كما يضيف المؤلف بسذاجة متهكمة[٨]؛ لكن هذه الرصانة لا يتقاسمها أولئك الذين يأخذون معلوماته دون أن يتبنوا فرضياته؛ فبافتراض أن إنجلترا مستهدفة، فإنها ليست مستهدفة وحدها على وجه اليقين. شىء واحد أكيد، "عندما سيكون لأمريكا أسطول ضخم كلفها كلفة ضخمة، فإن الروح الإيجابية للشعب الأمريكى لن تقبل أن تكون بواخرها مجرّد بواخر نزهة"[٩].

ليس شارل كروسنييه دو فارينيى Charles Crosnier de Varigny من زمرة الذين يخطئون بسبب فيض من السذاجة أو من التفاؤل، وهو يظهر فى نهاية هذه السنين العشرة الأخيرة من القرن بوصفه واحداً من الثالبين الكبار للولايات المتحدة بحدته وكذلك بتنوع زوايا هجومه. لم تعد كتبه مجرد تقارير تقنية، ولا إسهامات سرية؛ فكتبه تظهر لدى كبار الناشرين كهاشيت Hachette أو كولين Colin، كما أنها تستهدف جمهوراً واسعاً. وبوصفه مراقباً انتقائياً فقد بدأ فارينيى بتقديم دراسة عن "***الثروات الكبرى فى الولايات المتحدة وإنجلترا***" (١٨٨٩)، لكى يعكف من ثم على "***المرأة فى الولايات المتحدة***" (١٨٩٣)، لكنه فى مجموعة من المقالات ظهرت فى عام ١٨٩١ تحت عنوان "***الولايات المتحدة: موجز تاريخى***"، إنما يترك بوجه خاص لحذره ولعداوته حرية كاملة.

تقع إشكالية نزعة معاداة أمريكا الخاصة بفارينيى فى جزء منها فى إطار نزعة معاداة أمريكا الاقتصادية؛ فإدانة نزعة الحماية الجمركية الأمريكية تحتل موقعاً ممتازاً فيها، لكن تحليله للتوسعية قد أثرته وجددته الأهمية التى يوليها لبعدها الأيديولوجى الدينى، وتكمن أصالة فارينيى فى ربطه بين الدافعين. ومن هنا اختياره كعدو لدود من قبل السياسى الأمريكى الذى يجسد على أكمل وجه الاتصال بين ***التعرفة*** ***tariff*** و"***الرسالة***" : ***mission*** بلين Blaine، "البسمارك الأمريكى"[١٠]، الذى يحلم منذ ١٨٨١ وإدارة جارفيلد Garfield بفرض رسوم جمركية باهظة على أوروبا التى ضعفت، لكن بلين أيضاً وبوجه خاص رسول الصوفية الجديدة القومية وشاعر "الرسالة الإلهية" للولايات المتحدة. والمقاربة بين بلين وبسمارك لا تستهدف الرجلين بقدر ما تستهدف مذهبيهما. يعمل فارينيى على إخطار الفرنسيين حول التشابه بين النزعتين القوميتين

الأمريكية والألمانية، كلاهما من وحى سماوى. يخطئ فرنسيو عام ١٨٩١ المهمومون بألمانيا المنتصرة فى أن يروا فيها القوة الوحيدة التى تستمد نزعتها التوسعية العنيفة ومبررها من أسطورة اختيار إلهى. "إن بروسيا ليست فى أيامنا القوة الوحيدة التى تقول عن نفسها أو تعتقد أنها مكلفة بـ"رسالة سماوية"، كما يلح فارينيى: "فالجمهورية الأمريكية الكبرى لها هى الأخرى رسالتها السماوية وقدرها الواضح manifest destiny".

manifest destiny القدر الواضح: التعبير الذى يعلق عليه فارينيى قديم يعود إلى نصف قرن؛ فقد وضعه فى عام ١٨٤٥ الصحفى جون أوسوليفان John O'Sullivan، مدير صحيفة *Democratic Review*، وفى إطار الميراث الجاكسونى؛ فقد كان الرئيس أندريو جاكسون قد ذكر فى رسالته الوداعية عام ١٨٣٧ أهداف العناية الإلهية التى عهدت للولايات المتحدة بالمحافظة على حرية العالم. كان بذلك "يؤمم" قناعة طهرية(*) قديمة وقوية. كانت فى الحقيقة ثيمة مؤسِّسة لطهرية إنجلترا الجديدة والمتمثلة فى الدور الممنوح للمستعمرات فى أن تكون منارة فى ليل العالم وملجأ للإيمان المضطهد. كان لأمريكا من قبل فى هذا الخطاب ميل إلى إيواء حرية الضمير ـ لاحرية ضمير المفكرين الأحرار بالطبع، بل الحرية المنظمة لضمير محدد بوصفه "حكم الإنسان على نفسه، وفقًا للحكم الذى يصدره الإله عليه"(١١).

كان على جون أوسوليفان خلال سنوات ١٨٤٠ أن يضع فصاحته التوراتية فى خدمة هذه الفكرة وأن يعمل دون كلل على تمجيد أمريكا "سفينة الآمال البشرية"(١٢)، لكن إذا كان تعبير "القدر الواضح" الذى أطلق فى عام ١٨٤٥ يعتمد على هذه السُّنة، فإنه يفيض عنها ـ كما يفيض الشعب الأمريكى عن حدوده المتسعة باستمرار. "إن قدرنا الواضح هو فى أن ننتشر [overspread] على القارة التى منحتها العناية السماوية للاندفاع الحر لحشودنا المتكاثرة كل عام": تلك هى الكلمة الطيبة التى كان يبثها الصحفى البليغ. كان ذلك يعنى الانتقال من الفكرة التقليدية عن أرض ملجأ، من قطعة أرض محمية من اللاعدالة، إلى نزعة أشدّ حركية: فقد كانت القارة الأمريكية بأجمعها تصير أرضًا موعودة. إن قوة فعل to overspread ("ينتشر"، بل كذلك "يفيض عن شواطئه") كانت تتعزز بقربها من كلمة overspill التى تعنى الفيض من السكان. من قلعة العادلين إلى فضاء الجماهير الحيوى: لقد تقدمت أمريكا على وجه اليقين، ولا

(*) الطهرية Puritanismo هى جماعة بروتستانتية فى إنجلترا وفى أمريكا ظهرت فى القرنين السادس والسابع عشر مطالبة بالتمسك بأهداب الفضيلة.

يخفى استمرار المفردات الدينية إلا جزئيًا تحول المنظور. وكان يمكن لشعار "القدر الواضح" الذى عاد إليه الفرنسيون من جديد فى سنوات ١٨٩٠ أن يبدو لهم على نحو أفضل روحًا إضافية لأمبريالية جديدة لا سيما وأن نجاحه لدى الجمهور الأمريكى كان لا ينفصل خلال سنوات ١٨٥٠ - ١٨٦٠ عن كل جهد لإعادة صياغة مذهب مونرو بوصفه "حاملاً للتوسع" الأمريكى(١٣).

يبقى فارينيى شديد الحذر حول هذه العملية. ويتجنب تمامًا أن يشير لقرائه أن "القدر الواضح"، هذا المفتاح الذى يمده إليهم لأمريكا المعاصرة، يبلغ من العمر نيفًا وخمسين عامًا، سوى أن كل هذا يبقى فى نظر العديد من الفرنسيين فى الواقع على قدر من الجدة. إن تعبير أوسوليفان شأن إعادة قراءة مونرو التوسعية قد جاءا خلال سنوات "المسافة والابتعاد"، فى وقت كان فيه الناس الذين ينتبهون للقضايا الأمريكية ندرة. يقدم كتاب شارل كروسنييه دو فارينيى درسًا استدراكيًا حول الصعود الإمبريالى فى أمريكا، لكن الحاضر هو ما يهم: التهديد الآنى أو المداهم. إن تبنى كل أو بعض الشعب والطبقة السياسية الأمريكيين لـ"القدر الواضح" لا يفيد هجرًا لـ"مذهب مونرو"، بل أصبح - على العكس - تعزيزًا له وتركيزًا له فى صيغة جديدة "تلخصه" فى الوقت الذى تثريه ببعد دينى كان يفتقر إليه حتى ذلك الحين. يلخص فارينيى، أن أيديولوجية العناية السماوية باستثمارها مذهب مونرو قد "رفعته إلى مستوى العقيدة"(١٤). كان جاياردیه قد لفظ الكلمة، أما فارينيى فيشرح الأمر.

الحمائية (باسم مصالح أمريكا العليا) والتوسعية (باسم مصالح العناية السماوية العليا): ذلكم هو من الآن فصاعدًا المبدأ المزدوج لأمريكا. فى حين أن هذا الشعب العملى لا يريد البقاء عند إعلان المبادئ؛ لذلك فإن فارينيى شديد الانتباه على وجه الخصوص لمقاصد الهيمنة التى أعلنها الكونجرس الأمريكى فى عام ١٨٨٩؛ فهو يحذرنا من أن شعار مونرو، "أمريكا للأمريكيين"، قد اتخذ معنى جديدًا، ويلخص من الآن فصاعدًا هدفًا مزدوجًا: "اتحاد أمريكا المثلثة المجمّعة تحت قيادة الولايات المتحدة"، و"هذه القارة المغلقة فى وجه المنتجات الأوروبية"(١٥). الفريسة القادمة المحتملة: كوبا. بصيرة ممتازة ؟ لا، بل هى توقع لا مخاطرة فيه؛ فمنذ قرن وانتماء كوبا الجيو- سياسى للمجموع القارى الأمريكى الشمالى وارتباطها الحتمى بالولايات المتحدة يؤلفان موضوع النقاش الذى بدأه جيفرسون، وكان أكثر من سياسى أمريكى قد ذكر حوالى سنة ١٨٩٠ مثل هذا الضم دون مواربة، وأولهم بلين الذى لا ينسى فارينيى أن يستشهد به: "بين كل ضروب الضم التى نملك الحق فى المطالبة بها، فإن ضمّ كوبا [...] هو أكثرها شرعية"(١٦). ويتابع بلين: ليس من المتسامح فيه أن تستمر الحمى

الصفراء التى تعيث فساداً فى هذه الجزيرة سيئة الإدارة فى نقل عدواها إلى حوض الميسيسبى... من الواضح فى نظر فارينيى أن العدّ العكسى قد بدأ، من الواضح أيضاً أن قوة قدرهم ستجر الأمريكيين فيما وراء كوبا.

يصل فارينيى الأكثر مصداقية من ماندا ـ جرانسى والأقل تقنية بصورة دقيقة من شاسلو لوبا، قبل الوقت الذى يمكن أن يفهم فيه؛ فحتى حرب ١٨٩٨ كانت سيناريوهات كالسيناريو الذى تخيله تحيّر دون أن تقنع، ولا يزال التخويف المعادى لأمريكا سابقًا لأوانه، ويُنظر إليه بسهولة على أنه ضغينة أنصار الملكية أو حقد أنصار بونابرت، ويسجل فارينيى نفسه أن كل شىء مريب سواء أكان نقداً أم ثناءً، مشيراً إلى أى حدّ يندر المؤرخون الحياديون لأمريكا، بما أنهم جميعًا "يبحثون خصوصاً عن حجج معادية أو مؤيدة للشكل الجمهورى"(١٧). هل فضّل لأنه استخلص النتائج كلها أن يخصص عمله الأمريكى الأخير لموضوع أكثر بشاشةً: ***المرأة فى الولايات المتحدة***؟

ملاحظة فارينيى مناسبة؛ فمماهاة أمريكا مع "الشكل الجمهورى"، فى هذه السنوات الأخيرة من القرن، تثير بعض الأقلام المجادلة (على طريقة ماندا ـ جرانسى)، لكنها تجعل من العداوة التى تستهدف ماريان (أى فرنسا) أكثر من استهدافها العم سام مثيرة للشك. أما بالنسبة للجمهوريين فقد كف معظمهم عن الاستناد إلى أمريكا ويحتفظون بضرباتهم ليوجهونها ضد بلد كان موئل آمالهم زمنًا طويلاً، لكن هذا الوضع الذى يذكره فارينيى هو، على وجه الدقة، على وشك أن يتغير: فـ"الشكل الجمهورى" المنتصر فى فرنسا لم يعد رهانًا مركزيًا كما كان، وبموازاة ذلك، كفت أمريكا عن أن ترمز قبل كل شىء إلى نمط من نظام كى تمثل تكوينًا اجتماعيًا تهيمن عليه الرأسمالية والآلية. سيرفع هذا النقل فى الترميز ضروب الرقابة الذاتية الأخيرة وسيعطى دفعًا جديداً لنزعة معاداة أمريكا الفرنسية. بانتظار ذلك ولعدة سنوات أخرى أيضاً فإن النقد اللاذع المعادى لأمريكا يبقى ممارسة منعزلة وعلى قدر من الهامشية. حقًا لقد انتهى الأمر من أمريكا المجمّلة ـ هذه "الأمريكا الحلوة" التى كان ساردو يجعل منها مأخذاً على توكفيل. سوى أن الناس كانوا يتخذون منها موضع سخرية بدلاً من أن يجعلوا منها شبيه الشيطان، ولا يزال القلقون ندرة، ويقلقون من الأسلحة البحرية الأمريكية أقل مما يقلقون من تحسينات آلاتهم.

يكتب إميل باربييه فى عام ١٨٩٣: "أمريكا تغزو أوروبا العجوز، وتغرقها، ولسوف تغمرها"، لكنه يريد الحديث عن طوفان السلع: القاطرات، الفحم الحجرى، الحرير، الفواكه، القطن، وحتى "نبيذ البوردو من أمريكا"(١٨). ويقف بول دو روزييه،

الاقتصادى المرتبط بالمتحف الاجتماعي، على الأرضية ذاتها حين يكتب في الحياة الأمريكية (١٨٩٢): "كفت أمريكا عن أن تكون موضوع فضول كي تصير موضوع هلع(١٩)". الكلمة قوية، لكنها لا تستهدف هنا أيضًا سوى الانطلاق المذهل للصناعة الأمريكية وزراعتها الآلية. إن روزييه شأن باربييه، هما شديدا الانتباه لتفاقم المنافسة الاقتصادية بين الولايات المتحدة وأوروبا. وهما على حق: فهذه السنوات العشر الحاسمة بالنسبة لنزعة معاداة أمريكا الفرنسية هي أيضًا سنوات القفزة إلى أمام التي حققها الإنتاج الأمريكي واستقراره على المستوى الأول العالمي، قبل بريطانيا العظمى التي تم تجاوزها في مجال الفولاذ عام ١٨٨٧، وفي مجال الحديد في عام ١٨٩٠، وفي مجال الفحم الحجرى عام ١٨٩٩. ويفسر روزييه أن أمريكا "صارت في نظر العالم القديم خصمًا مرعبًا". ومع ذلك فإنه لم يتصورها ولو لثانية واحدة تلجأ للقوة المحضة كي تغزو أو تحافظ على أسواقها. لا يجتاز روزييه المسافة من المنافسة إلى الاستعمار إلا على صعيد الوهم حين يختار أن يصور دخول المنتجات الأمريكية بواسطة هذا التعليق الحافل بالرمز: "يحمل الجندى الفرنسي كيس معلباته من لحم البقر المصنوعة في شيكاغو".

لم تكن أمريكا بعد في الرءوس حقًا، لكن معلبات *لحم البقر* ***corned-beef*** كانت قد استقرت في الألحان.

"حرب صغيرة رائعة"

في عام ١٨٩٨، غيرت صدمة كوبا بعنف معنى الكلمات ودلالة الاتهامات. كان الجيل المعادى لأمريكا الذى ينتمي إليه فاريني وباربييه وروزييه قد قرع أجراسًا صغيرة، من الآن فصاعدًا، فإن ناقوس الخطر هو الذى يفرض صوته على الآذان. بعد التبلر الملامسة؛ فالحرب التي شنتها الولايات المتحدة ضد إسبانيا رسَّبت بالمعنى الكيميائي للكلمة نزعة معاداة أمريكا التي كانت مزيجًا معلقًا؛ فهذا الحدث قليل الأهمية، والذى لم يكن يعنى فرنسا إلا بصورة غير مباشرة يؤلف إذن على نحو غريب تاريخًا جوهريًا لنزعة معاداة أمريكا الفرنسية.

يجب التذكير بسرعة بظروف هذا الصراع الذى صار اليوم شبه منسي. لم يبق في نهاية القرن التاسع عشر من الإمبراطورية الواسعة التي أقامتها إسبانيا في القارة الأمريكية سوى جزر كوبا وبورتو ريكو، لا بل إن التمتع بملكيتها كان لا يعرف الهدوء. كوبا، لؤلؤة الأنتيل ومصدر العديد من الثروات الإسبانية، تشهد سلسلة من حركات

التمرد الموجهة ضد البلد الأصلى وضد الملاك الكبار، وكان من الضرورى القيام بحملة استمرت عشرة أعوام (١٨٦٨ ـ ١٨٧٨) للقضاء على أول انتفاضة، لكن تمرداً جديداً بدأ فى عام ١٨٩٥ . أرادت الحكومة المحافظة لكانوفاس دل كاستيلو Cànovas del Castillo القضاء على الخصم مرة وإلى الأبد: فعهدت بالقمع إلى الجنرال وايلر Weyl-er الذى نظم "إعادة التجميع" الإجبارى للقرويين والفلاحين فى القرى والمدن، وذلك هو قبل الأوان نظام "القرى الصغيرة الإستراتيجية" المطبق (دون نجاح كبير) من قبل الأمريكيين خلال حرب فييتنام. كانت العملية إنسانيًا وسياسيًا واقتصاديًا مفجعة. وبينما كانت الدعاية فى الولايات المتحدة تشتد فى كل الأوساط لصالح المتمردين و"مجلس سياسى" معارض استقر فى نيويورك، كان الليبرالى ساجاستا Sagasta يخلف كانوفاس دل كاستيلو الذى اغتيل فى بلاد الباسك عام ١٨٩٧، كان تغيير السياسة كاملاً؛ فقد سرّح "وايلر السفاح Butcher Weyler" ـ كما تسميه صحافة أمريكا الشمالية ـ وأعلن وزير المستعمرات الإسبانى موريه Moret إقامة حكم ذاتى محلى فى كوبا اعتبارًا من ١٨٩٨.

اعتبرت إسبانيا الأزمة منتهية، وطلبت – محتجة بإرادتها الطيبة فى الإصلاح – من الولايات المتحدة ألا تؤوى وألا تترك "مجلسًا سياسيًا" من المعارضين الذين صاروا غير شرعيين يتموّن بالسلاح، لكن الهدوء لم يعد مع ذلك على الأرض؛ فالمتمردون الذين يزاودون قاموا بإعدام كولونيل إسبانى جاء يقدم لهم خطة الحكم الذاتى، فى حين كان المدافعون عن الوضع الاستعمارى القائم ينزلون إلى الشارع، ويتظاهرون بعنف ضد "الإصلاحيين". وفى بداية عام ١٨٩٨، وفى حين كانت انتخابات البرلمان الكوبى مقررة فى أبريل، تكاثرت المناوشات.

آنئذ، وفى ٢٥ يناير، دعت باخرة حربية أمريكية شمالية قوية تحمل اسم *المين* *Maine* نفسها إلى ميناء هافانا. وبناء على طلب من القنصل ـ الجنرال فيتزوف لى Fit-zhugh Lee (ابن أخ قائد الجيوش الفيدرالية روبر لى Robert E. Lee)، أرسل الرئيس ماكينلى McKinley على وجه السرعةالباخرة *المين Maine* بمهمة حماية رعايا الولايات المتحدة من معاملة سيئة مفترضة. استقبلت الحكومة الإسبانية المبادرة بالفتورالمتوقع، ومع ذلك يفضل رئيس الوزراء ساجاستا اعتبار هؤلاء الزوار ضيوفًا، وللمحافظة على المظاهر أرسل طرادة جديدة *Vizcaya*، للقيام بزيارة مجاملة لميناء نيويورك. بقى الهياج فى هافانا نسبيًا، ولم تمنع الاضطرابات التى يفترض بها تبرير وجوده قائد المين،

سيجيسبى **Sigisbee**، من حضور مصارعة الثيران عدة مرات، كل شيء يجرى إذن على نحو حسن تقريبًا حتى الأمسية الحاسمة يوم ١٥ فبراير.

فى ذلك المساء، وفى التاسعة وأربعين دقيقة، هز انفجار هائل الميناء والمدينة؛ فقد انفجرت *الماين*. وكان عدد الموتى مائتين وثمانية وستين منهم ضابطان. وفى حين كانت إسبانيا تحتج ببراءتها، كانت الصحافة الشعبية لمجموعة هيرست **Hearst** تثور ضد "العدو" و"آلته الجهنمية الغادرة". ومن جهتها كانت صحيفة ***World*** لجوزيف بوليتزر **Joseph Pulitzer** تدعو للحرب منذ ١٨ فبراير، ولم يكن السياسيون أقل هيجانًا، وهاهو الديمقراطى بريان **Bryan**، الخصم السيء الحظ لماكينلى فى انتخابات ١٨٩٦، يثنى على التدخل صراحة.

فى هذا الجو، كان التحقيق الذى كلفت به البحرية يغدو اتهامًا؛ فأعضاء اللجنة لا يهتمون إلا قليلاً بمواجهة سيل الرأى العام، لكنهم كانوا بالمقابل يهتمون كثيرًا بإعفاء البحرية ذاتها من كل خطأ أو إهمال يمكن أن يفسر الانفجار. وانتهت اللجنة دون أن تقدم أى برهان إلى نتيجة وجود لغم تحت بحرى. أما اللجنة الإسبانية التى كانت تعمل من جهتها (مادامت الولايات المتحدة قد رفضت تحقيقًا مشتركًا) فقد خلصت إلى حريق شب فى مخزن للفحم وإلى الانفجار الذى تم بتأثير حرارة مخزن للذخيرة، شديد القرب وقليل العزل. هذه الأطروحة الأخيرة المقبولة اليوم من قبل معظم المؤرخين كانت قد صدّق عليها فى عام ١٩٧٦ الأميرال ريكوفر **Rickover** فى نشرة رسمية بدائرة التاريخ البحرى التابعة لوزارة البحرية[٢٠].

أما الجمهور فلم ينتظر حكم الخبراء لكى ينادى بالانتقام، وكانت "حمى الحرب" التى كانت الصحافة تؤججها، كما يحافظ على حرارتها معظم السياسيين، وأولهم وزير مساعد البحرية شديد الحماس للحرب يدعى تيودور روزفلت، ترفع درجة ميزان الحرارة السياسى. وجهت الولايات المتحدة إلى إسبانيا مذكرة فى شكل إنذار: طالبت فيها بدور الحكم فى عملية الانتقال للحكم الذاتى التى يجب فى نظرها أن تؤدى إلى الاستقلال الكامل للجزيرة. وبعد ذلك، اقترحت إدارة ماكينلى مضيفة الشتيمة إلى التدخل على الحكومة الإسبانية أن تشترى منها كوبا بثلاثمائة مليون من الدولارات. صارت الحرب حتمية، ستكون "حربًا صغيرة ساطعة **splendid little war**"، فى نظر الـ ***Jingoists*** الأمريكيين[٢١]؛ أما بالنسبة لإسبانيا، فصراع مذل ومشئوم، ستضيع بنتيجته لا كوبا فحسب بل كذلك بورتوريكو والفيلبين.

وفرنسا فى كل ذلك ؟ هذه الأحداث البعيدة والغامضة على مسارح عمليات أشد غرابة على الدوام تبدو قليلة الصلاحية لاستنفار انتباه أمة مشهورة بجهلها فى الجغرافيا، إلا أنه سيكون لهذه الأحداث دوى هائل.

دفعة واحدة التهبت الصحافة ضد العملية العسكرية التى قامت بها الولايات المتحدة. ترك انفجار الماين الذى برر إعلان الحرب الدبلوماسيين شأن الصحافيين فى ريب من الأمر، ولم يصدق أحد قصة اعتداء دبره الإسبان، كان يُعتقد بالأحرى بوجود تحريض من قبل "مجلس الحكم" الإصلاحى أو من قبل شركائه الأمريكيين الشماليين؛ إذ مَنِ المستفيد من الجريمة فى النهاية؟ لقد كانت هستيريا دعوة الصحافة الشعبية الأمريكية للحرب تفاجئ وتصدم وتعزز الشكوك الفرنسية. لم تكن صحيفة رزينة كصحيفة *Le Temps* تعلك كلماتها، وحين استولت الولايات المتحدة على هافانا تحدثت عن "النَّصب الكبير"(٢٢). لقد كانت اللهجة حادة لا سيما وأن هذه الضروب من النصب تنجح كلها؛ فالخراب الذى تعرض له الأسطول الإسبانى أمام مانيلا، والذى عرف فى مدريد فى الثانى من مايو ١٨٩٨، قد غمر الجزيرة بالوجوم، لكن الذهول فى باريس لا يكاد يقل عن ذلك وكان القلق مشتركًا. ربما لم يحدث من قبل أبدًا أن أثارت أحداث عسكرية بهذا البعد لم تكن فرنسا منخرطة فيها مباشرة مثل هذا الاضطراب، وذلك على الرغم من وضع داخلى مثير للقلق، تميز بنمو أعنف فتنة معاداة للسامية عرفتها الجمهورية الثالثة.

إن الارتباط فى ربيع ١٨٩٨ بين ما سماه بيير بيرنباوم "اللحظة المعادية للسامية"(٢٣)، ورد الفعل العنيف المعادى لأمريكا ارتباط طارئ؛ لكنه يكشف ملمحًا جوهريًا لنزعة معاداة أمريكا الفرنسية: إنها منذ هذه اللحظة مُوَحِّدَةٌ بصورة عميقة. ففى أوج قضية دريفوس، وغداة إدانة إميل زولا، أدهش هذا الإجماع مراقبًا كوبيًا: "نكاد نقول إن كراهية الأمريكى هو أقل شعور يقسم الفرنسيين؛ لأنه لم يسبق على الإطلاق أن رأينا مثل هذا الإجماع. جمهوريون يدافعون عن ملكية رجعية، ومفكرون أحرار يطلقون الأمانى بصوت عال من أجل نجاح أمة من المتعصبين، والمحافظين، وحراس تقليد الأسرة، ويطلقون لقب "تجار الخنازير" على الأجداد من الأمهات لنبلاء سيحملون غدًا أجمل أسماء فرنسا(٢٤)! "مشهد غريب فى الواقع يرسمه سريعًا وبصورة جميلة هذا الزائر الساحر: فرنسا الجمهورية والمضادة لرجال الدين تؤلف

جوقة مع فرنسا النبلاء (المجددة بفضل الزيجات الأمريكية الغنية) لإهانة الولايات المتحدة وتبخير الملكية الإسبانية!

ليس هذا الوصف سخيفًا فحسب بل هو نبوى؛ ففى أوج الفتن المدنية فى فرنسا الممزقة، كانت نزعة معاداة أمريكا هى "الهوى الفرنسى" الوحيد الذى يهدئ من الأهواء الأخرى، ويستر الخصومات، ويوفق ما بين أشدّ الخصوم ضراوة. إن المصالحة من وراء ظهر الولايات المتحدة أو على الأقل وقف السلاح بين الأحزاب الفرنسية فى مواجهة العدو المفترض مشتركًا سيبقى من ثوابت الحياة السياسية والثقافية. ومن المستحيل فهم نزعة معاداة أمريكا الفرنسية ولا استمرارها الهادئ إن لم نقس الفائدة الاجتماعية ـ القومية التى تمثلها، بوصفها مصنعًا للخطابات الإجماعية؛ فإذا كانت هذه وظيفتها (أو على الأقل واحدة من وظائفها)، فلا يمكننا أن نعجب من رؤيتها تزدهر وتفرض نفسها بمناسبة حرب ١٨٩٨، وكذلك كرد فعل ضد الانقسامات الفرنسية العنيفة عند منعطف القرن: كان من المنطقى أن تزدهر نزعة معاداة أمريكا، هذا الترياق للمشاجرات الداخلية، "فى زمن لم يكن الفرنسيون فيه متحابين"[٢٥]. على الأقل كانوا يعرفون من الآن فصاعدًا من يكرهون معًا.

خاصة ثانية لأزمة ١٨٩٨ ستتكرر هى أيضًا فى التاريخ اللاحق لنزعة معاداة أمريكا: الفرق بين غيظ الرأى العام واعتدال السلطات الرسمية. كان الموقف من جانب الحكومة الفرنسية فى الحقيقة هو ضبط النفس؛ ففرنسا ليست بعد كل شىء محاربة ولا تقوم بأى دور آخر فى الصراع سوى حماية الإسبانيين الأصليين فى كوبا، لكن مظاهر الاستنكار العنيف ضد الولايات المتحدة كانت تتكاثر لدى الجمهور. كان الجو محتدمًا والضغط شديدًا إلى درجة كانت كافية لحمل المسئولين عن الدبلوماسية الفرنسية على الخشية ـ وسيقص غابرييل هانوتو ذلك فيما بعد ـ من أن يُدفعوا إلى القطيعة. كان الانفعال الفورى إذن قويًا، لكن ما أثارته الحرب الإسبانية ـ الأمريكية كان أيضًا صدمة عميقة ودائمة؛ إذ إن ما كان يستوقف الانتباه هو الانتشار السريع لصورة جديدة لأمريكا أكثر من التعليقات الفورية على "الاعتداء" الأمريكى. وكانت ذبذبة الحدث تستمر دون أن تهدأ خلال الشهور والسنوات التى تلت؛ إذ ما إن هدأ استنكار كتاب الافتتاحيات حتى حل محلهم الباحثون والكتاب، وصارت المسلسلات والروايات الشعبية تعمُرُ فجأة كما لو بفعل ساحر بأمريكيين يثيرون القلق. وخلف اليانكى المضحك اليانكى المرعب، وكان جوستاف لو روج Gustave Le Rouge الذى كان يفرض نفسه شيخ المسلسلات الشعبية يحبس أنفاس قرائه مع ***مؤامرة المليارديرية***

La Conspiration des milliardaires، وهى حكاية لاهثة جغرافية ـ سياسية ـ خيالية بدأت فى الظهور عام ١٨٩٩. كان يمكن للحبكة ـ لجنة سرية من أقطاب المال اليانكيين يشرعون فى استعباد أوروبا بواسطة جيش من البشر الآليين ـ أن تبدو مضحكة قبل عشر سنوات من ذلك. أما اليوم فالخيال يجرى وراء الحدث ولا يفعل أبطال لو روج إلا تقليد بيير لوتى الحقيقى وهو فى قمة مجده، والذى يهرع إلى مدريد منذ بداية المعارك ليطمئن الملكة الوصية على العرش عن"تعاطف" الفرنسيين، وليقول لها "ثورتهم" أمام الاعتداء الجبان الذى كانت إسبانيا ضحيته[٢٦]، لا بل إن شائعة تنتشر فى باريس بأن مؤلف *صياد إيسلندا* *Pêcheur d'Islande* والعائدات إلى *صوابهن* *Désenchantées* سيعهد إليه بقيادة سفينة قرصنة لمطاردة اليانكى، لكن لوتى يكذب ذلك بأسف؛ فالأمر ليس صحيحاً ولا هو لسوء الحظ ممكن. وفى غياب السيف يبقى القلم. وبمثابة القنابل، أطلق لوتى على العدو رشقًا من الصفحات تحمل عنوانًا انتقاميًا: "فى مدريد، الأيام الأولى من العدوان الأمريكى"[٢٧].

لماذا مثل هذا الانفعال؟ هناك عديد من العوامل تسهم فيه: تقليد عريق فى التحالف مع إسبانيا، وتشابه الوضع بين بلدين يحتفظان بمستعمرات على مسافة قريبة من القارة الأمريكية، والدعاية التى تمت فى فرنسا لصالح التضامن اللاتينى وأكثر من كل ذلك، ربما، الخصومة الثابتة تجاه مذهب مونرو ـ وهى خصومة أيقظتها دعاية نابليون الثالث منذ حقبة المغامرة المكسيكية وزادتها لهيبًا – كما رأينا – المؤلفات المعادية لأمريكا فى سنوات ١٨٨٠ـ ١٨٩٠، ولكن بمعزل عن أىّ اعتبار آخر، فإن قضية كوبا التى تلاها الاستيلاء على الفيليبين واحتلالها نظر إليهما فى فرنسا فى بعدهما الرمزى؛ فللمرة الأولى اتخذت الولايات المتحدة مبادرة الحرب ضد بلد أوروبى. لقد تم عبور عتبة ما، كما تمت إزالة مُحَرَّم ما. كان الاعتداء الكوبى تكذيبًا دمويًا للمعجبين المصدقين للجمهورية الكبرى المسالمة. لقد مات فيكتور هوجو فى وقته: قبل أن يرى الأمة المثلى تصير قوة شأن القوى الأخرى.

لقد فسرت حرب ١٨٩٨ على نحو درامى فى فرنسا لا سيما وأن تحول الولايات المتحدة هذا إلى دولة محبة للحرب ينذر بتغير الحرب نفسها، وهو تغير لُمِحَ خلال الحرب الأهلية، ستصير الحرب الأمريكية على صورة أمريكا اليانكية: لا جمالية ولا إنسانية. إن سحق الإسبان فى كوبا وفى الفيليبين لم يكن ضربة غادرة موجهة إلى أوروبا القديمة فحسب، وإنما هو تصدير حرب من نمط جديد. يصرخ لوتى مستنكرًا: بالطبع، لم تبتكر الولايات المتحدة الحرب، ولكنها جعلت منها صناعة شائنة للموت، ولكنها جعلت منها "بشعة، منتنة بالفحم الحجرى، البربرى كيميائيًا"[٢٨]. فى هذه الحرب يتفوق

"أعداء ما وراء البحار"، بما أنهم "يملكون مالاً أكثر، وآلات أكثر، ونفطًا أكثر لكى يبللوا قنابلهم، ومتفجرات أكثر [...] يجد الخطاب المنتصر من قبل خلال السنوات العشر الأخيرة حول ابتذال وفقر الذوق الأمريكى هنا تطبيقًا مفاجئًا: إن الحرب نفسها، وقد صارت مصنوعة بمثل هذه الشراسة، لم تعد جميلة. ولم يعد حقًّا سواهم لكى يجدونها "ساطعة".

فلتسقط الأقنعة

لكن الأهم ليس هنا. الأهم، والجوهرى، هو أن القناع قد سقط، لم يعد بوسع أشد المتفائلين، وأعتى المثاليين، أن يتعاموا، ولا أن يصموا آذانهم؛ فقصف المدرعات الأمريكية الجديدة التى دشنت مدافعها على هافانا أوعلى مانيلا أيقظ الذين كانوا مقتنعين بوهم الطبيعة الهادئة أساسًا للاتحاد الأمريكى الشمالى مذعورين. وهانحن نرى من كان على حق ومن كان على خطأ: أهم السذج المتملقون الذين كانوا ينصبون التماثيل للديمقراطية الأمريكية أم الأكثر تبصرًا الذين كانوا منذ عشر سنوات يحاولون إخطارنا.

أوكتاف نويل Octave Noël واحد من أوائل من استخلصوا نتائج الحدث فى مجلة *Le Correspondant* الأسبوعية التى كانت تميل آنئذ لمعاداة أمريكا، فقد نشر فيها من يناير إلى يونيو ١٨٩٩ سلسلة من المقالات سرعان ما أعيد نشرها فى كتاب أعطاه العنوان المعبر لمقاله المنشور فى ٢٥ يناير: ***الخطر الأمريكى*** ***Le Péril américain***. لقد مضى زمن الصور، وصار هذا الخطر حقيقيا جدا. لم تدخل الولايات المتحدة فى طور عداء باستخدام القوة الصريحة فحسب، بل إن هذا الهجوم الذى باغت الأوروبيين كان مهيّأً، بل أفضل من ذلك: كان مكتوبًا فى الملأ الأعلى، على ملف القدر الأمريكى، على النحو الذى بدأ يجرى فيه فى بداية القرن. "لم يكن الاعتداء الوحشى الذى اقترفته الولايات المتحدة ضد إسبانيا على ما كان عليه من المفاجأة ومن صعوبة تبريره من وجهة نظر القانون أو العدالة، مجرد واقعة غير متوقعة. كان ينتج عن خطة معدة، ويؤلف حلقة جديدة فى سياسة دشنت منذ عام ١٨١٠ من قبل الجمهورية الأطلسية[٢٩]". كانت تلك أطروحة فريديريك جايارديه قبل خمسة عشر عامًا، وها هى قد تخففت مما كان يثقلها من القذائف. كانت الحرب مع إسبانيا إذن مسجلة فى التراث الجغرافى السياسى للولايات المتحدة الأمريكية. ومع ذلك فهى تؤلف مرحلة حاسمة: مرحلة عولمة المطامح الأمريكية الشمالية. لم يعد مذهب مونرو منذ زمن طويل بالطبع يستطيع الظهور بصورة معقولة بوصفه مذهبًا محض د:' ى. ومع ذلك فحتى

فى تحوله إلى عقيدة عدوانية، لم يكن يعنى على الدوام سوى العالم الجديد، باستثناء القارات الأخرى. حقًا، "لم تستهدف هذه الصيغة أبدًا أجزاء أخرى من العالم سوى أوروبا"(٣٠)، لكنها أوروبا التى كان المقصود إخراجها من أمريكا، لا الذهاب لاستثارتها فى نهاية العالم. لقد تم عبور خطوة جديدة - خطوة صغيرة فى كوبا، وخطوة ضخمة فى مانيلا - نحو نزعة تدخّل تشمل الكوكب كله. يكتب نويل: "إن اليانكيين [اليوم] مستعدون تمام الاستعداد لإعطاء مذهب رئيسهم السابق صلاحية ربما لم يتوقعها"(٣١). وقد أتوا على طبع النسخة الجديدة منه بدم الفيليبيين، وهى النسخة "الأوسع والأكثر ملاءمة لتطلعاتهم". ويضيف نويل، نسخة جديدة يمكن أن تتلخص بشعار: "العالم للأمريكيين"(٣٢).

إن الصراع مع إسبانيا حرب ذات وجهين؛ فطورها الكوبى لا يزال ملتفتًا إلى الماضى، ولأنها فشلت – حسب نويل – فى محاولتها السيطرة الدبلوماسية على أمريكا اللاتينية (لدى الكونجرس الأمريكى الشامل الذى انفض دون نتيجة فى ١٩ أبريل ١٨٩٠) إنما ارتدت الولايات المتحدة "وقد أرجأت انتقامها" "إلى فريسة أقل استعدادًا"(٣٣). وبما أن الدول اللاتينية فى أمريكا الأقل تملقًا، كانت ترفض الانخراط تحت الراية الأمريكية، فسوف يتم الذهاب لوضعها فى أرض كوبية دون طلب إذن أحد. وتمرد"الإصلاحيين" المزعومين الكوبيين الموجّه عن بعد، ليس إلا الدبلوماسية الأمريكية الشاملة التى تستمر بوسائل أخرى: "لقد ولد هذا التمرد فى الاحتكارات وفى نوادى المضاربين بالسكر وبالتبغ فى نيويورك، وفى مصانع السيجار فى فلوريدا"(٣٤). كانت كوبا بالإجمال جائزة ترضية، جائزة صغيرة رائعة مع ذلك: "مفتاح خليج المكسيك ومفتاح القناة القادمة عبر المحيطات"(٣٥). لقد وُضعت فى الجيب بهدوء، بعد أن غلفت بغلاف الهدايا الخيرية: "فى المشهد الأخير تدخلت الحكومة و[...] جددت الكوميديا الخيرية التى كانت قد نجحت فى عام ١٨٦١"(٣٦). ولا شىء أفضل من المطالبة بإبطال العبودية وتحرير الكوبيين المضطهدين من أجل التقدم، خطوة خطوة، نحو السيطرة على العالم. لقد خدم "الإحسان" دومًا اليانكيين كرداء نوح الملقى على إرادتهم الوقحة فى القوة...

وفى إثر كوبا إذن، الفيليبون، هو ذا الوجه الجديد لمونرو "وجه أمريكا التى يفيض طموحها عن الإطار الذى اعتبرته هى شديد الضيق، أى إطار القارة. الفيليبيون أيضًا هم مفتاح : "مفتاح تجارة هذا الشرق الأقصى الذى يمارس على الولايات المتحدة سحرًا"(٣٧). وهكذا فإن القناع الذى لم تكن الولايات المتحدة تريد سقوطه فى

عام ١٨٩٠، عند خيبة أملها من وحدة الأمريكتين، ممزق الآن. لم تعد واشنطن تموه طموحها العالمي، ولم يعد الأمريكان يخفون أهدافهم، "إنهم يزعمون التوسع إلى ما وراء حدودهم الطبيعية، وهي مع ذلك مفرطة". وإذا لم يعودوا يخفون ذلك فلأنهم مستعدون للمواجهة المباشرة مع أوروبا، أوروبا هذه التي "تُعتبر، من قبل بلدِ الطمعِ هذا، بسبب تطورها الاقتصادي، وقوتها في رءوس الأموال، وعبقريتها وتوسعها الاستعماري، عدواً يزعج مشاريعها"[٣٨]. تفرز أمريكا منذ مونرو "الحقد الأشد مرارة ضد القارة القديمة"[٣٩]. لقد انفتح هذا الجيب من الحقد لتوه. والمواجهة محتومة: "ذلك أن الولايات المتحدة مدعوة للدخول مستقبلاً في صراع مع أوروبا على كل نقاط الكوكب[٤٠]".

لا ينسى أوكتاف نويل في أي لحظة أن يبين الجذور الاقتصادية لهذه العدوانية الإمبريالية، ولا يفوته بوصفه هو نفسه اقتصاديا (سنلتقيه أستاذاً في معهد الدراسات العليا التجارية عشية الحرب العالمية الأولى)، أن يشير إلى أنه إذا هاجمت أمريكا فلأنها "تختنق ضمن حدودها"، وأنها بحاجة حيوية "لتوسع مستمر". إن نزعة الحماية هنا أيضًا هي السبب الأول لإرادة التوسع الأمريكية التي لا ترد، بما أنها تجبر الأمريكيين على "أن يموتوا جوعًا على كنوزهم أو على أن يمدوا إلى ما لا نهاية وبأي ثمن حلقة نفوذهم، بل وحتى سيطرتهم التجارية". حلقة مفرغة، والحالة هذه؛ حيث تترابط حاجة الأسواق وضرورة الغزو بصورة حتمية. ويضيف نويل: "من هنا ولدت أولاً محاولات تفسير وإعادة الشباب إلى مذهب مونرو الذي يبقى الإنجيل اليانكي بامتياز، ثم روح الفتح والبحث عن منافذ اللذين يميّزان سياستها الراهنة"[٤١]. ومن هنا سيولد الصدام الذي بات من الآن فصاعداً حتميًا بين العالمين: "سوف يتخذ الصراع من أجل الحياة والتفوق الاقتصادي بين أوروبا وأمريكا طابعًا من الشراسة والخشونة لم يكن معروفًا حتى الآن[٤٢]".

ستنشر مجلة *Le Correspondant*، وهي شديدة المتابعة للقضايا الأمريكية، في شهر أغسطس مقالاً بعنوان ***العالم للأمريكيين***"[٤٣]. سوف تشتهر هذه الصيغة. ومؤلفه، إدمون جوهانيه، خبير في التحقيقات الصحفية عن أمريكا، وقد نشر لدى منشورات ***مام*** *Mame* في عام ١٨٨٩ وتحت عنوان ***فرنسي في فلوريدا*** " قصة رحلة تافهة أفضل مقطع فيها هو لاشك جواب لا بيش الشهير: "يالها من رحلة! يا إلهي يالها من رحلة! ما أكثر ما يتأوّه البورجوازيون من المال[٤٤]". بعد عشر سنوات تغيرت اللهجة، وتحولت النوايا السيئة النوادرية لمؤسس "جونانتفيل Jonanetville" في فلوريدا إلى تجريم شامل للولايات المتحدة. فساد سياسي، وجماعات تكسب عيشها من القيام

"بالوساطة بين مفسدين ومفسودين"[٤٥]، وديكتاتورية الاحتكارات على الصناعات (المجموعة كلها ضمن "شركات احتكارية"[٤٦])، وأنانية الأغنياء، ودونية البروتستانتية بالنسبة للكاثوليكية و"إحسانها الأجمل"[٤٧]: يقدم كتاب ***حول عالم أصحاب الملايين*** المجموعة شبه الكاملة لنزعة معاداة أمريكا كاثوليكية ومحافظة، وجدت ضراوتها التى كانت لا تزال كامنة فى عام ١٨٨٩ فى ضربة كوبا فرصة أن تطفح. لقد تحول متنزه فلوريدا ذو الحكايات المسلية حول مائدة الطعام إلى ناقد لبابل الأمريكية ولـ"مدينة الأثرياء الشاملة" التى تحكم، فى نظر جوهانيه - هذه الديمقراطية المزعومة. هذا التجذر فى اللهجة بين عامى ١٨٨٩ و ١٨٩٨ مدهش، ويترجم التصاعد القوى السريع لخطاب نزعة معاداة أمريكا.

حرب العوالم

الحرب ضد إسبانيا حاسمة إذن بصورة مزدوجة. هناك من جهة، الصورة الفرنسية عن الولايات المتحدة التى تتكون حول الثيمة الأمبريالية، ومن جهة أخرى، وبالحركة ذاتها تأخذ أوروبا فجأة بوجودها فى وعى عدد من الفرنسيين بوصفها فى آن واحد كيانًا مهددًا بصورة متضامنة وقوة وحيدة قادرة على الوقوف فى وجه "الخطر الأمريكى" إذا ما أسكتت انقساماتها.

الإمبريالية أولاً. لقد قضت حملة ١٨٩٨ بصورة نهائية على الصورة السلمية للولايات المتحدة التى كان يروج لها الجمهوريون فى فرنسا. كان التكذيب داميًا بالنسبة للذين كانوا يسهرون على الأسطورة بإخلاص، وكذلك بالنسبة للذين كانوا يثقون شأن بول دو روزييه بها من خلال الإلحاح على الضعف العددى للجيش الأمريكى[٤٨]. "ليست الولايات المتحدة أبدًا بملجأ من حرب"، كما كان يكتب فى عام ١٨٩٢ محقق المتحف الاجتماعى؛ فبعد ست سنوات صارت أوروبا هى التى لم تعد بملجأ من حرب أمريكية. ويصحح الصحافى جول هوريه Jules Huret فى عام ١٩٠٤ بسرور نسخة هذا الخبير الذى لم يهتم إلا بعدد جنود الجيش الأمريكى، ولم يهتم أبدًا بميزانيته؛ لأنه "بالنسبة لبلد لا جيش له أو على الأقل لا يصل جيشه إلا إلى خمسين ألفًا من الرجال، تبلغ الميزانية العسكرية لأمريكا مبلغ مليار ونصف من الفرنكات! وهى أعلى من فرنسا"، كما يشدد هوريه بعنف يزيد عن الدقة[٤٩].

كل شيء يمكن إذن أن يحدث وعلى أى ميدان عمليات؛ لأن هذه الحرب التى خيضت فى آن واحد فى المحيط الأطلسى وفى المحيط الهادئ أتت أيضًا لتكذب القناعة

المطمئنة لمراقبى السنوات العشر السابقة، والتى تفيد بأن محاولات التوسع للولايات المتحدة ستجد متنفسًا لها كافيًا على قارتها دون أن يصير الصراع المباشر مع أوروبا أمرًا حتميًا. وكان الأكثر تشاؤمًا يلمحون إمكان الخلاف مع بريطانيا العظمى الغيورة من الدور المتعاظم للولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية، ولم يكن أحد يتخيل هجومًا وجاهيًا ومدبرًا ضد بلد من أوروبا القديمة ولا توسيعًا للصراع إلى نصفى الكرة الأرضية.

غدت الإمبريالية العسكرية لمنتصرى ١٨٦٥ والمقدمة حتى الآن بوصفها رغبة كامنة واقعًا صريحًا. لقد تغير وجه أمريكا "اليانكى" فى نظر الفرنسيين. ووصل الأمريكى الجديد: فخلف المزارع المسالم والحانوتى المتسامح محارب العصر الصناعى، حارق المدن وجزار المدنيين. وفى النص الحانق الذى يطلقه انتقامًا أدبيًا ضد المعتدى اليانكى يجعل لوتى من القذائف المنقوعة فى النفط رمز الحرب القذرة التى ابتكرها الأمريكان مع "أسراهم قبل إعلان الحرب، وقصفهم دون إنذار، وقذائفهم المغلفة بقماش نفطى تشعل الحرائق فى المدن"(٥٠). حرب جزّارة إذن. (يكتب أيضًا قبل "إحلال السلام" الدموى فى الفيليبين). حرب غشاشين مادام غزو كوبا قد استند إلى حجة الهجوم على الماين المختلقة من كل الوجوه. حرب خداعين أخيرًا؛ لأن هذا التحدى الموجه إلى أوروبا هو اختبار لإرادتها، ولقدرتها على المقاومة. يهتف لوتى: ليت أوروبا تفهمه! ليتها تستخلص الدروس ولا تترك سيفها فى غمده! ليت الأمم الأوروبية تنصهر معًا ضد العدو المشترك! يحلم لوتى بهذا الاتحاد المقدس لدى سفير ألمانيا فى مدريد أمام لوحة رمزية "رسمها الإمبراطور جيوم": نساء فى ملابس الربات الفارسات يمثلن مختلف الأمم الأوروبية. ويعلق لوتى :"كان يمكن ولا شك للرمز أن يكون أكثر دقة، والمعنى أكثر مباشرة لو أن الجنى ذى الجناحين المبسوطين أشار إلى مجمع المحاربات فيما وراء المحيطات، نحو العالم الجديد، نحوغرب السماء كله، المخطط بالأسلاك الكهربائية والمسودّ بدخان المصانع"(٥١). برنامج تشكيلى أخاذ! إن بيير لوتى هو أول فرنسى يحلم بحملة صليبية كبرى مضادة لأمريكا تقوم بها أوروبا وقد استحالت فارسة محاربة.

لئن كان فريدًا فى الشكل الذى يتخذه احتداداته، فإن لوتى ليس الوحيد الذى يتأثر. فبين الشهادات المتقاربة، تبدو شهادات فاليرى ودو سواريس أكثرها إدهاشًا، الأولى بوضوحها الرزين والأخرى بعنفها الذى يجعل من لوتى معتدلاً. سنلقاهما كلاهما فى الفصل المخصص لنزعة معاداة أمريكا تحت رعاية أوروبية. لم تر هذه النصوص النور فى الواقع إلا فيما بين الحربين. يصف نصّ فاليرى الحرب الإسبانية

الأمريكية بالمشاركة مع الحرب الصينية اليابانية فى عام ١٨٩٥ على أنها رضّة مُؤسِّسَة. يحكم فاليرى على هذين الصراعين بأنهما حاسمان لا بنتائجهما المباشرة، بل بوصفهما علامتين رائدتين على زعزعة العالم الأوروبى الحتمية. هذه الوساطة الاسترجاعية والسوداوية تديم باحتفالية غريبة صرخة الغضب والاستغاثة التى أطلقها فى زمنه لوتى. يكتب فاليرى: "الصدمة التى تبلغنا باتجاه غير متوقع تمنحنا فجأة إحساسًا جديدًا بوجود جسدنا بوصفه مجهولاً. [...] لا أعرف لماذا أعطتنى اعتداءات اليابان ضد الصين والولايات المتحدة ضد إسبانيا فى وقتها شعورًا خاصًا. لم تكن هذه الصراعات سوى صراعات محدودة، ولم تنخرط فيها سوى قوى ذات أهمية مبتذل [...]. أحسست على كل حال بهذه الأحداث المختلفة لا كأحداث طارئة أو كظواهر محدودة بل كعوارض أو بوادر، كوقائع ذات دلالة تتجاوز تجاوزًا كبيرًا الأهمية الذاتية والمغزى الظاهر"(٥٢). ولت أوروبا فى نظر فاليرى لا من خطف أسطورى، بل من اغتصاب مثقل بالرمز: اغتصاب أوروبا القديمة من قبل أبنائها أو تلاميذها ـ وبوجه خاص من قبل أمريكا الجاحدة؛ لأنه إذا كانت حرب ١٨٩٥ استطاعت أن تقلق بحق أوروبا بوصفها "أول عمل قوة لأمة آسيوية [اليابان] استُصلحت وجُهزت على الطريقة الأوروبية"، فإن حرب ١٨٩٨ يجب أن تغضبها، وأن تجرحها بوصفها "أول عمل قوة لأمة [الولايات المتحدة] مستنتجة وكما لو أنها مطورة من أوروبا ضد أمة أوروبية".

كان لوتى فى نار بطالته يحلم بنزهة أوروبية ضد العدو الأمريكى. أما فاليرى فيكتشف أوروبا كما يكتشف المرء جسده المجروح: "لم نكن نعرف كل ما كنا عليه، ويحصل أن هذا الإحساس العنيف يجعلنا هو ذاته حساسين بتأثير ثانوى لعظمة ولرمز غير متوقعين فى مجالنا الحى. هذه الضربة غير المباشرة فى الشرق الأقصى، وهذه الضربة المباشرة فى الأنتيل يجعلاننى ألمح إذن على نحو غامض وجود شىء ما يمكن أن يتأثر ويقلق من مثل هذه الأحداث. وجدتنى "فى وضع من جعلوه يتحسس" ظروفًا كانت تمسّ ضربًا من فكرة احتمالية عن أوروبا كنت أجهل حتى ذلك الحين أننى أحملها فىّ"(٥٣)، هكذا ما يمكن أن يكون عليه، قبل جيل من خراب ١٤-١٨، صك ولادة أوروبا المهزومة ـ المهزومة كما كانت فى الحقيقة إسبانيا فى قضية كوبا. هل أوروبا هى بنت الخوف؟ هل أوروبا هى ابتكار غير مقصود لأمريكا قاتلة أمها؟

الفرنسيون ضد اليانكى: المسلسل

لن ينتظر كاتب يعمل لجمهور آخر تمامًا ربع قرن لكى يستجيب لصدمة ١٨٩٨، ولا لكى ينادى أوروبا للاتحاد المقدس ضد العدو الأمريكى: أى الروائى جوستاف لو

روج Gustave Le Rouge. لقد قدم لو روج بعد عدة أشهر فقط من انفجار الماين واجتياح كوبا للجمهور الشعبى أول جزء من حكاية معادية لأمريكا تحمل عنوان: ***مؤامرة أصحاب المليارات*** *La Conspiration des milliardaires*، وهى مسلسل مجلجل يشيد بالنضال البطولى والمنفرد لحفنة من الفرنسيين ضد المؤامرة اليانكية لاستعباد أوروبا.

تعتبر مؤامرة أصحاب المليارات بأجزائها الثمانية التى تتالت بين ١٨٩٩ و١٩٠٠ ذات أهمية تاريخية فى تاريخ القص المعادى لأمريكا بأسبقيتها وبتجذرها وبالطابع الشعبى لتوزيعها. هذه الرواية بأربعة قروش (ذلك هو سعر كل جزء) هى أول مؤلف لجوستاف لو روج يجعله يجاور جوستاف جيتون Gustave guitton؛ إذ نجح من سيسمى "جول فيرن الفتيات الصغيرات" منذ تجربته الأولى فى تقديم عمل رائع. ففى الثانية والثلاثين من عمره قام بتركيب من الميلودراما الشعبية المانوية على طريقة أوجين سو ومن حكاية التنبؤ التقنى على طريقة فيرن، لكن اختيار الموضوع بوجه خاص هو ما جعل من ***مؤامرة أصحاب المليارات*** بداية كبرى فى التخييل الفرنسى. إن لو روج إذ يلتقط الغضب والقلق المتولدين من القضية الكوبية بمهارة، يجعل من حبكته تدور بأكملها حول الخطر الأمريكى. وبوصفه انتهازيًا ومناضلاً فى آن واحد، فإنه يستنفر ضد العدو اليانكى جمهوراً مستعداً تمام الاستعداد لتصديق أن الولايات المتحدة فى عام ١٨٩٩ وعالمها القاسى وسعارها الإمبريالى سوف تهدد بخطر حقيقى لحرب العالَمِين على طرفى الأطلسى. هذه الحرب التى لا تغتفر سيتم فى النهاية تلافيها وستحبط المؤامرة، ولكن حتى النهاية السعيدة وخلال عدة مئات من الصفحات هناك أمريكا الشمالية المدرعة بالدولارات أكثر من تدرعها بتأنيب الضمير، وقد ركزت قوتها الآلية بأجمعها وطاقتها النفسية كلها بهدف القضاء على أوروبا.

يُذكِّر القارئ بصورة منتظمة بثيمة الرواية من خلال مقاطع كهذا المقطع الذى سنحترم فقراته اللاهثة(والمسلية):

"فى مواجهة أوروبا، قامت حضارة، مبكرة ومخيفة، وخلال قرن حققت الولايات المتحدة المستحيل، وبلغت قمة النشاط المادى.

بالنسبة لنا، الخطر الحقيقى هو هنا. حتى هذا اليوم، اكتفى الأمريكيون بأن يكونوا صناعيين مدهشين، لكن هذا لم يعد يكفيهم.

إننا نستشعرهم يضطربون ويتخبطون فى مشكلات اقتصادية، وهم يعملون على أن يفرضوا علينا أسعارهم التجارية، وسيستخدمون كل الوسائل للوصول إلى ذلك.

ها هو سلاحهم يزداد ويتحسّن [...]

ما الذى سينتج عن هذا الصراع الهائل؟ هل يسعنا دون أن نرتعد رعبًا ارتقاب مستقبل حرب شاملة؟"

هكذا يفكر الشاب أوليفييه كورونال، المهندس وعالم الإنسانيات حول "الخطر الأمريكى، الخطر الحقيقى للعروق اللاتينية"(٥٤). وككل الآداب المسماة تنبؤية، تستخدم *مؤامرة أصحاب المليارات* المستقبل البسيط مع الماضى المركب ممتزجين بالحاضر المباشر. ولا يقول بطلنا الذى يزفر همه فى مقاطع المسلسل شيئًا آخر سوى ما يقوله شخص كأوكتاف نويل. لا تنطوى قصة لو روج الباروكية فى بدعها الجزئية (كانت هناك كتيبة من المنومين المغناطيسيين بتصرف اليانكى، لكى يسرقوا أفكارنا)، على شىء خارق فى كلامها ولا فى الكلام الذى تجعل شخصياتها الإيجابية تقوله مطولاً وعلى نحو قاطع، والتحذير الذى تكرره دون هوادة هو تحذير المتنبئين فى سنوات ١٨٩٠: "صار الخطر عبر الأطلسى واقعًا"(٥٥).

تستحق رواية *مؤامرة أصحاب المليارات* إذن التوقف مرتين؛ فبينما يشير نجاحها إلى الشهرة الشعبية لنزعة معاداة أمريكا، فإن الإلحاح النمطى الخاص بهذا الجنس الأدبى يجعل من هذا المسلسل كنزًا من العلامات على ملامح معاداة أمريكا المتلقاة أو التى سيتم تلقيها مع منعطف القرن العشرين.

إن العدو الذى يسميه لو روج ليس الأمريكان بل اليانكى، والكلمة مستخدمة بصورة منتظمة وفى كل صفحة تقريبًا من قبل الشخصيات الفرنسية لكى تتحدث عن خصومها. ومن قبل الراوى حين يقدم لنا تأملاته الأنثروبولوجية السياسية، بل وكذلك من قبل اليانكيين أنفسهم؛ فصاحب المليارات بولتين يتحدث على هذا النحو عن حكومته بوصفها "حكومة يانكى"(٥٦). هذه التسمية مركزية فى عملية الأبلسة المقصودة للعدو الأمريكى. وإذ يفرض بشدة هذه اللفظة ذات السمعة السلبية بوصفها التسمية "الطبيعية" لسكان الولايات المتحدة، يطوى جوستاف لو روج صفحة أمريكا الرومانتيكية، أو الملحمية، أو الأخوية. أمريكا هذه، أرض الملاذ أو المغامرة، لم تعد إلا ذكرى، والأمة الصديقة التى كانت تسكنها صارت أسطورة باطلة. وبدلاً من أمتين جنبًا إلى جنب ـ فرنسا والولايات المتحدة ـ يقيم المسلسل قارتين وجهًا لوجه ـ أوروبا و"بلاد

اليانكى". قارتان وبوجه خاص عرقان. فبين الأوروبيين واليانكى، "بين العرقين اللذين يتقابلان على شواطئ الأطلسى" "الاختلاف" كما يلح لو روج، "هائل"(٥٧)، هائل إلى درجة أن الإنجليزى نفسه سيكون أوروبيًا بالمقارنة معه...

إن الاستخدام الثابت لتسمية يانكى ليس إذن مجرد تسجيل لعادة كانت تشيع؛ ذلك أن لو روج ينتج بإلحاحه وجهًا آخر لأمريكا تتلاشى فيه الأمة مع تاريخها لصالح العرق مع ثوابته. والغياب الكامل فى الحكاية للشعب الأمريكى (إذ يتبين أن الشخصية الوحيدة الشعبية واللطيفة التى يلقاها أبطالنا شخصية غير أمريكية) يستجيب منطقيًا لحذف الاسم. إحلال اليانكى محل الأمريكى عملية تتجاوز مجرد التشهير بواسطة التسمية؛ فالولايات المتحدة (التى يسميها لو روج الاتحاد كما كان يطلق عليها خلال حرب الانفصال) تعرف من الآن فصاعداً بـ"العرق" المسيطر الذى "يحتل" الفضاء الأمريكى. إن مجمع أصحاب المليارات الداعين إلى الحرب الشرير، "بعض اليانكى الطامحين" هؤلاء الذين يمنحون أنفسهم وسائل القضاء على أوروبا لا يؤلف فى الأساس إلا النواة الأساسية، وتكثيف واشتداد هذا العرق الشرس والحقود.

لم يعد هناك أمة أمريكية إذن، ولا أرض أمريكية كذلك. والبلد الذى يطوف فيه بطل رواية لو روج بلد تجريدى تمامًا. إن كون لو روج لم يطأ بقدمه أمريكا لم يكن يسهل عليه الوصف بالطبع، لكن فقر الوصف فى الواقع يخدم أهدافه على نحو أفضل. يجب أن تبقى "بلاد اليانكى" خامدة وبلا ميزات، باعتبارها ليست إلا الوجه السلبى لـ"أمريكا"، هذه القارة المفقودة التى نفى مناظرها وسكانها اليوم إلى كتب الأطفال. وحلت محلّ الجغرافيا المغامرة والمبرقشة لروايات السهوب، الطوبولوجيا الحزينة لطبيعة فقدت طبيعتها ولفضاء تمت مصادرته.

هذا هو المنظر الذى يتجلى للمهندس الشاب أوليفييه كورونال ولخادمه المخلص ليون (دوبيلفيل)، حين ينطلق بحثًا عن القاعدة السرية التى يبنى فيها الأسطول الآلى لأصحاب المليارات، الكتيبة المرعبة من "الأشباح الفولاذية". رؤية جاحدة ومخيبة : "ينطلق القطار بأقصى سرعة، فى طريق مستقيم. يتذكر الشاب الفرنسى مبتسمًا روايات المغامرة التى كانت تسحر طفولته: فنيمور Fenimore، وكوبر Cooper وجوستاف إيمار Gustave Aymard... أين هم أبطال ***الغدارة الطويلة Longue carabine***، ***والجرابات الجلدية Bas de cuir***، ***وعين الصقر Oeil de Faucon***، وكل أبطال السهوب الرائعين[...](٥٨)؟ "لم يعد هناك مكان لهذه الكائنات الروائية فى "بلاد

اليانكى". لقد طردت الولايات المتحدة فى ١٨٩٩ المغامرين، كما قتلت الهنود أو أدخلتهم الحظيرة "بحجة جعلهم يتذوقون حسنات الحضارة". إن أمريكا السابقة التى يجتازها أوليفييه وليون بوصفها صقالة أحلام أو مصنع تطبيع، تحقر حتى ضحاياها الذين تركوا على حالهن لقاء ثمن انحطاطهم: "يرتدى آخر ممثلى الجنس الأحمر، الذين هلك معظمهم بفعل ثورات لا طائل من ورائها، الملابس على الطريقة الأوروبية، ويعقدون الصفقات". إن بلاد اليانكى أرض خالية، لكنها ليست من الأراضى التى تشرق فيها اليوتوبيا، بل هى صحراء موحدة النمط. مدمَّرة، بمنظر "بيوت الألمنيوم تحل محل الأكواخ من الأغصان". ومدمِّرة، بالبشرية الضالة التى حلت محل الهنود، التى "لا عمل لها"، والتى "تطوف الولايات المتحدة وأسلحتها بأيديها، سالبة وحارقة كل شىء، كما حصل أخيراً خلال الإضراب الأخير لعمال السكك الحديدية"(٥٩). وبإيجاز، خراب بشرى هى هذه الحضارة التى "جعلت من حق الأقوى نظرية"، والتى "لا تهتم بالذين يموتون أثناء النضال"(٦٠).

إذا كانت أمريكا قد استطاعت أن تصمم مشروع الغزو الفظيع الذى يتوجب عليه أن يجعل من أوروبا "تابعة"، فلأنها هى ذاتها أرض عنف وظلم. "إن استرقاق العالم القديم من قبل الجديد" هو الآن"مسألة أشهر وربما أيام"، كما سيعلم قارئ لو روج بقلق. والغزو فى نظر أصحاب المليارات هو مجرد إستراتيجية تصدير؛ فالمقصود أن يمدّ إلى أوروبا الرق الجديد السائد أصلاً فى الولايات المتحدة. والمقصود تأمين السيطرة على الأسواق كلها على الدوام. والمقصود عولمة ديكتاتورية الأربعمائة. أهو الالتزام المضطرم لبلد مليء بالطاقة كما يريد أن يجعلنا نقتنع المعجبون بتيدى روزفلت و بـ"*strenuous life*"؟ أم هى حمّى النمو لأمريكا الفائضة بطاقتها؟ يجيب لو روج: لا شىء من ذلك أبداً، بل تصدير عالمى للاستبداد المحزن لحكومة مسنين أثرياء. "لكن من سينتصر مع أمريكا؟ الأربعمائة من أصحاب الملايين العديدة الذين يملكون رءوس الأموال جميعها! وبوصفهم أقوى من القياصرة والملوك الذين تحتفل بهم كتب التاريخ، يتقاسم أصحاب المليارات العالم، ويصير الذهب ديناً عاماً، وتصير المصانع ذات الطوابق العشرين معابده، شأن أبراج الحديد والجسور الضخمة التى تصير نصبه المعبودة(٦١)".

وفى قمة الهرم اليانكى، يسيطرون على هذه "الحضارة التى لا تتباهى بحب البشر"، هناك أصحاب المليارات بالطبع، وكذلك خدمهم أيضاً، وفى مقدمتهم منسق المؤامرة الآلية الذى لا غنى عنه، "هاتيزون الشهير"، من زيمجو بارك، "الكهربائى

المعروف في العالم كله"(٦٢). لم يكن يصعب على القارئ الفرنسي في عام ١٨٩٩ أن يتعرف في هذا الوجه الغافي توماس أديسون، من مونجو بارك؛ فزيارته إلى فرنسا قبل عشر سنوات من ذلك كانت على الصفحات الأولى من الصحف جميعًا، لكن مبتكر الفونوجراف والمصباح المتوهج الذي كانت تتخاطفه الصالونات الباريسية هو هنا سيد حزين، "رجل صغير صامت ذو هيئة كئيبة باستمرار"(٦٣)، أكثر مهارة منه ابتكاراً، مستغلاً فطنًا لأفكار الآخرين ولأفكاره، جاهزًا وهو مغمض العينين لخدمة المشروعات العدوانية للرأسماليين الذين وَحَّدَهُم مَلِك العلب المحفوظة وليام بولتين.

عالم آلي وتراتبي، عالم قاس هو عالم أمريكا المشوهة التي يهيمن عليها الزوج الجهنمي المؤلف من الرأسمالي بلا إحساس والمهندس بلا روح، لا بل إن هذا المِقرَنُ البشري هو الذي يحدد بصورة أدق "النمط الكريه لليانكي، للعالم بلا رقي الأفكار، وللصناعي بلا إنسانية"(٦٤). يؤدي وصف واحد منهم إلى معرفتهم جميعًا، وهو ما يعني رفع القناع عن الجنس كله: يفكر أوليفييه الشجاع وقد وقع بصورة خائنة بأيدي العدو اليانكي، "اليوم فقط أفهمه تمام الفهم، وفي كل دقائقه...".

مانوية من أجل "فتيات صغيرات"؟ ربما، لكن الصحافي الكبير في الفيجارو جول هوريه Jules Huret لا يفكر خلاف ذلك، حين يقابل بين العلماء من عندنا، "هؤلاء الرسل الذين لا أجر لهم سوى المجد"، وبين "الظاهرة المعاكسة" الخاصة بأمريكا: "علماء لا يقبلون بشفاء أمثالهم إلا بشرط أن يغتنوا". "أنانية مفرطة، وحس عملي مفرط": هذه الملامح السائدة لليانكي "تقتل كل إمكانية نبيلة، وكل شعور بالواجب وبالتضامن الإنساني"(٦٥)، ثم إن "كل الابتكارات التي تستغل في أمريكا، والتي يتم تحسينها سبق وأن ابتكرت في أوروبا القديمة"(٦٦): *Corruptio optimi pessima*، كما يردد المدافعون الفرنسيون عن علم إنسانوي. إنّ أسوأ ضروب الفساد هو ذلك الذي يفسد الإنسانية في القلب: حتى في إنسانوية رجالها الكبار. علم بلا ضمير وعلماء بلا ذمة يطبعون بالعار أمريكا هذه التي تدنس فيها الشراهة أجمل المواهب، لا بحث إلا البحث عن الربح، اللصوصية حيث تسود المنافسة. إن "السلب الوقح" لبراءات الاختراع، وسرقة حقوق المؤلف تصير منطقيًا صناعة قومية في هذا البلد؛ حيث "لا يملك العلماء من الحياء أكثر من التاجر"(٦٧). تكاد اللوحة التي يرسمها الموفد الخاص للفيجارو تكون نسخة مطابقة للوحة كاتب المسلسل: لا ينقصها سوى "كتيبة المنومين المغناطيسيين" التي كان يتخيلها جوستاف لو روج مرهقًا أفكارنا العلمية في غرفنا العالية الإستراتيجية في الحي اللاتيني.

لم يعد هناك فى نظر جوستاف لو روج أمريكا بالمعنى الحقيقى للكلمة، بل بلد يانكى ذو شعب لا يعثر عليه، وسلطات شرعية من الدمى المتحركة، كل شيء فيها ينحل ويتلخص فى النادى السرى الذى يحكم البلاد فعلاً. هذه الزعامة الموازية تخضع لمنطق المصالح دون شك، لكنها أيضاً، وتلك ظروف مشددة، مكهربة بكراهية محضة للأوروبى.

إن هاتيزون الصامت، وهو عقل المؤامرة، فريسة حنق مستمر لا يسعه السيطرة عليه ضد أوروبا: "لم يكن للمهندس هاتيزون [...] سوى غاية واحدة، كان يربط إليها كل أفعاله والطاقة الخارقة التى كانت تسكن جسده الهزيل والضعيف. كان ينطوى على كراهية لأوروبا، ولأخلاقها، ولأفكارها أكثر من أى شيء آخر. [...] كان يحلم وهو يرتعش من اللذة بدمار كامل لهذا الجنس من برابرة ما وراء البحار، الذين كان فى مبادئهم الاجتماعية وفى عدم كفاءتهم التجارية ما يكفى لإغاظته(٦٨)". أما بالنسبة للدموى بولتين، إمبراطور المجازر، فلم تكن خطبه النارية لتهدئه، كان بحاجة إلى ما يفرج عن مكبوتاته: متحف للفن كان يذرع قاعاته الواسعة وهو "يثقب بضربات عصاه هنا وهناك روائع الأعمال للرسامين الأوروبيين الكبار"(٦٩). إخراج أخاذ للحقد الأمريكى وعجزه الضارى أمام التفوق الفنى الأوروبى. ويزداد دلالة كما يما يبدو، لا سيما وأنه ينتحل صراحة قصة شهيرة لموباسان تحمل عنوان الآنسة فيفى (١٨٨٢) التى كان يقوم بدور الهمجى فيها ضابط احتلال بروسى، سادى ومخنث، كانت تقوم تسليته اليومية على تفجير شحنات من البودرة وسط التحف الفنية فى القصر النورماندى الذى كان يحتله عسكرياً(٧٠).

لقد التقينا سابقًا هذه المماثلة الغريبة البروسية لدى كروزنييه دو فارينى فى شكل موازاة بين بلين وبسمارك، لكنها تأخذ هنا معنى مختلفًا، كل شيء يجرى كما لو أن العدو فى نظر المسالم جوستاف لو روج لم يعد يقينًا على الضفة الأخرى من نهر الراين، كما لو أن التهديد الأكبر المنبعث من الغرب كان فى طريقه لإعفاء من انتصروا علينا فى عام ١٨٧٠. هكذا يوجد جوستاف لوروج إلى جانب الكابتين لوتى، منادياً الفارسات المحاربات إلى النجدة ضد عدو ما وراء الأطلسى وحربه القذرة. إنه ينضم أيضاً إلى إدمون دومولان Edmond Demolins الذى كان بحثه الشهير ***على ماذا يقوم التفوق الأنجلو ساكسونى ؟*** ***A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons*** المنشور فى عام ١٨٩٧ حاضراً فى كل العقول؛ ففى مؤامرة أصحاب المليارات يعود إلى الحكيم السيد جولبير، مرشد أوليفييه كوروناك، لمناقشة أطروحاته: إنه لا يوافق على مصادرة

تفوق مطلق وعام للأنجلو ساكسون ("لا يجتاز ذكاؤهم حدود الواقع العملي ولا يعرف اجتيازها"(٧١))، لكنه يشارك دومولان الهم في ألا نخلط الأعداء من خلال الاستمرار في أبلسة الألماني وهو في النهاية أقل إثارة للخوف بما لا يقاس من اليانكي.

أثر ثانوي لكنه ليس عابرًا لتفاقم شعور معاداة أمريكا: بدت من نتيجته ألمانيا أقل عدائية، وعلى وجه اليقين أقل أجنبية، وجعلتها فكرة حلف دفاعي تدخل محفل الأمم باسم منطق "أوروبي" يدفع أحيانًا بعيدًا إلى الأمام ـ وصولاً إلى التفكير بتحالف معاد لأمريكا بقيادة غليوم الثاني(٧٢)! لا بل يبدو على قدر من الوضوح في نظر البعض (ومنهم لوتي)، أن نزعة معاداة أمريكا تستخدم إجازةً للقيام باختيار "الحضارة" لصالح ألمانيا. (سنرى فيما بعد كيف أن بروست يضع على المسرح بطله شارلو الذي تتراكب لديه محبة للألمان لا تقاوم مع خوف من الأمريكان لا يمكن القضاء عليه). يكتفي لوروج في عام ١٩٠٠ بدعوة "إمبراطور ألمانيا، ذي الوجه الحربي" إلى خاتمة مؤامرة أصحاب المليارات ـ ولم يكن ذلك بالأمر السيئ؛ ذلك لأن الخاتمة بالطبع سعيدة. أمام فرط الكراهية هذا المقدم من قبل هذه الكمية من المال، كان حظ علمائنا الشرفاء يبدو شديد الضآلة، لكنهم ينتصرون مع ذلك، والإنسانية معهم، بفضل سلاحين لا يقل أحدهما سحرًا عن الآخر: الحب و"البطارية النفسية الخازنة": الأول يغير القلوب(حتى القلوب الأمريكية)، والثاني ينتج الطيبة على صعيد واسع؛ فابن هاتيزون نفسه، تيد، الذي استولت فرنسية على قلبه وأفسدته زيارات كثيرة العدد إلى متاحفنا يخون القضية الشائنة لأبيه. وبالتناظر، تنتهي الابنة الباردة لبولتين، أورورا المتعجرفة، بالخضوع لسحر أوليفييه كورونال ولعذوبة العيش على شاطئ نهر اللوار... أما بالنسبة لـ"البطارية النفسية الخازنة" الموجهة كما يجب نحو الشعوب الأكثر عنتًا في قبول العطف فإنه يجعل منها سلسة القياد كالخراف: "كان يكفي وضع عدد منها باتجاه المدينة على مسافة عدة كيلومترات لكي تؤثر وتحول الشعب كله دفعة واحدة. فالصراعات الحزبية والكراهية القديمة والمنافسات بين الطبقات والأفراد كانت تتلاشى فجأة"(٧٣)، سيكون اليانكيون كلابًا حقًا لو أنهم قاوموا مثل هذه الآلة التي حظيت بموافقة القيصر وغليوم الثاني! كل شيء يمكن أن ينتهي إذن في جو من الفرح، بعد استعراض مذهل للسلام في القصر الذي يحمل الاسم ذاته؛ حيث يجتمع علماء العالم كله في حين أن بلوتين وقد تغير تمامًا يستحيل متنزهًا باريسيًا. لقد أُنقذت أوروبا هذه المرّة. يبقى أنه حتى اللحظة الأخيرة، حتى هذه "الخاتمة غير المتوقعة"، حتى التطهير النفسي المعجز للشعوب العدوانية، لم تكن أوروبا قادرة على الوقوف بقوة في وجه جوليات اليانكي.

توجب إذن لتحييد التهديد الأمريكى اللجوء إلى سحر العلم وإلى جرعة كبيرة من العجيب الحديث، لكن الرائع الحقيقى فى مسلسل لوروج هو الإنسان - الإنسان الأوروبى. والبطارية النفسية الخازنة الحقيقية هى الدولة الاتحادية التى تصالح القارة العجوز المنقسمة. وراء الخرافة العلمية، البرنامج الأيديولوجي واضح، وشديد القرب من توهمات لوتى ومن إعادة تجميع فاليرى، وهو يتلخص بكلمة: أوروبا المتحدة - المتحدة ضد الولايات المتحدة. وإنه لحلم هوجو القديم حلم الولايات الأوروبية المتحدة كما يذكر كاتب المسلسل، لكنه يكلف نفسه عناء إعادة تفسير هذا الحلم دون أن يخلو من الجرأة على أنه حلم معاد لأمريكا. إذا كان "الشاعر الكبير" قد تمناها كثيراً، هذه الولايات المتحدة الأوروبية، "ألم يكن ذلك لكى يعترض بها المدّ الغازى للولايات المتحدة الأمريكية[...]؟[٧٤]. يعرف لوروج جيداً أن التحريف يفتقر إلى سلامة النية؛ فمنطق هوجو كان منطق منافسة يبين فيها الاتحاد الأمريكى الفيدرالى والمسالم الطريق لأوروبا الملكية والمتأخرة. لم تعد المسألة اليوم مسألة منافسة، بل هى رد ودفاع ذاتى. إذا كان على الولايات المتحدة أن تلعب دوراً فى الوحدة الأوروبية، فبالإرهاب الشرعى الذى توحى به. يقول أوليفييه كورونال وقد أخذته "حمى الذكرى": "ضد الخطر الأمريكى"، "وما يدرينا إن لم تتكون فى أوروبا جمهورية واسعة تشتمل على كل قوى القارة العجوز التى لا يزال يقسمها الخلافات القديمة؟ سيكون ذلك منطقياً بعد كل شىء".

لا يبتكر لوروج هذا المنطق الأوروبى، الذى ستتوجب العودة إليه، لكنه ربما كان الأول الذى يعممه ضمن هذا الشكل.

إن ما يؤلف كل أهمية "انفعال" عام ١٨٩٨ ليس إذن فقط رد الفعل المباشر الحى والعنيف فى أغلب الأحيان للفرنسيين المتحدين على نحو غريب فى الاستنكار[٧٥]، بل هى العلامة التى يطبعها على جيل بأكمله. يشهد على ذلك فاليرى، كما يشهد أيضاً أندريه سواريز الذى تصور فى عام ١٨٩٨ فكرة بحث حول "المبدأ الأوروبى" لن يرى النور إلا فى عام ١٩٢٦. تختلف اللهجات اختلافاً كبيراً كما سنرى فيما بعد؛ فالتأمل الأليم لفاليرى شديد البعد عن السخط المتعصب لسواريز، إلا أنه لا يسعنا إلا أن نعجب أمام هذا التوازى فى ردود الأفعال، القلقة أو الساخطة، قبل "الضربة" ذاتها التى قامت بها أمريكا. وبتقديمه تأكيداً ساطعاً للتحذيرات التى أطلقتها حتى ذلك الحين أصوات منعزلة، حولّ هذا "الصراع ذو الحجم المحدود" أفقَ انتظار الفرنسيين

أمام أمريكا؛ فأشد ضروب العنف ضخامة يمكن من الآن فصاعداً أن تندرج فيه دون استبعاد وقوعها.

بوضع أقدامها فى كوبا، فى شبه الامتداد هذا من ناحيتها، بدت الولايات المتحدة للأوروبيين وقد ملكت بخطوة واحدة الأطلسى، ويغزوها الفيليبين أنها تعلمهم قدرتها على استدعاء نفسها فى كل مكان. وعلى أنّ هذه الإمبريالية لا نمطية - بسبب ترددها فى الضم ونفورها من إدارة الأراضى التى اغتصبتها - فإن ذلك لا يجعل منها أشد مدعاة للطمأنينة بالضرورة. تبدو الولايات المتحدة أنها تريد سلوك القوى الاستعمارية الكبرى دون الدخول فى ناديها، وهو مصدر متوقع لتوترات مستقبلية. إنهم يريدون النهب دون توسيخ أيديهم - نسخة طهرية ومنافقة كما يفكر الفرنسيون عن السمن ونقود السمن(*). إن ***تقييدهم الذاتى self-restraint*** فى النزعة التوسعية يطمئن الدبلوماسيين، لكنه لا يصلح لدى الرأى العام الأضرار التى لحقت بصورتهم من جراء قصف هافانا ومن جراء حرب الفيليبين القذرة. ستهدأ الضجة بالتدريج اعتباراً من عام ١٩٠٣، وستسكن الاستثارة، لكن وجه أمريكا تغير بفعل ذلك؛ فهى تعبر القرن فى صورة اليانكى الفظ.

(*) "السمن ومال السمن": مثل فرنسى يضرب لمن يريد الحصول على كل شىء بغير وجه حق.

هوامش

(١) انظر كـتـاب : J.Portes, Une facination réticente. Les Etats-Unis dans l'opinion française, Presses Univer-sitaires de Nancy, 1990, pp. 273-276.

(٢) Rapport de la délégation ouvrière libre, Mécaniciens, Paris, Sandoz, Fischbach-er et Vve Morel, 1877, p. 199, cité par J. Portes, ibid. p. 272.

(٣) Rapport d'ensemble de la délégation ouvrière libre à Philadelphie, Tailleurs d habit, Paris, Imprimerie nouvelle, 1879, p. 124. , cité par J. Portes, ibid., p. 273.

(٤) Jeremy Brecher, Strike, San Francisco, Straight Arrow Books, 1972, p.28.

(٥) فى الصحيفة الفوضوية La Révolte، ٢٧ نوفمبر ١٨٨٧: استشهد به M. Cordillot فى كتابه: Les reactions européennes aux événements de Haymarket, A l ombre de la liberté, Immigrants et ouvriers dans la République américaine. 1880-1920, textes réunis et présentés par Marianne Debouzy, Presse Univer-sitaire de Vincennes, Saint-Denis, 1988, p. 185.

(٦) J. P. de Chasseloup-Laubat (marquis de), Voyage en Amérique et principalement à Chicago, Extrait des Mémoires de la Société des Ingénieures Civils de France, Paris, 10 cité Rougemont, 1983, p. 53.

(٧) Ibid., p. 48.

(٨) Ibid., p. 73.

(٩) Jules Huret, En Amérique. I - De New York à La Nouvelle-Orléans, Paris, Fasquelle, 1904, p. 51. Le second volume En Amérique. II - De San Francisco au Canada paraît en 1905.

(١٠) Ch. Crosnier de Varigny, Les Etats-Unis. Esquisses historiques, Paris, Kolb, 1891, p. 233.

(١١) الصيغة لوليام أمز :

William Ames, Conscience with the Power and Cases Thereof, London, 1643, t. I, p.2.

وأول طبعة (لاتينية) فتعود إلى ١٦٣٢.

(١٢) John O Sullivan, The Progress of Society, United States Magazine and Democratic Review, VIII, july 1840, p. 87; cile par Cl. Fohlen, La tradition expansionniste des Etats-Unis au XIXº siècle, L expansionnisme et le débat sur l impérialisme aux Etats-Unis. 1885-1909, textes réunis et présentés par R. Rougé, Americana nº 2, Presses de l Université de Paris-Sorbonne, 1988, p. 15.

(١٣) Cl. Fohlen, ibid.

(١٤) Ch. Crosnier de Varigny, Les Etats-Unis..., p. 114.

(١٥) Ibid., p. 257.

(١٦) Ibid., p. 277. ، يعتمد على محادثة بلين التى ظهرت فى صحيفة New York Herald بتاريخ ١٢ فبراير ١٨٨٩.

(١٧) Ch. Crosnier de Varigny, Les Etats-Unis.., p. 119.

(١٨) Emile Barbier, Voyage au pays des dollars, Paris, Marpon & Flammarion, 1893, pp. 336-337.

(١٩) Paul de Rousiers, La Vie américaine, Paris, Didot, 1892, p. 2.

(٢٠) H.G. Rickover, How the Battleship Maine Was Destroyed, Naval History Division, Department of the Navy, 1976.

(٢١) It has been a splendid little war; begun with the highest motives, carried on with magnificent intelligence and splrit, favored by that fortune which loves the brave; رسالة من جون هاى John Hay (وكان أننذ سفيرًا فى لندن) إلى تيودور روزفلت مؤرخة فى ٢٧ يوليو، استشهد بها:

W.R.Thayer, The Life and Letters of John Hay, Boston, 1915, vol.2, p. 337.

(٢٢) Le Temps, 11 avril 1898; cite par J. Portes, Une facination.., p. 345.

(٢٣) P. Birnbaum, Le Moment antisémite. Un tour de la France en 1898, Paris, Fayard, 1998.

(٢٤) A. Ruz, La Question cubaine. Les Etats-Unis, l' Espagne et la presse française, Paris, P. Dupont, 1898, p. 46.

(٢٥) موراس Maurras يسمى ماقبل ١٤ على هذا النحو فى نص ستجده فيما بعد (القسم الثانى، الفصل الثانى).

(٢٦) P. Loti, A Madrid, les premiers jours de l agression américaine, Reflets sur la

sombre route, Paris, Calman-Lévy, 1899, p. 104.

(٢٧) *Ibid.*, p. 84.

(٢٨) *Ibid.*, p. 152.

(٢٩) O. Noël, Le péril américain, Paris, De Soye et fils, 1899, p. 1.

(٣٠) *Ibid.*, p.32.

(٣١) *Ibid.*, p. 40.

(٣٢) *Ibid.*, p. 41.

(٣٣) *Ibid.*, p. 38.

(٣٤) *Ibid.*

(٣٥) *Ibid.*, p. 39.

(٣٦) *Ibid.*

(٣٧) *Ibid.*, p.41.

(٣٨) *Ibid.*, p.32.

(٣٩) *Ibid.*

(٤٠) *Ibid.*, p. 49.

(٤١) *Ibid.*, p. 2.

(٤٢) *Ibid.*, p. 42.

(٤٣) Le Correspondant, 10 août 1898, p. 498, cité par J. Portes, Une facination.., p. 349.

(٤٤) E. Johanet, Un Français dans la Floride, Paris, Mame, 1889, p. 75. علامة واحدة أصيلة؛ فهذا المعتاد على الصحافة الجيدة يعرض نزعة عنصرية غليظة تمنحنا نكتة بمثل هذه القوة : "كما يقول الصولفيج، البيضاء تعادل على الدوام سوداوان" (ص. ٤٣).

(٤٥) E. Johanet, Autour du monde millionnaire, Paris, Calmann-Lévy, 1898, p. 84.

(٤٦) *Ibid.*, p. 78.

(٤٧) *Ibid.*, p. 355.

(٤٨) انظر : P. de Rousiers, *La Vie américaine..*, p. 604. . بإشارته إلى العدد الضئيل على نحو مثير والبالغ ٢٥٠٠٠ رجل، يسجل روزييه أيضًا أن الصفات الفردية للجندى والوطنية السائدة تجعل من الأمريكيين "مخيفين" فى حالة الحرب.

(٤٩) J. Huret, En Amérique. I.., p. 50.؛ إن النفقات العسكرية الأمريكية لعام ١٩٠٤ هى رسمياً

١٦٥ مليونًا من الدولارات لقوات يبلغ قوامها ٧٠٢٨٧ رجل فى الجيش و١١٥٩٣٧ فى الحرس الوطنى، وعلى أنها تضاعفت خلال سبع سنوات فإن هذه الميزانية تبقى أدنى من الأرقام التى قدمها هوريه بالفرنكات.

(٥٠) P. Loti, Reflets.., p. 156

(٥١) *Ibid.*, p121.

P. Valéry, *Regards sur le monde actuel, Oeuvres II*, Paris, Bibliothèque de la Pléade, 1960, p. 914.

Ibid.

Gustave *Le Rouge et Gustave Guitton, La conspiration des milliardaires* [1899-1900], Paris, UGE, 1977, t.I, p. 201.

[للتلخيص، سوف نسند من الآن فصاعدا إلى لو روج ما هو أيضًا إلى جيتون].

(٥٥) *Ibid.*, t. III, p. 194.

(٥٦) *Ibid.*, t. III, p. 259.

(٥٧) *Ibid.*, t. II, p. 171.

(٥٨) *Ibid.*, t. II, p. 98.

(٥٩) *Ibid.*, t. II, p. 100.

(٦٠) *Ibid.*, t. I, p. 314.

(٦١) *Ibid.*, t. III, p. 277.

(٦٢) *Ibid.*, t. I, p. 225.

(٦٣) *Ibid.*, t. I, p. 60.

(٦٤) *Ibid.*, t. II, pp. 169-170.

(٦٥) J. Huret, *En Amérique*. I.., p. 267.

(٦٦) *Ibid.*, p. 393.

(٦٧) J. Huret, *En Amérique*. II.., p. 298.

(٦٨) G. Le Rouge, *La conspiration..*, t. I, p. 225.

(٦٩) Ibid., t. I, p. 315.

(٧٠) هذه التسلية التى يسميها الضابط البروسى "التظاهر" يترك "القاعة الواسعة رأسًا على عقب بتأثير الشظايا على طريقة نيرون ومفروشة ببقايا القطع الفنية" (انظر: *Mademoiselle Fifi*, Paris, Editions Conrad, 1929, p. 12)

(٧١) *Ibid.*, t. III, p. 171.

(٧٢) E. Reyer, *L Américanisation de l Europe, Revue bleue, politique et littéraire*, 19 avril 1902, p. 487- cité dans J. Portes, Un impérialisme circonscrit, L Expansionnisme.., p.46, note 26.

(٧٣) *Ibid.*, t. III, pp. 362-363.

(٧٤) *Ibid.*, t. II, p. 89.

(٧٥) لم تكن الولايات المتحدة أقل نقداً إلا فى صفوف الاشتراكيين على الأقل فى بداية الصراع، لكن الاحتلال العسكرى و"إحلال السلام" الدموى فى الفيليبين، والذى كشفت عنه الصحافة فى عام ١٩٠٢ فى كل ضراوته حمل الاشتراكيين والنقابيين على التصلب فى مواقفهم.

الفصل الخامس

٥) يانكيون وأنجلو ساكسون

إن أكبر جزء من القارة التى اكتشفها كريستوف كولومب هى منذ خمسة قرون عما قريب بأيدى عرق استولى عليها.

أوكتاف نويل الخطر الأمريكى (١٨٩٩)

إن جوناثان هو ابن العم الشقيق لجون بول، لكنه ليس بابن العم الشقيق بالقدر الذى نظنه.

ماكس أوريل وجاك آللين

جوناثان وقارته (١٩٠٠)

ها هو الأمريكى الجديد قد وصل. إنه فظّ، محدود، بلا ثقافة، ولا فضول نزيه، عينه باردة، ويداه سريعتان، وأسنانه جارحة. جشعه صريح، وطمعه لا تشوبه الوساوس ـ وساوس يحرمها عليه من ثم دينه؛ ذلك هو الفرد المقلق الذى يفزع منه فرنسيو عام ١٩٠٠. إنه ليس فى الواقع فرداً، بل هو تمامًا كما يكتب جوستاف لو روج نمط: "نمط شنيع من اليانكى"، هذى به أوليفييه كورونال فى ليل كهفه المظلم. هذه النمطية جديدة، ومختلفة جذريًا عن النمطية السائدة حتى سنوات ١٨٦٠ـ ١٨٧٠، فى الزمن الذى لم يكن فيه الأمريكى إلا شبحًا إجماليًا ومتناقضًا: على غرار الإنجليزى، ولكنه أكثر ابتذالاً أو "غنى مشبوه يحمل السوط"[1].لم يعد الزمان ملائمًا لهذه الوجوه الطريفة والمضحكة الخارجة من ناد أو من سهل معشوشب: تاجر خنازير يسحب دفتر شيكاته أو متبجح تكساسى يطلق طلقاته الستة. إذا كان لا يزال يجتاز المشهد الفرنسى فلأن المسرح متمسك بثبات "الوظائف" ولا يغير إلا آسفًا الأنماط المألوفة لدى الجمهور.

مع هذه الصور الهزلية المتقادمة، لم يعد للأمريكى الجديد ما يشترك فيه سوى الدولارات والحب الذى يَخُصّها به، وتوضح مؤامرة أصحاب المليارات، هذه المسجلة الرائعة لنمطية ما بعد ١٨٩٨، على نحو جيد هذا التحول. اليانكيه فى عام ١٩٠٠؟ إنه "عالم دون رقى فى الأفكار"، "صناعى بلا إنسانية"، ذكاء مقتصر على مكتسبات التثمير وعاجز عن "تجاوز حدود الواقع العملى". متاجر مرضى ما إن يتجاوز سن العمل حتى

يغرق فى "الانتحار أو الجنون"، ثم ماذا أيضًا؟ قومى متعجرف، لا يمكن لعصبيته القومية أن تعبر عن نفسها إلا بلغته الأصلية، بكلمة غريبة لكنها صارت مألوفة لدى الفرنسيين Jingoïsme(٢). نشال لا يشبع، توسعى لا يتعب، وبإيجاز، إمبريالى impérialiste مرة أخرى كلمة فرنسية إنجليزية رغم المظاهر، كلمة اشتقت هناك(٣): فى حين إن إمبريالى كانت لدينا تعنى حتى ذلك الحين "نصير النظام الإمبراطورى)"، وهو إمبريالى يتقدم مزينًا بورع ساذج، لابسًا كتانًا أبيض خاصًا بـ"رسالته السماوية".

تجهّزاليانكيه، ولم يعد دمية متحركة. لقد اكتسب وضوحًا، بل من الممكن القول قسوة فى الملامح تختلف عن ضبابية صوره السابقة. لقد تحرر من النمط البريطانى: لم يعد بالوسع اعتباره كالإنجليزى، لكنه تحرر أيضًا من الأنماط التى كان الإنجليز قد أذاعوها عنه فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر. إن اليانكيه الفرنسى فى مطلع القرن العشرين هو بناء داخلى يعكس صعود نزعة معاداة أمريكا الفريدة، التى لا تدين بشىء ما لفانى ترولوب Fanny Trollope أو بازيل هول Basil Hall، ولكى يؤرخون لهذه القطيعة فقد اختص الفرنسيون أنفسهم بأصل لكلمة ***يانكيه*** ***Yankee*** غير معروف لدى الناطقين بالإنجليزية.

يجب لكى نقدر حق التقدير هذا التحرر أن نتابع تسلسل الكلمات والصور.

يانكيه Yankeeويانكى Yankie

ظهور كلمة ***يانكيه*** ***Yankee*** معاصر لحرب الاستقلال. وحسب الاشتقاق المحتمل، فهى لقب ساخر استخدم من قبل الجنود البريطانيين لتسمية خصومهم المستعمِرين المتمردين. ***يانكيه*** ***Yankee*** أتت من ***يانك*** ***Yanke***، "يان الصغير le petit Jan " باللغة الهولندية. ظهر هذا الاسم المصغر إذن بين القطعات الإنجليزية كنكتة كارهة للأجانب، تعيد المتمردين إلى أصل أجنبى، وتضفى الزراية على الطبيعة الحقيقية لعصيانهم. كان سكان المستعمرات قد استعادوا هذا اللفظ المحقر مباشرة وتبنوه لحسابهم، حسب عملية تحد دلالى شائع فى أوضاع الغليان الثورى، هذا هو السيناريو الأصلى الذى تبناه معظم المؤرخين وقاموس أكسفورد للغة الإنجليزية.

تابع اللفظ بعد الاستقلال فى بريطانيا العظمى طريقه المحقرة لتسمية الأمريكان فى الشمال الشرقى. تعرف فانى ترولوب Fanny Trollope فى كتابها-***Domestic Man*** ***ners of the Americans*** اليانكيه ببيئته الجغرافية، وكذلك أيضًا بمظهر خارجى للجسم

موصوف بمفردات إثنية؛ فمن جهة، اليانكيه هم فى الحقيقة - بكل بساطة - سكان إنجلترا الجديدة الذين تسميهم السيد ترولوب "إنجلترا الجديدة أو بلادالبانكيه"؛ هنا إذن فى نظرها "بلاد اليانكيه"، وهذه الدائرة محدودة بالولايات الست القائمة فى شرق نهر الهدسون (كونيكتيكت Connecticut، رود أيلاند Rhode Island، ماساشوستس Massachusetts، فرمونت Vermont، نيوهامشاير New Hampshire، ماين Maine)، لكن اليانكيه من جهة أخرى يتصف بـ"طبيعة" إثنية ونفسية مركبة ومعقدة. وبقدر ما يسهل تحديد موقع اليانكيه على الخريطة، بقدر ما يصعب - كما تشرح - تعريف من هو اليانكيه: أكثر ما يسعنا القيام به هو الإحاطة بشخصيته الجمعية عبر تشبيهات ثلاثة: فاليانكيه فى الواقع "يشبه الإيرلندى بالمهارة والحذر والصناعة والدأب"، ويشبه الهولندى بنظافته وبساطته، ويشبه "أبناء إبراهيم" بحبه للكسب. يضاف إلى ذلك صفة رابعة "لا يشبه بها أحداً سواه": إعجابه الصريح والمفضل لكل ما يكون شخصيته[٤]. طافت هذه الصورة ـ التهمة أوروبا كلها. أولم تتلق موافقة المعنيين أنفسهم؟ لأنه كما تقول السيدة ترولوب إن كان اليانكيون "ماكرين، متلاعبين، أنانيين، خداعين"، فلا يوافق على ذلك مواطنوهم فحسب، بل إنهم أنفسهم "يقبلونه بابتسامة راضية"[٥]!

هذا اليانكيه على الطريقة الإنجليزية، الذى اشتهر بسبب نجاح كتاب ***Domestic Manners of the Americans***، سوف يشكل لأمد طويل التصورات الفرنسية عنه. من المدهش رؤية تأثيره يمارس حتى فى المؤلفات الأشد محاباة لأمريكا مثل *دراسات حول الأدب والعادات الأنجلو أمريكية فى القرن التاسع عشر* ***Etudes sur la littérature et les m urs des Anglo-Américains aux XIXº siècle*** لفيلاريت شاسل **Philarète Chasles (1851)**. وعلى أنه اعتبر فى زمانه إدارياً قابلاً دون قيد أو شرط للولايات المتحدة، فإنه مع ذلك يرسم صورة نفسية وأخلاقية قليلة الجاذبية لمن يسميه " يانكى الشمال"، وهذا اليانكى يقدم بوصفه "النموذج الكامل للمستعمر القديم، مع دهائه كمضارب، وصمته الهادئ، وفضوله الماكر، وجرأته الباردة، وفطنته الرهيبة"[٦]. وفيلاريت شاسل نفسه الذى، فى مدخله، يستند إلى سلطة توكفيل وميشيل شوفالييه، يديم دون أن يهتز له جفن، الأنماط الترولوبية حينما يذكر "النمط" البشرى لإنجلترا الجديدة.

ولكن هل المقصود حقًا إنجلترا الجديدة وسكانها؟ إن صيغة شاسل ـ "يانكى الشمال" ـ مبهمة، ودون أن يوحى بالضرورة بوجود يانكيه جنوب غامض (لا يتحدث عنه شاسل أى حديث)، فإن التعبير يوسع من أراضى اليانكيه إلى "شمال" لم يعد جزءًا من إنجلترا الجديدة التاريخية. هذا التغيير الهادئ فى أراضى اليانكيه يسمح بتجاوز تناقض مزعج؛ فالحق أن شاسل واحد من نوادر الفرنسيين الذين اتبعوا توكفيل فى

ثنائه على طهريي إنجلترا الجديدة، وإن كان يغير من لهجته. كان توكفيل يرى في الطهرية مأوى أنوار الديمقراطية الأمريكية(٧)؛ أما في نظر شاسل فإن "الاستقلال الذاتي"الطهري هو بوجه خاص مظهر "طاقة". كانت الطهرية في نظر توكفيل تشتمل على مبدأ الديمقراطية والجمهورية، في حين أنها في نظر شاسل تشتمل على القوة والمجد: يكتب أن الطهريين "قد ألقوا على رمال أمريكا بيضة إمبراطورية هائلة"(٨)، ولا يكف شاسل عن معارضة "القوة الأخلاقية [...]والصدق والإيمان والدأب والشجاعة" الخاصة بالسلالة الطهرية بـ"ضعفنا الأخلاقي، وغباوتنا في العمل"(٩). كيف يسعنا منذئذ التوفيق بين هذا الدفاع المؤثر عن الطهريين وهذا التشهير باليانكيه، وهم ورثتهم المباشرون، دون انتزاع نموذج "اليانكيه" من إنجلترا الجديدة هذه حيث أودعته نزعة معاداة أمريكا البريطانية؟ يهيئ فيلاريت شاسل على هذا النحو وإن لم يكن يعرف ذلك، توسيع مفهوم اليانكيه الذي سوف يميز عما قريب استخدامه الفرنسي.

ذلك أن مؤلف شاسل الذي ظهر في منتصف القرن يقع أيضًا على مفصل حقبتين دلاليتين؛ فخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كله في الواقع، كان الاستخدام الفرنسي لكلمة يانكيه نادرًا، ومبعثرًا، وملتبسًا. يلفت النظر نسيانه في جزئي كتاب *الديمقراطية* (لتوكفيل) في عامي ١٨٣٥ و ١٨٤٠، المعاصرين للنجاح الأوروبي لفاني ترولوب. ويشهد على أن هذا النجاح قد بدا لتوكفيل سمجًا اللهجة اللاذعة للفصل الذي يحمل عنوان "بعض التأملات حول العادات الأمريكية": يسخر الفيكونت فيه من "الناقدين القساة" الإنجليز المنحدرين من الطبقات الوسطى التي "سخرت جدًا من العادات الأمريكية" دون أن تأخذ بعين الاعتبار أن "اللوحة نفسها تنطبق تمامًا [عليهم](١٠). إن السيدة ترولوب بتوبيخها الأمريكان إنما توبخ نفسها بنفسها...لا مجال على كل حال في نظر توكفيل لأن يتبنى مفردات مشكوكًا في ملاءمتها: ليس هناك بالنسبة له إلا "أنجلو-أمريكان".

يانكيه في فرنسا خلال هذه المرحلة هي في الواقع تسمية قليلة الاعتماد، ذات مرجع غير دقيق وذات معانٍ مختلفة، والاستخدام المحقر فيما يظهر كان قائمًا أصلاً، لكنه لم يكن يستبعد استخدامات حيادية بل وتقريظية، وهناك نادرة واستشهاد سيكفيان لبيان هذه المرونة الدلالية.

تتخذ النادرة من بودلير بطلاً ومن الشتيمة يانكيه خاتمة، نعرف هوى الشاعر نحو إدجار آلان بو. في بداية سنوات ١٨٥٠، وبينما كان يجهد عبثًا في الحصول على معلومات عن "الساخط المسكين"، علم بودلير بوصول أمريكي إلى باريس افترض أنه

يحيط علماً بما يريد، فهرع إلى فندقه، بصحبة أسيلينو- الذى قص فيما بعد المشهد. لم يحصل بودلير، وقد تعب من الشخص الفظ (الذى أزعجه أثناء تجريبه حذاء) سوى بعض التذمر المفتقر إلى اللطف نحو مؤلف Eurêka؛ فلم يلبث أن صفق الباب وهو يقول : "إن هو إلا يانكيه !"(١١). من الواضح أن اللعنة التى أطلقها بودلير لا تستهدف التاجر المحتال من إنجلترا الجديدة الذى وصفته السيدة ترولوب، بل غير المستنير الأمريكى، فظ ما وراء الأطلسى، عدو الفنون منذ ولادته. إنه يانكيه فرنسى الطابع إلى حد كبير.

المثل المضاد يعود إلى عام ١٨٥٣، إننا أمام أول استخدام معروف بالفرنسية للاسم ***اليانكيّة*** ***yankisme*** التى سيحل محلها فيما بعد ***اليانكيهية*** ***yankeesme***. وقد أمكن لصبر علماء الألفاظ أن يقعوا على استخدامه فى كتاب يحمل عنوان "***البشر والأخلاق فى فرنسا فى عهد لويس فيليب Les Hommes et les M urs en France sous le règne de Louis Philippe***". والحق أن هذا الاستخدام يخلو من أى تحقير، ويأتى فى ظرف إيجابى كليًا. يمكننا أن نقرأ فى هذا البحث: "إن العادة فى الحلقة أو فى المقهى تنسجم مع الفردانية التى شاعت فى أخلاقنا منذ خمسين سنة، وفضلاً عن ذلك فقليل من اليانكيّة فى عادات هذا الشعب الكاثوليكى [الشعب الفرنسى] لن يضر لا بروح ولا بقضايا الأمة"(١٢). لا يُلَوَّحُ باليانكيّة فى أول استخدام مطبوع باللغة الفرنسية لها بوصفها اتهاماً بل تُعرض على أنها نموذج يُحتذى.

فى عام ١٩٠٠ انتهى كل ذلك، هذا التعايش فى الاستخدامات المختلفة فى طابعها كل الاختلاف ينتمى إلى ماض انقضى، لا لوجود اتفاق تام حول المرجع؛ فحرية التأويل الشخصى تبقى كبيرة. (يانكيه لانسون مثلاً هو "صاحب المليارات الذى لم يتهذب بعد، رجل الأعمال الذى لا يرى فى نضاله من أجل المال سوى المال كغاية للحياة"(١٣))، لكن الإمكانية الوحيدة لاستخدام إيجابى مستبعدة. والحق أن الانقلاب المحتوم نحو التحقير قد بدأ منذ سنوات ١٨٦٠. كان لحرب الانفصال ثلاثة آثار رئيسية. حتى ذلك التاريخ كان اليانكيه عائمًا على المستوى الجغرافى (من إنجلترا الجديدة إلى مجموع أمريكا الشمالية مرورًا بـ"شمال" الولايات المتحدة)؛ فصار من الآن فصاعداً متمثلاً فى "الشمالى" بالتعارض مع "الجنوبى". وفى الوقت نفسه، أضفت الدعاية الحربية الجنوبية بصورة نهائية معنى سلبيًا على الكلمة، بينما كانت أمريكا لينكولن تغنى ***yankee Doodle***، لم يكن فى أوروبا من يستخدم كلمة يانكيه سوى أعداء الشمال. (أما أنصاره فيقولون "الاتحاد"، "الاتحاديون"، "الفيدراليون".) ولما كان الخطاب العدائى قد احتكرها، فقد سحبت اللفظة نهائيًا من كل استخدام آخر غير

جدالى. آخر مرحلة أخيراً من تحوّل فرضته الحرب الأهلية: أثار انتصار الشمال فى فرنسا إعادة انتشار للمعنى؛ إذ لما كان اليانكيه (الاتحاديون) قد صاروا سادة البلاد كلها، فكل أمريكا (البيضاء) ستصير من الآن فصاعداً مشهورة باسم "***بلاد اليانكيه***" "*yanke country*". وقد أمكن ملاحظة ذلك لدى المعادين المبكرين لأمريكا منذ ١٨٨٠: اليانكيه يشير مع قصد التحقير إلى أمريكى الشمال عمومًا. تعدد المعانى السابق يجتمع ويستقر: يصير اليانكيه التحقير النوعى للإنسان الأمريكى الشمالى ***Homo Americanus Nordicus***، باستثناء الهندى والأسود.

بين وسط القرن ونهايته، غيرت كلمة اليانكيه إذن تعريفها وسعتها ومعناها فى الاستخدام الفرنسى لها، وكذلك الكلمة المشتقة منها؛ فالاستخدام الإيجابى لكلمة يانكيّة لدى الباحث المُوَلَّد فى عام ١٨٥٣ قد صار مختوماً بالهرم. وحين عادت الكلمة للظهور فى الشكل الخطى يانكهية (لدى أوكتاف نويل مثلاً فى عام ١٨٩٩)، لم تعد تتحمل إلا استخدامات محقرة بصورة قوية - من نمط : "الشراسة الأنانية اليانكيهية"(١٤). لقد تمت الألعاب فى الدلالات، ولن نعثر أبداً من الآن فصاعداً على أى استخدام حيادى، ولا على أى استخدام إيجابى للكلمة. أما داخل السجل السلبى، فلم تعد الاستخدامات "الترولوبية" إلا بقايا(١٥)، أما اليانكيه على الطريقة الإنجليزية فيعيش فى فرنسا أيامه الأخيرة، لقد كف عن أن يحرز أى نجاح فى بريطانيا العظمى نفسها، حيث حلت النداءات للوحدة الأنجلو- ساكسونية محل السخريات الثقافية من أبناء العم قليلى التهذيب فيما وراء الأطلسى.

اختصت نزعة معاداة أمريكا الفرنسية فيما بعد وبتصميم باليانكيه، وأعادت تكوينه من أجل استخدامه كى ما تجعل منه الشخصية المركزية فى مشهد العلاقات الفرنسية الأمريكية؛ حيث تغير دور إنجلترا فيه تغيراً كاملاً.

التلاعب الاشتقاقى

المظهر الأكثر إثارة للفضول فى هذا الاستملاك هو ترقية اشتقاق على "الطريقة الفرنسية" لكلمة يانكيه.

يقال إن تقليداً قائماً، إن لم يكن ثابتًا تمامًا يسند إلى الجنود البريطانيين الذين كانوا يواجهون المتمردين ابتكار كلمة يانكيه، لكن تفسيراً آخر مغايراً تماماً لأصوله طاف فى فرنسا وانتهى بفرض نفسه فى نهاية القرن التاسع عشر؛ فقد جعل من

اليانكيه *yankee* تشويهاً هنديا لكلمة إنجليزى *English*. وقد عزره إميل ليتريه Emile Littré(*) بسلطته عام ١٨٧٧: "لقب يُسَمَّى به الإنجليز - بلا تكلف وبضرب من التحقير - سكانَ الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية. إنها كلمة إنجليزى بعد أن شوهها لفظ الهنود الحمر لها." تصف حملة ليتريه الأولى - دون مفاجأة - علاقة "التحقير" القائمة (والمستمرة) من قبل الإنجليز تجاه أبناء العم فى أمريكا، لكن الثانية فى رزانتها الوضعية تماماً هى انقلاب فجائى. ليس الإنجليز كما يقول لنا ليتريه من سمّى اليانكيه، بل هم أنفسهم من أُطلِقَ عليهم يانكيه من قبل الهنود. لايذكر ليتريه أى مصدر لدعم حجته التى تناقض السنة الإنجليزية وتسحب من الإنجليزى كل سلطة فى التسمية فى قضية اللقب هذه، وبدلاً من أن يستطيع التفاخر بأن المبادرة كانت له، كان الإنجليزى أول موضوع لهذه التسمية المحقرة التى استخدمها بصورة عمياء ضد الأمريكان.

من أين استقى ليتريه إذن أصل الكلمة؟ ولماذا فرضه على الجمهور الفرنسى بطريقة حاسمة ودون أن يشير إلى أنه لا يتفق مع الفرضية السارية فى العالم الناطق بالإنجليزية؟ رغم صمت ليتريه، يمكن التعرف على مصدره ويمكن له أن يضىء مساره. لقد عثر ليتريه لدى فيلاريت شاسل فى دراساته عام ١٨٥١ المشار إليها من قبل على حل أصل الكلمة الذى تبناه واعتمده. الحقيقة أن شاسل قد أتبع عرضه القصير لصورة "اليانكى" النمطية بهذه الملاحظة الدلالية : "كلمة يانكى، المطبقة اليوم بوصفها لقباً على الشعوب الزراعية والتجارية فى الشمال ليست إلا كلمة إنجليزى *English* وقد تحولت بواسطة النطق المشوه لسكان البلاد الأصليين فى ماساشوسيتس إلى: *yenghis yan-ghis, yankies,* وأضاف: "إننا نستمد من واحد من أكثر الناس علماً فى هذه المنطقة هذا الأصل الغريب الذى لا يعطيه أى كتاب أمريكى أو إنجليزى(١٦)". ولا مجال للعجب... فهذا التدقيق المراوغ - بما أن شاسل هو الآخر لا يعرِّف مصدره - مع ذلك، ثمين جداً. إن شاسل، إذ يشير إلى الطابع غير المسبوق لمعلوماته، إنما يقدم نفسه، إن لم يكن بوصفه مبتكراً، فبوصفه رائد هذا التقليد الفرنسى فى أصل الكلمة على كل حال. وأياً ما كان أمر "مصدره" الأمريكى، فإن شاسل هو فى أصل السلسلة التى يستمد منها ليتريه. هكذا نرى فجأة على نحو أفضل رهانات هذا "الافتتان" بأصل الكلمة. يضيف شاسل فى الحقيقة أن "الإنجليز حين يسخرون من *اليانكى* *yankies* فإنهم يسخرون من أنفسهم"(١٧). إنه دور وصيغة توكفيل ذاتهما وهو ينقد "النقاد

(*) إميل ليتريه: صاحب قاموس اللغة الفرنسية الذى يحمل اسمه.

القساة" الإنجليز: "إنهم لا يدركون أنهم يهزأون من أنفسهم..."[١٨]. أكلُّ ذلك كما يقال كي نعطي درسًا خفيفًا في التواضع لجيراننا شديدي الكبرياء؟ بالطبع لا، وإنما من أجل طرح السؤال الأشد خطورة حول تواطؤ الإنجليزي واليانكيه وحول تضامنهما التوأمي وحول هويتهما الأنجلو ساكسونية التي يحاول الأصل الإنجليزي لليانكيه أن ينكرها ويتمسك الأصل "على الطريقة الفرنسية" بأن يذكر بها، ولن ندهش من أنّ شبح الأنجلو ساكسون الذي سيلازم نهاية القرن كلها سيجعل واحدًا من أوائل تجلياته الفرنسية على وجه التدقيق تتم في دراسات شاسل عام ١٨٥١، وبالضبط في فصل "مستقبل أمريكا" الذي يعيد النظر في أصل كلمة يانكيه. وعلى الرغم من احترامه لتوكفيل كما قلنا، فإن شاسل لا يجعل أبدًا من المبدأ الديمقراطي بؤرة تحليله للولايات المتحدة. وبصورة أدق، لا يكف عن وقف قابلية حياة المبدأ الديمقراطي على الطاقة الحيوية للشعب الذي يطبقها - إلى درجة الشك في أن يمكن للنموذج الأمريكي أن يكون ذا فائدة ما لـ" الأطفال العجزة لعالمنا الضجر"[١٩]. "مستقبل أمريكا" يراه في نهاية التحليل مكتوبًا في ماضي العرق: "إن النسغ العريق يجري في عروق هذا المجتمع المركب من عدة ملايين من الأنجلو ساكسون الجديرين بآبائهم، والذين قد حملوا المطرقة والبلطة بأيديهم يتابعون عملهم ممارسين مَضاءة واسعة من أجل المستقبل[٢٠]." حين يكف شاسل عن النظر إلى وراء (نحو يانكيه فاني ترولوب)، يرى مرتسمًا أمامه وجهًا جديدًا لليانكيه لا ينفصل عن الإشكالية الأنجلو ساكسونية - تلك التي ستفرض نفسها في الخطاب الفرنسي في نهاية القرن.

بعد عشرات السنين من التقدم المتعرج، تم تتويج لقب يانكيه خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر بين قبوله من قبل ليتريه وتعميمه من قبل روائيين كجوستاف لوروج. وسيسود طوال القرن العشرين بوصفه لقبًا لا يفنى للعدو الأمريكي؛ فبينما استبعدت كلمات هُلان، وبوش، وروزبيف منذ زمن طويل إلى متحف الشتيمة تتابع كلمة يانكيه بيننا سيرتها الجدلية. لن نقول الأمر نفسه عن مشتقاتها، يانكيّة ويانكهية التي تنمو دون أن تتجذر[٢١]. هناك أكثر من تفسير ممكن لهذا الفشل بدءًا بنقص النغم في الكلمة والتذبذب في ضبط حروفها، لكن من الممكن الارتياب في سبب أكثر جوهرية: يانكيّة ويانكهية هما لفظان شديدا التجريد، شديدا العقلانية: إنهما يحيلان ضمنًا بشكليهما إلى مذهب، وإلى أخلاق، وإلى مشروع مجتمع (كما حاول ذلك لفظ ***الأمريكانية américanisme***، في نسخته الفرنسية). هو ذا ما يجعل هاتين الكلمتين منحرفتين عن صورة اليانكيه. إن يانكيه نزعة معاداة أمريكا الفرنسية عند منعطف

القرن العشرين ليس صورةً أيديولوجيةً ـ سياسيةً بل إتنيةً اجتماعيةً. ينقص هذه الكلمات التى تنتهى بـ(يه) التى أسقطتها اللغة ما حقق على وجه الدقة نجاح كلمة اليانكيه: لون التخييل.

نذكر كتاب *حواء المستقبل* لفيلييه دو ليل آدام، هذه الرواية الغريبة التى جعلت من توماس أديسون المبتكر الصانع لآلة حيّة: أندريئيد، المعدة لتحل قرب اللورد إيوالد محل المرأة المحبوبة، الحقيقية والمخيبة. إن منح الحياة لهذه الآلة العجيبة يعنى منحها اللحم ـ هذا اللحم الصناعى العجيب، فخر المبتكر، هذا "الجلد الذى هو الشى الرئيسى"(٢٢). لقد احتاج اليانكيه لكى يتجسد فى الخيال الاجتماعى الفرنسى هو أيضًا إلى لحم صناعى. كان يجب جعل هذا الهيكل العظمى الدلالى يحيا. هذا اللحم الصناعى، نصف التاريخى، نصف ـ "العلمى"، قُدِّم له من قبل الخطاب العنصرى، فى هيئة أسطورة أنجلو ساكسونية.

كان اللقاء حاسمًا؛ فعلى عتبة القرن العشرين، عقدت البلاغة المعادية لأمريكا حلفًا مع خطاب يعطى للدمية كثافة وقوامًا: خطاب العرق، ولكى نقول الأمر على نحو أدق: إنها إعادة التهيئة المتأخرة لأنجلو ساكسونية على الطريقة الفرنسية التى مَنَحت وقد جُمعت مع ازدياد حمى نزعة معاداة أمريكا بعد ١٨٩٨، لليانكيه قوامه: ها هو وقد صار له تاريخ يعود إلى العصور المظلمة و"طبيعة" تسود فيها الجرمانية الأصلية. يبدو اليانكيه، هذا "الشخص القذر" مبتدئًا، ممثلاً شابًا بقصة طازجة خرجت من ميلودراما الأمم، لكنه يملك أغصانًا بل ووراءه شجرة نسب. لقد اكتسب هذا "الشخص"، كما يقول – بصوت واحد – شاسل وجوستاف لوروج، على هذا النحو هيئة حقيقية.

أنجلو ـ ساكسون: النسخ الأصلية

فى البدء كان الأنجل Angles، والساكسون ـ وبعض الآخرين ولا شك، ممن هم أقل حظًا لدى الأجيال التالية. هذه الشعوب الجرمانية (سكن الأنجل فى جزء من شليسويج schleswig) كانت – حسب التقليد – قد دعيت إلى جزيرة بريطانيا فى القرن الثامن، وخدمت فيها بوصفها مرتزقة قبل أن تفصّل لنفسها ممالك على حساب الملوك السلتيين. وفى لحظة الفتح النورماندى، كانت مختلف الممالك الساكسونية بالإضافة إلى مملكة الأنجل (شرق أنجليا East Anglia حاليًا) تغطى الجزء الأعظم من إنجلترا الحديثة، ولكن فى عام ١٠٦٦، هزم هارولد Haroid آخر الملوك الساكسون وقتل فى هيستينجس Hastings. دخل الأنجلو ساكسون وقد نزع عنهم ملكهم عالم الأسطورة.

سيتوجب عليهم في الوقع انتظار بعض الوقت في مطهر التاريخ. لم توقظ الأسطورة الأنجلو ساكسونية من نومها إلا في القرن السادس عشر استجابة لحاجات الصراعات الدينية. ومنذ ١٥٣٠، ظهرت مراجع للكنيسة الساكسونية كي تبرر القطيعة مع روما ولدعم انشقاق هنري الثامن. وتحت رعاية رئيس الأساقفة ماتيو باركر Mat-thew Parker، انتظمت دراسة وتأويل الماضي الأنجلو ساكسوني، بهدف تقديم حجج للتاج البريطاني دومًا. منذ ١٥٦٣، في كتاب ككتاب جون فوكس John Foxe، *Acts and Monuments*، تمتزج المعرفة العلمية الواسعة وإعادة بناء الماضي على نحو جدالي مع التأكيد على طبيعة خاصة للشعب الإنجليزي سيتوجب البحث عن مفتاحها في أسلافه الأنجلو ساكسون. السجال هذه المرة قانوني وسياسي؛ فالمؤسسات الساكسونية هي التي تمجد ضد نظام القمع الذي أقامه الغازي النورماندي. العودة إلى الأصول هي هنا رديف إعادة إحياء الحريات "الجرمانية" الأساسية، كما يصفها تاسيت Tacite في كتابه جرمانيا Germania، المصدر الإجباري لكل المختصين بالأنجلو ساكسون منذ إنجلترا النهضة (مع Verstegen وCamden) حتى أمريكا التنوير، مع توماس جيفرسون Thomas Jefferson.

استقر داخل هذا التاريخ الرسمي المقاتل، شرخ بين الـ Whigs الذين اكتفوا إجمالاً بإعادة الحريات الذي أقامته الثورة المجيدة في عام ١٦٨٨، والـ Whigs الأكثر جذرية، أي Real Whigs الذين يعتبرون أن نقاء إنجلترا الساكسونية (قبل النورماندية) لا يزال ينتظر العثور عليه من قبل جهد ثوري. سيكتسب هذا الشرخ كل أهميته مع انتقال *translatio* هذه الرواية التي تعيد التأسيس إلى أمريكا. لندع هذه "الرواية الكبرى" تتابع طريقها، على الأرض الإنجليزية، حتى والتر سكوت Walter Scott وروديار كيبلينج Rudyard Kipling، ولنتابع من سيصدرونها إلى ما وراء الأطلسي. كما نرى، إن أسطورة التاريخ الرسمي المصقولة جيداً هي ماورثه أمريكيو الجيل الثوري: إنهم يتبنون عمومًا النسخة الجذرية، نسخة Real Whigs. بيّن ريجينالد هورسمان بالتفاصيل بأي قنوات مفضلة (كتب القانون المدرسية وتواريخ إنجلترا) توصل القص الأنجلو ساكسوني إلى سقاية التفكير الأمريكي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وتشبّع به الأدب السياسي الاستعماري في سنوات ١٦٦٠-١٧٧٠ بأجمعه. وليست حالة جفرسون إلا مثلاً بارزًا للولع الأمريكي بالأنجلو ساكسون. فحتى موته بقي سيد مونتيشيلو Monticello مخلصًا لأبحاثه حول الساكسون؛ القدماء: كانت "هوايته" كما كان يقول، ولكنها أيضًا معرفة جوهرية مدنيًا أراد أن يراها تُعلم في جامعة فرجينيا التي أسسها. وقد قرأ طوال حياته وأعاد قراءة تاسيت الذي لا غنى عنه

-"أول كاتب في العالم بلا استثناء first writer in the world, with no exception"، بالمشاركة مع مونتسكيو الذي لا غنى عنه؛ وقد تأمل في مولزورث Molesworth وكاترين ماكولي Catherine Macaulay، وكذلك الفرنسيين بول دو رابان تويراس-Paul de Rapin Thoyras، مؤلف *تاريخ إنجلترا* (*Histoire d Angiter* لاهاي ١٧٢٧-١٧٣٨) الذي قدره على نحو خاص؛ وبيللوتييه Pelloutier، المختص بالسلت؛ وبول هنري ماليه Paul-Henri Mallet، مؤلف *تاريخ الدانمارك* *Histoire de Dannemarc*. وقد بالغ جفرسون - كما نعلم إلى حد كبير - في الانضمام إلى الأسطورة الأنجلو ساكسونية وفي محاولاته جعلَها تعيش من جديد في الولايات المتحدة. وكان مفهومه عن أمريكا متحررة بوصفها تجاور جمهوريات صغيرة زراعية يستوحي التنظيم الساكسوني للأراضي، ويحاول إعادة بعث فضائله. وكان من تحصيل الحاصل في نظر جفرسون أن على الأمة الأمريكية الجديدة أن تضع نفسها بجلاء تحت حماية أجدادها الأنجلو ساكسون؛ ومن هنا اقتراحه أن يصور على وجه خاتم الولايات المتحدة الأكبر هنجيستHengist وهورسا Horsa، الرئيسين الساكسونيين اللذين كانا قد نزلا في إنجلترا في القرن الثامن. (أما الوجه الآخر فقد خصص لأطفال إسرائيل في الصحراء، تقودهم سحابة وعمود من النار).

لم يعد علم الأساطير الأنجلو ساكسوني لدى جفرسون إذن منجم مواد جدالية فحسب كما هو الأمر في النزاعات الدينية بل وحتى لدى العديد من الـReal Whigs؛ لقد صار الاستيهام المستبد لسياسة نشيطة في العودة إلى الأصول. يكتب جفرسون في أغسطس ١٧٧٦: " أليس من الأفضل أن نعود على الفور إلى النظام السعيد لأجدادنا، وهو النظام الأحكم والأكمل الذي لم يسبق للعقل البشري أن صمم مثله على النحو الذي كان عليه قبل القرن الثامن[٢٢]؟" مشروع عجيب لبناء تراجعي للمستقبل لا يمكن تشبيهه إلا بمابلي Mably الوحيد في فرنسا، لكنه يبقى بلا مثيل له خلال الثورة الفرنسية ذاتها اللهم إلا بقلم منعزل لوطنيّ ما ينتدي بالعودة إلى اللغة السلتية... لا عجب والحالة هذه أن بقي هذا الوجه المتقعر للخطاب الثوري الأمريكي غير مرئي تقريباً بالنسبة للمراقبين الفرنسيين في ذلك الوقت.

يبقى أن النقاش قد بدأ في حياة جفرسون في الانتقال تحت تأثير ـ ما اعتبره ريجينالد هورسمان Reginald Horsman حاسماً بالنسبة لأمريكا ـ الأبحاث الهندية الأوروبية. بدأت هذه الأبحاث منذ ما قبل نهاية القرن الثامن عشر؛ إذ في عام ١٧٨٦ ألقى مؤسس *الأبحاث الآسيوية* *Asiatic Researches*، السير وليام جونس Sir William Jones، محاضرته المؤسِّسة عن السنسكريتية. ستستعاد الأسطورة الأنجلو

ساكسونية من الآن فصاعداً ضمن منظور أشد اتساعًا: منظور الآرية اللغوية والعرقية. وبينما تبدو بريطانيا العظمى المهمومة بأن تحتفظ للساكسون بالتفوق الذى رسخته ثلاثة قرون من المعرفة الشاقة مستاءةً من هذا التوسيع للقصة، تنطلق الولايات المتحدة بحماس فى استثمار "علمى" للحدوس الآرية. ويتقارب فى وقت مبكر جدا فى الولايات المتحدة على أثر الرواد الإنجليز من مثل توماس برسى Thomas Percy علم الأساطير الأنجلو ساكسونى والأبحاث الهندية الأوروبية. غذى هذا التقارب مجموعًا من الأعمال ذى مزاعم علمية لكنه ينطوى على مضمون أيديولوجى يتأكد فيه التفوق الضمنى للجنس الأنجلو ساكسونى. وقد عرف علم دراسة الدماغ أوجَهُ بمفردات الشهرة العلمية والاعتراف الاجتماعى به منذ ما قبل ١٨٤٠، أي أبكر بكثير من فرنسا. فى حين أن لفظة أنجلو ساكسون "حتى عام ١٨١٥، لم تكن تستخدم لتعطى تعريفًا للشعب الأمريكى ذا طابع عرقى"(٢٤)، واعتباراً من عام ١٨٤٠ غذت الكلمة خطاباً عرقيًا، مقارنًا ومراتبيًا. وأقام اتصاله مع أدبيات "القدر الواضح" الذى انبعث كما رأينا فى عام ١٨٤٥، بصورة حاسمة، علم الأساطير الأنجلو ساكسونى بوصفه حجر الزاوية فى الخطاب التوسعى.

الأنجلو ساكسون فى نسخة فرنسية

خلافًا لخرافة عنيدة، ولدت ولا شك من الطلاقة المستمرة التى كانوا يستغلون معها التعبير(٢٥)، لم يبتكر الفرنسيون إذن الأنجلو ساكسون؛ ففى إنجلترا إنما اكتسب علم الأساطير هذا عن الأصول الجرمانية شكله وفى الولايات المتحدة تغير حسب القضايا الدينية والسياسية البعيدة أشد البعد عن المشاغل الفرنسية. ولزمن طويل، طويل جداً، لم يكن الأنجلو ساكسون بالنسبة للفرنسيين إلا... أنجل وساكسون، أبطال تاريخ قديم لمقاطعة من المقاطعات فى أوروبا.

لقد تحدثنا عن التقدير الذى كان جفرسون يكنه لتاريخ إنجلترا *Histoire d Angleterre* لبول دو رابان تويراس **Paul de Rapin-Thoyras**، الذى نشر بالفرنسية فى بداية القرن الثامن عشر. لم ينتظر الفرنسيون فى الحقيقة ولتر سكوت ولا أوجستين تييرى لكى يهتموا بتاريخ إنجلترا، بما فى ذلك العصور المظلمة للاستيطان الساكسونى؛ فصفة أنجلو ساكسونى مستخدمة فى جمهورية الآداب منذ نهاية القرن السادس عشر. وشهدت حقبة التنوير تكاثر المؤلفات التى تفسح مكانًا للساكسون وللأنجل فى إطار التاريخ الإنجليزى أو فى إطار تاريخ نقدى فى أوج ازدهاره: إنهم لا يزالون يسمون أحيانًا بوصفهم "أنجل - ساكسون"(٢٦)، لكن هذا الشكل فى الربط قد

هجر من قبل معظم المؤلفين الذين تبنوا شأن فولتير التعبير الوصفي: "الأنجلو ساكسون القدماء"(٢٧).

لنحترس مع ذلك من أن نخلط بين هؤلاء الأنجلو ساكسون الموطّنين مع الذين كوّنهم فيما وراء المانش قرنان من الخلافات؛ إذ ليس لهم الوظائف نفسها ولا الوضع نفسه. لا لأن فرنسا عديمة الحساسية إزاء جاذبية حالة المجتمعات البدائية؛ ففتنتها لم توفر الفلاسفة أنفسهم الأقل ميلاً لـ"المشى على أربعة قوائم". فحتى مونتسكيو وفولتير ضحيا من أجلها: الأول بجعله الحريات الإنجليزية تولد فى غابات جرمانيا، والثانى بتصويره السيت ("Scythes"الشماليون" الآخرون الذين سيُشركون عما قريب فى الرواية الآرية(٢٨)) بوصفهم أبطال الحرية والأسلاف المعنويين للأمريكان، ولا لأن فرنسا كذلك قد تلافت الشجارات التاريخية الخاصة بالشرعنة، والتى سادت أوروبا منذ عهد الإصلاح؛ فحول الأولويات الملكية، والحريات الأساسية، والاغتصابات الإقطاعية أو البرلمانية، كان الصراع فيها شديداً بقدر شدته فى بلاد أخرى، ولكن من خلال الفرنجة والرومان والسلت.

لأن لكل بدائيته ولأنّ لدى فرنسا فى الأصل من هذه الناحية لديها ما يكفيها، فلها أسلافها الجرمانيين الموجودين أصلاً : فرنجةُ Francs بولانفيلييه Boulainvillier ومابليMably. أيًا كان السيناريو الذى يشاركون فيه، وأيًا كانت الطريقة التى يقدمون بها(أرستقراطية أو ديمقراطية)، يملك الفرنجة ما يستجيبون به لحاجات التاريخ الرسمى. لا يحتاج "أنصار" الفرنجة إذن للأنجلو ساكسون. أما أنصار السلت فهم أكثر ترحيبًا بهم، ولكن شريطة أن يذوبوا فى الجمع. فالأنجلو ساكسون فى نظر مالليه أو بيللوتييه هم "شماليون" كالآخرين؛ إنهم ينتمون إلى الأسرة الكبرى السلتية، لكنهم لا يتميزون فيها بميزة خاصة ما. فى حين أنهم فى إنجلترا يحبون التلويح ضد النورمانديين بالطبع، وكذلك ضد السلتيين بعلم الأساطير الأنجلو ساكسونى بوصفه علامة اختلاف، وتفوق، بل وانتخاب، أما التاريخ الرسمى الفرنسى فلا يكف عن تجاهل الأنجلو ساكسون إلا ليذيبهم فى محيط السلتية؛ تلك هى المواقف المتتالية فى وجه القصّ الأنجلو ساكسونى فى نهاية عصر التنوير، وهى لم تنقلب رغم الظاهر بفعل إعادة القراءة الرومانتيكية؛ فالطريقة "الشمالية" قوية فى فرنسا منذ الإمبراطورية، وليس فى إثر أوسيان فحسب؛ فهى تجعل من الإسكندنافيين والبروتون Bretons والساموييد Samoyèdes يتجاورون فى توفيقية غامضة، لكن هذه الملاحم الضبابية لا تسعى لتقديم نماذج أو ضمانات؛ فالأمة الكبرى لا تشعر بالحاجة لها وحتى لو توجّب

عليها أن تلتفت نحو العصور المظلمة، فإن فرنسا الإمبراطورية تفضل أن تحلم بشخصية شارلمان(٢٩).

يجب إذن انتظار أوجستين تييرى Augustin Thierry كى ما يعود الأنجلو ساكسون بقوة وجلالة، إلا أنها عودة فى دور المهزومين مادام التاريخ الذى يرويه تييرى هو *تاريخ فتح إنجلترا من قبل النورمانديين* *Histoire de la conquête de l Angleterre par les Normands*. إن النجاح المدهش لنشر أوجستين تييرى، والطبعات العديدة للكتاب (١٨٢٥، ١٨٢٦، ١٨٣٨) جعل من الساكسون الغامضين مألوفين لدى الجماهير العريضة، بل إن الأطلس الملون العلمى والمتقن المطبوع خصيصًا فى عام ١٨٣٩ ليصحب الطبعة الثالثة ينفتح على "خريطة أرض - أنجل Angla- Land أو إنجلترا الساكسونية" جديرة ببيدكير Baedeker: يستحق الأنجلو ساكسون التوقف عندهم على وجه التأكيد، ويستطيع الفرنسيون من الآن فصاعداً أن يعبثوا فى الخيال فى ممالك هيبتارشى Heptarchie الشرسة كما لو كانوا يعدون لنزهة فى قصور اللوار.

كان أوجستين تييرى إذن بالنسبة للأنجلو ساكسون التاريخيين وكيل أعمال أدبى مذهل. ولكن إذا كان مشروعه يضعهم حرفيا "على الخريطة" بأسلوب يشارك فى النزعة الإتنية السائدة على الطريقة völkisch، فإنه يظل ممتنعًا على المحاولات الإنجليزية أو الأمريكية التى تميل شيئًا فشيئًا إلى تحويل الأبحاث الأنجلو ساكسونية إلى مختبر للمراتبية الإتنية. وبوصفه صحفيا مختصاً بالشعوب المتخلفة، لا ينضم تييرى إلى من يبخر لها. لقد تحمس فى شبابه عند قراءته ولتر سكوت، وأعجب باعترافه برواية إيفانويه Ivanhoé، لكن المؤرخ الذى كانه يبقى بمعزل عن الأساطير السياسية والاجتماعية التى أتت لتنضاف على الرواية الساكسونية. وقد اختار بدلاً من أن يتابع قبل جمهوره أسطورة التفوق التى باتت من الآن فصاعداً تؤلف قلب الرواية الأنجلو ساكسونية والأمريكية، أن يستند إلى من هو أقل "قومية" وأقل "إتنية" ولا شك من المختصين الإنجليز من الجيل السابق، أى إلى شارون ترنر؛ ففى كتابه تاريخ الأنجلو ساكسون المنشور بين ١٧٩٩ و ١٨٠٥، يلح ترنر بالطبع على كل ما تدين به المؤسسات الإنجليزية لهوى الحرية الساكسونية، لكنه يؤمن بالوحدة العرقية للإنسانية ويهاجم الأنجلو ساكسونيين العرقيين من مثل بينكرتون. أن يكون المؤلف الوحيد الذى يذكر أوجستين تييرى اسمه فى مقدمته عام ١٨٣٨ لأمر ذو دلالة، كما هو حال النظرية الغريبة حول الفاتحين والمهزومين التى يضع مخططها. فحسب هذه النظرية، صار "الغزاة" المقيمون فى السهل أقنانًا فى البلاد ذاتها التى فتحوها. إن "العروق الأقدم"،

العروق المهزومة، عروق سكان البلاد الأصليين اللاجئين بأعداد صغيرة إلى الجبال، هى الوحيدة التى "استمرت فقيرة لكن مستقلة"(٣٠). ينطبق ذلك على الفاتحين سواء أكانوا ساكسونًا أم لا. وعلى أن أوجستين تييرى قد تأثر برواية إيفانويه، فإن أبطاله التاريخيين، أوائل الساكنين الذين طردوا نحو المرتفعات القاحلة يشبهون تروجلوديت مونتسكيو أكثر من أبطال الأنجلو ساكسونية المزينين بالريش.

لقد تأخر الفرنسيون إذن فى إدراك الدور الأيديولوجى الذى كان يلعبه الأنجلو ساكسون فيما وراء المانش وفيما وراء الأطلسى وفى القلق من التقارب الذى كان يشجع عليه بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تاريخ جذور أعيدت كتابته فى شكل رواية لعرق بشرى. لقد سمعنا فيلاريت شاسل فى عام ١٨٥١ يتحدث عن "ملايين الأنجلو ساكسون" الذين يعمرون الولايات المتحدة، ولكن بينما كان التعبير يستخدم بالإنجليزية استنادًا إلى الإنجليز والأمريكان منذ بداية سنوات ١٨٣٠، استمر شاسل بعد ذلك بعشرين سنة فى استخدامه ضمن منظور نسبى وبدائى؛ فحين يشير إلى الأمريكان بوصفهم أنجلو ساكسون؛ فلكى يؤكد ميراثهم المزدوج بوصفهم مسيحيين وتوتونًا(*)(٣١): ليس هناك إية إشارة إلى إنجلترا، ولا إلى الإنجليز. وبضرب من الالتفاف النسبى، يعود شاسل مباشرة إلى الأصل التوتونى والمسيحى، إلى العصور المظلمة وإلى الغابات الواسعة فى جرمانيا؛ فهو إذ يحذف الوصل الإنجليزى: أنجلو- سكسون، فإنه يتجنب المشكلة الرهيبة الخاصة بالتواطؤ الأمريكانى البريطانى الذى سيلازم الجيل القادم.

ما هو جانب الإنكار فى هذا النفور الفرنسى من تسجيل القيمة الجديدة التى اكتسبتها الأنجلو ساكسونية فى الولايات المتحدة؟ كبير، إذا ما حكمنا على أساس عنف ردود الفعل التى ستتلو الوعى بذلك، ولكن سواء أصدر أو لم يصدر عن آلية دفاعية، فإن العمى الذاتى لا يمكن إنكاره. فى عام ١٨٧٧ قدم ليتريه مرة أخرى استخدام تعبير "الأنجلو ساكسون" بوصفه توليديًا ليسمى معًا الإنجليز والأمريكان. يؤكد بذلك فارقًا زمنيا كبيرًا - أكثر من أربعين سنة – بين الاستخدام الناطق بالفرنسية والاستخدام الناطق بالإنجليزية(٣٢). تبدأ مادة "أنجلو- ساكسون" فى قاموسه بالطبع بتعريف تاريخى: "الذين ينتمون إلى خليط من الأنجل ومن الساكسون، شعبان جرمانيان استوليا على جزيرة بريطانيا، عند سقوط الإمبراطورية الرومانية".

(*) التوتون: شعب جرمانى أو سلتى كان قد انضم إلى شعب السمبر لغزو بلاد الجول، فرنسا حاليًا.

ثم نصل إلى "اللغـة الأنجلو ـ سـاكـسـونيـة" التى عندمـا اخـتلطت بالنورمـاندية ولدت الإنجليزية. وأخيراً يسجل ليتريه الامتداد والانتقال الذى عرفته الكلمة: "عند الحديث عن العرق الذى ينتمى إليه الإنجليز وأمريكيو الولايات المتحدة يقال غالبًا إنهم أنجلو ساكسون." ذلك يعنى التسجيل مع الحذر استخداماً متأخراً، وغامضاً، وربما مفرطًا، يشير إليه عالم الألفاظ المدقق دون أن يصادق عليه("يقال غالبًا")؛ ذلك يعنى أيضاً جلاء فى منتهى الوضوح ("عند الحديث عن العرق...") انتقال التعبير من حقل التاريخ الرسمى نحو حقل الأنثروبولوجيا العرقية. بعد عشرين سنة، وعند غروب القرن، لن يكون هناك فرنسى واحد يفكر أمام كلمة "أنجلو ـ ساكسون" بالأنجل وبالساكسون...

كيف نعبُرُ فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر من عدم الاكتراث إلى الهوى ومن اللامبالاة إلى الغليان حول كلمة و"دافع" أنجلو ـ ساكسون؟ كل علم الأساطير هذا الذى اعتبر خلال ثلاثة قرون مسالمًا نسبيًا، ما الذى جعله فجأة مخيفًا إلى حد الاستنفار على وجه الاستعجال ضده؟

الجواب بسيط: كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يتابعوا بشرود كبير النقاش فى القرنين السابع والثامن عشر الذى اعتبر نقاشًا بين الإنجليز أنفسهم (أكثرهم جدالاً من "الأنجلو ساكسون" يكتفون بالانتقاص من الإيكوسيين والغاليين والإيرلنديين). كانوا قد استطاعوا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يجهلوا كليًا على وجه التقريب ارتداداته الأمريكية: كان الاستغلال العرقى لأسطورة الأصل يبدو هنا أيضًا يعود إلى المشكلات "الداخلية"، وبصورة خاصة المسائل المطروحة من قبل وجود شعوب غير أنجلو أمريكية على أرض الولايات المتحدة. كل شىء تغير على نحو عنيف فى الواقع عندما اكتشف الفرنسيون فى سنوات ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠ أن أسطورة الأنجلو ساكسون قد غيرت لا طبيعتها تماماً بل وظيفتها؛ فبعد أن "استعرقت" تعولت، وأنها لم تعد تضمن تقسيم وتراتبية الجماعات الإتنية داخل الولايات المتحدة فحسب بل تقدم برنامج إعادة توزيع للأدوار على مستوى الكرة الأرضية؛ حيث يقوم الزوج الأنجلو ـ ساكسون بالطبع بدور النجم. لم يكن فى أسطورية الأنجلو ساكسون ما يزعج طالما كانت تغذى البرامج السياسية الداخلية، الخاصة والمنفصلة، فى بريطانيا العظمى وفى الولايات المتحدة. كل شىء تغير فى نظر الفرنسيين ما إن بدت بوصفها صلة وصل اتحاد ولغة مشتركة بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، وغداً، لِمَ لا؟! بين هاتين القوتين وألمانيا، التى يمكن لها أن تجد مصلحتها فى أن تُبرزَ إزاء الأمتين "الأنجلو ـ ساكسونيتين" الصلات "التوتونية". يثير المنظور القلق وفى العزلة الدبلوماسية الفرنسية التى تبعت هزيمة ١٨٧٠، نفهم بسهولة

أن الأنجلو ساكسون قد كف عن أن يكون وحشاً مثيراً وقرويا لكى يصير شبحاً مرعباً لوحدة دم وعادات ولغة تستثنى منها فرنسا قبل أن تصير ضحيتها.

أهو ذهان هذياني فرنسي؟ إنه يجد على الأقل دون أن يبحث عنها كثيراً أغذية أساسية فى الخطابات التى تقال لدى "الأنجلو ساكسون" أنفسهم؛ لأنه بعد الأنجلو ساكسون غيرِ الخطرِ الخاص بعلماء الآثار وبالمؤرخين، هاهو قد أتى الأنجلو ساكسون الخطرِ الخاص بالسياسيين وبالشعراء.

أن يجعل واحد مثل كارليل مثلاً – وهو الذى كان من قبل معجباً متيماً بفرنسا الثورية – من نفسه شاعر الوحدة العضوية الساكسونية، وأنه فى همه استئصال كل عنصر فرنسي من الماضى البريطانى تبنى النورمانديين بوصفهم "ساكسون كانوا قد تعلموا الفرنسية"، وأن يبشر من أجل "*All Saxondom*" مع الحماس نفسه الذى استولى عليه فى دفاعه عن عالمية ٨٩، وأن يتخلى حتى عن الكبرياء البريطانية إلى درجة قبوله بنقل القوة "الساكسونية" نحو بوسطن أو نيويورك، كعاصمتين قادمتين لهذه المؤسسة المتعددة الجنسيات ـ هو ذا فى الحقيقة ما يمكن أن يقلق الفرنسيين، وأن يشرع اليانكيه رالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson فى المقابل، فى الجهة الأخرى من الأطلسى، فى غناء العظمة الإنجليزية (فى *English Traits*)؛ وأن يغنيها باسم أجداد مشتركين افتراضيين من غابات جرمانيا، وأن يقابل عظمتهم بالحقارة اللاتينية، وأن يمنح، دون تردد، للأنجلو ساكسون "شبح الكرة الأرضية"، شبحاً استحقوه بجدارة كبيرة بفضل "حسِّهم المتشدد بالخير وبالشر"؛ وبإيجاز، أن يتمكن أشهر مفكر فى أمريكا الحديثة أن يغنى "القبائل التوتونية" وتكوينهم القومى فى الإجماع القلبى [*national singleness of heart*] الذى يتعارض مع العروق اللاتينية(٣٣)، هو ذا ما يمكن ويجب أن ينذر الفرنسيين.

تفوق أىّ أنجلو ساكسون؟

إن صرخة الإنذار الأشد دوياً فى آذان المعاصرين هى – دون أى شك – الصرخة التى أطلقها إدمون دومولان فى بحثه عام ١٨٩٧: على ماذا يقوم تفوق الأنجلو ساكسون؟ وهو عنوان حاسم على الرغم من صيغته الاستفهامية؛ فهذا التفوق يقدم بوصفه محسوماً. يبقى للفرنسيين العزاء الطفيف فى أن يوضحوا الأسباب. إن الأطروحات الجوهرية معروفة لهم، ولن نذكر بها إلا للذكرى. الأهم هو التوتر فى قلب الكتاب والمحاججة، بين إرادة تأكيد الوحدة الأنجلو ساكسونية (تؤلف وحدة "الفضائل"

هذه على طريقة إمرسون الأطروحة ذاتها للكتاب) والحركة الدائمة فى الفصل بين مركباتها (بريطانيا العظمى والولايات المتحدة مميزتين بجلاء، وألمانيا مستبعدة بكل بساطة، وباقى العالم الأنجلو ساكسونى مقلص إلى دور الممثلين الصامتين). إن كتاب دومولان هو إذن مزدوج الدلالة: بتأثيره كصدمة كهربائية على الرأى العام الفرنسى (أعلن الناشر طبع ١٥٠٠٠ نسخة للطبعتين الصادرتين خلال سنة واحدة ١٨٩٧)، ولكن أيضًا بالحَوَلِ العجيب الذى يجعل من نظرة مؤلفه تنحرف ـ كما لو أن الهوية الأنجلو ساكسون لم تكن فى نهاية الأمر سهلة على التثبيت.

لا يجادل دومولان، بل إنه يريد أن يشرح بصورة عقلانية، إن أمكن، حوافز الهيمنة، لا ليدينها بل ليقترح على الفرنسيين أن يستوحوها. هذا الهم بإيجابية براجماتية تملى عليه بلاغة لا إنذار فيها، (ولكن هذه اللهجة فى الموضوعية هى التى أكثر ما أقلقت المعاصرين.) والحق أننا إن نظرنا فى الأمر عن كثب لوجدنا أن المسار المتبع غريب. كل شىء يعتمد، وقد قلنا ذلك على القناعة العميقة بكتلة أنجلو ساكسونية متجانسة، لكن هذه الكتلة تتفتت دفعة واحدة تحت قلم دومولان.

بدأت بفقدان قاعدتها: الأصل الجرمانى الذى منه تخرج السلالة وعنه تصدر الفضائل كلها. أما أجداده التوتون، فها هم يطردون بكل بساطة من المغامرة التى أعطوها اسمهم. يبدأ دومولان فى الواقع بوضع الألمانى الحديث خارج حقل الرؤية ويبرئه من كل تهمة. يكتب أننا نخشى الألمانى؛ لأنه يصل "مع جحافل من الجيوش ومع أسلحة متقنة"، لكن الذى تجب خشيته، رجل "الهلاك الحقيقى"، إنما هو الأنجلو ساكسون فيما وراء المانش أو فيما وراء الأطلسى، هذا الفردانى العنيد "الذى يصل منعزلاً أو مع محراث"[٢٤]. فى سيناريو تلميذ لو بليه Le Play وهنرى دو تورفيل Henry de Tourvill القوة الاجتماعية أقوى بمائة مرة من جيوش العالم كلها"، ولابد من امتلاك البصيرة لرؤية العدو الحقيقى(الأنجلو ساكسون) وراء العدو الظاهر(ألمانيا): "الهلاك الأكبر، والخطر الأكبر، والخصم الأكبر ليسوا كما نظن فيما وراء الراين؛ فالعسكرية والاشتراكية يتكفلان بتخليصنا من هذا العدو، ولن يتباطأ ذلك. الهلاك الأكبر، والخطر الأكبر، والخصم الأكبر هم فيما وراء المانش، فيما وراء الأطلسى." إنذار أطلق فى عام ١٨٩٧ وسيتخذ فى السنة التالية مظهرًا تنبؤيا، حتى وإن كان مؤلفه الذى كان بعيدًا عن تصور أزمة كوبا، حلل هذا "الخطر" الأنجلو ساكسونى بمفردات "الهيمنة الاجتماعية التى هى الوحيدة الحقيقية"[٢٥]، لا الإمبريالية العسكرية.

هذا هو العنصر الجرمانى من التركيب، وقد استبعد من الوجه الجديد لـ"الأنجلو

ساكسون". لا بدوافع آنية، بل بسبب وجود اختلاف أصولى فى فكر دومولان فى ما يسميه "التكوين الاجتماعى للعرق"؛ لأن "التكوين الاجتماعى للعرق الأنجلو ساكسونى هو أيضًا عميق الذاتية بقدر ما إن العرق الألمانى عميق الجماعية"(٣٦). وبوضوح: الألمانى هو جماعى ومشاعى احتمالاً، فى حين أن الصفة الأساسية للأنجلو ساكسونى هى الطاقة الفردية. وواحد من البراهين الحاسمة على تنافر الطباع الإتنى هذا هو موقف هؤلاء وهؤلاء من الاشتراكية؛ فبقدر ما يميل الألمان لها بقدر ما يبقى الأمريكان نافرين منها، وهذا على الرغم من جهود ماركس (الذى كان قد نقل إلى بلدهم مقر الاشتراكية الدولية لكن "آماله خدعت") وعلى الرغم من إرسال ***بعثة تبشيرية missi do-minici***"؛ فلمحاولة جعل الإنجليز فى الولايات المتحدة يعتنقون الاشتراكية، أرسل لهم عدداً من المحرضين الألمان، ومن بينهم السيد ليبنخت Liebknecht وإحدى بنات كارل ماركس، تلك التى تزوجت السيد آفيلينجAveling. كل ذلك كان بلا فائدة(٣٧)"، وهكذا صار فشل الاشتراكية فى الولايات المتحدة أو لنقل على نحو أفضل برودة أنجلو ساكسون أمريكا المنيعة إزاء الاشتراكية لدى دومولان برهانًا قاطعًا على الاختلاف الجذرى بين الإنجليز والأمريكان من جهة والألمان من جهة أخرى.

خرجت ألمانيا، سوى أن الانزلاق لا يتوقف هنا، وستستمر حركة إعادة التركيز : من بريطانيا العظمى هذه المرة نحو العالم الجديد. لقد طرح دومولان من حيث المبدأ دفعة واحدة الشراكة الدموية لـ"الإنجليزى وأخيه اليانكيه"(٣٨). وحينما يتطلب الأمر تقديم أمثلة عن خطرهما ينزلق بلا شعور وعلى امتداد بحثه، من الأول نحو الثانى، والمقدمة ذات دلالة من هذه الناحية. ويلاحظ دومولان دون أصالة أن "الأنجلو ساكسون قد حلّ محلنا فى أمريكا الشمالية"، لكن فى الصفحة التالية هى ذى المجتمعات الأنجلو ساكسونية تصير "هذه المجتمعات الفتية" - صفة تتلاءم على نحو ردىء مع بريطانيا العظمى فى عهد الملكة فيكتوريا، كما سيتم الاعتراف بذلك فيما بعد. وعلى نحو رزين وربما غير واع فى هذه المقدمة شأنه فى التفصيل ينتزع دومولان الحافلة البريطانية من القطار الأمريكى. ويضيف فيما يكوِّن اعترافًا لا إراديا بتركيزه على الولايات المتحدة: "هذه المجتمعات الفتية تدعونا أصلاً مع قدر من الاستخفاف العالم القديم"(٣٩). ويؤكد القسم الثانى والثالث من الكتاب هذا الانحدار. على أن بريطانيا العظمى والدول المرتبطة بالتاج البريطانى لا تغيب كليًا عن نظره، لكن النظرة المعجبة والقلقة للمراقب الاجتماعى إنما تثبت على الولايات المتحدة؛ لأن "الولايات المتحدة هى اليوم على رأس التقدم الاجتماعى مثلما هى على رأس التقدم الآلى"(٤١). ليس فى إنجلترا وإنما فى أمريكا ينبض قلب "العرق الذى يبدو عازمًا على أن يخلف الإمبرطورية الرومانية فى

حكم العالم هنا أيضًا تنتصر حقًا العبقرية "الذاتية" للأنجلو ساكسون، وقد عزتها ومجدتها "بيئة رجولية بصورة حيوية"(٤٢).

مصير غريب على نحو مزدوج لكتاب نجح جماهيريا: ***على ماذا يقوم تفوق الإنجليز؟*** كتاب كان يعارض واقع "القوة الاجتماعية" بأوهام العنف العسكرى، وسيغذى طاحونة كل الذين لم يعودوا يعتقدون بعد عام ١٨٩٨ على الإطلاق بـ"الطلاق الكامل للعسكرية"(٤٣) من قبل الولايات المتحدة. كان دومولان يرمى إلى أن يكشف "سرَّ هذه القوة المذهلة فى التوسع"(٤٤) التى هى قوة الأنجلو ساكسون، ويمدَّ إلى الفرنسيين مفتاح نجاحهم المشترك. لكن هذا المفتاح "العام" صدأ قبل استخدامه؛ لأن الولايات المتحدة فى التصورات الفرنسية قد "انفكت" عن النموذج البريطانى. وإذا كان بعض الكليشيهات المروية من أمريكا من قبل الرحالة الفرنسيين لا يزال يحمل علامة "التقليد الفرنسى فى الخوف من الإنجليز" فلا يسعنا القول إن الولايات المتحدة فى نهاية هذا القرن التاسع عشر هى فى نظرهم "امتداد لإنجلترا"(٤٥). وكما رأينا، كان التحذير من الأنجلو ساكسونية منذ الإمبراطورية الثانية، يقيم اختلافًا شديد الوضوح بين بريطانيا العظمى، البلد العريق الرزين، وبين الولايات المتحدة، القوة الوحشية وغير المتبصرة. ولم تفعل الصور الثقافية السلبية التى تكاثرت مع قصص الرحلات سوى أن تزيد من التضاد. وبفضل التفاهم الودى سيركز "الأنجلو ساكسون فيما وراء الأطلسى" عما قريب على أنفسهم الإرهاب السليم الذى كان يريد إدمون دومولان أن يوحى به بوصفه "روح المبادرة الشيطانية هذه، هذا الاستعداد على التملص من المأزق، الذى وددنا لو دفعنا ثمنه ذهبًا، والذى لا يفعل الذهب الذى نقتصده بشديد العذاب وشديد السطحية إلا أن يخنقه"(٤٦)، ومهما فعل دومولان بتقديمه "العرق" الأنجلو ساكسونى بوصفه كتلة واحدة فى وجه فرنسا المالتوسية وصاحبة الإيرادات "نحن نعيش كالمعدمين، ونمارس العقم المنتظم لنسمح لأطفالنا ألا يعملوا شيئًا"، فإن الوحش الذى يهدد الفرنسيين هو برأسين ـ ورأس اليانكيه منهما هو الذى يخيف الفرنسيين من الآن فصاعداً.

وولَدَ اليانكيه الأنجلو ساكسون

يبدو معادو أمريكا الفرنسيين فى عام ١٩٠٠ قد تابعوا على طريقتهم برنامج كارليل، ناقلين هم أيضًا إلى أمريكا ما يمكن أن نسميه المقر الرئيسى للأنجلو ساكسونية، قطب حدّته ـ ومن ثم خطره، لكن صورة النقل تحجب هنا واقع الحركة المعاكسة؛ إذ اعتباراً من الوعى بخطورة أمريكية وبأخطار صدام أمريكا "الجاحدة" هذه مع أعدائنا الآخرين، إنما تكوّن الوجه الأنجلو ساكسونى الفرنسى؛ ففى نسخته

الفرنسية لم يعد الوجه الأنجلو ساكسونى نسبيًا إلا فى الظاهر. كانت الاستمرارية العرقية التى تقتضيها تسمح للإنجليزى أو للأنجلو أمريكانى أن يدعى فضائل أجداده الفظة؛ فالسلالة الأنجلو ساكسونية تعمل فى الخطاب الفرنسى من الآن فصاعداً عكسيًا: إنها تتأسس منذ نقطة وصولها لا من نقطة أصلها. (بوسعنا على هذا النحو أن نستغنى شأن دومولان، عن الألمان كليًا.)

ولما كانوا قد وصلوا متأخرين فى المسلسل الأسطورى، فإن الفرنسيين لم يضيعوا معظم الحلقات فحسب، بل إنهم رأوا الفيلم بالعكس؛ فاعتباراً من اليانكيه إنما يبتدعون الأنجلو ساكسون. وعلى وجهه كبربرى جديد إنما يفكون ملامح موروث رهيب. وأمام القناص الحديث إنما يفقدون توازنهم فى الوقت الذى يكسونه فيه بلاغيًا بهارج المرتزقة فى الماضى. إنها القوة الإيجابية لليانكيه التى يخافون، فى الوقت الذى يهيجون فيه خوفهم كما يحك المرء جرحه، من فكرة التضامن فى الأسلاف والشراكة الخطيرة فى الدم. وسننتظر عبثًا فى النصوص الفرنسية أن نرى الخيال القديم للسكسونيين القساة يرتسم وراء الأنجلو ساكسون الحديث؛ فالبربرى الذى يستحوذ على عقولهم هو بربرى المستقبل، لا بربرى الماضى. إنه البربرى اليانكيه مع فكيه القويين جداً وضراوته شديدة المادية، وشهواته للفتح وعنفه فى إشباعها. إن القراءة الأنجلو ساكسونية للولايات المتحدة فى فرنسا هى هذا الخطاب الذى إذ يقال باسم خاصّة عرقية يسمح بحجب التاريخية الأمريكية من خلال الاستماع إليها على أبواب خرافة أوروبية. على أن الجرمانية أو الإنجليزية لا تذكران إلا لتبرير المزاعم والصور الوهمية حول "بلاد اليانكيه"، التى ترى من الآن فصاعداً بوصفها المركز العصبى لخطر كوكبى. وفى فرص نادرة - موراس Maurras فى عام ١٩١٩ - سيتركب الوجه الأنجلو ساكسون من جديد، وسيعيد تكوين الحزمة المرعبة لـ"القوى الإتنية" المتحالفة ضد فرنسا، لكن موراس هو هذا الاستثناء؛ ففى نهاية القرن التاسع عشر كان ***الانتقال Traslatio imperii*** نحو الولايات المتحدة شيئًا مكتسبًا فى الخيال الفرنسى، ومعه انتقال الخوف. ومن هذا الانتقال، كان الأنجلو ساكسون الفرنسى هو النتاج، ومن الممكن القول أيضًا: العائد.

يمكن إذن ودون تناقض، شأن جوستاف لو روج، أن يُتهمَ "الأنجلو ساكسون" دون كلل وألا يُستهدف إلا الأمريكان. (إن شخصية البريطانى توم بونش هو حليف الفرنسيين فى صراعهم ضد اليانكيين وملك إنجلترا هو "طيب": إذ سوف يشارك شأن جيوم، فى احتفالات الانتصار الأوروبى النهائية)، بل من الممكن الكتابة بمناسبة المواجهة العدائية بين الأوروبيين والأمريكان، المستقرين ككلاب من الخزف على

قارتيهما: "العرقان اللذان يتواجهان على شواطئ الأطلسى". جملة تبدو للوهلة الأولى شاردة أو عبثية، بما أن المانش بمفردات "العروق" وليس الأطلسى هو الذى يجب أن يؤلف خطَّ التماس، لكنها غرابة مفهومة، لا بل ومتماسكة فى إطار مخطط "أنجلو ساكسونى" محمول دون مقاومة من قبل انتحاء يانكيه. إن العرق الأنجلو ساكسونى - كما يعترف جوستاف لو روج ضمنًا - ينحل ويمجد ذاته فى آن واحد فى شخصية الأمريكى وحده، فى "نمط اليانكيه الشنيع".

هوامش

(١) S. Jeune, *Les Types américains dans le roman et le théatre français* (1861-1917), Paris, Didier, 1963, P. 162.

(٢) كلمة *Jingoïsme*، المشتقة من كلمة المناداة (*"By Jingo!"*) ثابتة اعتباراً من ١٨٧٨ للدلالة على الوطنية المتطرفة والعدوانية.

(٣) لدى الأزمة الفنزويلية عام ١٨٩٦.

(٤) F. Trollope, *Domestic Manners of the Americans* [1832], éd., *introduction et notes de Pamela Neville-Sington*, Penguin Books, London & New York, 1997, p. 287.

(٥) *Ibid.*, p. 235.

(٦) Philarète Chasles, *Etudes sur la littérature et les m urs des Anglo-Américains au XIXº siècle*, Paris, Amyot, 1851, pp. 491-492.

(٧) ما يسميه شاسل "الحياة النشيطة للولايات المتحدة" (ص. ٤) يترجم بـ "إلى الأمام دائمًا" خاص بالثقافة الأمريكية (المرجع السابق، ص٤٨٢). ويفصل توكفيل أطروحته فى الفصل الثانى، "عن نقطة الانطلاق وعن أهميتها لمستقبل الأنجلو ساكسون" من القسم الأول من الديمقراطية.

(٨) Ph. Chasles, *Etudes*.., p. 4.

(٩) *Ibid.*, p. 4 et IV.

(١٠) *A. de Tocqueville, De la démocratie en Amérique* (II), Paris, Robert Laffont, *collection Bouquins , éditions procurée* par J.-Cl. Lamberti et F. Mélonio, 1986, p.577.

(١١) *Cité dans Baudlaire, Ouvres complètes*, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, 1976, t.2, p. 1202.

(١٢) H.Castille, *Les Hommes et les M urs en France sous le règne de Louis-Philippe,*

Paris, Henneton, p.354, *référence donnée* par Pierre Enckell, Datation et documents lexicographiques, nº 42, CNRS-Klincksieck, 1994.

(١٣) G. Lanson, *Trois Mois d enseignement aux Etat-Unis*, Paris, Hachette, 1912, p.66.

يوجد أيضًا بعض المؤلفين الذين يرفضون بوصفه غير دقيق توسيع اللفظة لتشمل مجموع السكان البيض فى الولايات المتحدة، ويذكرون بأنه "لاينطبق إلا على سكان إنجلترا الجديدة".
انظر: Max O rell et Jack Allyn, *Jonathan et son continent. La société américaine*, Paris, Calmann-Lévy, 1900, p. 13, note 1.

(١٤) O. Noël, *Le Péril américain*, Paris, de soye et fils, 1989, p. 33.

(١٥) لدى إدمون جوهانيه Edmond Johanet (*Un Français dans la Floride, Paris, Mame,* 1889, pp. 53-55) لا يزال اليانكيه يشبه كثيرًا يانكيه فانى ترولوب. ويتوجب على الفرنسى أن يستخدم بصورة وقائية "الحيلة والمكر"، وأن يبقى دومًا على حذر؛ فإن ابتسم "فتلك علامة سيئة... لقد اختارك بوصفك مخدوعًا".

(١٦) Ph. *Chasles, Etudes...*, p. 491, note 1.

(١٧) *Ibid.*

(١٨) *A. de Tocqueville, De la Démocratie..*, p. 577.

(١٩) هل الأطفال العجزة لعالمنا الضجر على حق فى أن يقلدوا الآن رغم ماضيهم الاستقلال الذاتى الأمريكى الذى لا يملكون منه حتى النواة ؟ هل سينجحون فى هذه المحاولة ؟ من الممكن الشك فى ذلك انظر: *(Ph. Chasles, Etudes..*, p. 507)

(٢٠) *Ibid.*, p. 455.

(٢١) سنجد كلمة "*يانكية* *yankeesme*" لدى إدجار موران Edgar Morin فى عام ١٩٦٤، ولم تكن كلمة جديدة بما أن أوكتاف نويل قد استخدمها فى عام ١٨٩٩؛ على أن اللفظة لم تنتشر فى عام ١٩٦٤ أكثر مما انتشرت فى عام ١٨٩٩.

(٢٢) Villiers de L isle-Adam, *L Eve future* [1886], Paris, Garnier-Flammarion, 1992, p.312.

(٢٣) Cité par Reginald Horsman, Race and Manifest Destiny, *The Origins of Ameri-*

can Racial Anglo-Saxonism, Harvard University Press, Cambridge, 1981, p. 22.

(٢٤) *Ibid.*, p. 94.

(٢٥) Voir, de Jacques Portes, *En finir avec une norme, les Anglo-Saxons, La Norme, (collection) dirigée* par Y. Janeur, ALCUP, Paris, Chancellerie des Universités, sous presse. *L article présente un florilège édifiant d emplois cotemporains d Anglo-Saxon.*

(٢٦) هكذا فى عام ١٧٥١، يشير كتاب *Nouvel Abrégé chronologique de l Histoire d Angle-terre* الذى ترجمه للإنجليزية M. Salmon ونشر لدى Rollin et Jombert، إلى اهتداء "الأنجل - ساكسون" على يدى الراهب أوستين Austin فى العام ٥٩٦.

(٢٧) Voltaire, *Essai sur les m urs, édition de R. Pomeau*, Paris, Bordas, Classiques Garnier, 1990, t. 1, p. 465.

(٢٨) جمعهم جون بانكرتون John Pinckerton فى عام ١٧٨٧ إلى القوط Goths والفرس ضد السلت الذين يعتبرون أدنى. انظر:

R. *Horsman, Race and Manifest Destiny..*, pp. 31 et 47.

(٢٩) Voir *Robert Morrissey, L Empreur à la barbe fleurie. Charlemagne dans la France*, Paris, Gallimard, 1997.

(٣٠) A. Thierry, *Histoire de la conquête de l Angiterre par les Normands, préface à l édition de* 1838 (Paris, J. Tessier), p. 7

(٣١) "لم يتصور الأمريكيون أن بوسعهم تحطيم التقاليد التوتونية والمسيحية لجنسهم الأنجلو ساكسونى.

(Ph. Chasles, *L avenir de l Amérique*, Etudes..., p. 457)

يتحدث شاسل عن المسيحية الأخوية (ص. ٤٣١) *christianisme fraternel* وعن التوتونية القديمة "*teutonisme antique*" دون أى مرجع إنجليزى.

(٣٢) فى عام ١٨٣٢، حسب قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية *Oxford English Dictionary*.

(٣٣) استشهد به فى : Michael Lind, *The Next American Nation. The New Nationalism*

:and the Fourth Revolution, New York & alibi, The Free Press, 1955, p. 29.

وسنراجع باهتمام تحليل ميشيل ليند عن "أول جمهورية" أمريكية يطلق عليها "أنجلو-أمريكا".

(٣٤) E. Demolins, *A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons,* Paris,Didot, 1987, p.112.

(٣٥) *Ibid.*, p. 320.

(٣٦) *Ibid.*, p. 272.

(٣٧) *Ibid.*, pp.269-270.

(٣٨) *Ibid.*, p. 100.

(٣٩) *Ibid.*, p. iii.

(٤٠) *Ibid.*, p. 343.

(٤١) *Ibid.*, p. ii.

(٤٢) *Ibid.*, pp. 272 et 339.

(٤٣) *Ibid.*, p. 309.

(٤٤) *Ibid.*, p. iv.

(٤٥) ما يكتب دافيد ستوس: *whether Anglophobe or Anglophile, however, travelers regarded the United States as " an extension of England*: إنه يعتبر فضلاً عن ذلك أن كتاب دومولان يؤلف منعطفًا إيجابيًا فى التصورات عن الأنجلو ساكسون ("*this change naturally improved attitdes towards Anglo-Saxons*"): لا يبدو أى من التاكيدين ملائمًا للوقائع. (*Menace in the West. The Rise of French Anti-Americanism in Modern Time*, Westport-London, Greenwood Press, 1978, p. 50.)

(٤٦) E. Demolin, *A quoi tient..*, p. 110.

الفصل السادس

صُوَرُ عرق

سأتعرف، على حدود العالم، النمط الأمريكى.

جول هوريه، فى أمريكا (١٩٠٤)

فى غياب الهوية، يملك الأمريكيون أسنانًا رائعة.

جان بودريار، أمريكا (١٩٨٦)

تلقت الصورة الخيالية لليانكى من تصالبها مع شخصية الأنجلو ساكسون قواماً كان يفتقر إليه. لقد كف الأمريكى وقد امتلك شخصية (بل وحتى كما سنرى فراسة) عن أن يكون رمزًا سريعًا مقلصاً إلى بعض المفاتيح - امتثالية، خشونة، ريفية، كما كان حظه حتى سنة ١٨٦٠؛ فقد تراكمت ملامح أخرى: شراهة، وعنف، وتعصب قومى، وإرادة القوة، فوق الملامح القديمة دون أن تمحوها. ليست هذه الملامح الجديدة أشد وضوحًا، وأكثر مدعاة للقلق فحسب: إنها تصدر عن منطق آخر؛ فالعيوب المنسوبة حتى ذلك الحين للأمريكيين، كالعادات السيئة أوالضراوة فى الربح يمكن أن تعتبر نتائج لحالة اجتماعية مؤقتة يمكن التخلص منها: حالة بلد أسىء تهذيبه، ذى أخلاق خشنة وميول بدائية. أما لدى اليانكيه، فهى من الآن فصاعداً نواقص فطرية، وعيوب وراثية وُصِفت وأدينت: إن التركيب التعبيرى "العرق اليانكيه" يؤلف من الآن فصاعداً "جزءاً من العقيدة المشتركة"(١).

هو ذا ما هو جديد فى الغرب، عرق خصم يقف فيه. نقول، ونكرر القول، إن من المسموح الاعتقاد بأننا نفكر كذلك إلى حدّ ما، عرق أجنبى جذريًا، عميق الخصومة، مخيف بصورة مزدوجة؛ لأن خصم ***hostis nouvus*** الحدود الغربية الجديد يجسّد الخطر الأكثر حداثة من أى خطر آخر، فى الوقت الذى يديم خياليًا سلالة من الأحقاد الوراثية. ستكون شخصية اليانكيه إذن مرسومة حسب خطوط عدوانية حديثة (مادية، صناعية،آلية)، ولكن على ورقة خصومة عرقية متحدرة من أعماق العصور. إن الخصم الجديد، الرأسمالى والحيسوب، التابع البارد لـ"إله نتن" للحداثة يتقدم سراً مربوطاً إلى ماض متعدد الأجيال فى البغضاء.

للوضع سخريته؛ ففى اللحظة ذاتها التى بدأت فيها أمواج الهجرة الكبرى تقلب

التركيب السكانى للشمال الأمريكى صوّب الفرنسيون على اليانكيه منظار الأنجلو ساكسون، مشهد عجيب فعلاً، بينما ينهمك المصور ليستخرج صورة اليانكيه بصورة عصبية تحت الغطاء الأسود، يغزو المنصة جمهور غفير لا يُرى من العدسة. هذا القطيع الخليط، هذه الوجوه التى لا تحصى، القادمة من جهات الكون الأربع، لابد من عدد من السنوات الإضافية لكى تدخل حقل الرؤية فعلاً، لكن بدلاً من أن يهدئ تطفلهم مخاوف الفرنسيين سيضاعف من نواقيس الخطر؛ إذ سيتراكب فوق الحذر الحاقد الذى كان اليانكيه يوحى به ضربٌ من القرف القلق أمام هذا الخليط من الشعوب، وهذه الفوضى البشرية. فأن يتدفق هذا "الغرين الخليط"، طبقة بعد طبقة، على "قلز كورنثيا" الخاص بـ"العرق الأمريكى"، وأن يأتى "طين كل العروق" باحثًا عن امتزاج مع البرونز اليانكيه - هو ذا ما لا يحمل أىّ عزاء للمعادين الفرنسيين لأمريكا، بل سيضاعف من عدوانيتهم.

قلز كورنثيا العرق الأمريكى، الغرين الخليط، طين كل العروق: ليس الذين يفكرون ويكتبون وينشرون هذه الصيغ حوالى عام ١٩٠٠، هجائين عنصريين مغمورين، بل بعض نبلاء وأعيان الذكاء الفرنسى: اللامع بول بورجيه، والشديد الجدية أوكتاف نويل، والمحترم جداً إميل بوتمى[٢] - علم النفس، والاقتصاد، والعلوم السياسية. لقد كانت نزعة معاداة أمريكا قبل ١٩١٤ قضية نخب ومثقفين، لكنها تقدم مع مثيلتها فى المرحلة التالية تضاداً يثير الاهتمام. لم يكن "أهل الأدب" فى هذا الطور الحاسم من استقرار الخطاب المعادى لأمريكا، هم الذين يحتلون المواقع المتقدمة. إن من نجدهم فى الخط الأول هم فى معظمهم اقتصاديون وعلماء اجتماع وعلماء سياسة دون نسيان الروائيين - النفسانيين على طريقة بورجيه الذين لا يشكون فى وجود عقليات جماعية. إنهم رجال (وندرة شديدة من النساء) يستندون إلى علوم جديدة وجريئة. ليسوا كلهم علماء أو خبراء، لكنهم يستدعون معارف حديثة لا ثقافة قديمة؛ إنهم إنما يستخدمون قلمهم ضد العدو الأمريكى مع المفردات الفاتحة للعلوم الحديثة للاجتماع لا بلسان الأدباء المصدومين الكئيب. وسيأتى فيما بعد - اعتباراً من سنة ١٩٢٠ - وقت كبار الكتاب والإنسانيين والروحانيين والشعراء والأيديولوجيين، لكن كل شىء يجرى فى الوقت الراهن، كما لو أنهم لم يكونوا يشعرون بأنفسهم معنيين ولا مهددين من قبل "الخطر الأمريكى".

فى حين أن هذه الخطابات القادمة من آفاق منهجية (وأيديولوجية) شديدة الاختلاف تقدم تجانساً مذهلاً، وسيكون من المبالغة القول إن نزعة معاداة أمريكا الفرنسية، فى هذا الطور الصاعد، تتكلم بصوت واحد، لكن من المدهش أن نرى تكرار الحجج نفسها من نص إلى آخر، موضحة غالبًا مع النبرات نفسها. ووراء التنوع

والزخارف تتبدى قاعدة مستمرة: لازمة العرق الواخزة. قناعة مشتركة يمكننا أن نطلق عليها "إتنوجرافية"، تُحرِّكُ وتقارب هذه الخطابات ذات المزاعم العلمية، وهي التي تضعها مباشرة أيضًا مع كلام غير المختصين، من الصحفي على طريقة هوريه إلى كاتب المسلسلات مثل لو روج. كلهم يتميزون بالميل نفسه، وبالهوى نفسه لجعل موضوعهم ثيمة إتنية؛ فسواء كان الموضوع شرح شخصية تيودور روزفلت أو ظاهرة الاحتكارات أوعنف الإضرابات أو الحرية المدهشة التي تتمتع بها الفتيات الأمريكيات، من النادر جدًا ألا تعود الكلمة الأخيرة إلى "الاستعدادات الطبيعية" وإلى عبقرية العرق. ومن ملاحظات لا قيمة لها حول "الطابع القومي" إلى التعبيرات الوراثية الأقسى، يتغذى وصف أمريكا والأمريكيين على نحو غزير الوفرة من المراجع الوراثية، ومن الصفات المكتسبة، ومن الملامح الأخلاقية والنفسية الوراثية. تقدم الأوصاف الجديدة لأمريكا كل أطياف "رسم العرق" الذي يحيل التحليل التاريخي إلى مستوى ثانوي. هذه "العدوى" التي أصابت التاريخ (أو تعرض المؤرخين هذا للشبهات) سيعبر الحرب العالمية الأولى، كما يشهد على ذلك الفصل الافتتاحي لكتاب ***الولايات المتحدة اليوم Les Etats-Unis aujourd'hui*** للمؤرخ أندريه سيجفريد **André Siegfried (1927)**، قطعة مذهلة من الشجاعة العرقية (والعنصرية) كان جعلها في مقدمة هذا الكتاب الذي سيصير "كلاسيكيًا" يكشف عن الأولوية الممنوحة في فرنسا للتوضيح الإتني لـ"الموزاييك الأمريكي".

هل هو جهد نضالي ومتفق عليه؟ هل هو انتماء جميع هؤلاء المعادين لأمريكا للنظريات العرقية التي طورت في فرنسا وخارجها منذ منتصف القرن التاسع عشر؟ حتمًا لا. إن المعادين لأمريكا في بداية القرن العشرين يُجندون من كل الأطياف الأيديولوجية؛ فعنصريتهم عادية جدًا، ولم يستطع واحد منهم أن يعتبر نفسه نصيرًا لجوبينو **Gobineau** أو لشامبرلان **Chamberlain**. يذكر البعض داروين، لكن أحدًا لا يذكر فاشر دو لا بوج **Vacher de la Pouge**. يستعير اضطرابهم أو جنونهم أمام اليانكيه تغيره لا من منظري العنصرية، بل من العقيدة العرقية المنتشرة بفضل أعمال رينان على وجه الاحتمال التي كانت أداةَ ذيوعها الأكثر نجوعًا.

والحق أننا نجد لدى رينان إشكالية وصف للحضارات وتعريفًا للعرق على قدر من الغموض يتيح شق طريق ثالث بين المقاربة التاريخية والاجتماعية والثقافية لواحد مثل توكفيل الذي كان في كسوف كامل، وبين النظريات العرقية حصرًا. ولقد زرع رينان في كل مكان، وهو المستقر على منعطف تاريخ الأديان وفقه اللغة وضرب من فلسفة الثقافات، ضربًا من مفهوم للعرق يؤلف بين البعد التاريخي والمركب الإتني

والتراتبية الثقافية (التى تحتل فيها اللغة مكانة حاسمة). والتعريف الذى يقدمه للعرق بعيد عن أن يكون مجرداً من التناقضات[٣]، لكن هذا التردد على وجه الدقة هو الذى يسهل تبنيه سواء فى إطار نظريات ثقافية أو فى أبنية إتنوجرافية ذات أساس نفسى. تأثير غريب أساساً هو هذا التأثيرالذى مارسه رينان، كما كتب موريس أولندر "يدعو رينان قرّاءه ضمن منظوره لأنثروبولوجيا ثقافية، لقبول أن التاريخ هو أكبر مختبر معايير للعروق"، لكن الرؤية التاريخية لرينان هى هنا سكونية تماماً"[٤]. فبجعله العرق "سرّ كل أحداث تاريخ البشرية" و"التفسير الأكبر للماضى"[٥]، يفرض على التاريخ الشروط المهينة للإتنوجرافيا العنصرية، مع زعمه فى الوقت نفسه إعفاء العروق المنتخبة من هذه الحتمية ـ أى العروق التى ارتقت بما تملكه من درجة عالية من الحضارة إلى ما فوق الردة التراثية التى أسست مع ذلك عظمتها. لقد ذويت عملية الحضارة لدى هذه "العروق" (التى ليست شيئًا آخر سوى الأمم الأوروبية)، الجانب "الأنثروبولوجى" إلى درجة جعله قابلاً للإهمال؛ فقد صنعت، فى حالتها، "اللغة والقوانين والأخلاق العرقَ أكثر مما صنعه الدم"[٦]. بهذا الالتفاف، لم يعد العرق فى أوروبا (ولكن فى أوروبا فقط) المقدمة المنطقية لصيرورة مبرمجة، بل على العكس نتيجة لعبة معقدة لقوى مختلفة. إن معنى الكلمة ينشطر لحاجات علم معرفة ذى سرعتين، تنقسم حسب الشق أوروبا/لا- أوروبا. لأنه ما إن يتم عبور حدود أوروبا، حتى يستعيد العرق طعم الدم. إن العيب الإتنوجرافى يسقط مباشرة على أكتاف الشعوب؛ فالإنتماءات تختلط من جديد مع الموروثات، وتقاس الاستعدادات بالهيئة.

يقول رينان للأوروبيين وبصورة مخصصة لأبناء عمنا الجرمانيين، "لا نملك الحق فى الذهاب إلى الناس لجسّ جماجم البشر ثم إمساكهم من حناجرهم قائلين لهم: "أنت دمنا، أنت لنا!"[٧]. والأمر نفسه بالنسبة للقومية الجرمانية، ولكن هل هو نفسه بالنسبة للأنجلو ساكسونية؟ على أنّ رينان لا يمنع الأوروبى ذاته أبداً من الذهاب عبر السهوب والغابات لتأكيد تفوقه، لا بل إنه يحضه على ذلك: هنا مهمته. هناك من جهة إذن، الأمم الأوروبية، "أنداد فى مجلس أعيان كل عضو فيه مصون"[٨]، التى يجب أن تشعر بظلم وعبثية كل أولوية عرقية فيما بينها. وهناك من جهة أخرى، عروق خاضعة لحتمية استعداداتها الطبيعية، موعودة للكدّ، ومكرسة للآلة تحت الإدارة الأوروبية. سيسهم هذا المخطط الواسع المدير فى تكوين أيديولوجية استعمارية للجمهورية الثالثة، وكذلك أيضًا فى الترويج لفكرة تضامن لا غنى عنه لأوروبا فى مواجهة لا ـ أوربا.

وشأن هيجل من قبل الذى استبعد أمريكا الشمالية من خطة تطوير الإنسانية، يترك رينان خصّ "الولايات المتحدة" فارغًا والسؤال عن دورها فى إعادة توزيع المهمات

العالمى هذه معلقًا. لا تستطيع أمريكا الشمالية أن تعرف نفسها فيها إلا من خلال لـ"لا، لا": لا عضو "مجلس أعيان أوروبى"، لا خاضعة "لشبح" ولـ"سيف" أوروبا. إن عناد الخطاب المعادى لأمريكا الطويل فى أن ينكر على الولايات المتحدة ضد البداهة "تاريخًا" و"حضارة" يكتسب هنا كل معناه. برفض كل تاريخانية لأمريكيى الشمال، وبتكرار أن "الولايات المتحدة هى البلد الوحيد الذى انتقل مباشرة من الوحشية إلى البربرية دون المرور بالحضارة"، فإننا نفعل أكثر من مجرد التأكيد على ضعف التجربة البشرية أو على فقر ثقافى خاص بأمريكا - وفى الواقع فإن قصور اللوار ليست على البوتوماك(*): إننا نسجل الإقرار بوجود اختلاف جذرى مع الأمم الأوروبية. إن أمريكا الشمالية، باسم هذا النقص فى التاريخ والحضارة، هى ضمنًا قائمة كعالم ثالث، ولا يمكن وضعها رمزيًا فى العالم الثانى لأوروبا الاستعمارية فى نهاية القرن التاسع عشر.

هل نملك الحق فى الذهاب لقياس الجماجم؟ إننا لا نحرم أنفسنا على كل حال من سحب صورة أمريكا - "صورة عرق" كما كان يطالب بها رينان، لم تكن النمطية الإتنية لليانكيه توفر فى فرنسا لا كتاب المسلسلات، ولا السفراء.

السيد روزفلت والسيدة بتّى

مايو ١٩٠٠، بينما كان قراء جوستاف لو روج يستمتعون بالخاتمة السعيدة ***لمؤامرة أصحاب المليارات***، كان جول كامبون **Jules Cambon**، سفير فرنسا فى الولايات المتحدة، يتابع باهتمام مسلسلاً أخر: الحملة الرئاسية لماكينلى **Mc Kinley** برفقة تيودور روزفلت. إن فن البرقيات الدبلوماسية المهدد اليوم كان آنئذ مزدهرًا، وبلغ الأوج فى صورة الملوك أو الرؤساء. هذه الصورة المادية والنفسية والأخلاقية والسياسية، إنما تعود إلى السفير نفسه (باستثناء عجز مشهود) أن يرسمها ويوجهها لوزيره. تلك البطاقات الوصفية السرية كانت وثائق ثمينة: إنها تعلمنا اليوم عن الذين يتبادلونها بقدر ما تعلمنا عن الذين صُوِّروا فيها.

فى يوم ٨ مايو إذن، أمسك السفير كامبون بأجمل أقلامه ليرسم بسرعة المرشح الجمهورى لانتخابات الخريف، تيودور روزفلت، الرئيس السادس والعشرون القادم

(*) Potomac: نهر فى الولايات المتحدة يصب فى المحيط الأطلسى، طوله ٦٤٠ كم.

للولايات المتحدة. كتب كامبون: "إن السيد روزفلت شديد الطموح، شديد الذكاء، يدافع حتى المغالاة عن السياسة الإمبريالية والعسكرية التى دعمها سواء فى كتاباته أو فى أفعاله. إنه يمثل بصورة ممتازة هذا العرق الشاب الأنجلو ساكسونى الذى يقوم شاعراً له ر. كيبلينج Kiplin، ومصدر وحيه التاريخى ك. سيلى Seeley(٩)".

بعد أربع سنوات، وفى الوقت الذى كان ينهى فيه فترته الرئاسية، كان تيودور روزفلت نفسه، أول رئيس أمريكى منذ لينكولن يستثير اهتمام الفرنسيين، موضوع سيرة تقديسية جداً وقعها مترجمه الرسمى، ألبير سافينAlbert Savine، عنوان الكتاب *روزفلت الحميمى*، ويبدأ هو الآخر بصورة للرجل الكبير- صورة هى فى أن واحد شديدة القرب وشديدة الاختلاف عن صورة كامبون. "يدين تيودور روزفلت إلى هولندا بعاداته الرصينة وهيئته الصلبة، ولإسكتلندا برهافته، ولإيرلندا بما فيه من طبع مناضل وبما فيه من كرم، ولفرنسا بحيويته وبخياله وبجرأته. لا يمكن لمثل هذا الخليط من الدم أن ينتج إلا كائنًا رجوليا وأصيلاً ومخلصاً ومتوازنًا(١٠)".

المواجهة مثيرة؛ فالمصوران هما فى الظاهر من المدرسة ذاتها، لكننا نكاد نقول إنهما لم يرسما النموذج ذاته. إنهما يعملان بمجموعة الألوان ذاتها وفى السجل نفسه: سجل العرق والأصل، لكنهما لم يستخدما فيه الألوان ذاتها. إن النموذج الأنجلو ساكسونى قد تخلى عن المكان لصالح أوروبى مركب. وروزفلت الذى رسمه كامبون كان النمط الأمثل لـ"العرق الشاب الأنجلو ساكسونى". أما روزفلت سافين فهو خلاسى ثقافى، دم مختلط لأوروبا العجوز، منتج رائع توليفى، مثال أعلى هجين للسوق الفرنسية. هولندى فى الساعة المبكرة، وسكوتلندى، و إيرلندى بامتياز: هو ذا قريب بالدم وبالتاريخ، ولا يفسد شيئًا بالطبع أن يكون فرنسيًا أيضًا، لكن كمال التقدير يتم التعرف عليه خاصة بالتوابل الناقصة. ليس هناك أية نقطة دم إنجليزى لدى هذا الروزفلت المخصص للاستعمال المحلى! إن مكان "أنجلو" المتروك فارغًا يطرد خطر العنونة "أنجلو ساكسون".

بجعله من روزفلت متعدد الأصول الأوروبية، حاول سافين أن يطرد شبح اليانكيه، هذا الذهانى القروى الجاهز لفتح العالم دون أن يريد معرفته، ولا التفضل بفهمه. إنه لأمر طيب، و ضرورى من أجل صورته (فى فرنسا) أن يحتكر الرئيس الجذور الأوروبية، إلا أنه يتوجب أن تكون الجذور مسالمة، وأن تكون الأصول سليمة: دون أى أثر على الإطلاق للأنجليزيانية، ولا بالطبع للجرمانية؛ لأن حامل الرسالة

الروزفلتية فى فرنسا قد فهم شيئين. الأول: أن صورته عن روزفلت لا يمكنها أن تتجنب خطاب العروق، والثانى: أنه لكى يكون لطيفًا فى نظر الفرنسيين (وسيكون كذلك)، فلا يجب على هذا الروزفلت أن يكون أنجلو ولا ساكسون، وأن عليه أن يستخلص من الأصول الصديقة نسخ هذه الصفات ذاتها التى كانت تجعل منه لدى كامبون نموذجًا كاملاً لـ"الأنجلو ساكسون"، ولهذا يجتهد المخلص سافين فى إعادة نسخ أسطورة منجزة على الطرس العرقى؛ فهو يقترح عن فضائل روزفلت ضربًا من نسب تم تحسينه.

من المستحيل فيما يبدو على عتبة بداية القرن العشرين تجاهل السوابق الإتنية: كل الفن يقوم فى معرفة جعل صوت الدم هذا يتكلم. لن يكون كامبون مخبرًا مدققًا إن لم يشرع من هنا صورته عن الرئيس القادم، وسيكون سافين شديد الرعونة إن لم يبدأ برفع الرهن الأنجلو ساكسونى إذا أراد أن يجعل من روزفلت محبوبًا. إن كلاً من كامبون وسافين ولو روج يتبع، كلٌ فى "مجاله"، القوانين القصصية نفسها؛ لأنهم يشتركون مع قرائهم، من الوزير إلى البائعات فى المخازن بنفس القناعات عن العرق بوصفه مبدأ تفسيريًا.

هذا الوضع التأويلى للتأشير الإتنى واضح لدى السفير مثلما هو واضح لدى كاتب السيرة. أما لدى كاتب المسلسلات فهو "مبرهن عليه" بالقصة ذاتها، ولدت "مؤامرة أصحاب المليارات" من رغبة السيطرة الإتنية المتعذر كبتها لدى اليانكيه. والخصومة المتعذر قهرها بين اليانكيين والأوروبيين التى تؤلف ثيمة الرواية كلها هى من أصل عرقى، لكن العرق يتدخل أيضًا بوصفه مبدأ السببية الداخلى للقصة، على صعيد الانقلابات هذه المرة بما أنه "يفسر" هذا التحالف الميئوس منه أو هذه المساعدة الإلهية التى تلقاها الأبطال؛ فإذا كان هو الذى يثير الصراع، فهو أيضًا الذى يقيّد فى اللحظات الحاسمة الشريرين ويحابى العادلين.

لماذا تظنون أن نيد هاتيسون، ابن أبيه الرهيب، قد اختار معسكر الخير؟ من أجل عينى لوسيين جولبير على وجه التأكيد، لكن هل كانت هاتان العينان لتلاحظانه لو لم تكن أمه المرحومة السيدة هاتيسون كندية؟ كندية فرنسية، بطبيعة الحال، (لكنه قد قيل). إن انضواء نيد تحت لواء القضية الصحيحة إذن، هو أيضًا، انضواء إتنى، ستبقى المبادئ الإنسانية بلا قوة ضد قانون القلز الخاص بالربح، إن لم تتعزز بصوت الدم. شاهد آخر مفضل على قانون الإتنية: السيدة بيتى، "الأمريكية" الوحيدة البسيطة

ـ لا صاحبة مليارات، ولا ابنة صاحب مليارات ـ التى أتيحت لنا فرصة لقائها. حين يلقاها ليون جوبى (من بيلفيل) وقد ضاعت فى غابة المدن الأمريكية يتردد قليلاً قبل أن يفضى إليها بأسراره الثقيلة. قليلاً فقط. "تحت قبعتها الصغيرة من القش، كان للسيدة بتى وجه عذب تضيئه نظرة ذكية وعازمة. لم تكن شفتاها رقيقتين ومضمومتين كما هى عادة شفاه الإنجليزيات." وذلك طبيعى بما أنها ليست إنجليزية بفضل الله، ولا أمريكية، بل إيرلندية. "وصاح ابن مدينة بيلفيل: أنت لست أمريكية! آه، حسنًا إننى سعيد لذلك. لا بد أن أقول لك إن اليانكيين وأنا لم نكن أبداً أصدقاء حقًا. كل أكلة لحم الخنزير هؤلاء يجعلوننى أشعرهم كآلات قبيحة ذات مفاصل(١١)". شعور تشاركه فيه بتى: "أوه! إننى أكرههم أيضًا، ... إلخ"، ربما كان هذا المشهد من الحديث الغزلى المعادى لأمريكا أول مشهد من نوعه فى الرواية الفرنسية.

فى رواية ***رحلة فى نهاية الليل*** الموصوفة غالبًا (على عجل) باعتبارها آية فى معاداة أمريكا، تُلتقى امرأة أيضًا فى جحيم المدينة الكبيرة، كى تساعد وتحب باردامو. لم يشعر سيلين، الأقل عنصرية فى ذلك من سلفه التقدمى، بالحاجة لأن يجعل من هذه المخلصة التى ستعمر البشرية بواسطتها فجأة نورماندية، أو بيكاردية، أو لويزيانية. أما جوستاف لو روج فيهرع من جهته ليحدد التوزيع الإتنى للأدوار. هذه الشابة بتى، الشخصية الوحيدة والفريدة الإيجابية التى تم لقاؤها فى أمريكا كلها، ينزع عنها الصفة الأمريكية دفعة واحدة، كما يفعل سافين بروزفلته. إذا استطاعت السيدة بتى أن تصير فى نظر ليون حليفة سماوية فى قلب الأرض العدوة، بانتظار أن تصير فى الختام السيدة ليون جوبى؛ فبفضل "قرابات العرق" الثمينة التى يتوجب بالضرورة عليها جمع فرنسى إلى إيرلندية. الثقة أصلية والتواطؤ مكتوب على قوس هذا الفم اللحيم على الطريقة السلتية. شفاه ممتلئة لا يمكن لها أن تكذب، وشفاه بتى تعترف بصورة مزدوجة بصمت ثم بالكلام، بأصلها المحبب، مثيرة أعمق فرح يشعر به ليون الطيب: "وصرح ابن مدينة بيلفيل: هل تعرفين ياسيدة بتى أننى عازم على رؤيتك ثانية؟ فالإيرلنديون هم – كما يقال – فرنسيو الشمال(١٢)". يا من ليسوا إنجليزًا فى كل البلاد (الأوروبية)، اتحدوا! إن ليون الذى يملك حماس العالمى ـ هوى فرنسى آخر ـ مستعد لفتح تعريف العرق "الطيب" بصورة واسعة كى يستبعد العدو بصورة أفضل: "نحن جميعًا من عرق جيد، ما دمنا لسنا أمريكيين".

ما الذى يشبهه هذا العرق الذى استبعد من العروق على يدى ليون جوبى؟ لندفع كى نعرفه باب المخزن الأنتروبولوجى، ولنتنزه فى القاعات التى تعرض "صور العرق"

الأمريكية، ولنر كيف يتبدى من مبدع إلى مبدع، ومن يوميات رحلة إلى رواية أخلاق، "النمط المقيت لليانكيه".

المرأة الأمريكية، مستقبل اليانكيه

يجب البحث عن هذا النمط أولاً، حسب رأى الجميع، لدى المرأة الأمريكية؛ لأنها تعبر عن وتحقق أفضل من شريكها الذكر، عبقرية العرق. ويبدو أن شارل كرونييه دو فارينى، مؤلف كتاب *المرأة فى الولايات المتحدة* عام ١٨٩٣، كان أول من أكد هذا التفوق بمفردات تختلط فيها ذكرى الأخوين جونكور مع ذكريات رينان المبهمة؛ ففى الولايات المتحدة، كما هو الأمر فى الأمكنة الأخرى، "على المرأة أن تظهر بالضرورة فى لحظة ما بوصفها التعبير النهائى، والنمط الأعلى للعرق والبيئة، وهى كذلك اليوم"(١٣). إن الأمريكية هى مستقبل (الحاضر أصلاً) الأمريكى، ستُتَبنى الأطروحة بسرعة، وبعد عدة سنوات، سوف تُكرر كتحصيل حاصل. هو ذا إذن وقد برر علميًا الاهتمام الزائد الذى يضفيه على المرأة الأمريكية المراقبون الفرنسيون فى بداية القرن العشرين على حساب اليانكيه الذكر الذى لا يستنفرهم إلا قليلاً؛" فالمرأة الأمريكية فى أوروبا شعبية بقدر ما إن (الأمريكى) قليل الشعبية(١٤)، كما يعترف طواعية كرونييه دو فارينى واضعًا بذلك نزوات الموضة على اتفاق مع متطلبات علم المعرفة...

الواقع هو أن الأمريكية الرصينة لدى داياردبه، والغائبة لدى ماندا جرانسى، صارت فى أقل من جيل، فى المقام الأول فى الأوصاف وفى التحليلات الفرنسية. ربما أسهمت فى ذلك على الأقل بصورة غير مباشرة الحركة النسائية و"الحركات الانتخابية". من الصعب تأكيد ذلك؛ فمعظم النصوص الفرنسية قبل ١٩١٤ خارج الأدب النضالى، تتجاهل الموضوع كليًا. تذكر صحيفة ***Le Correspondant*** المهتمة عمومًا بالشأن الأمريكى بلهجة مرحة "حركة حكومة النساء" مؤكدة أنها تملك فى الولايات المتحدة "قاعدتها الميدانية الأهم. وفيها تتشاور هيئة أركانها، وتنظم كتائب الهجوم ضد التسلط الذكورى"(١٥)، لكن الصحافة الفرنسية فى مجموعها لا تتحدث عن ذلك إلا قليلاً، حتى ولو بطريقة ساخرة، ولا تفسح لها معظم الكتب المخصصة لأمريكا أى مكان. وينضاف إلى قلة اهتمام أو حماس الصحافيين الذكور المحتمل القناعة الثابتة بأن المرأة هى "السيدة الحقيقية للجمهورية الكبرى"، كما يكرر أوربان جوهييه **Urbain Gohier** بعد عشر سنوات من كرونييه دو فارينى(١٦).

إن أمريكا الشمالية هى حكومة نساء، هذا التأكيد ينطوى على قيمة العقيدة أو

المسلمة فى فرنسا منذ عام ١٨٩٠. إن سيادة المرأة الأمريكية إذن مزدوجة؛ فتفوقها فى "النمط" يتطابق منطقيًا مع السيادة التى اكتسبتها على الجنس الآخر. وبين الافتتان والخوف والاستنكار، يتكرر التعبير نفسه دون كلل: المرأة الأمريكية تحكم البلد كما تحكم بيتها، الرجل الأمريكى خادمها إن لم يكن عبدها. إن الزوج اليانكيه ليس سيداً فى بيته، وسعيد هو إن لم يعامل فيه معاملة سيئة! تلك التى كان فريديريك جاياردييه يسميها قديماً "الدوقة الجمهورية" انتقلت من المقعد الخفيض إلى العرش، وهى تحتله بوصفها مستبدة بدلاً من أن تحتله.

إن القدرة الكلية التى يضفيها الفرنسيون على النساء الأمريكيات لا تضحكهم، ولو كانت على حساب الأزواج. لم يعد الوقت وقت المزاح الساخر، ولا الدعابات الطريفة؛ فهذا العالم المقلوب لا يسعد مستكشفيه. إنهم يحاولون أن يطمئنوا، ويكررون لأنفسهم أن المرأة الفرنسية لا تريد هذه السيادة طالما ١) أنها لا تحب السيطرة، ٢) أنها تسيطر أصلاً - على الطريقة الفرنسية، دون أن تتفاخر بذلك، لكننا نشعر أنهم غير مقتنعين بما يقولون، وأنهم يخشون عدوى المثل. يترك كرونييه دو فارينى لقلقه أن يستبين من خلال المزاح، حين يقدم "السيدة" (بالإنجليزية فى النص) بوصفها أكثر الصادرات الأمريكية ضرراً: لا على ميزاننا الاقتصادى الذى توشك أن تجعله يختل فحسب، بل على الانسجام الفرنسى المرهف للعلاقات بين الجنسين. إن مؤلف كتاب ***المرأة فى الولايات المتحدة*** يعتقد جازمًا أن "السيدة، وهى غير السعيدة بسيطرتها هى أيضًا على العالم الجديد، فى طريقها لأمركة العالم القديم"(١٧). مزيداً من الجهد وستفرض هذه المُهيمنة بطبيعتها عندنا الحق فى المغازلة بدلاً من حقوق الإنسان والمواطن؛ لأن "امتياز الغزل هو أيضًا مقدس وغير قابل للتقادم فى الولايات المتحدة شأن المبادئ الخالدة لعام ١٧٨٩ لدينا"(١٨).

لم يكن كرونييه دو فارينى الوحيد الذى قلق من سلطة الأمريكيين ونزوعهم الطبيعى إلى المجىء لممارستها حتى فى أقطارنا. يستشهد جول هوريه الذى كان يطوف الولايات المتحدة لصالح صحيفة ***الفيجارو*** برسالة من السيدة فلورا تومبسون تدين فيها هذه الاشتراكية الشهيرة القادمة من عالم نيويورك الكبير الميلَ المؤسف للباريسيين نحو العرى النسائى. وتضيف مهددة: فلينتهزوا الفرصة مادام بوسعهم ذلك؛ لأن اليوم الذى "ستجد أمتنا الوقت [فيه] لكى تغزو أمتكم ولكى تصلحكم" قريب. هذا العبث التهديدى يثير لدى جول هوريه الأكثر رصانة فى العادة جوابًا ذا خطورة قاسية: "تريد السيدة فلورا تومبسون استعمار فرنسا - ودون شك أوروبا. إنها تكشف هنا دون حذر نوايا أشهر مواطنيها الإمبرياليين الذين لا يحلمون بجعل العالم القديم

مصرفًا لفائض إنتاجهم الصناعى فحسب، بل منتجعًا لقضاء الإجازات! والمقصود أن نعرف ما إن كانت أوروبا ستنجر إلى ذلك[١٩]." قطعًا لا، لا يفهم الفرنسيون هنا المزحة. فأن يتمكن المراسل الخاص للفيجارو من تحويل امرأة صالونات نيويوركية إلى فارسة محاربة *للنزعة اليانكية*، هو ذا ما يفصح بجلاء عن المكانة التى تحتلها الأمريكية فى خيال الفرنسيين فى بداية القرن العشرين.

فيما عدا الباحثين عن المهور، فإن الاهتمام الكبير الذى يوليه المراقبون الفرنسيون للمرأة الأمريكية تأويلى محض؛ فهى تفتن بوصفها لغزًا ـ لغز النزعة الأمريكانية ذاتها، وسيثبت بالتدريج بعد ذلك، وخلال فترة ما بين الحربين، وضعها الغزلى. أما الآن، فهى وإن كانت جميلة لا تفتن إلا قليلاً؛ فهى كشابة، تزعج بحرية طلعتها وتحيّر. وهى كمتزوجة تخيِّب بجديتها، لكنها تأسر الاهتمام بوصفها مشكلة مطروحة. وسيشبه حل معادلتها الدخولَ فى حميمية هذا "البلد اليانكيه" الذى لا يقدم الأمريكى إلا صورة ناقصة عنه. إن المرأة الأمريكية الأشد قوة والأكثر سرية فى آن واحد، والتى تركز فى نفسها فضائل ورذائل عرقها: الاستقلال الذاتى، والحيوية، والأنانية، وإرادة السيطرة، تستحوذ على كل مفاتيح أمريكا، لكن الرجل اللاتينى الذى سينالها منها لم يولد بعد.

إن الغنج الأنثوى ذاته يغير من معناه فى الولايات المتحدة. إنه ليس وعدًا بالسعادة للرجل على الإطلاق، بل مصدر ضروب جدية من سوء التفاهم؛ لأن "المرأة فى فرنسا مغناجة من أجل الرجل، وفى أمريكا من أجل نفسها" كما يسجل أوربان جوهييه بلا شفقة[٢٠]. والواقع أن الأمريكيات باردات، وعسيرات على المنال، وعسيرات على المسّ. يستحيل التأثير فيهن، ولا يفكر المرء فى إغرائهن. ويعثر نفس جول هوريه ثانية (بايجاز) على المرح والمسافة اللازمة لوصف الكبت اللاتينى أمام "الباستيل اللامبالى" الذى تجسده المرأة الأنجلو ساكسونية: "يثور اللاتينيون أمام الأمريكية، برودتها، سيطرتها الواضحة، واقعيتها الضيقة، حسابها المفكر لكل أفعالها [...] وليس هناك خيال يمكن جعله يضطرب، ولا فضول يمكن إثارته!" يا للاتينيين المساكين، ويا لجول هوريه المسكين؛ لكن الجملة الختامية مؤلمة: "إنكم تتخلون عن دوركم مع الحقد الأصم لكاذب رفع القناع عنه[٢١]." نمط فى النمط، إن أمريكية الشاطئ الشرقى، المرحلة العليا من الأنوثة اليانكية، هى أبو الهول الثلوج: "هناك نمط أمريكية الشاطئ الشرقى، فى أواسط عمرها، مع نظارات ذهبية، أتذكرها خصوصًا؛ لأننى قابلتها عدة مرات، شفتاها رقيقتان، ونظرتها باردة، ووجهها صارم القسمات[٢٢]." لقد تعرفنا فى هذه المسخية من إنجلترا الجديدة، كابوسَ الفرنسيين الكلاسيكى: التفاقم الأمريكى الطهرى

للإنجليزية المحتشمة "ذات الشفاه الدقيقة"، الشخصية المضادة للسيدة بتى...

تبدو الأمريكية فى بداية القرن العشرين فى وصف الفرنسيين ضخمة شأن أمريكا ذاتها وصارمة صرامة السياسة الخارجية للرئيس روزفلت، ومن ثم سرعان ما ينقلب الافتتان إلى سخط ثم إلى حنق. ينضم إلى "الكذابين الذين نزع القناع عنهم" المحققون خائبو الأمل؛ فالأمريكية لا تستجيب لا إلى غزل البعض ولا إلى توقعات البعض الآخر. إنها تستثير فى نهاية الأمر إذن عدائية تتناسب والسلطة التى تُسنَدُ إليها؛ فالدون جوانيون المطرودون يؤلفون جوقة مع الأخلاقيين المتذمرين، وكل هؤلاء الفرنسيين الساخطين يعزون لها ذات الفضائل التى تجعل منها تجسيداً مثاليا لعرقها. فإذا ما قلبت تصبح هذه القسمات المميزة ذاتها سلبية بصورة مزدوجة، مادامت الأمريكية، بوصفها امرأة ويانكيه، تهدد المراقب مرة أولى بوصفه رجلاً ومرة ثانية بوصفه فرنسياً. طاقتها تصير فظاظة، واستقلالها الذاتى أنانية وطفرة من الاستقلال، وذكاؤها العملى مادية فظة وعقلية حسابية.

وهكذا كثرت الصور الاتهامية للمرأة الأمريكية خلال سنوات ١٨٩٠ـ١٩٢٠. اعتبر بعضهم، مثل كرونييه دو فارينيى، الموضوع على قدر من الأهمية أو على قدر من "الوعد" يستحق معه كتاباً كاملاً. وفى سنة ١٨٩٣ نفسها التى ظهر فيها كتابه ***المرأة فى الولايات المتحدة***، وجد منافساً فى شخص إميل باربييه الذى نشر آنئذ كتابه ***رحلة فى بلاد الدولارات***، لم تُوفر فيه المرأة الأمريكية. يستعيد باربييه لازمة استخدام الذكور؛ فالنساء يعشن حياتهن على هواهن وأزواجهن يقادون كالنعاج. إنه يسخط من الاستبداد غير المحتمل الذى تمارسه هاتيك الزوجات اللواتى يفتقرن إلى الصفات المنزلية مثلما يفتقرن إلى الإرادة الزوجية. "ـ ولكن المرأة؟ ـ كدنا نقول: إنها، لنكن حذرين ومتواضعين ولنصحح: إنها تبدو لنا جاهلة ومدعية، عاجزة عن المحادثة، باردة حتى تكاد تثلجنا[...]؛ خرساء وفظة ومتزمتة. [...] هل لديهن صفات منزلية؟ أقل مما نتصور. إن المرأة الأمريكية هى الكسل مجسداً. إنها لا تملك حتى الشجاعة على رتق ثيابها، ولا على إعادة خياطة زرٍّ على بنطال زوجها[٢٣]." يتابع باربييه مطولاً وباللهجة ذاتها نقده "المتواضع" دون أن يستهلك موضوعاً سيعود إليه فى العام التالى فى كتاب من النوع نفسه، ***سيتير فى أمريكا*** ***Cythère en Amérique***.

من الممكن الاعتراض بأن الكسولة المدمنة الموصوفة من قبل باربييه تناقض الأسطورة السائدة عن المرأة المترجلة الحازمة اليانكية. لكن ليس الأمر كذلك. فهذا الإهمال تكتيكى وهذه البطالة حقودة. ليست امرأة البيت هذه لأى شخص، إنها تقوم

بالإضراب فى محل العمل. لا تنقصها الحيوية؛ لكنها ترفض ببساطة أن تضعها فى خدمة زوجها. إن "كسلها" المنزلى هو تأكيد إضافى لسيادتها. لا يمكن رتق السروال عندما نلبسه. ولإميل باربييه صيغة ليتيح فهم ألم الإنسان الأمريكى والظلم الذى وقع ضحيته. يقول: لقد تصرفت الأمريكيات على نحو صار معه "الرجل يعيش مع امرأته الشرعية على قدر المساواة نفسه الذى يعيش معه الفرنسى مع عشيقته"[٢٤] ـ وضع لا يثير فى الظاهر لدى باربييه أية فكرة فجور؛ فمقارنته ليست قضية دعارة، بل قضية بنية. يريد باربييه ببساطة القول إن الرجل يخسر على المستويين، مرغماً على "رعاية" امرأته دون التمتع بالمقابل بالحد الأدنى من الراحة التى يضفيها منزل يُدار بصورة جيدة. يالها من بلد منكودة الحظ على وجه اليقين، تدعى فيها النساء الفظات امتيازات قدورنا!

إن الاستغلال الوقح فى أمريكا للرجل من قبل المرأة، أو بالأحرى للزوج من قبل الزوجة، ثيمة عزيزة على الفرنسيين، بل إن عتاة محبى أمريكا لا يقاومون الحديث فيها. والشاهد على ذلك أندريه تارديو، العدو اللدود القادم لمعادى أمريكا الفرنسيين فيما بين الحربين، الذى يمدح فى عام ١٩٠٨ "كتابًا" لطيفًا" حمل "له الكثير من المعلومات الثمينة" عن الزوجين الأمريكيين، تتلخص هذه المعلومات بعد الجرد، بمعادلة جوهرية: "الزوج يشتغل، والمرأة تنفق"[٢٥]. والشاهد فيما بعد على ذلك أندريه موروا الأكثر عطفاً على وجه الاحتمال بين الرحالة الفرنسيين عند منعطف سنوات ١٩٣٠، الذى يستعيد لازمة الزوج الوفى و"دون كيشوتيته فى دفتر الشيكات"[٢٦]. ما الذى كان يمكن أن يضيفه واحد مثل جورج دوهاميل؟ إنه يكتفى بالتذكير على نحو معتدل فى أى عبودية يعيش الزوج الأمريكى، هذا الـ *good provider* الذى تنحصر وظيفته الزوجية فى تسديد الفواتير، والذى يجلس على المقعد الخلفى للسيارة التى تقودها زوجته "صامتًا بعمق" و"هو يدخن السيجارة كالمحكوم عليهم بالإعدام"[٢٧]... نعم، بالتأكيد، "تعيش المرأة المتزوجة الأمريكية فى الصوف" كما ستعترف بذلك لأندريه موروا إحدى مضيفاته فيما وراء الأطلسى[٢٨]، وسيعلق الفرنسيون: صوف يُجتَزُّ على ظهر الأزواج.

كان بول دو روزييه قد وصل عام ١٨٩٢ إلى الاستنتاجات نفسها، ويلاحظ محقق المتحف الاجتماعى أن الزوج الأمريكى " ضيف امرأته على الدوام ؛ فهى التى تحكم"[٢٩]. يبدو الزوج فى الولايات المتحدة شيئًا زائدًا. إنه فى بيته كعابر السبيل: أى من الممكن الاستغناء عنه أيضاً. أما فارينيى الذى احتفظ من تكوينه كاقتصادى ميله للأرقام، فلا يفوته أن يقدم رقماً كان هدفه فى عام ١٨٩٣ أن يذهل القراء: ٣٢٨٧١٦ ـ عدد حوادث الطلاق فى "عشرين سنة"[٣٠]... شلال من الأخطاء فى أمريكا يقود من

الامتيازات المتروكة دون حق للنساء إلى انحلال الزواج. إن قلب الأدوار يهيّئ لانفجار الأسرة، بانتظار انقلاب المجتمع.

لأنه إذا كان قلب الأدوار هذا صارخًا على وجه الخصوص لدى الزوجين الأمريكيين؛ فالاختلال يصير بالطبع عامًا، كما تشهد على ذلك شخصية إشكالية أخرى: شخصية الفتاة.

فحتى الحرب الكبرى، لم يكن للفتاة الأمريكية سمعة سيئة كبيرة فى فرنسا. كان يؤسف لـ"الغزل الطفيف فى الثانية عشر من العمر"، ولكن باسم الشعر لا باسم الأخلاق؛ إذ "ما الذى ستصيره ـ رعشة الحب اللذيذة ـ هذا ـ الخجل المحمر ـ اضطراب الأحاسيس ـ الذى تتحدث عنه الصور العريقة فى الآداب اللاتينية؟"(٣١). لا بد لنا من الاعتراف بأن سوء السيرة نادر؛ فمهما تمتعت الفتيات بحريات خارقة، فلا يبدو أنهن يقسنها، أو أنه يتوجب وضع هذه الحكمة الغريبة لصالح الصبيان المريب؟ يرتاب جول هوريه فى أن الغزل الشهير ليس الابتكار الحديث والشيطانى الذى يظن مواطنوه أنهم مهددون به، بل تفسيره الأمريكى، "التذكر من جديد لـ ـ كل شىء إلا هذا ـ للألفة الريفية والشعبية المسموح بها لدى الناس الذين ظلوا خشنين، والذين لا يصدمهم سوى الباقى"(٣٢). إن الغزل إجمالاً بدلاً من أن يكون منزلقًا نحو الضياع، سيكون مدرسة ***للرقابة الذاتية self-control***... بل يكاد يؤخذ على الشباب الأمريكى أنه إن لم يكن شديد العفاف فهو على الأقل شديد الاحتشام: يسخر أوربان جوهييه من الطلبة ومن الطالبات فى إفانستون Evanston الذين أسسوا ***رابطة معاداة القبل Anti-Kissing-League*** لتحريم القبلة التى ـ تثير القرف وتنشر الأمراض"(٣٣).

وباستثناء المربين، لا يهتم فرنسيو ما قبل ١٩١٤ هؤلاء بالفتاة بقدر ما يهتمون بالمرأة المتزوجة الأمريكية؛ فمبتدئات المجتمع الراقى، "براعم الورد" المكلفة جدا هذه التى يذكرها إدمون جوهانيه تنتمى إلى عالم متنوع ومغلق وغير واقعى فى آن واحد. تبقى كل الأخريات اللواتى يلقاهن الفرنسيون دومًا بنفس الدهشة: يُفاجأون أن تكون هذه اللقاءات فى الشارع وفى العمل مشروعة بل وعادية، ويُفاجأون أكثر أيضًا من الحياد الجنسى لهذه اللقاءات. يتساءل بول دو روزييه على هذا النحو بجدية تثير الإعجاب عن "فتيات الغرب" وعن عذريتهن؛ فهن يبدون له سواء أكن خادمات فى المقاهى أم فى المطاعم، يؤلفن "جنسًا لوحده" (الجنس الثالث، منذئذ؟)، "جنس بلا حرج، ولا إثارة، ودون لطف ودون خرق، ولا يستجيب لشىء معروف فى فرنسا". لا فتيات صغيرات ولا أمهات ولا عاهرات، "ربما لسن فاضلات، لكنهن يحتفظن جميعًا

بمظهر خارجى شريف"[٣٤]. حقًا، إن فى ذلك ما يفقد المرء عقله. إن فى ذلك ما يجعل هذا "اللاتينى" يضيع.

من الأفضل على كل حال أن يكون المرء حذرًا وأن يتجنب هذا "الجنس الخاص"؛ لأنه إذا كانت الفتاة الأمريكية تبدو قوية الخبرة فى السيطرة على انفعالاتها المحتملة؛ فهى مشهورة أيضًا بخبرتها فى اصطياد الرجال، وفيما سوى ذلك من الفخاخ التى تنصب للرجال الذين يعيشون وحدهم. كان فيكتوريان ساردو قد حمل إلى منصة المسرح فى العم سام الدسائس الرخيصة التى تقدر على القيام بها الآنسات اليانكيات لـ "القبض" على زوج ما: تصريح ملتهب مكتوب على دفتر حفلة راقصة، وقضى الأمر بالنسبة للعاشق الساذج. القانون إلى جانبه كما ينبه بول دو روزييه **Paul de Rousier** قرّاءه؛ "فالقوانين ضد الإغواء تحمى المرأة المشهورة بعفافها بفاعلية تصل إلى أنها تؤلف خطرًا يبتعد عنه الرجل المحظوظ الضال فى أمريكا[٣٥]". وقليل الخبرة أو الطائش لا يفلت من ثم من أحابيل الحيلة ومن صرامة القانون إلا ليستسلمَ للقوة المفتوحة. تلقى بول دو روزييه شخصيا بوح "شاب فرنسى من الغرب" أُرغم "على الزواج والمسدس مصوب على حنجرته من فتاة من سان لويس كانت قد أوقعته فى الفخ"[٣٦]. بعد نصف قرن يعلم سارتر قراء الفيجارو أن هناك دروسًا تعطى فى كلية نيويوركية حول الطريقة التى يتوجب على الفتاة أن تتصرف بموجبها لتتزوج من مغازلها"[٣٧] - دون اللجوء إلى السلاح النارى.

ومع ذلك هناك فتاة تتخلص بلباقة: ***كلية البنات college girl*** التى يكتشفها، فى بداية القرن، أوائل الجامعيين الفرنسيين الذين استجابوا لنداء الجامعات. لم يبق لانسون، الذى دعى فى إطار الاتفاقات المبكرة التى جمعت جامعة السوربون إلى جامعتى كولومبيا وهارفارد، فى الظاهر عديم الحساسية لسحر طالباته. وقد جعلنا ذلك نستحق صورة مدهشة لتلك التى يسميها لانسون الوقور بجرأة "***الفتاة girl الأمريكية***". ولكن اهتمامه - واللعنة على من يفكر بسوء! - يتجه إلى ***الفتاة girl*** بوصفها نمطًا. وكـ"نمط" عرق، بالطبع، لأن "الفتاة" وحدها فى نظر لانسون المحابى، هى التى تجسّد بطريقة مقنعة العرق الأمريكى، وتحفظ النمط الذى أسىء إليه من قبل الـ **melting pot**. فى مجتمع يظهر جامعًا لـ"كل الأعراق، ولكل الأنماط البشرية" - نحن هنا فى عام ١٩١٠ - ووحدها الفتاة التى تستجيب للمثل الأعلى المفقود لـ"نمط أمريكى". يدهش لانسون، "من المستحيل تعريف نمط يكون النمط الأمريكى. من وقت لآخر مع ذلك، فتاة ممشوقة، ذات عضلات وقسمات منتظمة، وذات وجه صاف، وشعر أشقر أو كستنائى، وعين زرقاء صافية، ونظرة ضاحكة وصريحة ومصممة، وحركات رشيقة وواثقة، لا شىء

فيها من الصلابة الإنجليزية، مزيج من القوة واللطف، سعة من الحياة الحرة، الغنية، الفرحة: هو ذا ما يبدو لى النمط الأمريكي *للفتاة "girl"*(٢٨)". هذه السطور المرتعشة المخصصة لتلميذاته الهيفاوات هى تحويلٌ جميلٌ لـ"صورة عرق" من قبل جوستاف لانسون الذى اعتمد على البحث الإتنوجرافى كى يرفع من شأن الأجساد الشابة اليانكية.

لكن انفعال لانسون لم يكن على هذا القدر من القبول. لحسن الحظ! لأنه لا شيء أرهب من الفتاة ذاتها وقد تركت بعد سنة أو سنتين فيما بعد لتغزو باريس، إذا ما كانت لسوء الحظ "جميلة كالشيطان". فى روايته التى تحمل عنوان *زائد عن الحدّ*، تُخرِجُ الآنسة زينائيد فلوريو، وهى مؤلفة غزيرة التأليف للشباب، دراما أسرة كاملة تسكن فى الأحياء الراقية، التى يهدد صفاءها فجأة مشروعات الزواج الجديد للأب من "أمريكية فى العشرين من عمرها، جميلة كالشيطان، وتملك ثروة فى الغابات، ودينًا خفيفًا، وميولاً تؤدى للإفلاس، ومظاهر امرأة مجنونة"(٣٩). فى هذه الأسرة ذات الخدم الرسميين؛ حيث تدور المحادثات تارة حول فرنسا اليهودية لدرومون وتارة حول مزايا ضروب عربات الخيول المختلفة، يصل مشروع الزواج مع الآنسة آرابيلا بلونت إلى حد الخيانة العظمى، لكن كل شيء جيد إذا انتهى جيداً: يريد الأب أن يتزوج من جديد، لا من الأمريكية التى ترتاب فيها بيئته، بل من فرنسية كاملة تشبه العذراء. غراميات متوحدة إذن هى غراميات لانسون فى جنة الحرم الجامعى الخضراء فى إنجلترا الجديدة، وعابرة أيضًا، حتى فى ضروب العزلة التامة هذه، تمارس الأزمنة الحديثة فتكها.

بعد عشر سنوات، فى سنة ١٩٢٠، يبدأ العصر الفيتزجرالدى الخاص بالنساء المتحررات(٤٠)، والشعر القصير والأفكار المجنونة ـ شديدة الجنون فى نظر الفرنسيين. تستثير الهيئة شديدة التحرر للفتاة الأمريكية آنئذ الاستنكار والرقابة؛ فهى تجسد دومًا "كمال النمط"، ولكن بوصفها مستبدة وأنانية ومتعجرفة ومؤذية لا سيما وأنها من الآن فصاعداً مرغوبة وتستخدِم بوقاحة حرية جنسية معلنة.

إن الفتاة اللطيفة فى روايات جيمس وفى ذكريات لانسون تتخلى عن مكانها للشابات المثيرات والأنانيات والثريات والشريرات والماجنات. تبين رواية من عام ١٩٢٨ بعنوان *أمريكيون فى بيتنا*، أية مياه مريبة جرت تحت الجسور. سنعود فيما بعد إلى هذه القصة المجازية التى تُستَعمَر خلال أحداثها أرض نورماندية من قبل مليونير أمريكي هو ناثانائيل بيردكول؛ لنقل فقط كلمة عن ابنته، ديانا الحيوية التى توازى على

نحو مثير للاهتمام وعلى مسافة ربع قرن أورورا بولتين لجوستاف لو روج - ابنة صاحب مليارات هى الأخرى، صلفة وإلى حد ما متحمسة، لكنها نبيلة فى الأعماق وقادرة على غراميات كورنيلية مع عدو أبيها. إن ديان الأمريكية فى عام ١٩٢٨، "غير المستقرة كالرغوة" خرجت من القالب ذاته: القالب الواسع للنمطية الروائية المعادية لأمريكا، لكن الأزمان تغيرت واللهجة قست. تفتن ديانا الراوى الفرنسى، وستقيده مادياً دون حرمان نفسها بسبب ذلك من علاقات أخرى أقل لمعاناً. تصير صورة الوارثة كطفلة مدللة صورة كاريكاتيرية ناشزة. ونزوات ديانا عبارة عن ممارسات لإخضاع الآخر بقدر ما هى استعراض للذات، كما هو الأمر فى هذا المشهد المثير للفضول، حيث أسعدها أنها صدمت رفيقها؛ إذ قصت عليه أنها ذات يوم وهى على الحصان قد"بالت دون أن تنزل عن السرج"، وهى "تكرر، وتصرخ، وتصيح: - سأبول، سأبول، سأبول..." لتردد صدى صرخاتها كل أرجاء الريف.

"كيف يمكن لفتاة من أمريكا أن تنزعج كى ما تتحدث أو تفعل هذه الأشياء الطبيعية البسيطة؟" لا يوهم هذا التعليق الشرير بعذوبة للراوى القاسى؛ فتحت التبرير "الثقافى" المقنع تنكشف القناعة بخصومة مطلقة لمواجهة أو بالأحرى لتصادم جسدى بين عرقين متضاربين. مشهد آخر فى الذروة يَعرض بصورة أكثر وضوحاً وبضرب من الرصانة الطبية هذا التمزق الأنتروبولوجى. مشهد جلسة سكر - لما كان الأمريكان لا يعرفون الاحتفالات فإنهم يسكرون - يشوبه فجأة خطوط فاحشة وثاقبة : "تنهض الآنسة ديانا، وترفع تنوراتها القصيرة نحو وجهها. ترقص بسراويلها البيضاء أشد الخطوات رداءة. يكشر السروال [الأزرق] ويتثاءب، ألمح الشعر الكثيف، والبطن المسطح والفرج، وأمتع نظرى دون فرح(٤١)." غوص غريب فى قلب ظلمات الأنوثة الأمريكية، حيث لا ينقص حتى الأثر الذى لا غنى عنه للاستيهام، "الخطوات الرديئة" التى تحرك الجسم الباهت لديانا البيضاء. ما العنصرية إن لم تكن كراهية جسم الآخر مردوداً إلى انتمائه القومى؟ لقد تم دون أى شك اجتياز العتبة لدى راؤول جين **Raoul Gain**.

تتفق الخاتمة مع جو القسوة السادى الذى يغرق فيه الراوى؛ إذ لما جرح بدناءة على يدى منافسه الذى شطبه فى أنفه بصورة قضيبية عنيفة، فسوف يُهجَرُ من قبل الأمريكية القرفة. "لا أريد أبداً هذا الصبى !" هكذا تنتهى رواية ساخرة ترك فيها الفرنسى المتأمرك شرفه وأنفه. وهكذا يتجمع فى السنوات المجنونة الكاريكاتير المعادى للنساء لامرأة أمريكية تجتمع فيها كل عاهات جنسها وكل سوقيات ثقافة متبلة بشهوات قاضية، الآنسة ديانا، ***ultima Pandora***...

يترجم هذا الوابل من القوالب السلبية بالطبع رد فعل أناس يقلقهم إعادة توزيع جديدة وغير مرغوب فيها للأدوار وللسلطات بين الجنسين، وسواء أكانت هذه الأوصاف ساخطة أم مستسلمة، فإنها لا تتعارض من ثم مع الاعتراف بـ"تحسين" الشرط الأنثوى، ولا يتركنا جول هوريه نسلم بلا اقتناع، أنه "يخرج من هذه الحالة [الجديدة فى العلاقات بين الجنسين] ارتقاء عام للمرأة"(٤٢)، وعلى أنهنّ نادرات فى تقديم شهاداتهن، فإن النساء الفرنسيات شأن مارى ديجار يناهضن خرافة سيطرة المرأة فى أمريكا؛ فهن يستعرضن ويفندن بعناية الامتيازات التى يتمتعن بها هناك بالمقارنة مع الوضع الأوروبى، ولكن ذلك غالبًا من أجل الختام بطريقة غامضة: تتساءل فى الختام مارى دوجار، هل من المؤكد أن هذه "الامتيازات" تعوض المضايقات المرتبطة بهذا "الشكل البدائى والأدنى من الوجود" الذى يتمثل فى الحياة الشاقة والحسابية لأمريكا بصورة عامة(٤٣)؟ بحيث إن البصيرة المرتابة لهذه المراقبة المثقفة والأكثر اطلاعًا من أن تخدع بالخرافة الفرنسية حول حكومة النساء الأمريكية، تنضم مع ذلك إلى اللوحات الفاجعة والاستيهامية المرسومة من قبل مواطنيها الذكور؛ فهؤلاء يحكمون على أمريكا بأنها عديمة الرحمة بالنسبة للرجال، وللأزواج، وللاتينيين؛ على أن مارى دوجار ليست متأكدة فيما يخصّها من أن النساء يجدن فيها ما يكفى من الامتيازات كى ما يُوصى لهن بالإقامة فيها.

أسنان أمريكا

لا تعيش المرأة الأمريكية فى راحة كاملة، وليس من الصالح مقاومتها، ولا الخضوع إليها على كل حال؛ فالأزواج الأمريكيون يعرفون الأمر، أما العشاق فهم ممنوعون بالقانون. سيقص الشاعر والروائى لوك دورتان فى ما بين الحربين، انحطاط شاب كاليفورنى عفيف ومجتهد، افتتن من قبل عابرة سبيل بصيرة بالرجال وهُجر منها. ولما أضلته هذه المغامرة لليلة واحدة عن الوجهة، والتى لا يستطيع أن يتصور نهاية أخرى لها سوى الزواج، ولما كان قد فقد رشده باختفاء الفتاة فى خاتمة إجازة نهاية الأسبوع، فإن الشاب الناجح *successful young man* بالأمس، بات حطامًا يسير على غير هدى، يمهر قدره العبثى فى سينما؛ حيث يضع دون عمد أو رغبة يده على ركبة امرأة مجهولة، بشعة فوق ذلك، فضيحة، وبداية اقتصاص عرفى، ودعوى، وسجن وسقوط فى البؤس. وسنجد فى مشهد أخير المنبوذ، وقد صار مالك عربات قلابة فى منشأة زراعية. هذه الحبكة التى يمكن الظن بأنها مستوحاة من أضرار السياسة

السليمة تعود مع ذلك إلى سنوات ١٩٢٠، شأن حكاية مجون الآنسة ديانا. عنوانها: "*جريمة فى سان فرانسيسكو*"، غامض بصورة مقصودة، لكن كل شيء يحمل القارئ على استنتاج أن الجريمة الحقيقية ليست الملامسة العابرة، المشئومة للمختل، بل الإرهاب الذى يجعل النظام الجنسى الأمريكى يسود[٤٤].

لا يشارك الرجل الأمريكى إذن فى العيد؛ ذلك معروف فى فرنسا منذ نهاية القرن التاسع عشر. والبيت فى نظره مكان تثبيت، يعانى فيه مستسلمًا آلامًا مبرحةً. لحسن الحظ أنه مرغوب قليلاً فيه، وتختزل مشاغله التى تحتجزه طويلاً فى العمل آلامه. هل هو من ثم برىء براءة تامة؟ فى نهاية القرن التاسع عشر، اقترح أكثر من رحالة فرنسى أنه يستحق كل مصيبته أو على الأقل أنه يتحمل جزءًا من المسئولية بسبب مختلف ضروب التقصير فى الوضع الراهن الذى كرس الطغيان المنزلى للزوجات. ويصل ذلك إلى حدّ اتهام قلة نزعته الغريزية نحو النساء؛ فعن سؤال: "هل الأمريكى زوج طيب؟" يجيب جول هوريه بهذا المثل المرهف: "يقول رجل ما: أحب القراءة، وهو يقرأ كتابين أو ثلاثة كتب فى السنة. هل يسعنا الظن هنا بحب حقيقى؟ لا، ومع ذلك فهو يعتقد ذلك، وهو مخلص فى اعتقاده[٤٥]".

لا يستثير هذا الوضع لدى الفرنسيين الذين يصفونه شفقة كبيرة، ولا تعاطفًا ما؛ لأن الرجل نفسه، بوصفه زوجًا مطيعًا وممسوحًا، عبدٌ منزلى محروم فى بيته من المسرات الجنسية و/أو الذواقية التى يمكن لها أن تبرر الزواج، هذا الرجل يصير من جديد ما إن يجتاز عتبة داره نشالاً رهيبًا: *vir americanus horribilis* يجب الحذر دومًا من الرجال الذين يتراجعون خوفًا، فاليانكيه المقهور فى حياته الزوجية يبقى هرقلَ مرعبًا لا سيما وأنه يستطيع أن يفجِّرَ على حساب العالم الخارجى طاقة لم تستعمل إلا قليلاً فى حياته الخاصة. رجل ممسوح وخجول، لا يكاد يُعرف فى حياته المنزلية، لكنه ما إن يصير فى الخارج حتى يغدو وحشًا كبيرًا، يُعرف من أول نظرة.

"سأتعرف، على حدود العالم، النمط الأمريكى[٤٦] "هذا العالِمُ الفطن بالفراسة ليس شخصية من شخصيات مؤامرة أصحاب الملايين، بل الحقيقى جدا جول هوريه، الذى طاف أمريكا فى عام ١٩٠٤، وبأى علامة مادية وبأى سمة سيتعرف صحفيّنا على "النمط الأمريكى"؟ من خلال فكيه بكل بساطة.

نزل الوحى على مبعوث الفيجارو خلال رحلة بالقطار أو بالأحرى فى باص كبير فخم، بفضل هذه الحميمية الإجبارية استطاع مفاجأة النمط فى حالته الخام، وأن يدرك طبيعة اليانكيه المقتلعة من النوم بكل صفائها. يجب معرفة ذلك؛ ففى الصباح الباكر

وفى دهاليز عربات النوم إنما يقدم علم الجمجمة أفضل نتائجه، هناك يكشف الذكور اليانكيون نصف النائمين لليقظة الفرنسية "الإرادة المباشرة والعنيدة المكتوبة فى رءوسهم العظمية". إن إشراقة الفراسة التى استولت على جول هوريه تقلب هذا المشهد العادى من الاستيقاظ فى قطارات السكك الحديدية إلى ظاهرة كبرى للعرق: " كان يتكثف التعبير الأصلى، والسمات المميزة للعرق فى العين القاسية، وفى الذقن والفكين العنيدين،" آنئذ، وفى عريها الصريح إنما تقدم السحنة الأمريكية سرّها. أما بعد ذلك بعد ذلك فسيفوت الوقت؛ إذ إنّ التزين سيستر فظاظة الخطوط، ومن الممكن الشك فوق ذلك فى أن الأمريكيين يكثرون من الاغتسال لأسباب لا علاقة لها بالنظافة بل لمجرد التستير. "كان ماء الاغتسال البارد[...] يمحو بسرعة هذه العلامات الشديدة الوضوح للطاقة القومية، لكن الرؤية القومية تستمر طوال اليوم، ومنذئذ أبقى مسكونًا بطابع هذه الذقون وهذه الفكاك[47]".

فكّان مخيفان إذن، وحدهما القادران على مهاجمة "قطعة اللحم الأمريكية"، "أشد الأشياء التى عهد بمضغها كائنٌ من الفقريات إلى فكيه مقاومةً"[48]. فكّان مقلقان على نحو مدهش، لن يقصر كاتب مسلسلات بالفطرة شأن لو روج فى استغلال رمزيتهما فى الوقت نفسه. يجرى المشهد هنا أيضًا فى حافلة فخمة، ويعقب مباشرة ذكر الهنود المطرودين من السهول الكبرى. "أهمل ضابط الميليشيا السابق الآنسة الشابة، ولم يعد يفكر إلا فى أن يهاجم بضراوة اللحم بالبطاطس، الطبق الأساسى الحتمى على كل مائدة أمريكية، "لكن اللحم لن يقاوم مطولاً أسنان الضابط الرهيبة وأسنان جارته، السيدة بوتمان، التى يعطى فمها "فكرة عن صف من النصب الحجرية البريتانية تحركها مطرقة آلية[49]! لا يمنع كل هذا الانهماك اليانكيين من أن يتابعوا أمام الفرنسى الرواقى محادثة تبجحية يزعمون بين لقمتين عزمهم الحاسم على أن "يصيروا سادة العالم"... سواء أكانت هذه الفكاك عظيمة أم مضحكة فإن على كل حال مفرطة، على صورة شهوات القوة الأمريكية. إنها تكشف شطط ***hubris*** العرق، وهى مقره وأداته. واليانكيون من ثم يعرفون ذلك، ويعتنون فى رعاية قوتها بتمارين مستمرة، ويتوصل جول هوريه من كشف إلى آخر، إلى حل لغز العلكة، هذا الهوى القومى العسير على التفسير الذى يحير الرحالة جميعًا. ولبول دو روزييه حول الموضوع نظريته الخاصة؛ إذ لما كان الأمريكيون قد تخلوا عن مضغ التبغ فقد تبنوا بديلاً عنه علك الصمغ الحلو، كان يرى فى ذلك جهدًا فى النظافة محمودًا لا سيما وأنه يسند من جهة أخرى عقم النساء الأمريكيات إلى "تأثير الطقس والإفراط فى مضغ التبغ"[50]، ولكن دون أن يتكتم على النتائج الجمالية لجهد الحضارة هذا؛ لأن "أى شخصية جميلة لن

تقاوم هذه الدمامة"(٥١). سوى أن تفسير هوريه الموعود بمستقبل باهر مختلف تماماً. يؤكد هوريه: إذا كان الأمريكي يعلك، فلكي "يقوى فكيه"، وبما أنه لا يستطيع "التخلي عن الحركة"، فقد تصور تحريك فكه الأسفل "في الأماكن العامة التي يرغم فيها على البقاء بلا حركة"(٥٢). ترضي العلكة لديه إذن غريزتين في آن معاً: كرهه للبطالة وهمّه في تحسين قدراته الالتهامية.

هكذا ولدت أسطورة صغيرة، وبعد خمسين عاماً من ذلك، كانت لا تزال في صحة جيدة واستعادها كتاب ساخر في عام ١٩٥٣ بين الهزل والجد. يخرج الرحالة جيروم، وهو ضرب من هورون فرنسي(*) مفعم بالحماس، وتثير إعجابه في شيكاغو ناطحة سحاب رائعة من الخزف الأبيض، هي مبنى شيكليت: **Chicklett Bulding** أعلمني تشيربك [دليله الأمريكي] أنه كان مكرساً لهذا الضرب من الصمغ المعطر الذي يمضغه الأمريكيون للتدرب على الإرادة بتقوية الفكين. يقول لي تشيربك، إن الفكين كما تعلم هما مكان القرارت الحازمة؛ فحين نضغط على أسناننا إنما نريد الأفضل. إن علكة الصمغ لها فضل كبير في التفوق الذي اكتسبناه على الشعوب الأخرى(٥٣)".

إن تفوق أنجلو ساكسون أمريكا مبرهن عليه بأسنانهم: هو ذا ما لم يفكر فيه إدمون دومولان في عام ١٨٩٧! فقد كان قد توقع أن لهذا التفوق مقره المعنوي من جهة الأسنان - هذه الأسنان التي يعرف الإنجليز الضغط عليها أكثر من أي شعب آخر. هذه الميزة البريطانية بامتياز: العناد، الذي مدّه دومولان إلى ابن العم في أمريكا، لكن اليانكيه ليس عنيداً فحسب، بل هو نَهِم. إنه يعرف كالإنجليزي أن يتمسك (بالأرض خاصة، من خلال صور المُستَعمِر *settier* ومربي الغنم *squatter*)، لكنه أيضاً رجل يمضي للحصول على ما يرغب فيه. على استعداد دائماً للأكل، هذا التمهيد للالتهام: ذلك هو اليانكيه ذو الفكين المدربين تدريباً مفرطاً بفضل العلكة، سلاح شهوته السري إلى القوة، وشأن السأم البودليري، فإن أمريكا الفكين يمكن أن تبلع العالم: لا بفعل تثاؤب مع ذلك بل بضربة أسنان قوية.

وسواء أكانا في أوج المضغ أم في وضع الراحة، لا يكف فكا أمريكا على كل حال عن الإشارة إلى الأمريكي في الرسوم وفي الكاريكاتير، ولا عن التذكير - حتى في الصور اللطيفة - بخلفية من الضراوة أومن الاستعلاء، ولن ينسى دوهاميل، بالطبع، أن يضفي على "الناس الذين يدفعونك في شوارع نيويورك أو شيكاغو" بصورة

(*) هورون : أحد أفراد قبائل الهورون من الهنود في أمريكا الشمالية.

جماعية اسم: " فكّى وحش يصيد"(٥٤). وبصورة منطقية جداً سيمنحُ الرؤساء الأمريكيون ـ بما فى ذلك رؤساء قليلو العجرفة شأن ويلسون و فرنكلين دولانو روزفلت ـ على نحو شعائرى من قبل المراقبين الفرنسيين اسمَ الفكين البارزين، كرمز مزدوج لـ"عرقهم" والتهمة اللاصقة بهم، وسنرى موروا يبحث عن "الفكين القويين" للمرحوم الرئيس ويلسون تحت ظلال برنستون. والأكثر فضولاً هى الصورة التى يرسمها جان بول سارتر عن فرنكلين دولانو روزفلت بعد المحادثة التى أعطاها الرئيس للمدعوين الفرنسيين من مكتب الإعلام الحربى ***Office of War Information*** فى ١٠ مارس ١٩٤٥: "شىء ما منفتح ومعدٍ يختلط بصورة غريبة مع خشونة ضارية فى الفكين"(٥٥)، لكن الأكثر خداعًا وسخرية هو بلا شك كوكتو، الذى ينصح الأمريكيين تغيير أسنانهم، وهو تغيير ليس على يقين من أنهم قادرون عليه: "للعقل أسنان صلبة"، يذكرهم الشاعر فى رسالة إلى الأمريكيين فى عام ١٩٤٩: "امضغوا الأشياء مع هذه الأسنان الصلبة"(٥٦).

ما هى فى الأساس "نظرية تشيريك" المعروضة بوقار على فرنسى دهش أمام بهاء مبنى شيكليت إن لم تكن معارضة طريفة لـ"صور عرق" على الطريقة الفرنسية، وذلك على النحو الذى استمرت عليه منذ بداية القرن العشرين، رغم الأيديولوجيات العرقية التى ولدتها؟ والشىء فى المجموع الغنى للقصص الهجائية الفرنسية أندر من ألا يشار إليه؛ فبينما يمارس مرحه على أمريكا نفسها، يسخر مؤلف ***رحلة جيروم فى أمريكا*** من قوالبنا الأمريكية وآلية هذه القوالب ذاتها.

الوقوف فوق الخصومات

نرى على نحو أفضل ما الذى كانه "تجسيد اليانكيه" فى بداية القرن، بل وأفضل من ذلك أيضًا لماذا كان على الخطاب المعادى لأمريكا أن يبتعد عن الصيغة التى يقترحها له دومولان بعد أن استأثر بالأسطورة الأنجلو ساكسونية؟ وغرابة دومولان أنه عرض تحت غطاء إتنى أطروحة ثقافية أصلاً. لم يكن الجسم يهمه؛ فالأنجلو ساكسونية هى فى نظره شىء عقلى يكتسب، بما أن بالإمكان تعلمها. أما بالنسبة للخطاب المعادى لأمريكا، فالجسم اليانكى موجود بوصفه مكان اختلاف أصلى (بما فى ذلك بالنسبة للإنجليز). يؤكد جول هوريه: "سأتعرفه فى كل مكان". لا من خلال الحركة، ولا الثياب، ولا اللغة، بل من خلال السحنة. صرخت بعد ثلاثين عامًا من ذلك شخصية فى رواية راؤول جين أمام غرقى يخت مجهول فى الليل ـ تلك سحن من أمريكا!"(٥٧). يكشف

هذا اليقين الخاص بإمكان التعرف الجسدى عن وجود سياسة غامضة للجسد فى أصول الخطاب المعادى لأمريكا ذاتها.

قلنا فى الفصل السابق أىَّ حَوَلٍ يشوب تحليل دومولان؟ يجب أن نشير أيضًا إلى أى انحراف يحبس نفسه فيه؟ انحراف تاريخى فيما يخص التهديد الأساسى: ليس أن بريطانيا العظمى هى فى طريقها لتصير حليفتنا فحسب، بل هى فى طريقها لأن تُتَجاوز على كل الأصعدة الاقتصادية تقريبًا من قبل الولايات المتحدة، يغدو الفهد البريطانى حيوانًا لطيفًا، بالمقارنة مع أمريكا الجديدة ذات الأسنان الطويلة. وانحراف معرفى، خاصة، بما أن برهنة ما ترسخت فى ما هو فطرى تُختتم بمفردات التربية. ينصح دومولان: " يجب ألا يجعل المرء أولاده يتبعون النظام الألمانى، بل النظام الأنجلو ساكسونى إن شئنا ألا يسحقوا بوصفهم مجرد هنود الغرب البعيد"(٥٨). وبالإضافة إلى أن المقارنة مع الهنود تكشف مرة أخرى عن الهاجس الأمريكى تحت ثيمة الأنجلو ساكسون فإن اللجوء إلى مجاز النظام للإشارة إلى التربية الأنجلو ساكسونية التى يجب أن تعطى للشباب الفرنسى لا يفعل إلا الإشارة إلى اضطراب فكر متورط بالإطار العرقى الذى حبس نفسه فيه. يؤكد دومولان أيضًا: يجب "تكوين الرجال" على "النضال من أجل الحياة"(٥٩)؛ فتلك "مسألة حياة أو موت(٦٠)..." ولكن هل يمكن للمرء أن يتعلم كيف يصير أنجلو ساكسون؟ أى "نظام" حتى ولو كان لحميًا سيحولنا إلى وحوش هائلة فى الصناعة والبنك والتجارة؟ أو حتى بصورة أبسط إلى لاعبى كرة قدم؟ يعارض المعادون لأمريكا هذه اليوتوبيا التربوية بتنافر الطبائع المكتوب فى كثافة الأجسام، ومن هنا الأهمية المكرسة للرياضة فى أوصافهم.

هذا الاهتمام جديد، لا شك أنه استثير بفعل المناقشة التى بدأت فى فرنسا حول إدخال "التربية البدنية" والحض على ضروب الرياضة الجماعية فى التعليم. وسيتوجب انتظار سنوات ١٩٢٠ـ١٩٣٠ مع ذلك لكى يستخلص مؤلفون من أمثال دوهاميل حجة من الأشياء المرئية فى أمريكا ليجادلوا ضد "مهزلة الرياضة هذه التى تخدع وتفتن بها كل شباب العالم"(٦١). وأول الرحالة الذين أثبتوا على دفاترهم الشعائر الغريبة للملاعب الأمريكية لم يفعلوا ذلك ضمن هذه العقلية؛ فلا يزالون يعتقدون أن فرنسا محصنة ضد ذلك، وبدلاً من أن يروا فى الرياضة على الطريقة الأمريكية نموذجًا، حتى وإن كان موضع نقاش، لمستقبل مؤسساتنا التعليمية، فإنهم يذكرونها بوصفها ظاهرة أمريكية فى جوهرها، ذات غرابة جذرية لا يمكن تفسيرها. كل شىء يبدو لهم معتمًا فى هذه الألعاب ـ بدءًا من قواعدها. إذا كان وصف المباراة قد صار موضوعًا إلزاميًا فى حكاية الرحلة فى نهاية سنوات القرن التاسع عشر، فإنها لم تكن تعلم شيئًا للقارئ الفرنسى.

كل المؤلفين – دون استثناء – يعترفون أنهم لم يفهموا شيئًا فى "المباريات" التى يصفونها؛ فلعبة البيسبول ـ أو كرة القاعدة ـ غامضة أشد الغموض. يرى بول دو روزييه أنها ذات "علاقة ما مع لعبة الكركت الإنجليزية"(٦٢). أما جول هوريه فهو قادر على التأكيد أننا أمام "لعبة كرة"، لكن كل جهوده بعد ذلك تخفق: "إنها شديدة التعقيد، ولم أفهم منها إلا ما يلى: فريقان وكرة قاسية تقذف فى الهواء بواسطة عصا تحمل باليدين(٦٣)". ولهذا يقتصر حديثهم على التفسير، لا بل إن دوهاميل يصرح برضى لا يخفيه (بمناسبة "كرة القدم" هذه المرة) عدم اختصاصه الفاضل: "لا أعرف لعبة الكرة هذه، مع أنها شهيرة فى الأرض كلها(٦٤)".

إن الموضوع الحقيقى لهذه الأمور المتطرق إليها ليس التعريف بهذه الألعاب، بل عرض الأجسام والجماهير اليانكية فى أشد استعراضاتها الجماعية وحشية. إذا كانت كرة القدم تثبت أكثر من البيسبول الأنظار، فذلك بوصفها صورة لعنف محايث لـ"تقاليد العرق". وقبل أن يكرس لها دوهاميل بزمن طويل فصلاً كاملاً فى كتابه ***مشاهد من الحياة القادمة***، كانت كرة القدم شديدة الشهرة. لا لأن الرحالة الفرنسيين كانوا يفهمون ألغازها أكثر من البيسبول، بل لأنها تمنح على نحو أشد فظاظة الكشف المنشود. "إنها تسلية ضارية تقريباً" كما كتب بول بورجيه فى عام ١٨٩٥، "لعبة رهيبة". وكمسجلة للحضارة، وفى الوقت نفسه لسمات العرق، فإن كرة القدم "يمكن أن تكفى وحدها لقياس الاختلاف الذى يفصل العالم الأنجلو ساكسونى عن العالم اللاتينى"(٦٥). لا يمكن للفرنسى أن يتقنها دون أن يعبر حدود الأنواع. ويزايد جول هوريه: إننا لسنا بعيدين عن تعلمها وممارستها فحسب، بل لا نستطيع دون تخل جذرى عن طبيعتنا أن نكون مجرد مشاهدين لها؛ فليس فى طبيعتنا أن نصرخ "اقتله Kill him" و"إكسر له رقبته Break his neck" شأن الشاب الممتاز من كل ناحية الذى فتن هوريه خلال المباراة بين هارفارد ويال: "كان شاباً بين التاسعة عشرة والعشرين من عمره، أسمر، بلا لحية، لائق، وكانت عيناه تلمعان بلهب حاد بين جفنيه المقطبين، وكانت أسنانه مضغوطة، وفكاه تنضحان أكثر(٦٦)." لا، لا نملك على وجه اليقين نفس الفكين، ولا نفس الانفعالات، ولا نريد ذلك ولو لقاء ذهب العالم كله. هذا ما يؤدى إلى أننا لن نلعب كرة القدم، لا لأننا "مثقفين حانقين، بخلاء فى استخدام عضلاتهم، أو كسالى أو خجولين"، كما سيلح فيما بعد دوهاميل فى فصل يجمعُ ببراعةٍ أوصافَ أسلافه، بل لأن كرة القدم الأمريكية تحمل إلى أقصى مداها "مهزلة الرياضة" والتضليل البشرى لهذه "المباريات" التى "تصير عنيفة وخطرة" و"تشبه الاعتداءات أكثر مما تشبه ضروب التسلية".

ما تكشف عنه كرة القدم؟ المظهر الخارجى المميز لعرق نهاب. (سيقول دوهاميل،

إن الفريق هو "سرب من كلاب الصيد يترصد فريسته"). ما تهدده؟ لا أقل من الحضارة. هنا أيضاً يصدر دوهاميل من جديد أحكاماً كان قد أصدرها من هم أسبق منه: "لعبة يصدر عنها مثل هذا السعار من النضال الضارى لا يمكن أن تكون صالحة للحضارة[٦٧]".

بهذا المعنى فإن ذكر كرة القدم الأمريكية المذعور ليس أكثر افتقاراً للقيمة من العودة التى لا تكلّ إلى مجازر شيكاغو بقلم الرحالة وبقلم حتى الذين لم يسافروا. فيه تتركز مختلف ضروب المقاومة الثقافية: ضد عنف اللعبة ذاتها، ضد غريزة تجمع الجماهير، ضد هستريا الجماهير- هذه "الحمى اللاهبة"[٦٨] التى يشير إليها أوربان جوهييه بوصفها أمريكية بصورة نمطية - ضد انقسام الأنصار ***supporters*** إلى قبائل، ضد الفقر الثقافى للصيحات وللموسيقى وللرقص، ضد السفالة الأخلاقية للمشاهد التى تقوم بها الفتيات الطبالات ***cheerleader***، كلية البنات هذه التى صارت سحاقية: مكبر الصوت فى قبضة اليد والتنورة فى الهواء، إنها تصيح، إنها تهيج، وتقوم غاضبة برقصة بطن شأن عاهرات الموانئ المتوسطية[٦٩]". إن المشهد المخيف لهذه "المشاجرات" المنظمة فى شعائر يكتسب أهمية فى المحاججة المعادية لأمريكا لا سيما وأنها تجرى بين طلبة من أفضل الطبقات المجتمع. إن دهشة المراقبين الفرنسيين تتضخم بشعور من عدم اللياقة الاجتماعية: إنهم الشباب المهذبون الذين يصيحون كراهيتهم للخصم وللفتيات الطبالات اللواتى يتخلعن كالعاهرات و"يتباهين بأكثر الأسماء الشريفة فى كل البلاد". أن يكون مسرح طقوس العربدة العنيفة والمبتذلة هذه أرقى ميادين الثقافة والمعرفة ينهى نزع الصفة عن كل فكرة "درس" أمريكى. يقول جول هوريه، فى الصفحات ذاتها التى يصف فيها غرابة المباراة المطلقة ووحشيتها بين هارفارد ويال: "لا أعتقد مسبقاً أن أوروبا تحتاج إلى أى شىء تتعلمه من المربين الأمريكيين"[٧٠].

بعد علامة الحنك، هل البرهان بواسطة كرة القدم؟ نعم؛ لأن هذه الكرة التى تفتن الفرنسيين أكثر من مجرد رياضة، إنها نموذج، مثلما أن داء العظمة تشخيص. وعندما يريد جول هوريه أن يعطى فكرة عن "العنف المثير للسخط" الذى يطبع السلوك العادى (الطريقة النيويوركية فى الهجوم على الترامواى مثلاً)، يعود بالطبع إلى هذه الصورة: "إنه عنيف وموجز ككرة القدم"[٧١]... فيما وراء كل الأسباب العملية كى لا نتبع المدرسة الأنجلو ساكسونية بالمعنى الحقيقى للكلمة، هناك هذا السبب الذى يجب أن يردعنا عن اتباعها بالمعنى المجازى: ليس لهم الجسد الذى لنا، وليسوا مفصلين بنفس القماش. لا يتكلم جول هوريه عن التعليم المبثوث فى هذه الجامعات - لا يبدو أنه اهتم به كثيراً، بل

عن التنافر الساطع الذى يلاحظه بين "الطبائع". حين يلجأ هوريه بعد يومه المرهق الذى قضاه فى الملعب إلى مكتبة بوسطن، يعانى "إحساسًا بطارئ خارق: إحساس الأمريكيين الذين لا يتحركون"، ويشعر "بالرغبة فى أن يسألهم إن كانوا فعلاً أمريكيين"(٧٢).

إن استحالة التعلم هى فى آن واحد قدر ورفض؛ فالثيمتان تتصالبان باستمرار فى قصص الرحالة، بمناسبة سمات السلوك المنضبط هذه مثلاً والمقدمة على التناوب بوصفها متنافرة مع المزاج اللاتينى(أوالغالى) وغير مقبولة من قبل العقول الحرة والفخورة بـ"شخصيتها". إن "الإرادة" الأمريكية الشهيرة لا تُعَلَّم. إنها من ثم غريزة أكثر منها ملكة روحية. إنه حب التنقل الضرورى (وعما قريب الإمبريالى) هذا الذى كان يدهش فيلاريت شاسل فى عام ١٨٥١ بوصفه سمة مميزة لأنجلو ساكسون أمريكا: كلمته "إلى الأمام دومًا"، وكلمته "*go-aheadism*(٧٣)". إنها "الحياة المضطرمة"، الـ *strenuous life* لتيدى روزفلت. إنها بديهية، وتسرى فى الأوردة: إن التاريخ الرائد لأمريكا، وشروط حياة أوائل السكان لم تفعل إلا أن فاقمت من الاستعدادات التى قادتهم إلى هنا، أن تملك أو لا تملك: اللازمة إجماعية تقريبًا. ينضاف إليها دور أن تملك هذه الإرادة، العنيدة والشرسة، يعنى أن تملك أيضًا كل ما يميز اليانكيه: "الحب المفرط للمضاربة، وكراهية المنافسة، وادعاء السيطرة التجارية العالمية"(٧٤)؛ "الخديعة والمكر"(٧٥)... إلخ. إن فرنسيًا متأمركًا سيصير وحشًا إن لم يكن خرافة. بعض الرحالة شعروا بالخوف العظيم. لقد استولى على جول هوريه فى أمريكا – منذ ثلاث صفحات – الهلع: "هل إن قوة امتصاص هذا البلد هى من الضخامة بحيث إننى فى طريقى لأصير أمريكيًا(٧٦)؟" أوربان جوهييه الذى وصل خاليًا من أية معرفة باللغة الإنجليزية يفاجئ نفسه يحلم بهذه اللغة ويكتشف نفسه بعد خمسة أشهر وقد "تأمرك"(٧٧). مخاوف عابرة ـ سيعود جوهييه وهوريه فرنسيين كما كانا من قبل ـ لا تشير إلى مخاطرة حقيقية بقدر ما تشير إلى ذعر شديد من التشويه.

إن اليانكية كتلة شأن الثورة الفرنسية حسب كليمنصو، إما أن تقبلها وإما أن ترفضها، "أن تقبلها" ـ حتى لو افترضنا أنّ ذلك ممكنًا ـ لن يعنى فقط التخلى عن مسرات الحياة كما يردد دون توقف كافة الرحالة عندنا وهم سعداء بالعودة إلى منازلهم الباريسية. كان أوليفييه كورونال قد طرح على نفسه السؤال: لكى نقاومهم هل يتوجب أن نصير مثلهم؟ تعلم "ربح المال كثيرًا وبسرعة"؟ جعل المال "غايتنا الوحيدة فى الحياة؟ هل يتوجب إذن لمناهضته أن نحقق فى أنفسنا "النمط الشنيع لليانكيه، وللعالم دون رقى فى الأفكار، وللصناعىّ دون إنسانية"(٧٨)؟ سيكون ذلك خيانة وجحودًا لجوهر.

أن تصير هذا الفرنسي المشوه الذى يصفه سارتر مطولاً بقرف لا يخفيه فى واحد من مقالاته فى عام ١٩٤٥ كـ"تحول أوفيد"(٧٩). هذا الطافر المرعب الذى "تملك منه أمريكا حتى النصف"، والذى يجعل سارتر حالمًا - "كنت أسأل نفسى بفضول أية قوى قادرة يتوجب عليها أن تتضافر لتحقق بمثل هذا اليقين وبمثل هذه السرعة ضروب التفكك وضروب الدمج هذه"، لم يكن بعد بالنسبة لمعادى أمريكا فى عام ١٩٠٠، إلا تصوراً تخيليًا سرعان ما يُستبعَد، ليس كل الناس ناتئى الفكين، ولا يريد كل الناس أن يلعبوا كرة القدم، لا يستطيع كل الناس أن يكونوا يانكيه.

ما طريقة العمل بصورة أخرى - إلا إذا أرغمنا نهائيا على عدم التدخل؟ ليس اليانكيه إنسانًا يترك لنا حرية اختيار الكرة أو الملعب، ولا يسمح لنا كذلك بأن نكون البادئين فى اللعب. لنكن جاهزين، ولنكن مستعدين، ولنبق مفتوحى العينين: هذا ما يردده بكل اللهجات "المراقبون" والبحاثة. ستبدأ المباراة، لقد تغير الإعلان منذ سنوات ١٨٦٠. لم يعد الأنجلو ساكسون ضد اللاتينيين، بل اليانكيه ضد الأوروبيين. كان هنرى بومون دون شك أول من تنبأ بمفردات بمثل هذا الوضوح: "لم يشارك جيلنا إلا فى النضال الذى خاضته فيما بينها، والذى لا تزال تخوضه أمم أوروبا لاستعادة المكانة الأولى، وسيرى الجيل الذى سيلينا صراع أوروبا والولايات المتحدة لتأمين السيطرة على الكرة الأرضية(٨٠)."كان ذلك فى عام ١٨٨٨: الأزمنة متقاربة.

ستلعب المباراة يقينًا على عدة مراحل. لقد بدأت الملاكمة الاقتصادية. من ناحية اقتسام العالم، لا يزال التردد قائمًا بين اليد الحارة أو القبضة الحديدية. ما الذى يدرينا إن لم تستيقظ فرنسا خلال سنة أو خلال يوم شأن جول هوريه فى عربة نومه فى مواجهة فكى أمريكا القويين؟

لن يحدث هذا الاستيقاظ حقا إلا غداة الحرب الكبرى: سنرى فيما بعد بأى عنف لفظى، وأحيانًا مادى كما يشهد حادث غريب جرى لدى المباريات الأولمبية فى باريس عام ١٩٢٤. قام أمريكيو الشمال خلالها باختراق ملحوظ؛ فقد فاز شخص يدعى ويسمولر، ولم يكن بعد يطلق عليه اسم طرزان الناعم، بسباق المائة متر (فى ٥٩ ثانية) وبسباق الـ ٤٠٠ متر دون عائق، ولكن ها هى خاتمة مباريات الركبى - كرة قدمنا الخاصة بنا. سادت فرنسا فى تلك الحقبة الركبى الأوروبى. وأمام مفاجأة الجميع وجدت نفسها فى مواجهة فريق الولايات المتحدة الذى ارتقى حتى النهائى. ولما كان اللاعبون الفرنسيون حسب صحفيى الرياضة آنذاك متطلقين بعض الشىء كما نسوا تحذيرات جول هوريه فقد خسروا المباراة بنسبة ١٨ - ٣ دون أى استئناف. عندئذ بدأت

مشاهد هياج شعبى ندر فى درجة عنفه، ولم يسبق له مثيل فى تاريخ الألعاب الأولمبية الحديثة القصير. غزا الجمهور الباريسى وقد أفلت من عقاله الملعب لمقارعة اليانكيه، وتوجب على الشرطة البلدية أن تهجم عدة مرات بالهراوات لتمنع سحل الفريق الرابح الذى لوحق حتى الشوارع من قبل الجماهير الغاضبة، وكما سيقول دوهاميل على نحو ممتاز منددا بالرياضة على الطريقة الأمريكية: "ما إن تفقد المباريات طابعها اللطيف كألعاب محضة، حتى تتسمم باعتبارات الربح أو الكراهيات القومية"...

هوامش

(١) لاحظت مادلين روبيرو ذلك بدهشة : "عنصر فرنسى، عنصر إنجليزى، لا بل وللمفاجأة! عنصر يانكيه: هذه الأزواج كما بيَّن مارك أنيونو بالنسبة لعام ١٨٨٩، تؤلف جزءًا من العقيدة المشتركة "أنظر:

("Le mot race au tournant du siècle" *Mots*, nº 33, décembre 1992, p. 56.)

(٢) P. Bourget, Outre-Mer, *Notes sur l Amérique*, Paris, Alphonse Lemerre, 1895, p. 12. O. *Noël, Le Péril américain*, De Soye et fils, 1899, p. 43. E. Boutmy, *Eléments d une psychologie politique du peuple américain* [1902], Paris, A. Colin, 1911, p. 61.

(٣) تناقض تبناه رينان انظر بهذا الصدد :

Maurice Olender, *Les langues du Paradis, Paris*, Gallimard-Le Seuil, collection Hautes, 1989, pp. 75-111, et particulièrement p. 83.

(٤) *Ibid.*, p. 85

(٥) E. Renan, Nouvelles considerations sur le caractère general des peoples sémitiques, et en particulier sur leur tendance au monothéisme, Journal asiatique, février-mars et avril-mai 1859, cite par M. Olender, ibid., pp. 84-85.

(٦) E. Renan, *Histoire du peuple d Israël, Ouvres complètes*, éditions par Henriette Psichari, Paris, Calman-Lévy, 1947-1961, tome 6, p. 32. *Ibid.*, p. 84.

(٧) E. Renan *Qu'est-ce qu'une nation*? [1882], Ouvres complètes, t. 1, p. 898 ; *ibid*, p.86.

(٨) E. Renan, La réforme intellectuelle et morale [1871], Ouvres complètes, t.1, p.455, ibid., p. 88.

(٩) من كامبون Cambonإلى دو كلاسيه Declassé، ٨ مايو ١٩٠٠، استشهد به : J. Portes, Une facination réticente.., p. 193 . وكان جون روبرت سيلى John Robert Seeley (١٨٣٤-١٨٩٥) الأقل شهرة من كيبلينج Kipling قد نشر بنجاح The *Expansion of Eng-*

(1883) *land* الذى حدد تاريخ الخصومات الإنجليزية مع فرنسا منذ ١٦٨٨، وكان أحد المُنشطين المثقفين للرابطة الإمبراطورية الفدرالية Imperial Federation League.

(١٠) Albert Savine, *Roosevelt intime*, Paris, Juven, 1904, p. 2.

(١١) Gustave Le Rouge et Gustave Guitton, *La conspiration des milliardaires* (1899-1900), Paris, UGE, 1977, t. II, p. 222.

(١٢) *Ibid.*, p. 224.

(١٣) Ch. Cronier de Varigny, *La Femme aux Etats-Unis, Paris*, Colin, 1893, p. 302.

(١٤) *Ibid.*, p. 303.

(١٥) Henri Destrel, Le Correspondant, février 1887, cite par J. Portes, *Une facination réticente..*, p. 224.

(١٦) U. Gohier, Le Peuple du XXº *siècle aux Etats*-Unis, Paris, Fasquelle, 1903, p.33.

(١٧) Ch. Cronier de Varigny, *La Femme aux Etats-Unis*, Paris, Colin, 1893, p. 3 .

(١٨) *Ibid.*, p. 95.

(١٩) Jules Huret, *En Amérique* (II), Paris, Fasquelle, 1905, p. 340.

(٢٠) U. Gohier, *Le Peuple..*, p. 9.

(٢١) Jules Huret, *En Amérique..*, P. 378.

(٢٢) *Ibid.*, p. 384.

(٢٣) E. Barbier, *Voyage au pays des dollars*, Paris, Marpon et Flammarion, 1893, pp.126-128.

(٢٤) *Ibid.*, p. 128.

(٢٥) A. Tardieu, *Notes sur les Etats-Unis. La Société. La Politique. La Diplomatie*, Paris, Calmann-Levy, 1908, p. 56. Tardieu tire ses *précieux renseignements* d'Eliot Gregory dont Wordly Ways & Byways avait connu un certain succès en 1898.

(٢٦) A. Maurois, *En Amérique*, Paris, Flammarion, 1933, p. 13.

(٢٧) G. Duhamel, *Scènes de la vie future* [1930], Paris, Arthème Fayard, "Le Livre de demain".

A. Maurois, *En Amérique...*, p. 13. (٢٨)

P. de Rousiers, La vie américaine, Paris, Didot, 1892, p. 441. (٢٩)

Ch. Crosnier de Varigny, La Femme..., p. 198. (٣٠)

J. Huret, *En Amérique* (1)..., p. 325. (٣١)

J. Huret, *En Amérique* (I1)..., p. 385. (٣٢)

U. Gohier, *Le Peuple...*, p. 36. (٣٣)

P. de Rousiers, *La vie américaine...*, p. 184. (٣٤)

Ibid., p. 525. (٣٥)

Ibid., p. 451. (٣٦)

J.-P. Sartre, "Individualisme et conformisme aux Etats-Unis" [Figaro, février, 1945], *Situations III*, Paris, Gallimard, 1949, p.81. (٣٧)

G. Lanson, *Trois mois d'enseignement aux Etats-Unis*, Paris, Hachette, 1912, pp. 55-56. (٣٨)

Mlle. Zénaïde Fleuriot, *De trop* [1888], Paris, Hachette, 1907, p. 21. (٣٩)

Flappers and Philosophers de F. Scott Fitzgerald parait en 1920. (٤٠)

R. Gain, *Des Américains chez nous*, Paris, Editions Montaigne, 1928, p. 100. (٤١)

J. Huret, En Amérique (II) ..., p. 380. (٤٢)

Marie Dugard, *La société américaine. M urs et caractères. La famille. Rôle de la femme. Ecoles et universités*, Paris, Hachette, 1896, p. 311. (٤٣)

Luc Durtain, *Crime à San Francisco, Quarantième Etage*, Paris, Gallimard, 1927. (٤٤)

J. *Huret, En Amérique(II)...*, p. 387. Le même thème fait la chute d'un poème de *Luc Durtain, El Paso , sur les locomotives du Southern Pacific: [...] des mécaniciens gantés/les caressent/les machines sont les seules femmes/que les Américains savent rendre heureuses* USA 1927, Paris, Plaisir de bibliophile, 1928. (٤٥)

J. Huret, *En Amérique(I)...*, p. 318. (٤٦)

Ibid. (٤٧)

E. Johanet, *Un Français dans la Floride*, Paris, Mame, 1889, p. 37. (٤٨)

G. Le Rouge et G. Guitton, *La Conspiration...*, tome II, p. 99. (٤٩)

(٥٠) P. de Roisier, *La vie américaine*..., p. 447. إن "عقم" النساء الأمريكيات أثار اهتمام المراقبين الاجتماعيين الشديد؛ ففى عام ١٩٨٤ اقترح معاون فى الإصلاح الاجتماعى، ر. ج. ليفى، تفسيراً آخر له: إنه على وجه الاحتمال على صلة مباشرة مع وصول النساء إلى الدراسات العليا"، انظر :
La vraie Amérique, Paris, 1894, p. 15, cité par J. Porte, *Une facination*..., p. 222"

(٥١) P. de Roisier, *La vie américaine*..., p. 526.

(٥٢) J. Huret, *En Amérique(I)*..., p. 304.

(٥٣) Maurice Bedel, *Voyage de Jérôme aux Etats-Uni s d'Amérique*, Paris, Gallimard, 1953, p. 139.

(٥٤) G. Duhamel, Scènes..., p. 118.

(٥٥) J.-P. Sartre, *Le Figaro*, 11-12 mars 1945.

(٥٦) Cocteau, *Lettre aux Américains*, Paris, Editions Bernard Grasset, 1949 [réédité en 1990], p. 32.

(٥٧) R. Gain, *Des Américains*..., p. 25.

(٥٨) E. Demolins, *A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons*, Paris, Didot, 1897, p.50.

(٥٩) *Ibid.*, p. 1.

(٦٠) *Ibid.*, p. iv.

(٦١) G. Duhamel, *Scènes*..., p. 94.

(٦٢) P. de Rousier, *La vie américaine*..., p. 510.

(٦٣) J. Huret, *En Amérique(I)*..., p. 135.

(٦٤) G. Duhamel, *Scènes*..., p. 93.

(٦٥) P. Bourget, *Outre-Mer*..., p. 144.

(٦٦) J. Huret, *En Amérique(I)*..., p. 43.

(٦٧) G. Duhamel, *Scènes...*, pp. 94-95.

(٦٨) U. Gohier, Le peuple du XX° *siècle...*, p. 13. إنّ جـوهيـيـه الذى لا يكره مـعـارضـة المقولبات، يدين مقولب "الطاقة" (المرتبط بتيدى روزفلت) بوصفه "أسطورة".

(٦٩) G. Duhamel, *Scènes...*, p. 93.

(٧٠) J. Huret, *En Amérique(I)...*, p. 133.

(٧١) *Ibid.*, p. 15.

(٧٢) *Ibid.*, p. 58.

(٧٣) Philarète Chasles, *Etudes sur la littérature et les m urs des Anglo-Américains au XIXºsiècle*, Paris, Amyot, 1851, p. 483.

(٧٤) O. Noël, *Le Péril américain*, Paris, De soye et fils, 1899, p. 39.

(٧٥) E. Johanet, *Un Français dans la Floride...*, p. 53.

(٧٦) J. Huret, *En Amérique(I)...*, p. 3.

(٧٧) U. Gohier, *Le peuple du XXº siècle...*, p. 251 et p. 3.

(٧٨) G. Le Rouge et G. Guitton, *La conspiration...*, tome II, p. 170.

(٧٩) J.-P. Sartre, Individualisme et conformisme aux Etats-Unis..., p. 77.

(٨٠) H. de Beaumont, "De l'avenir des Etats-Unis et de leur lutte future avec l'Europe", *Journal des Economistes*, juillet 1888, p.77.

الفصل السابع
أناس من دم عدو

من أى برج بابل، ينحدر إذن هذا اللَّبس فى الجلود من كل الألوان، أحمر وأصفر وأبيض وأسود، والتى تضرب لنفسها موعدًا على أرض الولايات المتحدة ؟

دوق دو نواى، صحيفة المراسل(١٨٧٧)

أى اختلاف حين نقترب مع التجانس الأساسى الذى هو تجانس كل الفرنسيين!

أندريه سيجفريد

الولايات المتحدة اليوم (١٩٢٧)

من سخريات الظروف الطارئة إذن، كما قلنا، انتشرت الصورة الاستيهامية الفرنسية عن صراع مع "العرق الخصم"لأمريكا اليانكيه فى اللحظة ذاتها التى كانت الهجرة الكثيفة تغير التركيب السكانى فى العمق.

وسواء أتمّ تجاهله أم الصمت عنه أم التقليل من أهمية حجمه من قبل المراقبين الفرنسيين حتى بداية سنوات ١٨٩٠، فإن وصول المهاجرين بأعداد كبيرة من الذين لم يكونوا أنجلو ولا ساكسون ولا بروتستانتيين انتهى بفرض نفسه باعتباره بعدًا جوهريًا فى الواقع الأمريكى الجديد. من هذه الناحية يؤلف كتاب *ما وراء البحار* لبورجيه الذى نشر فى عام ١٨٩٥ جزءًا من النصوص الرائدة؛ إذ لا نجد فيه وثائق ولا أرقامًا. إنه اهتمام بورجيه بالعروق وصراعها الذى وجّه نظره نحو ظاهرة لم يعلق عليها حتى ذلك الوقت فى فرنسا. اعتبارًا من ذلك وبسرعة فائقة سيتخذ ما أطلق عليه فى فرنسا "الهجرة الجديدة" مكانة مركزية فى التحليل وفى التعليق. فى عام ١٩٢٧ وفى الطبعة الأولى من كتابه *الولايات المتحدة اليوم* - وهو كتاب مرجعى لجيلين - يجعل أندريه سيجفريد من تشوه أمريكا "الأنجلو ساكسونية" بفعل الهجرة الطارئة المشكلة الأمريكية بامتياز.

كيف سيدمج فى فرنسا الخطاب المعادى لأمريكا الذى أتى على جعل أمريكا محض الأنجلو ساكسونية واليانكيه جوهريا هدفًا له هذا المعطى الجديد؟ ببراعة، بل إنه سيجد فيه مصدر وحى جديد.

كان يبدو صعبًا، مع ذلك، التوفيق مسبقًا بين الأطروحتين: أطروحة سيطرة اليانكيه القارية الحاسمة (وعما قريب العالمية) وأطروحة أمريكا المرهقة بهجرة خليط. كيف نضع على وفاق أوكتاف نويل، الذى يخلص فى عام ١٨٩٩ إلى أن أكبر جزء من القارة المكتشفة من قبل كريستوف كولومب هو منذ خمسة قرون عما قريب بأيدى عرق استولى عليه"(١)، وبول بورجيه معلنًا منذ ١٨٩٥ وصول "جماهير عمال غفيرة من عرق أجنبى تحركها أفكار أجنبية"، ومتنبئًا بـ"مبارزة إتنية" هائلة، وحرب أهلية بين العروق التى ستكتسح الولايات المتحدة(٢)؟ صعوبة ظاهرية أكثر منها حقيقية: إن خطاب العداوة ليس مميّزًا بل مراكمًا؛ فهو يوقف مبدأ عدم التناقض لصالح مفاقمة التهم. يعطى بول بورجيه الذى أتينا على القول عنه إنه كان النبى المبكر لـ"حرب العروق" على الطريقة الأمريكية، أيضًا، أول مثل لهذا التناسق الجدالى بين تعبيرات حصرية منطقيًا؛ فكتاب ما وراء البحار يصف أمريكا الأنجلو ساكسونية مرغمة على حرب بقاء بسبب "طفرة الهجرة" وتارة يردّ لـ"العرق الأمريكى"، "هذا البرونز من كورنثيا" قوته كلها، هو الذى لم يتغير بفعل التدفق الأجنبى.

لن يجد السيناريو العنيف الذى توقعَهُ كثيرًا من التابعين: لا، يقينًا، إن "حرب العروق" لن تقع. ليس فى صورة إعادةٍ على كل حال لحرب الانفصال التى ستواجه فيها "أمريكا الأجانب" فى معركة تقليدية "أمريكا الأمريكيين"(٤). سيتبنى كل الناس بالمقابل بلاغته التراكمية. وسنرى، على مثاله، تكاثرَالنصوص التى تؤلف ما بين نزعة معاداة أمريكا المقاومة (ضد اليانكيه العنيف والمسيطر) ونزعة معاداة أمريكا المشمئزة (من "المهاجر الجديد" وضروب "النخر" التى يحملها(٥)).

عنصرى ومتعدد العروق:
أمريكا مخطئة بصورة مزدوجة

هذا التوليف له بلاغته التى يمكن وصفها باعتبارها "مضادة للعنصرية بصورة عنصرية" : إنها تقوم على إدانة الولايات المتحدة بوصفها أمة عنصرية قانونيًا وثقافيًا، فى قلب خطاب عنصرى هو نفسه ضد الجماعات نفسها التى يؤخذ على اليانكيين نبذها. ضمن هذا الرسم الإجمالى، تجمع الولايات المتحدة بين جريمة وعاهة؛ فهى مذنبة بالعنصرية التى تمارسها جماعة WASP المسيطرة، وفى الوقت نفسه موضع شك بصورة عنصرية بوصفها فوضى إتنية، وملتقى شعوب.

إن الأمريكيين يعطون المثل السيِّئ بصورة مزدوجة: على صعيد المبادئ،

بإبعادهم من الإنسانية جماعات إتنية كاملة (الهنود، السود، بل وكذلك وبطريقة أخرى الآسيويين والإيطاليين والإيرلنديين)؛ وعلى صعيد الواقع، بتركهم بلادهم تصير بابل متعددة الأجناس. ومن الواضح بقراءة التحليلات الفرنسية أن الانزعاج الذى استُشعِرَ أمام واقع خليط الأجناس يتفوق بجلاء على الضيق المُكابَد أمام عدم احترام مبادئ المساواة. وشهادة أوربان جوهييه، أحد الرحالة الفرنسيين فى بداية القرن وذو الأفكار الأكثر "تقدمًا"، ذات دلالة من هذه الناحية؛ ففيما يخص السود الأمريكيين، يتزعزع المناضل الدولى والسلمى فى "قناعاته العقائدية": "إنها إحدى النقاط التى يشعر فيها الأوروبى، ابن الثورة الفرنسية، بالاضطراب حين تدخل قناعاته العقائدية فى صلة مع الواقع." لقد بكّرَ الوعاء الحديدى للواقع فى تحطيم الوعاء الخزفى للمثل الأعلى. أما وقد تبخرت قناعات جوهييه جميعًا فإنه يفتح قلبه: "إن السود عامة أشرار، وكذابون وكسالى، بل إنهم أشد فسادًا؛ ففكرة المرأة البيضاء تستحوذ عليهم، وهذا الاستحواذ يقودهم غالبًا إلى أشد الجرائم جبنًا(٦)". ما الذى سيقوله جوهييه لو لم يكن "ابن الثورة الفرنسية"؟ لنضف حتى نكون عادلين أن العنصرية العادية لدى العديد من معاصريه الليبراليين والمستنيرين لا تبالى حتى بالهموم الخطابية.

إن الخطاب حول "المسألة العرقية" فى الولايات المتحدة عبارة عن صاروخ بطابقين يستطيع أن يحمل الكثير من الركاب: لا يتجهون جميعًا إلى المكان نفسه، لكنهم يجتازون جميعًا بعض الطريق المعادى لأمريكا. فى عشرات السنين الأولى من القرن العشرين كان يمكن لهذا الخطاب أن يقال (وأن يفهم) فى قطاعات الرأى العام الفرنسى الأشد بعدًا بعضها عن الآخر؛ فكل المؤلفين تقريبًا فى الثلاثين سنة الأولى من القرن العشرين، كتبوا بهذه الطريقة مع سذاجة متفاوتة ومهارة متباينة. إن الاختصاصيين الحرفيين بالولايات المتحدة (من بوتمى إلى سيجفريد) يتحرون البلاد بانتظام. يعثر دوهاميل عندهم على بعض النصوص البارعة الأسلوب. خلال سنوات فيشى، ازداد الاستغلال: هذه الصور الغامضة التى كانت تعكس فى البداية تناقضات الفرنسيين "ابناء الثورة"، موزعة بين تمسك بحقوق الإنسان ووسواس "التلاحم"، تجد مآلها الكاريكاتيرى فى الصور ـ الاتهام التى ترسمها دون توقف الصحافة المتعاونة مع أمريكا شمالية هى فى آن واحد عنصرية و"هجينة".

حين استقرت هذه البلاغة نحو عام ١٩٠٠، لم يكن الرحالة والمراقبون موظفى دعاية؛ فهم يتركون الحرية لأمزجتهم التى تعكس هى ذاتها أحكامهم المسبقة وأحيانًا مبادئهم، لا أثر هناك لحملة منظمة فى هذه الكتابات المعادية لأمريكا. فالخصومة تصدر عن نية طيبة. أما "النية السيئة" فتكمن فى ضروب الصمت، وخاصة فى الصمت المُصِم

الذى قام حول الاستعمار الفرنسى ووضع المستعمَرين، ومع ذلك فالمشابهة قائمة فى رءوس الجميع ومنذ وقت طويل(٧)، ولكن يجب على وجه الدقة أن تبقى فيها. "لا نتكلمن عن ذلك!": ذلك ما يمكن أن يكونه التعليق على هذه التحليلات لأمريكا العنصرية، التى يحزر المرء وراءها فى كل لحظة "المسألة الاستعمارية" الفرنسية غائبة عن التفكير أو مسكوتًا عنها. ومع ذلك فقد تحدثوا عنها، بتعنيفهم ضد مرحلة إعادة البناء Reconstruction(*) وبإظهارهم قرفهم من السود المحررين، وبتكرارهم لازمة بيض الجنوب عبيد عبيدهم السابقين، وبغضبهم خاصة، بل وبجنونهم من حق التصويت للسود المحررين. كان المعلقون الفرنسيون على المسألة العرقية فى أمريكا وعلى الأزمة المفترضة لـ *melting-pot* يتحدثون بالطبع فيما بين السطور عن همومهم الخاصة: إدارة إمبراطورية متعددة الأجناس، امتصاص العناصر "الدخيلة" من قبل الجماعة القومية.

هذه المشاغل الغامضة تشرح سمة أخرى للتحليلات الفرنسية: تقريبها بين جماعات بشرية يفصل فيما بينها فيما يبدو وضعها فى أمريكا تلك الحقبة. كانت "الهجرة الجديدة" مرئية بوصفها متنافرة بصورة عميق؛ بحيث إنها تعالج كمشكلة فى الصفحات نفسها وعلى المستوى نفسه تقريبًا معالجة "الأقليتين" التاريخيتين الهندية والسوداء. وثيمة "غير الممكن تمثله"، بل و"البربرى" تجمع آنئذ تحت النظرة ذاتها أكثر الأمريكيين أهلية وأكثر القادمين الجدد "غرابة". كان الخلط شائعًا جداً لدى رحالة منعطف القرن. يذكر إدمون جوهانيه مثلاً الشديد العنصرية إزاء السود الذين "يفرخون" فى الجنوب(٨)، الجماهيرَ العاملة فى الشمال، المؤلفة من مهاجرين متأخرين، بوصفهم "حشداً بربريا"، و"كوارث إلهية" محتملة على طريقة آتيلا(٩). وبينما تتساءل مارى دوجار شأنها شأن العديد من مواطنيها الذكور حوالى عام ١٩٠٠، ما إذا لم يكن محكومًا على الزنجى الأمريكى أن يندثر(١٠)، تختص الآسيويين بأكثر ملاحظاتها عنصرية؛ تعجبها سان فرنسيسكو، لكن "مشهداً وحيداً يفسد هذه المدينة المحببة ويمنحك فيها فجأة أحاسيس شىء لم ينجز من الغرب البعيد: إنه مشهد الصينيين الأكثر عدداً فيها منهم فى بورتلاند، والأكثر فظاظة [...]؛ إنهم يعدون فيها أربعين ألفًا مفرخين كالقواضم التى لهم منها مظهرها الجشع، وأسنانها الحادة، والذنب الدقيق [كذا!] وحتى العادات تحت الأرضية"(١١). وبلهجة أكثر علمًا ورصانة يمهد أندريه

(*) تسمية لفترة من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية تمتد من نهاية حرب الانفصال (١٨٦٥) إلى سنة ١٨٧٦.

سيجفريد لكتابه الولايات المتحدة اليوم بفصلين قصيرين، "تكوين الشعب الأمريكى" و"أزمة الدمج" لا يؤلفان فى الواقع إلا فصلاً واحداً: من الأسود إلى اليهودى، عبر كل "التلوين الإتنى" للهجرة فيما بعد ١٨٨٠، كان سيجفريد يريد وضع خارطة الاندماج المستحيل، وأن ينقل للجمهور الفرنسى الرعشة الغريبة التى يسببها له "نقص التجانس، الذى لا يعوض على وجه الاحتمال" فى الولايات المتحدة الحديثة(١٢).

والحال، أن يكون الهنود محصورين فى أراض محجوزة لهم، وأن يكون السود أنفسهم المحرومين غالباً من التصويت مبعدين عن الحياة البيضاء حتى فى الأماكن التى لا يُمارَسُ فيها التمييز الشرعى، غير مرغوب فيهم لزمن طويل حتى فى النقابات - وأن يملك هؤلاء الهنود وهؤلاء السود كثيراً مما يشتركون فيه مع المهاجرين حتى وإن كانوا من "أسوأ البشر"، هو ذا ما لا يستقيم كتحصيل حاصل فى الولايات المتحدة ذاتها، إلا على وجه الاحتمال فى نظر أشد المتطرفين من كارهى الأجانب، منذ نوناثنج Know Nothing عام ١٨٥٠ حتى جماعة الكوكلوكس كلان Ku Klux Klan التى أعيد تكوينها عام ١٩٢٠. إنها فى الأساس وجهة نظر جماعات المقاومة الأنجلو ساكسونية والبروتستانتية هذه، المعادية جميعاً للسود ولليهود وللكاثوليك ولكل العناصر غير الأمريكية، التى يتبناها عن وعى أو عن غير وعى القراء الفرنسيون(١٣). إن تقليداً طويلاً من "الفهم" للمشكلات الجنوبية ليس غريباً على وجه اليقين عن تبنى وجهة النظر هذه.

إن الخاسرين الكبار نتيجة هذا المعطى الجديد فى التخيلات الشعبية الفرنسية هم الهنود والسود. لقد كان حضورهم رصيناً فى الحكايات الفرنسية خلال السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر. وها هم يُجرون من جديد إلى منصة الجدال فى اللحظة التى تغزوها الجماهير الخليط من إليس آيلاند، فيظهرون فيها من جديد وهم لا يكادون يعرفون.

هنود مقطبون وسود "فاسدون"

حتى سنوات ١٨٦٠ كان الهنود والسود الأمريكيون محاطين فى فرنسا بهالة روائية أو بعناية إنسانية. و كان الاستنكار كبيراً فى سنوات ١٨٤٠ ضد السياسة الهندية للاتحاد؛ فـ"المعاهدات" المفروضة والنادر احترامها كانت تعتبر متخلفة من قبل "كل أطياف الرأى العام"(١٤). وبتحريض من جمعية إلغاء العبودية التى أسست فى فرنسا عام ١٨٣٤، نظمت آنئذ حملات ضد اللأذى الذى ألحق بالعبيد الأفرو- أمريكيين.

وقد بُدئ بالاهتمام بالحكم المسبق العنصرى الذى يندد بالأسود الحر، سبَّبَ هذا الوعى نجاح رواية جوستاف دو بومون Gustave de Beaumont ***مارى أو العبودية فى الولايات المتحدة*** ***(1835) Marie ou l esclavage aux Etats-Unis***. إذا كان دوام العبودية فى المستعمرات الفرنسية يثير حتى عام ١٨٤٨ بعض أنصار "المؤسسة الخاصة"، وإذا كان تعلق بعض الليبراليين بالقضية الأمريكية قد جرهم حتى إلى تبرير ما لا يبرر وإلى أن يجعلوا من أنفسهم محامين عن الوضع الراهن للعبودية، فإن الرأى العام الفرنسى – كما رأينا – مضاد للعبودية فى قطاعات واسعة منه قبل وخلال حرب الانفصال.

إن المرحلة التى تمتد من إعادة البناء إلى الحرب العالمية الأولى هى على العكس مرحلة جزر؛ فالهنود والسود يحتلون مكاناً أقل فى النقاش وفى الحكايات الفرنسية. لم تعد قضيتهم تستثير الكثير من الاهتمام. علامة كاشفة: "إن أحداث التاريخ الهندى الكبرى مثل ليتل بيج هورن **Little Big Horn** أو ووندد كنيه **Wounded Knee**، لم يكن لها إلا صدى محدوداً فى الصحافة الفرنسية"؛ حيث "حرفت بطريقة غير مباشرة جدا"[١٥]. لقد تغيرت بصورة خاصة اللهجة، وكف الهنود حرفياً أن يكونوا على الموضة؛ فالصحفيون الفرنسيون قد أعلنوا عن انطفائهم بكثرة جعلتهم يعتبرونه أمراً مفروغاً منه. "لم يعودوا يؤلفون إلا كمية مهملة"، كما يكتب كاتب المسلسلات لوروج؛ "فالحضارة الأمريكية كانت تجدهم مزعجين"[١٦]. ولا يخصص جول هوريه فى عام ١٩٠٤ وفى عام ١٩٠٥ إلا بعض السطور من كتابيه الضخمين للهنود الذين قدر عددهم بمائتى ألف نسمة. بين الهنود الرومانتيكيين فى أوائل القرن التاسع عشر والهندى السياسى - الرمزى للثقافة المضادة فى نهاية القرن العشرين تبدأ العلامات عبوراً طويلاً للصحراء؛ فحكايات الرحالة تدفع بالتحفظ إلى حد الجفاف وتقلص الهندى إلى شبح مجازى، ***دسديشادو desdichado*** طيفى لمرج تمت السيطرة عليه. لا يزال الهندى مقابل ثمن هذا التجريد يستطيع أن يتلقى بعض الكلام الطيب فى شكل شواهد قبور. ومن الأفضل له على كل حال أن يبقى فى هذه الظلال الكئيبة؛ فحين يظهر بلحمه وعظمه، يصير الوصف عنيفًا. يفضل عليه سوفين فى عام ١٨٩٣ أشباهه المزيفين فى مسرح الشاتليه: "كم من مصلحة الجلد الأحمر أن يُرى فى مسرحية جن فى الشاتليه!...النموذج بهيمى، فظ، رجال ونساء يبدون وقد أسىء تكوينهم." أقصى إهانة للهندى: بعد الكثير الذى أُخذ عليه، صار يُنكر عليه "عرقه" - يقدر سوفين: "إنه ليس عرقًا بل هو مهانة للنوع البشرى"[١٧]. عودة إلى كوخ دو بوو... أوربان جوهييه حاسم فى حكمه: "إنهم بشعون مع مظهر عذب وطيِّع. إنهم يقبلون العبودية على الأرض التى

كان يعيش عليها آباؤهم أحرارًا: إنهم لا يستحقون أى اهتمام[١٨]". ويكاد جول هوريه، مبعوث الفيجارو، أن يكون بالكاد أقل قسوة. إنه لا يقرّ إبعادَ، ولا تهجيرَ الشعوب الهندية، لكن السطور النادرة التى يخصصها لهم على قدر من الوقاحة. "إننا نتساءل فى أوروبا: ما الذى يفعله الأمريكيون إذن بالهنود أهل البلاد الأصليين؟ فى الحقيقة إنهم لا يفعلون شيئًا كبيرًا. إنهم يدفعون بهم كل سنة أكثر نحو صحراء الغرب. هذه الأراضى التى يعطونها لهم هى سيئة أكثر فأكثر، وما إن تكتسب بعض القيمة بسبب وضعهم حتى يُجبروا على تركها." هذه الحالة لا تجعل هوريه مفعمًا بالشفقة. هو الآخر يبدو آسفًا على الممثلين الصامتين فى الشاتليه باعتبارهم أكثر مرحًا: بانتظار ألا يغضبوا، فإنهم ليسوا مرحين." إن للهنود فى بلادهم (إن كنا لا نزال نستطيع الحديث عن "بلادهم") نفس المظهر الغريب والأجنبى الذى كان لهم فى باريس حين أتى بهم إليها الكوى بوى كودى"[١٩].

ليس أسود ما بعد التحرير أقل سقوطًا؛ فحين صار حرًا تبين أنه أقل "أهمية" بكثير بالنسبة للحساسية الأوروبية. وما الذى فعله بحريته؟ لاشىء فى أفضل الأحوال. وفى أسوئها فإنه يستثمرها ضد سادته الأقدمين. لدى الرحالة الفرنسيين، صرخة غضب ضد إعادة البناء والاضطهاد الذى أخضع له من هزمهم العرق الأبيض. منذ عام ١٨٧٥، كان لويس سيمونين Louis Simonin فى كتابه *عبر الولايات المتحدة* *A travers les Etats-Unis* يستعيد لحسابه الأحكام المسبقة الجنوبية عن كسل السود وخطر الفوضى التى كانت الولايات المتحدة تتعرض له ما لم تتم إبادة العرق الأسود[٢٠]. هذه الإبادة، كان فريديريك جاياردية F. Gaillardet يترقبها هو أيضًا فى عام ١٨٣٣، دون أى أسف لا طائل من ورائه. وفى عام ١٨٨٩، كان النموذج الفرنسى عن الجنوب، وقد صار بفعل خطأ الشمال "عالمًا بالمقلوب"، قائمًا وبوسع جوهانيه أن يستخلص منه نوعًا من الكلمة الطيبة: "فى جاكسونفيل، السود يفرخون. لو تركوا أنفسهم يُسحقون لسرنا فوقهم، لكن على العكس، ما أكثر البيض الذين يسحقونهم[٢١]!. سبق أن رأينا أن "قناعات" جوهييه لم تكن تمنعه من رسم صورة للأسود بوصفه مغتصبًا جديرة بأدب الكوكلوكسكلان. حاول جول هوريه مقاومة خجولة؛ فالتمييز "يخيبه قليلاً"، "للحظة قصيرة أنقطعُ عن اللويزيان". يذكر بطريقة مؤثرة دفنًا أسود، ويستنكر، يقينًا، أن تزرب "كالمرضى بالبرص" "ضروب كليوباترا المهاجرة إلى حضارة العالم الجديد العنيفة"[٢٢]. لكنه يكاد يعتذر عن هذه الرجفة: إنه يريد أن "يفهم" ضروب التمييز، ويَعدُ بأن يستعلم عنها، والفصل الذى يخصصه أخيرًا فى صورة حوار لـ "طرح مسألة الزنجية" يتيح المجال واسعًا لحجج بيض الجنوب.

ردود الأفعال هذه فى تقاربها كاشفة، وهى كاشفة بقدر ما تتعزز بالمواقف المعادية للمواطنية السوداء التى تتكاثر، فى اللحظة ذاتها، فى فرنسا. لسنا هنا أمام انطباعات رحلة، ولا تعبير عن مزاج، بل أمام أحكام علمية عاينها جامعيون ومثقفون كبار. لقد ارتفعت أكثر الأصوات المسئولة فى فرنسا لتدين سياسة خلفاء لينكولن ولترثى بلوغ السود المواطنية: صوت اقتصادى لامع مثل لوروا ـ بوليو، وصوت مؤسس مدرسة العلوم السياسية إميل بوتمى. لقد انتهوا جميعًا "رغم آرائهم المختلفة حول العديد من النقاط إلى الخطأ المرتكب من قبل الجمهوريين حين جعلوا من السود مواطنين"(٢٣).

هذا الإجماع دامغ، والحيثيات فى صياغتها دامغة أكثر. يتحدث لوروا ـ بوليو عن "عرق موضوع على الدرجة الأخيرة من الأنثربولوجيا ومنحط فوق ذلك أخلاقيًا بفعل أربعمائة سنة من العبودية"(٢٤). ويوتمى الذى صادق مبكرًا على الإجراءات المتخذة ولاية بعد ولاية للحيلولة دون تصويت السود يصر ويوقع فى كتابه ***مبادئ سيكولوجيا سياسية للشعب الأمريكى*** ***Eléments d une psychologie politique du peuple américain*** ويسعد لأن المحكمة العليا تركت ولايات الجنوب تكثر من السدود ضد هذا التصويت منذ رائز التعليم ***literacy test*** إلى الإحصاء الانتخابى. سنوات أخرى وسيتمكن أندريه سيجفريد بعد أن قرر أن "الكتلة الزنجية" على الصعيد الإتنى، "غير قابلة للتمثل" من اقتراح هذه الخرافة الحكمية: "هل قرأتم جزيرة الدكتور مورو ***Ile du docteur Moreau*** لويلز **Wells**، القصة العجيبة لتلك الحيوانات التى حولها عالِمٌ إلى نصف بشر، والتى تطالب بنفس حقوق الإنسان، والتى يُصارُ أخيرًا إلى قتلها جميعًا؟ تلك هى المسألة الزنجية(٢٥)".

يعيش الآن سود أمريكا وهنودها الذين كانوا يعدون الكثير من الأصدقاء والمحامين فى فرنسا حتى سنوات ١٨٦٠، زوال الحظوة. هل يعنى ذلك القول إن أمريكا الإنجليزية التى كثيرًا ما أشير إليها بالأصابع بسبب "وحشيتها" نحوهم تخرج من القرن التاسع عشر معفية؟ ولا بأى شكل. إن إنكار البعض لا يشطب إدانة الآخر. فضحايا أمريكا "الأنجلو ساكسونية" القدماء يرثى لهم أقل فأقل (وغالبًا لا يرثى لهم على الإطلاق). توصف دون رقة بشاعتهم، وغرابتهم، ورذائلهم. ولم نتخلَّ مع ذلك عن استخدامهم أدوات؛ فهؤلاء الشهود قليلو اللمعان ما زلنا نستدعيهم للشهادة لإفحام الظلم اليانكيه. لم يعودوا "مهمين" كما يقول جوهييه جيدًا لا بصورة عاطفية ولا بصورة ثقافية (فالمعلومات المعطاة عنهم فى فرنسا صارت فى منتهى الفقر)، لكنهم لا يزالون يستطيعون الخدمة.

اجتثاث أمريكا

هنود وسود، هؤلاء المنبوذون في الداخل، التقفتهم منصة المسرح التي فتنت اعتباراً من عام ١٩٠٠ المراقبين الفرنسيين: "طوفان" هجرة "خليط" كما يكتب سيجفريد. لقد امتزجوا في هذا "الغزو الأجنبي"(سيجفريد أيضاً) وعوملوا هم أنفسهم بوصفهم "أجانب" يفاقم حضورهم على الأرض الأمريكية وضع التنافر الحرج. في عام ١٨٨٥، أي بعد خمسة عشر عاماً من بلوغ المواطنية، كان إميل بوتمي يعرّف السود الأمريكيين بوصفهم "خارج القانون *outlaws*"، ويعيد الكرة في عام ١٩٠٢: "في الماضي، كان [الأسود] يستطيع أن يعتبر عضواً قاصراً في الأمة؛ وكانت وصاية السيد عند الاقتضاء رابطة بينه وبين العرق الأبيض." (ما أروع كلمة عند الاقتضاء...) "لم يصبح شرعيًا مواطنًا في عام ١٨٦٠ [كذا] إلا لكي يصير اجتماعيًا في وضع الأجنبي[٢٦]". يعيد تحليل بوتمي هذا عن السود إنتاج استيهام جول هوريه عن الهنود؛ فهؤلاء وأولئك يملكون على وجه التأكيد سمة "أجنبية" ضئيلة. ألم يحن الوقت بالنسبة لهؤلاء الأمريكيين القدماء (لأنه حتى السود كما سيذكر أندريه سيجفريد هم "أمريكيون قدماء") - ألم يحن الوقت ليخرجوا من منصة المسرح؟ لماذا لا نتحدث بعد انقراض الهنود، عن انقراض السود الأمريكيين؟ كان الأمر من فريديريك جاياردية إلى ماري دوجار يرتقب بجدية. ويخلد أندريه سيجفريد بخرافته الحكمية المستخلصة من كتابه ***جزيرة الدكتور مورو*** الفرضية - وإن كان ذلك على صعيد "العجيب"، سوى أنه ربما كان المقصود ببساطة كما هو الأمر في مسرحية ***جن في الشاتليه*** إخلاء المنصة للمشهد القادم...

مشهد واعد جدا، حلقة ذات مشهد كبير: ملايين من الممثلين الصامتين، فرقة "خليط" حسب المراد، "متباين الجنسيات" إلى أقصى حدٍّ، وهو ما كان سيسمى في حفلة باليه في البلاط دخول الغرباء (كلمة الغرباء تعود أربع مرات بقلم سيجفريد في فصله التمهيدي الوحيد). ستأتي الدفعة الكبيرة المدمرة منهم، لا من أقليات قديمة متكيّسة. إنهم هم الذين سيعملون على تفجير *melting-pot*. أهلاً وسهلاً بـ"المصائب الإلهية" وبأمريكا! لا لأن المعلقين الفرنسيين يعجبون بهؤلاء المهاجرين الجدد، بل على العكس تماماً؛ فهم لا يجدون الكلمات القاسية المناسبة لوصفهم. كان جوهانيه يصفهم بـ"المتخلفين"، وكان فاريني المهموم خصوصاً بالهجرة الآسيوية يعلن كأمر "مؤكد" هزيمة العرق الأبيض في كاليفورنيا[٢٧]. في حين أن نواة القلق هو الآخر من الصينيين يتوقع أن "يضيع الدم الأنجلو ساكسوني الصافي الذي سبق واختلط بالدم

الإيرلندى والجرمانى فى هذا الخليط من العروق الدنيا"(٢٨). ولم يكن أوكتاف نويل يرى عام ١٨٨٩ فى الأمة الأمريكية سوى "شعب من طمى غريب"، لكن كل ذلك كان يبقى إذا أمكن القول سطحيًا.

هو ذا الآن أكثر جدية، وأكثر عمقًا، هو ذا إميل بوتمى، رائد "علم النفس السياسى" ومؤسس معهد العلوم السياسية، سوف يشرح لنا بتمهل وبمهارة أن "من الصحة القول تقريبًا إن كل جيل من الواصلين [إلى الولايات المتحدة] قد وجد نفسه أدنى أخلاقيًا وثقافيًا من الجيل الذى سبقه"(٢٩). ولنستمع إليه وهو يقص تاريخ هذا الانحطاط. "إن الوحدات اللاحقة تبدو خاضعة لحوافز أقل رقيًا؛ أضف إلى ذلك أنها كانت مكونة من عناصر أكثر تباينًا." أتى الشر إذن من بعيد و"التباين" يهدد منذ تاريخ طويل، "لكن صلابة الإرادة، وروح المغامرة وطعم الربح كانت عناصر لا تزال تكون لهم سيماء مشتركة شديدة التعيين وشديدة الوضوح." أدنياء ربما، لكنهم ليسوا مشبوهين! على العكس؛ فهم منمذجون بوضوح. يأتى أنئذ المجاز البيولوجى الذى لا غنى عنه. "حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر، كانت لا تزال تلك التى تخلت عنها أوروبا للعالم الجديد نسجًا سليمة وحيوية، قادرة على أن تنمو من جديد بفعل التطعيم، وصارت فيما بعد، ولا سيما بعد عام ١٨٦٠، تلقى إليه بخلايا شبه مهترئة بل ومنخورة." هل المهاجرون الجدد منخورون؟ قطعًا، ما داموا أميين، ولا أخلاقيين وهواة فواكه ذابلة. إن "علم النفس السياسى" علم دقيق، ويجب أن نستشهد على نحو كامل ببرهنة بوتمى. "يفتقر المهاجرون الجدد إلى كل مكتسب تقنى؛ فـ ٧٦ بالمائة منهم عمال يدويون، أميون - هناك فى ماساشوستس من أصل ١٢٢٠٠٠ شخص دون تعليم، و١٠٨٠٠٠ أجنبى وبسببهم فإن نسبة الجهل تتزايد من عشر سنين إلى عشر سنين فى ولايات الشمال الشرقى - لا أخلاقيون - فالأجانب فى ماساشوسيتس الذين يؤلفون نسبة ٢٧,١بالمائة من السكان يقدمون ٤٦ بالمائة من المتّهمين - منحطيون فى عادات حياتهم – يسكن البولونيون والإيطاليون خاصة أكوامًا فى أكواخ قذرة، ويتغذون من بقايا الخبز والفواكه الذابلة والبيرة الفاسدة(٣٠)".

تتراجع إذن أمريكا "الطاقة والإيمان" أمام أمريكا "المصنوعة من طمى كل العروق"(٣١). لم ينس "علم النفس السياسى" لبوتمى دروس الأنثربولوجيا العرقية. إن يانكيّه هو - أو بالأحرى كان - مزيجًا شماليًا تمامًا: "النرويجيون والدانماركيون المتفرعون عن أسلافهم الفيوردس fjords، والفرسان التوتون المتخاصمون مع الإست Esthes والهانز Hanse وفروعها، شيء ما من هذه الأنماط الثلاثة موجود لدى

اليانكيه(٣٢)". على هذه السلالة وُضِعَ طُعمُ "مسيحية اللاجئين"(٣٣). وهكذا فـ"اليانكيه قد صَنَعَ بمعيار ما أمريكا، فى حين صنع الدينُ والكنيسةُ اليانكيه"(٣٤). والحال أن ما يراه بوتمى الآن، وما يريد بيانه للفرنسيين كان ذلك كله متفسخًا، والعرق ذائبًا، والدين نفسه مشوهًا؛ لأنه إذا بقيت أمريكا "شديدة المسيحية يقينًا"، فلم "يبق من المسيحية فى التحليل الأخير إلا ضربًا من الراسب، تِفل نصف معصور ومصفى، لا يزال يعطى خمرًا لاذعًا ومشجعًا، لكنه يخلو من الأريحية ومن الشذى"(٣٥).

تمحى أمريكا التجذير، وتتلاشى تحت طبقة من الزبد: "الزبد الملقى به من قبل المجتمع الأوربى"(٣٦). يذكر تذييل بعد صفحات "قلة جذور هذه النباتات البشرية" الذين هم المهاجرون الجدد(٣٧). عودة مدهشة وذات مغزى تحت قلم إميل بوتمى لقول مأثور قديم جداً: قول إيزابيل الكاثوليكية، وهى تقارن بين سكان أمريكا الذين لا يوثق بهم كثيرًا وأشجارها التى تنمو "دون جذور"(٣٨)؛ فبينما ينطفئ "المخلوعون من جذورهم" من السكان المحليين، ها هم آخرون من مخلوعى الجذور يأتون، أكثر حداثة، وغرابة، " ***hel-matlose*** ذوى خفة ضالة"، كما يكتب بوتمى - ولا يؤلف ذلك لديه ثناءً نيتشويًا. سيتذكر أندريه سيجفريد ذلك فى عام ١٩٢٧، حين سيلخص "المشكلة الحيوية" لأمريكا بوصفها صراعًا بين "تقليد واختلاط أجناس"، وأنه سيتمنى لهذا البلد ضد انخلاع الجذور المهدِّد "قومية تصحيح": لقد كان لها أمثال درومون **Drumont**(*)، ونتمنى أن تستثير أمثال بارس **Barrès**(**)(٣٩) ستكون أمريكا أكثر قربًا منا بكثير، مسكونة حرفيًا بكوليت بيدوش(***)! تلك بالتأكيد أمنية بعيدة مثلما هى فى الوقت نفسه وهم بصرى: "أى اختلاف، حين نقترب، مع التجانس العميق الذى هو تجانس كل الفرنسيين!"

(*) إدوار درومون Edouard Drumont: صحفى وكاتب وسياسى فرنسى (١٨٤٤-١٩١٧)، مؤلف كتاب ***فرنسا اليهودية، مقال فى التاريخ المعاصر الصادر*** عام ١٨٨٦، كما أنه مؤسس صحيفة القول الحر التى كانت حملاتها ضد وجود اليهود فى الجيش مصدرًا من مصادر معاداة السامية، وهو أيضًا مؤسس رابطة معاداة السامية.

(**) موريس باريس Maurice Barres: كاتب وسياسى فرنسى (١٨٦٢-١٩٢٣)، كان يطلق عليه فى الحى اللاتينى أمير الشباب، كان قومى الهوى كما كان نائبًا عن الكتلة الوطنية (اليمين).

(***) كوليت بيدوش Colette Baudoche: هى بطلة (وعنوان) رواية قومية متعصبة لموريس باريس حول فتاة من اللورين ترفض الضم البروسى لقاطعتى الألزاس واللورين بعد حرب ١٨٧٠.

"البوتقة المرهقة" لمكان الامتزاج الاجتماعي

بورجيه، بوتمي، سيجفريد: من ١٨٩٥ إلى ١٩٢٧، كان التصور الفرنسي عن الولايات المتحدة ومهاجريها الجدد يتبع المجرى الثقافي نفسه، وقد أملى هذا المجرى نفس الاهتمام. فالمسألة التي تُحمّس الفرنسيين هي مسألة "تشبيه" العناصر الأجنبية بالجماعة القومية.

بول بورجيه يعترف بصراحة تثير التسامح بالطابع المسبق التصور لبحثه الأمريكي؛ فهذا البحث يسمح له بفحص "رؤيته" [...] للتضاد الحاسم بين العروق" - رؤية كان قد "أتى بها" في حقائبه(٤٠). إن "الفرضيات شديدة العمومية"(٤١) التي كان يستشفها ببراعة منذ أول أسبوع من إقامته ترتبط مباشرة بهذه الأولوية الممنوحة لصراع العروق. إن أمريكا الهجرة الجديدة - هذه "الدفعة الثانية من الحضارة" - تؤكد قانونًا معروفًا من قبل أقامه الروائيون - النفسانيون: "صراع الطبقات ليس إلا ظاهرًا؛ فهناك في الأعماق مبارزة إتنية." وبإيجاز، يجب إعادة الوضع المتفجر للولايات المتحدة عند منعطف القرن "من جديد إلى مسألة الصراع بين أناس من دم عدو"(٤٢). ومن هنا سيناريو الكارثة لحرب بين الشرق والغرب تشهد أمريكتين متضادتين عرقيًا تتواجهان: "في اليوم الذي ستخلق فيه طفرة الهجرة حقًا أمريكتين في أمريكا سيكون الصراع بين هذين العالمين قطعيًا بقدر ما هو صراع إنجلترا وإيرلندا، وألمانيا وفرنسا، والصين واليابان(٤٣)"، حلم فرنسي دائم على وجه اليقين هو حلم رؤية الولايات المتحدة تلعب من جديد دور الحرب الأهلية بصورة دورية...

ستجد الفرضية القصوى المقترحة من قبل بورجيه، أي فرضية حرب أهلية بل وأكثر من أهلية، القليل من الأتباع، لكن أطروحته الرئيسة ليست هنا: إنها تعطل الدمج. يؤكد بورجيه أنه "منذ هذه ثلاثين عامًا الأخيرة لم تعد "الأمركة" تقوم بعملها(٤٤). إن هذا التشوش الحقيقي أو المفترض الذي أسر المراقبين الفرنسيين خلال الثلث الأول من القرن العشرين. أمركة: ليس للكلمة بالطبع هنا المعنى الذي كان يضفيه عليها بودلير. ليس المقصود التأثير المُعدي للولايات المتحدة على أوروبا القديمة وعلى فرنسا بوجه خاص، المقصود قدرتها على امتصاص القادمين الجدد، المقصود هو مكان الامتزاج الاجتماعي وفعاليته. عن هذا السؤال الملح - والذي يسهل لمح بعده المستقبلي ولو عبر العودة المنتظمة للفظة "الامتصاص" الفرنسية جدًا - سيعطي المؤرخان والسياسيان اللذان يوجهان في هذه المرحلة التحليل الفرنسي للولايات المتحدة جوابين اثنين مختلفين، لكنهما في العمق متكاملان.

بوتمى أولاً، رأينا أنه لا يهتم كثيراً بالهجرة الجديدة "اللاتينية ـ السلافية"؛ ففى نظره لا تؤلف دونية الموجات المتلاحقة من المهاجرين أى ظل من الشك. ومع ذلك فهو لا يصل إلى تشخيص شلل "الأمركة" الذى كان بورجيه قد توقف عنده؛ فالآلة لم تنكسر، لكنها توجه مادة صارت من الحقارة بحيث يفضل بعد كل شيء أن تكون كذلك؛ ففى نظر بوتمى ليست "البؤرة" موضع الإشكال بل ما يخرج منها. إن الخليط يتم فى كل الأحوال، لكن لأنه يتم إنما تنحط أمريكا. كل المهاجرين فى نهاية الأمر "يجدون أنفسهم أمريكيين بالمشاعر وبالطرق وبالعادات، بعد مهلة تدهش فى قصرها، لكن الصفة الأمريكية فى مجموعها تقدم خصائص أكثر بساطة وأكثر حسمًا بالتدريج؛ لأنهم مفتقرون ومقلصون أكثر فأكثر، ومنسجمون وسليمون أقل فأقل"(٤٥). يترك بوتمى مكان الامتزاج الاجتماعى يعمل، ولكن من أجل أن يُغرق فيه الصفة الأمريكية.

والآن أندريه سيجفريد. معه، نتخطى الحرب العالمية الأولى، ونتطاول على هذا العصر الذهبى لنزعة معاداة أمريكا الذى سيصير ما بين الحربين، لكن هذا التخطى مبرر: أولاً لأن الحرب كما سنرى ذلك قطع شديد الرقة فى السماكة التى اكتسبتها من قبل التصورات السلبية عن أمريكا، ثم لأن سيجفريد هنا هو متمم تقليد التحقيقات الأمريكية للمتحف الاجتماعى(فكتابه ظهر فى عام ١٩٢٧ لدى منشورات أرمان كولان فى إطار سلسلة "المتحف الاجتماعى")، ولأنه يتابع أيضًا بوصفه أستاذًا فى المدرسة الحرة للعلوم السياسية تعليم بوتمى. سنعود فيما بعد لكتاب الولايات المتحدة اليوم، الكتاب النموذجى للدراسات الأمريكية حتى سنوات ١٩٥٠، لكن الصفحات التى يكرسها لـ"أزمة الدمج" لها مكانها الأفضل هنا، كنقطة صمت فى أدب مخوف يعلن منذ عام ١٩٠٠ بلقنة أمريكا الإتنية.

ينقل سيجفريد من الولايات المتحدة صورة عن الحالة الراهنة (١٩٢٥) مستخدمًا الإضاءة التاريخية كنور باق لكى يشير إلى تضاريس الحاضر، ويعرض مخلصًا فى ذلك لتقليد التحقيق الخاص بالمتحف الاجتماعى، ويعالج هذا البلد بوصفه مشكلة، أو بالأحرى بوصفه ثالوثًا من المشكلات ذات حدة غير متساوية. منذ الجملة الثانية من تمهيده، يعلن سيجفريد فى الحقيقة أقطاب المصلحة الكبرى الثلاثة التى يتيحها فحص الولايات المتحدة المعاصرة: "ضروب التقدم المادى الخارقة" التى أنجزتها، التوازن العالمى الجديد الذى تحتلّ فيه مكانة هامة، ولكن قبل كل شيء وفى الخط الأول: هذه "الغزوات السلمية من المهاجرين التى تغيّر العرق بصورة مرائية"(٤٦). سيخصص الجزء الأول بأكمله لـ"الأزمة الأخلاقية والدينية للشعب الأمريكى"حسب إشكالية جليّة: "هل سيبقى أنجلو ساكسونى وبروتستانتى؟" نحن فى أوج رواج

"الخصائص القومية"، لكن الطابع القومى حسب سيجفريد يبقى خاضعاً بصورة وثيقة لطابعه الإتنى: فبـ"الدم" دومًا إنما يُسقى فكره. والشاهد على ذلك الجملة الأولى من هذا الجزء الأول: "إن رد الفعل القَلِق للعنصر الأمريكى القديم ضد الغزو الماكر للدم الأجنبى، هو من وجهة نظر اجتماعية العلامة الجوهرية فى الولايات المتحدة غداة الحرب(٤٧)".

مع سيجفريد، يتوجب التعليق على كل جملة، وعلى كل صيغة وعلى كل مجاز؛ لأن هذا المؤرخ صاحب أسلوب. إنه "يكتب جيداً"، وأحياناً يكتب بإفراط. إذا كان كتابه، وهو ذو مظهر وغاية تربوية، يمتلك مثل هذا التأثير على نزعة معاداة أمريكا فيما بين الحربين - ليس من الممكن أن يقارن به سوى مشاهد من الحياة القادمة لدوهاميل وحكايات لوك دوترين - فذلك أولاً بسبب براعة الكتابة التى تزدهر فيه، وحسن استخدام الصيغة، والصورة التى تصيب الهدف. وبما أنه شديد الوضوح، ويستخدم سهولة الكلام الشفهى فى عرض الوقائع والأرقام، فإن سيجفريد يملك طواعية التربية اللولبية: عند هذا الأستاذ بول موران وقد لجمه بول بورجيه(*). إن "صور العرق" تأتى بيسر بقلمه، كل واحدة منها تُعالج كقطعة بارعة الأسلوب، ويتوجب الاستشهاد بالصورة التى يرسمها عن الموزاييك الإتنى الأمريكى كاملة، وفق طريقة قصصية على قدر من الدهاء. يُدعى القارئ إلى أن يتخيل أكثر الأسلاف اختلافاً "كى يستشعر بالتعاطف الروح العميق للعروق العريقة التى ألقيت فى البوتقة". مهمة مستحيلة، بالطبع، بما أن الخليط الأمريكى يتجاوز – إلى حد بعيد – "الإمكانات الوراثية"، وطريقة أنيقة فى تكريس لا الملاءمة العلمية فحسب لـ"الخصائص القومية"، بل كذلك علم معرفة مقلق يجعل من الانتماء شرط المعرفة.

شجرة النسب الرائعة هذه التى يُفترض بفروعها المستحيلة أن تعطى فكرة عن الخليط الأمريكى تبدأ مع "بروتستانتى إنجليزى غير امتثالى" وتضيع كى تنتهى على حدود العرق الأبيض من جهة "مرضعات ملونات" وآسيويى المسيرة الكاليفورنية مع هذه "النافذة المفتوحة على الروح اليهودية وعلى الشرق" الغريبة فى وسط العالم المتحضر وسواه من العوالم الأخرى المحسوب بدقة: "ألا تملكون عمًا يهودياً من لندن

(*) يريد المؤلف القول إن المؤرخ سيجفريد أقرب ما يكون غالبا إلى بعض الروائيين منه إلى مفهومنا الحديث عن التاريخ؛ فلديه من بول موران موهبة الوصف وهم الأنماط العرقية، وهو مثل بول بورجيه (الذى يعتبر نفسه روائيا "علميا"، ينظر بجدية إلى علم النفس الاجتماعى. (هـ.م.)

أو من فرانكفورت ؟ سوف تجدونه هناك، بل إني أود ربما على نحو أفضل لو كان يهوديًا من الألزاس، يهوديًا من برسلو، يهوديًا من لمبرج أو من سالونيك، أو حتى ـ ولا أبالغ أبدًا ـ عبرى من آسيا له عينا عنزة ولحية نبى[٤٨]". إن التاريخ فى نظر سيجفريد هو شعرية بابل؛ ففى أكثر من خمسة عشر سطرًا تُعدد لنا كل الشعوب التى تم إحصاؤها من قبل الهجرة الأمريكية، من الأفريقيين إلى الغاليين و"المنتسبين إلى جزر الهند الغربية"، وليزيد من الانطباع بالتشوش احتفظ سيجفريد بنظام الألفباء الإنجليزى (من أفريقيين Africans، إلخ، إلى ويلش Welsh والهند الغربية West Indies) هذه القائمة التى تتضمن أربعًا وأربعين أمة أو جنسًا، دون أية إشارة إلى عدد أو نسبة مئوية لا تنطوى على أية قيمة إعلامية، فهى لا تهدف إلا إلى الدوار، والمعطيات السكانية تصير تعزيمًا بأسماء الأعلام، والإحصاء يطفح بآخرين على طريقة سيلين، تلك هى غاية العملية التى لا نرى نهايتها: "إن الإحصاءات العاجزة عن تعداد كل شىء مرغمة على الإضافة أيضًا إلى "شعوب أخرى"[٤٩].

من بوتمى إلى سيجفريد اشتدت سرعة الإشكال الإثنى، وتبلدت البلاغة العرقية لكن ملاحظة الفشل أيضًا قد تفاقمت. وشأن سلفه، يشير سيجفريد إلى المستوى المتدنى للمهاجرين المتأخرين. ويسجل أن "الهجرة الجديدة من وجهة نظر أمريكية لا تساوى القديمة"[٥٠]، التباس ماهر، هل يعنى ذلك أنه يكتفى بتكرار وجهة النظر الأمريكية ـ ومن ثمّ أى أمريكيين؟ أو أنه يضع نفسه بكرم نفس من وجهة النظر العليا للمصالح الأمريكية ليطلق هو، سيجفريد، هذا الحكم؟ لكن لا أهمية للأمر فى العمق؛ لأنه، فيما وراء هذه المخادعات الصغيرة، هو الذى يتحمل عبء وصف هؤلاء المهاجرين ذوى الجهد الضئيل، على أنهم "دهماء بلا شكل وخليط"، يجذبهم فقط "مستوى أجر مرتفع ظاهريًا بالمقارنة مع الحد الأدنى للأجور فى أوروبا الجنوبية الشرقية"[٥١]. (ما أشد الاحتقار فى هذا المرح!)

فى الأساس: أزمة "الدمج" المزعومة، إن قوة سيجفريد تكمن فى جمعه الجواب الذى أعطاه بوتمى والجواب المعاكس الذى يقترحه هو نفسه. يؤكد سيجفريد فى الواقع فشل "الأمركة"، لكنه يحتفظ أيضًا بفكرة انخفاض عام للمستوى بسبب الحقن المفرط بعناصر مريبة. الأطروحة رقم ١ (على طريقة بوتمى): "الدمج، محدلة تسحق بلا رحمة أجمل أزهار الحضارات السابقة، ولا تترك فى أغلب الأحيان قيد البقاء إلا كائنًا بدائيًا، معادًا بشراسة إلى نموذج المجموعة. كان قد وصل عجوزًا محملاً بالعصور، فجعلت منه أمريكا شابًا، يكاد أن يكون غلامًا شبه تافه[٥٢]". الأطروحة رقم ٢: "كانت صيغة ـ البوتقة ـ، التى صارت شبه كلاسيكية تستجيب لمذهب

مقبول عموماً: كل واحد كان مقتنعاً أنه بفضل مكان الامتزاج الاجتماعي ستدمج القارة الجديدة بسرعة نسبية ولكن بصورة كاملة عدداً غير محدود من المهاجرين[...]؛ كانت الموضة آنئذ تذهب إلى الاعتقاد بالبيئة بدلاً من الوراثة. وبدأت نحو عام ١٩١٠، وفي أوج الموجة السلافية اللاتينية، بعض الشكوك تعبر عن نفسها فيما يخص البوتقة، لكن الانطباع الذي أنتجته الحرب كان مباشراً وحاسماً: كما لو أنه بوحي مفاجئ، بدت للأمريكيين الواعين الحاجة إلى وحدة الأمة(٥٣)". هؤلاء "الأمريكيون الواعون" يشبهون كثيراً فرنسياً يحمل اسم أندريه سيجفريد لاحظ في ٤ أغسطس ١٩١٤ حائراً ردود الأفعال المتناقضة بالطبع لمختلف الجماعات في نيويورك - هذه المدينة ذات "خليط الأجناس الرائع"(٥٤). ورغم سهولة المبنى على المجهول فإن أندريه سيجفريد نفسه هو الذي يختتم باسم الأمريكيين الواعين: "آلاف الأجانب الذين كان يُظن بفخر أنهم قد أُمركوا، لم يكونوا كذلك." وهو دوماً الذي يلفظ هذه الكلمات المرّة : "بمثل هؤلاء المواطنين - ما أشد السخرية في هذه الكلمة! - كانت الولايات المتحدة تصير موزاييك، وتواجه خطر ألا تكون أمّة أبداً(٥٥)". من المسلي أن يقوم أندريه سيجفريد بواسطة تشخيص خطابي ماكر بتحميل "أمريكيين واعين" رؤية نموذجية في فرنسيتها نتعرف فيها دون جهد قبل ثلاثة أرباع القرن على عناد العقل الفرنسي المتعصب للمركزية وواحدي الثقافة أمام خطر تعدد التقنيات والثقافات المتعددة، أندريه سيجفريد أو "الأيديولوجية الفرنسية"(٥٦)...

كل هذه المقمقة، ليقال لنا ماذا؟ إن الولايات المتحدة هي شأن "هذا المركب في ألف ليلة وليلة الذي يرى إلى مساميره الحديدية وهو يمخر البحر بالقرب من جبل مغناطيسي تتخلع منه ". التفكير الرغبي *Wishful + hinking* كما يقال هناك: فمحل حلم تفكك الفدرالية حَلَّ الأمل الذي يكاد يكون سرياً بتفتت الجماعات في الولايات المتحدة.

باحتفاظه في آن واحد بالسيناريوهين اللذين أعدا في فرنسا حول المستقبل الإتني لأمريكا، اشتهر أندريه سيجفريد بالخطاب المعادي لأمريكا. أمر من اثنين في الواقع، فإما أن الجماعات الكبيرة في أعدادها التي تصل مع لغتها ودينها وعاداتها... إلخ، تحتفظ بهويتها فتصبح على هذا النحو هي أيضاً "كتل لا يمكن دمجها"، وستنتهي أمريكا كأمة.(سيجفريد وسنعود له، يوحي بأن الحالة موجودة في حالة اليهود.) أو أن أمريكا نفسها هذه التي كانت حتى ذلك الحين متجانسة تتوصل - بطرد السود وفرز الهنود - بأي ثمن إلى الدمج، دمج وامتصاص هذه الملايين من الأجساد الأجنبية، وحينئذ سينتج بالضرورة عن هذا الامتصاص الكثيف لعناصر هي في آن واحد

خارجية و"دنيا" نوبان النزعة الأمريكية. وبإيجاز، لن تتلافى أمريكا تفككها إلا لقاء ثمن هويتها، وهكذا ففى كل الأحوال هاهى الولايات المتحدة خاسرة، إن لم تكن ضائعة.

هل يجب إعادة الاعتبار لبورجيه؟ إن "رؤيته" لمبارزة قارية بين "أمريكا الأمريكيين" و "أمريكا الأجانب" ساذجة. والحق أننا لا نرى كيف يمكن لبورجيه الذى عاش أكثر وقته فى نيوبورت Newport أن يفعل ما هو أفضل: "من الواضح أن نيوبورت مكانٌ مشئوم بالنسبة للمراقب غير المعتاد"، كما يلاحظ مارك توين، ساخراً(٥٧). لكن إذا كان بورجيه لا يرسم أمريكا فإنه يعكس بصورة تثير الإعجاب المانوية الغامضة التى باتت من الآن فصاعداً تحرك الخطاب المعادى لأمريكا، منظماً المواجهة بين أمريكا اليانكيه وأمريكا أجنبية "غريبة" و"غير قابلة للدمج" تصير عاهاتها وبونيتها المشار إليها دون توقف "مثيرة للاهتمام" بفعل الأثر المذيب الذى تستطيع القيام به على "برونز كورنثيا" اليانكيه. لا "الهجرة الجديدة" ولا المنبوذون أهل البلاد الأصليين الذين تُجمع معهم يستثيرون الحماس ولا حتى تعاطف المراقبين الفرنسيين الذين يحسبون حظوظ حرب عرقية فى أمريكا. لا، بورجيه ليس الوحيد الذى يحلم بمعارك لا تغتفر، والمجازات الحربية تكثر لوصف "تدفق"، و"غزو" المتوحشين الجدد. والبعض يعيدون الحلم كما كان الأمر أثناء الحرب الأهلية بانطلاق حروب جديدة حقيرة، تلك الحرب لن تترك من الإمبراطورية الأمريكية إلا خراباً واسعًا، وستدمر نصبها وتدنس قبورها: "هل ستكون العصور أرحم بقبور العالم الجديد؟ وما يدرينا إذا ما قامت حشود متوحشة، مثل كوارث إلهية، هابطة لعدد من الأيام من الجبال الأمريكية، منبثقة من المناجم، هادمة حواجز المصانع، برمي نفسها كالسيول المنتقمة ضد نصب طغيان المليون وضد بواقى الطغاة أنفسهم(٥٨)؟" سيناريو متطرف ندر أن تم توضيحه كما هو الأمر هنا من قبل إدمون جوهانيه، لكنه يترجم على نحو جيد رغبة مضمرة شديدة الانتشار بمهمة انتقامية يخص بها الخطاب المعادى لأمريكا "أمريكا الأخرى": تدمير بابل أو بدلاً من ذلك تفتيت بابل.

هوامش

(١) O. Noël, *Le péril américain*, Paris, De Soye et fils, 1899, p. 50.

(٢) P. Bourget, *Outre-Mer. Notes sur l'Amérique*, Paris, Alphonse Lemerre, 1895, t. 1, pp. 295, 297.

(٣) *Ibid.*, p. 12.

(٤) *Ibid.*, p. 310.

(٥) Le mot est de Boutmy, *Eléments d'une psychologie politique du peuple américain* [1902], Paris, A. Colin, 1911, p. 64.

(٦) U. Gohier, *Le Peuple du XXº siècle aux Etats-Unis*, Paris, Fasquelle, 1903, pp.244, 251.

(٧) وهاهو، مثلاً، مصاغ منذ سنوات ١٨٢٠، ولكن في مراسلات "خاصة" : "إن الأمريكي بلا رحمة بالنسبة للهنود، وهو بمعاملتهم على هذا النحو إنما يقوم باستعراضات إحسانية حول الطريقة التي نمارس بها الحرب في الجزائر." انظر:
Adolphe Fourier de Bacourt, *Souvenir d'un diplomate. Lettres intimes sur l'Amérique*, publiées par la comtesse de Mirabeau, Paris, 1882, p. 299 ; cité par R. Rémond, *Les Etats-Unis devant l'opinion française*. 1815-1852, Paris, Armand Colin, 1962, p. 741, note 62.

(٨) E. Johanet, *Un Français dans la Floride*,Paris, Mame, 1889, p. 42.

(٩) E. Johanet, *Autour du monde millionnaire*, Paris, Calman-Lévy, 1898, p. 374.

(١٠) Marie Dugard, *La Société américaine, M urs et caractères, La famille. Rôle de la femme. Ecoles et universités*, Paris, Hachette, 1896, p. 162.

(١١) *Ibid.*, p. 93.

(١٢) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d'aujourd'hui*, Paris, Armand Colin, 1927, pp. 6,7,8.

(١٣) تلقى هذه "المقاومة" البيضاء فهمًا كبيرًا لدى المحافظين، وكذلك أيضًا وبطريقة غير متوقعة لدى

مبعوث المتحف الاجتماعي بول دو روزييه (La Vie américaine, Paris, Didot, 1892, p.590).

(١٤) R. Rémond, Les Etats-Unis devant..., p. 732.

(١٥) J. Portes, *Une facination réticente. Les Etats-Unis dans l'opinion française*, Presses Universitaires de Nancy, 1990, p. 87.

(١٦) Gustave Le Rouge et Gustave Guitton, *La Conspiration des milliardaires* [1899-1900], Paris, UGE, 1977, tome II, p. 98.

(١٧) G. Sauvin, Autour de Chicago, Paris, Plon, 1893, p. 203. cité par J. Portes, *Une fascination...*, p. 91.

(١٨) U. Gohier, *Le Peuple du XX siècle...*, p. 299.

(١٩) J. Huret, *En Amérique (II)...*, Paris, Fasquelle, 1905, pp. 179-180.

(٢٠) Louis Simonin, *A travers les Etats-Unis*, Paris, Charpentier, 1875, p. 34. Cité par J. Portes, *Une fascination...*, p. 103.

(٢١) E. Johanet, *Un Français dans la Floride...*, p. 42.

(٢٢) J. Huret, *En Amérique(I)...*, pp. 332, 398.

(٢٣) J. Portes, *Une fascination...*, P. 104.

(٢٤) P. Leroy-Beaulieu, "Blancs et Noirs dans l'Amérique du Nord" *Le Correspondant*, 25 October 1996; cité par J.Portes, *Une fascination...*, p.110.

(٢٥) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d'aujourd'hui...*, p.89.

(٢٦) E. Boutmy, *Eléments...*, p. 73.

(٢٧) إن هزيمة العرق الأبيض مؤكدة (فى كاليفورنيا)، على هذه الأرض المسالة فإنه لا يستطيع النضال بأسلحة معادلة" : انظر:

Ch. Crosnier de Varigny, *Les Etats-Unis, esquisses historiques*, Paris, Kolb, 1891, p. 71.

(٢٨) A. de Noailles, Les publicistes américains et *la constitution des Etats-Unis, Le*

Correspondant, 25 février 1877, cité par J. Portes, Une fascination..., p. 307.

(٢٩) E. Boutmy, Eléments..., p. 271.

(٣٠) *Ibid.*, p. 64.

(٣١) *Ibid.*, pp. 25, 61.

(٣٢) *Ibid.*, p. 41.

(٣٣) *Ibid.*, p. 89.

(٣٤) *Ibid.*, 90.

(٣٥) *Ibid.*, p. 94.

(٣٦) *Ibid.*, p. 26.

(٣٧) *Ibid.*, p. 46, note.

(٣٨) انظر التمهيد، التذييل رقم ١٢.

(٣٩) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d'aujourd'hui*..., p. 17.

(٤٠) P. Bourget, Outre-Mer..., p. 324.؛ قدم مارك توين في عام ١٨٩٧ تقريراً مضحكاً عن كتاب بورجيه تحت عنوان:

What Paul Bourget Thinks of Us وذلك في How to tell a story and Other Essays,

New York, Harper & Brothers, 1897.أشكر روبير مانيكيس أن أشار لي بهذه القطعة اللذيذة.

(٤١) *Ibid.*, p. 26.

(٤٢) *Ibid.* p. 297.

(٤٣) *Ibid.*, p. 111.

(٤٤) *Ibid.*, p. 295.

(٤٥) E. Boutmy, *Eléments*..., p. 68.

(٤٦) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d'aujourd'hui*..., p. 1.

(٤٧) *Ibid.*, p. 3.

(٤٨) *Ibid.*, p. 20.

(٤٩) *Ibid.*, pp. 6-7.

(٥٠) *Ibid.*, p. 7.

(٥١) *Ibid.*

(٥٢) *Ibid.*, 18 .

(٥٣) *Ibid.*, pp. 9,10 .

(٥٤) *Ibid*, p. 16.

(٥٥) *Ibid.*, p. 11.

(٥٦) بالمعنى الذى يريده برنار هنرى ليفى فى كتابه ***الأيديولوجية الفرنسية*** (Idéologie française, Paris, Grasset, 1981) الذى تبقى فيه الصفحات الخاصة بنزعة معاداة أمريكا (الصفحات ٢٨١ ـ ٢٩١) راهنة إلى حد كبير.

(٥٧) M. Twain, What Paul Bourget Thinks of Us, voir note 40.

(٥٨) E. Johanet, *Autour du monde millionnaire...*, p. 374.

الفصل الثامن

إمبراطورية الاحتكارات:

اشتراكية أم إقطاع؟

فى مرصعات الخطاب الذى كان ينضبط مع منعطف القرن كى يشكل صورة لأمريكا مشئومة، بقيت قطعة تنتظر وضعها وهى ليست الأقل: قطعة "الرأسمالية". ويقى إدخال كلمة غابت تقريباً عن الفصول السابقة: كلمة الاشتراكية.

لمطابقة الولايات المتحدة بالرأسمالية المنتصرة اليوم وضع البداهة، لكن يجب التذكير أنها جاءت متأخرة نسبيًا فى تاريخ التصورات عن أمريكا. فخلال القسم الأعظم من القرن التاسع عشر كان ينظر للولايات المتحدة بوصفها بلداً زراعياً جوهرياً تسود فيه الملكيات الصغيرة(١). أمريكا الريفية هذه، الابنة الجديرة بواشنطن - سنسناتوس، يجسدها المزارع *farmer* أفضل من الفارس، والتاجر الصغير أفضل من الصناعى الكبير. أما المقولبات السلبية فقد سارت بنفس الخطى المنحرفة. تصور ستندال أمريكا كما لو كانت محافظة أو ولاية جزئية واسعة: لها أمام أنوف الفرنسيين المرتابة فى ١٨٤٠ أو ١٨٥٠ رائحة الروث والدكان، ولكن بقدر ما يتقدم القرن بقدر ما تتسع الدكان، ويحلّ مربى الخنازير فى سنسناتى محل المزارع فى كريفكور، قبل أن يتخلى هو ذاته عن الأولوية لملوك المحفوظات. صارت أمريكا فى نهاية القرن بلد "الدولار ملكًا"، إنها "حكومة الأغنياء"، "عالم يملك الملايين"(٢). وقد تفتحت الشراسة الدكانية فى رغبة السيطرة: *libido dominandi* قيصر تحت قناع صاحب دكان حديث النعمة.

عتبة حاسمة تم عبورها فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. حتى ذلك الحين كانت المسألة مسألة النزعة التجارية الفطرية، والمركانتيلية العدوانية ونزعة الحماية حتى الإفراط. كان هوس الفرنسيين هو "التعرفة"؛ فقد رفعت الحواجز الجمركية إلى مرتفعات تناهض أعالى همالايا لصالح رخاء الاقتصاد الأمريكى. إنها هى، "التعرفة"، التى وضعت فرنسا والولايات المتحدة عدة مرات على حافة الأزمة الدبلوماسية، وهى أيضًا التى دفعت نحو انفصال جنوب اغتاظ من أن يتحمل أعباء تصنيع الشمال، وهى دومًا التى تطلق الآن الولايات المتحدة نحو غزو الأسواق الجديدة

الأمريكية الجنوبية أو الآسيوية غير المحمية بحواجز "المقابلة بالمثل" الأوروبية. عشية القرن العشرين، لم تختف "التعرفة" من المشاغل الفرنسية، لكنها أضاعت نجوميتها لصالح التروست.

وهذه المرة (الأولى دون شك) ليس هناك عمليا تفاوت بين الحدث الأمريكي وصداه الفرنسي. لقد فرض التروست نفسه فوراً على الانتباه. لقد ثبت الأنظار واستنفر الأقلام. وطمس بقدره الكلام المكرر عن البخل اليانكيي. كفت أمريكا نهائيًا في الخيال الفرنسي عن أن تكون المرج المربع للمزارع، وجنة صاحب الدكان، ومملكة البخلاء الأدنياء من سبع سنين الذين يبيعون بثمن مرتفع جدا البيض للسيدة ترولوب. لقد صار جوناثان الصغير كبيراً: لم يعد يحسب بالقروش، ولا حتى بالدولارات التي جمعها بدقة متناهية؛ إن وحدته القياسية هي المليون. هناك دومًا صبيان على استعداد ليبيعوا أباهم من جديد بعشرين قرشًا السكاكر التي أتوا على تلقيها منه(٣)، لكن هذه النوادر عن الجشع الصبياني ستؤلف من الآن فصاعداً صوراً شاحبة في هذا "العالم المالك للملايين". ليس التروست مجرد تغير بسيط في الدرجة؛ إنه يمثل تحولاً عميقًا، خروجًا من "الطرق العادية" للربح. وكما يشير إدمون جوهانيه، "لا يمكن مراكمة المليون فوق المليون بالطرق العادية، فالرفوش الصغيرة لا تكفي لذلك"، لابد للأمر من آلات جديدة، و"هذه الآلة هي التروست"(٤). ولا شك أن "خصائص العرق" اليانكي ليست غريبة على ابتكاره. ولا شك أن تطوره السريع على نحو خارق مدين بكثرة إلى الجشع "المادي" نفسه الذي كان يُترجَمُ بالأمس بضرب من الشح أشد خشونة، لكن هذا التكوين الاجتماعي الجديد ببنيته وضخامته لا يمكن اختزاله بالرأسمالية المعروفة وبسلوكها التقليدي؛ لأن التروست ليس "أداة" فحسب، كما يكتب باربييه في عام ١٨٩٣: إنه "نظام". انتشرت هذه القناعة بسرعة وانعكست في التبني العام لتعبير ***نظام التروست*** ***trust-system*** بوصفه أكثر ملاءمة من تعبير ***التروست*** ***trust*** فقط.

في نظر العديد من المراقبين نحن في الواقع إزاء قفزة نوعية ذات طابع اجتماعي أكثر مما هي أيضًا قفزة كمية ذات طابع اقتصادي؛ فكلمة نظام في مجال المعنى الفرنسي لا تنطوي على أي شيء حيادي: إنها تسمى فيه في نهاية القرن هذه مجموعة كاملة من ضروب التواطؤ بين السياسة والأعمال. إن عدوى الصور سهل بين "النظام" السياسي - الاقتصادي الذي يديم في فرنسا استغلال "الصغار" من قبل "الكبار" وبين نظام التروست الأمريكي هذا الذي يؤسس فيما يبدو لاستغلال - ضخم بابتلاع الشركات الصغرى وجعلها تابعة، ولكن مهما يكن أمر هذه العدوى، فإن ولع

المعلقين الفرنسيين بتعبير نظام التروست يبين جيداً أنه فيما وراء التروست ككيان، فإن *"تعميم التروست trustification"* (لفظة مستحدثة أخرى فى تلك الحقبة) هى التى تقلق. لا، ليس التروست على وجه اليقين مجرد أداة مالية وصناعية، ولا حتى آلة ـ أداة: إنه عالم اجتماعى جديد. والقفزة النوعية هى أيضًا قفزة فى المجهول. بنية مالية وصناعية جديدة تماماً، ذات مقتضيات إنسانية ثقيلة، تتخذ مكانها على نحو لا يقاوم، على مستوى البلاد بأجمعها. إنها تدفع مجساتها نحو باقى أنحاء العالم. إنها ثورة وهذه الثورة هى ثورة كونية. ومنذ عام ١٩٠٠ صارت أمريكا الفرنسيين *إمبراطورية التروست*: محيطها فى كل مكان، ومركزها فى لا مكان. لقد بدأت العولمة.

ليست ترجمة هذه الأمور الجديدة جذريا بالألفاظ المتاحة أمراً سهلاً. يعترف الاقتصادى بيير لوروا ـ بوليو أن تعريف التروست أمر دقيق، هو نفسه يعتبره بوصفه "تجمع مؤسسات تتوصل إلى أن تؤمن لنفسها احتكار صناعة ما [...] أو على الأقل جزءاً غالبًا بما فيه الكفاية"، والترجمة التى يفضلها هى "تركيبة صناعية"[٥]، وهى من قبل هذا الليبرالى تعريف دفاعى؛ فالمقصود التأكيد ضد الشعور العام، أن "كل تروست لا يستهدف الاستئثار وأقل من ذلك النجاح فيه". لأن هذه هى الرؤية الأشد انتشاراً فى فرنسا: التروست هو أداة للاستئثار. يصفه بول دو روزييه بتحفظ بوصفه "احتكار خاص"[٦]، لكن إدمون جوهانيه فى السنة نفسها يرى فيه "كونفدرالية مالية للاستئثار من قبل صناعة كبرى بكل الصناعات المتوسطة المشابهة"[٧]. ويذهب أوكتاف نويل فى الاتجاه نفسه: "التروست، أى نقابة الاستئثار"[٨]. هذه الترجمات والشروحات تعيد وضع التروست فى الأجل الطويل؛ فهى تعيد بالتداعى إلى المستأثر ـ المجوِّع موضوع شائعات النظام القديم وتسهل على هذا النحو أقلمته. إن "المحتكر" الأمريكى يجمع دفعة واحدة الوراثة الأسطورية الثقيلة لهذا المستأثر القديم والسلالة التى لا تقل كراهية للمضارب الحديث، للطمّاع المالى. إن صورة التروست التى تنتشر آنئذ فى فرنسا تعكس جيداً هذه الثنائية: إنه مجسّد على نحو قوى تحت ملامح بعض الـ"أقطاب"(روكفلر، مورجان، كرنيجى...إلخ.)، فى الوقت نفسه الذى يُقلِق فيه طابعه المتغير الشكل والمجهول.

إنه يؤلف أيضًا على صعيد آخر موضوع قراءة متفرعة؛ فالمسألة مطروحة دفعة واحدة عن طبيعته الصناعية أو المالية. التروست ينتج، لكن هدفه الإنتاجى يتلاشى غالباً فى الوصف وراء الأهمية الممنوحة للاستحواذ على التوزيع وعلى رقابته. وحول هذه النقطة يتقارب الماركسيون والليبراليون: ينظم التروست ويسيطر على قطاعات كاملة من الإنتاج من أجل أكبر كسب تحققه حفنة من المغامرين الاقتصاديين الذين لا يملكون أية

عـلاقـة مع الإنتـاج ذاته. هكذا فـإن جـون روكـفلر وشـركـاه، مـؤسـسى ***ستـاندر أويل*** ***Standard Oil***، لم يسبق لهم أن "استخرجوا أى لتر من الزيت ولم يكونوا يعرفون البترول إلا لأنهم حرقوه فى المصابيح"(٩). لقد حمل ثقل التقليد السان سيمونى الكثير من الاقتصاديين على الشك فى أن هذه السيطرة المالية و تبعية المنتج لـ"المحتكر" هذه ينطويان على شكل جديد من الطفيلية الاجتماعية. وتميل الدراسة الماركسية المرجعية، دراسة بول لافارج، أيضًا إلى أن ترى فى التروست آلة مالية رائعة فى رقابة الصناعة أكثر مما ترى فيها تنظيمًا صناعيًا جديدًا. "إن نظام التروست يُخضِعُ لنظامه التجارةَ التى سيطرت حتى الآن على الزراعة وعلى الصناعة"(١٠)، كما يكتب لافارج. يسجل التروست إذن عبور مرحلة جديدة فى تاريخ علاقات الإنتاج. إن نظام التروست هو ***تجارة عليا*** ***super-commerce*** تتطابق والمرحلة الأعلى للرأسمالية، وهو بوصفه أقوى وأكثر تعقيدًا من سابقه مكرسٌ ليحل محل نفسه باعتباره "فن ابتزاز الإنتاج". ويلح لافارج فى دراسته: "لم تبتكر عصبة روكفلر"، رائدة "***تعميم التروست*** ***trustification***"، ولم تحسّن أداة الإنتاج؛ إنها فقط "برهنت على مهارة تجارية متفوقة"(١١).

يتلقى التروست من هذه القراءات التى تترجمه بمفردات التغير الشامل للعلاقات الاجتماعية طاقة حاسمة تدفع به على امتداد القرن العشرين إلى المرتبة الأولى من المجازات السلبية عن أمريكا الشمالية. هكذا ولد منذ نهاية سنوات ١٨٩٠ الوجه الأكثر ذيوعًا فى فرنسا للنزعة الأمريكية، ومجازها الرئيسى. تثبت كلمة تروست لأكثر من قرن لا صورة الرأسمالية الأمريكية فحسب، بل كذلك صورة الرأسمالية بوصفها أمريكية؛ "فستاندر أويل موجودة واقعيًا أكثر من إله المسيحيين الطيب كلىِّ الحضور"، كما يكتب بول لافارج واصفًا أول مولود للتروستات. كلية الحضور، كلية القدرة: ستصير هذه الصفات الإلهية للتروستات الصفات ذاتها لأمريكا باتت مهابة أكثر فأكثر.

يكتب بول لافارج كتابه التروستات الأمريكية ***Les Trusts américains*** عام ١٩٠٣(١٢)، لكن صهر كارل ماركس كان مسبوقًا بعدة اقتصاديين وعلماء اجتماع وصحافيين لم تكن لهم أية صفة ماركسية. على أن الاهتمام بالظاهرة عام، كما أنه شديد السرعة أيضًا؛ فشركة ستاندر أويل لروكفلر تعود إلى بداية سنوات ١٨٨٠، ووجَدَت أول مؤرخيها(ونقادها) الأمريكيين منذ عام ١٨٩٤ فى شخص هـ. د. لويد H.D. Lloyd(١٣). أما فى فرنسا فكان النقاش حول نظام التروست قويًا بعد ذلك بأربع سنوات؛ ففى هذا العام ١٨٩٨ الحاسم على وجه اليقين أعطى بول دو روزييه فى سلسلة "مكتبة المتحف الاجتماعى" وصفًا بات يعتبر مرجعًا، فى كتاب يحمل عنوان ***الصناعات المحتكرة فى الولايات المتحدة*** ***Les Industries monopolisées(trusts) aux***

Etats-Unis، فى حين أن إدمون جوهانيه يجمع مقالاته فى صحيفة *المراسل Le Corre-spondant* فى كتاب تحت عنوان *حول عالم يملك الملايين Autour du monde million-naire* وبعد أقل من عام بعد ذلك يعود أوكتاف نويل فى صحيفة المراسل ذاتها إلى التروست، السلاح الهجومى لـ"خطر أمريكى" تؤلف نزعة الحماية سلاحه الدفاعى(١٤). (وبالتضاد، فإن كتابى كرونييه دو فارينيى الصادرين قبل قليل من الزمن، أى فى عامى ١٨٨٩ و ١٨٩١ وهما على التوالى، الثروات الكبرى فى الولايات المتحدة *Les Grandes Fortunes aux Etats-Unis* والولايات المتحدة : نُبَذٌ تاريخية*Les Etats-Unis, esquisses historiques*، كانا لا يزالان يجهلان نظام التروست). حين دخل لافارج الحلبة كان الاهتمام بالتروست إذن شديداً، وكان الموضوع من الإلفة للقراء بحيث إنه لا جوهييه فى عام ١٩٠٣ ولا هوريه فى عام ١٩٠٤ كلفا نفسيهما عبء تعريفه.

كل المراقبين الفرنسيين على وعى بالتهديد الاقتصادى الذى يمثله بالنسبة لأوروبا نظام التروست، لكن المشكلة النظرية التى يطرحها تطوره هى التى تسترعى انتباههم بوجه خاص. يُنظر إليهذه المشكلة انطلاقًا من فرنسا بوصفها مشكلة النظام الجماعى الذى ينطوى عليه التروست كالرشيم مثلما تنطوى البيضة على الصوص. إن ظهور التروستات الأمريكية يرغم فى الواقع على إعادة صياغة مسألة الامتلاك الجماعى لوسائل الإنتاج بمفردات لم يستعدّ لها المنظرون الماركسيون ولا الاقتصاديون الليبراليون.

يمكن تلخيص معضلة الليبراليين على هذا النحو: أولا يوشك التروست الذى ولد من المنافسة أن يؤدى إلى إلغاء المنافسة؟ هل يمكن للتركيز وللتفاهم اللذين يفترضهما أن يبقيا زمنًا طويلاً متلائمين مع مذهب ليبرالى سليم؟ يقوم أكثر الأجوبة بساطة لا على إنكار وجود نظام التروست بل على إنكار أهميته التاريخية؛ إذ لما لم يكن هو الوجه الذى لا غنى عنه لرأسمالية المستقبل، فإن التروست ليس إلا عارضًا، وحمّى نمو، وشذوذًا طارئًا لاقتصاد متوتر. يشرح بيير لوروا بوليو على هذا النحو فى عام ١٩٠٤ أنه "بدلاً من أن تؤلف الأعضاء الجوهرية، فإن معظمها هى بالأحرى فى نظرنا طفرات عابرة للتقدم الصناعى الأمريكى"(١٦)؛ إنها تصدر أصلاً إشارات ضعف، "تتمايل وتسقط من كل مكان"، "كقرود من الورق"، بسبب "مغالاة رجال التروست"(١٧). يتوجب إذن فى نظر الليبراليين التمييز بين التركيز والتعقيل (ضمان الفعالية، والأسعار المنخفضة، والأجور المرتفعة) وبين مناورات المضاربة لزيادة رأس المال التى تؤلف موكبه. هذا الفصل مرفوض بالطبع من قبل الماركسيين، ثم إن التروست لا يقلّ فى استثارته الانزعاج لدى المعسكر الليبرالى؛ حيث تتراوح ردود الأفعال من الاستنكار

الأخـلاقى (يُزيّف التـروست التنافس السليم، إنه "غـشـاش") إلى القلق السـيـاسى (التروست مشاع مقنع، اشتراكية محتملة).

والاضطراب محسوس أيضًا لدى بول دو روزييه، أول من قدم تحليلاً للتروستات نتيجة تحقيق ميدانى؛ ففى نظر هذا الإصلاحى المضاد للنظام الجماعى يطرح التروست مشكلة عويصة. يكتب فى مقدمته: "إذا قاد التطور بصورة حتمية إلى الاحتكارات، فيجب الانحناء أمام النظريات الجماعية [...] صحيح أن التروستات الأمريكية هى احتكارات خاصة وليست عامة، كالاحتكار العام الذى حلمت به النزعة الجماعية ؛ ولكن حين لن تعود الجماعة تجد فى مواجهتها إلا رأسماليًا واحداً فى كل صناعة، فسيكون من السهل عليها أن تحل محله(١٨)." ذلك هو تمامًا رأى ليبرالى مثل جوهييه؛ فهو يرى أن "الجمهور [الأمريكى] يمارس الاشتراكية دون أن يدرى، شأن السيد جوردان الذى يكتب النثر"، ويستنتج من ذلك أن "تأميم الملكيات المحتكرة من قبل التروستات لن تضر إلا عدداً زهيداً من الملاكين. إن الطرق إلى النظام الجماعى مفتوحة فى الولايات المتحدة أكثر بكثير مما هى عليه فى فرنسا"(١٩). على أن بول دو روزييه لا يتسرع، ويستعيد فى خاتمته ما كان يبدو موافقًا عليه فى مقدمته؛ فبعد أن تراءى له خلال ثلاثمائة صفحة فى التروست مستقبلاً جماعيًا، يفضل روزييه أن يرى فيه "عارضًا" أو "حالة مرضية"(٢٠)، مضيفًا أنه إذا كان الأمر مصادفة غير ذلك؛ فالخطأ سيقع لا على التروست نفسه بل على التحويل الاشتراكى المقنع للاقتصاد الأمريكى الذى سمح بوجود التروست: "إذا كان التروست يعدّ لمجيء الاشتراكية، فلأن الاشتراكية فى شكل التدخل المفرط للدولة تسمح بولادة التروست(٢١)". إن الجرثوم فى نظر بول دو روزييه كان فى الفاكهة وأمريكا معرضة للاشتراكية بمكر(بفعل السياسة المفرطة فى الحماية وبسبب "غموض المصالح الخاصة والمصالح العامة"(٢٢)) قبل أن تتعرض للتروستات. سنعثر فيما بعد على مقاربة مشابهة لدى برتران دو جوفنيل *Bertrand de Jouvenel*.

بهذه التعرجات لدى أكثر المراقبين جدية للمشهد الاجتماعى الأمريكى تقاس المقاومة التى يعارض بها التروست النظرة التحليلية، ونرى أيضًا أن النقاش حول التروست، فى فرنسا، هو قبل كل شىء نقاش حول النظام الجماعى. يمكننا الاعتقاد أن الاشتراكيين أكثر ارتياحًا، لكن لا شىء من ذلك؛ فهم لا يتفقون على تحليل هذا التركيز، ولا بوجه خاص على الدروس السياسية الواجب استخلاصها. ففى نظرهم أن التنظيم الاقتصادى الجديد المولود من "تعميم التروستات" لا يمكن أن يوصف فى المطلق، أى بمعزل عن علاقات القوى بين الطبقات على النحو التى هى عليه فى الولايات

المتحدة فى هذا الطور الخاص من النمو الرأسمالى. والحق أن التقديرات تتباين بصورة قوية؛ فالنظرة الملقاة على نظام التروست موجهة مسبقًا: فهى لا تنفصل عن التقدير الشامل للوضع الأمريكى والاختيارات الإستراتيجية المتعلقة به. كانت أمريكا سبب الشقاق بين الجمهوريين فى بداية الجمهورية الثالثة، وهى هنا تصير سبب الشقاق بين الاشتراكيين الثوريين والإصلاحيين، وستطبع مفردات هذا الشجار بصورة دائمة نزعة معاداة أمريكا اليسارية فى فرنسا.

أمريكا، راية الاشتراكية أم صليبها ؟

نذكر اللهجة المرحة التى كان يلخص بها دومولان عدم شهية أمريكيى الشمال للاشتراكية، وعلى أننا عهدنا إليهم بالحراسة وبالأسرة، وأرسلنا إليهم ليبنخت وإليانور آفيلينج - ماركس، فلا نتيجة لذلك. ليس هناك من وسيلة "لجعل إنجليز أمريكا يهتدون"[٢٣]، تبقى الاشتراكية الأمريكية طُعمًا ألمانيا، مرفوضًا من الجسم السياسى "الإنجليزى". كان ذلك بالنسبة لدمولان بداهة هادئة - وتأكيداً لنظريته عن الاختلاف الجذرى بين الطبيعة "الجماعية" للعرق الألمانى والفردانية الأنجلو ساكسونية. إقرار الفشل هذا كان واسع القبول فى سنوات ١٨٩٠، بما فى ذلك من قبل عدد من المنظرين والمناضلين الاشتراكيين، لكن لا مجال بالنسبة لهم للاستهانة به ولا للاكتفاء بتفسير إتنوجرافى.

تفرض البداهة نفسها على كل حال منذ نهاية القرن التاسع عشر: هناك "مشكلة أمريكية" للاشتراكية - بوسعنا والحق يقال - المجىء بالشر من أبعد مكان والبدء بتذكير ضروب الفشل المكررة لمحاولات توطين جماعات اشتراكية أو شيوعية عرفت بالـ "يوتوبية". لقد بدأ فى الواقع صدام الفكرة الاشتراكية والواقع الأمريكى مع وصول هؤلاء المهاجرين الغربيين الذين جاأوا يرصّون أحلامهم إلى أرض اشتهرت بأنها عذراء. كانت الولايات المتحدة بوصفها أرض الملاذ لكثير من الجماعات "النموذجية"، ملجأ تلامذة كابيه **Cabet** أو فورييه **Fourier**، حفيّة بالناس، لكنها غير مبالية بالأفكار التى كانوا يحملونها. وعلى امتداد القرن التاسع عشر، تتابعت هذه الجماعات الصغيرة، وتفرقت، واضمحلت. ويبدو أن هذه الجماعات التى أنشئت لتوها ما لبثت أن ذابت تحت شمس شديدة العنف، وضاعت فى آفاق كاليفورنيا أو تكساس الشاسعة. وحين نشرت ث. بنتزون **Th. Bentzon** الاسم المستعار لتيريز بلان **Thérèse Blanc**، وهى مؤلفة عديد من الكتب حول المجتمع والأدب الأمريكيين، فى عام ١٨٩٨ كتابها ***أشياء أمريكا وناسها***، كرست فصلها الأول من أجل "الشيوعية فى أمريكا" - لكنها

شيوعية الشكرز Shakers، "الشيوعيون الحقيقيون الوحيدون الذين يوجدون فى أمريكا"(٢٤)! هى نكتة ولا شك، لكنها لم تكن تعرّض مؤلفتها للتكذيب.

عاشت اشتراكية الجماعات هذه منذ سنوات ١٨٦٠، ولم تكن تنطوى حقيقة أن لا يكون الطعم قد آتى أكله على ما يدهش الآباء المؤسسين للاشتراكية العلمية، الذين كانوا يوجهون آنئذ نظرهم نحو أمريكا، لا للبحث عن فضاء وعن حرية صالحين لتجريب الصيغ المثالية، بل ليتابعوا فيها بانتباه تطور الآلة الرأسمالية وتقدم التنظيم العمالى. وإذا كانوا يحتقرون طواعية من تقدموهم من "اليوتوبيين"، فإن اشتراكيتهم ستعرف مرارتها الخاصة بها؛ فمع الولايات المتحدة ستكون للحركات الاشتراكية بصورة عامة وللجماعات الماركسية بصورة خاصة دومًا علاقة شقية قائمة على آمال كبيرة وعلى خيبات واسعة قبل أن تستقر فى استسلام مشاكس. لن نذكر هنا هذا التاريخ المضطرب إلا من خلال لمحات سريعة لنحاول تقدير تأثيره على نزعة معاداة أمريكا الخاصة باليسار وباليسار المتطرف فى فرنسا، وهى مهمة حرجة على نحو مزدوج؛ فالاشتراكية الفرنسية قبل ١٩١٤ فى تنوعها المحيِّر لم تكن تتطلع نحو المسرح الأمريكى، ولم تكن حساسة لـ"حظوظ" الاشتراكية فيما وراء الأطلسى. أما بالنسبة للمواقف الماركسية إزاء الولايات المتحدة - بدءًا بمواقف المؤسسين ومن تابعهم مباشرة - فهى متقلبة، رهن تاريخ اجتماعى حافل بالصخب وبالعنف، مصنوع من تسرعات ضالة ومن نتائج فوضوية للحركة العمالية. كانت عسيرة على التثبيت إذن وكذلك عسيرة أيضًا على التأويل؛ لأنها كانت شبه مرتبطة على الدوام بالخلافات العقائدية وبالمشاجرات فى قلب الدولية.

اكتسبت الولايات المتحدة فى عدة ظروف تاريخية بين ١٨٦١ وبداية القرن العشرين أهمية كبرى فى نظر ماركس وإنجلز وخلفائهما. ومع ذلك فمن الصعوبة الركون إلى الصورة التى يعطونها عنها؛ فهى تكاد تكون "متحركة" دومًا كما لو أن أمريكا، كطفل شديد الشغب، كانت تسبب بانتظام فشل صورة العائلة الاشتراكية؛ فهل كانت تمضى حقًا بسرعة شديدة لا يمكن معها الإمساك بها من قبل النظرية؟ أو أن مردّ هذا الارتجاج فى الصورة إلى المصوِّرين؟ يقدم المؤرخ لورنس مور Laurence Moore ملاحظة مهمة: "لم يكف الماركسيون الأوروبيون عن تحليل المجتمع الأمريكى كما لو كان باستمرار على حافة تغير عميق [...]إن أمريكا التى ترتسم عبر وصفهم هى تجريد، نموذج ما يتوجب على هذا المجتمع أن يصير عليه بعد بضع سنوات إضافية من التطور الرأسمالى(٢٥)". إذا كانت الولايات المتحدة الخاصة بماركس وبإنجلز كما هو الأمر فيما بعد بتلك الخاصة بلينين وبتروتسكى (أكثر الأربعة حبًا لأمريكا) لم تظهر

أبدًا بوصفها كيانًا مستقرًا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا واضح الحدود؛ فلأنها وجدت نفسها موضع تطبيق نظرة مستقبلية باستمرار، وليست الحكاية الماركسية عن الولايات المتحدة بانتقالها من الحماس إلى فتور الهمة، تحليلاً بأسنان المنشار فحسب؛ فالإصغاء للمستقبل فيه يملك الأولوية على تشريح الحاضر. تملك أمريكا موهبة تحويل القائلين بالمادية التاريخية إلى عرّافين يعلنون دون كلل تغيرات مداهمة بقدر ما هى حتمية: إنهم لا يصورون الولايات المتحدة كما هى عليه بل كما يّتوجب منذ الغد أن تكون عليه. هكذا تمنح الماركسية الأوروبية نفسها مشهد أمريكا التى ليست على الإطلاق أمريكا اللحظة الراهنة بل أمريكا اللحظة القادمة. وسواء أكتب فى عام ١٨٨٠ أم فى عام ١٩٠٠، فإن المراقب المناضل يهتم بأمريكا على النحو الذى ستغيرها خمس أو عشر سنوات إضافية - هذا إن لم تُؤخِّر الآجال بانتظام.

تواجه الصورة البلاغية القديمة التى تجعل من أمريكا عالمًا شابًا، لا شكل له، وغير مستقر كارثة جديدة هنا. سوى أن المنظور تغيّر جذريا، لا بل إنه انعكس؛ لأنه لم تعد نواقص تطورها التى تشوش صورة أمريكا؛ بل الإيقاع المذهل للازدهار الرأسمالى الذى يحول دون تثبيت قسماتها، ويدعو إلى توقعات مستمرة. صار الوجه المشوه لأمريكا الصبية قناع المستقبل الجماعى، الذى شوهته السرعة كرءوس سائقى السيارات هذه التى مددتها السباقات، والتى سيرسمها المستقبليون عما قريب. نُسيَ الزمن وهو ليس ببعيد الذى كان فيه هيجل يعتبر إدخال أمريكا فى خطة التطور العام أمرًا زائدًا؛ فحرب الانفصال التى توبعت بحماس من قبل ماركس وإنجلز أعادت تسجيل الولايات المتحدة فى جدليّة التاريخ العالمى، وها هو التسارع المدوخ للعمليات المادية فى سنوات ١٨٦٥ - ١٨٩٠ يرتفع بها إلى مقدمة الصيرورة التاريخية. وعند منعطف القرن بدأت الأرقام فى تنهال لتشهد على تفوق الصناعة الأمريكية قطاعًا بعد قطاع، إلا أن "التجاوز" الاقتصادى لإنجلترا من قبل الولايات المتحدة فى نظر الاشتراكيين ينطوى على معنى أخروى. يؤدى حساب القوى المادية بالضرورة إلى حساب آخر: إلى تقدير الدور الممنوح لكل بلد فى المشهد الأخير من الدراما الرأسمالية؛ لأن زمن الرأسمالية بالنسبة لاشتراكيى نهاية القرن هؤلاء محسوب. إنه يعد بالسنوات، بخمس سنوات أو بعشر على الأكثر، ونادرًا ما يُعَدُّ بعشرات السنين.

إذن، من أين ستأتى الضربة الحاسمة إن لم تأت من البلد الذى ستطلق فيه قوى الدمار الذاتى للنظام أشدُّ الحريات شمولاً (وأكثرها عنفًا)؟ "يبين أكثر البلدان تطورًا صناعيا لمن يتابعونه على الصعيد الصناعى صورة مستقبله الخاص به." يُصَدِّرُ بول لافارج بهذا القول المأثور لماركس كتابه عن التروستات، فى عام ١٩٠٣. إذا كانت

الولايات المتحدة قد ارتقت إلى قمة سلم الأنواع الرأسمالية، أو ليس من الملح الذهاب إليها لنقرأ مستقبلنا؟ هناك ثيمة تفرض نفسها، وهى ليست بالمعادية لأمريكا على الإطلاق، لكنها تغذى مع ذلك نزعة معاداة أمريكا: ثيمة أمريكا بوصفها مختبر المستقبل، بوتقة تجريبية للمصائر الأوروبية. هذه الثيمة كارثية لدى ماركس وإنجلز وأتباعهما (بمعنى أن هيجان الإنتاجية يخلق قصوراً حراريا عضالاً) ورؤيوية (بمعنى أن أمريكا ستكشف للنظام الرأسمالى حقيقته الخاصة به). وعلى أن هذه الثيمة قرارية وحركية ضمن منظور انقلاب كونى للاقتصاد، فسنرى أنها لن تستثير الحماس نفسه لدى الطبقة العاملة إلا بين قادتها.

ماركس وإنجلز ولينكولن، المعركة ذاتها ـ أم لا؟

هارى تورتلدوف روائى أمريكى مختص بالخيال التاريخى(كما نقول الخيال العلمى) كرس للماضى الممكن لأمريكا الشمالية سلسلة من الروايات ـ المضادة (كما نقول المادة ـ المضادة)[٢٦]. فى بداية هذه القصة الأمريكية شديدة الخصوصية، فرضية "محتملة": تنتهى حرب الانفصال دون منتصر ولا منهزم. هناك اقتسام للبلد وإنشاء فى الشمال لاتحاد مقتصر على بعض الولايات. وضع تبّله المؤرخ الروائى بتصوره تحوّل لينكولن (الذى لم يكن بالطبع قد قتل) إلى الراديكالية وانضمامه إلى الاشتراكية الديمقراطية *sozialdemocratie*. وتحت رعايته تصير الولايات المتحدة الشمالية أول جمهورية اشتراكية فى العالم.

كان يمكن للجزء الأول من السيناريو أن يرضى نابليون الثالث. أما الثانى فلم يكن ليزعج كارل ماركس. لينكولن الراديكالى هذا الذى ابتكره هارى تورتلدوف هو فى الأساس الزعيم الذى حلم به ماركس وإنجلز على امتداد الحرب، أمريكا الشمالية هذه وقد "ثوّرها" الصراع، تلك التى لم يكفا عن تمنيها بكل قواهما، من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥، دون أمل كبير فى رؤية هذه الأمنيات تتحقق.

لإضاءة العلاقات المعقدة التى كان الماركسيون يقيموها مع الولايات المتحدة عند منعطف القرن، يجب أن نعود إلى الحرب الأهلية وإلى انخراط ماركس وإنجلز الصحفى لصالح الشمال. لم يبد من المفيد الحديث عنه فى الفصل المخصص لهذه الحرب باعتبار أن مقالاتهما التى ظهرت فى معظمها بالألمانية فى صحيفة ***Die Presse*** وبالإنجليزية فى صحيفة ***New York Daily Tribune***، لم يكن لها من تأثير على الجدل الفرنسى ـ الفرنسى. إن دخولها فى مجمل "الكتابات السياسية" الماركسية هو الذى

أضفى عليها فيما بعد وضع المراجع التى لا غنى عنها حول أمريكا. على أنها ليست إلا مداخلات أملتها العجلة، رهينة معلومة عسيرة على المراقبة، خاضعة أيضًا للمزاجين المتغيرين للصديقين - ولمزاج إنجلز بوجه خاص، الذى كان غالبًا ملتهبًا ضد الشمال وفاتر الهمة بالمجرى التى تسير عليه الحرب. لو أعدنا قراءة هذه المقالات والمراسلات المتبادلة بين ماركس وإنجلز فى الفترة نفسها لأدهشتنا رؤيتنا ارتسام علاقة مع الاتحاد أشد تعقيدًا وتنازعًا مما هو متوقع.

لا يتغير الخط العام للمقالات: إنه الدعم للشمال ضد "أربعة ملايين من الأوغاد البيض" فى الجنوب، هؤلاء "القرصان بالمهنة"(٢٧). ولن يعود لا ماركس ولا إنجلز فى كتاباتهما العامة عن هذا الخيار. ومع بعده عن تبنِّى الموقفَ "الواقعىَّ" الذى سيصطنعه فيما بعد ورثته حول أسباب ورهان الحرب، وبعده كذلك عن أن لا يرى فى هذا الصراع الرهيب إلا مجرد صدام مصالح مادية، لن يكفَّ ماركس عن الإلحاح على الأهمية المركزية لمسألة العبودية، بل وأفضل من ذلك، إنه يكرس واحدًا من أول وأهم مقالاته لنقد الصحافة البورجوازية (ونصيرة الجنوب) التى تنكر هذه الأهمية وتعمل على رد كل شىء إلى صراع المصالح بين الشمال الذى ينادى بالحماية والجنوب الذى ينادى بالتبادل الحر. هذه الحجج التى كثيرًا ما اجترتها فيما بعد النصوص الماركسية، كان ماركس نفسه هو الذى يعتقلها فى الصحافة البريطانية كى يعلن عنها بوصفها "حججهم": حجج الجنوب، حجج الخصم(٢٨). كان ماركس يكنسها لا لأسباب تكتيكية - مثل مسِّ شغاف قلوب قرائه من أنصار إلغاء العبودية - بل باسم رؤية واسعة، وقناعة تاريخية: لا شىء "تقدميًا" يمكن أن يمشى تحت راية العبودية. يمكن قول ما يراد عن الشمال، والحكم على عمل لينكولن باعتباره مقصرًا ودنيئًا، لكن "هذا لا يمنع أساسه التاريخى"(٢٩). إن إلغاء العبودية بالنسبة إليه قضية كبرى وليس مجرد توضيح أو تحديث لعلاقات الاستغلال. إن مسألة العبيد، وهو يكرر ذلك على رأس مقال آخر كتبه فى ديسمبر ١٨٦١، "هى المسألة التى توجد فى أساس كل حرب أهلية"(٣٠)، وهو يصرُّ ويوقع ضد "الواقعيين" من المعسكر الخصم الذين يرددون فى بريطانيا العظمى كما هو الأمر فى فرنسا، بأن مسألة العبودية ليست إلا حجة. لو لم تكن العبودية "غاية" الحرب لصارت مسألة تحرير العبيد رهانَ الصراع الأكبر، لا بل لقد صارت مثله بصورة مزدوجة: بالدلالة التاريخية التى ستكون لإلغاء العبودية فى أمريكا؛ ولكن أيضًا - وبصورة أكثر مباشرة - من حيث إن قرار التحرير الذى طال تأجيله سيكون واحدًا من هذه الإجراءات "الثورية" القادرة على أن تغير فى آن واحد وجه الصراع وطبيعة الديمقراطية فى الشمال؛ لأن العبودية هى فى آن واحد "النقطة الأضعف لدى العدو"

و"جذر الشر"، كما يشير بقلم مشترك ماركس وإنجلز فى نهاية عام ١٨٦١[٣١]. نرى كل ما يفصل ماركس عن خصومه آنئذ وعن كثير من تلامذته منذ ذلك الحين: رفض الصلف التاريخى وتوثين السلعة بوصفها العقل الأقصى *ultima ratio* للتاريخ. إن الإنسانية، والطبقة العاملة مهتمة بانتصار الشمال أكثر بكثير من اهتمام رأسمالية الشمال بإخضاع الانفصاليين. يجب إذن الاحتراس من تأليف جوقة مع الصحافة البورجوازية واستبدال الصلف السهل من خلال اعتبار مسألة تحرير العبيد بوصفها مسألة ملحقة أو ثانوية أو حتى غير مهمة لعمل الاتحاد.

لا سيما وأن المآخذ لا بد وأن توجه، وهى أكثر شرعية، إلى اليانكيه وإلى لينكولن بوجه خاص، والسمة الثانية لقراءة الحرب من قبل ماركس وإنجلز هى قسوة حكمهما على الشماليين. تنفجر هذه القسوة بصورة خاصة فى المراسلات، لكنها تبرز أيضاً فى المنشورات: مثلما هو الأمر حين ينشر ماركس فى *Die Presse* خطاباً عنيفاً بوجه خاص لوندل فيليبس Wendell Phillips، أحد موجِّهى أنصار إلغاء العبودية ضد مماطلة لينكولن[٣٢]. مر ماركس وإنجلز على غرار أنصار الاتحاديين من الفرنسيين فى الواقع بأطوار من فتور الهمة كانت تنعكس، لدى إنجلز بوجه خاص، فى أحكام مدمرة تطلق على المعسكر الذى يدعمونه. ولما كان هاوياً للإستراتيجية فقد كان إنجلز يحلل العمليات العسكرية بكثير من نفاذ النظر. (كان، منذ مارس ١٨٦٢، وضد خطة الخنق المعمدة باسم Anaconda، قد أثنى على الاختراق الكثيف من تنسى Tennessee إلى السافاناه Savannah، والذى يهدف إلى تقسيم الكونفدرالية إلى قسمين - وهى خطة تبناها أخيراً جرانت Grant فى عام ١٨٦٤[٣٣]) فى حين أن الاتحاد يرهقه على المستوى العسكرى بقواده العسكريين وبجماهير مواطنيه معاً؛ فالجنرالات هم عجزة إن لم يكونوا خونة. أما الكونجرس المتهرب من مسئولياته فيتخذ إجراءات زهيدة "يتلاعب بها الإنسان الشريف لينكولن بطريقة لا يبقى منها شىء". وليس شعب الشمال بأفضل حالاً: "هذا الافتقار إلى القوة، هذا التسطح الشبيه بتسطح المثانة المشقوقة، تحت ضغط هزائم أبادت أقوى وأفضل الجيوش والتى كشفت فى الواقع واشنطن، هذا الغياب التام لكل ليونة فى جماهير الشعب، كل ذلك يبرهن لى أن كل شىء انتهى[٣٤]". هذه الصورة تعود إلى صيف ١٨٦١، لكن إنجلز يسودها أكثر فى خريف ١٨٦٢: "رغم كل صياح اليانكيه، ليس هناك بعد أقل علامة تدل على أن الناس يرون فى كل هذه البلبلة مسألة حياة أو موت[٣٥]". وعلى أن ماركس قد وبخه فإن إنجلز لن يتراجع: "لا يسعنى الحماس، وإنى مرغم على الاعتراف بذلك، لشعب يستسلم للهزيمة فى مسألة بمثل هذه الضخامة من قبل ربع سكانه، والذى اكتشف بكل بساطة بعد ثمانية عشر

شهراً من الحرب أن كل قواده العسكريين حمير، وأن كل موظفيه المدنيين غشاشون وخونة[٣٦]". وتؤكد انتخابات نوفمبر ١٨٦٢ التى سجل فيها الديمقراطيون بعض النجاح شكوكه: "إن الأنذال قادرين على إبرام السلام إن دخل الجنوب فى الاتحاد شريطة أن يكون الرئيس دومًا رجلاً من الجنوب وأن يضم الكونجرس دومًا عدداً متساويًا من الجنوبيين والشماليين، بل إنهم قادرين على المناداة فوراً بجفرسون ديفيس Jefferson Davis [رئيس الكونفدرالية] رئيسًا للولايات المتحدة بل وحتى التضحية بالولايات المتاخمة للمكسيك border states إذا لم يكن السلام إلا بهذا الشرط. ولكن آنئذ، وداعًا يا أمريكا[٣٧]!" كان إنجلز قبل سنة ونصف يهاجم القادة اليانكيين. إن نفوره الآن عام: "لم أعد أدرى ما الذى أراه فى اليانكيه. أن يتمكن شعب وضع أمام معضلة تاريخية كبرى كان يُراهَنُ فى الوقت نفسه معها على وجوده، بعد ثمانية عشر شهراً من الصراع، من أن يصير رجعيًا فى مجموعه، هو ذا ما يتجاوز مع ذلك بعض الشىء إدراكى[٣٨]". الحكم نفســـه فى بداية ١٨٦٣، يكتب إنجلز: "الوضع سىء فى بلاد اليانكيه. إن عوارض الارتخاء المعنوى تتكاثر كل يوم، ويزداد عدم القدرة على الانتصار كل يوم". ويضيف متهكمًا: "إنه حظ أن صار السلام استحالة مادية، ولولا ذلك لكانوا قد أنجزوه منذ وقت طويل كى يستطيعوا العيش من جديد من أجل الدولار كلى القدرة"[٣٩]." لم يعد هذا "دعمًا نقديًا" بل هو دعم كاو! بل ويحدث أن فقدان صبره نحو اليانكيه يجعله يكيل الثناء على الكونفدراليين؛ فهو لا يتردد فى أن يعارض "هزال" شعب الشمال الذى يبدو"أنه قضى ثلاثة آلاف عام تحت السلطة النمساوية"، بقيمة هؤلاء الجنوبيين الذين"يقاتلون بصورة تثير الإعجاب"[٤٠]. ويكرر بعد شهر من ذلك: "إن أهل الجنوب الذين يعرفون على الأقل ماذا يريدون لهم ملامح الأبطال، عندما نقارنهم بنظام الشمال الخالى من الأعصاب[٤١]".

حان الوقت لكى يصفر ماركس الإبعاد من اللعب، وليذكره بأن الصفات الحربية لـ"الأوغاد البيض" لا تكفى لتجعل منهم أبطال التاريخ، لكن مزاج إنجلز المضاد لليانكيه كان يغيظه بلا شك أقل لو لم يكن يشاركه فيه بصورة واسعة جداً؛ فماركس نفسه ينكب على امتداد الحرب على نقد قاس للشمال وللينكولن، خفف فى صياغاته لضرورة التضامن مع "المعسكر الطيب"، لكنه نقد جذرى بقدر جذرية نقد إنجلز إن لم يكن أكثر؛ لأنه فى أصل التقلبات العسكرية التى أحنقت مراسله، هناك، يلح ماركس، عجز الشمال السياسى عن خوض حرب بطريقة "ثورية". يرد ماركس على إنجلز بأنه يجب استخلاص "دلالة" هزائم صيف ١٨٦٢، وهذه الدلالة هى "أن حروبًا من هذا النوع يجب أن تُخاض بطريقة ثورية، وأن اليانكيه حاولوا حتى الآن خوضها بطريقة

دستورية"(٤٢). ولينكولن، الذى كان فى الظاهر منفراً لماركس حتى عشية اغتياله، يلخص هذا العجز. يكتب لإنجلز فى أكتوبر ١٨٦٢: "كل أعمال لينكولن تشبه شروطاً دنيئة ومعقدة، تقدم من قبل محام إلى محام الطرف الخصم"(٤٣). هذه الملاحظات اللاذعة ليست مخصصة لسرية المراسلات؛ فقد أذاعها على الملأ قبل شهرين من ذلك حين نشر الخطاب العنيف الذى كان يصرح فيه وندل فيليبس: "لا بد من مرور سنوات حتى يتعلم لينكولن توفيق هواجسه الشرعية بوصفه محامياً مع الضرورات المرتبطة بالحرب الأهلية(٤٤)". كانت موافقة ماركس على ذلك موافقة تامة. وشأن الزعيم النصير لإلغاء العبودية، كان يحكم بقسوة شديدة على لينكولن وعلى "الهواجس القانونية لروحه الوسيطة والدستورية"(٤٥). لن يمنح ماركس فى الأساس أبداً رصيداً كبيراً للينكولن، لكنه سيعثر بقدر من السرعة على حجة "برشتية" ـ برشت الذى يقول: "يا لمصيبة البلد الذى يحتاج إلى أبطال!" ـ كى يعتاد على نقائص أبراهام لينكولن. لينكولن رجل قليل الذكاء. وكما كان يقول فيليبس: "a first-rate second-rate man(٤٦)"، ولكن ما المهم، أساساً؟ "إن أكبر انتصار حققه العالم الجديد أصلاً أنه بين أن من الممكن نظراً للمستوى المتقدم لتنظيمه السياسى والاجتماعى، أن يحقق أناس من مستوى عادى بدافع من إرادة طيبة مهمات يحتاج العالم القديم لتحقيقها إلى أبطال(٤٧)". لن يصير لينكولن بطل ماركس إلا بموته. فى عام ١٨٦٥، تضمنت العريضة التى حررها ماركس باسم الدولية هذه السطور التى ترنّ كما لو أنها اعتراف بالذنب mea culpa": كان هذا الرجل الكبير والشجاع من التواضع؛ بحيث إن العالم لم يكتشف بطولته إلا بعد سقوطه شهيداً(٤٨)"... أما خلفه أندريو جونسون، فهو يتعرض على الفور إلى الشكوك بالانتهازية وبالشبهات التى بُرِّئ منها لينكولن المغتال. يكتب إنجلز إلى ماركس: "قبل ستة أشهر، سيكون أنذال الانفصال القدماء كافة أعضاء فى كونجرس واشنطن"(٤٩).

مشهد بدائى غريب هو مشهد هذا التضامن الفظ، الذى سيحتفظ منه التقليد الماركسى بوجه خاص ضروب النقد والتحفظات تجاه الشمال(٥٠). سيوجه التأويل الماركسى فى الحقيقة هذه النصوص فى اتجاهين رئيسيين: الأول هو تأكيد أولية الأسباب الاقتصادية فى شن الحرب على حساب الأهمية التى أولاها ماركس للمعنى التاريخى والسياسى لتحرير العبيد بوصفه كذلك. فبتركيزهم على مادية العملية، نزع خلفاء ماركس عن الاتحاد الأمريكى الشمالى القليل من"الجدارة" التاريخية التى يمكنه أن يتمتع بها، والثانى التشهير بالديمقراطية البورجوازية التى كان الشمال يمثل كل عيوبها ونقائصها. وحول هذه النقطة الثانية سيكون الماركسيون مخلصين، إن لم يكن لحرفية المقالات المنشورة؛ فعلى الأقل للروح التى أوحت بها، والتى تكشف عنها

المراسلات. "أرى بالطبع، كالآخرين، ما هو منفر فى شكل الحركة لدى اليانكيه"، يردّ ماركس على إنجلز الذى كان شديد الغضب ضد شعب الشمال "بلا أعصاب"، لكنه يضيف بصورة تربوية: "يبدو لى أن ذلك يجد تفسيره فى طبيعة الديمقراطية البورجوازية"(٥١)؛ لأنه هنا يكمن فى الأساس مفتاح غموض يظهر تحت التضامن. إن أهداف الحرب فى نظر ماركس وإنجلز هى ذاتها: هزيمة حكم الأقلية فى الجنوب وفضح الديمقراطية البورجوازية فى الشمال. وما يلخصه إنجلز فى دائرة كلام طويلة "ديالكتيكية" جديرة بالذكر كاملة: "ومهما يكن أمرًا طيبًا من جهة، أن تتورط الجمهورية البورجوازية أيضًا بطريقة جدية، فى أمريكا، بطريقة لا يسعنا معها من الآن فصاعدًا المناداة بها لذاتها، بل فقط كوسيلة انتقال نحو الثورة الاجتماعية، فإننا مع ذلك غاضبون من رؤية حكومة أقلية مبتذلة، أشد ضعفًا مرتين بأرقام سكانها، تبدو قوية قوة الديمقراطية الثقيلة والكبيرة والمضطربة(٥٢)". غريب هذا التناغم البلاغى الذى يلقى بالشك على نظام الأولويات نفسه. إن النصوص الماركسية الأصلية على حق، ولا واحدة من الأمريكتين المتصارعتين حصلت على تعاطف الآباء المؤسسين، هذا التعاطف مخصص لأمريكا محتملة وخيالية.

القلب الكاشف للرأسمالية

على أن الحرب الأهلية قد انتهت، فإن الولايات المتحدة التى أعيد توحيدها لم تخرج من اهتمامات الاشتراكيين؛ فهم يجدون فيها المكان التى كان قد خصصه لهم ماركس وإنجلز قبل عشرين عامًا: مكان "القلب الكاشف" للرأسمالية. يعود اهتمام ماركس وإنجلز بالقوة الاقتصادية الناشئة للولايات المتحدة فى الواقع إلى سنوات ١٨٤٠. ومنذ هذه الحقبة، يعلن إنجلز انقلاب علاقات القوى على المدى القصير بين إنجلترا ومستعمرتها القديمة. لقد اقترب الوقت كما يتنبأ فى عام ١٨٤٥ الذى ستجعل فيه المنافسة الأمريكية المارد الصناعى البريطانى يترنح(٥٣). قدمت حرب الانفصال التأكيد المنتظر؛ إذ بهدمها البنية الاقتصادية الريفية القديمة للجنوب، إنما تسرّع من التركيز الصناعى الذى لن يوفر الزراعة ذاتها كما سيشير إلى ذلك عما قريب لافارج، على هدى طريق المؤسسين المستقيم(٥٤).

هذا التسارع مفيد بصورة مزدوجة للقضية الثورية مادام يخنق الاقتصاد الأوروبى ويقضى على رغبة أمريكا لدى المهاجرين. يعتقد ماركس وإنجلز أنه قد انقضى بذلك زمن المتنفس الاجتماعى الأمريكى وفتنة الهجرة التى توحى بها

للبروليتاريا الأوروبية الفضاءات الحرة لاقتصاد زراعى بوجه خاص. وبقدر ما يقل ما لدى أمريكا لتمنحه بقدر ما سيشبه الاستغلال الصناعى فيها (بصورة أسوأ) الاستغلال الصناعى فى أوروبا، وبقدر ما ستكون ضعيفة مخاطر رؤية أكثر العناصر البروليتارية الأوروبية نشاطًا تستسلم لنداءات الانطلاق.

لأن الاشتراكيين فى هذا الميدان يديمون حذر عصر التنوير القديم ولا يقل ماركس معارضة للهجرة باسم البروليتاريا عن كورنيليوس دو بوو باسم ملك بروسيا. كان الطبيعيون فى القرن الثامن عشر يهددون المهاجر بالانحلال؛ أما ماركس وإنجلز فكانا يأسفان لهروبه ويخشيان استعباده. ألن يكف العامل الذى يهاجر للولايات المتحدة شأن كلب دو بوو، عن العواء؟ إنه مناضل تفقده أوروبا، لكن العالم الجديد لن يربحه بالضرورة. على هذا النحو وُجِد ماركس ثم إنجلز فى وضع غريب توجب عليهما فيه أن يغازلا حزبًا اشتراكيا أمريكيا مؤلفًا فى غالبيته من الألمان الذين كانا يستنكرون إلى حد بعيد هجرتهم.

هذا الشجب الماركسى للهجرة - الذى جاء لينضاف فى فرنسا إلى تقليد قوى فى النفور الثقافى من المنفى - معطى أساسى عن العلاقة المحزنة التى أقامتها الاشتراكية مع الولايات المتحدة. إنه ينطوى على شيء غريب؛ لأنه من "الأخلاقى" أن يؤخذ على الذين يقومون به اختيارٌ تم فى أغلب الأحوال تحت الضغوط الرهيبة السياسية أوالاقتصادية أوالدينية أو الإثنية. تعتبر الهجرة فى نظر كل هؤلاء قفزة من أجل البقاء: الركلة التى تعطى فى أعماق المصيبة من أجل الصعود إلى السطح، لكن ليست هذه الضغوط هى ما يهم ماركس وإنجلز، ولا المنظرين الاشتراكيين الآخرين المعاصرين لانتصار البخار. إن المجتمع الرأسمالى بالنسبة إليهم قاطرة معبأة يجب دفع نيرانها حتى الانفجار. إن المهاجر مخطئ إذن مرتين: فهو موضوعيا يسبب خفض الضغط فى أوروبا، وذاتيًا يؤكد فكرة أنه لا يزال هناك فى مكان ما فى العالم جو يمكن التنفس فيه. إنه يجعل الناس يؤمنون بالهواء الطلق. تدين الاشتراكية الأوروبية من حيث المبدأ هذا المخرج الفردى الذى تؤلفه الهجرة؛ لأنها تؤخر حلول الآجال. إنها تكره بصورة صماء ولكن بحماس شديد نداء الهواء هذا الذى يحمل اسم أمريكا.

من بين كل المعاصرين، كان نيتشه هو من وصف بأشد الطرق قسوة الهم الاستحواذى "للزعماء الاشتراكيين" فى تثبيت جماعاتهم، ويجب أن نذكر هنا بصورة كاملة المقطع الذى يحمل عنوان "الطبقة المستحيلة"(٥٥) من أورور، صفحة عجيبة من

الغنائية الجدلية يعارض فيها نيتشه بسمفونيته عن العالم الجديد اللازمة الموسيقية "للاقطى الجرذان الاشتراكيين" ولـ"شَرَكِهم". هم وحدهم، كما يلح نيتشه، من يملك المصلحة فى تحويل البروليتاريين عن المغامرة الأمريكية، عن "الهجرة الكبرى للخلية الأوروبية"، عن "حياة الترحال الأنيقة". وبمقابل التحذيرات المضللة لهؤلاء الزعماء الذين يخشون نوبان جماعاتهم، يقدم التشخيص الخطابى للعامل الذى صار رحالاً: "الأفضل الهجرة، العمل على أن أصير سيداً فى مناطق من العالم متوحشة لم تمس، وخاصة سيد نفسى، تغيير المكان طالما بقيت أية علامة استعباد تظهر لى..." كل شىء، حتى الموت، "مادام المرء سيكف عن أن يكون مريراً، وساماً ومتآمراً!" وعلى الحبس المدبر من قبل الزعماء الاشتراكيين فى حلبة أوروبا القديمة الخانقة، يجب على البروليتاريين أن يفضلوا هواء المحيطات. عليهم الهرب وأوروبا معهم: "لو تمكنت أوروبا التخفف من ربع سكانها! فهؤلاء، مثلها، سيجدون قلوبهم أكثر خفة!".

هذه الأمنية الكافرة سيصوغها نيتشه فى عام ١٨٨١، فأمريكاه ذات الوعد الكبير - الذى هو ليس وعد سهولة - هى على وجه الدقة أمريكا التى يجهد كل الأدب الماركسى فى اللحظة ذاتها أن يستأصلها من عقول المناضلين، بتكراره كغراب بو، أن قد فات الآوان، وأن أمريكا من الآن فصاعداً مشبعة، وأنها أيضاً عسيرة على التنفس بقدر أوروبا، وأنها لن تكون على الإطلاق أرض "الفرص السانحة".

"التعرجات المذهلة" للاشتراكية الأمريكية

كان هناك مع ذلك فى نظر ماركس وإنجلز لعدة سنوات على كل حال وعد أمريكى: وعد جماعى هو هذا الوعد، ولد من النضال، وعد ثورة. إن أمريكا جيلدد أج **Gilded Age** وجريت أفيفال **Great Upheaval** ليست أمريكا القفزة الاقتصادية إلى الأمام التى سمحت لماركس أن يؤكد فى عام ١٨٧٩ بأن بريطانيا العظمى قد تم تجاوزها على صعيد إيقاع النمو(٥٦). إنها أيضاً بلد الإضرابات الكبرى ذات الملامح العصيانية والقمع الوحشى الذى ترمز إليه أحكام الإعدام التى صدرت بعد الحادث الدموى فى هايماركت سكوير **Haymarket Square** (٤مايو ١٨٨٦). لقد أتيح الوقت لماركس أن يلمح هذه المسيرة نحو التجذر قبل وفاته فى عام ١٨٨٣. ويبدو أنها كانت قد أتت أكلها سياسياً؛ فقد حققت حملة هنرى جورج، المرشح المستقل و"الاجتماعى" لبلدية نيويورك تحت هوية ***حزب العمل الاتحادى United Labor Party***، نجاحاً غير منتظر، وانتهى الكاتب بصورة مشرفة جدا فى الموقع الثانى (كان الثالث تيودور

روزفلت). أثارت هذه الهزيمة المجيدة حماس إنجلز الذى نسى منها تقريباً أن مؤلف *التقدم والفقر* Progress and Poverty ليس إلا واحداً من هؤلاء البورجوازيين الإصلاحيين الذين كثيراً ما كانوا يُحقرون من قبله(٥٧). "أخيراً يتحرك التاريخ هناك"، حسبما يعبر عن سروره فى عام ١٨٨٧ قبل أن يعزم فى السنة التالية على القيام برحلة إلى أمريكا(٥٨).

على أن النشوة ستكون قصيرة الأجل، ولكن بين نهاية حرب الانفصال وسنوات ١٨٨٠ التى انبثق فيها حزب العمل كقوة مستقلة ونكاد نقول بالطاقة نفسها التى كانت التروستات تفرض بها إمبراطوريتها على الاقتصاد، كان سعر الولايات المتحدة يصعد بصورة رهيبة فى بورصة القيم الاشتراكية. لم تكن أمريكا حتى ذلك الحين سوى ورقة رابحة غير مباشرة فى لعبة الحركة العمالية العالمية، بتوقفها عن أن تؤلف منفذاً ما بعد استعمارى لفائض الإنتاج الأوروبى وعن تقديم صمام أمان للزيادة فى اليد العاملة فى العالم القديم، كانت الولايات المتحدة تعمل "موضوعياً" على تقويض النظام الذى كانت قد ساعدت على بقائه على قيد الحياة. وواقع الحال أن الفعالية المتزايدة لجهاز إنتاجها لا تضعها منذ الآن فى تنافس مع الرأسمالية الأوروبية التى تجد نفسها فى الواقع العملى وقد ضعفت فحسب، بل كذلك يستثير عنف التركيز وعياً ثوريا فى أمريكا نفسها. عند منعطف سنوات ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠، لم يعد مفكرو الاشتراكية يحصرون الولايات المتحدة فى دور المساعد؛ فالآمال المنبثقة بفعل التقدم السياسى فى أمريكا يحملهم على اعتبار وصول الاشتراكيين إلى السلطة لا بوصفه ممكناً فحسب، بل ربما أكثر قرباً مما هو عليه هناك فى أوروبا. ألن يكون منطقياً وسليماً أن يكون البلد الذى بلغت فيه على وجه اليقين قوى الإنتاج أعلى طور فى نموها هو البلد الذى يصير فيه أيضاً تعميم الاشتراكية على مستوى وسائل الإنتاج أسهل إنجازاً؟ أليس التروست المشنع عليه حيلة من التاريخ وطريقاً قصيراً نحو الامتلاك الجماعى؟ وبإيجاز، ألن تقوم أمريكا فى السباق إلى الثورة بهزيمة إنجلترا (حيث تجرجر الحركة الاشتراكية قدميها) وحتى ألمانيا (حيث يبدو نجاح الاشتراكية الديمقراطية فى الانتخابات عاجزاً عن زعزعة سلطة النظام)؟

سوى أن الأمر هكذا: على هذه الأرض التى يجهد الماركسيون، رغم أنها حقا حافلة بالمفاجآت، بإعادتها إلى الرسوم الأولية المعروفة والمشتركة، لا شىء يبدو يتبع مجرى منتظماً. تتابع الأمور، تارة فى الأعالى وتارة فى الأعماق، بسرعة تحيّر. وسيكون المُنَظِّرُ القادر على توقع الاتجاه الذى ستهب منه الريح شديد المهارة. هذا التقلب الشديد فى الحركة، هذه الهشاشة فى مكتسباتها كانت محسوسة من قبل

جريت آفيفال Great Upheaval. إن حزب العمل Labor Party الذى كان اشتراكيًا بعد أن تقدم فى عام ١٨٧٨، هبط فى ١٨٧٩ لعدة سنوات قبل أن يستعيد القوة حوالى عام ١٨٨٥(٥٩). وفى أوج غبطته الأمريكية كان لإنجلز نفسه حدس فى قابلية التبخر العسيرة على التقدير التى تطبع اشتراكية ما وراء الأطلسى؛ ففى الرسالة ذاتها التى كان يعبر فيها عن فرحه برؤية أمريكا من جديد تبدأ التحرك، كان يضيف أنها لن تتبع بأى حال من الأحوال "الخط الكلاسيكى المستقيمthe classic straight line"- أى خط النمو الأوروبى، بل ستتقدم بـ"تعرجات مذهلة"(٦٠). وبدلاً من التقدم وفق تعرجات صاعقة، فإن الحركة الأمريكية ستتقدم حسب أسنان منشار تثير الحيرة بازدياد (بل وتتراجع بوجه خاص). وسيصير الاشتراكيون بدورهم، شأن الديمقراطيين الجمهوريين هؤلاء الذين يمقتوهم ولكن لأسباب شديدة الاختلاف، خائبى الظن بأمريكا.

خائبو الظن هم أولاً بفعل هبوط الحركة الاجتماعية العنيفة التى سيطرت خلال سنوات ١٨٨٠، وهم خائبو الظن بعد هذا بفعل التقدم البطىء، ثم بفعل الركود الانتخابى لمرشحى حزب العمل؛ فبين عامى ١٨٩٢ و١٨٩٨ انتقل حزب العمل الاشتراكى بزعامة دو ليون من عشرين ألف صوت إلى ثمانين ألف صوت. تبدو هذه الزيادة مذهلة، لكن النتيجة بالأرقام تبقى تافهة. فتحت رعاية القائد فاتن الجماهير(لكنه قليل الماركسية) أوجين دبس Eugene Debs، سيحصل حزب العمل الاشتراكى الأمريكى على أربعمائة ألف صوت فى عام ١٩٠٤ وأكثر من الضعف فى عام ١٩١٢: نتيجة رائعة، لكنها لا تمثل مع ذلك إلا ٦٪ من الأصوات. وبعد عشرين سنة على زيارة إنجلز للولايات المتحدة لم يكن للاشتراكيين الأمريكيين إلا ممثلاً واحدًا فى المجلس، ولم يكونوا يحكمون إلا مدينة واحدة، ميلووكيه Milwaukee، التى نجحوا فى انتخاباتها عام ١٩١٠. وأكثر من هذه النتائج الضئيلة أيضًا، كان ضعف الحس النضالى الأمريكى يستثير الشك لدى المراقبين الأوروبيين. ضعف كيفى: إن القول بأن حزب العمل الأمريكى ليس مسلحًا جيدًا مذهبيًا عبارة عن مجرد تورية؛ وأن يُرى فيه شأن إنجلز أثر الثقافة الأمريكية قليلة الميل لـ"التجريد" يقدم عزاء نسبيًا. ضعف كمى أيضًا وبوجه خاص، ما دام عدد المنتسبين يبقى منخفضًا إلى حد كبير(٢٥٠٠٠ منتسب فى عام ١٩٠٤). وبعد الذروة الانتخابية فى عام ١٩١٢ سيبدأ من ثم هبوط متسارع إلى الجحيم خلال الصراع العالمى بفعل حيادية الحزب، الذى نُظِرَ إليه غالبًا بوصفه من أنصار ألمانيا أكثر منه من أنصار السلام. تكتب مارى فرانس توانيه: "لن يعمر هذا الاستيطان الذى بدأ بمثل هذه الروعة مع ذلك طويلاً". خلاصة معتدلة لفشل سوف يدوى لزمن طويل فى الاشتراكية الأوروبية(٦١).

وبوصفه خلاصة ضروب هذه الخيبة وحاصل كل التساؤلات الأوروبية، يطرح كتاب وارنر سومبار Werner Sombart السؤال عام ١٩٠٦: ***لماذا في الحقيقة لا توجد الاشتراكية في الولايات المتحدة ؟*** ***Warum gibt es in dem Vereinigten Staaten keinen Sozialismus?*** لن يظل عالم اجتماع توبنجن لزمن طويل موضع ثقة بين الماركسيين التقليديين، لكنه كان لا يزال في هذا التاريخ أحد المبسطين الفعالين لفكر ماركس الاقتصادي، فقد فرض كتابه سجالاً كان كامنًا في أوروبا، ولن يوفر هذا السجال أي بلد ولا أي تيار اشتراكي. فعبر الحالة الأمريكية في الواقع وضعت المصادرة القائلة بالترابط "الضروري" بين النمو الرأسمالي وقدوم الاشتراكية موضع الشك.

لا يعود تأثير كتاب سومبار لا إلى جدته ولا إلى صرامة تحليله؛ فالإقرار بالنقص المعلن من خلال عنوان الكتاب والمفصل على نحو واسع ينتهي على نحو غريب بتنبؤ يعلن قدوم الاشتراكية في أمريكا رغم كل شيء، إلا أنه ربما بفعل غموضه ذاته إنما أمكن لكتاب سومبار أن يمارس التأثير الأكثر دوامًا؛ فبإعادته الاشتراكية الألمانية على ما هي عليه إلى حجمها الحقيقي كان يضع البلسم على قلب الاشتراكيين الأوروبيين، الذين شعروا ببعض الخزي؛ إذ رأوا أنفسهم وقد تجاوزتهم الفسيلة فيما وراء الأطلسي. وبتوصيفه شروط الحياة المخصصة للعامل الأمريكي على أنها عليا، يقدم تفسيراً (اعترض عليه الماركسيون بغضب، لكنه كان يهم "أنصار الممكن") للامبالاة العمال هناك بالنسبة للاشتراكية، لكنه يصف هذا العامل الذي يحصل على أجر ممتاز في الوقت نفسه باعتباره أكثر الناس استغلالاً بصورة شرسة في العالم: إنه ليمونة تعصر ثم يلقى بها، وهو ما يترك الباب مفتوحًا على مصراعيه لمستقبل من التمرد.

نعم، على وجه التأكيد، يحمل الغموض قسائم الربح. إنه إذ يؤكد في آن واحد ١) أن أمريكا، "أرض المستقبل" هذه، لديها طبقة عمالية غريبة للغاية على الاشتراكية، ولكن ٢) تغير هذا الوضع هو قضية جيل واحد، فإن سومبار لم يكن يُرض أحداً على وجه الاحتمال، لكنه يهم الناس جميعًا، يبقى أن الخرّاج قد فقئ. إن المسألة التي تعذب منذ وعود إنجلز أشد الناس ثقة تُطرحُ الآن بصوت عال. ينطوي الكتاب بهذا المعنى على قيمة كشاف. فحتى في الإجابات التي يستثيرها، كان يضيء خيبة الأمل إزاء الاشتراكية الأمريكية التي تُرجمت في أوروبا، اعتباراً من ١٩٠٥، بغياب الإسهامات

أو الطروحـات الجـديدة حـول الولايات المتـحـدة(٦٢). حـقـا إن ثورة ١٩٠٥ فـى روسـيـا، والتوتر والتهديدات بالحرب فى أوروبا قد أسهمت فى صرف الانتباه عن أمريكا، إلا أن هناك - بوضوح، فضلاً عن الأمل الخائب - ضجراً أمام المعضلة الأمريكية.

لماذا؟ كان سؤال سومبار مصاغًا على نحو أفضل من إجاباته. لن يفوت ثالبو نزعته فى "الممكن" أن يشيروا إليها، ولم يكن ذلك بلا ظلم؛ إذ من يسعه التباهى فى حل اللغز الأمريكى؟ حتى إنجلز كان يبدو لحظة وفاته وقد تخلى عن ذلك. هذا ما توحى به رسالة إلى سورج حيث يجد بعد استنفاذه جميع الوسائل ملجأ فى أكثر الأفكار المبتذلة اهتراء: فكرة "شباب" العالم الجديد، ويعيد الكتابة بهذه الصياغة الغريبة: "إن أمريكا هى الأكثر شباباً، لكنها أيضًا الأكثر شيخوخة. لديك هناك أساليب فى الأثاث العتيق إلى جانب الأساليب التى ابتكرتها وحدك [...] وبالطريقة نفسها فإنك لا تزال تحمل كل الثياب الرثة الثقافية العتيقة التى ألقت بها أوروبا إلى سلة النفايات. كل ما بطل هنا لا يزال يستطيع البقاء فى أمريكا خلال جيل أو جيلين(٦٣)". بهذا المثل الجدلى تتحول أمريكا من الطليعة إلى المؤخرة. على الصعيد الأيديولوجى، لا تزال تستخدم آخر ما تبقى مما يملكه الديمقراطيون فى أوروبا. والحق أن فكرة إنجلز لم تكن كذلك هى الأخرى ذات شباب فتى. كان فولنى من قبل كما نعلم يسخر من "الخطأ الروائى للكتاب الذين يسمون شعبًا جديداً وبكراً اجتماع سكان من أوروبا القديمة..."(٦٤). كان ذلك فى عام ١٨٠٣. برهان على الأقل على أن طول بقاء الثياب الثقافية الرثة ليس ظاهرة محض أمريكية، ياله من عزاء تافه بالنسبة للأصدقاء الأمريكيين لإنجلز العجوز الذى يعيش فى قلب الاضطراب السياسى أن يستمعوا من جديد إلى هذه اللازمة شبه المئوية التى يعاد استنفارهاجدلياً لتهدئة نفاذ صبر المناضلين.

لن تفلت فرنسا من نقاش يستنفر معظم الشخصيات المرموقة فى الحركة الاشتراكية: ليبنخت، بيبل، أفلنج، هيندمان، دون الكلام عن ماركس وإنجلز نفسيهما، ودون نسيان الأنصار من سومبار إلى هـ. ج. ويلز. كيف البقاء من ثم على الحياد من مناظرة كل جانب فيها (منذ "رفاه" العامل الأمريكى حتى النمو المتزامن الشهير للرأسمالية وللقوى الثورية) حافل بالنتائج المذهبية؟ لكن هناك الكثير من الاختلافات بين الكيفية التى تحرك بحسبها "المسألة الأمريكية" الحزبين الألمانى والإنجليزى والطريقة التى تستجيب بها الاشتراكية الفرنسية - التى كان من نتيجتها تكوين "خيال أمريكى" خاص بيسار فرنسى متطرف ذى نزعة دولية فى ميوله، لكنه مركزى العصبية الغالية فى تقاليده.

يفسر هذه الاختلافات قبل كل شيء المسافة المزدوجة التى تقف فيها فى هذه القضية الاشتراكية الفرنسية، مسافة جزء كبير من الحركة إزاء الأرثوذكسية الماركسية، تعطى للنقاش لونه الخاص بمزجها أصوات الأرثوذكسيين والمستقلين والبرودونيين وأنصار "الممكن" دون نسيان الفوضويين. ولكن، وبوجه خاص، مسافة بالنسبة لبلد غير معروف ولحزب أمريكى، لم يكن، لكى يكون منظمة "أختًا"، أقل، قبل كل شيء، من فسيلة من الديمقراطية الاشتراكية *Sozialdemocratie* الألمانية. لم يكن هذا الإدراك من ثم وقفًا على الفرنسيين وهو يتطابق وحالة قائمة، وسوف يغذى الألمان والأمريكيون من أصل ألمانى لزمن طويل نواة الأطر، بل وحتى جماهير الاشتراكية الأمريكية. يتحدث حزب العمل الاشتراكى اللغة الألمانية بالمعنى الحقيقى وبالمعنى المجازى مادامت صحافته تحرر فى أغلبيتها بهذه اللغة - الأمر الذى كان يأسف له إنجلز الذى كان حذراً من هؤلاء المغتربين المغترين نسبيًا "بتقاليدهم فى النضال" وساخطًا على العزلة الفخمة التى يبدو أنهم فيها راضون(٦٥). وبينما كان إنجلز، تحت سماء الأممية، لا يتردد فى وصف مواطنيه السابقين بعوانس متعصبات، كان الرفاق الفرنسيون يحتفظون حول الموضوع بتحفظ ذى مزية سليمة. يبقى أنهم لا يشعرون بأية قرابة مع هؤلاء الاشتراكيين العقائديين غالبًا، والذين يفكرون بالألمانية مع لكنة إنجليزية، لأنه إذا كان حزب العمل الاشتراكى يقيم علاقات وثيقة وشبه عائلية مع الديمقراطية الاشتراكية؛ فهو أيضًا على اتصال مستمر وكثيف مع الاشتراكيين البريطانيين السعداء بممارستهم فى أمريكا تأثيراً يأباه عليهم وطنهم الأم.

يكاد الألمان والإنجليز إذن يحتكرون العلاقات مع الحركة الأمريكية لأسباب تتعلق باللغة وبالثقافة وبتقاليد النضال المشترك، وكذلك - بكل بساطة - بتحرك الرجال (أو النساء). حين كان كارل ماركس فى عام ١٨٧٢ أصلاً، قد قرر وضع الأممية بملجأ من قمع وطموحات منافسيه الابتداعية، فقد نقل مقرّها إلى نيويورك - لا كأرض رسالات بقدر ما هى ضرب من مصاد خاص "أنجلو ساكسونى". نقل غامض بكل المعانى لن تتخلص الأممية الأولى من آثاره أبداً؛ فبعد أربع سنوات، أى فى عام ١٨٧٦، سيتم دفنها فى فيلادلفيا دون زهور ولا أكاليل، ولكن العلاقة الحميمة لماركس وأنصاره مع أمريكا تتكشف حتى فى هذه الفوضى الجنائزية نسبيا لنقل الأممية المحتضرة. وبدلاً من أن تبطئ تصفية الأممية الأولى من المبادلات، تكاثرت زيارات الرفاق البريطانيين والألمان خلال السنوات العشر التالية.

من الواضح أن للاشتراكيين الفرنسيين علاقات مع الولايات المتحدة والحركة الاجتماعية التى تنتظم فيها علاقات أقل وثوقًا، تترجم اهتمامًا محدودًا ومتناوبًا فى آن

واحد بالوضع الأمريكي؛ فهم لا يقومون بأى دور خاص قبل حزب العمل الاشتراكي الأمريكي، ويتم تلقف معلوماتهم التى يتلقوها غالبًا من مصادر ثانوية، أومن مصادر اشتراكية أوروبية أخرى أو من القراءة شبه النقدية للرحالة الفرنسيين غير الماركسيين بل المضادين للاشتراكية شأن معظم الخبراء الذين يدورون حول المتحف الاجتماعي.

يديم المتحف الاجتماعي الميراث الثقافي لفريديريك لو بلاى Frédéric Le Piay ولـ"اقتصاده الاجتماعي" الذى "يعتمد، على العكس من الاقتصاد السياسى على منهجية استقرائية وملاحظات فعلية"(٦٦)؛ فقد جمع أو وحّد فى سنوات ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠، معظم الأعمال التجريبية حول الولايات المتحدة. وفى إطار برنامجه الطموح للمهمات الدولية قام بول دو روزييه بعد أن إنجلترا الاتحادات التجارية بإنجاز طوافه بأمريكا. وأقيمت اتصالات دائمة مع الدائرة الأمريكية للعمل US Department of Labor ومع مؤسسة الخدمة الاجتماعية الأمريكية American Institut of Social Service. وفى عام ١٨٩٦، يستطيع وليام فيلوفبى William Willoughby، الخبير لدى وزارة العمل الأمريكية، والذى سيقوم بإدارة معهد البحث الحكومى institut for Government research فى عام ١٩١٦، أن يتحدث عن المتحف الاجتماعي الفرنسي بوصفه "مكتبًا دوليًا للعمل"(٦٧). وينضاف إلى ذلك روابط المتحف الاجتماعي مع المدرسة الحرة للعلوم السياسية، التى أنشئت فى عام ١٨٧١ من قبل إميل بوتمى بالتعاون مع شخصيات من مثل جول سيجفريد (والد المؤرخ ومؤلف كتاب الولايات المتحدة اليوم) أو أيضًا الاقتصادى الليبرالى لوروا ـ بوليو. وحتى لو كان المتحف الاجتماعي يهتم ببريطانيا العظمى أكثر من اهتمامه بالولايات المتحدة، فإنه يظل المقر الأكثر نشاطًا فى مجال التحقيقات والتفكير المتعلقين بالمجتمع الأمريكي عند منعطف القرن. اهتمام شديد الحيوية من قبل هؤلاء "الاقتصاديين" الذين كان الماركسيون يشهرون بهم دون توقف، والذين أطلقوا فى عام ١٨٩٥ من ثم حملة شديدة العنف مضادة للاشتراكية لا يمكن إلا أن يجعل البلد الذى يؤلف موضع عنايتهم مريبًا، وليس من هذا المصدر الفاسد بالطبع إنما يستطيع الاشتراكيون أن يتلقفوا معلوماتهم حول الولايات المتحدة.

لم يكن هناك فى الميدان محطات اتصال، ولا تستطيع أى بروليتاريا كثيرة العدد من أصل فرنسى أن تلعب دور "المراسل" الجماعي. أما رحلات المناضلين من العمال المقتصرة على المعارض العالمية فتبقى ظاهرة هامشية، ولم يعد القادة أنفسهم الذين لم تكن تطرح بالنسبة لهم لا مشكلات التمويل ولا مشكلات الوقت ميالين لاجتياز الأطلسى. لم يكن الزعماء الفرنسيون فى الواقع هم من يقوموا بالرحلة، ويلتقون المناضلين الأمريكيين، ويتحدثون فى الاجتماعات فى شيكاغو وفى ميلووكيه، بل هم

الثنائى ليبنخت، وفيلهلم وكارل. ليس جوريس، إنه إنجلز وسيكون تروتسكى، إنهم مؤسسو الحزب الإنجليزى، مثل هـ. م. هندمان الذى سافر إلى الولايات المتحدة عدة مرات بين ١٨٧١ و١٨٨٠. ليسا صهرى ماركس الفرنسيين، بول لافارج وجان لونجيه، وإن كتب كلاهما عن الولايات المتحدة؛ إنه الصهر الثالث، المتوقد إدوارد أفيلينج، زوج إليانور ماركس، التى كان على فواتير صرفها الهائلة فى أمريكا أن تثير من ثم توترًا جديًا بين الرفاق فى الحزب SLP، الذين طلب إليهم تسديدها، وبين الاشتراكيين البريطانيين... إذا كان "أنصار الممكن" الفرنسيون، القريبون من كاوتسكى، يبدون الأكثر اهتمامًا بالحالة الأمريكية، فإننا لا نراهم بسبب ذلك شديدى العجلة للتحقق ميدانيًا من ملاءمة طروحاتهم. وبينما يضحى رامزى ماكدونالد، رئيس الوزراء القادم من العمل، بامتثاله هو الآخر لتقاليد الإقامة فى أمريكا، لم يكن يبدو مما لا غنى عنه لألكسندر ميلراند أن يزور مصانع الفولاذ فى بيتسبورج أو الـ *slums* فى نيويورك. والأمر نفسه من جانب الكتاب الحساسين للقضية الاجتماعية. لم يكن زولا هو من أبحر إلى العالم الجديد؛ بل مؤلف آلة استقصاء الزمن وحرب العوالم، هـ.ج. ويلز، الذى ذهب إليه كمراقب لحرب الطبقات وعاد منه بكتاب ***The Future in America, A Search for realities (1906)***.

خلال كل هذه الفترة، لم تكن فرنسا قد أرسلت إلى الولايات المتحدة أكثر من كاتبين شهيرين: هنرى دو رينييه **Henri de Régnier** وبول بورجيه **Paul Bourget**، لم تكن المسألة الاجتماعية مما يميلان إليه. انطبعت رحلة هنرى دو رينييه بوجه خاص بإغمائه عند زيارته مجازر شيكاغو. وحين قام جول هوريه بدوره باتباع التقليد نفسه، أشير له "إلى المكان الذى شعر فيه السيد هنرى دو رينييه، شاعر الغزليات الحزينة الرقيق، والأميرات فى ثوب ياقوتى، حاملى الشماريخ وسعف النخيل وكركدن البحر، بنفسه مريضًا"(٦٨). بوسعنا أن نفهم أن الخيار كان شاقًا بين كركدن البحر ولحم البقر. لم يكن لبول بورجيه الذى كان فتيًا وأقل إصابة باليرقان، أديبًا على وجه الدقة، شخصية المراقب الاجتماعى؛ فقد أتى على الحصول على نجاح كبير بفضل روايته **Cosmopolis**، وهى رواية أخلاقية تجرى حوادثها فى إيطاليا شديدة الأناقة، لا هى موئل الرحلة الكبرى(*) ولا الأرستقراطية شديدة الثراء. وفى الوقت الذى كان فيه

(*) كانت الرحلة الكبرى أو الطواف الأكبر (Grand Tour) يشير فى أوروبا من عصر النهضة إلى القرن التاسع عشر إلى رحلة شباب الأرستقراطية الذين كانوا يزورون المعالم الثقافية الكبرى ولا سيما إيطاليا.

فاتن مجتمع الشاطئ الشرقي وأسير السيدة جاردنر الثرية، كان بورجيه يراقب انطلاقًا من نيوبورت "الروح الأمريكية". خلال ثمانية أشهر من الإقامة - وهي مدة محترمة لمسافر فرنسي إلى أمريكا - لم يغادر أبدًا "سعداء هذا العالم" إلا لجلسات *slumming* المبتذلة في نيويورك، في حي برودواي. لم يكن مارك توين الوحيد الذي استهزأ به. لم "يَرَ إلا - الأربعمائة - في نيوبورت [كذا] كما يسخر أوربان جوهييه، أحد نوادر الزوار الفرنسيين المهتمين بعالم العمال الذي قام بطوافه في أمريكا مع بداية القرن العشرين. "طفيلي أكاديمي أو أخلاقي مرتزق"(٦٩)، هؤلاء هم موفدو فرنسا المفكرة إلى أمريكا، كما يسخر جوهييه نفسه.

لكن جوهييه، هذا العصفور النادر للمبادلات عبر الأطلسية، استثناء لا يؤكد أي قاعدة. أين نضع في الحقيقة الرجل الذي نشر في مجلة ***Cahiers de la Quinzaine*** مسرحية تحمل عنوان سبارتاكوس، وأعطى في عام ١٩٠٢ في الوقت نفسه دراسته الأمريكية، وهي مناظرة عنيفة ضد اليسار الاشتراكي؛ حيث قسا بوجه خاص على فالدك - روسو **Waldeck-Rousseau**، رجل "كبار النساك وكبار اليهود"(٧٠)، وجوريس، المشعوذ الأكثر ثرثرة، والأكثر ميوعة، والأكثر وقاحة ممن رمى بهم الجنوب منذ زمن طويل إلى العاصمة"(٧١)؟ يبدو جوهييه، وهو محب للسلام وأممي، ومضادٌ لرجال الدين ومعاد "للطغيان العائلي"، لكنه خائب الأمل من الاشتراكية ومن الدريفوسية، غامضًا بوجه خاص في وجه النقابات الأمريكية التي يصفها باعتبارها "مهددة للنظام الرأسمالي بصورة أكثر جدية من نوادي ساستنا الصغار"(٧٢)، دون أن يتخذ موقفًا من "تروستات رأس المال وتروستات العمل"(٧٣). سيكتب فيما بعد، بين ١٩١٩ و١٩٣٩، في "نشرة الخدمة العالمية **Bulletin du service mondial**" التي يقوم مقرها في إرفرت **Erfurt**، أي قبل أن يغرق في التعاون مع العدو، وأن يوقع في صحيفة ***Au Pilori*** بوجه خاص مقالات معادية للسامية بشكل عنيف. منذ عام ١٩٠٣، يتغلب هذا التحرري العسير على التصنيف الذي يستعصي على الانضواء تحت أي عنوان في أغلب الأحوال على بول بورجيه في عدم اللياقة السياسية: حين يسخر، مثلاً، من الرفاق النقابيين في شيكاغو الذين "يطلبون أن تحمل عصا الشرطة عنوان الاتحاد"(٧٤)! بين الشعبي جوهييه الذي يتأمل بسخرية غامضة "العمال البدينين الأمريكيين حسني اللباس، وحسني النظافة، والمرتاحين"المتمتعين "برواتب الأساتذة في الكوليج دو فرانس"(٧٥)، وبورجيه، عالم نفس الأعيان الذي لا يتخيل تغيرًا منقذًا لأمريكا إن لم يأت من العامل"(٧٦) (وهو نوع لم يخالطه كثيرًا)، تتحدى المواجهات الأيديولوجية غالبًا المواقع

الاجتماعية. لا يسع مع مثل هؤلاء المخبرين على كل حال أن تُكوّن الحركة الاشتراكية الفرنسية فكرة صافية عما يجرى فى الولايات المتحدة.

كثيرة هى الشاشات التى تحجب إذن أمريكا عن الاشتراكيين الفرنسيين، وبين هذه الشاشات تقوم فى موقع ممتاز الاشتراكية والحركة النقابية الأمريكيتان، التى تبقى طرقها عسيرة على النفوذ. إن السمة الساخرة لجوهييه من هؤلاء النقابيين الذين لا يريدون "أن يُضربوا إلا مع نواد اصطنعها عمال وحدويون"(٧٧) تتجاوز حدّ النكتة. إنها تترجم عدم فهم يشارك فيه على نحو واسع عالم العمال الفرنسى أمام سر الاتحادات، هذه الأدوات الرائعة، التى تطلق من أجل مطالب تعتبر زهيدة؛ لأن جوهييه نفسه لا يجهل أبداً "متانة تنظيم، وانضباط، ومصادر الاتحادات العمالية الأمريكية"(٧٨)، بل إنه يستمتع كما رأينا أن يعارض بها بصورة إيجابية التنظيمات المسيّسة للبروليتاريا الفرنسية، لكن سيعسر عليه أن يحمل المناضلين الاشتراكيين الفرنسيين على مشاركته هذه القناعة. ولو حكمنا اعتماداً على التقارير الصادرة عن المندوبين العمال الذين قاموا بالرحلة إلى أمريكا بفضل المعارض العالمية بوجه خاص، لوجدنا أن اختلاف المنظورات يبقى كليا. ما فائدة مثل هذه القوة فى التنظيم إذا كانت المطالب تبقى على هذا القدر القليل من الثورية، وإذا كانت لا تطرح على أقل تقدير "المسألة الاجتماعية" فى مجموعها؟ على هذا النحو يعلل وسيظلون يعللون لوقت طويل – "المندوبون العماليون [...] الذين يواجهون على هذا النحو مفارقة حقيقية لتنظيم يثير الإعجاب، موضوعاً فى خدمة غايات رعديدة"(٧٩). هل النقابات فيما وراء الأطلسى على وجه اليقين بقضاء وقدر حرفية ؟ إصلاحية؟ ثورية بصورة احتمالية؟ كل ذلك فى آن واحد؟ لا نعرف شيئاً، أو أننا نتلافى بالأحرى الحسم فى الموضوع. فى اللحظة ذاتها التى يلتقى فيها جوهييه على طريقه رجال الاتحاد هؤلاء الذين لا يمزحون مع مصدر العصيِّ، يرفض المؤتمر القومى لفدرالية العمل الأمريكية بفارق قليل اقتراحاً مدعوماً من قبل الاشتراكيين يدعو النقابيين الأمريكيين إلى "إقامة سلطتهم الاقتصادية والسياسية ليؤمنوا لعالم العمل الأجر الكامل لجهدهم"(٨٠). وإذا كان رئيس الاتحاد الأمريكي للعمل المضاد للاشتراكية، صموئيل جومبرس **Samuel Gompers**، يحمل على النميمة فى فرنسا نظراً لضخامة راتبه (٢٥٠٠٠ دولار سنوياً، أى بقدر راتب رب العمل!)، فإنه سيدعى مع ذلك لإلقاء كلمته أمام النقابة العامة للشغيلة، فى عام ١٩٠٩، مع كل ضروب التكريم اللائقة بمن هو فى مستواه.

تشوش هذه التضادات أو هذه التناقضات المناضلين الفرنسيين، كل هذه السمات "الغريبة"، من أكثرها لطفاً (العامل يلبس مثل رب عمله) إلى أكثرها وحشية

(المضـــــربون وهـم يكيلون الصـــاع بـالصـــــاع فـى تبـــادل إطلاق النـار مع البانكرتون(*) Pinkerton) هى ألغاز ثقافية واجتماعية تجهد الصحافة المناضلة بحلها فى حين تستقى الصحافة الشعبية منها المسلسلات والمسرحيات الميلودرامية. مهمة قاسية نادرًا ما تُوجت بالنجاح. مما لا شك فيه أن جانب علاقات وصراعات العمل من بين مختلف جوانب الحياة الأمريكية، هو الذى يقبل بأقل سهولة ممكنة نقله حسب الرموز والعلامات الفرنسية، بالنظر إلى القدر الذى تبدو فيه حكايات الرحالة متناقضة أو مستبعدة الحدوث صراحة. وهؤلاء الشهود التائهون أيًا كانت آراؤهم، يبدون حيرتهم إزاء "عالم العمل" شديد الاختلاف عن عالمهم. يسجل جول هوريه الموفد الخاص لصحيفة الفيجارو أنه يعسر الحديث عن هذا البلد. لقد كلفه تحرير كتابه ***فى أمريكا*** ***En Amérique*** كثيرًا كما يعترف؛ لأن "آلية الصيغ هناك لا تعمل"(٨١)؛ فالرحالة البورجوازيون والمراقبون المناضلون هم فى الهمّ سواء. أهلاً بكم فى بلد الحقائق المشوشة! نحدثهم عن الطفرة، ولا نخفى عنهم شيئًا. ننشر الأرقام، والأشياء، نقدم لهم الرجال، ليس هناك أية عقبة أمام فضولهم، ولا أى صمت أمام أسئلتهم، لكن هذا الكتاب المفتوح تمامًا ليس أكثر قابلية للفهم بسبب ذلك. يعانى أوربان جوهييه هو نفسه الذى سخر من بورجيه؛ لأنه لم يخالط إلا الأغنياء والمشهورين، نوعًا من العزاء الثقافى أمام هؤلاء الأغنياء المريحين باستقرارهم: "هناك مع ذلك شىء ما لا يتغير، إنه شطط وحماقة أصحاب الملايين الكثيرة الذين يؤلفون فرقة "الأربعمائة" أو "المجتمع(٨٢)". الأغنياء واضحون، على العكس من هؤلاء العمال الغربيين "البدينين، حسنى الملابس"، بل وحتى "حسنى النظافة"، والذين هم إخواننا ربما، ولكن ليسوا على وجه اليقين أمثالنا.

نواقص فى الإعلام، مصاعب فى التأويل، اهتمامات متفجرة حيّة - فى لحظة دعوى هايماركت بوجه خاص، يتبعها سقوط سريع فى ما يشبه اللامبالاة: تقيم الاشتراكية الفرنسية قبل ١٩١٤ مع الولايات المتحدة علاقة هى فى آن واحد جافة ومتقطعة؛ فغياب الروابط المباشرة عبر بروليتاريا من المهاجرين ذوى الأصل الفرنسى قادرة على تسهيل ترجمة الثقافات السياسية، تحرم هذه العلاقة من كل بعد إنسانى، ومن كل ألفة حقيقية. إذا كان العمال الفرنسيون أو مندوبوهم لا يشعرون حين يلتقون أمثالهم من الأمريكيين بالراحة، فلأنهم أولاً لا يتعرفون أنفسهم فيهم. إنهم هم أيضًا

(*) البانكرتون: هى وكالة المخبرين الخاصة وحرس الشخصيات، المساعدة للشرطة تم تأسيسها فى القرن التاسع، ولا تزال قائمة حتى الآن.

معارضون بالإجماع للهجرة(٨٣)؛ فحذرهم العميق تجاه أسطورة أرض النعيم الأمريكية وارتباطهم بهوية قومية يمكن الحكم عليها منذ هذه الحقبة بأنها مسحوقة حتمًا بـ"القوة الماصة للبلد الأمريكي"(٨٤) ، يبعد عنهم سحر الرحيل أكثر على من كل المواعظ النضالية وجه التأكيد. إن أمريكا التي هي إما كثيرة التجريد في التحليلات النضالية أو أشد غربة من أن تكون ممكنة الوجود، لا "تتجسد" في خيال الحركة الفرنسية. وبعض الملامح التي تفرض نفسها على العمال متناقضة ومحيرة. كيف التوفيق بين عنف الإضرابات الأقصى وقمعها مع الرفاهية التي يبلغها فيما يقال العامل الأمريكي؟ كيف نفسر أنه في نظام سياسي مشهور بأنه ديمقراطي كليًا لا ينبثق أبدًا حزب يمثل عالم العمل؟ كيف لا يكون انصباب يد عاملة في أمريكا قادمة من خمسين أمة ضارًا بتماسك المعسكر العمالي؟ كل الأسئلة بلا جواب، وتضيف الأحداث الراهنة إليها سؤالاً آخر: هذه الولايات المتحدة التي توصف بأنها مسالمة ومعادية للاستعمار، ولنغض النظر عن إزاحتها الملكية الإسبانية من كوبا، ولكن ما الذي ذهبت تفعله في الفيليبين إن لم يكن على وجه الدقة الشيء نفسه الذي يفعله الأوروبيون بحثًا عن إمبراطوريات ومنافذ؟!

نزعات معاداة أمريكا الثلاث
الخاصة بأول اشتراكية فرنسية

هناك في المعسكر الاشتراكي الفرنسي إذن ثلاثة طرق ليكون المرء معاديًا لأمريكا.

الطريقة الأكثر كلاسيكية تنتج من الضرورة الملحة لمقاومة وإزالة القناع عن كل هؤلاء"الجمهوريين" و"الديمقراطيين" المؤذين على الصعيد الأيديولوجي أذى "الاقتصاديين" في دائرة أخرى. لقد أفادت أمريكا دومًا بوصفها نموذجًا لبعض منهم بدءًا بأكثرهم جلالاً، ذلك الذي أقيم له عند وفاته مأتم قومي عام ١٨٨٥: فيكتور هوجو، الذي كان معجبًا بجون براون وبلنكولن وبالحركة النقابية الأمريكية. لقد تغذت خطابات هؤلاء "الديمقراطيين الجمهوريين" طواعية في فرنسا الإمبراطورية الثانية من المرجع الأمريكي، تحت طائلة ترويج الفكرة القائلة إن الديمقراطية الشكلية وحدها تستطيع الاستجابة لتطلعات العمال. لقد رأينا أن ماركس وإنجلز لم ينسيا في أوج حرب الانفصال ثانية واحدة عيوب النظام نفسه الذي كانا يؤيدانه. إن إدانة كذب هذا النموذج المزيف يبقى الشغل الشاغل في عيون الأمناء على التراث الماركسي؛ لأنه إذا كانت صورة الجمهورية الأخت ***Sister Republic*** قد تدنت كثيرًا في فرنسا خلال بضع عشرات من السنين، فلم يستبعد كل خطر تقارب وتسليم الملفات بين الجيل السابق،

جيل الجمهوريين البورجوازيين منومى الشعب، وفرقة المنشقين الإصلاحيين التى يزداد عدد أفرادها بالتدريج. تواطؤ رهيب بالقوة لا سيما حين يتجسّد فى خطيب مفوه مثل جوريس Jaurès: جوريس الذى يدثر المشروع الجماعى بمثل إنسانى أعلى، جوريس الذى لا يشجب اشتراك ميلراند Millerand بحكومة "بورجوازية"، جوريس أخيراً الذى نادراً ما يفوته الثناء على المؤسسات الأمريكية. إن الهجوم المضاد للماركسيين "العلميين" يمر حتماً بالاستنكار المكرر دون توقف للنموذج الأمريكى المزيف.

هناك بعد ذلك الطريقة "المتعصبة"، المرتبطة بنقاشات الحركة العقائدية والداخلية، وتُستخدم الولايات المتحدة فيها حجة لإفراغ الشجار؛ لأن الاشتراكية الثورية تتواجد هنا بين نارين. يجب عليها أن تحتمى على اليمين وعلى اليسار: من الإصلاحيين الذين يحتجون بالتقدم الاجتماعى فى الولايات المتحدة لصالح طروحاتهم، ومن الحركة النقابية الثورية، المأخوذة بالفوضوية، التى يقدم لها العنف الاجتماعى الأمريكى حججاً وشهداء.

الإصلاحيون قبل كل شىء؛ فمنذ وقت مبكر، وفى إثر برنشتاين Bernstein الذى ظهر كتابه ***الاشتراكية التطورية*** ***Socialisme évolutionniste*** فى عام ١٨٩٩، اعتمد "الداعون لإعادة النظر" الأوروبيون على الحالة الأمريكية. كانوا يستخلصون منها أولاً امتيازاً نظرياً، مادام التقدم الضئيل الذى حققته الاشتراكية فى الولايات المتحدة لا يؤكد فيما يبدو الأطروحة الماركسية فى التطور الموازى للرأسمالية وللقوى المُعَدَّة للقضاء عليها؛ إذ لما كانت القوة العظمى للاقتصاد الرأسمالى الأمريكى لا تستثير حركة عمالية منظمة ذات قوة مساوية، بل على العكس من ذلك، فإن الحالة الأمريكية تسمح بالشك فى أطروحة "التناقضات الحتمية"، واسطة العقد فى الأرثوذكسية. ما إن يطرح هذا الشك، حتى تتمكن "نزعة إعادة النظر" من طرح أفكار طليعية موازية ومؤقتة، نموذجها هنا أيضاً أمريكى. يقترح "أنصار الممكن": هل هناك سوء فى تحقيق انتصارات مرحلية منذ اليوم كما تفعل الاتحادات الأمريكية دون انتظار أن تنجز الرأسمالية المحتضرة مهمتها الكبرى؟ لا سيما وأن هذه المكاسب "الآنية"، تسمّى، وهى أكثر من مجرد بقايا الوليمة البورجوازية، على سبيل المثال يوم العمل بثمانى ساعات؟ كان يمكن بسهولة للأممية ولـ"أنصار الممكن" ولـ"أنصار بروس"(٨٥) الحمل على ملاحظة أن هذا المطلب الأولى مطبق فى جزء من الصناعة الأمريكية. ويذهب بعضهم، مثل جوستاف روانيه Gustave Rouanet، وهو معجب لا يتستر بالولايات المتحدة، فى دفع التحريف الأيديولوجى بعيداً مقترحين أنه لا يمكن للاشتراكية أن تولد إلا فى جو من الطفرة المادية وبعد رقىٍّ ثقافى وأخلاقى للعمال يجعلهم جديرين بمهمتهم التاريخية.

ودون المضى إلى مثل هذا الحد، بدأ مناضلون يزداد عددهم أكثر فأكثر بالتساؤل حول العبور السلمى إلى الاشتراكية الذى يسهله تركيز الصناعة فى التروستات، بل إن واحداً من معيدى النظر مثل أوجين فورنيير Eugène Fournière يذهب إلى حد الدفاع عن التروستات فى كتابه الجمهورية الصغيرة *La Petite République*، فهى تقمع العامل أقل بضمانها أجوراً أفضل له، وتسهم بإحلالها التنظيم محل المنافسة، بضبط الإنتاج، موفرة بذلك على العمال آثار الأزمات الصناعية. ويختتم فورنيير: "كانت التروستات أدوات هذه القوة الرائعة، ولن يفيد لعنها فى شىء، بل إنى أقدر أن الاشتراكيين يخطئون فى أن ينظروا إلى هذه المشروعات الجماعية بعين السخط، ويخطئون أكثر إن صفقوا للمقترحات التشريعية التى تستهدف تحطيمها"(٨٦)، وكذلك بالنسبة للقوانين المضادة للتروستات ـ التى توفق على كل حال فى فرنسا ما بين اشتراكيين من كل الاتجاهات وليبراليين فى الريبة ذاتها.

يمثل النموذج الأمريكى ذو الإنتاج العالى والأجور المرتفعة خطراً كبيراً فى انحراف البروليتاريا: يجب إذن إبطال أسطورة أمريكا الرفاه العمالى والمنجزات الاجتماعية المزعومة. كُتِبَ كتاب *التروستات الأمريكية* لبول لافارج لإدانة "نبى البورجوازية" فى شخص برنشتاين ولعرقلة الموجة الصاعدة للاشتراكية الإصلاحية، وذلك بالتأكيد على الطابع أولاً الحتمى والثانى المضر بالعمال للتمركز الرأسمالى؛ لأن ذلك يهدد لا مصداقية التحليلات الاقتصادية لماركس فحسب، بل كذلك المركزية الإستراتيجية لصراع الطبقات. سيشرع إذن فى تنسيب وتخفيف وأخيراً إنكار أى فائدة للمكتسبات الاجتماعية الأمريكية. وحتى يوم العمل بثمانى ساعات الذى يُدعى العمال الأوروبيون لبذل كل التضحيات من أجل الحصول عليه، والممنوح فى الولايات المتحدة، يبدو لهم فجأة زهيداً وشبه تافه. ومع تطبيقه هناك فإنه لم يخفف شيئاً من الاستغلال الرأسمالى طالما أنه " لا شىء يدور فى الحضارة الرأسمالية لصالح العمال ولا حتى الإصلاحات التى تحابيهم للوهلة الأولى"(٨٧) كما يذكر لافارج. من هنا أيضاً رد الفعل الغريب المؤلف من الاستنكار ومن "العزاء"(٨٨) أمام أحداث هايماركت و"جرائم الرأسمالية" الأخرى: الانفعال عميق، إلا أنه مشوب بالرضى المرّ فى رؤية أمريكا الرأسمالية والبوليسية ترفع قناعها.

لكن على الأرثوذكسية أن تحذر على اليسار: من جهة الفوضوية، منافسة الاشتراكية فى قلب الحركة العمالية ولا سيما فى النقابة العامة للعمالCGT. من بين نتائج قضية هايماركت لا يسعنا الاستهانة بحافز التضامن الذى أفاد منه المناضلون الفوضويون المدانون ومن خلالهم التيار الفوضوى بصفة عامة. لم يفت أية أسرة من

اليسار المتطرف الفرنسى أن تستجيب للنداء من أجل الاحتجاج ضد الحكم الذى ظهر كما لو أنه اغتيال قانونى. ورأينا على المنصة ذاتها جيسد Guesdeولونجيه Longuet وفايان Vaillant وروشفور Rochefort ولويز ميشيل Louise Michel يعلنون تضامنهم مع المتهمين. جذبَ الحدث الانتباه إلى التطور القوى للتيار الفوضوى فى الولايات المتحدة، ولم يبق الأنصار الفرنسيون لـ"العمل المباشر" غير مبالين بهذا الانطلاق، وأشهرهم إميل بوجيه Emile Pouget، ناشر *الأب بينار Père Peinard*. يستوحى بوجيه اعتباراً من عام ١٨٨٦، الأحداث الأمريكية ومناهج "الدعاية بالواقع" المبجلة منذ مؤتمر لندن. أما وقد صار فى عام ١٩٠٠ محرر *صوت الشعب La Voix du Peuple*، صحيفة نقابة الـ CGT؛ فقد صار بوسع بوجيه من الآن فصاعداً أن ينشر فى مجمل الحركة النقابية رؤية نظرية وتكتيكية مستوحاة من الصراعات الأمريكية. إن القرار المتخذ فى مؤتمر بورج عام ١٩٠٤ لإطلاق عمل قومى من أجل الثمانى ساعات فى صورة إضراب عام يبدأ فى الأول من مايو ١٩٠٦، يستند مباشرة إلى إستراتيجية الجمعية الدولية للعمل International Worker Association فى شيكاغو. يعزز هذا الولع الفوضوى - النقابى بـ"المثل" الأمريكى الذى يدعو بوجيه لـ"تقليده"(٨٩) حذرُ الماركسيين إزاء أشكال النضال الأمريكية، لا سيما وأن الفشل الذريع للإضراب العام "على الطريقة الأمريكية" عام ١٩٠٦ قد نفَّر لأجل طويل النقابيين الفرنسيين من الذهاب فيما وراء الأطلسى بحثًا عن وحيهم.

الطريقة الثالثة ليكون المرء فى فرنسا اشتراكيًا ومعاديًا لأمريكا يتجاوز إلى حد كبير إطار النقاش النظرى أو المواقف الإستراتيجية: إنها الطريقة العمالية التى ليست هى طريقة مفكرى الحركة. لقد قلنا إن أمريكا ١٩٠٠ فى نظر منظرى الاشتراكية العلمية هى المركز السطحى لنهاية العالم المنتظرة، بلد "المرحلة الأعلى" للرأسمالية مادام "نظام التروست يعمل على إعداد البشر والأحداث من أجل نهايته "الكارثية"(٩٠). يضع بول لافارج الذى يعلن هنا الخبر المفرح الصفة "الكارثية" بين قوسين صغيرين. ألكى يشير إلى سخرية التاريخ؟ أم ليراعى حساسية قرائه المهتمين باختفاء الإجارة ولا شك، لكن المعنيين بصورة أكثر مباشرة أيضًا بشلال الكوارث التى لابد وأن تسبق هذا الاختفاء؟ تعكس هذه النزعة الاشتراكية الثالثة المضادة لأمريكا فى الواقع رد فعل مزدوج: رد فعل إزاء الانطباعات عن أمريكا التى تم تلقيها من العالم العمالى (إضرابات دموية، وقمع شرس، ومحاكمات جائرة كمحاكمة هايماركت، وتعميم الآلة الذى يغير ويحطم العمل البشرى)، وكذلك رد فعل أيضًا على حماس قادة الحركة النظرى للوعد الأمريكى المهدد. هذه النزعة فى معاداة أمريكا هى نزعة عمال فهموا

تمام الفهم التحليل الذى قام به ماركس وإنجلز فى سنوات ١٨٨٠، سمعوا الحكايات وتوقفوا عند ملاحظات مندوبيهم العائدين من الولايات المتحدة، رأوا فى التحقيقات الصحفية لصحيفة ***Illustration*** حول جيوش السيد بانكرتون **Mr. Pinkerton**، تسلّوا ربما بالمسلسل المضاد لليانكيه لجوستاف لوروج أو قرأوا فى بعض الأمسيات ترجمات رفيق من هناك اسمه جاك لندن. إنهم هؤلاء العمال، هؤلاء الحرفيون، هؤلاء النقابيون الذين يسترعى انتباههم قبل كل شىء فى الوضع الأمريكى العنف الذى يعيث فساداً فى الأزمات الاجتماعية، الذين ينضمون للفكرة الماركسية القائلة إن النمو الأمريكى الخارق سوف يزعزع الاقتصاد الرأسمالى فى أوروبا، لكن الذين لا يستخلصون منها على وجه التدقيق النتائج ذاتها؛ لأن من الواضح أن نهاية العالم لن تكون مرحة. يقال لهم إن محدلة المنافسة الأمريكية سوف تمهد أرض الثورة بدفعها المقاولين الأوروبيين إلى الإفلاس، إنهم يقبلون البشرى دون أن يتمكنوا من أن يجدوا فيها ما يفرح. يقال لهم إن الرأسمالية الأوروبية محصورة من الآن فصاعداً فى زاوية الحلبة وهى على وشك التهاوى، إنهم يريدون تصديق ذلك إلا أنهم يودون أن يعرفوا أيضاً أى ثمن، أو أى تلف، أو تحطيم لحياتهم سيدفعون مقابل هذا الانهيار. ويُضاف أن هذه القفزة الواسعة نحو المستقبل بالطبع التى ترغمنا عليها أمريكا ستعنى فى الوقت الحاضر البطالة الواسعة والانخفاض الكبير فى الأجور، وينتهون إلى التساؤل وطرح السؤال بصوت عال فى الاجتماعات والمؤتمرات إن كان هناك حقًا ما يدفع إلى إظهار الفرح. كل هؤلاء، وضد قرارات الأممية المؤيدة للتبادل الحر، لن يكرهوا أن يأتى القليل من الحماية الجمركية لإسعاف أرباب عملهم ولعملهم نفسه، إنهم يسخطون شأن أرباب عملهم، من رسوم الجمرك الأمريكية التى تغلق أمام الأوروبيين معظم الأسواق، وإذا كانوا مستعدين للبهجة من مستوى حياة بعض رفاقهم فيما وراء الأطلسى، فذلك شريطة أن لا يتحملوا عبء ذلك على كل حال. هؤلاء المعادون لأمريكا هم فى الإجمال كل العمال الذين يريدون فى فرنسا (كما هو الأمر من ثم فى ألمانيا وفى إنجلترا)، أن يقبلوا فكرة أمريكا بوصفها "مختبراً اجتماعيا كبيراً"، حسب الصيغة التى أطلقها جان لونجيه[٩١]، شريطة أن يُعفوا من أن يكونوا موضع التجارب عن بعد. وراء التحليل النظرى الذى يميل لدى الماركسيين إلى أن يجعل من أمريكا جوليم(*) **Golem** مدمراً بالنسبة للصانعين الرأسماليين أنفسهم، وتحت أكاليل هذه القصيدة التى تمدح تحت

(*) جوليم Golem: شخصية خيالية من الثقافة اليهودية فى العصور الوسطى تشير إلى كائن ذى قوة خارقة ما إن يستيقظ حتى تستحيل السيطرة عليه.

الضرورة، فإن ما يسيطر على الصور العمالية والمناضلة وما يثقل بوزن أشد ثقلاً، هو اليقين البليد أنه لا شيء صالح يمكن أن يأتي من هذه الأمريكا ـ المفترسة(*) التي بعد أن ابتلعت البروليتاريين الأوربيين بمراكبهم الكاملة، تهدد بأن تغرق مع الاقتصاد الأوروبي نفسه كل الذين لا يزالون يفلتون من قبضتها. كان لافارج يعد في عام ١٩٠٣: "إذا سقطت الرأسمالية في أمريكا فستسقط في أوروبا". وكان لنبوءته أن تبهج أكثر البروليتاريين الفرنسيين الذين كان يوجهها لهم لو لم تكن مرفقة بذكر "الضحايا الذي سيُعدون في كل الطبقات الاجتماعية بالملايين..."(٩٢).

هذا التألق المدمر للتروستات هو في مركز تبشيرية اشتراكية تتفخم لهجتها مع مرور السنوات، كما لو أن البشرى بنهاية "النظام" العنيفة كانت تميل إلى التعويض عن النشرات الكئيبة القادمة من الجبهة النقابية أو السياسية الأمريكية. يرى لافارج تماماً أن نهاية العالم هذه ليست قليلة المرح فحسب، بل قليلة الفائدة للبروليتاريين إن لم تنتهز الفرصة قوى ثورية واعية ومنظمة. يدسّ، قبل آخر صفحة من كتابه عن التروستات الأمريكية، ثناء متأخراً على "رفاق العالم الجديد" كما تُعطى علامة إضافية لتلميذ قليل الموهبة. اهتمام محمود، لكنه لا يعادل أبداً انطباع القدرة الكلية الذي خلفه وصفه لـ"نظام التروستات". يكتب في خاتمة كلامه: إن الماركسيين "يظنون أن التروستات المصحوبة جيداً بروس الأموال والمنظمة بصلابة على قاعدة قومية ودولية ستقاوم الزوبعة الاقتصادية، وستنتصب أكثر ضخامة أيضاً على الأنقاض المكومة من حولها"(٩٣)؛ أي قارئ لن يشاركهم وجهة نظرهم بعد أن يغلق الكتاب الصغير للافارج؟

النزعة الجماعية والإقطاعية

صارت أمريكا الشمالية عند منعطف القرن العشرين المجهولَ المزعجَ في معادلة اشتراكية يمثل التروست فيها المجهولَ الثاني، لكن الأهمية التي اكتسبها التروست لا في التحليلات المختصة فحسب، بل في الخيال الجمعي أيضاً، يعكس الحيرة أمام المظهر الاجتماعي الخارجي الأمريكي الذي لا يمس الاشتراكيين وحدهم. إن السحر الذي يمارسه نظام التروست يتناسب ووسواس مزدوج: وسواس تصاعد القوة الأمريكية ووسواس تفاقم "المسألة الاجتماعية". لا يقدم التروست أي جواب لهذه الهموم، بل هو يثبتها: ومن هنا استيطانه السريع والدائم في الخيال وفي الألفاظ. من

(*) Amérique Moloch يستعير المؤلف اسم الإله مولوخ الذي كان لدى القرطاجنيين؛ حيث يتلقى الضحايا البشرية، ويضفيه على أمريكا! (المترجم)

اليسار إلى اليمين يُعتقد بالقوة الطاغية لنظام التروست؛ ويُرى أننا أمام شيء آخر غير مجرد أداة اقتصادية، يُرى فيها بصورة عامة حجر الأساس للمؤسسة الاجتماعية الأمريكية. يلتهم نظام التروست، هذا الغول الاقتصادي والمالي، وسيلتهم أيضًا مجموع العلاقات الاجتماعية، وسيحل قانون كلفة الإنتاج محل اللعبة السياسية، سيكون وحده القوة والقانون، ومصدر كل ثروة وكل سلطة.

هذا النجاح رمزيٌ قبل كل شيء، فهو لا يهتم بالدقة في الوصف، ولا بالمناسبة في التحليل. إنه يتوقف بالعكس على قدرة استقبال اجتماع الضدين. إن التروست ناقل جيد "أسطوري" بالأهواء التي يستثيرها، بل وكذلك وعلى وجه الخصوص بالكفاءة التي يتركها للمعلقين عليه أن يبسطوا بحرية خيالات متناقضة. وهكذا يُقدم التروست في آن واحد بوصفه مرضًا أمريكيًا بوجه خاص - يكتب جوهانيه: "كل الصناعات الأمريكية تَرَوْسَتَتْ"(٩٤)، - وبطريقة أكثر إثارة للدهشة أيضًا يجمع التروست الذي يَصِفُه الفرنسيون قسمات جِدَّةٍ مطلقة مع قسمات أكثر ضروب القدم جذرية. إنه "يجسد مقدمًا" المستقبل تحت قسمات الماضي الأشد قدمًا. إن التروست الأمريكي هو مستقبل العالم، لكن هذا المستقبل يعود بالإنسانية إلى العصور الوسطى.

لا شك أن الجانب الأشد غرابة والأكثر بلبلة في الأدب المتراكم في فرنسا حول نظام التروست يتجلى في تجاور إدراك الحداثة ("الأمركة"، العولمة، غفلية البنى، سيطرة "التجارة الجديدة" على الإنتاج) والتصور التخيلي عن التراجع نحو الطفولة العنيفة ما قبل الصناعية للإنسانية. تجدر الإشارة إلى أن العصور الوسطى ليست على وجه الدقة مرجعًا إيجابيًا حوالي عام ١٩٠٠. إن المفاجأة الكبرى هي كلية الحضور في هذه النصوص للمجاز الإقطاعي. إن نظام التروست، جوهرة الحداثة هذه، يعيد الإنسانية إلى أزمنة مظلمة. وكما لو كانت عودة لا واعية للفكر الدوري، فإن أعلى طور من النمو الرأسمالي يجعل الماضي الأكثر قدمًا ينبثق ثانية. يكف "نظام التروستات" عن أن يكون أنئذ مقولة وصفية اقتصادية واجتماعية بصورة جوهرية، كي يصير ضمنًا مقولة لنتاج المؤرخين، على نمط (تم اصطناعه في القرن التاسع عشر): النظام الملكي، النظام الإمبراطوري و على وجه الدقة النظام الإقطاعي. القفزة نحو المستقبل في هذا الخيال الثاني هي "إلى الأمام نحو الماضي!". إن "*go-a-headism*" كذا التي كان شاسل قد جعل منها السمة المميزة لليانكيه تقذف بنا إلى الوراء. إن أمريكا روكفلر هي إجابة مكهربة لليل الإقطاعي، إعادة إنتاج صناعية للأزمنة الوحشية. وهكذا يصير حاضر أمريكا من خلال تركيز مدهش للمتضادات، في آن واحد، مستقبلنا وماضينا: مستقبل قاس بقدر ما هو حتمي، ويزداد هوله حدة لكوننا نحن الأوربيون قد سبق وعشناه.

بنية كابوس؛ فالحالم يزداد ذعراً بقرب الكارثة لا سيما وأنه على قناعة من أنه سبق وعاشها.

هذا الخيال "الوحشى"، "القروسطى" أو "الإقطاعى" هو نقطة تلاقى الخطابات الفرنسية حول التروست. إنه لا يخلو من علاقة مع الثيمة الكبرى فى سنوات ١٨٨٠: ثيمة "الأرستقراطية فى أمريكا". والمقصود فى الحالتين كشف الحداثة الديمقراطية الأمريكية بوصفها خديعة. وهكذا إذ يأخذ بول دو روزييه على توكفيل ترويجه لفكرة أن أمريكا هى ديمقراطية، يضيف بأنه إذا "بدت فروسية الجنوب القديمة تغرق أكثر فأكثر فى الرداءة"؛ فهناك أخرى حلت محلها، هى فروسية الكارنيجى [كذا] والمورجان. لا "إن الجمهورية الأمريكية ليست [...] اجتماع بشر متساوين بصورة مطلقة فحسب؛ ولكن من وجهة نظر ما، يبدو البشر فيها أكثر تساوياً مما هم عليه فى أى مكان آخر"، ما دام لاشىء يعوق قوة الأقوياء[٩٦]. إن سيادة التروستات يؤكد ويفاقم هذا الإقرار. ستحل صور القرون الوسطى شيئاً فشيئاً محل التشبيهات بالنظام القديم. ولم تعد أسطورة المساواة الأمريكية تعارض بوجود أرستقراطية غير معترف بها فحسب، بل ببداهة استعباد الفقراء والضعفاء. إن قانون الكسب يعزز قانون العرق "إلى درجة" كما يكتب بورجيه "أن هذه الديمقراطية تعطى أحياناً الانطباع بأنها أرستقراطية، وأكاد أقول إقطاعية"[٩٧].

حذر خطابى غير ضرورى: فى نهاية القرن هذه، دخلت مفارقة أمريكا الإقطاعية العقيدة. يقدم إدمون جوهانيه عن ذلك مثلاً آخر. كما هو الأمر لدى بول دو روزييه، فإن الاستمرارية مطبوعة بريبية الجيل السابق إزاء الديمقراطية الأمريكية المزيفة (يرجع جوهانيه هنا إلى البارون ماندا - جرانسى[٩٨])، لكن الجدة تكمن فى الصور القروسطية المكلفة ببيان مصادرة الديمقراطية: "لقد جعلت الأرستقراطيات بالاسم وبالثروة من نفسها سيدة الدستور الديمقراطى الأمريكى، وبوسعنا القول دون مبالغة إن سياسة الولايات المتحدة قد صارت فى الواقع الحكومة العامة للمصالح الخاصة لطبقة موسرة[٩٩]". يخصص جوهانيه مائة صفحة ليصف عالماً من الامتيازات والاغتصاب يجاور فيه وورد ماكس أليستر Ward Max Allister "مبتكر" الأربعمئات[١٠٠] فتيات المجتمع النيويوركى اللواتى تقدر كلفة تربيتهن ألف دولار سنوياً[١٠١]. إنه ينزه قارئه مطولاً من حول "كنائس أصحاب الملايين"، مثل الكنيسة الكالفانية فى الجادة الخامسة. لكن الرحلة التى يصفها هى رحلة فى الزمان: "سادة من أصل رفيع، وآباء نبلاء أو فتيان، متدثرين بلياقة حسب آخر موضة، يواكبون أميرات فى عمر الزهور[١٠٢]". سيادة هادئة. إن "سعداء هذا العالم" هم أيضاً سادته: "أليست الحالة

الديمقراطية تحت سلطة أرستقراطية مسلحة بكل أدوات السيطرة الخاصة بالنظام الإقطاعي[١٠٣]؟" الحكومة الفدرالية تحت الوصاية؛ فهي مثل "حكومة الباي" في تونس، "تعيش سعيدة وراضية تحت نظام وصاية الغزاة"[١٠٤]. المؤسسات الأمريكية "محمية سياسية"(١٠٥). وهؤلاء الحامون، الغزاة من الداخل، هؤلاء السادة الجدد، هم بالطبع سادة التروستات. "لم تعرف القرون الوسطى بارونات أرفع وأقوى من هؤلاء السادة الأمريكيين المدرعين بالذهب، والذين يجتازون السهول المخططة بسكك حديدهم، وينسحبون بعد ذلك إلى قصور المصارف المنيعة والشركات الكبرى التي تتألف فيها التروستات، آلات القمع هذه التي تسحق فيها كل منافسة مستقلة، وتباد فيها كل حرية تجارية، وترفع فيها أسعار كل ضروريات الحياة[١٠٦]. في نسخته الفرنسية كما نرى، ليس اللصّ المسلح **robber-baron** نهاب طرق (السكك الحديدية)، والخارج على القانون **autlaw** السكران بقوته الوحشية: إنه فاتحٌ في بلدٍ خاضع. إنه هو الذي يضع القوانين، ويدفع رواتب السياسيين، و"يحمي" الحكومات؛ إنه يهب الكنائس، ويزوج بناته إلى أقرانه وأصحابه في الجادة الخامسة. إذا كان التروست مستقبل العالم، فإن هؤلاء السادة قد تلقوا الكوكب الأرضي إقطاعًا لهم؛ ذلك هو هذا "النظام الأرستقراطي لإقطاعية حديثة تخضع لها الدولة الديمقراطية"[١٠٧].

من المحافظين مثل جوهانيه إلى محققي المتحف الاجتماعي مثل بول روزييه، تعود الصور القروسطية مع كثير من الإلحاح لا يسمح بنزع صفتها كسهولة بلاغية.أما أن يُرى فيها ذريعة أيديولوجية تهدف لإيضاح تحليل "مادي" لنظام التروست، فمن الأفضل قبل المخاطرة بتبني الفرضية العودة مرة أخيرة إلى لافارج وإلى كتابه التروستات الأمريكية عام ١٩٠٢: سنجد فيه القرون الوسطى، لا بوصفه مجازًا أو تشبيهًا فحسب، بل قاعدةً أصلية وتاريخية يتجذر فيها نظام التروستات. لا يوجد الأكثر إثارة للدهشة بين كل رسوم الولايات المتحدة هذه بأسلوب إيفانهويه، لدى "الاقتصاديين"، ولا لدى المضادين للنظام الجماعي، بل لدى هذا الصهر لماركس. زخرفة تثير الحيرة لا سيما وأن كتاب التروستات الأمريكية يريد أن يكون أكثر تقشفًا. لا يغذي لافارج النوادر ولا المشاهد الشعبية؛ فلوحاته تربوية كلها: الشركات، ورءوس أموالها وأرباحها تنتظم فيه حسب أعمدة مصفوفة. إن "دراساته عن التروستات" تتحمل بشجاعة شكلها الكتابي المناضل. يعبر أصحاب المليارات، و"أرباب الصناعة" و"أرباب التروستات" حكايته دون زخارف. (لن نعرف عن روكفلر إلا أن له "معدة من التلف بحيث إنه لا يستطيع أن يتغذى إلا من الألبان"[١٠٨])، لكن الطابع الروائي الذي يرفضه لمورجان ولروكفلر، لا ينكره لافارج على التروست ذاته، ففي منتصف كتابه على

وجه التحقيق، ينقطع فجأة، ويتوقف عند الكلمة السحرية ذات المقطع الواحد التى رددها صفحة بعد صفحة. إنه يتناولها، ويديرها ويحملها على الكلام. من المستحيل أن نجهل وقتًا أطول من ذلك، كما يقول لافارج، أن كلمة تروست ليست كلمة مستحدثة أبدًا. وأنها على العكس تمامًا ضرب من كلمة قديمة، دالّ بدائى، "كلمة من الحقبة القديمة". وليس أيًا كان من القدماء: فـ"تروست كلمة من اللغة الإسكندنافية القديمة، اشتقها جريم من تروت *trôt* أو تراوست *traust* التى تعنى حماية، وصاية. "مدخل الأنجل Angles": تروست Trôst فى نيبلونج Niblunge تقال للحامى". مدخل الساكسون: "أن تكون فى تروست *truste* رئيس ما، أى أن تكون محميّه *antrustion*، كان يعنى أنك تحت حمايته. كان للرجال الأحرار وللرقيق فى تروست *truste* الملوك الميروفينجيين mérovingiens حق بتعويض *wergeld* عال عن كل شتيمة." أهو تنقيب علمى مجانى؟ أم تظاهرٌ مُرَبٍّ بالمعرفة؟ لا: إعادة نسب إلى أصله، معلومات متممة فى الدعوى المقامة على التروست. رغم المظاهر، فنحن لم نغادر دترويت ولا بيتسبورج، إننا نتصفح دفتر صور أسرة السادة الجدد. "أهملت الكلمة فى اللغة الفرنسية، لكنها مستخدمةٌ فى اللغة الإنجليزية مع محافظتها على معناها القديم." ينتهز لافارج الفرصة ليقيم من جديد حق التقدم الاشتقاقى لكلمة تروستيه trustee على تروست *trust*: كان مدراء شركة ستاندار أويل، والد نظام التروست، عبارة عن تروستيهات *trustees*، أى رجال ثقة لدى المساهمين. من هنا على وجه الاحتمال استخدام كلمة تروست *trust* لتسمية الشركات الصناعية(١٠٩)". قبل التروست *trust*، كان هناك التروستيهات *trustees*. تحت بلاط فضل القيمة هناك شواطئ البلطيق. وراء الديكور الصناعى، هناك المشهد البدائى الأنجلو ساكسونى. حكّوا قارئ رأس المال وستجدون قارئ أوجستين تييرى Augustin Thierry. بين الأسلاف الأنجلو ساكسونيين هنجيست Hengist وهورسا Horsa والأسلاف الجرمانيين، النيبلونجن Nibelungen، هوالاقتصاد مسموعًا على أبواب الخرافة، والماركسية العلمية مربوطة إلى عربة علم الأساطير. ليس هذا التفصيل المدهش مجرد استطراد لغوى. إنه يفهمنا لماذا يبدأ هذا البحث فى التروستات بعرض حول التنظيم الحرفى فى القرون الوسطى. ذلك أن "نظام التروستات"، ولا فارج يكتب ذلك حرفيًا، فى طوره المتقدم ــ و"حسنًا، كما يضيف، أنّ كل التروستات، حتى الأفضل تنظيمًا وتوطيداً منها، قد وصلت إلى هذا الطور من التطور [...] ــ يطبق المبدأ الرئيس فى الإنتاج ما قبل الرأسمالى، الذى نلاحظه فى المرحلة الأبوية والإقطاعية"(١١٠). هل هناك أكثر صحة، وأكثر ملاءمة منذئذ، من أن "تُسمّى منظماته بكلمة من الحقبة القديمة"؟ يلتحق بجوهانيه المحافظ فى الجهد نفسه

لفك رموز التروست عبر شبكة قروسطية تُمَدِّدُ تدريجيا إلى كل الطبقات الاجتماعية الأمريكية. يكتب جوهانيه: "إن ألجنرال الأمريكى ليس شخصاً آخر غير الدوق، بالمعنى الحرفى؛ إن حاكم ولايات الاتحاد يملك السلطات نفسها المدنية، والإدارية، والعسكرية، والقضائية نفسها التى كان يملكها الكونت فى السابق؛ ويمكن أن يُشَبَّهَ قطب السكك الحديدية الأمريكية بالبارون"(١١١)، ولكن "اقتصاديين" بورجوازيين أو ماركسيين مثل لافارج، أولئك الذين يفهمون حرفيًا المجاز القروسطى، ليسوا من كنا نظنهم. يلتحق لافارج وهو مجلل بجديته الرصينة بقفزات كبيرة بالتصورات البطولية لجوهانية الذى يرسم "السادة الراقين والأقوياء" فى مانهاتن أو بجوستاف لوروج الذى يظهر وليام بولتين الرهيب فى روايته مؤامرة أصحاب المليارات منطلقًا بأقصى سرعة فى قطاره الخاص عبر السهل الذى هجره الصيادون كما لو كان "رئيس دولة أوربية" ـ أو بكل بساطة كما لو كان بارونًا حقيقيًا من القرون الوسطى الجديدة.

إن رواية ***التروست*** الفرنسية هى رواية ***أمريكى فى بلاط الملك آرثر*** مروية بالمقلوب: كان مارك توين Mark Twain ينقل يانكيّه إلى كاملو Camelot؛ أما الماركسيون والليبراليون المفتونون أيضًا بـ"تعميم التروست" فينقلون الولايات المتحدة فى عام ١٩٠٠ إلى القرون الوسطى(١١٢). لقد انتهت على وجه التأكيد لا الصور الديمقراطية المربوطة بسذاجة إلى الولايات المتحدة من قبل مثاليى الأجيال السابقة فحسب، بل كذلك فكرة التقدم على الأرض الأمريكية. لا يمكن لهذا البلد أن يكون حديثًا إلا وهو يتراجع؛ فهو يعثر على أهواله القروسطية فى نهاية سباقه المجنون نحو المستقبل. لقد أكدت الاشتراكية الفرنسية فى نهاية القرن التاسع عشر عبر تعقد الرهانات المرتبطة بانشقاقاتها الخاصة وبصورة كثيفة مخاوف خصومها المضادة لأمريكا. وقد مضت فى التئام الصور السلبية عن الولايات المتحدة عند منعطف القرن، أبعد بكثير من العديد من المحافظين المنزعجين من الديماجوجية أو قلة التهذيب الأمريكية. وإذ ألقت فى المعركة بثقل "علم الاقتصاد" وبلاغته السلطوية، فقد أنجزت المأثرة الهادمة للأيقونات الخاصة بأوائل الشكاكين عبر كشفها حرية الأمريكيين بوصفها غشًا ونظامهم السياسى بوصفه تعبيرًا فاسدًا عن السلطة الحقيقية التى يملكها نظام التروست. ولو سمعناها لظهرت أمريكا جيلدد إيج قد ولدت من التخلف أكثر مما ولدت من الاشتراكية. أما الجمهورية الكبرى العزيزة على هوجو، فبدلاً من أن تبث فى العالم مثلاً أعلى ديمقراطيا، لا تحلم إلا بشىء واحد: أن تفرض على أوروبا الإقطاعية التى أقامتها من جديد "إمبراطورية التروستات".

هوامش

(١) يكتب رنيه ريمون: إنه حتى "عهد ملكية يوليو، لم تتحرر صورة أمريكا بعد كليًا من الأسطورة الزراعية". انظر: René Rémond, Les *Etats-Unis devant l opinion française*. 1815-1852, Paris, Armand Colin, 1962, pp. 777-778.

(٢) ما يعلن عنه عنوانا كتاب إميل باربييه ***رحلة فى بلاد الدولار*** Emile Barbier, ***Voyage au pays des dollars*** أو إدمون جوهانيه حول ***عالم يملك الملايين*** Edmond Johanet, ***Au-tour du monde millionnaire*** الذى يعالج الفصل الأول منه "حكومة الأغنياء الكاملة"

(٣) Emile Barbier, *Voyage au pays des dollars*, Paris, Marpon & Flammarion, 1893, p. 135.

(٤) Edmond Johanet, *Autour du monde millionnaire*, Paris, Calmann-Lévy, 1898, p.70.

(٥) P. Leroy-Beaulieu, *Les Etats-Unis au XXº siècle*, Paris, Armand Colin, 1904, pp.233, 232.

(٦) P. de Rousiers, *Les Industries monopolisées (trusts) aux Etats-Unis*, Paris, Armand Colin, Bibliothèque du Musée social, 1898, p. vi.

(٧) E. Johanet, *Autour...*, p. 71.

(٨) O. Noël, *Le péril américain*, Paris, De Soye et fils, p. 34.

(٩) P. Lafargue,*Les Trusts américains*, Paris, V. Giard et E. Brière, 1903, p. 41.

(١٠) *Ibid.*, p. 124.

(١١) *Ibid.*, p. 41.

(١٢) أعطى حق النشر للمرة الأولى للصحيفة الجيدية "الاشتراكى" (١٨ـ٢٥ يناير ١٩٠٣)، وذلك قبل نشرها فى كتاب.

(١٣) H.D. Leoyd, wealth Agoint commonealth, New York, Groy & B., 1896.

(١٤) "[التعرفة] هى فى نظرهم سلاح ضد أوروبا، وهم يشحنونه حتى اليوم الذى يستشعرون أنفسهم على قدر من القوة كى يسحقون العالم صناعياً" : انظر : O. Noël, *Le péril améri-cain*, Paris, De Soye et fils, p. 30.

(١٥) يوازى أوربان جوهييه بين "تروست رأس المال وتروست العمل" : "مصرفين من أسماك القرش". انظر :

Le Peuple du XXe siècle aux Etats-Unis, Paris, Fasquelle, 1903, p. 93.

(١٦) P. Leroy-Beaulieu, Les Etats-Unis au XXe siècle..., p. XVII.

(١٧) Ibid., pp. 238,244. هذه الملاحظة فى نظر لوروا بوليو لا تنطوى على ما يطمئن؛ لأن هذا الركود الداخلى سوف يطلق الاقتصاد الأمريكى نحو الأسواق الخارجية.

(١٨) P. de Rousiers, *Les Industries...*, p. vi.

(١٩) U. Gohier, *Le peuple du XXe siècle...*, p. 89.

(٢٠) P. de Rousiers, *Les Industries...*, p. 326.

(٢١) *Ibid.*, p. 320.

(٢٢) *Ibid.*, p. 322.

(٢٣) E. Demolins, *A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons*, Paris, Didot, 1987, p.270.

(٢٤) Th. Bentzon, *Choses et Gens d Amérique*, Paris, Calman-Lévy, 1898, p. 2.

(٢٥) Laurence R. Moore, *European Socialists and the American Promised Land*, New York, Oxford University Press, 1970, p. 192.

(٢٦) H. Turtledove, How Few Remain, New York, Ballantine, 1997. *The Great War Walk in Hell, The Great War. Breakthroughs, ibid.*, 1999 et 2000. Je remercie John Mason de me les avoir signals.

(٢٧) Marx à Engels, 10 septembre 1862, *Correspondance*, traduction par J. Molitor, A. Costes, 1933 (tome 7).

(٢٨) Marx, *La guerre civile nord-américaine*, [Die Presse, 25 octobre 1861], dans Marx et Engels, La Guerre aux Etats-Unis, traduction et présentation de R.

Dangeville, Paris, UGE, 10-18, 1970, p. 38.

(٢٩) Marx à Engels, 29 octobre 1862.

(٣٠) K. Marx, Crise dans la question esclavagiste, [Die Presse, 14 décembre 1861], *La Guerre civile...*, p. 217.

(٣١) F. Engels et K. Marx, La guerre civile aux Etats-Unis, [*Die Presse*, 26 novembre 1861], Ibid., p. 87.

(٣٢) K. Marx, Manifestations abolitionnistes en Amérique, [*Die Presse*, 30 août 1862], *ibid.*, pp. 223-227. يمهد ماركس لهذا النقد اللاذع الشديد بهذه الكلمات التى وضع خطًا تحتها: "فى الوضع الحالى، يبدو الخطاب من ويندل فيليبس Wendell Phillips إلى أبنجتون Abbington أهم من نشرة حربية" p. 223.

(٣٣) F. Engels et K. Marx, La guerre civile américaine, [*Die Presse*, 26 et 27 mars 1862], ibid., p. 109.

(٣٤) Engels à Marx, 30 juillet 1862.

(٣٥) Engels à Marx, 5 novembre 1862.

(٣٦) *Ibid.*

(٣٧) Engels à Marx, 1(novembre 1862. كانت الولايات المتاخمة لحدود المكسيك *border states* وهى Delaware, Maryland, Virginia, Kentucky, Missouri معمورة جزئيًا بجنوبيين ملاك للعبيد، لكن علاقاتها التاريخية والمؤسسية مع الشمال كانت قوية، وقد اختارت جميعها الشمال فيما عدا فرجينيا (لقاء انقسام فيها، فقد التحقت فرجينيا الغربية بالشمال عام ١٨٦٣).

(٣٨) *Ibid.*

(٣٩) Engels à Marx, 17 février 1863.

(٤٠) Engels à Marx, 30 juillet 1862.

(٤١) Engels à Marx, 9 septembre 1862.

(٤٢) Engels à Marx, 7 août 1862.

(٤٣) Engels à Marx, 29 octobre 1862.

(٤٤) *Ibid.*

(٤٥) K. Marx, Manifestations abolitionnistes en Amérique, p. 222.

(٤٦) *Ibid.*, p. 226.

(٤٧) F. Engels et K. Marx, Les événements d Amérique du Nord,[*Die Presse*, 12 octobre 1862], La Guerre civile..., p. 133.

(٤٨) "Adresse de l Association Internationale des Travailleurs au Président Johnson", *Ibid.*, p.254.

(٤٩) Engels à Marx, 15 juillet 1865, *Ibid.*, p. 244, note.

(٥٠) يكتب روجيه دانجفيل، ناشر النصوص حول الحرب الأهلية الأمريكية، بروح نكتة لا إرادى: "سيكون بالطبع من الإسراف مدّ ثناء ماركس على كل رؤساء الولايات المتحدة"، بل إن من الإسراف مدّه إلى لينكولن حيًا. (*Ibid.*, p. 239, note.)

(٥١) Marx à Engels, 29 octobre 1862.

(٥٢) Engels à Marx, 15 novembre 1862.

(٥٣) F. Engels, The Condition of the Working Class in England, cite par L. Moore, *European Socialists...*, p.6.

(٥٤) لقد أخذت الزراعة التى تطورت على نحو خارق منذ الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة طابع الإنتاج الرأسمالى الكبير". انظر: Paul Lafargue, *Les Trusts américains...*, p. 88.

(٥٥) F. Nietzsche, *Aurore, Ouvres philosophiques complètes*, texte et variantes établis par G. Colli et M. Montinari, traduction de J. Hervier, Paris, Gallimard, 1970, p. 160.

(٥٦) Marx to N.F. Danielson, 10 avril 1879, *Lettres to Americans*. 1848-1895, edited by Alexander Trachtenberg, New York, 1953, cité par L. Moore, *European Socialists...*, p. 9.

(٥٧) يعلق بول دوروزييه: "من المثير للفضول بقدر ما أن نرى ما آلت إليه الفكرة الاشتراكية بين يدى هنرى [كذا] جورج؛ إنها لم تعد اشتراكية حالة القبيلة حسب التسمية التى يعطيها، إنها الاشتراكية الأمريكية، مبالغًا أيضًا فى الخصائص التى سبق ولاحظناها فى المجتمع الأمريكى؛ إنه التحسين الإجبارى، النجاح الإجبارى... أو الموت" (*La vie américaine...*, p.642)

(٥٨) History is on the move over there at last. Engels à Sorge, 8 août 1887, *Lettres to Americans...*, cite par L. Moore, European Socialists..., p. 15.

(٥٩) Voire à ce sujet Hubert Perrier, Le Parti Ouvrier Socialiste d Amérique du Nord jusqu en 1886, *A l ombre de la statue de la Liberté*. Immigrants et ouvriers dans la République américaine. 1880-1920, textes réunis et présentés par Marianne Debouzy, Presse Universitaires de Vincennes, Saint Denis, 1988, p. 169

(٦٠) Engels à Sorge, 8 août 1887, *Lettres to Americans...*, cité par L. Moore, Europe- an Socialists..., p. 15.

(٦١) Marie-France Toinet, La participation politique des ouvriers américains à la fin du XIX[e] siècle, A l ombre..., p. 291.

(٦٢) يشير لورنس مور إلى أنه في الصحافة الماركسية "بعد عام ١٩٠٥، كان يقال القليل من الأشياء الجديدة عن أمريكا": كانت تستخدم النسخة القديمة حين لا تعاد طباعتها كما هي. انظر: (*European Socialists...*, p. 130.).

(٦٣) Engels à Sorge, 16 janvier 1895, *Lettrs to Americans...*, cité par L. Moore, *Ibid.*, p. 19.

(٦٤) *Volney, Tableau du climat et du sol des Etats-Unis* [1803], Ouvres, Paris, Fayard, 1989, p. 23.

(٦٥) اشترك في مؤتمر نيوارك (١٨٧٧) ١٧ مناضلاً من أصل ألماني، و٧ من أصل إنجليزي، و ٢ من أصل تشيكي و فرنسي واحد. قدم هوبرت بيرييه (استشهد بمقاله في صفحة ١٦٩) بعض التصحيح حين أشار إلى جهود مسئولي حزب العمال الاشتراكي من أجل توزيع العدد نفسه بالإنجليزية وبالألمانية من نسخ القرارات أو أيضًا من أجل طلب تسمية المندوبين "الذين يتقنون اللغة الإنجليزية". تبين هذه القرارات الجيدة أيضًا أن البداية كانت من أسفل سافلين، وكان على كل الجهود للإبقاء على الصحيفة المركزية باللغة الإنجليزية أن تبقى مجانية.

(٦٦) انظر الدراسة الغنية لـ :

Janet R. Horne, *A Social Laboratory for Modern France. The Musée Social and the Rise of the Welfare State*, Durham and London, Duke University Press, 2002 (p. 29).

(٦٧) Cité par J. Horne, *Ibid.*, p. 157.

(٦٨) J. Huret, En Amérique (II) ..., p. 284.

(٦٩) U. Gohier, *Le Peuple du XXº siècle...*, p. 1.

(٧٠) U. Gohier, *Histoire d une trahison*, 1899-1903, paris, SPE, 1903, p. 9.

(٧١) *Ibid.*, p. 29.

(٧٢) U. Gohier, *Le Peuple du XXº siècle...*, p. 88.

(٧٣) *Ibid.*, p. 77.

(٧٤) *Ibid.*, p. 78.

(٧٥) *Ibid.*, p. 16.

(٧٦) P. Bourget, *Outre-Mer...*, p.219.

(٧٧) U. Gohier, *Le Peuple du XXº siècle...*, p. 78.

(٧٨) *Ibid.*, p. 88.

(٧٩) J.Portes, Une fascination réticente, *Les Etats-Unis dans l opinion française,* Presses Universitaires de Nancy, 1990, p. 286.

(٨٠) [...] to organize their economical and political power to secure for labor the full equivalent of its toil Philip S. Foner, *History of the Labor Movement in the United States*, New York, 1964, p. 383, il s agit du Congrès de 1902.

(٨١) J. Huret, *En Amérique.* (I)..., p. 8.

(٨٢) U. Gohier, *Le Peuple du XXº siècle* ..., p. 162.

(٨٣) يمكن قراءة هذا الرفض فى تقارير الوفود العمالية بعد عودتها من فيلادلفيا، كتقرير المسقفين والسمكرية والمزنكين :" إن الهجرة هى التى أوجدت الثراء المادى لأمريكا، والتى أوجدت فى الوقت نفسه فقرها الأخلاقى [كذا] انظر:

(*Rapport d ensemble de la délégation ouvrière à Philadelphie, Paris, Imprimerie Nationale, 1879, p. 122. cité par J. Portes, Une Fascination..., p. 306.)*

نفس إرادة الصرف عن الهجرة بعد عشرين عامًا من ذلك لدى لافاسور: Lavasseur يا لمصيبة الذى يذهب دون أن يكون مسلحًا على نحو كامل ليعيش خاملاً فى هذا البلد حيث

جماهير العاطلين عن العمل ليست إلا كثيرة العدد". انظر:

L Ouvrier américain, Paris, Larose, 1898, pp. 475-476, ibid., p. 307.

(٨٤) J. Huret, *En Amérique.* (II)..., p. 246.

(٨٥) بروس Brousse القائد الاشتراكى الوحيد الذى سيبقى صامتًا خلال دعوى هايماركت Hay-market.

(٨٦) *Eugène Fournière, La Petite République,* 1er décembre 1902, p. 1.

(٨٧) P. Lafargue, *Les Trusts américains...*, p. 131. Voire aussi son article, Les réformes et le parti socialiste, L 'Humanité, 24 septembre 1908.

(٨٨) أستُعير التعبير من ميشيل كورديو Michel Cordillot ردود الأفعال الأوروبية على أحداث هايماركت"، انظر: A l ombre...,p.185.

(٨٩) "لنقلّد الأمريكيين، لنتبع مثالهم [...]لنحدد تاريخًا، ولنعلن أنه اعتبارًا من اليوم الذى سنختاره لن نرضى لقاء أى شىء فى العالم أن نعمل أكثر من ثمانى ساعات"؛ انظر:

E. Pouget, *La Voix du Peuple*, nº 23, 1er mai 1901, cité par M. Cordillot, ibid., p. 188.

(٩٠) P. Lafargue, *Les Trusts américains...*, p. 124.

(٩١) Jean Longuet, Aux Etats-Unis, *La Petite République, 5 novembre 1902. Cité par* L. Moore, European Socialists..., p. 90.

يوجد مجاز "المختبر" المطبق على الولايات المتحدة من قبل فى عام ١٨٥ لدى فيلاريت شاسل فى أحد المقاطع العديدة من دراساته التى تكذب شهرته كمحب لأمريكا بأى ثمن، يقول عن الولايات المتحدة: "إنها تمامًا وحصرًا ورشة، فرن، مختبر لصناعة قادمة لحضارة مجهولة، وهو وطن من قلة الإنجاز والكمال والانطواء على كل نتائج المجتمعات النهائية؛ بحيث إن المرء ما إن يكسب الثروة فيه حتى يسرع فى المجىء إلى أوروبا للتمتع بها".

(٩٢) P. Lafargue, *Les Trusts américains...*, p. 137.

(٩٣) *Ibid.*, p. 137.

٩٤) E. Johanet, *Autour du monde millionnaire...*, p. 78.

تترجم الكلمة المستحدثة هذه التى استنسخت من كلمة "مهوّد" صورة حلمية سنعثر عليها فى مجازات "السرطان الأمريكى".

(٩٥) P. Lafargue, *Les Trusts américains*..., p. 10.

(٩٦) P. de Rousier, *La Vie américaine*..., pp. 533, 528.

(٩٧) P. Bourget, *Outre-Mer*..., pp. 12, 318.

(٩٨) E. Johanet, *Autour du monde millionnaire*..., p. 212.

(٩٩) *Ibid.*, p. 215.

(١٠٠) *Ibid.*, p. 203، كان قد مات لتوه في عام ١٨٩٥.

(١٠١) دون نفقات الكلية، أى حوالى ٢٢٠٠٠ دولار(أو يورو) فى عام ٢٠٠٢.

(١٠٢) E. Johanet, *Autour du monde millionnaire*..., p. 111.

(١٠٣) *Ibid.*, p. 206.

(١٠٤) *Ibid.*, p. 209.

(١٠٥) *Ibid.*, p. 210.

(١٠٦) *Ibid.*, p. 207.

(١٠٧) *Ibid.*, p.211.

(١٠٨) P. Lafargue, *Les Trusts américains*..., p. 122.

(١٠٩) *Ibid.*, p. 84.

(١١٠) P. Lafargue, *Les Trusts américains*..., p. 84.

(١١١) E. Johanet, *Autour du monde millionnaire*..., p. 224.

(١١٢) لنسجل بالمناسبة أن العنوان الأصلى لرواية مارك توين الشهيرة التى ظهرت فى عام ١٨٨٩ هو *A Connecticut Yankee In King Arthur s Court*. لقد طمست الترجمات المتلاحقة كلمة يانكيه التى تعتبر شديدة التحقير فى الاستخدام الفرنسى لها.

القسم الثانى
تحيّز المثقفين

الفصل الأول

١) خط ماجينو الآخر

"سننتقل إلى الدفاع..."

إمانويل مونييه، Esprit (1933)

١٩٩٧: "وصول الأمريكان إلى فرنسا، نشيد وطني وتقديم أسلحة الولايات المتحدة". إنها صورة مثالية، حقيقية. إنها تخرج من مراسم بيللران Pellerin الشهيرة. يغادر الجنود الأمريكيون السفن، وكان في استقبالهم الجنود الفرنسيون بلباسهم"الأزرق". ليس هناك أي ديكور واقعي؛ فللإخراج طابع رمزي بصورة قوية. هناك صورة أخرى مخصصة لحلفاء ما وراء الأطلسي ذات طابع وثائقي أكثر في الظاهر: "حول مركز إسعاف أمريكي". تقدم الصورة ملابس ومعدات الفرق الصحيّة، لكن التعليقات "التعليمية" هي الأخرى محملة بالنوايا؛ فالمقصود بداهة تكريم العمل البطولي لحملة الجرحى والمرضين المتطوعين هؤلاء الذين استبقوا الجنود الأمريكيين في ميادين المعارك الفرنسية.

إن الأفكار المسبقة التي اعتنى بها زمنًا طويلاً في فرنسا حول هذه الفترة تشبه هاتين الصورتين المثاليتين؛ فلو صدقنا هذه وتلك، لأعادت الحرب العالمية الأولى فتح عصر من المحبة الأخوية بين الفرنسيين والأمريكيين، وأحيت ببساطة الشعلة المنطفئة منذ خمسة وعشرين عامًا. ولما كانت اللوحة محرومة من صفيحة الألوان الميثولوجية فقد بدت على قدر من الاختلاف. لم يكن هذا الرجوع بلا غد فحسب، ولكن ندر أن خرج أخوة في السلاح من الميدان كل منهما أكثر سخطًا على الآخر؛ فبعد سنتين أو ثلاث سنوات من وصول أوائل الجنود الأمريكيين، استعادت فرنسا والولايات المتحدة المسافة القائمة بينهما، وأغلقتا قوسي شهر العسل الثاني هذا.

فتح دخول الحرب أمام الأمريكيين على الأقل بوابة الصور المثالية؛ حيث كانت صور أمريكا حتى ذلك الحين من الفقر بحيث تكاد تكون غير موجودة. ومن بين إنتاج شامل ينطوي على حوالي خمسة عشر ألف صورة، تم تنفيذ الأساسي منها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يرتبط منها خمسون أو ستون صورة فقط بعلاقة (رقيقة غالبًا) مع العالم الجديد[١]. رقم ضعيف بصورة خارقة لا بد من خفضه

أيضًا مادام يضم مشاهد من أمريكا اللاتينية وكل الصور التى لا تذكر الولايات المتحدة إلا عرضًا - من نمط: "الساعات المختلفة على الأرض حين تكون الساعة فى باريس ظهرًا". حينئذ ننزل إلى ما تحت اثنتى عشرة صورة. ولا يقل دلالة عن قلة عدد الصور اختيار الموضوعات المعالجة: اكتشاف أمريكا، المتوحشون، الهنود، الجنرال توم بوس Tom Pouce، "مهرج عند الهنود الحمر". بين شروح الأصول والنوادر الغريبة، كان يصعب على الأحداث الراهنة أو التاريخ المتأخر أن يشقا الطريق عبر صور شديدة الندرة: انتفاضة "آخر الهنود الحمر" فى الأرض المحجوزة لهم فى الغرب عام ١٨٩١، "تمثال الحرية فى نيويورك" (ماكيت للاطلاع)، وأقل الأمور توقعًا، ابتكار آلة الخياطة من قبل الياس هاو Elias Howe. من المؤكد أنه لا يسعنا أن نأخذ على بيللران(*) أنه أمرك أطفالنا.

هل تسجل الصورتان التى أوحى بهما دخول الولايات المتحدة الحرب عام ١٩١٧ بالنسبة لهذا المُخْبِر الميثولوجى الذى هو مصنع صور إبينال(**) منعطفًا، بل ثورة، بعد عشرات السنين من اللامبالاة؟ بوسعنا الشك فى ذلك؛ فدار تصوير بيللران ينفذ دفتر شروط وطنى. لم ينس - منذ بداية الصراع - أىَّ حليف لفرنسا. من الصعب أن يفعل المرء للأمريكان أقل مما يفعل للمونتنجريين. وعلى غرار الكتيِّبات التى تمجد الولايات المتحدة التى ازدهرت بين ١٩١٦ و ١٩١٨، فإن هاتين الصورتين اللتين تحتفلان برزانة وبناء على طلب مسبق بلازمة "الصداقة العريقة" تنتميان إلى الدعاية الحربية أكثر مما تشهدان على حركة الرأى العام؛ إذ ما كادت الألوان تجف حتى صار رمز التحالف المقترح على الفرنسيين الصغار حقا صورة شعبية Image d Epinal.

من الحماسة إلى الضغينة

إن نجدة الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الأولى كانت مرغوبة ومنتظرة بضراوة سواء من وزارة الخارجية البريطانية أو من الدبلوماسية الفرنسية، وقد احتفل بها بشدة حين تجسدت أخيرًا فى خريف ١٩١٧.

(*) جان شارل بيللران Jean-Charles Pellerin (١٧٥٦-١٨٣٦): كان أول من طبع وباع سلسلة من الصور التى سُميت بصور إبينال، نظرًا لصنعها فى المدينة التى تحمل هذا الاسم فى فرنسا، وهى صور شعبية مطبوعة بألوان قوية ذات طابع دينى فى البداية، ثم مالبث أن تناولت مختلف الموضوعات.(المترجم)

(**) مصنع صور إبينال: هو المصنع الذى كان ينتج فيه بيللران صوره. (المترجم)

صُوِّت على الدخول في الحرب ضد ألمانيا في ٦ أبريل من قبل الكونجرس. واعتباراً من مايو، أسرعت السلطات لإخراج خمسمائة ألف جندي من أصل عشرة ملايين يمكن أن يستنفروا. عما قريب سيتمكن برشينج أن ينزل الشاطئ مع أول فرقة رمزية؛ فكان هناك في نهاية عام ١٩١٧، مائتا ألف جندي أمريكي على الأرض الفرنسية ومائة ألف آخرين يصلون كل شهر. وفي يناير ١٩١٨، أعيد تجميع الجنود الأمريكيين الذين اختلطوا أولاً بفرق موجودة من قبل، في وحدات أمريكية محضة. في شهر يوليو، وفي لحظة الهجوم المضاد الذي قام به فوش Foch، كانوا يسيطرون لوحدهم على مائة وخمسة وثلاثين كيلومتراً من الجبهة. الكلمة الطيبة للكونيل "ستانتون Stanton": ها نحن يا لافاييت!"، ونشاط هذه الشبيبة الأمريكية الذين كانت شجاعتها تعوض نقص خبرتها؛ الثقل الملقى في كفة الميزان على هذا النحو في اللحظة الحاسمة للانسحاب الروسي وللانهيار الإيطالي في كابوريتوCaporetto: كل شيء كان يبدو أنه يسعى لجعل سنة ١٩١٧ لا ساعة النعمة بالنسبة للعلاقات الفرنسية ـ الأمريكية فحسب، بل العام الأول من تقارب دائم.

سوى أنه بعد ثمانية عشر شهراً، عادت هذه العلاقات إلى درجة من البرودة نادراً ما بلغتها، في الوقت الذي كان فيه الهجوم ضد الولايات المتحدة وضد رئيسها يتكاثر في الصحافة أياً كانت اتجاهاتها؛ فبعد أن استُقبِلَتْ بحماس منقطع النظير تقفل الولايات المتحدة الويلسونية عائدة، ساخطة ومرهقة، تاركة وراءها ضغينة لن تفعل السنوات العشر التالية شيئاً آخر إلا تهييجها. وبدلاً من أن تحقق إعادة التأسيس المنتظر بقيت رفقة ١٩١٧ ـ ١٩١٨ بلا غد. هذه اللحظة المرحة التي سرعان ما استحالت ماضياً قبل أن تعاش ستبدو عما قريب كما لو أنها لحظة وهمية بين قوسين في علاقة صارت من جديد متباعدة وقاسية، بل إن الذكرى نفسها ستفسد بشعور شديد الانتشار في فرنسا بالخيبة إن لم يكن بالخداع، يقابله في الجانب الآخر من الأطلسي كبت المحاربين القدماء الشباب الذين يعيدون اندماجهم في المجتمع الأمريكي؛ فخيبتهم الكبرى ستقدم ثيمة مفضلة للجيل الأدبي الذي يجسِّده سكوت فيتزجيرالد.

كانت كلمة مبتكرة تلك التي ناجى بها ستانتون أمام قبر لافاييت في مقبرة بيكبوس Picpus(٢). على أنه توجب على التوازي التاريخي على كل حال أن يتحقق فيما وراء أمنياته. لأنه مثلما لم تحل المساعدة الفرنسية للمتمردين في حرب الاستقلال دون استقرار المرارة والعداوة بين الأمتين بعد أقل من عشر سنوات، كذلك، وربما بسرعة

أكبر أيضًا، فإن التصفيق المؤثر للفرنسيين لدى مرور الجنود الأمريكيين سوف يستحيل تصفيرًا وكزّ أسنان ضد أمريكا التي كانت ترى متكبرة بقدر ما هي أنانية. إن أكاليل الزهور التي ضُفِرت لجنود الآرجون Argonne وسان ميهيل Saint-Mihiel لم تكد تذبل بعدُ حين انتشرت في فرنسا المآخذ والاتهامات، وخلفت أخوة الخنادق مباشرة حوار الطرشان عبر الأطلسي الذي دام حتى الحرب التالية وفيما وراءها.

مفارقة، إذن: فغداة حرب انتصر فيها الجميع ثار وبوجه خاص استقر الخطاب المعادي لأمريكا. "كيف استحال الذهب الصافي رصاصًا بخسًا؟" بكيمياء قدرية امتزج فيها على وجه الدقة رصاص المعارك وذهب المصارف، ثقل الدين (الحقيقي والرمزي) وجاذبية التصورات. مع وجود رجل، في وسط هذا التحول السلبي، مدلل في البداية، ومشنع عليه فيما بعد: رئيس الولايات المتحدة غير المفهوم، السيد ويلسون المستحيل. لقد "استقبل كما لو كان منقذ الإنسانية" في باريس في نهاية عام ١٩١٨، لحضور مؤتمر السلام. (إن من يكتب ذلك هو فرويد، وبما أنه يكره ويلسون فبوسعنا تصديقه[٢]). وسيترك مدينة النور وسط العداوة العامة كي يواجه أمريكا التي سحبت اعترافها به؛ إذ سلمت مجلسي الكونجرس إلى خصومه الجمهوريين في نوفمبر ١٩١٨.

من سوء تفاهم إلى فشل ومن بُعد إلى تنصل، اتسعت الهوة من جديد منذ عام ١٩١٩. فاليسار الاشتراكي الذي صار نصيرًا للسلام من جديد أو مبهورًا بـ"النور الساطع من الشرق"، في وطن السوفييت، يستنكر الإرادة الويلسونية بإعادة شن الصراع العالمي حين دعا للتدخل ضد الجيش الأحمر لاحتوائه *containment* قبل فوات الأوان. يبقى أن لامبالاة أو عداوة الرأي العام اليساري نحو الولايات المتحدة تجد جذورها العميقة الخيال السلبي إجمالاً الذي استقر منذ ١٨٨٠ في المعسكر الاشتراكي وبين النقابيين. ويمتزج فيه رؤية الولايات المتحدة كأرض قاسية على العمال والخيبة التي أثارتها المشكلات التي واجهتها الحركة الاشتراكية الأمريكية، ولم تكفّ صورة البلد الديمقراطية التي تزعزعت بقوة بفعل عنف البوليس وأرباب العمل عند الانتفاضة الكبرى(*) *Great Upheaval* عن التبدّد في ذهن المناضلين الفرنسيين. وفي مواجهة عمل مؤسسات غير مفهوم غالبًا، و"رفاق" يعسر فك رموزهم، تبقى بداهة القمع ونفي

(*) Great Upheaval حرفيًا الانتفاضة الكبرى، وهو اسم أطلقه المؤرخون الأمريكان على الإضرابات العنيفة والثورات الاجتماعية في تلك الحقبة. (المترجم)

العدالة. وقد جاءت قضية ساكو وفانزيتي التي بدأت في عام ١٩٢٠ لتنعش ذاكرة الذين نسوا إعدامات هايماركت سكوير.

وفي أقصى اليمين، ومنذ ١٩١٩، كان الصوت القوي أننذ لموراس هو الذي أطلق اللعنة ضد "الرئيس الساذج" الأمريكي، واستخلص خلاصة فشله: "إن ما هو أكيد، هو أن السيد ويلسون لم يستطع أن يغادر العالم القديم دون أن يعي الكسوف التام الذي تعرض له فكره"(٤)." ذلك إقرار ينضم له طواعية فيما وراء العمل الفرنسي Action française، اليمين القومي. أما الرأي العام بصورة عامة فقد غضب من جهود ويلسون التي اعتبرت ضارة بمصالحنا من أجل تخفيف شهية المنتصرين. ولقد انبهر الفرنسيون، نظراً لقلة فضولهم إزاء السياسة الداخلية الأمريكية، من رفض الولايات المتحدة - أي الكونجرس الذي صار جمهورياً - الدخولَ في عضوية جمعية الأمم التي دعا إليها ويلسون دون كلل، وغضبوا من الاستقبال العدائي الذي خصت به معاهدة فرساي من قبل مجلس الشيوخ في يوليو ١٩١٩، واستنكروا الرفض المكرر للكونجرس المصادقة على المعاهدة ذاتها في نوفمبر ١٩١٩ وفي مارس ١٩٢٠. وبما أن فرنسا قد جرحت إذ رأت رفض ما هو جوهري بالنسبة لها: أي ضمان الولايات المتحدة للحدود التي أوجدتها المعاهدات، فقد حادت مرة أخرى عن أمريكا. ولقد ردت عليها أمريكا رداً بالمستوى نفسه حين استفتت على "النزعة الأمريكية" الانعزالية التي نادى بها هاردينج Harding الذي انتخب بأغلبية كبيرة عام ١٩٢٠، ثم خليفته في البيت الأبيض كلفن كوليدج Calvin Coolidge.

وتتلو الاحتجاجات الاتهامات، ويتناول الحذر بأثر رجعي الحوافز وضروب سلوك الحليف الأمريكي خلال الصراع. ما كادت "صفحة المجد" التي كتبت بصورة مشتركة تطوى حتى بدأ الفرنسيون بإعادة كتابتها.

عمال الساعة الأخيرة

تمت غربلة موقف ويلسون منذ عام ١٩١٤، وأعيد فحصه بكثير من الريبة. ألم يفعل كل شيء خلال سنوات ليجعل بلده خارج "حرب الحق" هذه التي كانت الديمقراطيتان الفرنسية والإنجليزية تتعرضان فيها لخطر طغيان نظم إمبراطورية وعسكرية عليهما؟ ألم يستجب بأكبر قدر من الرخاوة ضد عدوان وجرائم الحرب الألمانية بما في ذلك نسف لوزيتانيا في ٧ مايو ١٩١٥ مكتفياً باستنكار ألماني غامض في حين كان الرأي العام الأمريكي مستعداً للمضي أبعد من ذلك؟ ألم يُنتخب من جديد

فى عام ١٩١٦ بناء على مراوغة، واعداً من جهة "أن يجعل أمريكا خارج الحرب"، ومؤكداً من جهة أخرى: "نحن مستعدون لبذل قوانا دون تحفظ للحفاظ على سلام ومصالح البشرية" (خطاب أوماها)؟ أو لم يقترح أيضاً عشية دخول بلاده الحرب هدفاً غير مقبول لـ"سلام بلا انتصار" ـ الذى توجب عليه أن يغيره إلى "سلام العدالة" ليهدئ من شركائه الأوروبيين؟ وبإيجاز، لو لم يبالغ الألمان أنفسهم، وهم على ثقة شديدة من جمود ويلسون، بدفع الإثارة إلى ما لا يمكن قبوله حين استأنفوا نسف البواخر والضغط على المكسيك لمهاجمة اليانكيه من خلف، هل كانت أمريكا ستدخل الحرب؟ صار الناس يشكون فى ذلك ويقولونه بصوت عال.

ثم ألم يدخل هذه الحرب متأخراً بعض الشىء كى يضع نفسه فى موقع الحكم على المصائر الأوروبية؟ ما أجملها من ذكرى، ذكرى هذه الشهور من الصراع العنيف، لكنها ستكون أكثر حسماً لو استطعنا الحديث عن سنوات. لا يستطيع الأمريكيون بما أنهم عمال الساعة الأخيرة، أن يدّعوا التضحيات نفسها ولا الآلام نفسها التى عانتها فرنسا المكتسحة والنازفة. "كان تدخلكم [...] رفيقًا، ما دام لم يخطف منكم إلا ٥٦٠٠٠ حياة بشرية بدلاً من ١ ٣٦٤ ٠٠٠ قتيل(٥)". إنه ليس مُهيِّجًا عديم المسئولية، ولا زارع قلاقل تافه، بل هو رئيس مجلس الوزراء ووزير الحرب، إنه كليمنصو نفسه الذى عارض على هذا النحو الأمريكيين الذين تأخروا فى الوصول وتأخروا أكثر فى شن الحرب على أرض المعركة. كان هذا الزمن الضائع بالنسبة لفرنسا دماً مسفوكاً: "كانت رحمة كبرى أن يُرى رجالنا يُحصدون دون توقف، فى حين كانت فرق أمريكية هامة بقيادة رؤسائهم الطيبين كانت تبقى خاملة على مرمى المدفع(٦)". يكشف ضربٌ من الجدال المتأخر مع فوش للفرنسيين تفاصيلَ الشجار الذى نشب خلال الصراع نفسه سراً بين الرجلين حول استخدام هذه التعزيزات ـ استخدام كان كليمنصو يتمناه أشد سرعة وصلابة.

كلمات لاذعة وإدراك واسع الانتشار. لقد حملت خيبتهم من الحليف الأطلسى على ألا يتذكروا إلا بطأه. يقبض بروست على هذا الخطاب فى روايته الزمن المستعاد كما لو أنه عالم حشرات خارق. كتبت الصفحة فى بداية سنوات ١٩٢٠، وتعكس خيبة الأمل، لكن بروست وهو يضع الحوار فى أوج الحرب، يعزز التأثير المحرض لكلمات البارون دو شارلو الحامضة الحلوة عن الحليف الأمريكى المتأخر: "وتابع، لا أريد أن أقول شراً عن الأمريكيين يا سيدى، يظهر أنهم كرماء بلا حدود، ولما لم يكن هناك قائد أوركسترا فى هذه الحرب، وأن كلاً منهم قد دخل حلبة الرقص زمنًا طويلاً بعد الآخر، وأن الأمريكيين بدأوا حين انتهينا تقريباً، فإن بوسعهم أن يتحمسوا حماساً أخمدته

أربعمائة سنة من الحرب عندنا"(٧). يسجل بروست بنفاذ نظر موفق وسخرية متعددة الأهداف قوة نزعة معاداة أمريكا (وهى هنا مُحِبَّة لألمانيا ولواطية وجمالية) التى لا يتوصل إلى لجمها لا وطنية البارون السطحية ولا خوفه من "ترك وجهة نظره تظهر كثيراً". أما وقد أعلن من قبل شارلو المراوغ فى ظرف ١٩١٨ (الخيالى)؛ حيث كان لايزال الأمر من المحرمات، فإن مطعن "دخول الأمريكان حلبة الرقص" المتأخر بات من الآن فصاعداً على كل شفة ولسان.

كذلك فإن الثقل الحقيقى للتدخل الأمريكى ألَّفَ موضوعَ إعادة نظر تتجه نحو التخفيف بمقدار ما كانت تصل إلى علم الجمهور الاختلافات بين الحلفاء التى كانت حتى ذلك الحين تحت غطاء السر العسكرى. إن كتاب ***كليمنصو عظمة انتصار وبؤسه*** ***Grandeurs et misères d une victoire*** هو ذروة الكشف عن كل شىء. إنه جواب لاذع على النقد اللاحق لفوش الذى أظهرت مذكراته من وقت قريب للملأ الحربَ الصغيرة، التى خاضها أثناء الحرب ضد رئيس مجلس الوزراء فيما يخص طريقة استخدام التعزيزات الأمريكية، بينما يمنح فوش نفسه الدور الجميل - دور الرئيس "الصابر" - ويختص نفسه بجدارة تلافى أزمة فرنسية - أمريكية كبرى لمراعاته حساسية برشينج، يصرّ كليمنصو ويوقع: "كان التنظيم المتأخر للجيش الأمريكى الكبير [مقابل الانخراط المباشر للأمريكيين فى الفرق الفرنسية والإنجليزية] يكلفنا كثيراً من الدماء"(٨)، كل ذلك لأن "الكبرياء الطبيعية للديمقراطية الكبرى كانت تحملها على القذف بنفسها كتلة واحدة من أجل الانتصار النهائى على آخر ميدان للمعركة"(٩). لم يكن كليمنصو يقول شيئاً آخر مختلفاً عن شارلو: اشتهر الأمريكيون بأنهم "كرماء بلا حدود"، لكنهم كانوا فى الواقع حريصين على قواهم، وأقل استعجالاً للتخفيف عن حلفائهم المرضى من اهتمامهم بالظهور بوصفهم القوة الأخيرة الحاسمة للصراع(*) ***dei ex machina***. يقيناً نحن شديدو البعد عن صور إبينال.

وبالإجمال، كانت الحرب الكبرى قصيرة جدا بالنسبة للبلد الذى ادعى لنفسه من خلال ويلسون حق إعطاء الدروس: "حربٌ دامت اثنين وخمسين شهراً، مضى اثنان وثلاثون منها بالنسبة للناصح وهو فى حالة حياد، واثنا عشر فى حالة استنكاف عسكرى"(١٠). يعود هذا البرود الملخّص إلى عام ١٩٢٧، وهو موقع من قبل الرجل

(*) dei ex machina ، هو الإله الأسطورى الذى يظهر فى نهاية المسرحيات أو الأوبرا كل المشكلات كلها. (المترجم)

السياسى الفرنسى الأكثر تفهمًا للولايات المتحدة، المفوض السامى الفرنسى فى واشنطن زمن الحرب: أندريه تارديو، وهو أندريه تارديو نفسه الذى يقيم من أجل تبديد "الخطأ الأساسى" القائم على جعل سياسة ما تعتمد على أسطورة "الصداقة"، فى عام ١٩٢٧ كذلك، هذا الحساب الختامى القاسى للعلاقات الفرنسية ـ الأمريكية: "لم يتعاون هذان البلدان، اللذان توحدهما العواطف، أبدًا دون أن يعرفا ضروبًا من القطيعة الفورية، وكان غياب الاتصال وحده فى ظروف أخرى مختلفة هو الذى يفسر غياب التوتر بينهما. ويتابع تارديو: وأضيف أن هذه الفترات القصيرة من التعاون السياسى ـ أقل من عشر سنوات من أصل أربعين سنة ـ خضعت لا إلى قوانين العاطفة بل إلى قوانين المصلحة، وحين استنفدت المصلحة لم تكفِ العاطفة لاستمرار التعاون(١١)".

لم يبق بصحبة محبين لأمريكا من هذا المستوى إلا القليل من الحبوب للطحن أمام كارهى أمريكا.

التحريض ضد وودرو ويلسون

صاح مورو فى كتابه المنشور عام ١٩٣٣: "آه! هذا الفك الموجود على الدوام تحت ظلال برنستون"(١٢). هذا الفك الملح هو فك وودرو ويلسون. لقد توفى الرئيس السابق لجامعة برنستون الذى صار رئيس الولايات المتحدة الأمريكية منذ ما يقارب عشر سنوات(١٩٢٤)، لكن مورو ليس الفرنسى الوحيد الملبَّد به إلى الآن.

إن وجه وودرو ويلسون المطلسم فى نظر الفرنسيين مركزىٌ فى تجدد نزعة معاداة أمريكا مباشرة بعد الحرب. كان الرئيس الواعظ المدلل ثم المكروه أول رجل عام أمريكى يدفع ثمن تجسيد نزعة معاداة أمريكا؛ فانقلاب الرأى العام السريع والعنيف حوله يعكس زوال المحبة نحو الولايات المتحدة الذى خلف مباشرة الولع بجنودهم الشجعان المحببين. سيتابع ويلسون بعد أن صار الرمز نفسه لأمريكا غير المفهومة، حتى بعد موته، استثارة الأحقاد والمآخذ. لا يسكن ظله أجماتِ برنستون فحسب، بل كل كلاسيكيات نزعة معاداة أمريكا الفرنسية فى سنوات الثلاثين. وبعد تعاقب ثلاثة رؤساء، يهاجم كتاب ***السرطان الأمريكى*** ***Le Cancer américain*** لآرون **Aron** ودانديو **Dandieu** على الدوام "هذا الأتيلا الذى يحمل نظارات من الحراشف" كما لو كان يهاجم مصيبة أوروبا(١٣). أما بالنسبة لمورو، فبدت رغبته فى إيضاح "حالة ويلسون" من القوة لمضيفيه فى برنستون؛ بحيث نظموا له بمودة حفلتى عشاء متتابعتين مع وضد لكى يرضوا فضوله(١٤)! بدا لغز ويلسون لكثير من الفرنسيين لغز أمريكا

نفسها، صوفية وقاسية، متدينة وذرائعية، موسوسة حتى الإفراط وشديدة الثقة بنفسها. يكتب كليمنصو بأن الرئيس العصي على الفهم كان يملك "مركبات من التجريبية والمثالية لا يدهش لها أمريكي"(١٥)، لكنها تبهت الفرنسيين.

لم يكن مع ذلك رئيس الولايات المتحدة الذي وصل في عام ١٩١٩ بانتصار إلى مؤتمر السلام هو السيد ويلسون غير المفهوم، بل هو فقط هذا الحليف المزعج الذي يتفنن في وضع العقبات أمام عربة المنتصرين الدبلوماسية؛ فقد بددت جهوده للجم المطالب الفرنسية خلال عدة أسابيع كل ما كان له من نفوذ حين وصوله. على أنها كانت بلا غد. "يتكلم ويلسون كالمسيح ويتصرف كلويد جورج": اجتازت هذه الكلمة الطيبة دهاليز المؤتمر(١٦). وبما أنه كرس نفسه كليًا لمثله الأعلى المتمثل في عصبة الأمم، فقد كان ويلسون لا يكف على الصعيد السياسي عن التراجع بالمعنيين الحقيقي والمجازي؛ فقد ترك بريطانيا تسيطر على المستعمرات الألمانية وتعيد تنظيم الشرق الأوسط على هواها، وأنعمَ على إيطاليا بمنطقة آديج ـ هوت Haut - Adige الناطقة بالألمانية مناقضًا بذلك حق الأقليات الذي أعلنه هو نفسه، وسلم للفرنسيين بمبدأ برنامج زمني غير محدود لدفع التعويضات من قبل ألمانيا كان عزيزًا عليهم، لا بل إنه قرر القبول باحتلال منطقة ريناني كـ"رهن". وفي نهاية الحساب، سيجهد عبثًا في حمل مواطنيه على قبول نص معاهدة قليلة التلاؤم مع روح "أربع عشرة نقطة" التي أعلنها في يناير ١٩١٨، لقد انهار ويلسون خلال الجولة الأمريكية التي قام بها للدفاع عن المصادقة على المعاهدة. وما إن عاد إلى واشنطن حتى أصيب بفالج حبسه في البيت الأبيض خلال ما بقي من فترة رئاسته.

"نور ينطفئ [ويفشل أيضًا] كليّة A light that failed completely" كما أشار مؤرخ من برنستون مؤخرًا(١٧)، لا يُؤرخ الشعور بالفشل على كل حال بتاريخ اليوم؛ إذ لم ينجح ويلسون أبدًا في أن يطبع معاهدة فرساي بطابعه، من شدة ما كان مسكونًا بعصبة الأمم التي كان كليمنصو يسميها "عقيدته الصوفية"(١٨)، سوى أن بلده لم يعترف لا بالمعاهدة ولا بعصبة الأمم. ولقد أزعج ميله للتحكيم خلال مؤتمر باريس المنتصرين دون أن تعود عليه معركته الأخيرة والمحزنة للمصادقة من قبل الكونجرس بالقبول. وبدلاً من لوم الجمهوريين (في السلطة من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢)؛ فهو الذي يُلام على الهجر الأمريكي، وبوسع كليمنصو أن يكتب في عام ١٩٣٠ بمناسبة ويلسون و"نقاطه الأربع عشرة": "هل يسع المرء حينما يقبل بكبرياء مثل هذه المسئوليات، أن يتخلص منها في مرح سلم منفصل؟" ـ كما لو أن ويلسون لم يعارض قبل وفاته بآخر فيتو هذا السلم المنفصل الذي صوت عليه معًا مجلسا الكونجرس. لا شك أن كليمنصو

يفكر هنا بوصفه فرنسيا وباسم فكرة ما عن استمرارية الدولة، لكن وودرو ويلسون صار أيضًا رديف أو تجسيد الولايات المتحدة. وكان الفرنسيون يطلبون منه حتى وهو فى قبره تعويضًا عما فعل، وعما لم يفعل بل وعما تم فعله ضده.

غيَّر تماهى أمريكا مع ويلسون من وجهها على نحو درامى، قدِّم ويلسون بصورة مبكرة جدا فى الواقع باعتباره مولعًا بالكذب، وعصابيًا وربما مجنونًا. وكانت أمريكا عبر "حالته"، هى التى تعتبر مريضة، لا على مستوى القصور الجسدى كما كان الأمر فى القرن الثامن عشر، بل فى السجل الحديث للمرض العقلى. كان كليمنصو المعادى للإكليروس يكتفى فى مؤتمر السلام بأن يسخر من هذا رئيس الدولة الغريب هذا ذى الطموحات المسيحية، وفاقم اليمين القومى وعلى رأسه موراس، التشخيص وعممه بوجه خاص على النفسية الأمريكية. يلتقى الاتهام بالعصاب الدينى بل وبالهذيان الصوفى منذئذ الأساسَ المشتركَ للتصورات المعادية لأمريكا، كما يصبح بسرعة فائقة موضوع إجماع محيِّر أكثرُ الشهادات عليه شهرةً هى بلا شك "الصورة النفسية" لويلسون التى وقعها معًا سيجموند فرويد والدبلوماسى الأمريكى ويليام بيليت[١٩]. إن كتاب الرئيس توماس وودرو ويلسون، *صورة نفسية*، قراءة مثيرة لا بالطابع الاعتباطى والخلافى للمشروع فحسب، بل كذلك بنظام الأصداء الذى استقر بين هذه الدراسة التحليلية النمساوية الأمريكية و"الشخصية" المرضية لويلسون المقدمة فى فرنسا فى ظرف سياسى وخلافى مختلف تمامًا. نلتقى على هذا النحو دون أن يخلو الأمر من المفاجأة فى الصورة النفسية الأثرَ الصريح لكليمنصو الذى استشهد به بوصفه مُخبِرًا ("يظن نفسه مسيحًا ثانيًا جاء إلى الأرض ليهدى الناس"[٢٠])، بل وكذلك وبصورة أكثر غرابة أيضًا العلامة الضمنية لمن أطلق منذ ١٩١٩ ثيمة ويلسون مريض عصابى: أى شارل موراس **Charles Maurras**.

كتاب مدهش إذن، ومدهش أولاً بالعداء، يعلن فرويد "نفورًا" صريحًا فى المقدمة التى يوقعها شخصيًا: "لا يسعنى أن أمنع نفسى من أن أجد أن رجلاً يستطيع تفسير أوهام الدين بطريقة حرفية جداً وهو على يقين من إقامة علاقات شخصية حميمة مع القدرة الكلية لم يخلق للاهتمام بالناس العاديين[٢١]". أما بالنسبة للحكم الأخير، فهو قاطع: "حملته ميزات عيوبه إلى السلطة، لكن عيوب ميزاته جعلت منه فى النهاية لا أحد أكبر رجال العالم، بل رجلاً فاشلاً[٢٢]". ولكن فيما وراء هذه العدائية المبررة - يعتبرُ فرويد ويلسون مسئولاً عن الهبوط الأوروبى إلى الجحيم فيما بين الحربين - فإن مؤلفى الصورة النفسية يشاركان المعادين لأمريكا الفرنسيين القناعة بأن المرض الشخصى

لوودرو ويلسون يفتح نافذة على العالم السقيم للثقافة الأمريكية نفسها. إن الجنون - ويلسون لا يمكن أن يكون إلا أمريكيًا، والولايات المتحدة "الوسط المُمرِضُ" الذى يفسّر ويلسون.

الاتفاق كامل حول هذا الإقرار المزدوج، بين النص المتأخر والبعدى لفرويد وبيلليت (فقد اتفق الاثنان فى عام ١٩٣٨ فقط على النص النهائى) ومقالة موراس *الجوانب الثلاثة للرئيس ويلسون* التى ظهرت فى عام ١٩٢٠. وفيما وراء الحدود، والسنوات، والهوة التى تفصل بين أفكارهما، أيّدَ الحكم العنيف للمحلل النفسى النمساوى، وعزز التشخيصَ الذى بدأه القومى الفرنسى؛ فويلسوناهما يتشابهان دون جدال. إن ويلسون، الذهانى الكبير عند أحدهما، و"الأوتوقراطى قيد التكوين" عند الآخر، وفى الحالتين يُقارَنُ بغليوم الثانى، هو مجنون بالإمكان. يقول فرويد ذلك دون مواربة: "لو لم يطع الله يوميًا فلربما لجأ إلى الذهان الهذيانى، ولربما التقط "عقدة الاضطهاد"، وبدلاً من أن يصير سيد البيت الأبيض لكان يمكن أن يكون نزيل مستشفى المجانين"، لا بل إن ويلسون لم يفلت من مستشفى المجانين إلا لأنه كان يملك حظ أن يولد فى أمريكا: "كانت شاشة العقلنة التى سمحت له أن يعيش كل حياته دون أن يواجه سلبيته إزاء أبيه ستسقط مبكرًا لو أنه عاش فى أوروبا. لقد كان محظوظًا أن ولد فى أمة محمية من الواقع فى القرن التاسع عشر بسبب الحب الوراثى للمثل العليا لويكليف Wyclif وكالفن Calven وويسلى Wesley[٢٣]". وإذا لم ينته ويلسون فى مستشفى المجانين فلأنه كان أصلاً مسجونًا فى بيت المجانين هذا الذى هو أمريكا المتزمتة! أمريكا: البلد الذى يستطيع فيه كل ذهانى أن يصير رئيسًا...

لن يذهب موراس حتى هذا الحد، لكنه يسجل الأحادية التصورية المقلقة ونكران الواقع الخارجى المميزين (فى نظره) لويلسون عام ١٩١٨. يكتب موراس: "بعد الهدنة، بدت عينًا ومنخرًا وأذنًا وكل الحواس السياسية الأخرى للإنسان قد انغلقت لدى السيد ويلسون يبدو أنه يصعد مرة وإلى الأبد برجًا منيعًا بواسطة سلّم سرى لا يملك مفتاحه أحدٌ سواه[٢٤]". يميل فرويد إلى الذهان؛ ويصف موراس شكلاً من الانطواء. أطلقت على كل حال ثيمة "مثالية" الرئيس الأمريكى بوصفها فكرة دينية متسلطة. كيف يشكّ "الرئيس الساذج الذى يعزف على البوق" بمهمته السماوية مادام "يعتقد أنه يرى تحوم فى الهوة فى كل مرة يسير فيها أثناء نومه السيطرة والعروش وقوى الشر الأوروبى الأخرى"[٢٥]؟ متزمت ومجنون، مجنون لأنه متزمت[٢٦]: تبدو الفكرة فى فرنسا من الوضوح والتميز؛ بحيث كان من الخسارة تحديد مجال تطبيقها على ويلسون. وستعيش

من بعده في الواقع منقولة دون أي تردد إلى خلفائه، وحين يضيف بعد أن أشار في إحدى مقالاته في عام ١٩٣١ إلى البيت الأبيض بين قوسين: "اسم جميل لمستشفى مجانين!"، لم تفت طرفة العين أي قارئ[٢٧].

يذهب التركيز على ويلسون غداة الحرب إلى ما وراء الأحقاد التي أثارتها الاحتكاكات في مؤتمر السلام، ثم الانسحاب الأمريكي الذي كان عاجزًا عن منعه. إنه يسمح لصالح الخيال الجديد المعادي لأمريكا ببناء شخصية أمريكا مصابة بداء العظمة، فريسة لا لـ"دوار القوة" (كما يكتب موراس ذلك) فحسب، بل لأشد ضروب الهذيان الديني الموصوفة. لم يكن أندريو جاكسون الذي هدد فرنسا بسوقية عام ١٨٣٥ وأوليس جرانت الذي ضربها في قفاها عام ١٨٧١، بعد كل شيء إلا محاربين قدماء. لم يكن تيدي روزفلت على الدوام رفيقًا بأوروبا ولا مهذبًا مع قناة باناما، لكنه لم يكن على الأقل يخلط الحابل بالنابل. في حين أنّ ويلسون العذب الذي يخاطب الإله مباشرة باستمرار يسخط الفرنسيين أكثر بكثير، كما تقلقهم أمريكا هذه التي عادت إلى الصعود في "برجها المنيع"، والتي بعد أن أسكرت الأوروبيين بالمواعظ سكتت عن الكلام المباح.

خطاب الاكتفاء الذاتي

يقدم هذا "الانسحاب" للولايات المتحدة بالطبع الإطار العام للضغينة الفرنسية فيما بين الحربين. ومع ذلك، فتصاعد معاداة أمريكا في نهاية العشرينات لم يأت ردّ فعل على هذا التصرف أو ذاك للولايات المتحدة، كما سبق وأن كانت الحالة عليه في الماضي مع حروب التعرفات الجمركية أو غزو كوبا. إن ما يسخط نزعة معاداة أمريكا يقوم على أساس عام من الانحطاط المعلن والمرفوض في آن واحد لا بناء على هذا الحدث أو على ذاك الصدام الآني. وحتى لو عرفت "اللذعات" بمناسبة أحداث ذات شحنة عاطفية استثنائية كإعدام ساكو وفانزيتي في عام ١٩٢٧؛ فلم تعد بحاجة إلى ظروف خاصة لتظهر: لقد بنت لنفسها منذ هذه اللحظة فلك خطاب مستقل على نحو واسع عن الأحداث الراهنة. بدأ الجدال المتدفق في عام ١٩٢٧. أي أنه تصادف مع الحلقة الوحيدة للتقارب الدبلوماسي في المرحلة، الذي كرسه حلف بريان - كيلوج Briand-Kellogg. هذا يعني أيضًا أن الهيجان المعادي لأمريكا سابق على الانهيار وعواقبه الفرنسية التي كانت محسوسة بصورة خاصة بعد عام ١٩٣١، تم الاستنفار ضد أمريكا مرفهة وقوية، لا ضد أمريكا المتأزمة. لا يمكن لهذه الموجة الأساسية

المعادية لأمريكا إذن أن تقدم بوصفها ردّ فعل على إفلاس عالمى تعتبر الولايات المتحدة مسئولة عنه: لن يلفظ الاتهام إلا فيما بعد، وسيأتى لدعم خطاب عدائى كان منتشراً فى الأصل بصورة واسعة.

من "الوقائع" إلى التصورات، كانت علاقة السبب والنتيجة تبدو غالبًا مقلوبة. بين عام ١٩٢٠ و١٩٤٠، لم يكن هناك أى خلاف مستعص بين البلدين، ولا حتى أى نزاع خطير فيما عدا ديون الحرب. سيزيد هذا الملف – دون شك – من حدة معاداة أمريكا لدى الرأى العام، لكننا سنرى (فى الفصل التالى) أنه كان هو ذاته مشوشًا حتى الإبهام بفعل القوة الجديدة للشعور المعادى لأمريكا. ولا تنفصل القمم الخطابية التى بلغتها النقاشات حول ديون الحرب فى عام ١٩٣١ عن النقد اللاذع ضد ويلسون والصور الاتهامية عن أمريكا التى تكاثرت فى نهاية سنوات العشرين. بات الخطاب المعادى لأمريكا يلقى بثقله من الآن فصاعداً على الواقع ويوجّه إدراكه. إن الأصل المتكرر للمساعى المزيفة، وللجمود الخطر وللانقباضات عبر الأطلسى فيما بين الحربين هو الآليات التى ولدت من صور إجمالية، ولم يكن يخلو أى نقاش ولا أية مفاوضة عسكرية أو اقتصادية أو مالية من شحنة استيهامية ثقيلة.

أول سمة إذن للخطاب الجديد المعادى لأمريكا: اكتفاؤه الذاتى، الذى يشير هنا لا إلى منطقه الذى صار يعتمد أكثر فأكثر على ذاته بوصفه مرجعًا وحيداً فحسب، بل ميله إلى الاكتفاء الذاتى. إن الكنز البلاغى المتراكم خلال الثلاث أو الأربع العشرات من السنين السابقة، والذى اغتنى بصورة كبيرة بفضل جيل جديد من الكتاب والمناظرين استقر من الآن فصاعداً فى "ثقافة" مضادة لأمريكا ينتجها وسط محدود، لكنها تذاع على نحو واسع فيما وراءه؛ لأنها ثقافة توافقية بلا تحفظ.

التوافق لا يعنى الإجماع؛ فالبعض يتمرد ضد هذا الخطاب الإجبارى. حفنة من المثقفين: أندريه موروا الذى يصحح بلا ضجيج بعض الصور الساخرة، وإيلى فور Elie Faure، مؤلف الصفحات المضيئة عن المعمار النيويوركى، اللذان يؤلفان تضاداً خارقًا مع هذيان دوهاميل وقداسات كلوديل(٢٨)، بول موران Paul Morand ذاته فى كتابه *الغامض نيويورك*، وسيلين Céline بوجه خاص، سيلين رواية الرحلة Voyag، الذى سنعود فيما بعد إلى ازدواجيته العالمة، ولنضم إليهم بعض المدائح لنيو ديل New Deal، عشية الحرب العالمية الثانية، وبذلك نصل إلى خاتمة المطاف. على أن هذا النوع، لا يزال لدى السياسيين نادراً بل (ومهدداً): أندريه تارديو الذى لقحته معرفة مبكرة

ومباشرة بالقضايا الأمريكية ضد العقيدة، والاشتراكي أندريه فيليب الذى ربما استرخى بسبب اتصالات أخرى (فقد تزوج من أمريكية)؛ كلاهما سيتحملان عبء سمعتهما بوصفهما محبيْن لأمريكا.

ينطوى التمرد على التوافق المضاد لأمريكا على خطر كبير؛ فلا شيء مثل ذلك فى فرنسا لفضح رجل عام يفوقُ وصفه على أنه صديق أمريكا. وستستعاد الوصفة التى جربها تارديو على حسابه بين الحربين على مستوى واسع بعد التحرير؛ فقد وجد تارديو نفسه – وهو الذى لم يكن ينطوى سلوكه مع ذلك على أية محاباة للسياسة الخارجية الأمريكية – يوصم بـ"خادم الكذاب" وبـ"مهرّب استقلالنا"[٢٩]. وستستخدم الدعاية الشيوعية بعد عام ١٩٤٥ بصورة منتظمة ضد خصومها العنوان الشائن "حزب الأجنبى"، و"الحزب الأمريكى" وحتى "الطابور الخامس" الأمريكى. أدان جورج سوريا فى عام ١٩٤٨ "ما يسمى من الآن فصاعداً فى فرنسا "الحزب الأمريكى"، صيغة يُسَمِّى بها الحسُّ الشعبى المشترك مَنْ يقوم موقفه مِنَ الرجال السياسيين الفرنسيين على السير فى الاتجاه الذى تسير فيه المطالب الأمريكية التى تمس الحياة السياسية والاقتصادية للبلد"[٣٠]. تقدم مطبوعة شيوعية فى عام ١٩٥٠ بعنوان الطابور الخامس، هو ذا – أسماءَ ثلاثة وعشرين عميلاً يانكيًا - أشهرهم روبير شومان وجى مولليه و... شارل دوجول[٣١]. وبعد ثلاثين عامًا بقى السهم مسمومًا، على النحو الذى سيعانيه ميشيل روكار **Michel Rocard**، حين أُلصِقَ بتياره فى الحزب الاشتراكى عنوان "اليسار الأمريكى". وسواء أكان سبطانة سياسية أم بندقية للرمى فالسلاح وإن كان غير دقيق بما فيه الكفاية لا يقل إرهابًا، كما أنه يبقى فى وسط المثقفين كما هو الأمر فى العالم السياسى، آلة رائعة للطرد. والتوافق الذى يستمد منه قوته لم يولد فى ما بين الحربين؛ فقد أمكنت ملاحظته منذ سنة ١٨٩٨ حين كانت نزعة معاداة أمريكا هى أقل ما يقسم الفرنسيين. وتقوم الجدة على أنه لم يعد هناك أية حاجة لحرب كوبا لتنشيط آليتها؛ فنزعة معاداة أمريكا الفرنسية باتت تشغل نفسها بنفسها من الآن فصاعداً.

هذا الخطاب الاستكفائى هو أيضًا خطاب مونولوجى. لا يمكن القول إن معاداة أمريكا المتدفقة فى نهاية سنوات العشرين "تفتح نقاشًا" حول الولايات المتحدة؛ إنها "تحتج ضدها" كما كان يمكن لفلوبير أن يقول. إن أيا من كلاسيكيى نزعة معاداة أمريكا التى كانت تظهر للنور آنذاك بدءًا بكتاب جورج دوهاميل مشاهد من الحياة القادمة، لا يرفض ولا ينكر خصمًا ما. إذا كان يُشارُ إلى محبى أمريكا الحقيقيين أو المفترضين بالإصبع، فطروحاتهم محرمة دون تعليق. وإذا أعطى المجادل لنفسه بفعل

أمر خارق محاورين كما فعل آرون ودانديو فى كتاب *السرطان الأمريكي*؛ فالخصم المسمى هو نفسه معاد لأمريكا - أى والحالة هذه جورج دوهاميل - المعتبر إما قليل المعاداة لأمريكا وإما معادياً لأمريكا بغباء!

هل الفرنسيون منقسمون حول أمريكا؟ نعم، إن شئنا. لكنهم منقسمون فقط بين معادين لأمريكا من اليمين ومعادين لأمريكا من اليسار ومعادين لأمريكا غير امتثاليين، أى الأشد حدّة، الذين يفضلون "لا يمين ولا يسار". من اليمين القومي والملكى والفاشى إلى اليسار الثورى مروراً بمختلف الفئات غير الامتثالية، ذلك يؤلف كثيراً من الناس. ومع المثقفين الذين أمسكوا منذئذ بزمام القضية، هذا يعنى كل الناس تقريباً.

استنفار المثقفين

السمة المميزة الثانية لهذا العصر الجديد من الخطاب، هو فى الواقع الدور المحرك الذى يقوم فيه "مثقفون" لم يعودوا هم أنفسهم بعد عام ١٩١٨، كما لو أن إنتاج معاداة أمريكا كان يؤلف موضوع ضرب من نقل الاختصاصات.

قبل الحرب، وخلال فترة ١٨٨٠ - ١٩١٤، كانت الصور والتحليلات الأمريكية تنتقل بصورة خاصة من خلال قصة الرحلة أو التاريخ المختص، وبصورة أشد ندرة من خلال المبدعات الخيالية أو المقالات. وقليل من تدخل من المشهورين: بول بورجيه هو الاسم الوحيد المعروف حقًا فى مجموع غنى مع ذلك، لكن هذه العلاقة تنعكس فى سنوات العشرين؛ فكبار الموِّنين الفرنسيين بالصور الأمريكية سيكونوا من الآن فصاعداً الكتاب أو "الفلاسفة - الكتاب"، ومن هم الأشهر بينهم. تُغَطى الولايات المتحدة من الآن فصاعداً، من موران إلى سيلين مروراً بكلوديل ودوهاميل، ثم من سارتر وسيمون دو بوفوار إلى جان بودريار، بجماعة جديدة فى الأنتليجنسيا: يؤلفها روائيون وشعراء وكُتَّاب أخلاقيون ومناظرون وكُتَّاب مقالات وفلاسفة. التغيير هائل ونهائى، ولن يفعل وصول الصورة السينمائية والتلفزيونية سوى توسيع المجال والاستقبال لهذا التوظيف لأمريكا.

إن منسقى الصورة الأمريكية (لم يعودوا بصورة أساسيةً على كل حال) هؤلاء الخبراء من كل فرع علمي: اقتصاديون وعلماء سياسة وعلماء نفس أو ما قبل - علماء اجتماع، ممن كانت رؤيتهم قد وجهت بصورة قوية النظرة الفرنسية فى نهاية القرن التاسع عشر. لا لأن كل شيء ينصرف عن الولايات المتحدة؛ فلا يزال هناك بالطبع أيضاً علماء محققون يقومون برحلة دراسة: من مربّين ومهندسين زراعيين دوماً، وأكثر

فأكثر من الاقتصاديين والأطباء الصحيين، يرافقهم أوائل الاختصاصيين بالعلاقات الإنسانية والتنظيم الصناعي. سيتابع جميعهم استجواب "مختبر" المستقبل، لكن إذا كان بعض أعمالهم ـ كأعمال جورج فريدمان حول تجزيء العمل، مثلاً ـ موعودة بالخلود، فإنها ستسهم قليلاً في الوقت الحاضر في تكوين أو تعديل الصورة الجماعية للولايات المتحدة، فبتدقيقها موضوعاتها وبضبط مساراتها تفقد العلوم الاجتماعية الجديدة في التأثير ما تربحه في المصداقية. وحده التاريخ الذي اكتشف أمريكا بصورة متأخرة، يزيد من تأثيره في صنع صور أمريكية. ويصير واحد مثل أندريه سيجفريد الذي تتجاور عنده تقاليد التحقيق في المتحف الاجتماعي، وبقايا الأنثروبولوجيا العرقية وذكريات علم السياسة على طريقة بوتمي، مرجعًا لا غنى عنه ولا شك (من بين أسباب أخرى)؛ لأنه الوسيط المثالي بين الخطاب "العالِم" قبل الحرب والمقالات الأدبية التي استحوذت على الولايات المتحدة من الآن فصاعداً.

لكن سيجفريد نفسه أو برنار فاي لا يتدخلان إلا للتعزيز؛ إذ لم يعد الخطاب المعادي لأمريكا المنتصر في وضع من يبحث عن ضمانات، ولن يطلب من الآن فصاعداً إلى فروع المعرفة وإلى الرحالة المنهجيين سوى التأكيدات. كان هيبوليت تين يسأل تلميذاً ذاهبًا إلى إنجلترا: "أية فكرة مسبقة ستذهب للتحقق منها هناك؟". إن الأدباء المعادين لأمريكا الذين يقومون بالرحلة يحملون فضلاً عن مكتبة كاملة سابقة قائمة بالأحكام المسبقة خاصة بهم للمصادقة عليها. يسجل موروا ذلك، لا أحد يفلت من تصفح القراءات، ولا تستطيع أية نظرة من الآن فصاعداً ادعاء النضارة: "أصلاً لم أعد أعرف. [...] لقد أفسدت ذكريات الرحلة بالقراءة. هل هو أنا الذي رأى هذا البلد؟ أهو كيسرلينج؟ أم سيجفريد؟ أم روميه؟ أم لوك دورتان[٣٢]؟" طريقة ماكرة في الإشارة إلى أنه هو، موروا، الأكثر وعيًا بهذه البضاعة المربكة، سيعرف التخفف منها على نحو أفضل من معظم معاصريه... كانت نزعة معاداة أمريكا قبل ١٩١٤ طفل الشك المعذب. وماذا لو لم تكن الجمهورية الأخت تلك التي كنا نظنها على الإطلاق؟ وماذا لو كانت الولايات المتحدة أقل صداقة، وأقل مسالمة، وأقل ديمقراطية، وأقل رفاهية، وأقل اشتراكية مما تخيلها أنصارها الفرنسيون؟ لقد مضى هذا العصر. انتهى الشك، واختتمت التحقيقات. إننا نشهد إذن "تغييراً" حقيقيًا للأشخاص المثقفين المعادين لأمريكا. سيتناولُ الموضوعَ تحالفٌ واسعٌ من أهل الأدب: صارت نزعة معاداة أمريكا مجال اختصاص غير المختصين، حصة أنتلجنسيا تجعل من نفسها حارسة للقيم المهددة.

سنسمى **مثقفين**(*) كى نميزهم عن سابقيهم، واضعى خرائط الصور الأمريكية الجدد هؤلاء، لا كثناء على كتاب شهير لجوليان باندا بقدر ما هو استناد إلى نيتشه وإلى الطبيعة "الكهنوتية" لوظيفتهم: إعداد خيالات جماعية. إن نزعة معاداة أمريكا الفرنسية هى منذ ذلك الوقت تحيز ***المثقفين***.

معهم يفرض مجموع جديد نفسه؛ فحتى أواسط سنوات الثلاثين، اجتازت الموجة كل الأنواع الأدبية: المقالات والروايات والمجلات والمسرح والمقالات الهجائية والتحقيقات. يسود العنف اللفظى ويتجلى فى العناوين، من السرطان الأمريكى إلى "دعوى ضد أمريكا"[٣٣]. الشهادة ساخرة والاتهام وجاهى. وهناك تفصيل له دلالته؛ فلم تعد قصة الرحلة التى مورست بكثرة قبل ١٩١٤ وسيلة لا غنى عنها لإصدار التهمة: يمكن للولايات المتحدة من الآن فصاعداً أن تُزارَ، وأن تُدان دون حاجة لزيارتها. ظل دوهاميل مخلصًا لتقليد دفتر الرحلة وللرسوم الأولية فى الميدان، ومن المهم الاستماع إليه يصرح بعد أن حالفه النجاح: "لم أكن بحاجة للذهاب إلى الولايات المتحدة لأقول ما قلته، كان بوسعى أن أكتب معظم فصول كتابى دون أن أغادر باريس[٣٤]". أما خصماه الشابان، آرون ودانديو فيدينان عن مسافة ويحاجّان بالتجريد. لم يسئ هذا التجريد إلى الجدال؛ فإن حرم القارئ من الرسوم الساخرة ومن النوادر المكبرتة فإنه سهّل الرفض الشامل دون فروق دقيقة وبلا أسف لأمريكانية مصفاة.

إن تراكم "المواد" يتم بسرعة مذهلة؛ فخلال عدة سنوات، اغتنت مكتبة الفرنسيين الأمريكية بعدة كتب أساسية، فى كل الأنواع، فى حين تكاثرت الأعداد الخاصة للمجلات و"التحقيقات الكبرى". وكان أندريه شوميكس **André Chaumeix** يحصى فى يونيو ١٩٣٠ لمجلة العالمين ***La Revue des Deux Mondes*** "ما لا يقل عن دزينة من الكتب" ظهرت حول أمريكا خلال عدة أسابيع[٣٥]. يمتد هذا الوضع فى الواقع من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٢ مع كتب تختلف فى تأثيرها اختلاف كتب ***الولايات المتحدة***

(*) لا نجد مقابلاً آخر باللغة العربية يؤدى معنى الكلمة الفرنسية clerc التى تعنى بين ما تعنيه أيضًا مفاد الكلمة الفرنسية الأخرى التى نضع مقابلها بالعربية كلمة مثقف: Intellectuel. إن استخدام الكاتب هنا لكلمة clerc بدلاً من intellectuel انطواءُ الوظيفة التى يقومون بها على طبيعة أو بعد "كهنوتى"، ولكى نميز فى ترجمتنا الكلمتين الفرنسيتين بالكلمة ذاتها فسنكتب بالحرف المائل كلمة مثقف المقابلة لـ clerc وبالحرف العادى كلمة مثقف المقابلة لـ intellec-tuel (المترجم)

اليوم Les Etats-Unis aujourd hui لأندريه سيجفريد André Siegfried (1927)، ومن *سيكون السيد، أوروبا أم أمريكا؟ Qui sera le maître, Europe ou Amérique* للوسيان روميه L.Romier (1927)، و*نيويورك New york* لبول موران (١٩٢٧) وكتابه *بطل العالم Champion du monde* (1930)، والرواية المثيرة للفضول لراؤول جين R. Gain *أمريكيون عندنا Des Américains chez nous*(1928)، وجزئي قصص لوك دورتين Luc Durtain) *الطابق الأربعون Quarantième étage*، ١٩٢٧، و*هوليود المهجورة Holly-wood dépassé*، (١٩٢٨) اللذين ينضاف إليهما كتيّب شعرى وعديد من المقالات، مشاهد من الحياة القادمة لدوهاميل (١٩٣٠) والعدد الخاص من مجلة *Réaction* (1930)، *السرطان الأمريكي Le Cancer américain* لآرون ودانديو (١٩٣١)، *أزمة الرأسمالية الأمريكية La Crise du capitalisme américain* لبرتران دو جوفينيل Ber-trand de Jouvenel (1933)، دون الحديث عن *رحلة لآخر الليل Voyage au bout de la nuit* لسيلين Céline (1932). ويتوجب أن يُضم إلى هذا النتاج الغزير بعض الترجمات لكتاب يعتبرون في فرنسا - لأسباب مبهمة أحيانًا - مراجع مختصة بالولايات المتحدة الأمريكية: مثل الغزير كيسرلينج Keyserling *التحليل النفسي لأمريكا Psychanalyse de l Amérique*، (١٩٣٠) والقاتم والدو فرانك Waldo Frank *الاكتشاف الجديد لأمريكا Nouvelle Découverte de l Amérique*، (١٩٣٠). كل ذلك يمثل ذخيرة من الصيغ والأفكار هائلة. لن نلقى أبداً فيما بعد مثل هذا التركيز في العدد ولا في الأصالة بوجه خاص؛ ففي سنوات ١٩٥٠ كما هو الأمر خلال سنوات حرب فييتنام قلما أغنى النتاج الخلافي والهادف و"الحدثي" ألوان طيف أمريكا على النحو الذي كانت عليه فيما بين الحربين.

يكتب المؤرخ دافيد ستروس: "اعتباراً من ١٩٣١ صار من المستحيل تقريباً على مسافر أو معلق فرنسي أن يفكر أمريكا دون أن يمر بها عبر واحد على الأقل من المراجع الستة التي ظهرت في الفترة بين ١٩٢٧ - ١٩٣٠"(٢٦). هذه المراجع الستة هي في نظره سيجفريد وتارديو وروميه ودوهاميل ودورتين وموران. والحق يقال إن كورنيليوس دو بوو كان يسافر أصلاً بالوكالة، وكان شاتوبريان ينسخ مناظره، وكان المتنزهون في القرن التاسع عشر ينقلون صناديق ممتلئة بكتب سابقيهم. يبقى أن نزعة معاداة أمريكا الفرنسية قد أعطت لنفسها في الواقع خلال عدة سنوات فقط مجموعاً من المراجع الحاسمة: إن الخوف الثقافي من أمريكا في سنوات العشرينيات والثلاثينيات يبقى حتى اليوم أيضاً الأفق غير المهجور لنزعة معاداة أمريكا الفرنسية.

هذه المكتبة الجديدة الأمريكية معادية بصورة كثيفة. فالأصوات المؤيدة مثل لوبيه دل بيل Loubet del Bayle من الندرة؛ بحيث أنه لا يمكن إلا بعذاب شديد الحديث عن "تيار" بمناسبة بعض المنشقين شديدى الوعى بالذهاب ضد سيل الرأى العام[٣٧]، لكن الجدة ليست هنا، إنها تكمن فى ضروب المنطق الجديدة التى تنتشر بموجبها العداوة.

كانت العداوة ضد الولايات المتحدة حتى ذلك الحين، قد بقيت منتشرة ومفتتة ومبعثرة فى أمزجة فريدة وهموم محددة، وكانت أسبابها المختلفة تتلاقى دون أن تتعانق. كانت كوكبة نجوم شديدة الوضوح للعين، لكنها لم تصبح بعد مجرة منتظمة. كانت هناك، من الأنثروبولوجيا العرقية إلى التحليل الاقتصادى للتروست، ومن "علم النفس السياسى" إلى علم الاجتماع أو التاريخ الثقافى، فروع شابة تمنح أطراً منافسة لتحليل "الخطر". وإذا كان عدد من المراقبين ينادون إلى القيام برد الطعنات، فقد كانوا متبعثرين، وبحمية تفوق تماسكهم. كان كل واحد من مخططات تحليلهم يفتن هذا الجزء من الجمهور الذى كان يتوجه إليه، وكان لا يزال ينقص ما سيسميه علم التسويق بكلمة قادمة مما وراء الأطلسى، *خلط الأنواع cross-over*: هذه العتبة التى ما إن يجتازها الخطاب حتى لا يتوجه شأنه فى ذلك شأن أى منتج تم إطلاقه جيداً إلى مجموعة من المستخدمين معينة، بل إلى كل فرد عامة.

كان على المثقفين أن ينجزوا هذه العملية كسر عزلة التشهير بالولايات المتحدة فى المجالات الخاصة التى يمارس فيها. إن الاتهام الشامل يتغلب من الآن فصاعداً على ضروب التجريم الخاصة. والطموح المشترك لـ "الاكتشافات الجديدة لأمريكا" لكى نستعيد عنوان والدو فرانك هو وصفها على أنها نظام مغلق وكامل، معارض فى كل شيء لكل ما نحن عليه أو نريد أن نكونه. إن الخطاب المعادى لأمريكا يكتسب فى ذلك قوة فى التماسك وقوة فى التأثير.

هجوم عام إذن ضد أمريكا؟ لا، لكنه دفاع عام، بل إنها السمة الثالثة، الجوهرية، التى تعدل بصورة عميقة ومستمرة مفاد وصوت نزعة معاداة أمريكا الفرنسية؛ فتلك الخاصة بعصر التنوير كانت مطبوعة بالشفقة، أما تلك الخاصة بأوائل القرن التاسع عشر؛ فبالاستخفاف، وتلك الخاصة بسنوات ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠، بالدهشة وبالقلق وبصورة خاصة بالغضب. أما نزعة معاداة أمريكا التى تكونت فى سنوات ١٩٢٠ (والتى ستسود القرن العشرين)؛ فهى خطاب ارتكاسى واستسلامى فى آن واحد، خطاب مهزومين سلفًا، ومستعمَرين أصلاً. إن كُرهَ أمريكا يتغذى فيه من احتقار

عنيف للذات. نتذكر راؤول جين الذى بنى روايته *أمريكيون عندنا* حول راو - متعاون مسخر لنزوات الغازى: تعطى هذه الخرافة التى تعود إلى عام ١٩٢٨ لهجة الأزمنة الجديدة، ولا يفعل التخييل هنا إلا استباق التحليل. يختتم كتاب آرون ودانديو *السرطان الأمريكى* فى عام ١٩٢١ على نحو مشابه ودلالى بلوحة فرنسيين فى حالة طلب لجوج لامتيازات مالية وجنسية، فى حالة عاهرات روما الجديدة، فى حالة يونانيى "*groeculi*" الأزمنة الحديثة الصغار(*)، "رقاب محلوقة من كل مهنة، ومن كل جنس ومن كل شعر، تتزاحم حول نوافذ أو مخادع alcôve يانكية"(٣٨). لقد مضى الزمن (١٨٩٥) الذى كان فيه موراس يستطيع مقارنة نيويورك بمثل هذه "المدينة نصف المتوحشة، القائمة بالقرب من القرم Chersonèse taurique، والتى يصفها ديون - كريزوتوم -Dion Chrysostome(٣٩)(**) لقد انقلب قطبا القوة: تقوم العاصمة بالنسبة للصور المعادية لأمريكا، من الآن فصاعداً، فيما وراء الأطلسى وفرنسيو ١٩٣٠ هم يونانيو الانحطاط، يشحذون على أطراف الإمبراطورية عطف المنتصرين. خضوع وإذلال وتمثيل: ذلك هو برنامج الاستعباد الذى سيشهَّر به من الآن فصاعداً ودون كلل المعادون الفرنسيون لأمريكا.

لا وجود لأى حل استمرارية هنا أيضاً بين حمية سنوات الثلاثين غير الامتثالية ونزعة التخويف الشيوعية أو الديجولية بعد عام ١٩٤٥، يعيد استنفار بلاغة الدناءة نفسها المقبول بها والخيانة. تقدم صحافة الحزب الشيوعى الفرنسى دون كلل "الأطلسيين" بوصفهم "أنصار ميونيخ" أو بكل بساطة أيضاً بوصفهم متعاونين جداً، لكن إتيامبل الديجولى لا يملك فى عام ١٩٦٤ حتى عذر المبالغات اللفظية للحرب الباردة حين يصف "النخاسين اليانكيين" لرامينجتون وجنرال موتورز المنهمكين فى "تقويض فرنسا"، حين يرسم فرنسا ذاتها على مدى صفحات بوصفها "امتيازاً تجارياً"، و"دولة مرتبطة"، و"مستعمرة هزيلة"(٤٠) للسادة الأمريكيين، حين لا يتراجع أمام المقارنة بين الاحتلال الأمريكى والاحتلال النازى - كى يختم لصالح النازيين الذين "يجهدون، على الأقل، بتحرير لوحات الشرف الفظيعة الخاصة بهم بلغة فرنسية حقيقية"(٤١). لا شك أن المحكوم عليهم بالإعدام، حتى إذا "كانت أسماؤهم صعبة على النطق"، لم يكونوا

(*) كلمة ساخرة سمى بها اليونانيون بعد خضوعهم للرومان مقابل اليونانيين الأحرار والأقوياء فى العصور السابقة. (المترجم)

(**) Chersonèse taurique، هو الاسم الذى كان الإغريق يسمون به منطقة القرم. أما -Dion Chrysostome، فهو بلاغى وفيلسوف يونانى من القرن الأول.(المترجم)

حساسين لهذا التهذيب الألماني الذي يعارض به إتيامبل القطاعات اللغوية للمحتل الأمريكي. نجح كتاب *هل تتحدثون الفرانجليزية؟* في فرنسا في أوج الرفاه المستعاد، في فرنسا الهادئة عام ١٩٦٤، لكن عنفه البلاغي يمدّ عنف الضرب بالمطرقة الستاليني، ويبعث من جديد لهجة لعنة غير الامتثاليين قبل الحرب. هل كان الثناء إراديًا؟ يختتم إتيامبل على كل حال حيث كان آرون ودانديو يبدآن: حول "سرطان أمريكي" صار عنده "سرطانًا يانكيًا"(٤٢).

تنطوي معاداة المثقفين لأمريكا على روح المتابعة.

خطاب استكفائي في التشهير الدفاعي محتكر من قبل المثقفين، كذلك تقدم نفسها إجمالاً نزعة معاداة أمريكا الفرنسية الجديدة المنحدرة من الحرب الكبرى؛ فمع كارثة ١٩١٤ ـ ١٩١٨، صارت الهيمنة الأمريكية جلية، لا تنكر. إنهم الأوروبيون أنفسهم الذين سمحوا بها، والذين أكدوها بانشقاقاتهم. ونزعة معاداة أمريكا الفرنسية التي كانت من قبل لا تزال نزقة، ووقحة، ولولبية، وفي كل الأحوال مناضلة تعتصم على جبهة رفض كئيبة. إنها تغذي المرارة، وتحب عرض عجزها، وأن تحكه كالجرح. من الآن فصاعداً، وتحت أشد ضروب البلاغة احتداماً، تسمع شكوى العجز المجاملة غالبًا. ويتعالى العنف اللفظي بقدر خيلاء المقاومة التي يزعم إيقاظها ذاته، سواء اعترف به بصورة مضمرة أو صرح به جهراً. العدو في الساحة أو إنه يراقب على الأقل الأبواب، وقلما يخفيه أعتى المعادين لأمريكا، فدوهاميل منذ عنوان كتابه يقدم طريق الحياة الشنيع فيما وراء الأطلسي بوصفه "حياتنا القادمة". أما *السرطان الأمريكي* لآرون ودانديو، وهو أقوى مقال نقدي لاذع دون شك خلال المرحلة، فهو في الوقت نفسه أشدها انهزامية، المقال الذي يعلن بأقسى الطرق أن العدو الأمريكي قد سبق وربح المباراة، وأن العالم صار ملكه. تتسرب مرارة الهزيمة إلى هذا النثر العدواني. ومنذ عهد قريب أيضًا، وبين رشقتين من الاستنكار، كنا نسخر أحيانًا بفطنة من أمريكا هذه التي قلما انطوت عليها، ولا نزال اليوم نضحك، لكنه ضحك غبي يُعيره سيلين إلى باردامو ورفاقه أمام مانهاتن: "عبر الضباب، كان مدهشًا ما كنا نكتشفه فجأة إلى درجة كنا معها نرفض أولاً تصديقه ثم بعد كل حساب حين صرنا تمامًا أمام الأشياء، وعلى أننا كنا محكومين بالأشغال الشاقة بدأنا في المزاح لدى رؤيتنا ذلك، تمامًا أمامنا..." سيلين: رجل البرهان بتسع ـ تسع مرات أكثر غرابة وخبثًا من الآخرين. أن توبخ أمريكا البوليسية والقذرة، حبذا! لكن النحيب الفرنسي على أمريكا، هو الآخر، يتلقى ما يستحقه. إن رواية *رحلة لآخر الليل* هي قصيدة بطولية ضاحكة عن طواعية

العالم القديم. مع محكومى الأشغال الشاقة ***Infante Combitta***، فإن كل أوروبا القذرة هى التى تقهقه أمام المشهد الذى يتجاوزها. "لقد مزحنا إذن كالبلهاء(٤٢)".

لوتى وكثير غيره كانوا لا يزالون يريدون الذهاب إلى اقتحام اليانكى، وعلى كل الناس أن يمتثلوا! لم تعد هذه المفاخرة مقبولة. وعلى كل الناس أن يتجهوا بالأحرى إلى الملاجئ! دفاع عن فرنسا، دفاع عن أوروبا، دفاع عن الإنسان، دفاع عن العقل! تلك هى من الآن فصاعداً شعارات معاداة أمريكا التى يجب أن نضيف إليها هذه الوصية المضمرة: دفاع عن أهل الحرفة، دفاع عن المثقف (الفرنسى)، دفاع عن المثقفين. لقد اختار الخطاب المعادى لأمريكا خطه: خط ماجينو. "سننتقل إلى الدفاع" كما كتب مونييه فى عام ١٩٣٣(٤٤): هذه الكلمة لمؤسس مجلة ***Esprit***، أحد أشد متهمى الحضارة الأمريكية المزيفة استمرارية، والتبرجز الفريسى "للرجل الذى ولد مع عصر الراحة" يمكن أن تسجل على راية مثقفى ما بعد حربنا.

هوامش

(١) سنجد هذه المعطيات فى كتالوج المعرض "صور مثالية: أمريكا" (البندقية، ١٩٩٢)، تقديم بريجيت مورى Brigitte Maury ونصوص هنرى جورج Henri George . انظر أيضاً:
Véronique Alemany-Dessaint, La représentation des Américains dans la Première Guerre Mondiale, *Les Américains et la France(1017-1947). Engagements et représentations*, sous la direction de F. Cochet, M.-Cl. Genet-Delacroix, H.Trocmé, Actes du colloque organisé à Reims par le Centre Arpège (Université de Reims) et le Centre de recherche d histoire nord-américain(U. de Paris I), Paris, Maisonneuve et Larose,1999.

(٢) جملة "لافاييت، ها نحن !" أسندت غالبًا إلى الجنرال بيرشينج Pershing الذى كذب هو نفسه هذه الشائعة وسمى الكولونيل ستانتون Stanton بوصفه مؤلفها.

(٣) S. Freud et W. Bullitt, *Le Président Thomas Woodrow Wilson, portrait psychologique, traduction par Marie Tadié, Albin Michel*, 1967, p. 106. تحدث فرويد عن "نفوره" من ويلسون فى مقدمة الكتاب التى وقعها شخصيًا.

(٤) Ch. Maurras, *Les trois Aspects du Président Wilson. La Neutralité. L Intervention. L Armistice, Paris*, Nouvelle Librairie Nationale, 1920, p. 186.

(٥) G. Clemenceau, *Grandeurs et Misères d une victoire, Paris*, Plon, 1930, p. 146.

(٦) *Ibid.*, p. 46.

(٧) Marcel Prouste, *Le Temps retrouvé, Paris, Gallimard*, Bibliothèque de la Pléade, 1989, t. IV, pp. 373-374. مهارة السخرية البروستية: فى جملة "حين انتهينا تقريبًا "quand nous étions quasiment finis"، يحمل المعنى المزدوج الذى يتيحه الاستخدام العتيق للفعل المساعد محب الألمان شارلو على القول إما أننا أنهينا عمليًا كل شىء وإما أنه قضى علينا تقريبًا.

(٨) G. Clemenceau, *Grandeur...*, p. 59.

(٩) *Ibid.*, p. 38.

(١٠) A. Tardieu, Devant l obstacle. *L Amérique et nous*, Paris, Editions Emile-Paul Frères, 1927, p. 295.

(١١) *Ibid.*, p. 6.

(١٢) A. Maurois, *En Amérique*, Paris, Flammarion, 1933, p. 37.

(١٣) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain*, Paris, Rioder, 1931, p. 105.

(١٤) A. Maurois, *En Amérique...*, p. 35 اعترف موروا أنه أشد حيرة بعد العشاءين مما كان عليه قبلهما.

(١٥) G. Clemenceau, *Grandeur...*, p. 140.

(١٦) يروى فرويد ذلك فى كتابه الرئيس توماس وودرو ويلسون... ص ٣٠٤، كما هو مسجل فى مذكرات الكولونيل هوز House بتاريخ ١٣ مايو ١٩١٩.

(١٧) "نور انطفأ [بل وفشل أيضًا] تمامًا"، عنوان عرض كتبه جيف شيزول Jeff Shesol للكتابين المخصصين لويلسون فى مجلة الكتب للنيويورك تايمز فى ١٤ أكتوبر ٢٠٠١.

(١٨) G. Clemenceau, Grandeur..., pp. 140, 144.

(١٩) كان ويليام بيلليت William Bullitt قد استقال من الوفد الأمريكى فى مؤتمر السلام لكى يسجل عدم موافقته على التنازلات المقدمة للحلفاء.

(٢٠) G. Clemenceau, cité par S. Freud et W. Bullitt, *Le Président Thomas Woodrow Wilson...*, p. 274.

(٢١) *Ibid.*, pp. 13-14.

(٢٢) *Ibid.*, p. 157.

(٢٣) S. Freud et W. Bullitt, *Le Président Thomas Woodrow Wilson...*, p. 95.: جون ويكليف Wycliffأو (Wyclif توفى فى ١٣٨٤)، لاهوتى من أكسفورد ومترجم التوراة ومصلح دينى، كان يدعو للكتاب المقدس ضد تعسف الكنيسة، وكان يقترح رؤية للإنجيل أخلاقية وعملية فى آن واحد. أما جون ويسلى (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) فهو إنجيلى وكاهن متجول خلال فترة طويلة، وهو مؤسس الكنيسة المنهجية.

(٢٤) Ch. Maurras, *Les trois Aspects du président Wilson...*, p. 184.

(٢٥) *Ibid.*, p. 165.

(٢٦) بالمعنى المجازى، نعلم أن ويلسون كان كالفانيًا.

(٢٧) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain...*, p. 16.

(٢٨) E. Faure, Mon périple [1932], *édition établie et commentée par J. Hoffenberg, avant propos de J. Lacouture*, Paris, Seghers-Michel Archimbaud, 1987, pp. 42-45.

(٢٩) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain...*, p. 92.

(٣٠) G. Soria, *La France deviendra-t-elle une colonie américaine*, préface de F. Joliot-Curie, Paris, éditions du Pavillon, 1948, p. 48.

(٣١) La cinquième Colonne, la voici, Paris, SEDIC, s.d. [1950].

(٣٢) A. Mauroi, En Amérique..., p. 69.

(٣٣) عنوان أعطى من قبل مجلة *Réaction* إلى عدد خاص فى عام ١٩٣٠.

(٣٤) André Rousseaux, Un quart d heure avec M. G. Duhamel, Candide, 19 juin 1930, p. 4. cité par A.-M. Duranton-Crabol, De l anti-américanisme en France vers 1930, RHMC, nº 48-1, p. 122.

(٣٥) Cité par J.-L. Loubet del Bayle, *Les Non-Conformistes des années 30. Une tentative de renouvellement de la pensée politique française*, Paris, Seuil, 1969, p. 254.

(٣٦) David Strauss, *Menace in the West. The Rise of French Anti-Americanism in Modern Times*, Wesport, Connecticut/London, England, Greenwood Press, 1978, p. 69.

(٣٧) J.-L. Loubet del Bayle, *Les Non-Conformistes...*, p. 254.؛ إنه إثبات بالنفى على كل حال وصف هذا "التيار" باعتباره "أقلية بالأحرى".

(٣٨) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain...*, p. 240.

(٣٩) Ch. Maurras, *La France et l Amérique, [1895], Quand les Français ne s aimaient pas. Chronique d une renaissance*. 1895-1905, Paris, Nouvelle Librairie Nationale, 1916, p. 323.

(٤٠) Etiemble, *Parlez-vous franglais*, Paris, Gallimard, 1964, pp. 332, 33 (Etiemble reprend le mot -concession- à Audiberti), 52,435 respectivement.

(٤١) Ibid., p. 244 عبر هذه "اللغة المزيج" لبريسيوز (إشارة إلى مسرحية موليير التى تحمل العنوان نفسه "*Précieuses ridicules*" ولغتهن المصطنعة والزائفة) ربما فهمنا أن إتيامبل يتحدث عن الإعلانات التى كانت تعلن إعدام المقاومين والأسرى.

(٤٢) *Ibid.*, p. 333 الحروف مائلة فى النص، وهو مايوحى بإلماح مقصود.

(٤٣) Céline, *Voyage au bout de la nuit, Paris, Gallimard-Folio*, 1983, p. 237.

(٤٤) E. Mounier, Esprit, nº 6, mars 1933, p. 896, cité par J.-L. Loubet del Bayle, *Les Non-Conformistes..., p. 243.*

الفصل الثانى
فى مواجهة الانحطاط:
منطقة محدودة غالية أم منطقة دفاع أمامى أوروبية؟

"ليدو، إشبيلية، شارع السلام، بوند ستريت، لا روتوند
مانيه، كارتييه، دوستويفسكى، بومرى، لارو، نابليون،
شاتوبريان، مارسيل بروست،
هل تفضلون
كل دول الاتحاد هذه، الملحقة منذ ١٩١٧؟
نعم، نعم، يا، يا، يب، يب.

لوك دورتين، USA 1927 (1928).

الدفاع إذن، الدفاع عن كل ما تهدده أمريكا، التصرف، عدم الاستسلام للانحطاط، عدم الإصغاء إلى أصوات الهجر، عدم اليأس - وقبل كل شىء عدم اليأس من فرنسا؛ إذ أليس باسمها، وعلى شرفها إنما تم التعبير عن معظم الأمنيات فى معاداة أمريكا؟ أليس "من أجل فرنسا" إنما استنفر المثقفون أنفسهم ووضعوا أنفسهم فى موضع الدفاع منذ نهاية سنوات العشرينيات؟

الجواب أقل سهولة مما يمكن لنا أن ننتظر.

من المؤكد أن الخوف من انحطاط فرنسى يجوس وراء اللعنات المتراكمة ضد أمريكا، وأشد الأبحاث المضادة لأمريكا فتكًا فيما بين الحربين، السرطان الأمريكى، لآرون ودانديو، يؤلف نصف اللوحة المزدوجة مع كتابهما انحلال الأمة الفرنسية الذى ظهر فى السنة ذاتها، كما لاحظ طونى جودت[١]. ومع ذلك فالكلمة الأخيرة فى نقدهما اللاذع ليست من أجل فرنسا، بل من أجل أوروبا: "استيقظى يا أوروبا!"؛ وتكثر النوادر ضد القومية البليدة. بهذا على الأقل، ينضم الشابان الغاضبان غضبَ نظام جديد إلى غضب من يعاملانه بوصفه جوزيف برودوم نزعة معاداة أمريكا، دوهاميل المهجور. كل خاتمة كتاب مشاهد من الحياة القادمة - هذا الكتاب الذى بلغ حدا فى طابعه الفرنسى أنه يبدأ بجدال مع كورتيوس - لا تدعو فرنسا بل أوروبا؛ فإلى "أهل أوروبا" إنما يوجه دوهاميل رسالته. وفى "حضارتنا الأوروبية" إنما يضع أقصى آماله[٢]. وبعد عدة

سنوات، لا يزال اسم أوروبا ـ أوروبا أخرى تماما حقا: أوروبا الأسرة الأوروبية الجديدة المجمّعة فى حضن جرمانيا، التى سيدعوها المتعاونون للنضال ضد البلشفية وضد أمريكا "البلوتوقراطية". وحين يقرر موريس دروون Maurice Druon فى المقابل، انطلاقًا من إنجلترا؛ حيث انضم إلى ديجول، أن يحذر الأمريكيين الذين كان انتصارهم يقترب، ضد دوار النجاح والازدراء الذى يمكن لهم أن يشعروا به إزاء فرنسا المستضعفة، يختار هو الآخر أن يعنون نداءه لا رسالة من فرنسى بل : ***رسالة من أوروبى***.

بوسعنا الإكثار من الأمثلة: إنها تبين وقد أخذت من كل المعسكرات، ما يمكن أن يسمى الأوروبة العفوية للهجوم الفرنسى المضاد. الجرح هو دون أى شك انحطاط فرنسا. لكن الدواء الموصوف هو فى تلك الحقبة على الدوام تقريبًا أوروبى. يؤلف موراس وأحفاده استثناء، وهم لا ينتظرون يقظة إلا قومية، كما يؤلف استثناء أيضًا بعض المعادين المتزمتين لأمريكا، الثابتين على القومية وحدها: أولئك الذين يصفهم يان مولييه ـ بوتانج Yann Moulier-Boutang وهم يصيحون ضد العولمة "صيحة الديك الغالىّ الذى يحك أظفاره فى الصحراء"(٢). لا شىء مهم بين الاثنين: ولا حتى الديجولية، وعلى كل حال "ديجولية الحكومة"، التى عرفت على الدوام الحفاظ على منطق المقاومة على الصعيد الأوروبى أو (حسب الحالة) الدولى، وراء ثنيات بلاغة قومية ملحة.

إن نزعة معاداة أمريكا الفرنسية من هذه الناحية ليست عصبية قومية؛ فلا فى عام ١٩٣٠ ولا فى عام ٢٠٠٢، لا يعتمد المدافعون عن فرنسا ضد الخطر الأمريكى عليها وحدها لرد الهجوم. وكما هو الأمر فى هذه العمليات العسكرية الموضوعة تحت العلم الدولى، فإن الخطاب المعادى لأمريكا، وإن كان فرنسيًا فى ثيماته وآلياته، ينتشر دومًا على وجه التقريب باسم كيان أعلى. سيكون الإنسان، وسيكون الروح القدس، وسنعود إلى ذلك فيما بعد، لكنه سيكون أيضًا ولبعض الوقت على الأقل، أوروبا.

أوروبا المجزأة فى وجه "الغول الواقعى"

يبدو مما لا اعتراض عليه أن انطلاق نزعة معاداة أمريكا الفرنسية مرتبط بالإدراك المرير لانحطاط قومى، يبقى أن فكرة الانحطاط يمكن أن تخفى فكرة أخرى. فى نهاية القرن التاسع عشر هذه التى شهدت ازدهار نزعة معاداة أمريكا الفرنسية، كان القلق متجهًا إلى فرنسا أقل مما هو متجه لأوروبا؛ فقد نظر إلى الطموح "الإمبراطورى" الأمريكى فى سنوات ١٨٨٠ ـ ١٨٩٠ بوصفه تهديدًا جماعيًا يجب أن يستجيب له مجموع قوى العالم القديم. حتى بريطانيا العظمى التى تحب أن يُظَنّ أنها

محمية بقراباتها "الأنجلو ـ ساكسونية"، تخطئ في الاعتقاد بحصانتها ضد التبعية الهادئة. ذلك هو على الأقل رأى معظم المعلقين الفرنسيين، بل إن البعض يتوقع أن الإنجليزى سيكون أول من يُبتَلَعُ من قبل ابن عمه ومثيله، ولكن سواء أربط المعادون الفرنسيون لأمريكا في بداية القرن العشرين أو فصلوا الحالة البريطانية؛ فهم يهتمون بأوروبا ككتلة واحدة. إنهم يتخوفون من ضياع قوة وتأثير القارة كلها، أكثر بكثير من انحلال سيكون خاصًا بفرنسا، كما ستكون الحالة بعد عدة عشرات من السنين.

إن وضع أوروبا في مقدمة النداء للمقاومة المعادية لأمريكا شديد الوضوح لدى هنرى دو بومون الذى نشر في عام ١٨٨٨ مقاله الرائد "***عن مستقبل الولايات المتحدة ونضالها القادم مع أوروبا***" في ***مجلة الاقتصاديين*** ***Journal des Economistes***. ينطلق بومون من إقرار عام جدًا: الانتقال المستمر للمركز الاقتصادى العالمى من الشرق إلى الغرب ـ حسب التقليد الكلاسيكى في تحويل السلطة(*) ***translatio imperii***. هذا الانحراف للتفوق يسمح بتوقع أن "مركز الأعمال سوف[...] يستقر في نيويورك أو في واشنطن التى ستصير عاصمة العالم المتحضر"(٤). ويضيف بومون، على العكس، "لا تستطيع أوروبا إلا أن تتبع حركة معارضة للحركة الصاعدة للولايات المتحدة وكل ما تملكه الدول الأوروبية اليوم: ميزات وضعها الجغرافى، استعدادات وراثية، وجود قائم على ماض عريق، ثراء متراكم، سيختفى كله في الانحلال النهائى"(٥). ترتبط أوروبا وأمريكا الشمالية بآلية الثقل والثقل الموازن؛ فانخفاض أحدهما سيكون الأثر الآلى لارتفاع الآخر. في هذا القبّان المشؤوم تظهر أوروبا من العوز بحيث إنها تنهار وتتمزق. المستقبل مظلم بالنسبة "لنا نحن الأمم الأخرى القارية التى نجاهد بالمال وبالجيوش المسلحة لاكتساب هيمنة ربما كانت عابرة، والتى ستصير بعد أن تنهك وتنهار خصماً أسهل على هذا الشعب الشاب"(٦). لقد بدأت إنجلترا ذاتها وهى مع ذلك أقل انتحارية من فرنسا وألمانيا، بالقلق من تصاعد القوة الأمريكية ـ بحق، كما يفكر بومون الذى يستند على الطرح الداروينى القائل بمهاجمة نوع ما أولاً لـ"تنوعاته" القريبة كى يعرض فكرته بأن الأمريكان سيهاجمون الأنجلو ساكسون أولاً(٧).

وأيا كان الأمر فإن مصير أوروبا سيتقرر بالتضامن وعلى المدى القصير، "سوف تغير الولايات المتحدة، حين تصير أشد قوة وأكثر ثراء من أى دولة في أوروبا، وربما من أىٍ من جنسيات أو جمعيات الشعوب المجتمعة ضمن مصلحة مشتركة، من موقفها إزاء أوروبا"، وسوف يستثير توسعها الذى لا يُرَد المواجهة: "حين سيكون لهذه الولايات

(*) بمعنى الانتقال الجيو سياسى لمراكز الهيمنة عبر التاريخ..

[المتحدة] السكان الذين يجب أن تحتويهم بصورة طبيعية، فسوف تفيض حتمًا. والصراع من أجل الحياة والتنافس المحتوم سيجبرها على الانتشار خارج حدودها. سينتشر الأمريكيون آنئذ فى كل مكان لا فى الأمريكتين فحسب، بل كذلك فى العالم كله، عاملين على أن يستقروا، ومطالبين بحقوق وبامتيازات، وصائرين ربما سادة أمم العالم القديم." لقد أطلقت ثيمة التنمّل الأمريكي؛ وبعد عشر سنوات أخرى سترتبط بثيمة "التجمهر" الآسيوى.

هناك إذن "حقيقة مستقبلية فى القول الشهير إن أمريكا قادرة على أن "تجلد الكون". هل هوالمستقبل حسب بومون؟ يجب – على المدى القصير– توقع تطبيق هجومى لمذهب مونرو: "من الممكن أن نكون على يقين أن اليوم الذى ستشعر فيه الولايات المتحدة بنفسها على قدر من القوة، ستطبق مذهب مونرو بكل دقته [كذا] وستبدأ بطرد القوى الأوروبية من القارة ومن الجزر الأمريكية." ستبدأ القضية الكوبية بعد عشر سنين من ذلك بتحقيق النبوءة. وسيلتفت النضال على المدى المتوسط ضد أوروبا: "لم يشارك جيلنا إلا فى الصراع الذى قام ولا يزال يقوم بين أمم أوروبا لاحتلال المقام الأول. أما الجيل الذى سيخلفنا فسيرى صراع أوروبا والولايات المتحدة لضمان السيطرة على الكون." حرب مفتوحة أم حرب مقنعة؟ لا يصرح بومون بما يراه؛ فالنتيجة وحدها هى ما يهمه، وستكون هى ذاتها: "ذات يوم ستستيقظ أوروبا لتقر بأن مصائر العالم لم تعد ملكها." وسواء أكان غزوًا عسكريا أم "غزوًا سلميا"، أى اقتصاديا وماليا، فإن مصير أوروبا قد رسخ، إلا إذا حدثت انتفاضة فورية وحازمة. من الواضح بالنسبة لبومون أنه لا وجود لحلّ للخطر الأمريكى إلا الحل الأوروبى. وفرنسا المعزولة تحكم على نفسها بمعاناة ذلك، وعلى الهجوم المضاد أن يكون مشتركًا. يريد بومون أن يكون واقعيًا ويحدد أهدافًا متواضعة؛ ففرنسا وألمانيا ليستا ناضجتين لوقف سباق التسلح، وليس هناك أى أستاذ جولبير بعد كى يخترع "بطارية نفسية" قادرة على مسالمة الشعوب بواسطة الذبذبات الإيجابية(٨)". ما العمل؟ نزع التسلح، مستحيل، ولكن على الأقل وقف حرب التعرفات فى أوروبا(٩)". أوروبا الفدرالية هى فى أفق هذا البرنامج فى الدفاع الذاتى. إنها تضع نفسها على مدى طويل غير متوقع، لكن المهم هو أن "الخطر الأمريكى" قدم للمرة الأولى فى آن واحد كأفضل تبرير وكأقوى حافز لاتحاد سياسى أوروبى. "إن الخطر المشترك هو أفضل دوافع الاتحاد، وربما سنرغم ذات يوم على تكوين فدرالية أوروبية، ولتكن مشيئة الله ألا يأتى ذلك متأخرًا".

تتبلور لدى هنرى دو بومون إذن فكرة ما عن الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن كجوابٍ وردٍّ على التهديد الذى تؤلفه. لن يبقى صوته وحيدًا زمنًا طويلاً؛ ففى خلال

السنوات العشرين التالية، عبّر القلق الفرنسي عن نفسه في مواجهة المطامح الكونية للولايات المتحدة أكثر فأكثر بمفردات أوروبية. والأولوية الممنوحة، حتى من قبل أشد الناس وطنية، لهذا البعد الأوروبي للمقاومة ضد اليانكيّة، لا ينطوي في الأساس على أي مفارقة؛ فهي تأتي كرد فعل على عدوانية أمريكية مرئية هي ذاتها باعتبارها معادية لأوروبا إجمالاً. والقناعة قديمة. وتجد جذورها في تصريح مونرو عام ١٨٢٣؛ فإنذار مونرو كان موجهًا لكل القوى القادرة على التدخل في الشئون الأمريكية، لكن لا أحد يمكنه الانخداع فيما وراء عمومية الكلام، فأوروبا هي التي كانت مقصودة(١٠). وبما أنه يعتبر بالإجماع الميثاق المؤسس للهيمنة الأمريكية الجديدة، فإن هذا "المذهب" أوجد بين الأوروبيين تضامنًا عفويًا؛ تلك على الأقل قناعة الفرنسيين حين احتدم النقاش حول الوثيقة الشهيرة في نهاية القرن التاسع عشر. سبق وأن رأينا بأية مفردات. لم يحتل "المذهب" مقام "الإنجيل" الجديد فحسب، بل لقد انقلب من تصريح دفاعي إلى بيان هجومي، ولن يفوت بومون في عام ١٨٨٨ الرجوع إليه - "نعرف مذهب مونرو الشهير الموصى به من قبل آدامز وجفرسون" - دون أن يشعر بالحاجة للإلحاح على وثيقة تَمْعَّنَ كلٌ قرائنها في وبالها.

لن يغير الهدوء الدبلوماسي الذي ساد إثر الحرب الإسبانية الأمريكية من هذه القناعة، ورأى من هم الأقل معاداة لأمريكا من المراقبين في "نظرية سياسة العصا big stick" لتيدي روزفلت(١١) امتداداً وتفاقماً لمذهب مونرو. وهذا هو التحليل الذي يقدمه في عام ١٩٠٨ في كتابه ***ملاحظات حول الولايات المتحدة الأمريكية***، شابٌ له مستقبل، هو أندريه تارديو: "كان بسمارك يستطيع القول قبل خمسة وعشرين عامًا إن مذهب مونرو كان وقاحة دولية، والوقاحة اليوم تقوم على جهل مغزاه. لا ننسى من ثم أن الولايات المتحدة تمتعت منذ عشر سنوات بقوة عسكرية سيكون لها ثقلها على تاريخها؛ لأنه إذا كانت الوظيفة تخلق العضو فإن العضو يطور الوظيفة(١٢)". كان ذلك تأكيداً لتشخيص أوكتاف نويل، وهو يحذر الفرنسيين في عام ١٨٩٩ بأن "الولايات المتحدة مدعوة على كل النقاط في الكرة الأرضية، إلى أن تدخل في صراع مع أوروبا". ويضيف نويل: "لقد رأينا المعدات الرهيبة للحرب الصناعية التي يستطيعون تجهيزها ضدنا"(١٣). والإمكان العدواني في عام ١٨٩٩ صار في عام ١٩٠٨ واقعًا هائلاً؛ إذ لا تُراكَمُ السفن والمدافع كي تُترَكَ للصدأ.

يكره اليانكيون أوروبا وكل ما هو أوروبي، كما كان يكرر جوستاف لو روج في كل حلقة من روايته مؤامرة أصحاب المليارات. ويصحح تارديو: إنهم لا يكرهونها، إلا أنه يجب الموافقة على أنهم قلما يحبونها، وأنهم يحتقرونها بشدة. والشخصية الأمريكية

الرفيعة التى يسألها عن أوروبا تجيبه: "إن سياستنا إزاء أوروبا هى سياسة اللامبالاة، يشوبها قدر طفيف إن شئت أن أكون صريحًا معك، من بعض الازدراء." ويعلق تارديو: "من المستحيل التعبير بصورة أدق عن عقلية رجال السياسة فيما وراء البحار إزاء العالم القديم(١٤)". هذا الازدراء الموزع بصورة عادلة، وهذا التهديد المسلط جماعيًا فوق العالم القديم هى من الأسباب الكافية – فى نظر الفرنسيين – للمطالبة بهجوم مضاد متحد. يكتب هوريه فى عام ١٩٠٤: "تعلمون أن أمريكا تتهيأ للصراع الاقتصادى الكبير الذى يجب أن ينفجر ذات يوم بين القارة القديمة والقارة الجديدة. [...] وأمريكا تتسلح، وتبنى البوارج، وتزيد فى البناء دون نهاية. فى الواقع إن اليانكيه ليس رجلاً يهتم بالعقبة؛ فلا قيمة بالنسبة له كما هو الأمر بالنسبة للإنجليزى، إلا للقوة. وسنشهد آنذاك أروع مبارزة شهدتها الأرض؛ لأن الكوكب له حدود... إن موقع سان فرنسيسكو على مسافة خمسة عشر يوما بالبحر من يوكوهاما وعشرين يومًا من بكين يعطى الولايات المتحدة تقدمًا هائلاً على أوروبا. وعندما يصير الأطلسى من جانب والمحيط الهادئ من جانب آخر بحيرات أمريكية تمخرها سفن بخارية محشوة بالبضائع الرخيصة وبسفن حربية مجهزة بالمدافع، فما الذى ستصير إليه أوروبا المجزأة أمام هذا الغول الواقعى؟"(١٥).

أوروبا مرة أخرى ودومًا... هذه اللوحة الجغرافية السياسية التجارية، المرسومة فى أحد أقلّ الكتب جدالاً فى تلك الحقبة، تعكس إدراكًا يشترك فيه مواطنوه إلى درجة يكاد يعتذر معها جول هوريه من ابتذال حديثه، والأطروحة المستفزة التى دافع عنها فى عام ١٨٨٨ هنرى دو بومون كانت قد دخلت بعد خمسة عشر عامًا قاموس الأفكار المسبقة.

وإذ يزفر أسفه لرؤية "أوروبا مجزأة"، فإن مبعوث الفيجارو على اتفاق فى الواقع مع النزعة الأوروبية العفوية التى تتلون بها نزعة معاصريه فى معاداة أمريكا. واللحظة ملائمة؛ فبريطانيا العظمى حليفتنا بصورة ودية، وكثير من المثقفين يأملون حلاً سلميًا للنزاعات مع ألمانيا. والتقدم الملحوظ فى الانتخابات للاشتراكيين المشهورين بأنهم دوليون ومسالمون فى فرنسا وفى ألمانيا، يعطى ثقلاً لهذه الآمال. وتضيف النزعة الأوروبية المعادية لأمريكا صوتها إلى الفرقة، وكما كان بومون يقترح، وكما يصور الختام الأوروبى لمسلسل جوستاف لو روج، ربما كان تحديد عدو مشترك هو طريقة الخلاص من الخصومات القاتلة لأوروبا. تستطيع أمريكا هنا أن تلعب على الرغم منها دورًا تاريخيًا كبيرًا: دور الدافع وبالتالى الحافز لهوية أوروبية؛ لأنه إذا كانت أمريكا،

كما يشيع أكثر فأكثر، هى الأطروحة المضادة الكاملة لأوروبا؛ فبوسعها أداء خدمة لا تقدر بثمن للأوروبيين بأن توضح لهم من هم.

فى بداية القرن العشرين هذه، يبدو واضحًا قرن الدفاع عن فرنسا والدفاع عن أوروبا ضد أمريكا ذات الفكين القويين. لم ينس أحد كلمة فيكتور هوجو: "فرنسا هى أوروبا". وفى نظر هؤلاء الفرنسيين ستكون أوروبا ابنة فرنسا. ومن ثم فهم لا يعانون أية صعوبة فى جعل وعيهم القومى بـ"خطر" أمريكى هما أوروبيًا. تبقى الوقائع، وهى عنيدة، التى يذكرها الواقعى بومون: لا يزال يُعتبر نسيان الشتائم بين فرنسا وألمانيا حتى عام ١٩١٨ أمنية عسيرة التحقيق. كذلك، وحتى سنة ١٩١٨، يبقى النداء لأوروبا معادية لأمريكا رقية استعطافية بدلاً من أن يكون صرخة حقيقية للمِّ الشعث. وسيتوجب خراب الحرب الكبرى كى يتخذ هذا اللجوء إلى أوروبا المرسوم بلاغيًا بصورة إجمالية شكلاً أكثر عيانية وأكثر قصدية وأكثر نضالية.

انتهت أوروبا *Finis Europae*

"أتساءل إذا كان كل ذلك - أوروبا - لن ينتهى إلى جنون أو إلى ارتخاء عام. "عند الضربة الرابعة"- ستكون على وجه الدقة... نهاية عالم"[١٦]. تعود هذه الملاحظة فى دفاتر فاليرى إلى عام ١٩٣٩، بعد عشرين سنة من ظهور "أزمة العقل"، لكن العد العكسى بالنسبة لفاليرى بدأ كما نعلم باكرًا جدًا: حتى قبل المجزرة الكبرى للحرب العالمية، فى نهاية القرن التاسع عشر هذه؛ حيث كان بومون يرى منذئذ تدهور نجم أوروبا. وإذ يذكر هذه الساعة القريبة ربما؛ حيث "يمكن أن تكف الأمم القديمة، وقد هجرت متأخرة خصوماتها عن الشجار حول السيطرة التى لن يكون لها أية قيمة"، ينهى بومون مقاله فى مجلة الاقتصاديين بخاتمة أدبية ذات طابع فاليرى: إن لم نتصرف، "فإننا لن نورث أحفادنا إلا الواجب الحزين بالهمس: انتهت أوروبا"[١٧].

إن وسواس نهاية أوروبا الذى يجرى فى كل أعمال فاليرى يندرج وفقًا لهذا التوبيخ. إنه يمدّ جذوره فى الأرض الكئيبة لنهاية قرن مسكونة بأشرار الملائكة: شك، تدهور، انحلال. تؤكد أوروبا المدمرة فى عام ١٩١٩ بحدة مأساوية حدسًا داخليًا يفاقم منه من الآن فصاعدًا شعور بالذنب وحس بعدم المسئولية. يستخلص فاليرى الدرس من ذلك فى "أزمة العقل": "نحن الحضارات، نعرف الآن أننا إلى زوال."أو بالأحرى: (We civilization now know that we are mortal...)؛ لأن هذا النص الشهير - هل هو رمز؟ - كان قد ظهر بالإنجليزية[١٨].

سيطوف هذا النواح العالم. وفى فرنسا ذاتها، سوف يكسو بالأعصاب خلال سنوات الإقرارات بالنقص أو بالعجز الأشد تنوعًا. ليس فاليرى أول ولا آخر من يعلن لأوروبا انمحاءها، لكنه يمنح الفكرة شكلاً وسلطة لا يقارنان[19]. كل الخطاب المعادى لأمريكا فيما بين الحربين يحمل علامتها بصورة صريحة أو مضمرة - بدءًا من الكتاب المرجع لأندريه سيجفريد، الولايات المتحدة اليوم، الذى تعارض خاتمته "الحضارة الأوروبية والحضارة الأمريكية" كى يتوقع، فى نهاية الحساب، الانمحاء التاريخى للأولى أمام الثانية. لم يتوجب على فاليرى حتى أن ينزل إلى ساحة الجدال المعادى لأمريكا كى يمارس فيها تأثيره. لا شىء يمكن أن يثير النفور من الحضارة الأمريكية المزعومة أكثر من فكرة بقائها بعد حضارتنا: بهذا المعنى فإن المهاترات التى تكاثرت فى سنوات الثلاثين ضد هذه "الحضارة المزيفة" مدينة كثيرًا فى شراستها للخبر السيئ الذى حمله فاليرى.

لم يكن قراء "أزمة العقل" الذين يتأملون فى هذا النص ونظرهم متجه نحو أمريكا يعرفون بعد فى عام ١٩١٩ إلى أى حد هم على حق. قلنا من قبل إن فاليرى لن يكشف إلا فى عام ١٩٣١ عن سر هذا الأصل: لم تولد فيه فكرة أوروبا، أوروبا الهشة، من منظر الأنقاض التى خلفتها الحرب الكبرى، بل من "الصدمة غير المتوقعة" لحروب ١٨٩٥ و١٨٩٨. قبل هذه الحقبة، كما يكتب فاليرى، "لم يسبق لى أبدا أن حلمت بوجود أوروبا بصورة حقيقية. هذا الاسم لم يكن إلا تعبيرًا جغرافيًا"[20]. استعادة غريبة لكلمة مترنيخ: "ليست إيطاليا إلا تعبيرًا جغرافيا"؛ لأنه إذا كان رئيس الوزراء النمساوى يريد أن ينكر على إيطاليا كل واقع قومى، فإن إيطاليا قد تحققت على الرغم منه. يتمنى فاليرى دون شك أن تكذب أوروبا كذلك النبوءات السلبية، ومع ذلك فهو يكثر منها كما لو أنه عاجز عن الاعتقاد بأوروبا هذه التى تكشفت له فى شكل رضة.

ولدت أوروبا فاليرى وهى مهزومة - مهزومة بفعل لا- أوروبا. كان هذان النزاعان المحدودان إذن نذيرين خطيرين. إشارتان سوداوان تبشران بالجانب الأشد تعذيبًا على المستوى المعنوى للحرب العالمية: فـ"لجوء الطرفين اليائس إلى غير الأوروبيين، الذى يشبه اللجوء إلى الأجنبى الذى يلاحظ فى الحروب الأهلية"[21]. خطوة قاتلة، كما يشير فى اللحظة نفسها دوهاميل فى محاضرة نشرت تحت عنوان "محادثة حول العقل الأوروبى". "لقد أضعفت حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ بصورة خطيرة سلطة أوروبا" كما يشرح لمستمعين من المعلمين؛ لأن "المساعدين فى كل المستعمرات" لم يعودوا يعترفون بـ"نصف الإله الجذاب والرهيب"[22]. (إنه "الرجل الأبيض" الذى يعنيه.) لم تخلف أوروبا الموتى بالملايين فى وحل الخنادق فحسب، بل خلفت كذلك نفوذها. لقد أضاعت فيها

تأثيرها على عقل المستعمَرين. إن "كنز" الحضارة الأوروبية مهدد إذن، والذين يعتمد عليهم للدفاع عنها بدعم أمريكا، ينخدعون بصورة غريبة: "بدلاً من أن يخفف تطور هذا البلد العظيم من تهديدات العدو فهو ينضاف إليها."لا لأن حماسه لصالحنا يظل بحاجة إلى برهان فحسب، بل كذلك لأن "الحضارة الآلية والصناعية، بتطورها حتى الحدود القصوى وخاصة فى أمريكا الشمالية [هى] فى طريقها للسير نحو وحشية جديدة"(٢٣). ليس دوهاميل الوحيد فيما بين الحربين الذى تبرز لديه ثيمة التواطؤ بين "الوحشية" الأمريكية ووحشية العروق غير البيضاء؛ فسوف نجدها ساخطة لدى أندريه سواريس. قبل ثلاث سنوات من رحلته إلى الولايات المتحدة، كان دوهاميل يصف، على هدى فاليرى تماماً، أوروبا تنوء بأخطائها، مهددة من جهة من قبل المتوحشين ذوى العيون الجافة، ومن جهة أخرى من قبل برابرة "حضارة الآلات" الجدد.

حين يتقاتل "مجلس الشيوخ" الأوروبى كما كان رينان يقول، فهو يسلم أوروبا لـ"الأجنبى". وهؤلاء الأجانب من الغرب ومن الشرق ومن أمكنة أخرى، "دعتهم" القوى الأوروبية إلى ميدان القتال فى ١٩١٤ - ١٩١٨، موقعين بذلك على الانحلال الذى بلَّغَ لهم فى عامى ١٨٩٥ و١٨٩٨ حين دعا اليابانيون والأمريكيون أنفسهم على مائدة التاريخ العالمى. وبينما يكرس دوهاميل طاقته فى سنوات ١٩٣٠ لمهاجمة حضارة "الرقيق" التى تهدد الثقافة الأوروبية، لا يكف فاليرى أبداً عن التنبؤ بالقضاء على "أوروبا"، ثمرة ولدت ميتة من وعى بلا غد. إن اللحن الجنائزى الذى تمثله "أزمة العقل" ليس بهذا المعنى إلا أول فصل فى سلسلة من إعلانات الوفاة المودعة فى الدفاتر، بانتظار "الضربة الرابعة" المداهمة منذ وقت طويل. حتى هذه السطور المؤرخة فى ١٩٤٥: "أنهت أوروبا سيرتها المهنية. انظر خارطة العالم: ١٩٤٥ - ١٨١٥ = ١٣٠(٢٤)". طريقة غريبة فى تسجيل هزيمة النازية، وعلى شاهدة قبر أوروبا،لا ينقش فاليرى سوى عملية طرح.

خط سيجفريد، جنون سواريس

قرع فاليرى إذن من ١٩١٩ إلى ١٩٤٥ دون كلل جرس أوروبا، لكن كثيراً من قرائه فى سنوات ١٩٢٠، استمعوا إلى هذا الجرس على أنه ناقوس خطر. وعلى الرغم منه(٢٥)، أسهم فاليرى إذن مع كل نفوذه فى الاستنفار ضد أمريكا هذه التى ستدخل المهنة حين ستتوارى أختها الكبرى. إن ما كان فاليرى قد تركه بين السطور: إحلال هذه القوة الجديدة محل القوة الباطلة للأوروبيين يصير الخط الهادى لسلسلة من

المقالات المكتوبة ضمن خط "أزمة العقل"، ولكن كذلك كرد فعل ضد الخضوع الكئيب الذى يمكن أن يعتبر استسلاماً. وشاهدة لقبر أوروبا المشرفة على الموت تستخدم أيضاً كاستشهاد غريب لكل الأدب المعادى لأمريكا الذى يتحمل عبء التشاؤم التاريخى دون أن يقبل الحكم المُسرِّح.

نصان، ظهرا بفاصل سنة بينهما، فى عامى ١٩٢٦ و١٩٢٧، يوضحان هذا الأصل المزدوج الفاليرى: الأول هو بحث قصير لأندريه سواريس: "المبدأ الأوروبى منظوراً له من أوروبا"، والثانى، كتاب سرعان ما صار كلاسيكيًا لأندريه سيجفريد، الولايات المتحدة اليوم. مناظرات عنيفة من جهة، ومجمل تربوى من جهة أخرى: يبدو العملان لا ينطويان على أى شىء مشترك ـ ولا حتى فى موضوعهما، لكن أوروبا سواريس هى مضادة لأمريكا، وولايات سيجفريد المتحدة تقدم أولاً كموزاييك أوروبى، وتُعَرَّفُ فى نهاية التحليل بوصفها لا ـ أوروبا. ويتحاور كل منهما مع "أزمة العقل"، يستخلص منه سيجفريد وسواريس بطرق متناقضة الدروس الأمريكية.

الدين شديد الوضوح لدى سيجفريد الذى سيكتب فيما بعد (فى عام ١٩٣٥) كتابًا ذا عنوان ***فاليرىّ صريح هو أزمة أوروبا***. إذا كان كتاب ***الولايات المتحدة اليوم***، المنشور فى عام ١٩٢٧ يتقدم قبل كل شىء بوصفه خلاصة لمعطيات سكانية واقتصادية واجتماعية، فلا يفوت سيجفريد مع ذلك أن يعطى لكتابه خاتمة "فلسفية". ينتهى الكتاب فى الواقع بإقرار خصومة تاريخية لدودة بين القارتين، خصومة مفكَّرة عبر مقولة "الحضارة"، التى ينازع عليها المؤرخُ الفيلسوفَ. ويوجه الفصل الأخير المعنون بـ"حضارة أوروبية وحضارة أمريكية" إلى قارئ عام ١٩٢٧ بعض الحقائق القاسية. وقبل كل شىء هذه الحقيقة: "إن الحضارة القديمة لأوروبا لم تعبر، ويجب أن نعى ذلك، المحيط الأطلسى(٢٦)". هذه الجملة البسيطة هى ثورة صغيرة. لقد اكتفى ناقدو أمريكا حتى ذلك الحين بإقرار (والأسف على) التخلى التدريجى والسريع من قبل أمريكا الشمالية عن العادات والمؤسسات وطرق التفكير التى تربطها إلى العالم القديم. كان بول دو روزييه قد كرس مدخل كتابه ***الحياة الأمريكية*** للتعليق على هذا الانفصال التدريجى ولاقتراح تأريخ له. كتب آنذاك: "خلال قرون ثلاثة، اعتبرت أمريكا بوصفها ضربًا من ملحقات أوروبا"، وكانت حرب الاستقلال "بنوع ما أول طور لزوال الوهم الذى لم يكن قريباً من الانتهاء". ويختتم روزييه (فى عام ١٨٩٢): "اليوم، نشهد الطور الثانى لزوال الوهم؛ فليس لأمريكا وجود خاص فحسب، لكنها تصير فى نظر العالم القديم خصمًا رهيباً"(٢٧). يقيم أندريه سيجفريد قطيعة مع حكاية الانفصال هذه: إن الولايات

المتحدة لا تجحد الحضارة الأوروبية، إنها لم تتسلمها على الإطلاق. هذا يعنى كنس آخر أوهام أولئك الذين يتعلقون شأن فاليرى (لكن هل هو فاليرى ١٨٩٨ أو ١٩٣١؟)، بفكرة أن الولايات المتحدة هى "بلد منحدر من أوروبا". يشير سيجفريد: ليس هناك ما هو أكثر زيفًا؛ فالشعب الأمريكى لم يقطع حبال السفن، إنه بلا ارتباط، إنه "فى طريقه إلى إيجاد مجتمع جديد كليًا، ينزع شبهه بمجتمعنا إلى ألا يكون إلا سطحيًا". وهذا "الإيجاد" على وجه الدقة هو الذى يحمل على توقع تهميشنا وانمحائنا التاريخى، "بل وربما كان المقصود عصرًا جديدًا للإنسانية يخلف أوروبا التى لم تعد محركته فى التاريخ مع مثل أعلى ينتمى إلى الماضى"، لأن "أوروبا وأمريكا تنزعان إلى الابتعاد الآن فى سلّم قيمهما" والحرب قد "أينعت هذا التضاد"(٢٨). أمريكا الرفاه (رفاه لم يكن سيجفريد قبل سنتين من الخميس الأسود عام ١٩٢٩ يشك فيه) تعارضُ أوروبا "بلد الفقراء". لكن هل تريد أوروبا هذه المسبوقة فى السباق إلى الرفاه أن تدفع نفس الثمن "شبه المأساوى"، الذى سددته أمريكا: التضحية بالفرد على مذبح التآلية؟ سؤال بلاغى بالطبع، لو كان المقصود بين أوروبا وأمريكا، كما يقترح سيجفريد كى يختتم، وجود"تعارض بين عصرين متتابعين لإنسانيتنا الغربية"(٢٩).

ليست الكلمة الأخيرة المفاجئة الأقل إقلاقًا بالنسبة لـ"الحضارة الأوروبية": "يتوسع النقاش ليصير حوارًا بين فورد وغاندى". خاتمة غريبة، موضوع جميل للرشم: "إن طريقة الإنتاج الأمريكى تتحاور مع طريقة الإنتاج الآسيوى". وعلى القارئ أن يقرر إن كان يريد أن يرى فى ذلك مجازًا أو لوحة تاريخية. فما الأدهش على كل حال، وما الأكثر فصاحة للمخيلة القلقة للفرنسيين من أوروبا الخرساء هذه، وقد تقلصت إلى الانبساط دون حراك فى حين يتفاوض بعلم من فوق رأسها الشرق الأقصى والغرب الأقصى؟

يتحدث المؤرخ أندريه سيجفريد عن انحطاط مكشوف البصيرة. أما الباحث والناقد أندريه سواريس فيتحدث عن انحطاط فتاك، ثم إن مجلة ***الأحياء La revue des vivants*** هى التى نشرت فى عام ١٩٢٨ مقتطفات من مذكرة دفاعه المعادية لأمريكا. يستطيع الموت أن ينتظر و"المبدأ الأوروبى" هو كل شىء لكنه ليس واهنًا. فى شخصية سواريس نبى ماجن. هذا القريب من بيجى، وهذا الصديق لموريس بوتشر ورومان رولان يحب النفوس القوية والكتابة الحاسمة. يحفل عمله المصنف بوصفه "بيزنطيًا" من قبل باندا بالألق وباللمعان. لا يرقّ سواريس ولا ينوح: فعنف نصه يخلصه من الحرج، حتى فى سنّ المبالغة المنتظمة فى النقد اللاذع.

يجد أندريه سواريس نفسه المنبئ عن أوروبا شأن فاليرى عاكفًا على الكرة الأرضية. "من ينظر إلى الخريطة بعناية يكتشف تاريخ أوروبا. ما هى أوروبا إذن، جزيرة لآسيا، سهم من الأرض قذف به فى المحيطات، إن لم يكن نجمة للغرب بأربعة رءوس؟" من الصعب ألا نفكر بالمسألة المركزية لكتاب "أزمة العقل": "هل ستصير أوروبا ما هى عليه فى الواقع، أى: رأسًا صغيرًا للقارة الآسيوية[٢٠]؟" دائمًا هذا الرأس، هذه الجزيرة التى تنزع أوروبا الجديدة إلى أن تصيرها. دائمًا آسيا، التى يبدو أنه لم يعد ممكنًا تجاهلها عند الحديث عن أمريكا، لكن سواريس يتمسك بفاليرى بحبال أخرى. إنه طفل نفس نهاية القرن، ووساوسه ولدت من نفس ضربات المدافع. هو أيضًا الابن الروحى لـ١٨٩٥ و١٨٩٨، وللخطر الأصفر وللإرهاب اليانكى. لا يعود عنف بحثه إلى شخصه كمقاتل مناظر فحسب، ولا إلى شخصية المجازف التى كونها عن نفسه (بدأت روايته *رحلة المجازف* فى الظهور اعتبارًا من عام ١٩١٠). إنها تنتج أيضًا من تنضيد حقبتين، ومن مراكمة غضبين شديدين معاديين لأمريكا، غضب نهاية القرن وغضب سنوات العشرينيات: إنه سخط عنيف يطلقه سواريس فيما بين الحربين. يعود المشروع إلى القرن الماضى كما تشهد على ذلك المراسلات وأول نسخة للنص محفوظة فى صندوق دوسيه Doucet[٢١]، والمصدر هو على وجه الدقة ذاته لدى فاليرى: دوما وأيضًا صدمة "كوبا". يحتفظ نص ١٩٢٨ بالعديد من آثار هذا الأصل البعيد بدءًا بهوس مذهب مونروى [كذا] الذى ينتمى إلى عام ١٨٩٠ أكثر من انتمائه إلى سنوات ١٩٢٠، حتى إذا حاول سواريس تكييف مرجعه مع المعطى الجديد الانعزالى: "لقد استخدمت أمريكا مبدأ مونرو حسب حاجاتها. وهى تطالب من الآن فصاعدًا ألا يكون لأوروبا أى حصة فى شئونها؛ وهى تريد أن تكون الحَكَمَ الوحيد، وهى تتنصل من أى تعاون ودى، وتتجاهل كل سلطة، وكل محكمة دولية." يستخلص سواريس خط السلوك الوحيد الممكن للأوروبيين: الدفاع الذاتى بواسطة الهجوم المضاد. الصمود فى وجه اليانكيين هو فى قلب "المبدأ الأوروبى": وفى الواقع فهو يحدده. "إن واجب وضرورة تحريم العالم القديم بالنسبة لأوروبا على السياسة والروح الأمريكية، هو ذا أساس وأول استخدام للمبدأ الأوروبى[٢٢]". يستدعى "مبدأ مونرو" جوابًا ومقابلة بالمثل: "إننى ضد مبدأ مونرو ونتائجه القاتلة إنما أرفع المبدأ الأوروبى"؛ وكذلك: "حان الوقت إذن لمبدأ معاكس يعترض شرعًا على أن يكون لأمريكا أية حصة مهما كانت صغيرة فى الشئون الأوروبية، من أفريقيا إلى آسيا[٢٣]". إن "مبدأ سواريس" وقد حدد على هذا النحو لا يقتصر على تحريم أوروبا على التدخلات الأمريكية، بل على إغلاق المداخل إلى القارات

الأخرى، هذه المحميات الخاصة بأوروبا الاستعمارية. برنامج واسع، وشديد التفاؤل بقدر ما إن تأمل فاليرى يمكن أن يبدو متشائمًا...

وشأن آخرين غيره من قبله (دومولان وهو يعتبر الألمان أقل خطرًا من الأنجلو ساكسونيين) وبعده (آرون وданديو وهما يقدمان الألمان كضحايا، هم أيضًا، للأمركة)، يطلب سواريس إلى الفرنسيين ألا ينخدعوا بالهدف. فالعدو، رغم المظاهر، ليس الألماني، بل "الجرذ الرمادى" الأمريكي. وهذا الجرذ، يلاحقه بكراهية لاهثة تجعل تركيب جملته يحزق. تلقى هذه الملاحظة من عام ١٩١١، والتى كتبت بعد أن التقى الأمريكيين فى بروتانى، ضوءًا على قدر من الجلاء على الكيمياء العنصرية الغريبة التى تجعل آلات تقطيره تغلى: "بؤساء هم اليانكيون... حتى فى لهجتهم الصادرة من أنوفهم وفى نبرة الضحك التى تؤهلهم للاتحاد مع الصينيين للاستحواذ على العالم... مع الصينيين سيؤلفون العرق الرمادى، عرق المال المستهلك، حزمة البضائع، الأسهم، الغرق الإيجابى [...] الاسم، المبدع الفنى، العبقرية، الإلهى، هذا كثير. هؤلاء اليانكيون المساكين لا يفهمون شيئًا، ويدينون كل شيء تقريبًا. [...] إن الأتراك والصينيين وحتى الزنوج سيدخلون إلى بيتى لو كان عندى مزرعة، لكن اليانكيين لن يدخلوا: وبضربة السوط أصرخ بهم، اخرجوا من هنا...(٣٤)" إن المجازف سيتصرف بلا مراعاة؛ فمعاداة أمريكا والتعصب القومى العنصرى يتساكنان هنا، وسنرى فى فصل "العالمية Cosmopolis" أن سواريس ليس الوحيد الذى يؤالف بينهما.

يمكن لبحث "مقال فى المبدأ الأوروبى" أن يُقرأ كتصفح لعصرين من نزعة معاداة أمريكا الفرنسية. لدى الطبقة غير المعاصرة: تعريف العقل الأوروبى بوصفه "عقلاً كلاسيكيًا" (وتعريف العقل الأمريكى بوصفه "عكس العقل الكلاسيكى")؛ اليقين المصرح به عاليًا بأن زعم الأمريكيين "أن يكونوا أول شعب فى العالم ليس قائمًا على شيء، ولا حتى فى الميكانيك"، الإيمان القوى بمصائر فرنسا، الموضوعة فى مركز "نجمة الغرب ذات الرءوس الأربعة" ومن حولها "تنتظم" الشعوب المجاورة؛ وبإيجاز، أساطير هائلة أو دراميات ثقافية لا تزال مطبوعة بضروب اليقين المطمئنة الخاصة بالقرن السابق. نُقضَت ضروب اليقين هذه مع ذلك فى الصفحات ذاتها بالشعور الجديد بهشاشة العقل فى نضاله المانوى ضد القوة المادية. يخترق النضالَ شكوكٌ وضروبٌ من الضعف. تسخط اللهجة فى حين يتجهم الإقرار. التحذيرات المضادة للمادية، رفض "المادة المدسوسة فى نظام الصناعة وفى نظام الأخلاق الذى ينزع إلى السيطرة على العالم"، النداء الملح "للقوى الروحية" التى "يجلها" الأوروبى "حتى عندما

ينكرها"، تعريف أمريكا ذاته - "أمريكا هى الآلة": كل ذلك ينتمى فعلاً لما بين الحربين، وسواريس وهو يتابع أمريكا بغيظ قديم يؤكد نفسه أيضًا بوصفه رائد النقد اللاذع المجروح للنزعة اللا - امتثالية.

من فاليرى إلى سواريس وسيجفريد، وفيما وراء اختلاف المشاريع والطرق، رُبطت نَسَبيًا فكرة عن تدهور وانمحاء أوروبا بفكرة بروز أمريكا بوصفها تهديدًا. والسيناريو الأساسى هو ذاته: إنه يقيم فى وجه أوروبا وضد أوروبا شعوبًا حديثة العهد، تطرق بإلحاح أبواب التاريخ. يقارب فاليرى بمفردات منقحة البروزين فى ١٨٩٥ و١٨٩٨. يختتم سيجفريد تأمله بمجاز أوروبا مضطربة، مرغمة على الصمت، مستبعدة من حوار الحضارات الذى بدأ بين أمريكا وآسيا، لكن سواريس لا يتردد ويلقى بالكلمة التى يتحاشوها. إن ما تُهدِّدُ به أوروبا هو تواطؤ البرابرة: "يقوم المبدأ الأوروبى على الدفاع عن ضمير وواقع أوروبا ضد ما ليس هو الروح، والشعور والنظام الأوروبى: ضد البرابرة، ضد آسيا، ضد السود والصفر دون شك، ولكن أولاً ضد شمال أمريكا." هكذا تقال الأمور بوضوح. ويضيف باتجاه زملائه شديدى الحياء: "إنكار وجود البرابرة لعبة سخيفة [...] تبدو أمريكا الشمالية لكثير من الناس القطب المقابل المرئى لكل البربرية، وهى مع ذلك أمل البرابرة ونموذجهم(٣٥)". سيكون ذلك أيضًا، حرفيًا، رأى آرون ودانديو.

سواريس أوروبى مبالغ فيه، وكاتب متوحد، وقناص للأدب؛ فاحتداد بلاغته المعادية لأمريكا لا يلزم سواه. ليس من الصعب مع ذلك التعرف تحت اللهجة الهائجة لنزعته فى معاداة أمريكا نفس وسواس اختفاء أوروبا الذى يعرضه فاليرى أو سيجفريد بطريقة أكثر تهذيبًا. وليس سواريس الوحيد كما سنرى الذى يسخط لديه نواح أوروبا، لازمة ما بين الحربين هذه، بوصفه لعنة ضد البربرية - مفهوم مريح يسمح بالجمع فى المقت السود والصفر واليانكيين. وحين يكتب عالم الإنسانيات دوهاميل: "يجد غربيٌ راشدٌ، طبيعيٌ ومثقفٌ، نفسه أقل غربة لدى سكان الكهوف فى ماتماتا منه فى بعض شوارع شيكاغو"(٣٦)، فلا يقول شيئًا آخر غير ما يقوله اللاعن سواريس، إنه يقوله فقط بطريقة أكثر دهاء.

وحدة شعوب أوروبا ضد أمريكا كلها

لأوروبا كمشروع دفاعى عن الحضارة فى سنوات العشرينيات مدافعين آخرين، أقل احتدامًا ويريدون أن يكونوا بنائين أكثر، لا يبتعد منطقهم عن منطق المجازف،

لكنهم يفضلون على التعنيف التنظيمَ، والمفاوضةَ، والاقتراح. محاولات الجواب الأوروبى هذه على الأزمة المادية والأخلاقية لأوروبا لا تعلن معاداة لأمريكا هجومية؛ ومع ذلك فإنه شبح الهيمنة الأمريكية هو الذى تحاول هى الأخرى طرده بدعوتها إلى الولايات المتحدة الأوروبية.

إن الأكثر دلالة من هذه المشاريع بمطامحه مثلما هو الأمر بالمساعدات الشهيرة التى يستثيرها، هو مشروع وحدة شعوب أوروبا Pan-Europa لكودنهوف ـ كالرجى Coudenhove-Kalergi. لقد أطلقت – وهى المثالية بقدر من الذرائعية – فكرة جواب فدرالى أوروبى على التحدى الأمريكى. وغداة المجزرة الأوروبية، أعيد طرح السؤال الذى كان هنرى دو بومون قد طرحه فى عام ١٨٨٨ على الملأ أمام أنقاض أوروبا الجريحة، لكنه طرحه أعيد بقدر أكثر من الدقة والدبلوماسية. وماذا إذا كان سلام فرنسا فى مواجهة "الغول الواقعى" يمر بوحدة الشعوب الأوروبية الخاصة بالمثاليين؟ إن المشروع الفدرالى أبعد من أن يكون جديدًا فى أوروبا، لكن النكبات الأخيرة تمنحه قوة جديدة؛ فأنصاره يسرعون فى التجمع وفى التصرف. وسوف يتيح لهم ريشار دو كودنهوف ـ كالرجى الفرصة.

نشر كودنهوف ـ كالرجى وهو مواطن تشيكى وكونت متجول فى عام ١٩٢٣ "بيان وحدة شعوب أوروبا". إنه يطرى فيه "الاتحاد السياسى والاقتصادى لكل الدول الأوروبية من بولونيا إلى البرتغال"، وهو مشروع اتحاد فدرالى على ثلاث مراحل: تحكيم وضمان؛ اتحاد جمركى ونقدى، برلمان فوق قومى (لا يحلّ محلّ المؤسسات القومية). يندرج كودنهوف ـ كالرجى "ضمن سلسلة من الحالمين" تمتد من هوميروس، مشاركة بجذل فى المشروع الوحدوى الأوروبى لفيكتور هوجو صاحب رؤية أوروبا المتصالحة والمجتمعة[٣٧]، لكن حلمه يقوم على حجج ولن يبقى مشروعه بلا صدى.

يترك مشروعه خارج أوروبا الاتحاد السوفياتى الذى يبدو له أنّ نظامه السياسى يستبعده من هذه المجموعة المحتملة، كما أنه يترك بريطانيا العظمى فى غياهب الاتحاد[٣٨]؛ فهى شديدة الطابع "الإمبراطورى" كما يوحى البيان، إلا أنه يسعنا أن نقرأ عبر السطور أيضًا: شديدة الطابع الأنجلو ساكسونى وقريبة من الولايات المتحدة. تلقى البيان فى عام ١٩٢٤ قبول المحافظين باعتباره يبدو معاديًا للشيوعية بجلاء، لكنه يهم ويجتذب أيضًا رجال السلام، المعتبرين من اليسار، كارستيد بريان وإدوار هوريو فى فرنسا، أو الشاب كونراد أديناور فى ألمانيا فايمار. يريد المشروع بالمعنى الثقافى المحض أن يكون فى آن واحد معاد للقومية ومعاد للأممية، هل هو معاد لأمريكا؟

يتلافى نص البيان كل هجوم صريح، بل يبدو أنه يتبنى الثيمة الهوجوية القديمة عن النموذج الفدرالى الأمريكي: "إن تتويج الجهود الوحدوية الأوروبية سيكون إنشاء الولايات المتحدة الأوروبية، على نموذج الولايات المتحدة الأمريكية." يستعيد كودنهوف ـ كالرجى لحسابه وهو يصل من جديد سلسلة الآمال المحطمة، النبوءة الموجهة من قبل هوجو غداة الحرب الفرنسية البروسية، ومن مقره فى هوتفيل هاوس Hauteville-House، إلى مؤتمر السلام فى لوجانو Lugano": سيكون لنا الولايات المتحدة الأوروبية التى ستتوج العالم القديم مثلما تتوج الولايات المتحدة الأمريكية العالم الجديد(٣٩)". لكن إذا برز المثل الأعلى الهوجوى من جديد على السطح، فمن خلال نسخة محوَّرة؛ إذ مهما أكثر البيان من الغموض بمناسبة المرجع الأمريكى، فإن خطته موجهة بوضوح ضد الولايات المتحدة الأمريكية أو على كل حال ضد الهيمنة الأمريكية. ولو أنعمنا النظر عن كثب لوجدنا أن كودنهوف ـ كالرجى لا يقارن بالولايات المتحدة "أوروبا المتحدة" التى يتمناها. فالمقايسة التى يقيمها هى بين وحدة شعوب أوروبا ووحدة شعوب أمريكا: وحدة شعوب أوروبا هذه على الصعيد القارى التى تجهد فى بنائها منذ سنوات ١٨٨٠ الحكومات المتعاقبة فى واشنطن. والولايات المتحدة الأمريكية ليست فى هذا الكيان قيد البناء إلا "القوة الأولى" التى تقع على عاتقها مبادرة الاتحاد، شأن فرنسا، وهى أول قوة أوروبية، التى يسعها "أخذ زمام المبادرة فى عملية التوحيد". هذا يعنى بجلاء شديد وضع المشروع فى ظرف مباراة ولا شك، ولكن بوجه خاص فى منافسة بين قارة وقارة.

وإذا كانت الرسالة ضمنية فى هذه المقايسة فهى تصير صريحة حين يعدد البيان "الامتيازات" التى سيجدها الأوروبيون فى هذا الاتحاد الفدرالى، فخامس وآخر هذه الامتيازات يتمثل فى "إمكان دعم منافسة الصناعات الأمريكية والبريطانية وفيما بعد صناعات الشرق الأقصى وروسيا". ويُعَدُّ معاداة المشروع لأمريكا أكثر وضوحاً فى المقطع الذى يحلل فيه كودنهوف ـ كالرجى النتائج الوخيمة لاحتمال فشل التوحيد الأوروبى. يكتب أن "متابعة السياسة الحالية لأوروبا" ستؤدى حتمًا إلى "التدخل المستمر السياسى العسكرى للقوى الخارجية على أوروبا فى قضايا أوروبا"، من جهة، وإلى "العجز عن دعم منافسة الصناعة الأنجلو ساكسونية، وإلى الإفلاس، وإلى العبودية الاقتصادية"، من جهة أخرى. تدخُّلٌ عسكرى "خارجى على أوروبا"، واستعباد اقتصادى ـ مالى: لا حاجة لأن يكون المرء مثقفًا كبيرًا ليضع اسمًا على البلد الوحيد المحتمل والقادر على إخضاع أوروبا القديمة على هذا النحو.

يعرف كودنهوف ـ كالرجي أن يكون أشد وضوحاً أيضًا؛ فهو يضيف إلى نص البيان الفصيح فى حد ذاته ضرباً من ملحق وصية للاستخدام الفرنسى: "رسالة[ـه] المفتوحة لأعضاء البرلمان الفرنسيين" فى يونيو ١٩٢٤، التى تعول على الرفض المزدوج للاتحاد السوفياتى وللأنجلو ساكسونيين، ويشير إلى أن ثلاث قوى تضغط بتهديد مباشر على أوروبا وعلى سيادتها: الاتحاد السوفياتى والإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة. مثل هذا التقديم للمشروع هو شكل من اللوبى الفعال قرب الطبقة السياسية والصحافة الفرنسية. وتقع فكرة رد أوروبى على الضغوط الأمريكية على أرض خصبة سياسيًا؛ فقد أغاظ المؤتمر البحرى فى واشنطن العقول، كما أثارتها المطالبة بالديون المبرمة أثناء الصراع. وسرعان ما انطلقت حركة نشطة على أعلى مستوى سياسى بإعلان إدوار هيريو أمام المجلس انضمامه إلى فكرة الولايات المتحدة الأوروبية. وشهدنا حتى نهاية سنوات العشرينيات "تطوراً موازيًا لنزعة معاداة أمريكا وللحركة الداعية للوحدة الأوروبية"(٤٠).

بل وأكثر من السياسيين، يشهد المثقفون الفرنسيون المؤازرون لنشاط كودنهوف كالرجى الأوروبى بشخصياتهم ذاتها على عنصر معاداة أمريكا القوى فى تركيب المشروع؛ ففى حين تتسارع الترتيبات للمؤتمر الوحدوى الأوروبى عام ١٩٢٦ الذى يتوجب عليه تخصيص الحركة بهيكل دائم، كانت الانضواءات عديدة وذات دلالة. وقبل أن تجرف فى الهزيمة الكبرى لأوروبا المدموغة بالأزمة والمفسدة بالديكتاتوريات، سيتاح الوقت لحركة وحدة الشعوب الأوروبية أن تستثير اهتمامًا شديداً وانضواءات مذهلة فى صفوف الإنتلجنسيا الفرنسية. ومن بين الذين قبلوا المشاركة فى مؤتمر فيينا، نلاحظ فى المقام الأول بول فاليرى، بل كذلك بول كلوديل وجورج دوهاميل وجول رومان ولوك ديرتين ولوسيان روميه. قائمة بليغة الفصاحة؛ فهى قابلة عمليًا على أن توضع فوق قائمة الكتاب والمفكرين الفرنسيين الذين يقلقون أو يتخوفون فى ذات سنوات ١٩٢٥ ـ ١٩٣١ من أمريكا. وتحت رعاية شبح التدهور الأوروبى هذا الذى كانه بول فاليرى كان الوفد الفرنسى إلى مؤتمر فيينا يضم من مجنونى أوروبا أقل مما يضم من المهووسين بالولايات المتحدة الأمريكية.

لاشك أن كلوديل لا يمكن أن يوصم إجمالاً بمعاداة أمريكا، لكننا سنراه فيما بعد يعلق بمفردات قليلة الدبلوماسية على عادات وأعراف البلد الذى كان فيه سفيراً لفرنسا، ثم كان هناك التبادل، أول عمل كبير مسرحى له، كتب فى بوسطن، كانت ثيمته المعادية لأمريكا تدهش المعاصرين، الذين أجمعوا على اعتبار شخصية توماس بوللوك ـ ناجوار، الإنسان الذى "كل شىء يساوى كذا" فى نظره، بوصفه نمط اليانكيه(٤١). أما

بالنسبة لدورتين وروميه ودوهاميل، فقد كانوا ثلاثتهم بين ١٩٢٦ و١٩٣٠ مسهمين من المقام الأول فى المكتبة المعادية لأمريكا. وحده جول رومان يؤلف استثناءً؛ فهو باعتباره فضوليًا هو أيضًا لمعرفة الولايات المتحدة فإنه يلقى نظرة أكثر عطفًا من نظرة زملائه على بلد يبدو له فيه العيش الشعبى المشترك أحيانًا قريبًا من مثله الأعلى الإجماعى[٤٢]. ليس فى ذلك بالطبع صدفة ولا اتفاق. لقد قرأ هؤلاء الكُتّاب البيان بإمعان بل وقرأوا ما بين السطور. والاهتمام الذى يدللون عليه بمشروع كودنهوف - كالرجى لا ينفصل عن الانتباه الشكاك عمومًا أو المعادى، الذى يولونه الولايات المتحدة؛ فهم أنفسهم يقيمون بصراحة علاقة بين نضالهم الوحدوى الأوروبى وحملتهم الصليبية المعادية لأمريكا. يمهد دوهاميل لمشاهد من الحياة القادمة بمقدمة فى شكل حوار مع كورتيوس حول خلود الحضارة الأوروبية؛ وحول أوروبا أيضًا، أوروبا التى لم تصل إلى "مآل أهدافها"، إنما ينتهى كتابه وهبوطه إلى الجحيم الحديث[٤٣]. يرشح الانضمام إلى مبادئ الوحدة الأوروبية بطريقة أشد مباشرة لدى دورتين الباحث (فى بعض الملاحظات حول الولايات المتحدة الأمريكية)، وكذلك أيضًا لدى دورتين الروائى الذى تضع قصصه "الإنسان الأوروبى" فى محنة التغرب الأمريكية[٤٤].

خلال عدة سنوات، عملت حفنة من الكتاب والشعراء الذين توحدوا بوجه خاص حول رفض الأمركة المعلنة من أجل هذه الجبهة الدفاعية الأوروبية. "الخطر المشترك هو أفضل الحوافز على الاتحاد"، كما كان هنرى دو بومون يؤكد. كان ذلك يعنى دون شك إضفاء فضائل مفرطة فى الإيجابية على الخوف. كان ذلك يعنى الافتراض أنه على قدر من القوة والانتشار يخرس معه ضروب الحذر، والأحقاد - وضروبًا أخرى من الخوف. إن أوروبىّ البيان الذى كان الكونت كودنهوف - كالرجى قد أعطاه عوليس جدًا لن يجتاز سنواته العشر من المحن بنفس نجاح الأبطال اليونانيين. وبما أنها ولدت من نص، فإن الحركة تصل الذروة وتنطفئ مع نصٍ آخر؛ فوصيتها هى المذكرة التى حررها ألكسى ليجيه(Alexis Léger واسمه الشعرى سان جون بيرس)، والتى قرأها أرستيد بريان Aristid Briand فى سبتمبر ١٩٣٠ أمام جمعية الأمم ذاتها التى كانت قد دخلت طور الاحتضار. أما وقد جاء يرتبط بدبلوماسية حسنة المقاصد، لكن المياه تتسرب إليه من كل الجهات، فإن زورق الوحدة الأوروبية سيغرق مع جمعية الأمم، ولن يستطيع السباحة فقط سوى نزعة معاداة أمريكا التى أثقلته، والتى قدمت لدوهاميل مادة لنجاح كبير فى المكتبات.

كانت الفدرالية الأوروبية قد بدت لهؤلاء المثقفين أفضل إستراتيجية ضد انمحاء فرنسا والسيطرة الأمريكية على أوروبا، لكن الحساب الختامى ليس براقًا، ولم يسهم

الكتاب الذين جاءوا يكبون على مهد وحدة أوروبا إلا قليلاً فى نهاية الأمر فى الولادة العسيرة لخطة يونج Young. هذا "النغل الأمريكى"(٤٥) الذى سيثور ضده جيل كامل جديد من المعادين لأمريكا.

"استيقظى، يا أوروبا !"

إن الكتاب المشهورين والنبلاء إلى حد ما الذين انضموا إلى مشروع وحدة الشعوب الأوروبية قد حل محلهم فى الحقيقة وفى المراكز الأمامية لنزعة معاداة أمريكا جماعات أكثر جذرية. هذه الحركات والنوادى والتجمعات تلتقى حول عدد من القيم: معاداة الرأسمالية، معاداة الشيوعية، معاداة البرلمانية، "روح الثورة"، دون نسيان معاداة أمريكا الحاضرة فى نصوصهم؛ لأنها تؤلف فيها نقطة اللقاء والتثبيت. وبما أن الولايات المتحدة هى فى آن واحد الشكل المنجز للرأسمالية، والجماعية الجماهيرية على الطريقة السوفياتية، وكاريكاتير الديمقراطية الانتخابية وسنرى ذلك فيما بعد بالتفصيل بلد الثورة المضادة ذاته، فإن الوقت الذى يصرف على التشهير بها ليس وقتًا ضائعًا. أما بالنسبة للمثقفين الشباب الذين يتجسد فيهم "روح سنوات الـ ٣٠"؛ فأمريكا هى المستبعد المطلق، وإلى هذا الخوف الشديد الانتشار فى فرنسا وبين المثقفين، سيحاولون إضفاء نبرة خاصة بهم. وكان همهم الأول فى الحقيقة إعلان اختلافهم وإشهار قطيعتهم مع سابقين لهم لا يريدون أن يكونوا مدينين لهم بشىء، ولا حتى بصيغ معاداتهم لأمريكا، ومن ثم فلم يكتفوا بالحماس لمقاومة أمريكا الحقيقية فحسب، بل وربما أكثر من ذلك أيضًا "أمريكا الذهنية"؛ فقد توجب عليهم أيضًا أن يبرهنوا أنهم وحدهم يفهمون الطبيعة الحقيقية للتهديد الأمريكى.

تقدم "المجلات الشابة" فى سنوات الثلاثين إذن تشكيلة غنية بوجه خاص من الجهر بمعاداة أمريكا سواء مجلة ***Esprit*** أو ***Réaction*** أو ***Ordre Nouveau***. والكتاب الأعنف فى هذه المرحلة، السرطان الأمريكى لآرون ودانديو، ينتمى إلى هذا التيار المشار إليه بكلمة لإمانويل مونييه بوصفه "غير امتثالى". وباعتبارهما مديرين لحركة النظام الجديد التى تعتبر ذاتها شخصانية وثورية، فإن آرون ودانديو يجمعان نزعة فى معاداة أمريكا خارقة العنف ومطالبة أوروبية لا تقل قوة، لكنها معادية بعنف للاتجاه الفدرالى وكذلك لسياسة التشاور التى يجسدها بريان. ولما كان آرون ودانديو معاديين للخطاب القومى، فهما ينكران الحديث باسم فرنسا ولا سيما فرنسا السيد دوهاميل، هذا الـ"جوزيف برودوم"(٤٦) معاداة أمريكا. فهما يلحّان أنّ "نقدهما اللاذع ضد الروح

اليانكية ليست مضادة لأمريكا بالمعنى المعتاد للكلمة، أى بالمعنى القومى"(٤٧). أما بالنسبة لأوروبا التى يتذرعان بها فإنها لا تشبه فى شىء أوروبا "التجريد الدولى". تتحدث "المجلات الشابة" هنا بصوت واحد، فمجلة شأنها شأن ***Ordre Nouveau*** أو ***Réaction***، لم تكن تملك سوى "الهزء من أولئك الذين يتمضمضون بأصداء وحدة الشعوب الأوروبية"(٤٨). يطرى آرون ودانديو أوروبا لا تزال تنتظر التحقيق وهم يطرونها لا ضد أمريكا فحسب، بل كذلك ضد أوروبا "سيئة" تحمل أوائل بذور الغنغرينا الحديثة.

حجتهما إذن حجة ذات حدين، تبدو الأمور فى الدرجة الأولى من التحليل، بسيطة؛ فأوروبا ضحية عدوان خارجي: "يوجد مقر ازدهار الشر الذى يبدأ فى نخر أوروبا خارج أوروبا(٤٩)". كانت هناك، ولا تزال تتواجد مؤامرة ضد أوروبا. يكنس آرون ودانديو بجملة تعطين أسلافهم الذين يتهمون أنفسهم بوصفهم أوروبيين بمسئولية جنون الحرب العالمية الأولى. كفى ندمًا واعترافات بالذنب مدحورة: "لقد ولد سرطان العالم الحديث بعيداً عن ركام جثث الحرب(٥٠)". إنهم يعيدون تكوين تأريخ الدمار على أسس جديدة. ما هو التاريخ القاتل بالنسبة لأوروبا؟ ليس أغسطس ١٩١٤، كما يفكر السذج. وليس سراجيفو حيث أطلق اغتيال الأرشيدوق الكارثة التى لا تصدق، ولا "رتوند Rethondes" التى أدت إلى معاهدة فرساى، التى لم تؤد إلى أى شىء صالح؛ ذلك أن اللحظات الجوهرية هى اللحظات الأخرى تماماً وروزنامة مصائبنا أمريكية. إنه "عام ١٩١٣، التاريخ القاتل لتنظيم البنوك الأمريكية التى انحدرت منها الهيمنة التى نشكو منها منذ ذلك الحين: أصل السرطان الأمريكى". (لنلاحظ أن دوهاميل الذى يودان كثيراً التميز عنه، كان قد اقترح تأريخاً للصراع موازيًا على نحو مدهش: "إن اللحظة الجليلة فى تاريخ القرن العشرين، ليست شهر أغسطس ١٩١٤، ولا شهر نوفمبر ١٩١٨، لا، استمعوا إلىَّ جيداً: إنها اللحظة التى كف فيها السوق الداخلى لأمريكا عن أن يكفيها. آنئذ انتصب الحيوان على ساقيه الخلفيتين(٥١)...") لكن لدى آرون ودانديو "تاريخًا آخر قاتلاً" يريدان أن يقترحاه، يضاعف الإجرامية الأمريكية: "١٩٢٩؛ حيث ربح التنظيم الأمريكى بفضل خطة يونج القارة، وحيث انتقل السرطان إلى أوروبا". ١٩١٣، ١٩٢٩: هذا ما يتوجب على تلامذة المدارس أن يحفظوه. الحرب الكبرى؟ مجرد عملية تنظيف. "بين الاثنين هناك الحرب لرفع الركام من ميدان المناورات(٥٢)". لم يمت الشعرانيون(*) من أجل فرنسا، ولا من أجل "تجار المدافع": لقد

(*) الشعرانى: لقب للجندى الفرنسى فى الحرب العالمية الأولى، وهو لقب يعنى كذلك الرجل القوى الشجاع.

ماتوا فى الحقيقة من أجل "نظام الاحتياطى الفدرالى **Federal Reserve System**"(٥٣). والأمريكيون على استعداد لإعادة تكرار هذه الضربة الرابحة. فقد احتفظوا لأنفسهم (فى عام ١٩٣١) بأوروبا "كأجاص يؤكل عند العطش". كل شىء سيبدأ من جديد، وهاهى أمريكا أصلاً "تعد سلمياً حرب التعرفات والحسومات تاركة للأوروبيين المخاطر الأشد قتلاً فى حرب تستهلك فيها الصدور البشرية"(٥٤).

أوروبا آرون ودانديو الأولى هى إذن أوروبا جُعلَت ضحية ومخدوعة ومستنزفة حتى النهاية، واقعة فى شرك أمريكا، تعميها أوهامها، وتقطعها مصارفها إرباً، لكن أوروبا هذه البريئة، العمياء، المتلاعب بها تخفى أوروبا ثانية هى بصورة صماء، بعيدة، فى الأصل الثقافى للشر. صار مفهوماً أن أوروبا لم تطلق مذبحة ١٤ ـ ١٨. ولقد اندفعت خافضة الرأس فى الفخ تحت العين الساخرة لأصحاب المصارف الأمريكية، ولكن لئن لم تكن فى ذلك مذنبة، فيجب الاعتراف على الأقل بأنها مسئولة: مسئولة عن أمريكا وعن سرطانها. ومن هنا الجملة الغريبة عن أمريكا: "حيث يتواجد مقر أو ازدهار الشر". لِمَ هذا التصحيح الذى يجعل الجدال أعرج؟ لأن أمريكا ليست الموئل الحقيقى والأول للعدوى؛ لأن هذه القارة التى لا تبتكر شيئاً، حتى ولا الأوبئة، تلقت من أوروبا الجرثوم القاتل؛ لأن "السرطان الأمريكى" هو فى الحقيقة التفشى الرهيب فى أمريكا للخطأ العقلانى الأوروبى؛ "فالعقل اليانكى ليس فى حقيقة الأمر شيئاً آخر إلا الاستكشاف المسلسل على مستوى هائل لأكثر الأخطاء المحزنة التى ارتكبتها أوروبا، وهو الخطأ العقلانى(٥٥)". إن أمريكا هى خطيئة أوروبا العائدة لمعاقبتها، هى "كابوسها الدائم، نهاراً وليلاً"، عَقِبَها الخطير المُنحَلّ.

تكمن أصالة آرون ودانديو هنا: فى الاتهام الموجه فى الدرجة النهائية من الدعوى لأوروبا التى يسميانها بقدر من اللامبالاة العقلانية، أوالديكارتية، أو الهيجلية. لم تصلح الرحلة إلى أمريكا هذه المنتجات المريبة للعالم القديم. لقد حدث لهذه الأفكار ما كان بوفون يؤكده عن الحيوانات: لقد استكمل نقلها إلى مكان آخر تغيير طبيعتها. عبر الولايات المتحدة يناهض مفكرو النظام الجديد شخصيات أوروبية. لقد أنجبت أوروبا الخطأ العقلانى، لكن أمركة العقل الأوروبى أنجبت وحوشاً: "البربرية الحديثة، هى العقل فى صيغته الأمريكية(٥٦)". يبدأ النضال ضد أمريكا إذن فى البيت **at home**: فى أوروبا، من أجلها وضدها فى آن واحد. يؤكد آرون ودانديو أيضاً: "النزعة الأمريكية مرض" ـ مرض كانت أوروبا لزمن طويل ناقلة سليمة له قبل أن ترزح تحت عبء انتشاره داخلها بالمقابل.

"استيقظى يا أوروبا!"، يصرخ آرون ودانديو فى الصفحة الأخيرة من كتابهما السرطان الأمريكى، دون التراجع أمام ثقل مرجع هذا الشعار(٥٧). وبما أنها مربوطة بوضوح إلى المرجع الشخصانى، تكثر مجلة *النظام الجديد* من ضروب الغموض بين اللاوعى والاستثارة. إنها لا تريد أن تُخلَطَ مع حاملى مباخر "التجارب" الإيطالية، ثم الألمانيـة، لكن المجلة تنشـر "رسـالة إلى هتلر" رنانة ويثنى روبيـر آرون على إيطاليـا الموسولينية(٥٨). مع "الجدد"، تكثر الممرات النشرية والاجتيازات الفردية بين شواطئ أسىء تحديدها. على أن روابط الاتحاد لا تغيب على المستوى الثقافى: صوفية ثورية، احتقار مطلق للديمقراطية الليبرالية، طلاق مع الرأسمالية. ينضاف إلى ذلك ـ هذا إن لم تكن الخلاصة ـ نزعة فى معاداة أمريكا شديدة، مفصلة باسم أوروبا جديدة، لا تزال بانتظار أن تولد، مختلفة تمام الاختلاف عن أوروبا المشحونة بعصور وبثقافة يريد دوهاميل أن يكون بطلها. لا شك أن خطابهم أشد تعقيداً من خطاب "الجدد" الذين يمجدون ضد الفساد العام والأمريكى بوجه خاص أوروبا متجددة. على أن المنطق ليس مختلفًا مع ذلك اختلافًا عميقًا. فنقد "العقل فى صيغته الأمريكية"، وتعريف أمريكا ضد "ضـلال الروحانى"، والهجوم على الكانطية والهيجلية يربط بين السرطان الأمريكى واليمين المتطرف الموراسى فى البداية، وفى النهاية مع لاعقلانية الحركات الفاشية. نقطة جوهرية فى الإيضاح التاريخى: ستستعاد المسئولية الخفية للتمويل الأمريكى فى إطلاق الحرب العالمية الأولى دون كلل قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية. وبانزلاق إضافى (مطبوع من قبل موراس ومستبعد من قبل السرطان الأمريكى)، ستصير عما قريب البنوك اليهودية الأمريكية التى ستتهم لا بأنها أوقدت الحرب الكبرى فحسب، بل بأنها قادت شهراً بعد شهر المذبحة حسب المصالح اليهودية وحدها(٥٩).

لا دانديو (وقد توفى فى عام ١٩٣٣) ولا آرون (الذى ذهب إلى أفريقيا الشمالية بعد هزيمة ١٩٤٠) يمكن أن يشبها بالـ"جدد" الذين وقعوا فى نزعة معاداة أمريكا الهائجة الخاصة بالتعاون مع العدو. يبقى أن أوروبا التى يدعوانها إلى النجدة ضد "البلصور الرأسمالى" الأمريكى تبدو أقرب فى الإجمال إلى دوريو منها إلى بريان، وأكثر شبهًا بأوروبا فاليرى منها بأوروبا شخص مثل دريو لا روشيل، وهو متقزز آخر من "البربرية اليانكية". ولا يجد مؤلفا *السرطان الأمريكى* ما يكفى من ضروب السخرية القاسية للتشهير بمعاداة أمريكا القديمة و"دعاراتها غير المؤذية": لقد كان نقد أمريكا فى فرنسا زمنًا طويلاً "قضية المثقفين ومتذوقى الجمال"(٦٠)، حان الوقت لأن يستعيد المناضلون الثوريون الشعلة؛ فالإنتلجنسيا الفرنسية ملوثة بالعدوى إلى حد أن نقدها

لأمريكا هو على الرغم منها "أمريكي أساساً"(٦١). كل هذه البلاغة في التجذر، كل هذه النداءات إلى نشاط سياسي يربط بين معاداة أمريكا ومعاداة الشيوعية، يمكن أن تفهم بسهولة بوصفها تشجيعًا على الالتحاق ببناة "أوروبا الجديدة". ويبدو أن آرون وداندیو قد استشعرا هذه المخاطرة منذ عام ١٩٣١. وإلا، فلماذا يتراجعان فجأة، في لحظة الاختتام، كما لو أنهما مذعوران من نفسيهما؟ لماذا ينسفان مركبهما محتجين بأنهما لا، قطعًا، لا يدعوان إلى "الحرب المقدسة"؟ ولماذا تحت طائلة معاملتهما بدورهما باعتبارهما جوزيف برودوم، يبوحان لكي يختتما إلى قرائهما بمفردات غامضة أننا "نتأمرك ضد أمريكا بسرعة أكبر مما نتأمرك من أجلها"؟

بلغ المرجع الأوروبي في الخطاب المعادي لأمريكا إذن أوجه بين نهاية ١٩٢٠ والحرب العالمية الثانية، تحت ثلاثة وجوه مختلفة ومتعاقبة: مشروع وحدة الشعوب الأوروبية للتوحيد الاقتصادي والثقافي من حول قيم أوروبا التقليدية ضد الإمبراطوريات الكبرى التي تهددها، التشهير معًا من قبل غير الامتثاليين بأمريكا العقلانية وبأوروبا المتأمركة؛ وأخيراً، وخلال الاحتلال، الدفاع عن "أوروبا الجديدة" تحت الهيمنة الألمانية ضد حلف البولشفية و"حكومة الأثرياء".

تبدأ، عند التحرير، مرحلة فراغ لم تنته، لن نعثر ثانية أبدًا على تداخل الحملة الصليبية المعادية لأمريكا والحملة الصليبية المناصرة لأوروبا. وقد ألقى شعار "أوروبا الجديدة" الذي اجتره المحتل الألماني والمتعاونين معه ظلاً على الكلمة وريبة في الفكرة، كما أن الدعاية الشيوعية خلال الحرب الباردة كما سنرى ذلك بالتفصيل في الفصل التالي قد مدت هذا الظل بفعالية على أوروبا المتلعثمة بالتقارب الفرنسي الألماني. أما أوروبا الحقيقية، الاقتصادية والسياسية التي بدأ بناؤها في هذه اللحظة، فهي تتلاءم مع استثمار رمزي معاد لأمريكا على نحو أقل لا سيما وأن خصومها الشيوعيين بصورة خاصة يشهرون بها يوميًا بوصفها ابتكارَ إن لم تكن صنيعةَ الولايات المتحدة. وبقلب كامل للوضع السابق وسخرية التاريخ الكاملة، فإن أوروبا هذه التي يُطالب بها بإلحاح منذ هنري دو بومون لتواجه الغول الأمريكي، تُحمل على جرن المعمودية مع أمريكا إشبينة وجنية طيبة. اعتباراً من هذا التوجيه، يتبع الخطاب المعادي لأمريكا والخطاب المناصر لأوروبا طرقًا منفصلة. وحين يعدد جان باتيست دوروزيل النزعات المعادية لأمريكا في الستينيات فإنه لا يجد تحت مشرط نزعةِ معاداة أمريكا نزعةَ الوحدة الأوروبية. ولا يزيد الأمر أكثر اليوم. وبقاؤه في خطابِ اليمين الجديد يتجه بالأحرى نحو الإيواء. أما بالنسبة للجهود البلاغية المبذولة من قبل اليسار منذ ١٩٨١،

لتقديم الاتحاد الأوروبى كسدٍّ فى وجه الهيمنة الأمريكية أو بصورة أكثر دبلوماسية، ككتلة حرجة تم أخيرًا بلوغها يمكن أن تسمح بـ"الحديث على قيد المساواة"؛ فلا يبدو أنها كانت مثمرة بوجه خاص إزاء نواته المركزية المعادية لأوروبا، والتى هى فى الوقت نفسه نواة مركزية لمعاداة أمريكا(٦٢). لا ضروب الحنين المرمَّزة لليمين الجديد المتحفى، ولا نزعة معاداة أمريكا الصامتة لإستراتيجيى الإعلام المناصر لأوروبا تبدو قادرة على جمع ما فرقهُ التاريخ.

هوامش

(١) Tony Judt, *Past Imperfect, French Intellectuals*, 1944-1956 (Berkeley/Los Angeles, University of California Press, 1992), p. 191.

(٢) G. Duhamel, Scènes de la vie *future* [1930], Paris, Arthème Fayard, Le Livre de demain, 1938, pp. 124, 125.

(٣) فى "تحقيق حول الكراهية الفرنسية"، لجان بيرنبوم Jean Bimbaum، صحيفة اللوموند، ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ٢٠٠١. يشهر مدير مجلة *Multitude* فيه الصور النمطية المضادة لأمريكا لقسم من الحركة المعادية للعولمة.

(٤) H. de Beaumont, De l avenir des Etats-Unis et de leur lutte future avec l Europe, *Journal* des Economistes, juillet 1888, p. 76.

(٥) *Ibid.*, p. 77.

(٦) *Ibid.*

(٧) هذا التطبيق للداروينية على العلاقات الدولية لا يطمئن أوكتاف نويل الذى يصر على أن "اتحاد العرقين الأنجلو - ساكسون يحمى الممتلكات الإنجليزية". انظر : (*Le Péril américain*, Paris, De Soye et fils, 1989, p. 45).

(٨) Voir *La Conspiration des milliardaires*, au chap. 4 de la première partie.

(٩) H. de Beaumont, De l avenir des Etats-Unis..., p. 84.

(١٠) حول رد الفعل الفرنسى على تصريح مونرو، انظر :
R. Rémond, *Les Etats-Unis devant l opinion française*. 1815-1852, Paris, Armand Colin, 1962, pp. 606-616.

(١١) فى خطاب اشتهر بسرعة ألقى فى معرض دولة مينوسوتا فى ٢ سبتمبر ١٩٠١، كان تيودور روزفلت قد استشهد بهذا "المثل من عندنا" : "طريقة لينة وعصا غليظة، ستناسبك الرحلة" ("speak softly and carry a big stick, you will go far"). إنه تارديو الذى جعل منه "نظرية" فى كتابه :

Notes sur les Etats-Unis. La Société, la Politique. La Diplomatie (Paris, Cal-

mann-Lévy, 1908, p.262).

(١٢) A. Tardieu, *Ibid.*, p. 270.

(١٣) O. Noël, *Le Péril américain...*, p. 49.

(١٤) A. Tardieu, *Notes sur les Etats-Unis...*, pp. 360-361.

(١٥) Jules Huret, En *Amérique (II)...*, Paris, Fasquelle, 1905, p. 86.

(١٦) P. Valéry, Cahiers, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, éditlon de J. Robinson, 1974, t. II, p. 1498.

(١٧) H. de Beaumont, De l avenir des Etats-Unis..., p. 83.

(١٨) Première publication dans *Athenoeum*, April-May 1919, puis *Nouvelle Revue française* (août 1919).

(١٩) وحده (اشبنجلر Spengler مع كتابه تدهور الغرب) *Le Déclin de l Occident* (الذى ظهر فى عام ١٩١٩، لكنه صمم فى عام ١٩١٢ تحت تأثير أزمة أجادير) يستطيع الافتخار بتأثير بمثل هذا الاتساع. أما النص الجميل لموزيل Musil "أوروبا المضطربة" (*Das hilfose Europa*) فقد كان انتشاره محدوداً.

(٢٠) P. Valery, Regards sur le monde actuel, Ouvre, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, 1933, t.2, pp. 913-914.

(٢١) *Ibid.*, p. 927.

(٢٢) G. Duhamel, Entretien sur l esprit européen, Cahier libres, 1928, p. 29.

(٢٣) *Ibid.*, p. 50.

(٢٤) P. Valéry, *Cahiers...*, t. II, p. 1552.

(٢٥) يعتبر فاليرى كأمر منجز الانتصار المشترك للتألية وللديمقراطية ولا يناضل ضد "الحضارة الأمريكية".

(٢٦) A. Siegfried, Les Etats-Unls d aujourd hui, Paris, Armand Colln, p. 345.

(٢٧) P. de Rousiers, *La vie américaine, Paris*, Firmin-Didot, 1982, p. 2.

(٢٨) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*, p. 346.

(٢٩) *Ibid.*, p. 351.

(٣٠) P. Valéry, La crise de l esprit, *Variété, Essais quasi politique*, Deuxième lettre, Ouvres I, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, 1957, p. 995.

(٣١) Voir à ce sujet Jacques Alain Favre, *André Suarès et la grandeur*, Paris, Klincksieck, 1977, pp. 118-120 et passim.

(٣٢) A. Suarès, Vue d Europe, le principe européen, *Revue des vivants*, nº 8, août 1928, pp. 183-193. Repris dans Y. Hersant et F. Durand-Bogaert, Europe. De l Antiquité au XXº siècle, anthologie critique et commentée, Paris, Robert Laffont, collection Bouquins, 2000, p. 170.

(٣٣) *Ibid.*, pp. 171-172.

(٣٤) Cité par Marcel Dietschy, *Le Cas André Suarès*, Neuchâtel, A La Baconnière, 1967, p. 70.

(٣٥) A. Suarès, Vue d Europe, le principe européen, *Europe...*, p. 170.

(٣٦) G. Duhamel, Scènes..., p. 11.

(٣٧) Voir Y. Hersant et F. Durand-Bogaert, *Europe...*, pp. 160-161.

(٣٨) إنجلترا "يمكن أن تقبل فى معاهدة التحكيم الأوروبية"، ولكن لا فى "معاهدة الضمان". والسبب الذى يذكره كودنوف - كالارجى Coudenhove-Kalergi هو الانهماك المفرط والخطر لبريطانيا العظمى فى آسيا وفى المحيط الهادى.

(٣٩) V. Hugo, Aux membres du Congrès de la Paix, à Lugano, 20 septembre 1872, *Ouvres Complètes,* sous la direction de J. Massin, Paris,Club Français du Livre, 1970, t. XV-XVI/1, p. 1339.

(٤٠) D. Strauss, Menace in the West. The Rise of Anti-*Americanism in Modern Times*, Westport, Connecticut & London, Greenwood Press, 1978, p. 215. Voir également J.-B. Duroselle, L Idée d Europe dans l histoire, Paris, Denoël, 1965, p. 274.

(٤١) التبادل *L'Echange* كانت قد كتبت فى بوسطن فى عامى ١٨٩٣ - ١٨٩٤، وقد نشرت فى

L'Ermitage عام ١٩٠٠، وأخرجها كوبو Copeau عام ١٩١٤، وفى كتاب ***مشاهد من الحياة القادمة*** *Scènes de la vie future* بعد ربع قرن من ذلك لم ينس جورج دوهاميل: "لا تيأس العبقرية المعاصرة من أن تقلص العالم الشاسع للروح إلى قيم مادية محددة - كل شىء يساوى كذا - كما يقول توماس بوللوك ناجوار، هذا الأمريكى الذى ابتكره شاعر فرنسى كبير" (ص ١٠٠).

(٤٢) فى كتاب ***زيارة إلى الأمريكيين*** *(Visite aux Améncains, Flammarion, 1936)*، يثنى جول رومان J. Romain على ساحة التايمز Times Square وعلى جماهيرها، "العامية" ربما، لكنها بلا "دناءة": "كل هذه الجماهير فى ساحة التايمز شعبية، كل هذه البهجة ديمقراطية بصورة عميقة" (ص ٤٥). سنرى فيما بعد (القسم الثانى، الفصل الخامس) إلى أى حد يقل تقاسم هذه الرؤية بين الناس.

(٤٣) "وحتى، لو كنت أظن أن حضارتنا الأوروبية كانت قد وصلت إلى نهاية مشروعها، وأنها استهلكت مطامحها، وأنجزت مجمل أعمالها...لكنى لا أعتقد بذلك." *(Scènes de la vie future*, p. 125) تلك كلمة النهاية.

(٤٤) تلك بوجه خاص حالة هوليود المهجورة *Hollywood dépassé*، التى تدور حول مهاجرين، أحدهما إيطالى والآخر فرنسى. وأطروحة كتاب ***بعض الملاحظات حول الولايات المتحدة الأمريكية*** **(١٩٢٨)** *Quelques notes d' USA*، والتى تفيد أن زمن الصراعات القومية قد انقضى فى حين بدأ زمن الصراعات بين القارات تتفق والتعريف الذى أعطاه بيان كودنهوف - كاليرجى لأوروبا بوصفها "كيانًا متحدًا فى مواجهة القارات الأخرى".

(٤٥) R. Aron et Dandieu, *Le Cancer américain,Paris*, Rioder, 1931, p. 68.

(٤٦) *Ibid.*, p. 21.

(٤٧) *Ibid.*, p. 236.

(٤٨) J.-L. Loubet del Bayle, *Les Non-Conformistes des années 30.* Une tentative de renouvellement de la pensée politique française, Paris, Seuil, 1969, p. 193. Il cite Jean de Fabrègue dans Réaction (nº 5, février 1931, p. 25.

(٤٩) R. Aron et Dandieu, *Le Cancer américain,Paris,* Rioder, 1931, p. 17.

(٥٠) *Ibid.*, p. 15.

(٥١) G. Duhamel, *Scènes...*, p. 109.

(٥٢) R. Aron et Dandieu, *Le Cancer américain*,Paris, Rioder, 1931, p. 47.

(٥٣) *Ibid.*, p. 46.

(٥٤) *Ibid.*, p. 106.

(٥٥) *Ibid.*, p. 82.

(٥٦) *Ibid.*, 144.

(٥٧) *Ibid.*, p. 245؛ إن شعار ! "*Deutschland Erwache*" مطابق للحزب الوطنى ـ الاشتراكى الألمانى بحيث إن صحيفة *Le Canard enchaîné* جعلت منه ثيمة رسم كاريكاتورى صار شهيرًا لتوضح الخرق الذى حققه النازيون فى انتخابات عام ١٩٣٣: هتلر ميكانيكى يخرج من ساعة مصوتة تيرولية وهو يصرخ "استيقظى!" فى ألمانيا تتظاهر بالصمم (Pol Ferjac, Le Canard enchaîné, 10 mai 1933).

(٥٨) ظهرت "رسالة إلى هتلر" فى نوفمبر ١٩٣٣ فى العدد ٥ من صحيفة *Ordre Nouveau* انظر: J.-L. Loubet del Bayle, Les Non-Conformistes...,pp.308-31 ;

أما ريمون أرون فيدافع عن إيطاليا الموسولينية وخاصة فى كتابه ديكتاتورية الحرية *(Dicta-ture de la liberté, Paris, Grasset, 1935)* فى مقطع موجه ضد "أصدقاء أمريكا" (ص ١٠٨ ـ ١١٠).

(٥٩) أدب التعاون مع العدو غنى بالكشوف التاريخية من هذا النوع، وسنجد إعادة كتابة كاملة لتاريخ الولايات المتحدة منذ الأصول على أساس المؤامرة اليهودية، مثلاً فى كتاب روتشيلد، ملك إسرائيل والأمريكيين، انظر:

Henri-Robert Petit, Rothschild, roi d Israël et les Américains, Paris, Nouvelles Etudes Françaises, 1941, pp. 34-42.

(٦٠) R. Aron et Dandieu, *Le Cancer américain*,Paris, Rioder, 1931, p. 86.

(٦١) *Ibid.*, p. 21.؛ إنه مرة أخرى دوهاميل المقصود هنا.

(٦٢) حول التقارب بين نزعة معاداة أمريكا ونزعة معاداة أوروبا، انظر :

Michel Wievlorka, L antiaméricanisme contemporain, les Intellectuels en France, la nation et l Europe, *Les Antiaméricanismes,* Actes du colloque dirigés par T. Bishop, Y. Hersant et Ph. Roger (Paris, 3-4 juin 1999), The Florence Gould Lectures at New York University, Special volume Spring 2001, pp. 56-60.

الفصل الثالث
من الدين إلى التبعية
عقدة بيريشون

الدائن غير محبوب من مدينه. لا نبحثن عن التعليل.
ذلك أمر واقع.

ج. ـ ل. شاستنيه، العم شايلوك أو
الإمبريالية الأمريكية تغزو العالم (١٩٢٧).

كان أوسكار وايلد يحب أن يقول لمستمعيه الأمريكيين: "نحن منفصلون بلغة مشتركة"، هل كان للحروب التى خيضت بصورة مشتركة فى القرن العشرين التأثير نفسه بين الفرنسيين والأمريكيين؟ يطلق إتيامبل فى عام ١٩٦٤: "حربان فى ثلاثين عامًا كنا فيهما حلفاء الأنجلو ساكسونيين، تستعجلان استعبادنا"(١). وفى نظر الناقد الكبير للفرنجليزية، ليس هذا الاستعباد مجرد مجاز ولا واقعة لغة فحسب. ولو أنعمنا النظر عن كثب لوجدنا أن فترتى ما بعد الحربين تتكشفان مشئومتين. والحق أن القرن العشرين لم يكن فى فرنسا إلا فترة ما بعد حرب، الفترة الأولى معروفة لدينا بوصفها فترة "ما بين الحربين"، والفترة الثانية ستصير بسرعة الحرب الباردة، أما الثالثة التى لم تسمّ كالصراعات ذاتها (يُفضل الحديث عن "عمليات المحافظة على النظام") فلنسمها: فترة ما بعد الحرب الاستعمارية. فى هذه المشهدية للعلاقات الفرنسية الأمريكية، تلعب فترات ما بعد الحرب هذه دورًا أكثر تأثيرًا من فترات الصراع؛ فهى بانتظام وبتكرار فرصة توترات خطيرة، وهى تترك من الجروح أكثر مما يخلقه النضال المشترك من روابط.

هذه الفترات الثلاث مما بعد الحروب متباينة تباينًا شديدًا؛ فالولايات المتحدة فى عام ١٩١٧ حليف ثمين، لكنه متأخر أخذنا عليه أنه عمل القليل جدًا. فى عام ١٩٤٠، انتقلت فرنسا من مقام أول قوة عسكرية فى العالم كانت فيه إلى آخر درجة من الخضوع. وضع التحرير نهاية للاستعباد، لا للمهانة. شعر الفرنسيون بقوة ذل صيرورتهم أمة "مُسَاعَدَة" كما يعترف مورياك فى عام ١٩٥١: "لقد هبطت فرنسا فى أربع سنوات من مقام الأمة الكبرى الحرة بمصيرها إلى مقام أمة مُسَاعَدَة: لماذا

التراجع أمام الكلمة مادام الأمر كذلك؟[٢]" لكن الكلمة تجرح ككلمة "الشحاذة" التى خطّها ريمون آرون فى عام ١٩٤٨، أن تتحول من مدين إلى شحاذ، هذا يعنى الهبوط درجة أخرى على طريق "المهانة". قبول الكلمة يعنى عبور عتبة رمزية جديدة، العبور من التصريح دون الاعتراف بدين إلى الإقرار الغاضب بتبعية. وبسرعة شديدة ظهر الغل ضد المحسن شديد الكرم، واتخذ شكل إنكار مزدوج. إنكار القصد: ما فعلوه، لم يفعلوه من أجلنا، وإنكار الواقعة ذاتها: لم يساعدونا بهذه الكثرة، وحالة الحربين الفرنسيتين فى الهند الصينية وفى الجزائر لا تزال مختلفة، مادامت هاتان الحربان قد خيضتا لا بمساعدة الولايات المتحدة، بل تحت نيران نقدها. يسود أنئذ الامتناع العدوانى عن التصويت، والريبة فى تخريب دبلوماسى، والخشية بوجه خاص من رؤية أمريكا "تستخرج الكستناء من النار" التى تؤجج العداوة.

وبطريقة ما يتغير إذن كل شىء من فترة إلى أخرى، بدءاً بوضع فرنسا ذاته والصورة التى صنعتها لنفسها عن نفسها. لقد أدخلت مذبحة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ فى كثير من العقول فكرة تدهور بدأ، أخفاه النصر، لكنه لا يستطيع إيقافه. لقد انبثقت ثيمة "نهاية أوروبا" فى نهاية القرن التاسع عشر كفرضية تاريخية ذات طبيعة نظرية أكثر مما هى شعور حقيقى. وقد ذاعت وفصلّها فاليرى على نحو درامى بحيث اتخذت نبرة قلقة، ومع "الهزيمة الغريبة" عام ١٩٤٠، صار هذا القلق المنتشر ذهولاً جماعيا. كانت ضروب الفشل والتراجع فى سنوات ١٩٣٠ قد بذرت الشك، لكن الاندحار، والاحتلال الألمانى، وإقامة نظام فيشى قد فتح أكثر العيون المغمضة على علامات التدهور.

على هذا المشهد المنقلب يتغير الأبطال الرئيسيون أيضًا فى المواجهة الفرنسية الأمريكية؛ فاليمين وأقصى اليمين هما اللذان كانا فى حرب ضد الولايات المتحدة فيما بين الحربين، وموراس هو الذى وجه أول الضربات ضد مقام ويلسون، لكنّ الحزب الشيوعى الفرنسى هو الذى كان، بعد عام ١٩٤٥، على رأس الجهاد ضد "المحتل" الأمريكى والهدايا المسمومة للسيد مارشال. والديجولية هى التى ستعرف فى سنوات ١٩٦٠ رسملة الأحقاد الجديدة المضادة لأمريكا والمرتبطة بالخلاص من المستعمرات لصالحها. يغير "قطب" المقاومة المضادة لأمريكا إذن مكانه بصورة كبيرة، لكنه يمغنط كل مرة قوى شديدة التنوع وشديدة البعد بعضها عن البعض الآخر. كثير من الفرنسيين الذين لا يحبون العمل الفرنسى يؤيدون موراس وهو ينتقد ويلسون راسمًا عن أمريكا لوحة مرضية ستستعاد من قبل اليسار ومن قبل اليمين، وانضمت إلى ربع الفرنسيين الكبير الذى صوت للشيوعيين عند التحرير حول الثيمات المضادة لأمريكا فرق ضخمة جاءت من آفاق أخرى: من مسيحية اليسار، ومن "الحياد"، وكذلك – وربما

بوجه خاص – من التجمع من أجل فرنسا الديجولي. خلال سنوات ١٩٦٠، سينقلب المد وكثير من ناخبي اليسار وأقصى اليسار يتعرفون أنفسهم تمامًا في الخطاب الذي اشتهر بوصفه "معاديا للأطلسي" للجنرال ديجول، بل إن "شخصيات من اليسار"، في عام ١٩٦٦، وقعت نداء لصالح سياسته الخارجية، يسجل بوجه خاص موافقتهم على الانسحاب من المنظمة العسكرية لحلف الأطلسي[٣].

كل شيء يغير إذن مكانه، لكن كل شيء في الوقت نفسه يتكرر تقريبًا. تتغير الفرق، ويتعاقب الممثلون. ومع ذلك تعود الحوارات نفسها، والمزاج الماجن نفسه، والمكائد نفسها، والشتائم نفسها، وذلك على شبكة شديدة اليقين ووفق سيناريو شديد الاستقرار. إن ما يبقى في الإجمال، هو سيناريو مكتوب مبني بصلابة من حول الدَّيْن، وثقله الذي لا يحتمل، وتسديده المستحيل؛ ذلك لأن الحساب الفرنسي الأمريكي منذ لافاييت يمزج بطريقة غير قابلة للحل الذهب والدم.

القرض "الشنيع": مشهد بدائي

أشد هذه القروض وضوحًا، وأكثرها استقصاءً من قبل المؤرخين هو بالطبع القرض الذي اقترضته فرنسا من الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى، والذي نفرت فيما بعد من تسديده. إنه في مركز الضيق الفرنسي الأمريكي فيما بين الحربين. إنه يسمم العلاقات بين البلدين، ويسهم أكثر من أي عامل آخر في تقهقر صورة فرنسا في أمريكا، مثلما يسهم في الغضب الفرنسي ضد الأمريكيين. وغنيٌّ عن القول إن السحر تلاشى، وإن أسطورة الأخوة ذاتها قد ديست بالأقدام، وإن كليمنصو استطاع أن يكتب بسخرية مريرة: "حين وصل الكولونيل ستانتون للقتال وهرع إلى مقبرة بيكبوس يصرخ بكلمة رنانة: لافاييت، ها نحن!؛ فقد كان سيفًا جعله يلمع تحت الشمس، لا بيانات التسديد[٤]".

يصف أندريه تارديو قبل أوج هذا الصراع، آلياته النفسية مع كثير من نفاذ النظر. كانت المطالبة الأمريكية بتسديد الديون التي ووفق عليها أثناء الصراع كما يشرح قبل ١٩٢٧، متوقعة ولا مفر منها. وإذا استجاب الرأي العام الفرنسي بمثل هذا العنف ضد حليفه بالأمس، فلأن المطالبات الأمريكية بلورت فجأة سبع سنوات من ضروب الكبت التي يضع قائمة حصرية بها: "تعيش فرنسا فيها من جديد بطريق مختصر مسلسل خيباتها الطويل: لاجدوى التضحيات التي قبلتها مع حلفائها للطروحات الأمريكية في عام ١٩١٩، رفض مجلس الشيوخ لمعاهدة التضامن؛ سلام

منفصل مع ألمانيا دون بذل جهد تسوية مسبقة مع رفاق المعركة، مؤتمر واشنطن الذى كان قاسيًا على البحرية وعلى المستعمرات الفرنسية، مطالبات بالمشاركة فى أرباح مالية لمعاهدة كانت أعباؤها قد رفضت، مطالبة شديدة بقرض تلقى مقابله من الديون ضربة قاضية من الانسحاب الأمريكى عام ١٩٢٠، رفض منح المدين الفرنسى ضمانات النقل الممنوحة للمدين الألمانى(٥)"، كانت الكأس ملأى وعليها أن تفيض.

يصف تارديو إجمالاً فيضًا من الاستثمار: يقول لنا إن وراء هذا الغضب المركّز يكمن عدم الرضى من فترة ما بعد الحرب المخيبة، إلا أنه يجب المضى بعيداً والصعود إلى أعلى؛ فقضية القروض تندرج ضمن تاريخ أقدم؛ فهى تبدأ مثقلة أصلاً بذكرى أزمة سابقة، وهى تكرر مشهد مواجهة بين فرنسا والولايات المتحدة حدث فى قلب القرن التاسع عشر، وتعيد من جديد بصورة قاسية طرح سؤال قديم عن "نكران الجميل" الأمريكى الذى كان يغذى أصلاً حجج الذين خاب أملهم فى أمريكا عام ١٨٨٠.

يجرى المشهد البدائى فى ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥، وعلى أنه قد نسى اليوم تماماً؛ فهو مع ذلك ليس مجرد قضية تافهة، ما دام قد وضع فرنسا والولايات المتحدة، تقنيًا، على حافة الحرب. لقد انفجرت هذه الأزمة، وهى مزدوجة الغرابة، فى عهد ملك هو لويس فيليب، وهو صديق قوى لأمريكا التى كان يعرفها جيداً، ولقد انفجرت حول شجار زنخ نسبيًا بما أنه يعود إلى العهد الإمبراطورى الذى لم يكن أحد يوليه أهمية كبرى(٦). والحقيقة أن الولايات المتحدة تطالب منذ الإمبراطورية الأولى بتعويضات عن الأضرار التى تعرض لها أسطولها التجارى عملاً بمرسوم ميلانو (١٧ ديسمبر ١٨٠٧)، حسب هذا المرسوم الذى فاقم منه مرسوم آخر فى عام ١٨١٠، كان على السفن الأمريكية التى تتعرض للرقابة المطلوبة من قبل الإنجليز فى إطار الحصار والحصار المضاد أن تعتبر بوصفها بلا جنسية، ومن ثم غنيمة قانونية للبحرية الفرنسية. وعلى هذا النحو فقد أصحاب السفن الأمريكيون خمسمائة وثماني وخمسين سفينة بين ١٨٠٧ و١٨١٢. أربعون مليونًا من الفرنكات: هو ذا المبلغ الذى تطالب به منذ ذلك الوقت وبإلحاح الحكومة الأمريكية، باسم الأطراف المتضررة. كانت السلطات الفرنسية قد توصلت إلى إبطاء المفاوضات خلال كل عهد الإصلاح باعتراضها على الرقم وبإدخالها بدورها طلبات مختلفة(٧). فى عام ١٨٢٩، كان الرئيس أندرو جاكسون قد قبل أخيراً مبدأ مفاوضة شاملة، ولم يكن بوسع ثورة ١٨٣٠ التى حملت إلى السلطة أميراً محبًا لأمريكا إلا أن تسرّع من التسوية.

اعترفت لجنة فرنسية ألفتها السلطات الجديدة إذن أخيراً بشرعية الدَّيْن، لكنها

حددته باثنى عشر مليونًا، واستؤنفت المفاصلة وتوقفت عند رقم خمسة وعشرين مليونًا قبله السفير ريفز. بدت القضية وقد انتهت. وُقعت المعاهدة فى ٤ يوليو ١٨٣١، وصودق عليها من قبل مجلس الشيوخ الأمريكى فى فبراير ١٨٣٢، ولم يكن يُنتَظر إلا التصديق الفرنسى الذى كان يؤجل من دورة إلى دورة، لكن حين وصلت معاهدة التعويض بعد اثنين وثلاثين شهرًا من ذلك، فى ٢٨ مارس ١٨٣٤، أمام المجلس من أجل تصويت كان يعتبر منتهيًا، تعطل كل شىء. يتوقف بواسى دانجلاس Boissy d Anglas وهو يفتتح النقاش عند نكران الجميل الأمريكى. وتتحدث صحيفة *Le National*، وهى صحيفة تعتبر مع ذلك حسنة النوايا تجاه الولايات المتحدة، عن "السهولة المفرطة لديها لنسيان التزامات حديثة العهد"[٨] - تلميح غريب، لابد من الاعتراف بذلك، للإشارة إلى المساعدة المقدمة من لويس السادس عشر قبل نصف قرن! لامارتين بدوره، يكرر لحن الخيبة العاطفية: "لقد كنت دومًا أدهش بصورة عميقة حين أقرأ قصة عصورنا الأخيرة من القليل من التعاطف والاعتراف بالجميل الذى أبدته أمريكا لبلدنا[٩]". والشائعة التى روجتها برُعونة الصحيفة شبه الرسمية *Journal des débats* عن تدابير ثأرية محتملة أمريكية فى حال فشل المصادقة لم تؤد إلا إلى تصلب المعارضة، وفى النهاية رفض التصديق على المعاهدة بفارق ثمانية أصوات.

صار الصدام مع الولايات المتحدة أمرًا لا مفر منه، وفى ديسمبر من السنة نفسها، أعلن الرئيس جاكسون أنه سيسدد الدين من الممتلكات الفرنسية فى الولايات المتحدة إذا لم يرجع المجلس عن تصويته. كان التأثر هائلاً فى فرنسا، ووجدت باريس نفسها مرغمة على استدعاء سفيرها، ثم على أن تحاول إنهاء أزمة باتت عسيرة على الضبط. كان موعد النقاش الثانى البرلمانى، وهو أحد أكثر النقاشات البرلمانية حماسًا وطولاً خلال ولاية المجلس، من ٩ إلى ١٨ أبريل ١٨٣٥، رصّت الحكومة هذه المرة صفوفها. وصُوِّت على الملايين الخمسة والعشرين ودفعت، وسرعان ما انضافت للمعاهدة الأمريكية البريطانية فى عام ١٧٩٤ على لائحة العار للفظاعات الأمريكية. كان الجرح لدى بعض الأصدقاء فى الجمهورية الأطلسية الذين تعتمد فرنسا عليهم عميقًا، وقد بقى لامارتين بعد سبع سنوات من الحادث صعبًا على المواساة: "لقد أدليت بصوتى موافقًا، أنا، على الخمسة وعشرين مليونًا [للولايات المتحدة]؛ لأن ذلك كان يبدو لى عدلاً وإن كان كريهًا، لكننى أدليت بصوتى فى الوقت نفسه على زوال محبتى[١٠]". لم يكن الوحيد على هذه الحالة كما يشير رنيه ريمون: "لن نجد بعد عام ١٨٣٥ أبدًا الحماسة، والحافز العفوى، والحمية الكريمة لبعض المشاعر. لقد تخلت الصداقة عن مكانها للامبالاة، إن لم يكن للفظاظة. وسيتوجب انتظار ١٩١٧، وتدخل أمريكا إلى

جانبنا لإعادة صداقة الأيام الخالية فى ذهن الشعب الفرنسى[١١]". سوى أن إعادة اللقاء كان قصيراً فى النهاية، وسرعان ما سمّمته قضية دين جديدة. يشير رنيه ريمون أيضًا بحق إلى الثيمة الثابتة والوحيدة – إن صح القول – للحملة المضادة لأمريكا عامى ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥: نكران الجميل. تبدو الولايات المتحدة فى ضوء هذه الأزمة الدبلوماسية مدفوعة بحوافز أخرى غير الصداقة أو حتى الإنصاف. "المصلحة"، كما تكتب صحيفة ***Le Constitutionnel***، "هذا هو الحافز الحقيقى لأعمال الحكومة والمواطنين" فى الولايات المتحدة[١٢]. تبين مداخلات المعارضة فى المجلس بصدد المعاهدة، وكذلك النقاش فى الصحافة إلى أى حد صدمت المطالبة الأمريكية، وهى فى النهاية مطالبة قانونية، الرأى العام الذى كان لا يزال يظن أن بوسعه أن يسحب على الولايات المتحدة سندات عاطفية. " فى الحقيقة إن ما يجعل الفرنسى فى هذه القضية أقل استعداداً ليغفر للأمريكيين، هو ما يعتبره نكران الجميل[١٣]".

تكرر قضية ديون الحرب التى تورمت خلال سنوات ١٩٢٠، وبلغت أوجها فى عام ١٩٣٢ المشهد البدائى فى عام ١٨٣٥، لكنها تكرره بصورة أضخم، وأكثر تعقيداً، وأشد علنية ـ وبإيجاز، بصورة أسوأ. سيعارض النواب والصحافيون كما هو الأمر فى عهد لويس فيليب، "الحق الدقيق" الذى يحتج به الأمريكيون بضرب من الالتزام التاريخى والعاطفى أبرمه قديماً دائنوهم اليوم فى ناحية يوركتاون، وشأن لامارتين قبل قرن، ستصوت الإنتلجنسيا باتفاق مع رجل الشارع للولايات المتحدة "زوال محبتها".

أمريكا "دائنة العالم"

لقضية ديون الحرب إذن ماض متنازع عليه، وهى تندرج كذلك ضمن ظرف مباشر يثير الأحقاد. أحد الانقلابات الأساسية التى تقع على عاهل حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وأقلها قبولاً لدى الفرنسيين هو تحول أمريكا إلى "دائنة العالم". يكرس أندريه سيجفريد لهذا التحول فى الثروة فصلاً كاملاً من كتابه ***الولايات المتحدة اليوم***: "واقعة كبرى جديدة تفرض نفسها؛ فبعد أن كانوا مدينين لأوروبا فى عام ١٩١٤ صار الأمريكيون دائنيها[١٤]". سيُعاد اجترار هذا الإقرار بلا نهاية خلال سنوات ١٩٢٠، بمرارة، وأحياناً بريبة. قبل عام ١٩١٤، "كانت أمريكا بلداً لا دائناً بل مديناً"، كما يذكر ريمون ريكولى Raymond Recouly فى كتابه ***أمريكا الفقيرة L'Amérique pauvre***، عام ١٩٢٣. لقد كدنا ننسى ذلك من شدة عنف التغيير، وسيقول موران إنها ستبرز من الصراع كـ"لاعب سعيد"[١٥]. "كانت الحرب مفيدة لها، قبل أن تدخلها، وخلال شنها لها، وبعد خروجها منها": هكذا يعبر تارديو، صديق اليانكيين، فى عام ١٩٢٧،

ويضيف: "لأن كل ما أضاعته أوروبا، ربحته أمريكا"؛ "بالحرب، ضاعفت من قوتها وزادت وأقامت أسس إمبراطورية جديدة. وبها، عارض تقدم رفاهها الذى تغنت به منذ أزمنة السلام، المحنة الأوروبية(١٦)". من المستفيد؟ Cui prodest? على من عادت الحرب بالفائدة إن لم يكن على أمريكا؟ وفى حين يكتفى الأكثر اعتدالاً بملاحظة أنه "من مستدين حافل بالوعود، صار العم [بعد ١٩١٨] دائنًا حافلاً بالمطالب"(١٧)، فإن الأكثر تشدداً يشهّرون بالرابحة السعيدة بوصفها قاتلة أوروبا. إن "التاريخ القاتل" كما يؤكد آرون ودانديو فى صفحة سبق الاستشهاد بها من كتاب *السرطان الأمريكى*، هو تاريخ "تنظيم المصارف الأمريكية" فى ١٩١٣ تحت رعاية النظام الاحتياطى الفدرالى: تبعته الحرب الكبرى مباشرة لتسرع فى نقل الذهب(١٨)...

لا يدفع كل المعادين لأمريكا بعيداً أطروحة المؤامرة التى تجعل من الولايات المتحدة لا المستفيد الأساسى فحسب، بل المحرض الحقيقى للحرب العالمية الأولى، لكن الجميع يستعيد ثيمة نزف الثروة الفرنسية لصالح الحليف العابر الأطلسى وحده. سيقول ذلك تارديو (فى عام ١٩٢٧) وسيكرره (فى عام ١٩٣٤): "نصف ذهب العالم جاء يتكدس فى صناديقها"(١٩)؛ "لقد اجتذبوا إليهم ذهب الأرض"(٢٠). وأمام حجم الظاهرة وخطورة نتائجها، يتخلى أندريه سيجفريد بسرعة عن الموضوعية الصارمة للإحصاءات ليقل قلقه الذى يوحى به له هذا الاستئثار الناجح: "إزاء القارة القديمة، يجد المقرض النيويوركى نفسه فى العلاقة، العارية والقاسية، للدائن الذى يسهر على ماله، والغنى الذى ساعد فقيراً، وينتظر استعادة سلفته، السلفة التى هى فى آن واحد ضرب من الإحسان، لكنها أيضًا بالمعنى الدقيق للكلمة، دين. يتمثل الخطر منذئذ فى أن كل شىء مسموح لأمريكا(٢١)". هكذا، بفعل مصيبة مزدوجة، يتوجب على فرنسا المنهوبة و"أوروبا المهانة" أن تعتاد على ضروب العنف المنتظرة من أمريكا التى "ترتسم [لديها] كما يضيف سيجفريد ـ [...] هموم مساعد قضائى"(٢٢).

هل هذا كل شىء؟ لا؛ لأن هذا المساعد القضائى الجديد المستعد لحجز الكرة الأرضية بسبب عدم الدفع هو فى الوقت نفسه المرابى الذى اقترضت منه الأمم. لم يكن يكف اليانكيه المضارب أن يكدس فى خزائنه كل ذهب العالم، بل سرعان ما أراد الإكثار من ملايينه بالائتمانات حتى الإفراط وبالقروض كيفما اتفق "لدى أقل المقرضين ثقة فى أوروبا"(٢٣). هنا، لا مجال له لادعاء البراءة. "من المستحيل المضى بعيداً فى الخطأ. من المستحيل فى غياب الحس السليم اللعب بأشد الطرق رداءة أجمل الأوراق". إنه أيضًا تارديو الذى يقيم هذا الاتهام ضد "نقص الميزان فى حسابات" و "غياب الإنسانية فى قرارات" أمريكا(٢٤). يبين آرون ودانديو دون الدخول فى نقاش اقتصادى

نستشعرهما فيه أقل يقينًا، المزايدات البلاغية ضد أمريكا التى تملك حس "المضاربة فى دمها"، والتى تجسد "انتصار القرض على الذهب والشيك المخطط على الجوارب الصوفية"(٢٥). وزيادة فى السخرية، وحافز شديد على الغضب: أمريكا نفسها هذه التى تطالبنا بضراوة بالمال إلى حد توجب معه الإلقاء به فى فرن الحرب، لم تكف منذ عشر سنوات عن أن تريق هبة (ذات مصلحة) على رأس أعداء قدماء أو لا مبالين، والذين هم فضلاً عن ذلك مدينون مماطلون. وزنان وإجراءان؟ تلك هى الأطروحة التى سيفصلها موراس اعتبارًا من عام ١٩١٩.

موراس التعديلى

الجوانب الثلاثة للرئيس ويلسون. الحياد. التدخل. الهدنة *Les Trois Aspects du Président Wilson. La Neutralité. L intervention. L Armisyice.* الذى نشره موراس عام ١٩٢٠ فى المكتبة القومية الجديدة، ليس أول صورة للوحة عيادية للجنون الرئاسى والأمريكى فحسب. إنه أيضًا طريقة بالنسبة لزعيم القوميين فى عقد سلسلة الأزمنة وإحياء ذكرى المآخذ على أمريكا فى فرنسا. وبجمعه مواقفه التى اتخذها إزاء الولايات المتحدة منذ بداية الصراع العالمى، لا يقدم موراس مجرد مجموعة من النصوص ذات القيمة الوثائقية، بل هو يقترح قراءة للحلقة الموجزة الاجماعية خلال عامى ١٩١٧ - ١٩١٨ تحت الضوء المزدوج لـ"قبلٍ" مقلق ولـ"بَعْدٍ" مخيب. يوضع ويلسونَ التدخل الصديق فى سندويش بين ويلسون المترفع عام ١٩١٤ وويلسون الانطوائى عام ١٩١٩. أيهما الحقيقى؟ قطعًا ليس هو الطارئ الذى كونه الفرنسيون لأنفسهم، والذى ولعوا به، وخطؤهم مفهوم تمامًا، وشاركهم فيه موراس، إلا أنه آن الأوان لتبديده؛ لأن الرئيس ويلسون صار خطرًا، أو بالأحرى لقد كان خطرًا على الدوام.

تربويًا، لكى يبدد الوهم الجماعى، يعود موراس إذن إلى الوراء، ويصعد مجرى الحرب، ويبين ويلسون "يثلّج" حركة أنصار الحلفاء بخطابه فى ١٨ أغسطس ١٩١٤ الذى كان يضع كفتى الميزان متساويتين بين المتحاربين ويطلق فى عام ١٩١٦ الشعار العسير على الدفاع عنه "لا غالب ولا مغلوب"(٢٦). كانت العقول الثاقبة (لنفهم: موراس نفسه) ترى فيه "مثيرًا للقلق أصلاً" (فلنعجب بهذه الـ "أصلاً")؛ لأن هذا التجرد فى عام ١٩١٤، وهذه اللامبالاة فى عام ١٩١٦، كانا يكشفان تحزبه لصالح ألمانيا وقلة حماسه لحلفائه فى المستقبل. والحماس للنضال الذى صار مشتركًا لم يكن ليُنسى القسمات العميقة لأمريكا الويلسونية - قسمات أشار إليها موراس نفسه فى مقال يضعه تحت عيون الفرنسيين.

أول هذه القسمات: الضلال الفلسفي. أمريكا ويلسون كانطية، شأن طلبة الثانوية في المجتثون *Déracinés* المضللين بمعلم رديء. ثيمة "الكانطية الويلسونية" هذه(٢٧) التي يلفظها موراس بإيقاع ترجع إلى كل التقليد الباريسي في أبلسة هذه الفلسفة "الجمهورية" ذات الأصل الألماني، سنعثر على صداها لدى غير الامتثاليين، بما فيهم الذين ابتعدوا عن العمل الفرنسي.

ثاني هذه القسمات: الكبرياء القومية، وهي فرصة لموراس لاعتراف رصين بالذنب : "لقد أطلقنا على السيد وودرو ويلسون صفة القومي الأمريكي، لكننا لم نقبل أبداً أن تستطيع قومية الرئيس الامتزاج مع صيغة المهانة والتحقير للشعب الصديق الذي أنقذته أسلحته، وبدونه كان سيُغزى هو نفسه(٢٨)". (من الصعب معرفة ما يريد قوله موراس هنا، لكن من الواضح أن هذا التوازن البلاغي يهدف إلى إعادة وضع الميزان الرمزي للخدمات على مستواه.) أن يحمل القوميون الضغينة المتبادلة، هذا ما يبدو أن موراس يكتشفه. فالعجرفة الأمريكية تجسدت في شخص ويلسون نفسه، "قيصر عظيم على حسابنا"، لكنها تتجاوز شخصه. إن الأمريكيين الذين "تستطيع دولاراتهم ومدافعهم خنقَ أقل همهمة معادية لرأيهم"(٢٩) مصابون جماعيا بنفس "دوار القوة" المعزز لدى رئيسهم بالعصاب الديني. إن الثيمة "الفلسفية" والفاليرية للتدهور تتخلى هنا عن مكانها لثيمة مباشرة بصورة قاسية هي ثيمة الخضوع والتبعية، وفي ذلك على الأقل كان موراس رائداً.

ثالث هذه القسمات التي تبدو أشد أهمية في نظر موراس نفسه: محبة الأمريكيين للألمان ومحبة ويلسون لهم بشكل خاص التي يصفها موراس باعتبارها لا تنفصل عن علاقاته مع التمويل اليهودي. إن هذا التشهير بالتواطؤ الأمريكي - الألماني - اليهودي الذي يقال منذ مقدمة الكتاب، ويستعاد في خاتمته، هو في الظاهر الدرس الجوهري الذي يريد موراس توصيله لقرائه؛ فالرئيس الذي يزعم إملاء قوانينه على العالم هو نفسه تحت تأثير "هذا العنصر أو ذاك في التمويل العالي المؤثر والقوي على عقلـ"ه(٣٠). تبعية قريبة من الإدمان: "لم تستطع أية إرادة حازمة، ولا أي سبب قوي أن يرغمه إما على سحق تحيزه للصداقة الألمانية وإما على ربط أربابه وأصدقائه من اليهود الألمان في أمريكا بثروتنا المالية(٣١)". وهكذا فإن العجرفة القومية لأمريكا الويلسونية تقوم هي نفسها بدور حصان طروادة لطموحات أخرى: "السيطرة العالمية المتزايدة لعرق سمسار وثوري على شعوب منتجة ومحافظة ومُحَضَّرَة"(٣٢). إن صاعقة القوة الأمريكية لن تسقط على الكابيتول ولا حتى على البيت الأبيض، بل هي تخضع

لـ"قرارات سيناء الويلسونية"[٣٣]. ثمة رابطة جديدة تقوم هنا، فى نص موراس هذا وحول شخصية ويلسون بين معاداة أمريكا ومعاداة السامية: سنراها تتطور بسرعة على امتداد سنوات ما بين الحربين.

تتجاوز مداخلة موراس هذه فى عام ١٩٢٠ إذن بصورة واسعة إطار التبرير الذاتى الذى آلف فيه المفكر القومى بلباقة بين اعترافه (الشحيح) بضلاله فى نصرة أمريكا عام ١٩١٧ والتذكير (الملح) بيقظته المستمرة المضادة لويلسون؛ فالمقصود بصورة أشد خطراً بكثير إعلان سقوط أسطورة لافاييت حول الصداقة الثابتة، والعثور على ذاكرة الإهانات وضروب الأذى، وتنشيط نزعة معاداة أمريكا قبل الحرب، والقضاء على كل فكرة عن أمريكا الأخوية والمساعدة فى أذهان الفرنسيين، وبإيجاز محو كل أثر للدين الأخير عن طريق التذكير بدين قديم.

لذلك يعيد موراس الطواف فى التاريخ، ويستعيد نصوصه، ويضع تحت عيون الفرنسيين مقالاته حول الحذر الضرورى. من بين الصفحات التى يستخرجها، كانت إحدى أكثر الصفحات إثارة للدهشة هى دون شك مقاله فى ٧ أبريل ١٩١٧ الذى يعلق فيه على دخول الولايات المتحدة الحرب بعد تصويت الكونجرس عليه عشية اليوم السابق. هذا الحدث المهم الذى طال انتظاره، يخرجه موراس منذ تلك الحقبة لا بوصفه بداية عصر جديد، بل بوصفه متابعة رصينة لسياسة القوة التى لا مجال فيها للمحبة. يضع فى مركز اللوحة، الكاهن الأعمى للكونجرس، المكلف بقول الصلوات التى ترافق هذا القرار الخطير، وهو الكاهن نفسه كما يشير موراس الذى أقام الصلوات بصورة مشابهة عند إعلان الحرب على إسبانيا، هذه "الحرب فى عام ١٨٩٨ التى طبعت أول خطوة للقوة الأمريكية باتجاه أوروبا". ويتابع موراس: "لم تكن حرباً دفاعية، لا، كان يجب "تحرير" جزر جميلة، بعضها شديد القرب مثل كوبا، وهى مفيدة ومريحة للحياة فى أمريكا، وبعضها بعيد مثل الفيليبين، لكنها تعتبر جوهرية لتوسع إمبراطورية الاتحاد[٣٤]". طريقة فريدة فى استقبال الحليف الجديد الأمريكى تلك التى تتمثل فى تذكيره بدخوله الحرب عام ١٨٩٨ ضد "أوروبا"!

وإذا كان موراس يكرر الأمر بإعادته نشر هذه الصفحة عام ١٩٢٠ فلكى يصل من جديد على نحو أفضل الخيط المقطوع فترة قصيرة لنزعة معاداة أمريكا التاريخية أصلاً، وإذ يربط ضروب الفشل فى عام ١٩١٩ إلى النذر "المقلقة" فى عامى ١٩١٤ و١٩١٦، وإذ يذكر فى وسط مائدة النصر "المهانة "الأوروبية" عام ١٨٩٨، فإنه يوطد فكرة الوبال الدائم لأمريكا "نصف البربرية". وبوصفه عابراً بين عهدين من نزعة معاداة

أمريكا، فإنه يورث اليمين القومى ثروة من النقد "الثقافى" للا ـ حضارة الأمريكية، لكنه أيضًا بوصفه شاهدًا على وصانعًا لتلاشى الحب الفرنسى الأمريكى والتبلور المعادى لويلسون، فإنه يطلق نزعة معاداة أمريكا الخاصة باليمين على دروب جديدة؛ فهو يضيف من جديد على النموذج الأنجلو ساكسونى المثال المثقل بالنتائج حول تواطؤ يهودى ـ ألمانى ـ أمريكى.

قروض الحرب و"ضريبة الدم"

بعد صدمة عدم التصديق الأمريكى على المعاهدات ورفض الانضمام إلى جمعية الأمم، بدأت حرب استنزاف دبلوماسية، وسيتابعها الجمهور الفرنسى بانتباه غير معتاد وسخط متزايد؛ لأنها تمسّ نقطًا حساسة: وضع فرنسا كقوة كبرى، "حقها كغالبة" و "حريتها فى العمل" على الصعيد الدولى. وتجد نقمة موراس ضد رئيس أجنبى "يعتقد أن بوسعه أن يطالب فى قلب المجلس، قليلاً من التخلى عن حريتنا فى العمل"، خلال جلسة ٣ فبراير ١٩١٩، صدى فيما وراء الأسرة الموراسية(٣٥). تطفو على السطح ضروب الحذر القديمة، وقد فاقمت منها مخاوف جديدة.

ولد القلق من جديد فى الحقيقة من تواطؤ "أنجلو ساكسونى". ألم ترد أمريكا منذ مؤتمر السلام، أن تحابى بإفراط بريطانيا العظمى فى مجال التعويضات الاستعمارية والمالية؟ ألم تتآمر الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى لتفرضا على مؤتمر واشنطن (١٩٢١ ـ ١٩٢٢) تقاسمًا بحريًا للعالم تخرج منه فرنسا الخاسر الأكبر؟ يعود التفسير بواسطة "قرابات العرق" بقوة، وليس هناك حول صلاحيته أىّ ظل من الاختلاف بين شارل موراس وأندريه سيجفريد. "إذا تجاسرنا على قول ما لا يعترف به أى شخص، لكن الكثير من الناس يفكرون به أو يتحسسونه لا شعوريًا تقريبًا"، كما يكتب أندريه سيجفريد فى عام ١٩٢٧، إذن يجب أن تكون لدينا الشجاعة على الاعتراف أن أمريكا هى فى طريقها إلى أن تحل بوصفها "زعيمة العرق الأبيض" محل بريطانيا عظمى راضية؛ لأنها واقعية. يجب مع ذلك "أن نتوصل لنفهم"، كما يلح سيجفريد، أن الإمبريالية الأمريكية "لا تأخذ هذا الشكل من النهم"الإقليمى والسياسى الذى اتهمناها به فى نهاية القرن التاسع عشر، وأنها لا تهدف أبدًا إلى تفكيك الإمبراطورية البريطانية"، وأنها فى طريقها لأن تصير، مع موافقة دول التاج البريطانى الحماسية والقبول المحسوب للإنجليز، بلا مقاومة، مركز "مجموعة نجوم جديدة؛ حيث تقوم العلاقات السياسية فى الخلفية، لكن الروابط الإتنية والاقتصادية والاجتماعية هى التى تهيمن"(٣٦). تثير إعادة التنظيم هذه العرقية والجغرافية الاقتصادية للعالم فى آن

واحد القلق بالنسبة لفرنسا. والأفق أكثر إظلامًا أيضًا بالنسبة للذين يرون "قرابة العرق" تلعب كذلك لصالح ألمانيا؛ إذ كيف نفسر العناية الغريبة التي برهنت عليها الولايات المتحدة بالألمان الذين عوقبوا بصورة مشروعة؟ الجواب جاهز لدى موراس: "قوى إتنية وسواها: تحالفات العرق، تجمع المال(٣٧)." تلك هي الكلمة اللغز، ذلك هو مفتاح السياسة المناصرة للألمان لويلسون. لقد سخط كثير من الفرنسيين دون أن يتقاسموا ضروب يقين القومية الكاملة من "الفهم" الأمريكي إزاء "المحرضين على الحرب" الألمان.

أزمة القروض لم تكن إذن قضية مال فحسب، وأهمية المبالغ المختلف عليها لم تكن بالطبع غريبة على شراسة الخلاف، لكن عوامل أخرى أسهمت في جعلها عسيرة على الحل. والخلافات من وجهة نظر قانونية هي من نوعين. أراد الفرنسيون أن يميزوا في الديون المتوجبة عليهم إزاء الولايات المتحدة بين الديون التجارية والديون المبرمة بعد ٦ أبريل ١٩١٧ (تاريخ دخول الولايات المتحدة الحرب)، التي يعتبرونها ديونًا "سياسية". رفض الأمريكيون هذا التمييز، والمصدر الثاني للخلافات: أراد الفرنسيون ربط تسديد قروضهم بتنفيذ الألمان كاملاً لالتزاماتهم الخاصة "بتعويضات" أضرار الحرب. هنا أيضًا أراد الأمريكان الفصل بين عمليتين يعتبرون أنه لا رابط بينهما. يتمّ من جانب مائدة المفاوضات الحديث في الحسابات، ومن الجانب الآخر، الجانب الفرنسي، يتم الاهتمام بالشروط المالية لبيانات الحساب مع القناعة بأن النجدة الأمريكية هي في آن واحد ضرورية ومبررة، "ولم يصف الشعار الشهير - ألمانيا ستدفع! - السياسة الاقتصادية الأساسية للحكومة الفرنسية في نهاية الحرب"، كما يكتب وليام ر. كيلور، "ستكون بالأحرى أفضل وصفًا من خلال جملة - أمريكا ستدفع(٣٨)"، لكن أمريكا لم تكن تريد فهم ذلك. والمحاولات الفرنسية للحمل على قبول فكرة "تضامن اقتصادي بين الحلفاء" اصطدمت برفض عنيف منذ مؤتمر السلام. والأسوأ من ذلك، رفض الكونجرس المشروع، الذي دعمه ويلسون، لفتح اعتماد من قبل الخزانة الأمريكية لتمويل إعادة البناء: رفضت أمريكا ما "يتوجب عليها" لفرنسا - خطة مارشال قبل الأوان. وبالمقارنة، تبدو ألمانيا أكثر دلالاً؛ فلها بذلُ المصارف الأمريكية الكبرى، ولها أيضًا، عندما تقول بعدم قدرتها على التسديد، عطف الولايات المتحدة الدبلوماسي ودعمها.

سيطول هنا إلى حد كبير تفصيل المفاوضات والترتيبات المتعاقبة للتعويضات الألمانية. فمن انخفاض المارك إلى استحالة الدفع، تقلصت المبالغ المنتظرة من قبل فرنسا تقلصًا شديدًا. كان هناك شك في أن ألمانيا تغش، لكن المآخذ كانت توجه أكثر

للذين كانوا يسمحون لها بالغش أو الذين كانوا يمنعون فرنسا المتضررة أن تعاقب بقسوة. لقد أوجدت قضية القروض شعورًا قويًا باغتصاب الحقوق، لا لأن فرنسا تعتبر نفسها مختلسة فحسب، بل كذلك لأنها تفقد السيطرة على العملية؛ فقد كان على فرنسا في الحقيقة أن ترأس في الأصل لجنة التعويضات، لكن بوانكاريه استقال منذ ١٩٢٠ من هذه اللجنة. ويقبل بوانكاريه نفسه بعد أن عاد إلى المسئولية عام ١٩٢٢ وتحت ضغط الأزمة المالية بالخطة الأنجلو أمريكية التي أطلق عليها خطة داوز Dawes، التي أطلق فكرتها الرئيس كوليدج Coolidge واللورد كورزون Curzon. وفي نهايةعام١٩٢٣، سُحب الاختصاص من لجنة التعويضات لصالح لجنة داوز ولجنة باركر التي يتوجب عليها أن تعكف على إعادة بناء ألمانيا. لم يكن هناك بعد ما يتعذر إصلاحه، لكن الدور الأولوى الذي سيلعبه من الآن فصاعدًا أصحاب المصارف والسياسيون الأمريكيون في الحل المزدوج للتعويضات والقروض حافل بصراعات لا مفر منها تقريبًا، وكان من السهل تقديم الخطط المتعاقبة التي كان كل منها في غير صالح فرنسا للرأي العام بوصفها "مخلوقات أمريكية غير شرعية"(٣٩).

في عام ١٩٢٧، فترة هدوء ظاهرية. إن ميثاق بريان - كيلوج Briand-Kellog الذي وضع الحرب "خارج القانون" يبدو رسمًا إجماليًا للتقارب الدبلوماسي. أما اتفاق ميللون - بيرانجيه Mellon-Beranger لتوثيق القرض والموقع من قبل بوانكاريه عام ١٩٢٦، ولكنه المتروك على الرف بأمل إعادة مفاوضة أكثر فائدة؛ فقد صدق في النهاية من قبل المجلس الذي طرح عليه بوانكاريه مسألة الثقة في عام ١٩٢٩، وفي السنة نفسها، سُميت لجنة خبراء برئاسة المصرفي الأمريكي أوين يونج، لإعادة جدولة القرض، وسوف تطالب بإنشاء مصرف للتسويات الدولية، يتمتع بسلطات واسعة في التنسيق وسوف يُشهر به على الفور في فرنسا بوصفه أداة السيطرة الكاملة للولايات المتحدة على المالية الأوروبية.

يقدم بول رينو خطة يونج إلى مجلس النواب في ٢٨ مارس ١٩٣٠، تحدث أندريه تارديو في ٢٩، وكلاهما سيكونان في مجلس الشيوخ يوم ٥ أبريل. ومن نقاش فني صارت قضية الديون نزاعًا عامًا مشحونًا بعنف بالعواطف، استولت الصحافة عليه، وكذلك الأدب. أما بول موران الروائي المستعجل فقد نقل هذا الشجار المالي الذي صار صدمة ثقافات في رواية ***بطل العالم*** ***Champion du monde*** في هذه السنة نفسها ١٩٣٠(٤٠). تكاثرت المقالات والأبحاث التي تشهر بـ"الشراسة" الأمريكية، وتتخذ هدفًا مفضلاً مصرف التسويات الدولية. لقد اتهم هذا المصرف منذ بداية النقاش في البرلمان من قبل جاستون بيرجري وجورج بونيه بوجه خاص، الذي قلق من قوته المالية الخارقة.

أما أندريه تارديو فقد حاول فى مجلس الشيوخ السخرية: "بدا لهم أن جدار المال قد تحول إلى قلعة (ابتسامات)، وأن مصرف التسويات الدولية سيصير إلى ما لا أدرى أى سلاح فى السيطرة الرأسمالية ضد الحكومات، وضد المواطنين[٤١]". وعلى تظاهر تارديو بالظن أن الاعتراضات تأتى فقط من يسار مصاب بالذهان الهذيانى، ومهووس بـ"جدار المال" المسئول عن فشله الحكومى فى عام ١٩٢٤، فإن الحقيقة هى أن العداوة حادة على اليمين بقدر ما هى على اليسار، ضد تسديد القروض وضد "ديكتاتورية" مصرف التسويات الدولية.

يجرى المشهد الأخير اعتباراً من ١٩٣١، أوصلت الأزمة الرئيس هوفر إلى وضع تأجيل لمدة سنة يوقف فى آن واحد دفع التعويضات الألمانية إلى فرنسا ودفع القروض الفرنسية للولايات المتحدة. وأمام وضع ألمانيا، صفى مؤتمر لوزان فى يوليو ١٩٣٢ التعويضات: دفعت ألمانيا ١١ مليار فرنك ذهبى، أى أقل من عشر المبلغ المحدد فى مارس ١٩٢١ فى مؤتمر لندن. لخص أندريه تارديو فى عام ١٩٣٤ هذه المحاسبة التى تجعل من فرنسا فى عيون الكثير من الفرنسيين ضحية حلفائها القدماء ومغبونة عدوها القديم. بالنسبة له، لم تدفع ألمانيا من ١٩١٩ إلى ١٩٣٢ سوى ٦٪ من المبالغ المحددة فى المعاهدة و٢٪ من نفقات الحرب والأضرار الناتجة عن الحرب معًا، ويضيف أنه بدلاً من أن تخنق ألمانيا فإن خطة يونج لا تمثل بالنسبة للألمان إلا مصروفًا بـ ٣٠ ماركًا لكل ألمانى فى السنة. هذا هو بوضوح الأذى المالى الذى سببه "الأنجلو ساكسونيون لفرنسا بالاتفاق مع الألمان"[٤٢]. ربما كانت هذه الجملة الصغيرة الأخيرة بقلم أندريه تارديو أكثر انفجاراً من أرقامه أو من طعون العمل الفرنسى.

بانتهاء الأجل الذى وضعه هوفر، كان على باريس (التى لم تعد إذن تتلقى شيئًا من ألمانيا) أن تستعيد تسديداتها للأمريكيين. وافق إدوار هيريو على ذلك. وعرض الخطر على فرنسا فى إلحاق الضرر برصيدها الدولى، وبأن تعزل نفسها دبلوماسيًا. وذكر أن القروض المتنازع عليها قد اكتتب عليها حوالى ستين مليونًا من الأمريكيين، وسيكون للتوقف الفرنسى عن الدفع أثر مدمر لا على القادة الأمريكيين فحسب، بل على رجل الشارع. عبثًا: انقلب المجلس عليه بـ ٤٠٢ صوت مقابل ١٨٧، وفى ١٥ ديسمبر ١٩٣٢ أعلنت فرنسا من جانب واحد توقفها عن الدفع، و عنونت جميع الصحف فى الولايات المتحدة هذا التقصير فى الالتزامات: ***France default***. سيعطى وصول روزفلت إلى البيت الأبيض فى بداية ١٩٣٣ اللحظة الأمل للفرنسيين فى أن يفهموا على نحو أفضل. ومنذ ٢٠ فبراير ١٩٣٣، كان لسفير فرنسا، بول كلوديل، محادثة مع الرئيس الجديد لتحضير زيارة بعثة من مستوى عال يقودها هيريو فى

أبريل - بعثة لم يكن يسهلها تخلى الولايات المتحدة عن الذهب، فى حين يجتاز هيريو الأطلسى. لن يكفى هذا الجهد لحل عقدة الديون العويصة، ولا على حلحلة خيطان صرة النقود الفرنسية. فى ١ يونيو ١٩٣٤، أعادت رسالة من روزفلت إلى الكونجرس صياغة الموقف الأمريكى المتعذر مسّه: القروض والتعويضات لا مقارنة بينها. وعلى الخيبة الفرنسية يجيب السخط الأمريكى خلال ما تبقى من السنوات العشر، وسيذكر الكونجرس كل سنة عبثًا فرنسا بالتزامات كانت قليلة الرغبة وأقل قدرة فأقل على القيام بها.

العم سام أم العم شايلوك؟

فيما وراء تضارب التأويل حول طبيعة الديون، وفيما وراء الاختلاف حول العلاقة بين تسديد الديون الفرنسية ودفع التعويضات من قبل ألمانيا، وفيما وراء حتى الفروق العميقة بين الثقافات القانونية، فإن ما يدهش أكثر فى ردود الفعل الفرنسية هو "الطابع الذاتى" القوى الذى أضفى على المشكلة وتأويل الأزمة بمفردات عاطفية أو رمزية. تكتلت فرنسا كتلة واحدة. يسجل المؤرخ دونالد روى ألن Donald Roy Allen، "لمرة واحدة استجاب الرأى العام الفرنسى استجابة رجل واحد - مع مشاعر اختلطت فيها الكبرياء المجروحة، وغضب الضمير الحى والثقة فى كونه على حق"(٤٢)، حتى ولو لم تكن المرة الأولى التى يكون لمعاداة أمريكا فيها هذا التأثير السحرى على الانشقاق الفرنسى، فإن الإجماع فى الحقيقة مذهل. دفعة واحدة، هجر المسئولون السياسيون وكُتَّاب الصحف الميدان القانوني (حيث الأرض باعترافهم ليست صلبة) ليحاولوا فرض منظور سياسى أو أفضل أيضًا "أخلاقى" على الخلاف. من غير المفيد القول إن هذه الأخلاق ليست هى أخلاق الأمريكيين الذين سيعتبرون أن التقصير الفرنسى فى التزامات تجارية عادية انعدامٌ محض للشرف.

يستدعى خط الدفاع الفرنسى منطقًا آخر، يدافع عنه تارديو نفسه: سواء اعترف بذلك الأمريكان أو لا، أقامت خطة يونج علاقة لا نزاع عليها بين الديون التى يزعم أنها "تجارية" والمسألة السياسية للغاية المتمثلة فى التعويضات المتوجبة على ألمانيا. ليس هناك أى شخص فى فرنسا يقبل الرؤية الأمريكية للمشكلة، حتى ولا أنصار التسديد. يدحض ريمون ريكولى Raymond Recouly الذى يعتبر أن الكلفة السياسية لعدم الدفع ستكون أشد إيلامًا من الفاتورة المالية، مع ذلك بقناعة المقاربة الأمريكية. إنه يرى فى الصدام بين فرنسا والولايات المتحدة صراعًا بين فكرتين عن العدالة. "قانونيًا، يمكن للولايات المتحدة أن تكون على حق. أما سياسيًا وأخلاقيًا، فإنها

لن تحمل مدينيها الأوروبيين أبداً على قبول أن الدَّيْن فضلاً عن أنه دين حرب، وهو ما يعطيه طابعًا مختلفًا تمام الاختلاف عن الديون العادية، لا يجب إعادة النظر فيه، بنفس النسب التى أرغمهم خطاب هوفر على أن يعيدوا النظر بموجبها فى ديونهم على ألمانيا(٤٤)"؛ ذلك بجملة واحدة تذكير بالموقف المتعذر مسّه للمفاوضين الفرنسيين (هذا الدَّيْن هو دين "خاص") والتشهير بالمعاملة المتميزة الممنوحة للألمان تحت ضغط الإدارة الأمريكية ذاتها التى تزعم أنه لا يتوجب عليها التدخل فى حالة الديون الفرنسية محض "التجارية".

على صعيد المبادئ، تنكر جبهة الرفض، وهى أكثرية كبيرة فى الصحافة والرأى العام الفرنسى حين جرى النقاش البرلمانى عام ١٩٢٦، التقنية والنزعة القانونية لدى الطرف الأمريكى لتذكر بعلل أخرى: المسئولية السياسية، العدالة، أخوة السلاح. على الصعيد التكتيكى، كان المقصود تبيان النية السيئة للأمريكيين، شديدى الحضور فى المساومات المالية الأوروبية، لكنهم يريدون استبعاد الدين الفرنسى من المفاوضات الشاملة الجارية تحت رعايتهم. يقول ريمون ريكولى نفسه عن الأمريكيين، "إذا كانت قضية التعويضات لا تعنيهم، فلا عليهم إلا أن لا يهتموا بها"(٤٥)؛ فالتدخل فى العملية عبر لجنة داوز وخطة يونج وخاصة فوائد التأخير لهوفر يعنى الالتزام، والالتزام بوصفهم أمة، أعاد المجادلون الفرنسيون على هذا النحو بدهاء تسييس الإجراءات التى أرادها الأمريكيون محض تقنية. ويجد مأخذ النفاق الذى غالبًا ما قرن بالسلوك "المتزمت" فى الماضى أفضل مجالاته هنا. لا يمكن التصديق ثانية واحدة بـ"***non entanglement policy***" الذى يروج له الأمريكان حين لا يكف هؤلاء فى الواقع عن التدخل فى أوروبا بواسطة بعثات مراقبيهم، وخبرائهم، وسياسييهم كما يشير ريجيس ميشو **Régis Michaud**، وهو كاتب فى مجلة ***Revue universelle*** ومؤلف كتاب حول "***الروح الأمريكية L âme américaine***(٤٦)". ويتحول انعدام الشرف إلى وقاحة حين تنصح الصحافة الأمريكية مدينينا أن يتركونا لمصيرنا فى حين يستعمرنا رجال مصارفهم ورجال أعمالهم ويحاصروننا، ولا يفوت البعض من ثم أن يحملوا على ملاحظة أن الشركات الأمريكية قد حققت أرباحًا ضخمة خلال الحرب وبعد الحرب مباشرة، وهى أرباح سببت بدورها ضرائب هائلة. واعتماداً على الأرقام المنشورة من قبل الخزانة الأمريكية، استنتجت مجلة باريس أن "السُلَف" التى دفعت للحلفاء قد تم "أكثر من تعويضها"(٤٧). وهكذا فلنكرر... هذا الخط فى المحاجة الذى كان الفرنسيون وحدهم يجدوه مقنعًا يعيد بصورة دقيقة إنتاج المحاجة المعتمدة قبل قرن لرفض تعويض المصادرات النابليونية: كان أصحاب السفن الأمريكيون، كما يحاجّون فى فرنسا، قد

حققوا خلال الحصار أرباحًا من الضخامة بحيث لا يجوز لهم الشكوى من بعض المصادرات التعيسة...

تجديد "الوفاق الأنجلو ساكسونى" ميزات منحت لألمانيا للألفة أو للمصلحة (لحماية استثمارات طائشة): إقامة هيئة فوق القوميات، مصرف التسويات الدولية الذى يهدد سيادتنا: كل شيء يتآمر للإضرار بنا فى موقف واشنطن، كما حلل فى فرنسا، من قبل اليسار ومن قبل اليمين. من اليمين بوجه خاص؛ فالمناضلون الملكيون ومناضلو الصليب النارى الذين هم الذين نظموا المظاهرات فى عام ١٩٣٢ ضد المطالبات الأمريكية. إنه العمل الفرنسى الذى حافظ على امتداد الأزمة على الخط الأشد معاداة للولايات المتحدة فى الصحافة كلها. إنها الصحف والمجلات اليمينية التى كانت الأشد نفاذاً. إنه السرطان الأمريكى لآرون ودانديو الذى يرعد ضد مصرف التسويات الدولية، الذى أعيد تعميده على طريقة سيلين: "الكنيسة الدولية"[٤٨]، لكن إذا جاء التحريض بالأحرى من اليمين، فإن مؤلفات المناسبات المعادية لأمريكا تصدر عن كل الطيف الأيديولوجى، وتشارك هم العنوان نفسه الصدمة: *العم شايلوك* *L'Oncle Shylock* لـ ج. ل. شاستنيه (1927) J.L. Chastanet، *الإمبريالية الأمريكية* *L'Impérialisme américain* لأوكتاف هومبرج (1929) Octave Homberg، *الرجس الأمريكى* *L'Abomination américaine* لكادمى ـ كوهين (1930) Kadmi- Cohen، *أمريكا تبحث عن غزو أوروبا* *L'Amérique à la conquête de l Europe* لشارل بوماريه Charles Pomaret (1931). الكتاب الأول والكتاب الأخير هما كتابان برلمانيين يساريين، والثانى، هو لمفاوض أول قرض حرب فى عام ١٩١٥، والثالث لباحث يتوزع إعجابه بين أندريه سيجفريد وأرستيد بريان، والذى يدعو إلى محور باريس ـ برلين ـ موسكو كعمود فقرى للولايات المتحدة الأوروبية القادمة. الثلاثة الأول معادون لأمريكا بصورة عنيفة؛ أما الرابع، وهو أكثر حياداً، فإنه يقدم بالأرقام الملف الاقتصادى والمالى للهيمنة الأمريكية.

إذا كان *العم شايلوك* يبرز من المجموعة، فلعنوانه أكثر من محتواه العادى فى معاداته لأمريكا. لويس شاستنيه مناضل نقابى عبر إلى السياسة، وقد انتخب نائبًا عن الإيزير Isère عام ١٩٢٤ على قائمة "كتلة اليسار"، وسيعاد انتخابه فى عام ١٩٢٨ فى تور ديه بانTour-du-pin. يفحص كتابه *العم شايلوك* السياسة المالية للولايات المتحدة، ويطور – دون أصالة كبيرة – أطروحة الإرادة الأمريكية فى استعباد أوروبا بواسطة القرض. أن يسدد قرضهم يقل أهمية لدى الأمريكيين عن إمكانية التغلب على مدينيهم: "إن ما يفتن [أمريكا] أكثر بكثير هو الابتزاز الدائم الذى تسمح مثل هذه المسألة بممارسته علينا[٤٩]". فى سنة ١٩٢٧ نفسها، كان كتاب لم يحلم امرؤ باعتباره كتاباً

جداليًا وهو *الولايات المتحدة اليوم* لسيجفريد يضع الإقرار نفسه بمفردات مماثلة فى حميتها: "ليس لـ[أمريكا] أن تجامل شيئًا أو شخصًا ما؛ إنها تستطيع لو راق لها أن تتصرف بصورة تعسفية: خنق الناس والحكومات، نجدتهم بشروط تختارها هى ذاتها، ومراقبتهم أخيراً ـ وهو أمر تحبه فوق كل شىء ـ والحكم عليهم من ذرى تفوق أخلاقى وفرض دروسها عليهم(٥٠)". يجارى شاستنيه الآخرين: "يمكن السيطرة على العالم دون غزوه. وبالنسبة [لأمريكا] إقراض المال للآخرين هو وسيلة للسيطرة عليهم. ولقد أقرضت العالم كله(٥١)". ليست أطروحة شاستنيه إذن هى التى تضفى طابعًا خاصًا على الكتاب، بل التواء الصور المكشرة التى يكبدها لأمريكا: U.S.I هذان الحرفان كانا أولاً الحرفان الأوليان للعم سام. وأنتم تعرفون العم سام الطيب والكريم، لكن هاهو قد مضى من الحياة إلى القبر."وخلفه العم شايلوك. إنه من نوع آخر وله وصية وحيدة: "مارس الربا مع الكثير من الأمم وسيطر عليها(٥٢)". إنه هو، من الآن فصاعداً، الذى "يقف فى كواليس العالم"؛ "إنه هو الذى يتكلم أولاً"، هو أيضًا لن يحمل ما يفعله معه إلى الجنة؛ لأن "أمريكا بتوزيعها مالها فى كل أنحاء العالم تقريباً لم تنجح فى الوقت نفسه إلا فى أن تزرع الكراهية. وعلى وجه الاحتمال فإنها فوائد هذه الكراهية ما ستحصده". وفى سبيل مثل أخير عن العقاب، يغير شاستنيه من الأسطورة: فهو يذكر سيروس سجين الأمازون الذى تجبره ملكتهم على أن يشرب كأسًا من الذهب المصهور حتى يموت، لكن الدرب الحقيقى كان مشاراً إليه بصورة واضحة منذ الصفحة الأولى من خلال الاستشهاد فى بدايتها باسم توسنيل Toussenel، الذى ألف فى عام ١٨٤٥ كتاب: *اليهود، ملوك الحقبة Juifs, rois de l époque*.

صار "العم سام" بالنسبة لكثير من الفرنسيين فى نهاية سنوات ١٩٢٠ كما يسجل المؤرخ دافيد ستروس، "العم شايلوك"، ويبدو نجاح اللقب فى الواقع لا ريب فيه(٥٣) وذا دلالة لأكثر من سبب؛ فالمرجع إلى أشهر المرابين فى التقاليد الغربية يكثف المآخذ التى زاد من حدتها فى الرأى العام الفرنسى النقاش حول التسديد: إغواء الثروات العالمية وإعادة استثمارها بالمضاربات ذات الخطر الشديد على أوروبا كلها، لكن انزلاق أمريكا من "دائنة العالم" إلى أمريكا المرابية الكونية قد سهله أيضًا البث السريع اعتباراً من سنوات ١٩٢٠ لصور جديدة عن أمريكا تؤالف بين معاداة أمريكا ومعاداة السامية، وسنكتفى بالإشارة هنا ـ قبل العودة إليه فى الفصل التالى ـ إلى التزامن الكامل بين ظهور ثيمة شايلوك وتعميم فكرة "التأثير" اليهودى فى الولايات المتحدة(على يد سيجفريد بوجه خاص). الثيمة ملحة فى طبعة ١٩٢٧ من كتاب *الولايات المتحدة اليوم*؛ فما داموا "يبقون بصورة إرادية أم لا مجتمعين فيما بينهم" كما يفسر

سيجفريد، فإن اليهود "يبقون فى حالة خميرة متباينة، وبوسعنا تميزهم بلا اختلاط فى عمق البوتقة" الأمريكية. بهذه المقاومة لـ"الأمركة"، فإنهم يزيدون من ثقلهم الخاص فى المجتمع الأمريكى(٥٤). يقف اليهود إذن "جانبًا"، ولكن (بالنسبة للبعض منهم) على القمم وبين "كبرى القوى الأخلاقية والمالية للبلد"(٥٥). يأتى العم شايلوك فى وقته ليجسد أمريكا الجديدة ذات الرأسين هذه، حيث يتم تقاسم السلطة المالية (أو النزاع عليها) بين اليهود واليانكيين الذين يذكرنا آرون ودانديو أن "المضاربة موجودة فى دمائهم".

والحال أنه من حول رموز الدم إنما تنتظم الحلقة الجديدة من الخطاب المعادى لأمريكا التى تتمثل فى أزمة ديون الحرب: الدم أو بالأحرى الدماء.

هناك أولاً المعادلة "الإثنية" التى تعقدت منذ ما قبل ١٩١٤؛ حيث كانت تعتمد جوهريًا على التعارض بين الأنجلو ساكسون والشعوب اللاتينية. لن يختفى هذا التعارض، لكن سجل ضروب التوتر و"القرابات" يغتنى. على الرغم من أسطورة الأصول التى تقتضيها الأنجلو ساكسونية فإن الخطاب المعادى لأمريكا قبل ١٩١٤ كان كما نذكر قد فصل حالة الألمان، أبناء العم "غير الأشقاء إلى هذه الدرجة" عن الأمريكان(٥٦). والحال هاهم أبناء العم البعيدون الذين تقاربوا فجأة واجتمعوا لا بالأرومة الأنجلو ساكسونية بل بحضور جماعات يهودية مهمة تربطها على طرفى الأطلسى عادات ومصالح دون الحديث عما يسميه سيجفريد "جماعة عرقية غامضة"(٥٧).

لكن هناك فى قلب الجدل المعادى لأمريكا فى سنوات ١٩٢٠ حرب دم أخرى: إنها المماحكة حول الدم المبذول، والمغدق؛ الدم المراق دون حساب كما يردد الخطباء والصحفيون؛ الدم الذى أهدى قديمًا للمتمردين، وسال هذه المرة على أرض فرنسا، ولكن من أجل حق الجميع. والحق أنّ هذا الدم هو الذى يريد الفرنسيون اليوم أن يحملوا على الاعتراف بقيمته وتحديد ثمنه. إنهم يريدون أن يؤخذ فى الحساب فى خلاف الدين.

لا يعيد مجاز شايلوك إذن بطريقة جلية إلى أمريكا المرابية وبطريقة ضمنية إلى أمريكا ما "متهوِّدة" فحسب. إنه يشير أيضًا إلى فرنسا التى وفت دينها بـ"كتاب لحمها"، التى دفعت أكثر مما يجب من دمها كى تُطالبَ بالغرامة. إن النجاح الأسطورى لـ"العم شايلوك" يكرر على نحو شديد الدقة الانتصار السياسى الذى حصل عليه لويس ماران Louis Marin فى مجلس النواب فى يناير ١٩٢٥، يعتمد دليل ماران الذى تكلم عن تسديد الدين الأمريكى على لا عدالة مطالبة تزعم نسيان التضحيات البشرية

المبذولة من فرنسا. يشير ماران، "لا أحد ينسى فى العالم كله، أنه ليس هناك حساب مدين وملك يتناول المال، بل حساب يتناول حياة البشر والآلام وضروب الخسارة فى كل مجال، والذى يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار [...]"(٥٨). ولا ينسى أن يذكر (حتى ولو بالتعريض) أن "الولايات المتحدة لم تدخل الحرب إلا متأخرة. لا أقول إنها دخلتها كعمال الساعة الحادية عشرة". إن قروضها هى - بكل بساطة - الشكل الذى اتخذه الجهد الحربى الأمريكى؛ إذ لما لم يكن لديها(بعد) ما تهبه من الرجال فقد قدمت أمريكا مالها، فى حين دفعت فرنسا ضريبة الدم. الموازين إذن متعادلة والحسابات مصفاة، مهما كان رأى الأمريكان بذلك، لا بل إن الثمن الفرنسى المدفوع كان أثقل بكثير مما ستكون عليه النفقات الأمريكية؛ فالمدينون ليسوا من يشار إليهم أو من يراد الحمل على الظن بهم.

يشهد على النجاح الكبير لخطاب ماران لدى الجماعات البرلمانية كافة ملخصات الجلسات وقرار طبع نص خطابه وتعليقه على الجدران فى قرى فرنسا كافة، لكن الإجماع الفرنسى ضد الشراسة اليانكية قد ختم ذلك اليوم بخاتم غريب؛ إذ من يزن هنا اللحم المقتول ويقيس الدم المهدور إن لم يكن المشهّرون أنفسهم بشايلوك الأمريكى؟ من يقدم لـ"محضر" أوروبا القضائى كما يقول سيجفريد، بيانًا بموتاها متبوعًا بإشارة "سدِّد" إن لم تكن فرنسا عبر صوت النائب ماران؟ بقلبٍ للأسطورة غريبٍ ولا واعٍ، يزعم الفرنسيون أنهم مَنْ دفعَ، أو بالأحرى يؤكدون أنهم سبق ودفعوا باللحم البشرى دينًا تطالبهم أمريكا بصورة مبتذلة بدفعه بالنقود الرنانة. تنغمر سيناريوهات تصفية الديون البلاغية على هذا النحو فى جو من التباس معمم. يشهد على ذلك الافتتاحية الصحفية الشهيرة لبيير سيز **Pierre Scize** فى صحيفة ***Le Canard enchaîné*** محتجًا على إعدام ساكو وفانزيتى: يُشهر سيز وسط قائمة بالمآخذ بأمريكا هذه التى "تصك النقود بجنود موتى"(٥٩). إسقاط عجيب على الأمريكيين - الذين يؤخذ عليهم على وجه الدقة قلة الجنود الموتى - يتمثل فى هذا الاتهام الذى يصف بدقة كبيرة الجهد الفرنسى العنيد لمبادلة خسائره البشرية بتصفية الديون.

كان جورج دوهاميل أحد أقل الناس عمىً من هذه الناحية. فهناك فصل غريب نادرًا ما استشهد به من كتاب مشاهد من الحياة القادمة ***Scènes de la vie future*** يتناول أمريكا بوصفها "مجتمعًا تأمينيًا"(٦٠): مجتمع كل دم فيه يمكن أن يعوض؛ حيث يكلف تعويض ضحايا الاصطدامات أقل مما تكلفه الإجراءات الضرورية لتلافيها، لكن وراء النقاش الملتبس حول أخلاقية أو لا أخلاقية هذا المجتمع التأمينى الذى يقوده القاص مع السيد ستون المتصلب تتضح الإشارة إلى السجال الفرنسى الأمريكى حول

ثمن الدم؛ فالسيد ستون الذى اغتنى بتقليصه "من ٧٨ إلى ٤ عدد أنماط الأسرة المعدنية التى تم تبنيها فى كل أنحاء الاتحاد" هو أيضًا من يقلص القيم غير المادية. "ماذا تريد أن تدخل فى حساب ما؟" يسأل مقلص الأسرة دوهاميل. "عناصر عاطفية لا يمكن قياسها وتهدد بتزييف الحساب دون فائدة لأى شخص؟" هذا يعنى تكرار جواب أمريكا على المطالبة الفرنسية للأخذ بعين الاعتبار موتاها فى فاتورة الحرب؛ فهذه العناصر العاطفية فى نظر الأمريكيين يجب أن "تستبعد من المائدة"، كما يعلق سيجفريد: "عندما حانت ساعة تسوية الديون بين الحلفاء، فإن ذكر العمل الضخم المنجز بصورة مشتركة على أرض المعركة قد استبعد ببرودة كما تستبعد من المائدة وثائق غير مفيدة لتصفية المصالح"[٦١]. ذلك قول عنيف، ولكن هل هو غير مبرر؟ وعلى العكس، هل الفرنسيون على حق فى المطالبة بـ ***pretium doloris*** عن ملايين موتاهم؟ هل يمكن، وبصورة خاصة، هل يجب أن يكون هناك "تعويض" عما كان يسميه النائب ماران نفسه "العناصر غير القابلة للتقدير"[٦٢]؟ دوهاميل بعيد عن أن يكون على يقين من ذلك؛ فبقبول التعويض المالى عن التدليس البشرى، كما يدافع، "أعرف [...] أننى أوافق على المتاجرة ببعض القيم الأخلاقية، وأننى [...] أقلل من قيمتها وأحقرها، وأننى أجعل الحياة والموت والألم والفرح، لتركها تختص بقيمة تجارية، تفقد جزءًا من قيمتها الإنسانية"[٦٣]. ويضيف دوهاميل: ومع ذلك فإننى أؤمن على نفسى شأن كل الناس فى فرنسا، و"أحجب بكلمة لاتينية بعض هذه التقديرات".

وهكذا، فإن مؤلف مشاهد من الحياة القادمة الذى لا تفوته أية فرصة للاحتجاج ضد أمريكا التزم حول ديون الحرب صمتًا كاملاً بقدر ما هو بليغ. لقد فهم، هو على الأقل، أن الميدان "الأخلاقى" لم يكن أفضل من الميدان القانونى.

خطة مارشال والشرطة العسكرية

من قرض إلى آخر؟ ما حلم به الفرنسيون دون الحصول عليه عام ١٩٢٠: اعتماد مفتوح من قبل الخزانة الأمريكية لإعادة البناء، سيتلقونه فى عام ١٩٤٨ دون أن "يستجدوه" - حتى وإن كان الفعل يتكرر غالبًا فى الصحافة - تحت اسم خطة مارشال. هبة بمليار وثلاثمائة مليون دولار منحت لفرنسا من قبل المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادى المكلفة بتوزيع الاعتمادات الأمريكية للفترة من ٣١ مارس ١٩٤٨ إلى ١ أبريل ١٩٤٩. والخطة قابلة للتجديد من سنة إلى أخرى حتى عام ١٩٥٢، وتترجم صحيفة فرنس سوار لقرائها ذلك: "ثلاثمائة مليار!" من الفرنكات. "إيراد سنوى بحوالى

٧٢٠٠ فرنك لكل فرنسي ولكل فرنسية[٦٤]". إيراد؟ الكلمة مؤسفة... تتساءل الصحيفة أيضًا: ما موضوع خطة مارشال؟ إنه "أنبوبة أوكسجين". ليست فرنسا ناقهة حرب فحسب. لقد صارت اقتصاديا مريضة أوروبا الكبرى. يشير ريمون آرون إلى ذلك مطولاً وبصبر في سلسلة من المقالات في صيف ١٩٤٨: "من بين كل بلاد أوروبا، يبدو ميزان حسابات فرنسا في أسوأ حال[٦٥]". وها هو يعود، هو الآخر، إلى الاستعارات المنجدة. "لسنا أنصار أو خصوم أنبوب الأوكسجين أو الحقن بإبرة زيت الكافور[٦٦]". إنه يعرف تمامًا أن نعم؛ فلخطة مارشال أنصارها الذين يرون فيها سلامًا، أو في الوقت الحاضر، إعادةَ إنعاش فرنسا، ولها أيضًا خصوم عتاة ومنظمون يعتبرونها مخدراً قاتلاً، ستثير الهبة الضخمة المعلن عنها من جديد أيضًا درامية القرض. كان معادو أمريكا ١٩٣٠ يرفضون التسديد، ومعادو أمريكا ١٩٤٨ يرفضون التلقي، لكن على الدوام كما سنرى باسم الثمن الدامي المدفوع أو الذي سيدفع.

وضعت هذه المعركة الشيوعيين على الخط الأول. لقد طرد وزراؤهم من الحكومة عام ١٩٤٧، ثم إن الاتحاد السوفياتي بعد بداية المفاوضات التي قادها مولوتوف رفض المشاركة في برنامج مساعدة أوروبا. أما وقد عاد الحزب الشيوعي إلى حريته فجأة، فإنه استنفر كامل قواه ضد الوجود الأمريكي في فرنسا وضد سياسيي "الحزب الأمريكي"، تلك بداية حملة طويلة وعنيفة. قدمت فيها خطة مارشال بوصفها حصان طروادة للتبعية الاقتصادية الفرنسية ولا سيما القسم الأول من عملية حرب شاملة ضد الاتحاد السوفياتي. هوجمت المساعدة الأمريكية إذن من زاويتين: كصفقة سيئة أبرمت لصالح بعض السياسيين المباعين وحدهم، تقود مباشرة إلى العبودية الاقتصادية (والثقافية)، وكدوامة حتمية نحو الحرب، تستخدم الدولارات كطعم لجذب فرنسا إلى حلف الأطلسي، ولاستخدام أراضيها لغايات عسكرية ولتجنيد جنودها في الحرب الأمريكية القادمة. لا شك أن هذه الحملة لم تمنع قبول وتطبيق خطة مارشال، لكنها نجحت بحجمها كما يعترف من المعسكر المقابل ريمون آرون في "إرهاب أنصار الخطة". ولنضف: وفي منح معاداة أمريكا في فرنسا بعداً جديداً، يسارياً وشعبياً.

تسمح دراسة لوزارة الخارجية الأمريكية بتقدير نجاح الهجوم المعادي لأمريكا؛ فبعد سنة من المصادقة عليه، هناك بين غير الشيوعيين ثلث من الفرنسيين فقط ممن يصرحون بموافقتهم على خطة مارشال[٦٧]. كيف استطاع قطاع بمثل هذا الاتساع من الرأي العام أن يقف ضد منحة غير منتظرة (حتى وإن لم تكن في الحقيقة غير مغرضة)؟ أول جزء من الجواب يجب البحث عنه في الجهد الهائل الذي بذل في الدعاية

من قبل الشيوعيين، الذين قام على أكتافهم الجزء الجوهرى من الحملات، لكن هذه الحملات نفسها مدينة بنجاحها إلى إعادة التنشيط الماهرة لموضوعات نزعة معاداة أمريكا السابقة القادرة على مسّ جمهور واسع ومتباين.

تمّ تثبيت الحجج منذ عام ١٩٤٨، وسنجد عرضًا قويا لها فى كتاب جورج صوريا الذى ظهر فى مايو، وكتب مقدمته فريديريك جوليوت - كورى، هل ستصير فرنسا مستعمرة أمريكية؟ الهدف الأولى هو تحطيم أسطورة "الهبة" أو "المبادرة الكريمة" من قبل الأمريكيين. كيف نحمل الفرنسيين على أن يصدقوا أن الأمريكيين الذين قلّ ما اشتهروا بغيريتهم مستعدون لشدّ أحزمتهم على البطون فقط من أجل أن يريحوا خمس عشرة أمة بعيدة وفقيرة؟ ذلك لأن فى خطة مارشال الكثير من الغُنْم للولايات المتحدة، بدءًا من الأسواق الجديدة. إن الأمريكيين يقومون بالتثمير؛ فما "يعطونـ"ـه لنا، ينوون استعادته بأكثر منه، كيف؟ ولكن كالعادة: باللحم البشرى، بلحم المدافع، كل ذلك – كما يقول صوريا – هو فى آن واحد "بسيط وبارع".

لنلخص السيناريو، ولدت خطة مارشال من مؤامرة اتخذت شكلاً لها فى اللحظة ذاتها التى كان الوزراء الشيوعيون الفرنسيون يسرحون، لكن المشهد الأول جرى فى واشنطن فى مارس ١٩٤٦، حين ذهب ليون بلوم، السفير فوق العادة لحكومة جوان، ليفاوض اتفاقات بلوم - بيرنز الشهيرة. أول قسم من هذه الاتفاقات يقضى بإلغاء ديون الحرب الفرنسية، هل يجب شكر الأمريكيين؟ قطعًا لا! مجرد "حساب" أمام أنقاض فرنسا، كما يعلق صوريا، "إجراء ذكى وللحماية الذاتية "[٦٨]. صفقة مغبونين أيضًا؛ فقد انتهزها الأمريكيون فرصة ليتخلصوا من فوائضهم غير المحتملة مع إرغامنا على شراء معدات ***Liberty - ships*** غير قابلة للاستخدام...لكن الأسوأ متضمن فى القسم الثانى من الاتفاقات، الذى يفرض على فرنسا أن تتخلى عن الحماية التى لا غنى عنها لصناعاتها. المقصود إذن تخل تام عن "جزء من السيادة القومية"[٦٩]، هذا التخلى الإرادى الذى عظّمه وأراده بلوم يتكشف عن خضوع يؤدى إلى الخيانة؛ فحزب الأمريكيين يتصرف حسب "أطروحة ذات روح ميونيخية كليا". ومن الجانب الاقتصادى يسعنا الآن الانتقال إلى الجانب السياسى - العسكرى.

لأن تسليم العدو الاقتصادَ القومى ليس إلا مرحلة فى الخضوع الكامل للإرادات الأمريكية، لا تنظم خطة مارشال الاستعمار الاقتصادى لفرنسا فحسب، بل تهيّئ تبعيتها العسكرية. تقوم المرحلة الأولى دبلوماسيًا على وضع الغالبين والمغلوبين على صعيد واحد: لن يُكتفى بألا تكون هناك "تعويضات" ألمانية فحسب، بل إن ألمانيا التى لم

يُقض على النازية فيها ستعاد من جديد إلى مركزها. تلك أولوية لأنصار الحرب الأمريكيين فى الصراع المنتظر مع الاتحاد السوفياتى، والجانب الخفى (بصورة رديئة) من المنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادى هو أن تؤدى مباشرة إلى المجموعة الأوروبية للدفاع وإلى حلف الأطلسى. "كل ذلك ينطوى على رائحة رهيبة، رائحة معروفة: ميونيخ! "التقى صوريا، بوصفه صحفيًا، المفاوضين الفرنسيين: "كان هؤلاء الناس ينوون الاستعمار الاقتصادى للبلد كما قبل ميونيخيّو ١٩٣٨ التنازل لطلبات هتلر. كانت المقاصد الخفية هى نفسها(٧٠)". بين هتلر وترومان إذن، مجرد تغيير فى الابتزاز: "ابتزاز بالتجويع (بدلاً من الابتزاز بالحرب)"، ولكن بماكيافيلية إضافية، على هذا الابتزاز بالجوع أن يجر فرنسا إلى الحرب القادمة، ودومًا كتاب اللحم - بالتبادل هذه المرة مع الحصص الغذائية...

فى بلاغة هذه الحملات المعادية لأمريكا التى تمس جمهورًا أشد اتساعًا من جمهور المناضلين الشيوعيين أو المتعاطفين معهم، لا ينفصل النضال ضد خطة مارشال فى الحقيقة عن "الدفاع عن السلام". وكما يكتب صوريا، "إن خطة مارشال هى مع ذلك فى النهاية خطة حرب، وكذلك مذهب ترومان [...](٧١)". يجب أن تؤخذ المشابهة مع ميونيخ المكررة بإيقاع دون توقف، بكل قوتها؛ فالتاريخ يبدأ من جديد تحت أقنعة أخرى، والآليات هى ذاتها وبعض الممثلين لا يتغيرون أبدًا: "الرأسماليون الأنجلو ساكسونيون". بعد عام من ذلك، فى عام ١٩٤٩، ارتفع الصوت من جديد؛ ففى "رسالة إلى الرئيس ترومان" المنشورة من قبل المجاهدين من أجل السلام والحرية (منظمة ذات "جبهة واسعة")، يوبخ شارل تيون "مزيفى الوطن الجدد [الذين] قبلوا إرادات سادتهم الأمريكان كافة"، ولكن أيضًا وبطريقة أكثر أصالة لا يتردد أن يستعيد ضد الولايات المتحدة الاتهامات التى كان يوجهها لها اليمين المتطرف قبل الحرب بمحاباتها ألمانيا على نحو مخجل، وهو فى نسخة تيون عام ١٩٤٩ يعنى أنها مولت النازية: إن فرنسا "لا تنسى أن العدوان الهتلرى قد أُعدّ عن طريق إنهاض الصناعة الألمانية بفضل انهمار رؤوس الأموال الأنجلو ساكسونية(٧٢)". "ترومان، خليفة أصيل لهتلر": لن تدهش هذه الصيغة عما قريب أحدًا؛ فقائد شيوعى مثل جورج كونيو يستعيدها أيضًا آليًا كما لو كانت استشهادًا من هوميروس بمناسبة محاضرة أمام الأطر الشيوعية فى عام ١٩٥١(٧٣). لم يكن التصعيد لفظيًا فحسب، بل هو مادى أيضًا، سواء فى مجلس النواب حيث لا تندر المناوشات أو فى الموانئ؛ حيث يحجز عمال الميناء المواد المخصصة للقواعد الأمريكية. وضاعفت حركة السلام المبادرات المثيرة وأسهمت فى نجاح حملة جمع التوقيعات لنداء استوكهولم: خمسة عشر مليونًا من الفرنسيات والفرنسيين

يطلبون على هذا النحو منع السلاح الذرى (الذى لم يكن الاتحاد السوفياتى يملكه بعد). ولاقتناعهم على غرار جورج كونيو بأهمية "الأسلحة الأيديولوجية"(٧٤)، فقد كرس الشيوعيون جهوداً هائلة للتشهير بأوروبا المصنوعة فى الولايات المتحدة الأمريكية *made in USA*.

نتيجة مهمة لهذه الحملات: لقد أقلمت فى أوساط اليسار وفى طبقات اجتماعية جديدة حدّةً في معاداة أمريكا كانت حتى ذلك الحين خاصة باليمين المتطرف أو بنواد ثقافية محدودة. حين يعلق موريس توريز Maurice Thorez فى *ابن الشعب Fils du peuple* على تطور الولايات المتحدة منذ مذهب مونرو حتى مذهب ترومان لكى يخلص إلى أن "الصيغة الجديدة لترومان هى - العالم للأمريكيين -"؛ فليس فى الجملة ما يثير فى حد ذاته، ونتذكر أننا سمعناها فى سنوات ١٨٩٠. إن ما هو جديد هو أنها صارت تقال فى التجمعات الشعبية أمام آلاف الأشخاص، لا فى الحلقات الدبلوماسية أو السياسية فحسب. والحرب الباردة ترغم على ذلك: فقد وجدت معاداة أمريكا السياسية الجماهيرية طريقها عبر آلاف المنشورات والاجتماعات العامة. وعلى الكتب المصورة التى توزعها الدوائر الأمريكية لتمجيد الحركة النقابية الحرة أو للتباهى بمستوى الحياة العمالية فى الولايات المتحدة، يردّ الشيوعيون بدفق من النصوص والوثائق، بدءاً بالمقالات النقدية محض السياسية وحتى مقالات فضح الأوهام حول طريق الحياة الأمريكى وكذلك الأغانى حول الأحداث الراهنة التى جعل منها الشباب الشيوعى اختصاصه. وقد استنفر الأدب نفسه، وتلقى أندريه ستيل André Stil جائزة ستالين فى عام ١٩٥٢ على رواية *الصدمة الأولى Le Premier choc* التى تمجد مقاومة عمال الموانئ للمحتل الجديد، كما أن معاداة أمريكا أشد حيوية من أى وقت مضى بين المثقفين، باستثناء بعض أنصار أمريكا السياسيين (الذين يبقون من ثم معادين لأمريكا ثقافياً(٧٥))؛ إنها تتقدم فى الأوساط الشعبية التى كانت خطب المثقفين قبل الحرب تتركها على قدر من اللامبالاة، والتى (إذا صدقنا استقصاءات الرأى) كانت على الدوام قليلاً ما تقلق من "التهديد الثقافى" الأمريكى. فى عام ١٩٥٣، كان هناك ٤٪ فقط من الفرنسيين فى استقصاء الرأى ينظرون لأمريكا بوصفها خطراً ثقافياً(٧٦). كانت مجلة *ريدرز دايجست Reader s Digest* ترعبهم أقل مما ترعبهم قاذفات القنابل الاستراتيجية. من يدهشه ذلك؟

لقد رأت سنوات مارشال إذن سخط نزعة معاداة أمريكا فرنسا الثائرة تحت الدين، وسيتم الاختيار قريباً بين الذين يوصوها بالتواضع الذى يفرضه وضعها،

والذين يحقرون الغازى الواهب؛ فأمريكا الدائنة تعلن عن أمريكا المباشر القضائى كما كان يكرر المعادون لأمريكا فيما بين الحربين. أمريكا الواهبة ستصير الآمرة على أقدارنا، إنه الشرطى العسكرى الأمريكى MP الذى سيأتى طارقًا على بابنا: يكتب بوزنر فى عام ١٩٤٨ "كيف ندهش أن خطة مارشال *Marshall Plan* تحمل نفس الحرفين الأوليين للشرطة العسكرية *Military Police*؟"(٧٧).

غير مذنبين!

فى الاستنفار الرائع المعادى لأمريكا فى سنوات ١٩٥٠، عملت النواة الأساسية على "الدفاع عن الاتحاد السوفياتى"، لكن نجاحها يعود جوهريًا إلى شعار "الدفاع عن السلام"، المفصل على أبلسة ناجحة للولايات المتحدة بوصفها محرضة على الحرب. توجه الدعاية الشيوعية من جديد وبفعالية ضد "حب الحرب" الأمريكى الثيمات التقليدية والاتفاقية لنزعة مسالمة ما قبل الحرب، وقد زاد من هولها وجود السلاح الرهيب الذى تملكه أمريكا وحدها: القنبلة الذرية. قدمت القنبلة حجة جديدة، مرتبطة بخيال مرعب؛ فبقوتها التدميرية الهائلة تسمح بإعادة شرعنة الموقف الذى فقد اعتباره وهو موقف "نزعة المسالمة الكامل". وفى الوقت نفسه تجعل البلد الذى يملكها لوحده موضع ريبة: لا لسوء الاستخدام الذى يمكن أن يقوم به فحسب، والذى سبق له وأن قام به - وسنرى إمانويل مونييه يشرح العدوانية الأمريكية بجرم هيروشيما، ولكن كذلك بواقعة امتلاكها وحدها. إن مجتمعًا "ذريًا" لم يعد مجتمعًا كالمجتمعات الأخرى، والدولة "الذرية" لا تستطيع أن تزعم أنها تجسد القيم الديمقراطية. وعلى هذا الميدان انضم إلى الشيوعيين إن لم يتقدمهم حلفاء غير منتظرين مثل جورج برنانو صارخًا عام ١٩٤٧: "ديمقراطية ذرية، دعونى أضحك! ولم لا توضع القنبلة الذرية بين يدى كل ناخب فى الوقت نفسه الذى توضع فى يده بطاقة الاقتراع(٧٨)؟"

لا يقدم خطر الحرب الذرية حججًا فحسب، بل يزود بالحلفاء. ومن أجل نشر وشرعنة معاداة أمريكا فى الوسط الثقافى يعمل "الحياديون" أكثر وأحيانًا على الرغم منهم من مجمل الدعاية الشيوعية والمسالمة نفسها. لا لأن الحياديين الذين صارت صحيفة اللوموند مركز تجمعهم (لكنهم الممثلون على نحو جيد أيضًا فى مجلات *Esprit* و *Temps modernes* و *Franc-Tireur* أو فرانس أوبزرفاتور *(France-Observateur)* جميعًا معادون لأمريكا، بل على العكس من ذلك؛ فموريس دو فرجيه فى صحيفة *اللوموند* يعلن بجلاء: "بين أوروبا سوفييتية وإمبراطورية أطلسية، الحل الثانى مفضل على وجه اليقين؛ لأن العبودية ستكون فى الحالة الأولى أكيدة، فى حين أن الحرب فى

الحالة الثانية يمكن أن تصير فقط محتملة[٧٩]". معظم الحياديين معادون للأطلسيين ذرائعيًا: فهم يفكرون أن هناك حظوظًا أفضل فى إبعاد الحرب العالمية من خلال مقاومة الأقوى بين الخصمين، أى مقاومة أمريكا. هذه الحيادية تفهم طواعية بوصفها مذهبًا موازنًا، عصًى مفتولة ثانية؛ ذلك هو تعليل هوبير بوف ميرى، مدير صحيفة اللوموند. يبقى أن منطق الجدل وقوة القوالب الجاهزة سيحملان على الدوام على انحراف الخطابات، إن لم يكن البشر. و"قضية جيلسون" مثل على ذلك.

خلال شتاء ١٩٥٠، كانت مجلة ***النقد الجديد*** ***La Nouvelle Critique*** فى أوج مرحلتها الأشد ستالينية. كانت عددًا بعد عدد، تشهر بالمرتدين وبالأصدقاء المزيفين: بورديه، كاسو، مونييه، ولم يفلت أحد، ولا حتى بريفير الذى ألف موضوع ممارسة مسهبة فى النقد الجدانوفى. لم يكن الوقت وقت الدماثة، بل هناك مفاجأة لرؤية السيد "إتيين جيلسون" يُمدح فى تلافيف مقال غير موقع. لا لأن السيد إتيين جيلسون لا يستحق المدح، بل لأنه فى نهاية الأمر ليس من العالم نفسه الذى ينتمى إليه محررو مجلة النقد الجديد التى تعترف لستالين "بحبٍ واع". صحيح أن هذا الفيلسوف التومائى الجديد شأن ماريتان، والأستاذ فى السوربون ثم فى الكوليج دو فرانس، كان معاديًا لفيشى، لكن هذا النصير لحركة التجمع الشعبى القريب من الحركة الأوروبية (التى أطلقت فى لاهاى عام ١٩٤٨ والمشهر بها من قبل كونيو بوصفها مبادرة من رئيس جواسيس الولايات المتحدة آلان دولس"[٨٠]) بعيد مع ذلك عن أن يكون "رفيق درب" مقبول. ما هى إذن الجدارة الفريدة لإتيين جديلسون؟ لأنه فيما يبدو قد كشف فى مقال نشر فى اللوموند بتاريخ ١٢ يونيو ١٩٤٦ عن عسر هضم السينما الأمريكية التى أدخلت بقوة وبكثافة بواسطة اتفاقات بلوم - بيرنز. يكتب جيلسون: " لن نرى بطيبة خاطر شعبنا يبلع جرعات لا نهاية لها من هذا المخدر". لقد اغتبطت ***النقد الجديد*** من أن "رجلاً لا يشك فى قلة معاداته لأمريكا مثل إتيين جيلسون **Etienne Gilson**" كان من الاستقامة بحيث إنه استنكر "الوسيلة القوية للتخبيل" التى تؤلفها السينما الهوليودية المحقونة بكثافة فى الدوائر الفرنسية[٨١]. لا شك أبدًا فى أن غزو الأفلام الأمريكية شغل الحزب الشيوعى ومثقفيه، لكن الرأى التافه الذى كان لجيلسون عنها ليس صفته الوحيدة التى جعلته يكتسب عطف النقد الجديد، ولا هو بلا شك الأكثر جوهرية.

منذ عام ١٩٤٨ فى الحقيقة، جعل إتيين جيلسون من نفسه على صفحات اللوموند التى فتحتها له صداقة بوف ميرى محاميًا عن "لا - لا": لا واشنطن، ولا موسكو، كما أكثرَ ضد حلف الأطلسى من المقالات اللاذعة أكثر فأكثر، ماذا يقول

جيلسون على طول الشهور؟ إنه لا يجب على الأمريكيين أن يعتمدوا على الفرنسيين كى يكونوا "النقطة القصوى فى الطليعة" لحرب قادمة." فرنسا قد سبق لها وأعطت ما عليها. إن الدورَ هو "الآن دورُ الولايات المتحدة". إن حلف الأطلسى معاهدة جائرة تكفل للولايات المتحدة جنود المشاة بثمن بخس دون أن تنشئ أى شكل من أشكال الالتزام. إنه ليس للولايات المتحدة من همٍّ إلا الحصول على "المشاة"؛ لأن "المواد الغذائية باتت نادرة"، وأنها على استعداد شأنها على الدوام لأن تدفع ثمنها، "لتشتريها بالدولارات"، وأنه مع هذه الدولارات "مرة أخرى سيكون دمنا" الذى يسعها أن تشتريه(٨٢). وعند هذه النقطة من التصعيد البلاغى صفر الحكم بالخروج من اللعبة؛ فقد انفجرت الاحتجاجات، ووضع بوف ميرى فى وضع صعب، وقد زاد نشر سلسلة أخرى من المقالات شديدة المعاداة لأمريكا فى خريف ١٩٤٩ لبيير إمانويل Pierre Emmanuel هذه المرة من الضغوط(٨٣). توقف جيلسون نفسه عن التعاون مع اللوموند فى سبتمبر ١٩٥٠، وسيهجر عما قريب الكوليج دو فرانس إلى تورنتو.

إن الخط غير المرئى الذى عبره جيلسون رمزى بقدر ما هو سياسى؛ فالدم الذى وضع فى المزاد وبيع بثمن بخس للأمريكان قد جعل كأس النزعة المحايدة تفيض، لكن إذا كان ولع النقد الجديد بجيلسون المضطهد فى جزء منه تكتيكيًا، فإن قرابة الخطاب عميقة بل وتتجاوز معاداة أمريكا الثقافية التى لم يكن يجعل الفيلسوف منها سراً. لم يكتف جيلسون ببعث العم شايلوك، بل شرع بحمية فى عمل يستهدف تحرير الفرنسيين من الشعور بالذنب. إن "هم" تعنى "البرهنة لنا أننا مذنبون"، كما يكتب جيلسون، لكننا لسنا مذنبين، وليس هناك حساب للتقديم، ولا لأى شخص، ولا للأمريكيين بشكل خاص. "لقد تحملنا عبء حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ التى قطفت الولايات المتحدة ثمارها"، بل وحتى "عمليًا تحملنا مع بولونيا وحدنا عبء الحرب العالمية الجديدة". أما المذنبون فيحسن بنا البحث عنهم فى الجهة الأخرى من الأطلسى. يحسن بنا أن نتساءل مثلاً، "فيما إذا كانت خطة هوفر ورفض دعم نشاطنا فى الرور Ruhr قد هيّأ النازيّة أم لا". هذا التحليل الذى كان يشارك فيه قبل الحرب كثير من القوميين صار عند التحرير النسخة الاتفاقية لأخطاء ما قبل الحرب. لقد قيل الكثير ـ فى فيشى بوجه خاص ـ أن فرنسا كانت مذنبة: لننظر بالأحرى من جانب من يعطى الدروس. تجد إعادة قراءة فترة ما بين الحربين على يدى جيلسون ذاتها فى تناغم مع إعادة الكتابة الستالينية التى كانت تفضل مذنبيْن كبيرين: البورجوازية الفرنسية الخائنة والعدو الأمريكى. ويوجه شارل تيون فى "رسالة مفتوحة للرئيس ترومان" التى سبق الاستشهاد بها الاتهام نفسه كما لو كان بداهة تاريخية: "لقد سبقت خططُ داوز ويونج

فى الإنهاض خططُ شاخت وجورينج"[٨٤]. يعطى إمانويل مونييه E. Mounier روايته الخاصة والغريبة عن قلب الإحساس بالذنب بتقديمه فيشى على أنها حلم أمريكى وبشكه فى إرادة الولايات المتحدة عام ١٩٤٩ فى تكراره: "هل سيقوم بتحويل حلم السيد ليهاى Leahy سفير الولايات المتحدة فى فيشى، فيشى المباركة والمحمية من الأمريكيين، إلى مؤسسة أولئك الذين قاموا بتحريرنا من فيشى[٨٥]؟" إن الثيمة التى كان الحزب الشيوعى يرددها عن هتلر من صنع الولايات المتحدة الأمريكية وعن أمريكا حلت محل ألمانيا النازية قد استعيدت إذن فى صيغ أكثر "مهارة" من قبل طيف واسع من المثقفين المعادين لأمريكا، المهمومين بتحرير فرنسا من هيمنة جديدة، حقيقية وبصورة خاصة رمزية. إن اتهام أمريكا - الذى وصل لدى برنانو إلى درجة اقتراح وجوب محاكمة "حضارة الآلات" فى نورمبرج[٨٦] - كان أداة رائعة فى التخلص من الديْن. لن يصل بنا الأمر لأن نشكر الأمريكيين على إسهامهم (القليل جداً) فى القضاء على وحش كانوا هم الذين خلقوه بأنفسهم...

إن ما يوحّد على نحو أفضل من جانب المحاجة والتحليلات المُعادين لأمريكا المتباينين هؤلاء هو فى الإجمال إعادة الدّيْن إلى المرسل. والشعاران الأكثر توافقية والأكثر تعبيرا بلا تكلف من التوقيعات هما : "لا يتوجب علينا شيء نحوكم" و "لن نوافق". لن تكون لكم مشاتنا، كما يكتب جيلسون. ولا قاذفى مدفعيتنا على كل حال، كما يضيف مونييه: "إن أمريكا إن شئنا هى إنجلترا القرن التاسع عشر. إنها تنظر إلى الحلف الأطلسى كما لو كان تقسيم عمل عسكرى، وفرنسا مدعوة بوجه خاص إلى أن تكون مشاة ومدفعية الجيش الأطلسى[٨٧]"، بدأنا نعرف الأغنية التى يغنيها الشباب الشيوعيون على لحن جينجل بيلز:

إنه الرئيس ترومان
الذى يقول للعجوز شومان
لله عليك أن توقع معاهدتى ،
لأنها تحمل من هتلر علامته
إنها لشن الحرب
على الاتحاد السوفيتى
على البلدان الشعبية
ولصالح أمريكا .

مع هذا الجواب فى اللازمة:

لكن الشعب قال : «لا ، ليس هناك ما يعمل !
لن نشن الحرب على الاتحاد السوفيتى
لن نكون مشاة كبار أصحاب المليارات
وفى النهاية ستحطُّ هذه الحيتان على الرمال»(٨٨)

"لا تحمل لنا معاهدة الأطلسى أى ضمان جدى، ولا تلزم أمريكا بأى إجراء يمكن فى حالة عدوان ما ألا تمليه عليها آليا مصلحتها"، كما يلخص مونييه فى عام ١٩٤٩، مستشهداً بجيلسون(٨٩). ليس هناك أى إلزام لأمريكا. ولا أى حظ لفرنسا؛ ذلك أن اليانكيين لا يشترون حتى الجنود بل لحمًا للمدافع، ولا يُؤطلَّس الفرنسى إلا من أجل أن يتحول ذرّة. "الحرب الحديثة"؟ إنها "تبخر غايات الحرب بالحرب. ليس هناك حرب من أجل الحرية؛ لأنه لم تعد هناك حرية فى الحرب الشمولية "(٩٠)، وتلك هى حصة فرنسا التى تتعاهد مع الولايات المتحدة: سيُقضى عليها مادياً أو ستلغى على الأقل سياسياً. أليست تصفية أوروبا من ثم جزءًا لا يتجزأ من برنامجها؟ يعتقد برنانو ذلك: "نفهم بوضوح تدريجى أن الحضارة المضادة، حضارة الجماهير هذه، لا تستطيع متابعة تطورها نحو الاستعباد العام قبل أن تنجز أولاً تصفية أوروبا(٩١)".

من تيون إلى جيلسون، ومن توريز إلى مونييه، إنها إذن جبهة عريضة جداً من المثقفين ترد على التذنيب بالتجريم، وترفض الدين مع الهبة، إلا أنه يجب أن نتوسع أيضًا لنقيس التوافق المعادى لأمريكا الذى يستمد قوته من غموضه. على المنحدر الذى يؤدى من إعادة كتابة فترة مابين الحربين إلى انهزامية جديدة من نمط "Better Red than Dead"، مروراً بإنكار فيشى التى صارت إجمالاً قضية أمريكية، سيمضى أحدهم إلى أبعد مما ذهب إليه الآخرون جميعًا: إنه مارسيل إيميه **Marcel Aymé**. وأشد النصوص فصاحة فى هذه الفترة لا يتواجد فى اللوموند ***Le Monde*** ولا فى النقد الجديد ***Nouvelle Critique*** ولا فى إسبرى ***Esprit***، بل يمكن أن يكون الملخص المدهش (أوالقصة الحقيقية ـ المزيفة) الذى أعطاه الكاتب إلى مجلة ***Gazette des Lettres*** فى عام ١٩٥١ ـ نشرت فيها فى ١٥ يناير قبل أن يعاد نشرها فى ١٨ منه فى صحيفة ***Combat***.

كان رولان دوماى رئيس تحرير مجلة ***Gazette des Lettres*** قد طلب إلى بعض الكتاب أن يقصوا الرواية التى يتمنون كتابتها، لكنهم لن يكتبوها أبداً. أرسل له مارسيل إيميه "بنت الشريف". تجرى أحداث القصة فى "١٩٥٢ أو ٥٣". جرت الحرب الذرية على "الأراضى الفرنسية التى كانت حكومتنا قديمًا قد باعت إلى الولايات

المتحدة الأمريكية مقابل بعض التسهيلات الوزارية حرية التصرف بها"، وبينما أصيب الفرنسيون بالإشعاع الذرى بعشرات الملايين، كانت "الحكومة الحقيقية" لفرنسا تقيم فى مدينة صغيرة من ولاية ميسورى. ويديرها السيدان "موك Moque وشومان Chou-mane"ـ الأصل الحقيقى: جول موش Jules Moch وروبير شومان Robert Schuman. بعد آخر هجوم أمريكى، "حُرِثت فرنسا ومزقت ودمرت. وفى اليوم الثانى من الهجوم، تعلن الصحف الأمريكية بانتصار: دمرت باريس" يفرح الناس جميعًا. أما البقية فتستحق الذكر فى نصّها الكامل. "بعد ثمانية أيام من الهجوم، ولما كان تسعة أعشار الفرنسيين قد هلكوا؛ فقد اكتشف الأمريكيون أن حربهم لا موضوع لها. وقع السلام، وبعد عودتهم إلى فرنسا، أعاد أعضاء الحكومة الحقيقية تكوين الأحزاب السياسية، وأعدموا مائة ألف شخص، وسجنوا مائتى ألف، أى كل العشر المتبقى من السكان، ووهبوا أنفسهم فضيحة جديدة فى الخمور. قررت منظمة الأمم المتحدة، وقد اشمأزت أن فرنسا ستمحى من خارطة العالم. يقاد العنصر النسائى إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث صارت الخادمات لعمل كل شىء غير موجودات، وبالنسبة للرجال فقد قطعت خصيهم التى لم تكن من ثم قائمة إلا بفعل خيط." وبنت الشريف وسط كل ذلك؟ الحق أنها فى المدينة الصغيرة بميسورى وقعت فى حب ابن "وزير التسجيل الحقيقى الخاص بنا". ولما وقعت حبلى من أعماله، فقد انتزعت رضا الشريف الذى كان أكثر من متحفظ. يعود الشاب الفرنسى نينيس لـ"يُصلِح"، لكن "دون أن يكشف عن أنه كان تحت طائلة قرار منظمة الأمم المتحدة، وأنه منقطع الآن عن الحياة الجنسية. تنتهى الرواية بدراسة جميلة جداً عن عقدة الإخصاء(٩٢)".

ما ملخص هذا الملخص؟ السياسيون (وكلهم فاسدون) باعوا فرنسا إلى الأمريكيين (وكلهم متزمتون) الذين نظموا فيها بهدوء مجزرة الفرنسيين (ماعدا الذين كانوا فى ميسورى مثل الآخرين الذين كانوا فى لندن) تحت الأنظار التى تكاد تضطرب لـ"حكامنا الحقيقيين" (ذوى الأسماء المفرنسة: فقد كانوا بحاجة لها)، والذين ما لبثوا عند التحرير (الذى لم يكن إلا تصفية) أن استأنفوا على الفور تجارتهم غير المشروعة.

تؤكد "بنت الشريف" بصورة تثير الإعجاب التشخيص الذى قدمه ريمون آرون فى السنة نفسها، أى عام ١٩٥١: "يروق" للفرنسيين "أن يتأملوا" الوضع العالمى كما لو كان شجاراً شخصيًا يقوم به الأمريكان مع الروس، وفيه "لا يعود الأوروبيون محميين بل ضحايا"(٩٣). وهكذا فإن الفرنسيين المصابين بالإشعاع الذرى أو المخصيين،

المفصولين عن إناثهم التى تحولت إلى خادمات، سيتلاشون من سطح الأرض - وقد قضى عليهم الصديق الأمريكى. قبل عدة سنوات من ذلك، كان تييرى مولنييه قد وصف عند صدور المومس الفاضلة لسارتر "انزعاجه الذى لا يُطاق": لو كان فى القاعة جندى من الولايات المتحدة لما تجرأت على النظر إليه[٩٤]". أما مارسيل إيميه، وهو أكثر سعادة من سارتر، فلم يصدم فيما يبدو أحد مع قصته المعادية لأمريكا، والفيشية - ولا حتى صحيفة ***Combat*** التى نشرتها.

فى حى التنازلات

صار إنكار كل دين تجاه الولايات المتحدة إذن بعد عام ١٩٤٥ سلوكًا جوهريًا لنزعة معاداة أمريكا، وفى الوقت الذى تؤمن فيه خطة مارشال بقاء فرنسا المادى؛ فهو ضرورى ولا شك لبقائها الرمزى.

"إنهم يأخذون دولاراتنا، ويبصقون علينا"، كما يجعل روجيه فايان ضابطًا أمريكيًا مفترضًا يقول، وليس تلخيصًا سيئًا للجهد الفرنسى لإعادة الإنعاش النفسى الذى بدأ منذ عام ١٩٤٤ حين كان ديجول وهو يدلّ على الطريق، يتحدث عن باريس "التى حررت نفسها بنفسها". والمثقفون الذين يكثرون من ضروب عدم الاعتراف بالديون هم على انسجام تام مع الشعب الذى يقبل الشوكولاتة، لكنه يقرر باكرًا جدًا أنه لا يدين بشىء للأمريكيين - ولا حتى بتحريره من النازية. فى عام ١٩٤٤، وعن السؤال الذى طرحته مؤسسة استقصاء الرأى IFOP الوليدة : "ما البلد الذى أسهم أكثر فى الهزيمة الألمانية؟"، أجاب الفرنسيون بكثافة: الاتحاد السوفياتى (٦١٪)، ولم تحصل أمريكا إلا على ٢٩٪ من الإجابات[٩٥]. ترتبط هذه الرؤية ولا شك بأهمية المعارك على الجبهة الروسية فى أحلك ساعات الاحتلال، وبدلاً من أن تعدل أو تصحح مع الزمن، سوف يحافظ عليها وتعزز لا بأجهزة الدعاية المهمة للحزب الشيوعى الفرنسى فحسب، بل بعدد المثقفين غير الشيوعيين الذين كانوا يزخرفون أسطورة "انتصار على النازية" يعود كل الفضل فيه للاتحاد السوفياتى.

فى عام ١٩٥٥، سنة مسرحية نكراسوف وقرابته الكبرى من الحزب الشيوعى الفرنسى، ألقى سارتر فى قاعة بلايل خطابًا أمام جمهور جمعته جمعية فرنسا - الاتحاد السوفيتى التى كان سارتر عضوًا فيها، وقد أنعم فيه على جمهوره برواية قوية بصورة خاصة لهذه القصة التاريخية. فلم يكن الاتحاد السوفيتى هو الذى قام بكل

شيء تماماً أو تقريباً فحسب، بل إن الولايات المتحدة لم تتدخل في أوروبا إلا مرغمة ومجبرة. "لم يتحقق مصيرنا لا في النورماندي ولا في بلجيكا" كما يصرح سارتر، "بل في الاتحاد السوفيتي وعلى ضفاف الفولجا. إنها ستالينجراد التي جعلت من الممكن النزول على شواطئ النورماندي، بل أكاد أقول إنها جعلته ضرورياً؛ فإذا كان الإنجليز والأمريكان يتمنون الاشتراك في النصر النهائي، فقد كانوا - شاءوا أم أبوا - مجبرين على الاشتراك في الهجوم". (كان كليمنصو أصلاً يأخذ على بيرشينج انتظاره للخاتمة الكبرى النهائية في عام ١٩١٨...) "وهكذا فإن ما لم تستطع الطلبات المتكررة للقيادة الروسية الحصول عليه في أحلك الساعات تقرر بسرعة بعد ستالينجراد. ليست هذه هي المرة الأولى التي يُطار فيها لنجدة النصر"، وها هو سارتر يقابل أمام جمهور لم يكن دون شك يأمل كل ذلك، بين "الألمان، أعداءنا العريقين"، وهذا الشعب الروسي الذي "أعطى دمه لينقذ مستقبله، ومستقبلنا، ومستقبل العالم". ويختتم الفيلسوف، نحوه "موقف واحد ممكن: العرفان والصداقة"(٩٦).

التصريح بالدَّيْن للاتحاد السوفيتي يعني تخفيف الدَّيْن بالقدر نفسه للدَّيْن الآخر - "الدَّيْن البغيض". بعد عشر سنوات من ذلك، يتابع إتيامبل ذكر الجزء "البعيد، غير الإرادي، لكن الحاسم" الذي قام به السوفيات في "تحرير عاصمتنا وبلادنا كلها". وعلى أنه معادٍ لستالين علناً فهو يمضي أبعد من أي ستاليني في الأسف على أنه رأى الأمريكان وليس الروس يهبطون في باريس. "لم يكن الأمريكان ليهبطوا في أوروبا أبداً لو أن ملايين من الجنود والمدنيين الروس والتركمان والأزبكستانيين لم يموتوا ضحايا سياسة إستراتيجيهم العبقري ستالين، بينما ينزفون دماء الجيش النازي." على هذا النحو فإن الروس قد ظُلِموا "بحشرهم في برلين وفي فيينا". كمحررين - محتلين كانوا مع ذلك يتمتعون بالحظوة عند إتيامبل؛ إذ "لما كانوا منهكين بانتصارهم، فإنهم لم يتمكنوا من أن يغدقوا علينا لا الحليب المعلب ولا اللهوات مع الألفاظ المتعلقة بها". مع الروس، على الأقل، لا وجود لديون تسمح بكل ضروب النهب: لقد أمكن إنقاذ فرنسا واللغة الفرنسية من "استعمارهما" المشترك.

إن المجاز الاستعماري الذي تغلب في سنوات الـ٥٠ لوصف الوضع الفرنسي تجاه الولايات المتحدة كاشف: لقد تم عبور المرحلة النهائية في التبعية. هذا المجاز لم يكن غائباً عن نصوص (ولا عن خيال) فترة ما بين الحربين، إلا أنه كان يُفضَّل عليه ما هو أكثر عنفاً وأقل إذلالاً، مجاز الغزو أو الفتح. مرة أخرى نحن بوضوح أمام المبالغات: لم يكن هناك أحد يفهم حرفياً آرون ودانديو وهما يذكران أتيلا الأمريكي، ولا حتى دوهاميل متسائلاً، وكأنه يخاطب شخصاً معيناً: "هل سنُحتَلُّ، نحن الآخرون، أهل

الأراضى الوسيطة[٩٧]؟" لقد تغير كثير من الأشياء والحق يقال. وجود الجيوش الأجنبية، تعايش السكان الصعب أحياناً مع الجنود الأمريكيين، الوفرة التى تسود فى "ثكناتهم"، والتى تناقض التقنين المستمر: كل ذلك يحمل بسهولة على إعادة الترجمة بمفردات استعمارية. لا يخشى المجادلون الشيوعيون الجمع، ويزاوجون دون تردد بين الصور العنصرية المرتبطة بأمريكا الاستعبادية واللازمة السياسية لأمريكا "وريثة النازيين". تكتب مجلة *النقد الجديد* وهى تتحدث عن ديجول وجورج بيدو وجول موش: "طموحهم أن يكونوا مجدفى الاستعباديين الحديثين الذين هم سادة الدولار. ومثلهم الأعلى أن يصيروا "النظام الأوروبى الجديد حسب رواية ترومان - آشيزون التى أعادا النظر فيها وصححاها[٩٨]". لا شىء يضيع، وبذلك تنشأ عادات صلبة فى اللغة، لكن نجاح المجاز الاستعمارى يتجاوز بصورة واسعة فى الامتداد وفى الديمومة الرحم البلاغى المتمثل فى الحرب الباردة، والذى يمثل كتاب جورج صوريا، هل ستصير فرنسا مستعمرة أمريكية؟ مثلاً عليه. سيستوطن على الدوام خطابات مختلفة جداً من أقصى اليسار إلى اليمين الجديد، وسيظهر فى العناوين المخصصة للولايات المتحدة - مثل فرنسا المستعمَرَة لجاك تيبو (١٩٨٠). إنه يفرض نفسه على المعادين لأمريكا أنفسهم؛ فجان جاك سرفان شريبير فى كتابه *التحدى الأمريكى* عام ١٩٦٧ يستعيد دون أن يرف له جفن ودون أى تعديل تهمة "الاستعمار الجديد" المرتبطة من الآن فصاعداً بالولايات المتحدة[٩٩].

بالعلاقة مع الخيال السابق، خيال الغزو، يقترح "الاستعمار" إكراهاً أشد حميمية، ورقابة كاملة، وإخضاعاً أكثر قبولاً. يمكننا فهمه كنداء للتمرد - مادامت المستعمرات مرصودة للتحرر - لكن الخطابات المعادية لأمريكا، فى الحقيقة، التى تستخدم وتبالغ فى استخدام الصورة الاستعمارية تدهش بالأحرى بحقدها المستسلم. ضرب من الشراسة المازوخية نحو الولايات المتحدة يتحمّس غالباً فى إسقاط للتماهى مع المستعمَرين "الحقيقيين" والعالم غير الأبيض بصورة عامة، فبرنانو عام ١٩٤٧ يتعرف ذاته فى مصير اليابان، المغتصبة والمرغة منذ ما قبل الحرب من قبل الحضارة المضادة الأمريكية. (ليس اليابان الإمبراطورى، الفاشى والعنصرى، بالنسبة إليه إلا بديلاً أنجلو ساكسونياً فرض على اليابان الأبدى...) يذكر أوديبرتى **Audiberti** فى عام ١٩٦١ "*حى التنازلات* *Quartier des concessions*"، مقارناً ضمناً فرنسا بالصين أيام حروب الأفيون.

يتهلل إتيامبل حين يقرأ أوديبرتى: "قيلت الكلمة؛ فحى التنازلات تضعنا فى مقامنا، وفى الوضع الاستعمارى أو نصف الاستعمارى الذى هو، من وجهة نظر لغوية

على كل حال، وضعنا[١٠٠]". التقييد محض شكلي؛ لأن إتيامبل يملك مفهومًا شديد الاتساع لـ"وجهة النظر اللغوية". فسمعة كتاب ***هل تتحدث الفرنجليزية؟*** هى سمعة ممارسة أسلوبية ذكية على طريقة كونو Queneau، سخرية رقيقة من العيوب اللغوية المعاصرة. إنه فى الواقع نقد نادر العنف ضد أمريكا، المتهمة بلا ترتيب بإرادتها موت لغتنا وموت ثقافتنا، بل وحتى موت الجنرال ديجول("بهدوء") - "مادامت المنظمة السرية OAS لم تستطع تخليصها منه"[١٠١]! يُدهش بإعادة قراءته اليوم، هل تتحدث الفرنجليزية؟ دومًا بقريحته، لكنه يذهل أيضًا بعنفه. لا يكف إتيامبل عن التكرار فيه أن فرنسا تخطو "من الانحطاط إلى العبودية". ويتهم معهد العلوم السياسية بإعداد"أطر البلاد" ليخدموا "أولاً ***طريق الحياة الأمريكى American way of life*** وسياسة وزارة الخارجية الأمريكية"[١٠٢]. ويحمله النموذج الجديد لجواز السفر الفرنسى على إطلاق صيحات عالية. إنه "جواز سفر مستعمَر" مادام مكتوبًا بلغتين! "لقد استحقت الجمهورية الرابعة الدولارات التى شحذتها لمثل هذه الجريمة الوظيفية"[١٠٣]. لن توجد مثل هذه اللهجة أبدًا فيما بعد إلا فى نزعة معاداة أمريكا الخاصة باليمين الجديد أو الضروب الأخرى من اليمين المتطرف. هناك ابتهاج حقيقى لدى إتيامبل فى عرضه هواننا الحقيقى وخاصة المفترض، واحتداد لا شك فيه يرفع قوس تنبؤاته المشئومة؛ كما أن استثارته محسوسة حين يعلن أن اللغة الإنجليزية سوف "تعدى وتتلف" لا ألفاظنا فحسب، بل كذلك "كل ما بقى من المطبخ، والخمر، والحب، والأفكار الحرة" فى فرنسا[١٠٤]، سوى أنه يختلط مع هذا الغيظ فى كل اتجاه مرارةٌ مرتبطة بقلب الأوضاع بين المستعمِرين والمستعمَرين. نزعة فى الألم حاقدة تحفل بها الصفحات العديدة التى تبين بإلحاح غريب فرنسا وقد انحطت إلى "المقام" الذى خرجت لتوها منه الهند الصينية والجزائر: "إن حلف الأطلسى يسهم فى استعمارنا، وذلك حين نكون عرضة لانتفاضات - إزالة الاستعمار[١٠٥]". يضع إتيامبل قوسين من حول كلمة إزالة الاستعمار، كما لو أنها أسطورة. إنه لا يضعهما حول كلمة استعمر لكى يسجل دون شك أنه يعتبر الاستعمار الأمريكى حقيقيا بصورة مطلقة.

عقدة جديدة استيهامية تشد من حول المسألة الاستعمارية زَرَدات الخطاب المعادى لأمريكا، بيّن المؤرخ بول سوروم كم كانت منتشرة بين المثقفين الفرنسيين فى هذه المرحلة فكرة أن إزالة الاستعمار لن تعنى إلا تسليم السلطة للأمريكيين[١٠٦]. يلاحظ طونى جودت بصورة صحيحة أن "انتقال مركز اهتمام المثقفين بعد عام ١٩٥٦ - فجأة - من الشيوعية نحو معاداة الاستعمار لم يكن يقتضى أبدًا التخلى عن الشعور المعادى للغرب والمعادى لأمريكا"[١٠٧]. ويبدو التوبيخ الذى أفرطت فيه الولايات المتحدة

ثالثة الأثافى فى النية السيئة لمعادٍ للاستعمار مثل فرانسوا موريك الذى تساءل"فى ما إذا كنا قد انحدرنا إلى تلقى الدروس من هذا الشعب العظيم المُبيد"(١٠٨). هذا الحقد المحسوس ضد الولايات المتحدة التى تعطى الدروس ضد الاستعمار والمستفيدة المكنة من إزالة الاستعمار يغتاظ في مشهد خارق مازوخى يحتل فيه الفرنسى مكان المستعمَر المتحرر - كسادة الجنوب قديماً، وقد صاروا "عبيداً" تحت أحذية اليانكيين المنتصرين.

لم يكن إتيامبل الوحيد الذى طور هذا السيناريو، من المثير للاضطراب أن نعثر على المخطط نفسه والاستثارة الغامضة نفسها لدى روجيه فايان حين يصف الروائى الشيوعى الصيرورة التعيسة bicot(*) للفرنسى. فى هذه الصفحات المكتوبة على تخوم الدعاية السياسية والاستيهام، يجعل المثقف الملتزم والمعادى للاستعمار الذى كانه فايان الألفاظ العنصرية تعج ليصف كراهية الغاليين لدى القوات الأمريكية. متعة غريبة هنا أيضًا تلك المتمثلة فى هذا الاتهام المازوخى الموجه بتكلف شديد لـ"ضباط أمريكيين" مكلفين بأن يعيدوا إلى وجهنا كل بشاعة الخيال العنصرى الفرنسى: " هناك نوع جديد من العنصرية يتطور منذ عسكرت قوات الجيش الأطلسى المزعوم فى فرنسا. والموضوع ليس المغربى ولا اليهودى، بل "الفرنشى". والفرنشى frenchy هى الكلمة الشتيمة من فرنش french، أى فرنسى. وعندما يتعلق الأمر بامرأة، فالكلمة تعنى عاهرة. "بعد هذا التوضيح التربوى يتابع فايان "تحقيقه" ضمن شكل قليل الطابع الصحفى حول التشخيص الخطابى. ينقل لقارئ صحيفة الأومانيتيه - الأحد "ما يقصُّه الضباط الأمريكيون": بحرية شديدة كما سنرى وبدون اهتمام خاص بالاحتمال الوثائقى. "هؤلاء الفرنشى الملعونون يسرقوننا [...] وهم من القذارة؛ بحيث إنه لا وجود للحمام فى معظم بيوتهم. [...] لاشىء يمكن عمله معهم إلا مع الهراوة. الفرنشى سيبقون دومًا فرنشياً"،...إلخ. أى محاكاة يسهل التعرف عليها للخطاب الاستعمارى الفرنسى. يشير فايان لمن لم يفهم: "هكذا نحن فى طريقنا لأن نصير مغاربة bicots ويهود وماكا ma-cas وعساكر poiaks الأمريكيين، شىء ما وسيط بين زنوجهم والصينيين الذين لم يعودوا يقبلون أن يكونوا لهم(١٠٩)"، ثم بصورة وقورة: "العنصرية مرض يصير فيه المرء غالبًا ضحية بعد أن كان جلاداً، المرء دومًا مغربىٌ bicot لامرئ آخر".

(*) كلمة شعبية فرنسية للتحقير، استخدمت خلال سنوات الخمسينيات من القرن العشرين للإشارة إلى شعوب بلدان المغرب والجزائر وتونس التى كانت آنئذ تحت ضروب متباينة من السيطرة الفرنسية. من الواضح هنا المعنى الذى أراده الروائى الشيوعى حين استخدم هذه الكلمة ليشير إلى المصير الذى ينتظر الفرنسيين على أيدى الأمريكان! (المترجم)

وعلى أنه تعويذة وشاشة من الدخان فى آن واحد، ليس الهيجان الفرنسى لإعلان فرنسا "مستعمَرة" الولايات المتحدة غريبًا عن الهم الذى يتكشف فى هذا المثل. مقال آخر لفايان يمكن أن يؤكد هذه القراءة: المقال الذى يروى فيه جنازة عامل جزائرى، بولعيد حسين، الذى قتل خلال المظاهرات العنيفة ضد زيارة الجنرال ريدجواى Ridgway فى مايو ١٩٥٢ إلى فرنسا. "بالنسبة للفرنسيين، لم يعد هناك مغربى bicot، هذا ما يعنيه موت بولعيد حسين الذى قتل إلى جانب أنصار السلام الفرنسيين، الذين تظاهروا معًا جميعًا ضد الجنرال ريدجواى، والتأبين الضخم الذى أقيم له من قبل سكان المنطقة الباريسية. إنه حدث شديد الأهمية فى نضال الشعوب من أجل السلام والحرية(١١٠)".

من السهل التهكم حول الثمن المبالغ فيه لهذه "الصيرورة الفرنسية" حسب فايان، وربما من الأفضل تسجيل التكوين الجديد للخطاب الذى يوحى به التقريب بين المقالين، لأنه لا تفيد معاداة أمريكا هنا لحل العلاقة الاستعمارية خياليًا عبر صورة تضحوية عن التضامن فحسب. (وهذا الموت المشترك يستبق البرنامج الاستيهامى لعشرات السنين الأخيرة من القرن العشرين: التماهى، وهو الآخر تضحوى فى مبدئه، فى النضال المسلح للعالم الثالث ضد الولايات المتحدة)، ولكن بصورة صماء أكثر أو بصورة سرية أكثر، المشهد هو مشهد تعويذة يختتم دورة الديْن والتبعية؛ فبذل المرء حياته لا فى سبيل العم شايلوك فى "الجيش الأطلسى المزعوم"، بل ضده، فى شوارع فرنسا ونافار، هو ولا شك فى الحقيقة الوسيلة الوحيدة لتصفية الحسابات.

سيارة الأربع أحصنة للسيد بيريشون

فى شهر مايو الجميل عام ١٩٤٨ خرجت من معامل سيارات رينو "سيارة صغيرة بلون القهوة باللبن" لتدخل نيويورك. لم يكن دخولها دخول المنتصر، لا، ولكن مع ذلك: قبل خمس سنوات كانت حى بيّانكور تحت قنابل الحلفاء، أما بالنسبة للألمان فقد كانوا قد قرروا أن الفرنسيين قليلى الميل للصناعة سيكرسون أنفسهم حصرًا لزراعة الكرنب. وها هى فرنسا تملك سيارتها بأربع أحصنة، وستقدمها للعم الأمريكى كما تقدم آخر لعبة للأخ الكبير ـ قليل الاهتمام بذلك بصورة عامة.

ألفت هذه الزيارة الدبلوماسية أكثر مما هى اقتصادية فى صحيفة اللوموند موضوع مقال له، وحين أعلن عن البدء فى بيع أول سيارة بأربع أحصنة فى أمريكا عبر جابرييل دور Gabriel Dheur عن أمانيه فى رؤية هذه العملية "متبوعة بعملية ثانية".

فى اللحظة التى كان فيها الفرنسيون يحلمون بالسيارات الأمريكية الجميلة، وفى الوقت الذى كانوا فيه أفقر من أن يمنحوا أنفسهم آخر ما ولدته إدارة رينو، يطيب للصحفى أن يفكر أن "اليانكيين سئموا من كل هذه السيارات المعيقة الغالية والعادية إلى حد الملل التى تزحم طرقهم السيارة. حجة بيع أخرى بالنسبة لإدارة رينو: خطة مارشال! لأن "مطالب المساعدة لأوروبا توجب من ثم حمل الأمريكيين على تقليص مستوى حياتهم، يبدو أن السيارة الصغيرة بلون القهوة باللبن هى بالضبط ما يحتاجون إليه ليعتادوا على وجود أكثر شظفًا". لكن بعيداً عن السخرية، تستحق سيارة الأربع أحصنة ثناءً صادقًا ـ كصدقها هى نفسها؛ لأنها لا تلهث وراء "تقليد السيارات الفارهة"، مثل بعض سيارات رينو فى الماضى: "فهذه الأخيرة صادقة وتقدم نفسها بطيبة كما هى عليه". سيارة؟ لا، بل صورة: "صورة أمة صغيرة مدمرة، لكنها شجاعة وشريفة، تجهد بالمحافظة قدر إمكاناتها على تقاليد فى مستوى العمل". هى ذى "سفيرتنا الصغيرة": شعار متواضع لفضائلنا الحرفية ونوقنا فى العمل المتقن. "ولو تصورتْ وقد تحلتْ بالشريط ذى الألوان الثلاثة أمام مبنى إمباير ستات، فلتتذكرْ جملة لابيش الشهيرة: بيريشون الضخم أمام بحر صغير من الجليد(١١١)." بيريشون؟

يجسّد السيد بيريشون فى مسرحية *رحلة السيد بيريشون* على نحو جيد الملامح الفرنسية، بما فى ذلك الميل إلى الأغلاط الإملائية ("إن أم(*) الجليد ليس لها أطفال...إلخ."). إنه يميل أيضاً إلى التفكير أن العالم يدور من حول شخصه والتواضع ليس من شيمته: هناك تاتارين فى هذا الفنويارد. ماذا! هل يريد صحفى اللوموند أن يوحى أن الأربعة أحصنة هى ضفدع ـ باعتبارها تتخذ شكلها ـ تريد أن تكون ضخمة ضخامة البويك؟ يجب الاعتراف أن خاتمته لا تقدم مجازًا شفافًا، هذا إلا إذا أزلق مع ذلك السيد بيريشون نحو خواتم أخرى: تلك التى تجعل من عقدة المسرحية تنطلق من جديد.

هذه العقدة بسيطة جداً: تحظى بنت السيد بيريشون بعاشقين، آرمان الكامل ودانييل الداهية. آرمان يملك حظ ـ فيما يظن ـ الإمساك بالسيد بيريشون وهو على حافة ثغرة كان والد المحبوبة سيسقط فيها، لكنه ما إن تخلص من هذه الخطوة العاثرة حتى صعُبَ على السيد بيريشون إخفاء فظاظته إزاء هذا المنقذ الذى صار مديناً له، وهو الذى رأى منافسه دون أن يضيع ثانية يسقط فى ثغرة أخرى كى يخلصه السيد بيريشون. وبما أنه صار بفعل ذلك مديناً له فقد صار من الآن فصاعداً معبوداً، فى

(*) بين كلمة بحر mer وأم mère (الإشارة إلى خطأ الإملاء!)

حين أن أرمان المنقذ يصير شخصًا غير مرغوب فيه بخطأ إحسانه. ليست مسرحية *رحلة السيد بيريشون* ***Voyage de M. Perrichon*** مجرد حكاية حول التصلف، إنها مثل بنائى حول نكران الجميل. أنقذ من تشاء، لكن لكى يُحَبَّ المرء من الأفضل أن يجعل نفسه يُنقَذ. هذا الدرس الكبير لرحلة السيد بيريشون هو أيضًا درس نزعة معاداة أمريكا الفرنسية فى القرن العشرين والفحوى الحقيقى لمقال اللوموند حول الأربعة أحصنة كما يؤكد ربما عن غير قصد العنوان: "لافاييت، ها نحن..." إن مقال جابرييل دور هو قطعًا غابة من الرموز.

أحد حدوس الديجولية (الحدس الحقيقى، أى حدس ديجول) وإسهامه الأثمن فى إعادة البناء الرمزى للبلد كان أنه فهم باكرًا جدًا عَرَضَ بيريشون. هذه البصيرة سمحت للديجولية الرئاسية أن تحافظ على مسار شديد الثقة بين التحدى الرمزى للأمريكيين والتضامن العاطفى، فى كل أزمة هامة (كأزمة صواريخ كوبا) مع الحليف الأمريكى. لقد أكد جان لاكوتور دومًا أن ديجول لم يكن معاديًا لأمريكا[١١٢]. لكى تكون لديه فكرة إغلاق القواعد العسكرية الأمريكية فى فرنسا دون أن ينوى لحظة واحدة أن يترك الحلف الأطلسى، كان لابد من أن يكون معاديًا للأطلسى، ولكن أيضًا وبوجه خاص بطريقة شديدة الذكاء معاديًا لأمريكا. لقد تعلم رئيس فرنسا الحرة، "المُسَاعَد" أثناء فترة الحرب كلها بحامين قليلى العطف ندر أن كانوا غير مغرضين، فى مدرسة ممتازة. وكذلك من كانوا يحيطون به أيضًا، كما يشهد على ذلك كتاب صغير غريب لموريس دروون **Maurice Druon** مؤرخ فى هارليفورد مانور **Harleyford Manor**، ١٨ أكتوبر ١٩٤٣، ويحمل عنوان: رسائل من أوروبى ***Lettres d un Européen***.

إحدى الرسائل موجهة "إلى ضابط أمريكى"، وتتضمن هذه الخرافة الحكمية: "نحن تقريبًا فى الوضع التالى. أقول لك: صديقى، لقد سقط على دمار كبير. أسباب ذلك كثيرة، لكن الأسباب لا تغير شيئًا، أقرضنى خمسمائة دولار لكى تنقذنى من البؤس الفورى، وامض فى الطيبة إلى حد اعتبار ذلك مؤقتًا هبة. سأبدأ فى الكدح، لكنك تجيبنى: خمسمائة دولار، هل تمزح. سأعطيك عشرة آلاف، ثم إن جدرانك مطلية بالأخضر، سأرسل لك دهانى الذى سيطليها لك بالأزرق، ثم إنك اعتدت على لباس سترات متصالبة، سوف تذهب إلى خياطى الذى سيفصل لك بذلة حقيقية، وعلى ذلك يجيب بإجابة محذرة قبل خمس سنوات من خطة مارشال، لكنها بصورة خاصة حاسمة فى الرفض الذى تعبر عنه للتبعية المكروهة: لا، رجاء! خمسمائة دولار، وقل لى حظًا طيبًا ولا ترغمنى على كره إحسانك[١١٣]".

هوامش

(١) Etiemble, *Parlez-vous franglais*, Paris, Gaillmard, 1964, p. 231.

(٢) François Mauriac, *Le Figaro*, 24 février 1951.

(٣) *Le Monde*, 11 mai 1966. Figurent parmi les signataires Jean-Marie Domench, Pierre Emmanuel, André Philip, David Roussrt.

(٤) G. Clemenceau, Grandeurs et Misères d une Victoire, Paris, Plon, 1930, p. 260.

(٥) A. Tardieu, Devant l obstacle. L Amérique et nous, Paris, Editions Emile-Paul Frères, 1927, p. 286.

(٦) وصف رنيه ريمون هذه الأزمة فى كتابه: الولايات المتحدة أمام الرأى العام الفرنسى ١٨١٥ - ١٨٥٢، انظر:

René Rémond, Les Etats-Unis devant l opinion française. 1815-1852, Paris, Armand Colin, 1962, pp. 779-814.

(٧) كان المقصود أساسًا تعويض الرعايا الفرنسيين المتضررين من الحكومة الأمريكية (ومنهم بومارشيه) والتحريف الذى قامت به نفس هذه الحكومة لمعاهدة ١٨٠٣ (فالمادة ٨ تقضى بأن البواخر الفرنسية ستعامل إلى الأبد بوصفها الأمة الأفضل معاملة فى لويزيان، ولما كانت بريطانيا العظمى قد حصلت فى عام ١٨١٥ على الإعفاء التام من الحقوق؛ فقد كانت فرنسا تطالب به عملاً بالمعاهدة).

(٨) Le National, 29 mars 1834, cité par R. Rémond, Les *Etats-Unis* devant l opinion française. 1815-1852,p. 788.

(٩) A. de Lamartine, débat du 1er avril 1834. *Ibid.*, p. 793.

(١٠) A. de Lamartine, débat du 20 mai 1842. *Ibid.*, p. 817.

(١١) R. Rémond, Les Etats-Unis devant l opinion française..., p. 817.

(١٢) Le Constitutionnel, 19 avril 1835, *ibid.*, p. 816.

(١٣) R. Rémond, Les Etats-Unis devant l opinion française..., p. 816.

(١٤) A. Siegfried, *Les Etats-Unis* d aujourd hui, Paris, Armand Colin, 1927 (chapitre XVI, L Amérique créanciere du monde, p. 214.

(١٥) P. Morand,*Champions du monde*, Paris, Grasset, 1930, p. 41.

(١٦) A. Tardieu, *Devant l obstacle...*, p. 279.

(١٧) L. Romier, préface à André Lafond, New York 1928. Impressions d *Amérique,* Editions du Journal de Rouen, 1929, p. XIII.

(١٨) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain*, Paris, Rioder,1931, p. 47.

(١٩) A. Tardieu, *Devant l obstacle...*, p. 279.

(٢٠) A. Tardieu, *L Heure de la décision*, Paris, Flammarion, 1934, p. 21.

(٢١) A. Siegfried, Les Etats-Unis d aujourd hui..., p. 226.

(٢٢) *Ibid.*, p. 227.

(٢٣) A. Tardieu, L Heure de la décision, Paris, Flammarion, 1934, p. 22.

(٢٤) *Ibid.*, p. 21.

(٢٥) R. Aron et A. Dandieu, Le Cancer américain..., pp. 124, 117.

(٢٦) Ch. Maurras, Les Trois Aspects du Président Wilson. La Neutralité. L Intervention. L Armistice, Paris, Nouvelle Librairie Nationale, 1920, p. xv. Wilson avait parlé de - peace without victory-.

(٢٧) *Ibid.*, p. 28.

(٢٨) *Ibid.*, p. 152 [date originale 24 janvier 1919].

(٢٩) *Ibid.*, p. 200.

(٣٠) *Ibid.*, p. 190.

(٣١) *Ibid.*, p. 193.

(٣٢) *Ibid.*, p195.

(٣٣) *Ibid.*, p. xv.

(٢٤) *Ibid.*, p. 35 [date originale 7 avril 1917].

(٢٥) *Ibid.*, p. 158.

(٢٦) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*, (chapitre XXVI, Les Etats-Unis, leader de la race blanche), pp. 337, 340, 341-342.

(٢٧) Ch. Maurras, *Les Trois Aspects du president Wilson...*, p. xv.

(٢٨) William R. Keylor, L Image de la France en Amérique à la fin de la Grande Guerre, *Les Américains et la France* (1917-1947). Engagements et représentations, sous la direction de F. Cochet, M.-Cl. Genet-Delacroix et H. Trocmé, Maisonneuve et Larose, 1999, p. 161.

(٢٩) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain...*, p. 68.

(٤٠) سوف نعود إلى هذه الرواية؛ يذكر اسم الشخصية أوجدن ويب Ogden Webb باسم أوجدن ميلز Ogden Mills، وزير الخزانة الأمريكي بين ميللون Mellon ويونج Young.

(٤١) A. Tardieu.، خطاب ألقي في مجلس الشيوخ يوم ٥ أبريل ١٩٣٠، وفي المجلس القومي يوم ٢٩ مارس، وقد استخدم التكتيك نفسه، وحاول إعادة الاعتبار إلى ويلسون: "رجل عرف بالتناوب إفراطًا في الشعبية لا حدود له، ولا سيما على مقاعد اليسار، ثم إفراطًا في الظلم: الرئيس ويلسون".

(٤٢) A. Tardieu, *L Heure de la decision...*, pp. 15,14.

(٤٣) Donald Roy Allen, *French Views of America in the* 1930s, New York & London, Garland Publishing Inc., 1979, p. 280.

(٤٤) R. Recouly, *L Amérique pauvre*, Paris, Les Editions de France, 1933, p. 325.

(٤٥) *Ibid.*, p. 339.

(٤٦) Régis Michaud, *Ce qu il faut connaître de l âme américaine*, Paris, Boivin, 1929.

(٤٧) Voir Victor de Marcé, Autour du problème des dettes, *Revue de Paris*, vol. 2 (1933) et le commentaire de D.R. Allen, *French views...*, p. 262, note 5.

(٤٨) R. Aron et A. Dandieu, Le Cancer américain..., p. 120.

(٤٩) J.-L. Chastanet, *L Oncle Shylock ou l impérialisme américain à la conquête du monde*, Paris, Flammarion, 1927, p. 78.

(٥٠) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*,p. 226.

(٥١) J.-L. Chastanet, *L Oncle Shylock...*, p. 159.

(٥٢) *Ibid.*, p. 9-10.

(٥٣) انظر مـثـلاً: "يقظة شـايلوك Le réveil de Shylock" لسـان بريس Saint-Brice المجلة العالمية *Revue Universelle*، ١٥ ديسمبر ١٩٣٢)؛ قدم فيه هوفر كما لو أنه بلا شجاعة و"سعة نظر"؛ وروزفلت لا يبدو فى حالة أفضل: "إن ما نعرفه عن إدارة الغد هو أنها تحلم بممارسة الديماجوجية فى الداخل، وأن تحاول مساومة الديون مقابل تركيبات اقتصادية محض وهمية." وبصورة عامة، فإن أمريكا "علمتنا أنها عاجزة عن الالتزام بأى شىء" (ص ٧٣١ - ٧٣٢).

(٥٤) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*,p. 25.

(٥٥) *Ibid.*, p. 16.

(٥٦) Max O Rell [Paul Blouët] *et Jack Allyn, Jonathan et son continent.* La société américaine, Paris, Calman-Lévy, 1900, p. 112.

(٥٧) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*,p. 25.

(٥٨) L. Marin, Annales de la Chambre des députés, 1er séance du 21 janvier 1925.

(٥٩) Pierr Scize, Sacco, Vanzetti et le goût du sport, *Le Canard enchaîné*, 10 août 1927.

(٦٠) من بين المآخذ الأشد غرابة فيما بين الحربين هناك مأخذ عبادة "الأمن" المسنود للأمريكيين. فشعار "Safety First" المستخدم فى الإنتاج الصناعى وعلى الطرقات يستثير استنكارًا مدهشًا لدى موران: "إن ـ الأمن أولاً ـ لليانكيين يقتل العقل" (Champions du monde..., p. 141). الحدة نفسها فى قصيدة لوك دورتين التى تحمل عنوان "Battery": لا، ياسيدى، لا:الأمن أولاً!/ الأمن فيما بعد،/ فيما بعد بكثير،/ كما هو الأمر فى أوروبا" انظر: (USA 1927, Paris, Plaisir de bibliophile, 1928 [np]).

(٦١) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*,p. 342.

(٦٢) L. Marin, Annales de la Chambre des députés, 1er séance du 21 janvier 1925.

(٦٣) G. Duhamel, *Scènes de la vie future* [1930], Paris, Arthème Fayard, Le Livre de demain, 1938, p. 100.

(٦٤) Jacques Gascuel, *France-Soir*, 14 septembre 1948.

(٦٥) R. Aron, Sommes-nous voués à la mendicité. *Le Figaro*, 1er et 2 août 1948.

(٦٦) R. Aron, Du plan Marshall à l Europe unie, *Le Figaro*, 2 juillet 1948.

(٦٧) Département d Etat, *French Attitudes On Selected Issues*, 43, cité par R. F. Kuisel, *Le Miroir américain*, 50 ans de regard français sur l Amérique, traduction par E. R. Nicoud, Paris, J.-C. Lattès, 1993, p. 70.

(٦٨) G. Soria, *La France deviendra-t-elle une colonie américaine* ?, préface de F. Joliot-Curie, Paris, Editions du Pavillon, 1948, pp. 30, 31.

(٦٩) *Ibid.*, p. 38، يتحدث صوريا أيضًا عن "السيادة الجمركية".

(٧٠) *Ibid.*, p.75.

(٧١) *Ibid.*, p. 22.

(٧٢) La lettre au président Truman, Combattants de la paix et de la liberté, Conseil National, Paris, Imprimerie Aulard, 1949 (sans pagination).

(٧٣) جورج كونيو G. Cognot، "الاتحاد الأوروبى، الحكومة العالمية، قناعان للأمبريالية"، محاضرة قدمت أمام أعضاء لجان القطاع وأمناء سر خلايا الشركات ومقار اتحاد الرون للحزب الشيوعى الفرنسى، السلسلة الأولى، رقم ٩ [بدون تاريخ]، ص. ١١.

(٧٤) Ibid., p. 3. En gras dans le texte.

(٧٥)

(٧٦) *Sondage*, 1953, 40, cité par R. Kuisel, *Le Miroir américain*..., p. 73 فيما يخص حالة الرأى العام الفرنسى خلال الحرب الباردة، يمكن العودة بصورة مفيدة إلى فيليب روجيه [لا قرابة له مع المؤلف] فى:

Philippe Roger, *Rêves et cauchemars américains*. Les Etats-Unis au miroir de l opinion publique française (1945-1953), Lille, Presse Universitaires du Septen-

trion, 1996.

(٧٧) V. Pozner, *Les Etats-Unis-Désunis*, Paris, La Bibliothèque française, 1948, p.18.

(٧٨) G. Bernanos, *La Liberté pour quoi faire*, Paris, Gallimard, 1953, p. 58.

(٧٩) M. Diverger, *Le Monde*, 1er et 15 septembre 1948, cité par L. Greilsamer, Hubert Beuve-Méry. 1902-1989, Paris, Fayard, 1990, p. 339. Voir aussi, sur cette période du journal, Le Monde de Beuve-Méry ou le métier d Alceste, de J.-N. Jeanneney et J. Julliard, Paris, Seuil, 1979 et *Le Monde, histoire d un journal*, un journal dans l histoire de Jacques Thibau, Paris, J.-C. Smoën, 1978.

(٨٠) G. Cognot, *L Union européenne...*, p. 13.

(٨١) Thèmes et buts du film américain (non signé), La Nouvelle Critique, nº 12, janvier 1950, p. 114.

(٨٢) E. Gilson, Le Monde , 2 mars 1949, 24 août 1950, ce parcourd d E. Gilson a été retracé au cours d un exposé (non encore publié) fait dans mon séminaire de l EHESS par Mme. Duranton-Crabol.

(٨٣) Pierre Emmanuel, *L Amérique impérial*, Le Monde, 25-26-28 octobre 1949.

(٨٤) Ch. Tillon, *La lettre au président Truman...*, [non paginé].

(٨٥) E. Mounier, *Le Pacte atlantique, Ouvres*, Seuil, 1961, t. 4, p. 221.

(٨٦) انظر الفصل الخامس من هذا القسم الثاني.

(٨٧) E. Mounier, *Le Pacte atlantique*, Ouvres, Seuil, 1961, t. 4, p. 220.

(٨٨) "Chants staliniens de France par quelques-uns qui les chantaient dans les années 50", Label Expression spontanée, Patrice Gauthier et André Senik éd., s.d. Je remercie Nicole Fouché de m avoir fait connaître ces documents sonores.

(٨٩) E. Mounier, Le Pacte atlantique, *Ouvres, Seuil*, 1961, t. 4, p. 220.

(٩٠) *Ibid.*, p. 223.

G. Bernanos, *La Liberté pour quoi faire...*, p. 138. (٩١)

M. Aymé, La fille du sheriff, *La fille du shérif*, Paris, Gallimard, 1987, pp. 15-17. (٩٢)

R. Aron, *Les Guerres en chaîne*, Paris, 1951, p. 423, cité par M. Winock, Les attitudes des français face à la présence américaine (1951-1967), *Historical Reflection/Réflections historiques*, 1997, vol. 23, nº 2, p. 253. (٩٣)

T. Maulnier, Spectateur, 19 novembre 1946, cité par M. Contat et Rybalka, *Les Ecrits de Sartre*, Paris, Gallimard, 1970, p. 136. (٩٤)

Bulletin d Informations de l IFOP, nº 1, 1er octobre 1944. (٩٥)

J.-P. Sartre, La leçon de Stalingrad, *France-URSS Magazine*, avril 1955, p. 4-5, cité dans M. Contat et Rybalka, Les Ecrits de Sartre..., p. 228. (٩٦)

G. Duhamel, *Scènes...*, p. 124. (٩٧)

Editorial de Victor Joannes, *La Nouvelle Critique*, n° 16, mai 1950, p. 9. (٩٨)

J.-J. Servan-Schreiber, *Le Défi américain*,Paris, Denoël, 1967. Le terme apparaît page 52. (٩٩)

Etiemble, *Parlez-vous franglais...*, p. 36. (١٠٠)

Ibid., p. 238. (١٠١)

Ibid., p. 52. (١٠٢)

Ibid., p241. (١٠٣)

Ibid., p. 327. (١٠٤)

Ibid., p237. (١٠٥)

Voir P. Sorum, *Intellectual and Decolonisation in France*, Chapel Hill, U. of North Carolina Press, 1977. (١٠٦)

Tony Judt, *Past Imperfect, French Intellectuals* (1944-1956), Berkeley/Los Angeles, University of California Press, 1992, p. 191. (١٠٧)

(١٠٨) F.Mauriac, Bloc-Notes. 1952-1957, Paris, Flammarion, 1958, (12 octobre 1956).

(١٠٩) R. Vailland, L Humanité Dimanche [février 1955], dans Chroniques II. D Hiroshima à Goldfinger, édition dirigée par René Ballet, Paris, Messidor-Editions Sociales, 1984, p. 200.

(١١٠) Ibid., p. 230.

(١١١) Gabriel Dheur, La Fayyette, nous voici..., *Le Monde, 29 mai* 1948.

(١١٢) إن معارضة ديجول المتكررة لسياسة الولايات المتحدة لا تجعل منه أحد "معادى أمريكا" بالمعنى المراد فى الكتاب الحالى. إن ديجول لايقول خطابًا ضد أمريكا، واعتباره معاديًا لأمريكا "من حيث إنه كان يجهد لقلب نظام دولى الذى كانت الولايات المتحدة تعتقد أنه يسير فى اتجاه مصالحها" يفرغ من معناه مفهوم نزعة معاداة أمريكا نفسه. انظر:

R. F. Kuisel, Was De Gaulle Anti-American?, *La Revue Tocqueville/*) *Tocqueville Review*, vol. XIII, nº 1, 1992, pp. 21-32, citation p. 27.)

فى هذه المناقشة، انظر أيضًا مقال مايكل م. هاريزون Michael M. Harrison، "الحل الديجولى La Solution gaulliste" الذى يدخل فيه ملاحظة مرحة: "كانت لديجول أراء متناقضة حول الأمريكيين، شأن كل شخص طبيعى؛ فهو يقول ذات يوم: "الأمريكيون أقوياء وشجعان وحمقى" (لكنه بعد كل شىء كان يقول أسوأ من ذلك عن الفرنسيين)". انظر:

L Amérique dans les têtes, dirigé par D. Lacorne, J. Rupnik et M.-F. Toinet,) Paris, Hachette, 1986, p. 217.)

(١١٣) M. Druon, *Lettres d un Européen*, Charlot, s.d., pp. 112-113

الفصل الرابع

متروبوليس، كوسموبوليس:
دفاع عن الفرنساوية

ولدت فى بلد هو بأرضه وبموجوداته وبمبدعاته
متباين،خليط، متغير، ماهر...
دوهاميل، مشاهد من الحياة القادمة(١٩٣٠)

فلتنهار أمريكا فى البعيد مع مبانيها البيضاء.
أراجون، الثورة السيريالية (١٩٢٥).

فى القرن العشرين، تم غزو فرنسا من قبل الولايات المتحدة، لن تقرءوا هذه الجملة فى أى كتاب تاريخ، لكن هناك تاريخ آخر، حدسى وعنيد، تفضله الأمم بصورة عامة على كتب التاريخ المدرسية. هذا الغزو، فى كتب التاريخ غير الرسمية للشعور الجماعي، واقعة بداهة، وبالنسبة لفرنسا، أحد الأحداث الكبرى فى القرن الماضى.

وعلى كل حال، بين عامى ١٩٠٠ و٢٠٠٠، تغيرت الفكرة التى كونها الفرنسيون عن هذا الغزو. لقد تعقدت، ولم يعد من الممكن الحديث عن المدرعات الضخمة، ولا عن الجيوش الآلية المستنفرة من قبل كتاب المسلسلات. فـ"الصدمة الحتمية" لم تحدث، تلك التى كان يعلن عنها الدبلوماسيون وعلماء السياسة: فحلف ١٩١٧ـ ١٩١٨ جعل سيناريوهات المواجهة أقل مصداقية، وانتهى الانسحاب الانعزالى عام ١٩٢٠ بأن ينزع عنها كل احتمال، ثم من أجل ماذا؟ لم يعد أصحاب المليارات الأمريكيون يتآمرون فى الزاوية، فهم يترأسون لجان التسويات الدولية. المكان الآن ليانكيه الأزمنة الجديدة، مؤتمن أسرار الدول وموزع الهبات النقدية برصانة. المكان الآن لداوز ويونج، الحكمين الأعليين لديون الشعوب والتعويضات بين الأمم أنصاف الآلهة الحديثون هؤلاء يجسدون بصورة أفضل أمريكا من رؤسائها قليلى المرح: تافت Taft، وهاردينج Hard-ing، وكوليدج Coolidge. حكام الكون هؤلاء المحاطون بالذهب يجتذبون كل ضروب الكراهية، وهم يدخلون كل الأحلام وكل الكوابيس ـ هم أو ممثلوهم البدائل. المكان الآن إذن لـ "أوجدن ويب"، بطل بول موران الذى لا يزال يقرر حتى وهو ميت مصير أوروبا ـ إنها زوجته التى تحرر وتوقع النشرات الرسمية، فى حين يُخفى موت المفوض مطلق

الصلاحية. المكان للموظفين الدوليين الذين يضعهم سيلين على رأس "الكنيسة"، كاريكاتير عصبة الأمم، شركة مغفلة الاسم ذات مسؤولية غير محدودة. هؤلاء هم القوة والمجد. لا حاجة لجيش يَقهرُ، ولا لأسطول يغزو. تكتب مجلة ***Réaction*** في عام ١٩٣٠ "عندما يهبط يانكى فى باريس، يمكنه أن يرى بلداً مفتوحاً"(١)، لكنه مفتوح دون مقاومة وبأسلحة أخرى غير المدافع والقذائف. أمريكا الجديدة مسالمة كثعبان شبعان: رأسه ينام فى واشنطن، لكن حلقاته المالية تحاصر بلا شفقة كل حكومة وكل شعب فى أوروبا.

يرغم هذا المعطى الجديد المعادين لأمريكا الفرنسيين على إعادة تأويل لـ"الخطر" الأمريكى، وسيكون من العبث الاستمرار فى الصراخ ضد التهديد العسكرى؛ فالاستعمار ليس الحرب، وبقدر ما تنزلق فرنسا إلى مستوى دولة مرتبطة بقدر ما تتضاءل مخاطر الصراع. لقد تمّ اقتصادياً تجاوز طور الخوف، وانتهت اللعبة، فقد طار ذهبُنا إلى ما وراء الأطلسى، وتخلخل وضع نقدنا، وصارت ماليتنا تحت الوصاية واقتصادنا بحاجة إلى رزق متواصل: دافع آخر للمسالمة إن لم يكن للرضى؛ فما الذى بقى من فرنسا للدفاع عنه؟

بقيت الفرنساوية: لا الأراضى، بل معنى الأراضى؛ لا قوتنا، بل حكمتنا، لا عملتنا الصعبة الطائرة، بل قيمنا الرفيعة على الدوام؛ لا حيويتنا المتضررة، بل نهج حياتنا الذى لا يضاهى؛ لا الوطن فى خطر، كما هو الأمر عام ١٧٩٢، بل تراثنا المحسود، أديرتنا المفككة وقصورنا المصدرة. تلك، بالنسبة للخطاب المعادى لأمريكا، ثورة: ثورته الثقافية. تدافع فرنسا وقد انتقلت إلى "الدفاع" من نفسها عن فكرة مجوهرة بإفراط.

اتفهمون أنفسكم فى أريافنا؟

هناك فكرة ما عن فرنسا محمية بخط ماجينو معاد لأمريكا. ليست هى على كل حال الفكرة المطبوعة بالعظمة والحافلة بالمطالب، الخاصة بالقناعة الديجولية، بل فكرة أكثر شيوعاً، ومدنية ومتعية تظهر فيها فرنسا فى آن واحد دير تيليم **Abbaye de Thélème**(*) وبلد النعيم، وحديقة أبيقور، وجنة عدن علمانية ـ رغبة الكون. أرض مباركة

(*) Abbaye de Thélème: جماعة علمانية ومختلطة ابتكرها رابليه Rabelais فى روايته ***Gargan-tua*** من أجل نخبة اجتماعية ومثقفة. وقاعدتها كانت تتلخص فى صيغة" افعل ما تشاء".

لأنها "معتدلة"، تؤوى أرض فرنسا شعبًا منيعًا حتى الإفراط. وعلى طبيعة بلا وعورة تستجيب حالة اجتماعية دون شراسة: طباق كامل للطبيعة الأمريكية المرعبة وللشراسة الرهيبة فى العلاقات الاجتماعية "الأنجلو ساكسونية". يكتب منذ ١٨٨٩ أحد أوائل المُحللين للثروات الأمريكية: "منذ قرون يملك العرق الأنجلو ساكسونى امتيازًا قليلاً ما يحسد عليه فى تقديمه تضاد أكبر الثروات وأعمق البؤس"(٢). وفرنسا المثالية التى يعارض بها المعادون لأمريكا الظلم الفطرى لأمريكا هى بالتضاد فضاء ذو مساواة نسبية (على طريقة الفلاحين) وتضامن عضوى (حلم كل النزعات الشعبية). إنها فرنسا حيث الصراع ليس تمزيقًا؛ حيث الاتصال لم يقطع - كما هو الأمر فى أمريكا مدن الأكواخ والعزل - بين الجماعات الاجتماعية أو الإثنية؛ حيث لا يزال كل الناس يتكلمون اللغة ذاتها، وحيث تدور الكلمة وتجمع. فرنسا هذه هى الأكثر دلعًا ربما من كل الميثولوجيات الفرنسية فى القرن العشرين: من الإجماعيين إلى الشعبيين، من جيونو Giono إلى كونو Queneau، ومن بريفير Prévert إلى بيناك Pennac، لم يكف الخيال الروائى (بل وكذلك السينمائى) عن الدفاع عنها وتصويرها. إن "فكرة فرنسا" التى يحتشد من حولها المثقفون اعتبارًا من سنوات ١٩٢٠ هى التى حبكتها بوضوح المراجع السياسية والثقافية، والتى غذتها القيم الثقافية والروحية، والتى تصلح للتلويح بها ضد لا - حضارة أمريكا، لكنها أيضًا، إنها أولاً منسوجة من خيال كامل مؤمثل للقرية أو للحى، وللورشة وللدكان، عن التضامن العائلى ورفقة المدرسة، وعن الأعمال والألعاب، وعن شعائر المائدة والشعائر الدينية أو الانتخابية - وبإيجاز عن حياة كاملة فى فرنسا تتعارض جذريًا مع ***النهج الأمريكى فى الحياة American way of life***.

من اللا - امتثاليين فى سنوات ٣٠ إلى شيوعيى سنوات الـ٥٠ وإلى اليساريين المتطرفين فى سنوات الـ٧٠، إنها صيحة الاستنكار نفسها ضد النهج الأمريكى فى الحياة. يشعر البعض بالإهانة من "مثل أعلى" بهذه المادية، ويستنكر البعض الآخر صيغة خداعة، من إيجاز كاذب يوحى بفكرة سهولة وهمية. والقضيتان تدرسان معًا: لوم أمريكا على مثل أعلى فى الثراء المادى بصورة دنيئة والإقرار بأنها حتى لم تبلغه، ذلك يعنى القيام بضربتين بحجر واحد. وفشل المزاعم غير الفاضلة فى حد ذاتها سيكون أحد لازمات الحملة الشيوعية بعد التحرير، إلا أن برنار دو جوفنيل كان منذ ١٩٣٤ يشهر بقوة وبعيدًا عن الماركسية، بـ"خرافة الأجور العالية": "ما أكثر ما قيل عن الأجور العالية للعمال الأمريكيين! وما أكثر الأرقام العجيبة التى ذكرت ! وما أكثر الأوصاف التى وصفت بها هذه الطبقة العاملة التى تسعى بالسيارات وتلبس السموكينج! لقد وصل الأمر بالبورجوازية الأوروبية إلى أن تحسد على "الحياة الفارهة"

لهذه البروليتاريا من الدنتيلا! لم يكن ذلك إلا خرافة، ودعاية، وحشوأدمغة(٣)". وسواء زيف الأمريكيون أم لم يزيفوا إحصاءاتهم، فلا أهمية للأمر: أليس هناك اعتراف بالدونية في مجرد الافتخار بـ"طريقتهم في الحياة" في مواجهة "ثقافات" حقيقية و"حضارات" أصيلة؟

والحق أنه إذا كان هجاء أمريكا يمارس طوعًا باسم القيم العليا الخاصة بأوروبا، فإنه يتبدى عاجلاً أن الدفاع الحثيث عن *النهج الفرنسي في الحياة* French way of life ينطوي على مجموع الخطابات المعادية لأمريكا دون استبعاد أكثرها عالمية (إنسانية دوهاميل)، وأكثرها ثورية (من السريالية إلى اللا ـ امتثالية)، وأكثرها أممية (شيوعية الحرب الباردة، نشيد واسع لـ"تقاليد" الشعب الفرنسي). وبوصفه بديلاً محتقراً للحضارة في أمريكا فإن "طريقة الحياة" عثر – بصورة سحرية في فرنسا – على جدارته الرفيعة بوصفه "فن الحياة" المنسجم مع "الشيم" العريقة من قرون عديدة. نهجهم في الحياة ضد شيمنا: معركة إبادة، (بل إن إتيامبل اشتمّ مؤامرة ضد كلمتنا شيم التي تهددها الترجمة غير المحتملة "النهج الفرنسي في الحياة"، لكنه يمكن التساؤل إن كان هذا التعبير قد وُجِدَ في مكان آخر غير خياله(٤)...) إن المنافحة عن الفرنساوية وعن "العيش في فرنسا" لا يفتأ يتكرر في الاحتجاج المعادي لأمريكا. ويحتل فيه فن الطبخ مكانة يحسد عليها، لكنها ليست حصرية. ومدح الخمرة يتكرر كثيراً فيه، لكن لا من وجهة نظر علم الخمر بقدر ما هو من وجهة نظر قربانية؛ فالخمر مشاركة وحضارة، وعادة تناوله على المائدة هي "شئنا أم أبينا علامة حضارة"، كما يذكر مؤلف من سنوات ١٩٣٠(٥). كذلك فإن مدح "المقاهي الصغيرة عندنا" لدى دوهاميل؛ حيث "يلتهم ثلاثة أشخاص [...] لحم البقر المتبل بالنبيذ والبصل ويتبادلون القصص ويمزحون ويجلجلون! يمزحون وهم يصفرون كالناي" ليس لعنة ترمي بالتضاد على المعالف النيويوركية بكراسيها التي تشبه كراسي أطباء الأسنان فحسب، بل يوتوبيا مصغرة عن فرنسا العاملة والضاحكة، الشعبية والأخوية.

لقد سبق والتقينا رواية راؤول جين، *أمريكيون عندنا* (١٩٢٨)، يجب أن نعيد فتحها بوصفها مختارات أخاذة لسمات الحياة الفرنسية المهددة. هذه الحكاية العجيبة الواقعية هي أول قصة تضع على خشبة المسرح فرنسا المحتلة والمخربة والمرغة من قبل اليانكيين، لا بفضل حرب خيالية، بل في قلب السلام وبكل رصانة. يلمع راؤول جين في الموجة المعادية لأمريكا خلال سنوات ١٩٢٧ـ١٩٣١، بنور متواضع؛ فالروايات الأربع التي نشرها قبل رواية *أمريكيون عندنا*، لم تطبع حقبتها؛ ولا كذلك *قصائد المظلة* *Poèmes de l ombrelle (1923)*، لكن راؤول جين يضع هذا التواضع هنا في

خدمة مشروع أصيل: إظهار الأمريكيين لا فى بلدهم بل فى "بلدنا"، بالمعنى الأكثر خشونة للتعبير. فى فرنسا، لا فى القصور ولا فى مطعم مكسيمز، لا فى قاعات الاستقبال الدبلوماسية ولا فى الحلقات الاجتماعية الباريسية، بل فى قلب الريف النورماندى، وعلى محاذاة "زهور الربيع"، زهور الحقول التى غالبًا ما يستشهد القاص بها. لم تعد هنا مدونة نادي الجوكى التى خربها التدخل الخارجي كما هو الأمر فى رواية الزمن المستعاد حين يُدخِل بروست أمريكية يقلب عدم اختصاصها فى الأنساب قرونًا من المراتبية الخاصة بطبقة النبلاء[٦]. فى كيركوفيل كانت ضروب الرتابة والعادات والمسرات الصغيرة لقرية صغيرة هى التى انقلبت، وبالتالى وجودها نفسه، وإذ بدأت بوصفها تاريخ "الانقلابات الموجهة ضد قرانا العذبة والجميلة"[٧]، فإن هذه الكلوشميرل(*) بالصلصة اليانكية صارت بصورة غير محسوسة تاريخ مذبحة ثقافية.

أمريكيون عندنا تقص علينا فى آن واحد غزوًا، وفسادًا، ومسخًا. بعد عشر سنوات من "لافاييت، ها نحن!" لستانتون، ها هم الأمريكيون يعودون على سفينة نزهة مشرفة على الغرق. يتم إنقاذهم، وإسكانهم، ويعطون غرف النوم الخاصة والسرير الخاص. هناك صاحب ملايين وابنته قليلة العفة ديانا. محيطهم مريب، والغرق غرق مزيف، وبدأت ضروب السأم. يستقر صاحب الملايين ناتانائيل بيردكول وقد اقتنع بوجود النفط فى هذه الناحية من منطقة بريتانيا، ويمنح نفسه قصرًا، ويشترى الأراضى وينزع ملكية الفلاحين: "لقد جرفت الدولارات كل شيء[٨]". استأجر العمال المشنقيين والأجانب الذين "يُكرهون الفتيان أو يغتصبون الفتيات"[٩]: "كرواتيون وريتونيون وسلوفانيون وسيليزيون ومورافيون وبولونيون وبعض المجريين وصلوا إلى مدينة ناكفيل بأفواج عجيبة[١٠]." (نكاد نحسب أنفسنا نقرأ أندريه سيجفريد يصف "الهجرة الجديدة" الأمريكية.) يتدفق الدولار كالأمواج ويفسد ويقتل. يقتل زوج مدمن، وهو فندقى القرية، زوجته التى كانت ترفض أن يبيع للآنسة أثاث العائلة الذى كانت متعلقة به، يشنق نفسه بعد ذلك، لا ندمًا بل لأن ديانا المترددة لم تعد تريد شراء أثاثه. أما بيدكول الأب فإنه يتطلع من ناحيته إلى كنيسة سان جيرمان التى تسهر أبدًا على كيركوفيل؛ فإذا هدمت و"أرسلت قطعًا إلى أمريكا"، يمكن أن يعاد بناؤها "فى حديقة

(*) Clochemerle : رواية لجابرييل شوفالييه Gabriel Chevalier صدرت فى الثلاثينيات من القرن الماضى، وهى عبارة عن كوميديا مرحة تصف قرية فى فرنسا انقسمت بين العلمانيين والكاثوليكيين. يقابل المؤلف هنا بين مرح هذه الرواية مع عنف اللهجة فى رواية *أمريكيون عندنا* ... (المترجم)

واحد من قصوره". أدّى عرضه بمائتى ألف دولار الذى رفضه العمدة والخورى إلى تقسيم القرية، فى الوقت الذى كانت فيه الأقلية الشيوعية تدفع باتجاه البيع، وبعد الغزو التقسيم: "هل سيثير أمريكى الشؤم هذا بعد أن أتلف الأراضى، الاضطرابات فى القرية مع رغباته بوصفه غازيًا[١١]؟ سؤال محض بلاغى: هذه الناحية الهشة من فرنسا هى أصلاً ملوثة أخلاقيًا مثلما هى مكتسحة ماديًا.

يتحدث القاص بضمير المتكلم، يسميه الأمريكيون "صبى كيركوفيل". إنه من سكان القرية، لكنه نصف مهاجر، وباريسى طارئ من أجل أعماله. لقد شارك فى النجدة، وأسكن الأمريكيين، وصار عشيق الآنسة بيردكول. وبوصفه وسيطًا ثقافيًا بين القرويين وعشيرة الغازى، فإنه يشارك فى كل المساومات والمعاملات التجارية لصاحب الملايين، كما يشارك فى حياة القصر وحفلات شراب اليانكيين. وتجرّه رغبته الجنسية فى الأمريكية من التسويات إلى التعرض للشبهات، تحت أنظار جيرانه وأصدقائه المستنكرة والحزينة. إنه يمثل قبل الأوان شخصية المتعاون مع العدو كاملاً: "لقد حلقت على الطريقة الأمريكية، وأحمل نظارات محاطة بإطار من الحراشف، وأتعلم بالتدريج على صنع الكوكتيلات[١٢]". عبثًا: فلن يذهب فى عربات الأجنبى، وحين يركب اليانكيون البحر، خائبين من أن تنقيبهم لم يؤدّ إلى تفجير شىء آخر غير المياه المعدنية، هجروه لمصيره؛ ذلك أن العشيق الحزين للآنسة ديانا كان قبل ذلك قد تعرض لقطع أنفه من قبل منافس له هو المهندس النمساوى فون تيرزين، وليس للآنسة ديانا أن تهتم بمثل هذا المهشم...

ليس هناك سوى أنف القاص المقطوع الذى ينطوى على قيمة رمزية؛ فهذه الرواية الصغيرة الغريبة تراكم منها بلا عقد. رمزٌ هو التحالف بين اليانكيه والمتفاخر النمساوى الذى يقضى وقته فى الصياح "عاش الإمبراطور!" رمزٌ هو استعادة المقاول صاحب الملايين لأنبوب النفط المقام عام ١٩١٨ لتمرير النفط الأمريكى إلى فرنسا المحاربة: "العكس فى الوقت الحاضر؛ فالنفط المستخرج من الأرض الفرنسية سيشحن بالسفن الأمريكية"، وبالتالى فإن بيردكول يكون "قد أعاد وضعًا أكثر طبيعية ومنطقيًا للغاية"[١٣]. رمز أمركةٍ من قِبَلِ الأشياء هذا الانهمار المادى الذى يهبط على الريف النورماندى: أدوات مطبخية، معدات منزلية، معلبات الذرة، علب العلكة، أكياس الجيلاتى والآيس كريم... رمز الهجرة "الغرينى" هو غزو العمال الأجانب المُغتصِبين والمنحطين، الذين "ينقلون أمراضهم العائلية إلى عرق صاف"، و"يقرضون كل ما تملكه بلدى السليمة من بهجة هادئة ومن سعادة خشنة"[١٤].

وفى العمق وعلى مسافة ثلاثين عامًا تستعيد رواية ***أمريكيون عندنا*** تمام الاستعادة موضوع مؤامرة أصحاب المليارات: غزو اليانكيين لفرنسا، لكنها تستعيدها باعتبارها حكاية باردة وناشزة. حين يرعد بيردكول ويعصف بسبب غضبه لتوقيف واحد من مستخدميه، فإن سكان البلاد الأصليين المشدوهين يظنون أنهم يرون "الغواصات الأمريكية تقوم بدورية فى عمق البحار"، ويضرعون إلى القديس بارب ليحيميهم من مدفعيتها(١٥). و البطل ـ القاص، وهو الأكثر بصيرة والأكثر قلقًا، يعرف أن العدوان قد تمّ، وأنه وإن كان فى الظاهر سلمَيًا، لكنه أفضل نجاحًا وأشدّ دمارًا. أن يئول العدو لعدم وجود النفط إلى الاحتجاب، هذا هو مصير رءوس الأموال العائمة، لكن الشر وقع مع ذلك. يعترف بطريقة يرثى لها معاون الليبيدو: "لقد سبب مشروع هذا السيد أضرارًا". تترك أمريكا ـ أتيلا، كما سيقول عما قريب آرون ودانديو، وراءها ريفًا وإنسانية فرنسيين مشوهين كذلك. أما بالنسبة للقاص المتورط، فبوسعنا الشك فى أن يجد يومًا فى كيركوفيل المتحررة من اليانكيين سعادته القديمة: "سعادة متوسطة لعالم قديم"(١٦).

مدهش هذا الإخراج لـ"استعمار" يانكى المتمثل فى قصة راؤول جين: إن أمركة فرنسا هى تخريب للحياة، تلويث مترافق للأرض وللعرق. وبذات النّفَس إنما وُصِفَ تدمير المنظر وإفساد الأجساد: "لقد أصيب المنظر إصابة قاتلة. آبار البترول تمزق بأظافرها حرير السماء، وتلطخ بأوساخها المرآة المترجرجة للمياه؛ فالهواء والأشجار والعصافير تسممت من الفضلات، والمحروقات، والنتانة المعدنية. عمال مناجم بولونيون، وحفارون إيطاليون، وأخصائيون روسيون، وحمالون صينيون أرهقوا المنطقة برذائلهم وبيذاءتهم الخاصة." لا توفر العدوى الحُمّوية للعولمة الاقتصادية الطبيعة أكثر من الثقافة؛ فـ"مسرة الحياة" تتغير مع الغزو الأجنبى، إلى "نتن شنيع، إلى عذاب الجحيم" ولا يعود للبلد "على وجهـ[ـها] كتفاحة صغيرة إلا بثرات، وصديدًا وجذامًا!"(١٧). إن تدمير جزيرة الهاج **Hague** هو السمة النبوية لتشويه فرنسا المباحة لشيطان **Moloch** بقرنين:أمريكا الأصلية وأمريكا العالمية. والاسم الريفى لأسرة بيردكول **Birdcall** ـ أى نداء العصفور ـ فخ إضافى: طُعْم. إنها المدينة الكبرى، بمصاعبها وبشاعاتها، التى تغزو مع أصحاب الملايين هؤلاء، الأب والبنت، والكسب والفجور، الريفَ الفرنسى. إنه أيضًا العالم وبؤس العالم: لقد غاص فى أثر أصحاب الملايين البَلَهُ المؤذى للطارئين المنحطين، وبهذا المعنى أيضًا تعتبر رواية ***أمريكيون عندنا*** مثالية للوساوس الجديدة الفرنسية فى مواجهة أمريكا.

فى غابة المدن

فى أواسط القرن الثامن عشر، كانت الطبيعة هى المخيفة فى أمريكا، وهى التى كان يصفها بتفاصيل قوية بوفون ودو بوو لكى يردعا المرشحين عن السفر إليها. والرعب الذى يوحى به الوطن الأمريكى اعتباراً من سنوات ١٩٢٠ يميّز من نواح كثيرة خطاب عصر التنوير هذا، لكنه ينقله من الطبيعة إلى الثقافة، من الصحراء ***wilderness*** القاتلة إلى المدينة الكبرى المميتة. لقد التقط رسام مشاهد من الحياة القادمة بصورة جيدة النفور الغامض الذى أوحت به المدينة الأمريكية لدوهاميل ـ ولكل معاصريه تقريباً. ينفتح الكتاب على خشبتين منقوشتين: الأولى تبين الهياج المعدنى للمبانى المكدسة حتى السماء؛ والأخرى تراكم الوجوه ذات القسمات الغريبة على قاع تبدو فيه أبراج ناطحات السحاب تنبعث من إزهار غريب للنخيل الاستوائى (دفتر الرسوم، ص ٢ ـ٣).

ليس الانحراف والجريمة كما يمكن أن نظن فى قلب اللعنة الجديدة المدينية. وتظل ثيمة نزعة السطو على قدر من الهامشية حتى نهاية سنوات ١٩٣٠، (لكنها من ثم شديدة الحضور فى المنشورات المعادية لأمريكا أثناء الاحتلال.) لقد سرق المعادون الفرنسيون لأمريكا المدينة متقدمين فى ذلك عشر سنوات على الفيلم الأسود وربع قرن قبل رائعته فى ***الطوبولوجيا الجرائمية والليلية The Asphalt Jungle*** لجون هيوستن **John Huston** (عندما تنام المدينة، ١٩٥٠). وسيتوجب انتظار سنوات ١٩٥٠ فى الحقيقة لكى تُطلق فى فرنسا ضمن الجو الأخلاقى الخاص بالتحرير حملات ضد القصص البوليسية وأفلام السطو التى اعتبرت من خصائص مجتمع أمريكى فاسد[١٨]. أما فيما يخص الساعة الراهنة فى سنوات ١٩٢٠، وبقلم واحد مثل دورتين أو دوهاميل، فى التحقيقات الصحافية كما هو الأمر فى الروايات، تنصب المدينة ضروباً من الرعب لا علاقة لها بالمخاوف الصغيرة أو الكبيرة الأمنية. للمدينة الأمريكية مجرموها ـ من يدهش من ذلك؟ هنا كما هو الأمر فى مكان آخر، ربما تنعقد أحلاف غريبة بين المدافعين عن النظام والمخالفين له. لكن هؤلاء الأنذال المندفعون لا يزالوا يفوحون برائحة طيبة فى أوروبا العجوز. صحيح أنهم يستخدمون رشاشاتهم استخداماً مفرطاً؛ ولكن دون أن يُدخلوا إلى مدنهم الخالية من البهجة ضرباً من الحيوية، إنسانية غريبة. ففى مياه الحساب الأنانى المثلجة، يمتلك "الشواذ" على الأقل جدارة السباحة ضد التيار. إن شيكاغو حرب العصابات تبقى من النوادر. إنها المدينة ذاتها التى تجسد بطريقة شبه وجودية وتسمى لا إنسانية الحضارة الأمريكية.

فمنذ القرن الثامن عشر كان أمام الطبيعة الأمريكية ما يكفى من الوقت كى

تُبرّاً. لقد تكشفت أبخرتها الفاسدة أقل قابلية للقتل مما هو متوقع؛ فثعابينها سامة بصورة معقولة، ومنهوتها أكثر هضماً مما كان يمكن أن نظن. وأمام دهشة الجميع، طفق الكلاب بالعواء - إلا من أجل كلوديل[١٩]. تبقى مع ذلك العيوب الشكلية، والمعوقات البنيوية. يبقى الفضاء شديد الإفراط، والآفاق شديدة الاتساع، تبقى هذه الفكرة عن قارة "خالية" أو "مفرغة"، تلك التى أعطاها الكتاب الفرنسيون فى سنوات ١٩٣٠ سيرة جديدة. فى هذا الخلاء، تنتشر المدن من الآن فصاعداً. وفيها تمتد - بصورة مفرطة، كل إسراف فى طبيعة قليلة الدماثة انتقل فى هذا الانتشار للمبانى التى لا تقدم أى سمة عمرانية. العيش فيها دوار حتى قبل أن يكون كابوساً، يعيد دوهاميل بصورة لا واعية وصل سلسلة الخطابات القديمة حين يجمع فى الجملة نفسها "المدن اللا إنسانية" فى أمريكا و"الأرض التى ارتفعت فوقها، هذه الأرض التى لا تدعو أبداً إلى الاعتدال"[٢٠]. على أرض مكرسة للمزاعم لا يمكن أن ترتفع إلا مدن متعجرفة. كانت اللا إنسانية بالأمس طبيعة فاسدة، عنيدة فى الأذى. أما اليوم فهى المدينة التى لا تقل استبسالاً فى مصيبة الإنسان. تستمر المدينة الأخطبوطية فى نبات - العرائش. إنها لم تعد المنهوت الذى يسمم، بل اللحم المغشوش أو الكحول المهرب. لم تعد رطوبة المستنقعات هى التى تقتل، بل أبخرة الصناعة النتنة. لقد أعقبت ضروبَ العزلة اليائسة فى القفار ضروب الحرمان من كل عون فى المدن. بعد الطبيعة الشرسة، هى ذى المدينة القاتلة.

"ما أكثر ما كبرت نيويورك!"

لقد مرت صورة المدينة الأمريكية خلال قرن بثلاث مراحل متعاقبة. فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت هذه المدينة حقيرة وبشعة ومثيرة للسأم مثل مدينة سينسناتى للسيدة ترولوب. إنها البلادة ذاتها، البلد وقِذِ تجوهر، فيريير على الهدسون. هذه الرؤية الستندالية (والبودليرية) تتلاشى نحو نهاية القرن. وقد حلّ محلها افتتان مذعور بالمجمعات الصناعية الكبرى، بالمصانع الهائلة، بالمبانى القذرة الخاصة بالعمال. يَنسَدُّ الأفق بمداخن المصنع، ويختلط دخان المصانع بدخان السكك الحديدية. تضيع المدينة فى زوائدها. يشعر جوستاف لانسون فى عام ١٩١٢ بنفسه عاجزاً عن إبداء رأى حول نيويورك "مدينة شديدة الاتساع، مجموعة مدن"، على غرار كل مدن أمريكا، "مدن بلا شكل ومبعثرة، مدن حديثة لم تعط بعد نمطها فى الجمال"[٢١]. بانتظار هذا اليوم البعيد، تبتلع الصناعة المتكاثرة المنظر العمرانى، وتختفى هيئة المدينة وراء غُدَّتها الصناعية. هذه اللحظة الثانية هى الأقل أمريكية فى طابعها؛ فالتشابه المؤسف الذى

سيؤخذ فيما بعد على العمارة موجود أصلاً، ولكن على مستوى ردىء: "بما أننا لا نريد إضاعة المكان فإننا نكثر من الطوابق دون أن نزيد من ارتفاع كل طابق: كل شىء يبدو صغيراً ومنخفضاً، وتبدو النوافذ التى لا تحصى وقد نضد بعضها فوق البعض الآخر فى صفوف متماثلة كخلايا شمع العسل أو خصصاً فى موزع واسع. الواجهات مسطحة ومملة كواجهات المصانع فى مدننا الصناعية(٢٢)". لا شىء كثير الاختلاف عن أوروبا، إجمالاً، سوى أن مبانى السكن تشبه "مصانعنا". تغدو المراكز غير موجودة، غارقة فى رواسب مدينية لا معنى فيها للتمييز الأوروبى بين مدينة وضاحية. ولكن المدينة الأمريكية من هذه الناحية أيضاً، لا تتميز أبداً إلا بإيقاعها فى توسع الضواحى الصناعية الذى بدأ بنشر حلقاته فى أوروبا القديمة. هذه العاصمة الصناعية ذات الحدود غير الدقيقة هى النسخة الأمريكية عن التحوّل العام باتجاه "المدينة الأخطبوطية" التى غناها فيرهارن عام ١٨٩٣: "الأخطبوط النشيط ومستودع العظام/ والهيكل العظمى البهى"(٢٣). ولئن كانت "المدينة الأخطبوطية" فى نهاية القرن أقل دلالة على أمريكا كى تقدم للخطاب المعادى لأمريكا ناقلاً جيداً، فإنها لا تتقلص مع ذلك إلى صورة منفرة. إذا كان الهول لا يستحيل فيها "افتتاناً" كما هو الأمر فى المدينة البودليرية الكبرى، فعلى الأقل لن تمر الرعدة التى توحى بها دون استثارة، وحتى دون ابتهاج بالنسبة لمن هم أقل علماً من المسافرين.

لا بد من انتظار الفترة التالية على الحرب العالمية الأولى لكى يفرض وجه ثالث للمدينة محض أمريكى هذه المرة نفسه على الخيال الأوروبى ويصير واحداً من الأفكار العامة المفضلة لنزعة معاداة أمريكا الفرنسية. يتم هذا النقل للأذى بصورة شديدة المفاجأة، وفور انتهاء الحرب. لم تكن المدينة بعد، فى بداية القرن العشرين، ويوصفها كذلك، وحشية الصورة. لم يكن فى نيويورك عام ١٨٩٥ ما يشار إليه بالنسبة لبول بورجيه، إلا جسر بروكلين الأخير الذى يذكره عابراً كما لو أنه "كابوس هندسى وضع مخططه الأولى بيرانيز" - مقارنة عجيبة تحمل على الشك بنقص فى الإلفة مع بيرانيز Piranèse أو بصورة أشد احتمالاً مع جسربروكلين Brooklyn Bridge(٢٤). لم تكن المدينة الكبرى تخيف بعد، لكنها كانت تحمل على الحزن: فقد أتينا على ملاحظة ذلك لدى لانسون. يصفها جول هوريه عام ١٩٠٤ باعتبارها تكديساً تافهاً: "مجموعات سكنية من أبراج الدومينو كما يصنع الأطفال"، وحيث "لا تندر البيوت من عشرين طابقًا [...]". وعلى أنها تعطى الرغبة فى الهرب: "تقولون لأنفسكم على الفور إنكم ستكونون حزانى للسكن فيها وتفكرون بالريف، بمنطقة اللوار الهادئة، أو بالسين

الضاحك(٢٥)". سيستمر هذا الحزن زمنًا طويلاً فى طبع الأوصاف؛ فالكوميسير ميجريه(*) وهو يحقق فى نيويورك عام ١٩٤٧ يعثر على نبرة سلفه البعيد وعلى الحنين النهرى نفسه؛ إذ ما إن هبط على رصيف "الخط الفرنسى"، وبينما هو فى التاكسى "فى حىّ قذر كانت البيوت فيه من البشاعة بحيث تحمل على الغثيان"، يحلم مع ضيق فى القلب بحديقته فى مونج سور لوارMeung-sur-Loire(٢٦). يمكننا أن ندسّ بين هوريه وسيمنون هذه الوريقة من موروا عام ١٩٢٣: "قالت لى هذه الفرنسية: خلال زمن طويل، أحببت هذه البيوت العملاقة، وهذه المحطات ذات الخطوط الجميلة، وهذه الجماهير البيضاء والسوداء والصفراء، وهذا الريف المبكر، وهذه الحمى...ثم ذات يوم قلت لنفسى: - أوه! قناة، أشجار الحور، القارب، البطء أو سأموت...- ومضيت(٢٧)". إن العاصمة - المضادة فى كل هذه النصوص ليست باريس، بل هى فرنسا كلها، فرنسا شواطئ اللوار أو شواطئ السين: مرصعات الريف الحقيقى والمدن المخلصة حيث يظل العمران ريفيًا والطبيعة حافلة بالتهذيب.

كل شيء تغير غداة الحرب الكبرى: سلم الأشياء بالطبع، ولكن أيضًا – وبصورة أكثر مهارة – نظرة المراقبين الذين يقارنون النمو المذهل للمدن الكبرى فيما وراء الأطلسى بالكشط الحقيقى والرمزى لفرنسا المكتسحة. لقد أُخرجَت هذه الرؤية الجديدة بصورة فعالة فى رواية ***أبطال العالم*** ***Champions du monde*** لبول موران Paul Morand، التى ظهرت فى عام ١٩٣٠. تقص رواية ***أبطال العالم***، وهى رواية تربوية تدور أحداثها بين عام ١٩٠٩ و١٩٢٩، حول المصائر المحطمة لأربعة شبان أمريكيين على لسان راوٍ فرنسى (أستاذهم فى كولومبيا).

تجرى الحلقة الثانية فى عام ١٩١٩، وتبدأ بلقاءات مع نيويورك التى يبرز خط أفقها من الآن فصاعدًا على قاع من الخراب الأوروبى. "ما أكثر ما كبرت نيويورك! لا تزال تحت عينى مناظر الأرتوا المسطحة، والبيوت المنهارة، والأشجار المبتورة من واجهتها. لقد اعتدت فى الخنادق أن أسير مقرفصًا أو محنيًا كما لو كنت وراء عربة موتى. فجأة، أعثر على رأس مانهاتن الذى ينبثق من البحر، مع ناطحات سحابه مثل كومة من الصفائح الصدفية أمام لاعب سعيد(٢٨). يملك موران موهبة الصياغة وحس

(*) الكوميسير ميجريه: بطل مجموعة من الروايات البوليسية الشهيرة فى أوروبا، كتبها جورج سيمنون، وصورت فى أفلام سينمائية ومسلسلات تلفزيونية، وقام بدوره عدد كبير من كبار الممثلين الفرنسيين. (المترجم)

الرمز. انتهت أمريكا الدومينو التافه؛ فقد كدست نيويورك الطوابق كما يكدس الاحتياطي الفدرالي سبائك ذهب أوروبا المحاربة. يقترب الأوروبي من الآن فصاعداً من نيويورك محنياً في الحقيقة بفعل المحن وتحت تأثير شعوره بضعفه. لقد لعبت أمريكا وربحت. "لقد فجرت أمريكا البنك"(٢٩)...

مع هذه الرفاهية المتغطرسة يقسو الخطاب الفرنسي. لم تعد المدينة الكبرى الأمريكية مجرد زخرف شنيع. لقد صارت - مع الآلة وجزئيًا لنفس الأسباب - ممثلة رئيسية في إزالة الصفة الإنسانية الخاصة بهذه "الحضارة" المحتقرة بصورة إجماعية. إن إنكار الإنسان، وإنكار حاجاته الحقيقية وأفراحه الحقيقية، يتجذر أولاً هنا: في هذه الطرق المستقيمة، في هذه المباني المربعة الزوايا، في حويصلات هذه الشقق المتشابهة جميعًا. إن تحول الإنسان نحو الحشرة يبدأ مع استيطانه في منملة المدن الضخمة البشعة. في هذه "المدن من نمط جديد" "ذات النمو المعجز"، يرى أرون ودانديو "عَرَضًا مخيفًا": "إننا نمس هنا إن صح القول السرطان بالإصبع، في شكله المادي(٣٠)".

تعني المدينة من الآن فصاعداً أمريكا، ومن ثم فهي تحتل تقريبًا حقل الرؤية بكامله. في أعمق أعماق الولايات المتحدة، وفي وسط الصحراء، لا تزال المدن هي ما يراه وما يهذي به وما يصفه الرحالة الجدد: مدن غير مرئية بصورة مؤقتة، آثار مدن، إعلانات عن مدن، استدعاءات مدن. لم يعد الرحالة الضال يميز هذه المدن - الأشباح المستقبلية، والمصممة في الفضاء بالتفكير والاستدعاء، عن المدن المبنية في الواقع - ولكن كم من الزمن ستبقى قائمة؟ مدن فرضية ومدن حقيقية تخلط نموها اللامحدود مثل مجسّات نفس الحضارة الأخطبوطية. صارت المدينة حقيقة القارة الوحيدة والفريدة: مُركّزُ الأمركة، وفي الوقت نفسه الوجه الغائي للتجربة التاريخية الأمريكية. ليس الفتح النهائي لأمريكا شيئًا آخر سوى تعميرها الكامل، ففي عدة عشرات من السنين، انقلبت لازمة الفضاءات الواسعة العذراء أو "المتاحة" إلى صورة نمطية لازدحام الفضاء بالتفريخ العمراني.

صحراوات ممدَّنة ومدن وهمية

من لا يعرف المغامرة الأمريكية لتانتان محققًا صحفيًا؟ يستيقظ ذات صباح بعد أن نام إلى جانب حصانه على العشب في المرعى ليجد نفسه في بهو قصر بُني خلال الليل، وسط مدينة انبثقت من لا شيء؛ حيث يأمره شرطي فظ باحترام ممرات المشاة، ويشير إليه بينما يغمز من ثياب الكوبوي التي يرتديها أن المتنكرين

ممنوعون[٣١]، بينما يبتعد الهنود، مدفوعين بالحراب، تبسط هذه المدينة المبنية بسعة كل عيوب النهج الأمريكي في الحياة: عجرفة، لا مساواة، فساد، ونشعر جيداً أن هذا الشرطي بلا دماثة لن يتأخر عن رفع قبعته احتراماً لمرور رجال العصابات شأن زملائه في شيكاغو. إن ما يرسمه هيرجيه عام ١٩٣٦ في أربع وريقات هو المرور المباشر من الوحشية إلى البربرية دون فترة انتقال عبر الحضارة...

رحالة أوروبي آخر، أدنى شهرة بقليل من تانتان، لكنه هو الآخر أيضاً موضع تقدير شديد من قبل الفرنسيين، سبق له وعاش قبل عدة سنوات من ذلك تجربة من النوع ذاته. كان الكونت هرمان دو كيسرلينج، وهو محلل خصب للنفسية الأمريكية، قد ذهل بشدة لدى مروره ببالم سبرينج في صحراء كاليفورنيا الجنوبية لوجود ثلاث وستين وكالة عقارية لمائتي ساكن دائم. وها هو يؤخذ على الهضبة التي تسيطر على المدينة، بضرب من الرؤية المحذرة: "من هنا، ألمح كل هذه الصحراء وقد جزئت مع أسماء طرق وكل ما يتبع ذلك. وأدركت آنئذ وقد انتابني الذعر أن مجمل هذه الصحراء الكاليفورنية ربما سيصير [كذا] عما قريب مدينة هائلة الضخامة، وأن سيمكن لهذه المدينة [كذا] عما قريب أن تنضم إلى مدينة شيكاغو التي تستمر في الاتساع[٣٢]". "المدن اللاإنسانية" لدوهاميل متحدة ومنصهرة في متروبوليس قاري: هو ذا الشكل الجديد للكابوس الأمريكي.

لم يُخرج هذا الكابوس إخراجاً أفضل من إخراج لوك دورتين، في نهاية سنوات ١٩٢٠. كان دورتين قبل سيلين وبصورة أفضل من بول موران (في نيويورك) أو من دوهاميل، هو الشارح الرمزي الأكبر للمدينة الأمريكية، سواء أكانت حقيقية أم محتملة. وبوصفه مراقباً لاذعاً وقصصياً موهوباً فقد نشر لدى جاليمار في عام ١٩٢٧ ـ قبل ثلاث سنوات من ظهور مشاهد من الحياة القادمة وقبل خمس سنوات من نشر رحلة سيلين ـ مجموعة من ثلاث قصص تحمل عنوان «*الطابق الأربعون*». سيحاول أن يكرر النجاح في عام ١٩٢٨ مع رواية أقل أصالة: «*هوليود المهلة*». حموضة وصف دورتين، والبراعة التي يقلد بها بالفرنسية في حواراته تركيب وإيقاع الجملة الأمريكية، وبذاءته المستنيرة بفعل ألفة حقيقية مع اللغة والبلد: كل ذلك يجعل منه معادياً لأمريكا لا يبارى. يعكس الاستقبال الجيد الذي حظيت به رواية «*الطابق الأربعون*» الأهمية التي اكتسبتها المدينة في الرؤية الفرنسية لأمريكا؛ لأن دورتين هو في آن واحد عالم ظاهراتي (فنومنولوجي) لناطحة السحاب وعالم دلالات الطبيعة الممدنة.

وكما هو الأمر لدى كيسرلينج، لم تعد أمريكا الواسعة ولا الغرب الأشد وحشية

ولا كاليفورنيا الأشد صحراوية لدى لوك دورتين سوى قطع أرض مستقبلية، تتابعًا لا ينقطع من قطع الأرض المحددة للبناء، لكن لا وجود هنا لأى هلوسة، فالواقع، الواقع الحقيقى - كما يشير اسمه من ثم إلى ذلك: *ريالتى* ***Realty*** – هو("العقار"). "آلاف وآلاف من العزلة، مساحات شاسعة وجدباء لا يوجد فيها إلا قليل من العشب المحروق هنا وهناك. من وقت لآخر، وعلى ملتقى طرق ما أو بالقرب من مجرى نهر جاف، تخيم قوافل بيضاء غريبة: إعلانات تجار الأراضى [...] أكبر شيء فى العالم هو بالنسبة لكم أن تملكوا هذا، أن تملكوا هذا. هو ذا، فى الصحراء، آخر صدى للذبذبات التى ترسلها صدور الرجال(٣٣)..." لا يهم أن يكون "هذا" على الأرض، لا شيئًا. لا شيء إلا "قسمة صغيرة بلا حياء" مقتطعة تعسفيًا "فى الامتدادات الشاسعة"(٣٤). إن أمريكا "تجار الواقع"الجديدة هى بلد غزاها الواقع المدينى اللاواقعى، تلك كانت ثيمة قصة فى عام ١٩٢٧؛ حيث كان متشردان **hoboes** مرحان يكتشفان لونجفيو، "المدينة العملية التى تبنيها الرؤية"، "المدينة الأمريكية الوحيدة مائة بالمائة". تستمدّ لونجفيو كمالها الجوهرى من أنها لا توجد إلا على اللوحات التى تعلن عنها. بعد اجتياز قوس النصر الخشن الذى يعلنها لسائقى السيارات، "نباتات رديئة تؤلف كل ما كان يوجد مرئيًا على هذا المكان من العالم، خارج الطريق المزفت ببهاء والمستقيم حتى منتهى امتداد البصر"(٣٥). أمريكا العجائب، على ما يقول سكانها - لأنها تملك منها أصلاً! ولكن بالنسبة للا أدرية الفرنسية، أمريكا منهج كويه: "كان الرجل يبين العليق بكثير من الثقة. فى بلد يُكرر فيه عدد من المرات أن المشى جيداً يشفى ساقًا مكسورة، لاشك أنه تكفى الإشارة على أرض عراء إلى أماكن الأبنية لتأمين وجودها(٣٦)". لا ترصف لونجفيو إلا طرقًا "فرضية"، مقلصة إلى "خطوط الأرصفة الحجرية" عذراءَ من كل مبنى - فيما عدا مسمكة غريبة ومؤقتة جداً يعلن تقويمها "تاريخ الغد"(٣٧).

هذا لا يمنع لونجفيو من أن توجد، ولا أن يُتَحدث عنها "حتى بورتلاند". دورتين، هو الآخر، يفكر أنه لا شيء فى أمريكا يشبه مدينة فرضية أكثر من مدينة حقيقية، بل إن هناك بمعنى ما، من عدم الكمال فى تلك التى تنتصب على عجل وتكرس للدمار مما هو فى تلك التى تظل محض "رؤية" وتفكير بهيج. وإذ يستعيد فى هوليود المهملة ثيمة "المدينة التى تبنيها الرؤية"، يحمل دورتين أبطاله على عبور "العاصمة القادمة لوادى سان فرناندو": "سراب من الحديد والإسمنت لا يوجد شيء وراءه: لا سطح، ولا أرض، ولا من ثم أى كائن بشرى(٣٨)"؛ فالمدينة الفرضية المسماة جيرار لا حاجة بها إلى السكان؛ فهى بهذا الامتناع الحكيم، تحقق ضربًا من كمال النمط. وبدلاً من أن تعارض المدن "الحقيقية"، كنيويورك أو شيكاغو، فإنها تدفع منطق استبعاد

البشر أبعد من ذلك. إن مدن دورتين اللامرئية هي حواضر بوتمكين لرأس المال المضارب: هولوجرامات(*) عمرانية زرعتها الدعاية في عين إنسان آلي، قواقع فارغة تملأ خياليًا الخواء الواسع الذي هو أمريكا.

ذلك أن الاستيهام الذي بسطه دو بوو قديمًا لا يزال خصبًا. أمريكا كلها هي خواء، ثقب، أرض محايدة، ولا مكان جيولوجي، "صحراء عقيمة وشاسعة" كما كان يكتب كورنيليوس دو بوو، محاطة "بجبال عامودية"[٣٩]. يتصور كلوديل أمريك، وهو معاصر لدورتين لا لدو بوو، في مقطع مدهش من كتابه ***محادثات في اللوار والشير***، كمحض طاقة، آلة لا مادية: "محركًا أدخل بين قطبي وطرفي القارة. إنها تكتكة الآلة العالمية التي صارت قابلة للإدراك..." لكن هذا المحرك يدور في الفراغ: إنه يدور في الخواء الضخم لقارة مفرغة. "خواء هو ذا. رفيق كنت أطلب إليه انطباعه عن أمريكا التي حلق فوقها من نيويورك إلى فريسكو **Frisco**، هو أنها خاوية. فالداخل مفرغ مع البحيرات ومنخفض الميسيسبي الضخم هذا"[٤٠].

يلائم هذه القارةَ المفرغة المدينةُ الفرضية، كما يلائم مدنها "الحقيقية" الهيكل المفرغ لناطحات السحاب ـ هذه الحجار المثقوبة المستخدمة من قبل ضروب من الوجود غريبة مثل جرف تستخدمه العصافير". هكذا يتكلم أقل الخطابات الكلوديلية الطويلة عدوانية، أثناء تعليقه على أمريكا من حول سيارة معطلة على شاطئ اللوار.

الطابق الأربعون: الطوطم والأكواخ القذرة

يوجد لدى المثقفين الفرنسيين فيما بين الحربين أدب كامل عن ناطحة السحاب. وقد حلت بوصفها قيمة رمزية من الآن فصاعدًا محلّ مجازر شيكاغو. المعجبون بها ندرة: لو كوربيوزييه **Le Corbusier**[٤١]، إيلي فور **Elie Faure**، موران **Morand** أحيانًا، سيلين **Céline** حسب اللمعات. أما المشنِّعون فهم جحافل. أكثر ناطحات السحاب تأخرًا، تلك التي تعود إلى "مرحلة الجنون"، كما يكتب الباحث ريكولي ليتحدث عن ***roaring twenties***، "اندفعت مستقيمة نحو السحاب كالأبراج"، برج بابل بالطبع: "كان الذين بنوها بالطبع قد فقدوا عقولهم. كانوا يتخيلون أن البيوت يمكن أن تندفع

(*) تبدو المدن الأمريكية المزيفة التي يصفها دورتين كما لو أنها هولوجرام **hologramme**: وهو بناء بصري بثلاثة أبعاد يحمل على الظن بوجود الشيء في حين أن الصورة مسطحة. إنها الدعاية التي تستنبتها في الصحراء حيث تمر أمام سائق السيارة.

إلى ما لانهاية، حتى تضيع في السحاب." يتحدث ريكولي نفسه فيما بعد عن ناطحة سحاب جديدة بالقرب من راديو سيتي كما لو يتحدث عن "برج بابلي"، "بشع على التأمل"، والذي يسبب نظراً لفقدانه النسب "ضرباً من الانزعاج المادي والمعنوي معًا". ويضيف هذه الجملة التي يمكن أن يصادق عليها إلى جانبه كل معاصريه ومواطنيه تقريبًا: "لن أستطيع فيما يخصني أن أسكن في أعالي هذا البناء الهوائي، الضائع في الغيوم، والذي يبدو أنه لا يرتبط بالأرض إلا بحبل سرة رفيع(٤٢)". ليس ريمون ريكولي القومي والمعادي للشيوعية والمعادي لهتلر أشد الناس لذعًا نحو الولايات المتحدة؛ فكتابه الذي نشر في عام ١٩٣٣ دافع عن تقارب فرنسي - أمريكي، لكن المدينة الأمريكية تشجيه ومبانيها ترعبه.

على أنه لم يكن وحيداً؛ فدوهاميل كما سنرى يريد موت ناطحة السحاب، لكن كلوديل الذي يميل إلى إصلاحها يكشف عن نفور أشد عمقًا أيضًا. يود سفير فرنسا في الولايات المتحدة في الحقيقة أن ينقذ ناطحة السحاب، وقبل كل شيء أن ينقذها من نفسه، فباعتباره معجبًا كبيراً بأسلوب "الفنون الجميلة" المُصَدَّر إلى أمريكا، يفضل تكثيفًا للمباني من خلال إضافة حجوم "متباينة" تقطع خطوطها. إنه يحلم بأن "يلصق معًا" ناطحات السحاب، "أن يجعل منها حزمة" كي تكون العين "مجذوبة نحو السماء لا بالعمودية المتسارعة على نحو مدوخ لسقوط عكسي، بل بصعود متوازن بدرج من العلاقات"(٤٣). وبإيجاز، يمكن لكلوديل أن يتحمل ناطحات السحاب إذا ما شابهت الكاتدرائيات(٤٤)، كذلك النحات (الفرنسي) الذي التقاه دوهاميل في نيويورك ينتظر من "الثراء" الأمريكي أن يجعل أخيراً ناطحة السحاب "تزهر"، وأن يجعلها "تبرعم بالتماثيل، وبالنقوش البارزة، وبالزخارف"(٤٥)، على الأقل فإنه يدافع عن رغيفه.

وعلى أنها تتمرد على الزخرفة على الطريقة الفرنسية، إلا أن ناطحة السحاب لا تفلت على كل حال من ترميزها؛ فاعتباراً من سنوات ١٩٢٠، استحوذ الخطاب المعادي لأمريكا عليها، وارتقى بها (إن أمكن القول) إلى تمثيل الوجه المطلق للأمركة، وهو ما يحيلنا على دورتين؛ لأنه إذا كان لوك دورتين قد ابتكر وفرض في كل قصصه ثيمة الوهم المديني، فإنه قد ثبّت أيضًا لجيل كامل من القراء هيئة المدن الأمريكية: المظهر الجانبي ذو الزاوية البارزة لمبانيها و"لمستودعاتها، ومصانعها، ومرافئها: مكعبات أو موشورات تقطع، بمستطيلاتها المثقوبة بانتظام بنوافذ وبالأسطوانات العالية الخاصة بمداخنها، الخطوط المستقيمة للطرق"(٤٦). لا يحاول دورتين من جانبه أن يغيّر ناطحات السحاب. ولا أن يجعل منها سلالم صوفية. إنه يلقي نظرة باردة على تكدسها دون أي

تعال: "وبالإجمال، مستطيلات، مستطيلات، مستطيلات، فوق مشهد الطرق المتوازية والعمودية: هذا هو مظهر الحواضر الأمريكية مرئية من فوق[٤٧]".

تنجح القصة التى تحمل عنوان "*مبنى سميث Smith Building*" شكلاً خاصاً من الإخراج الدال على الكل؛ فبطله أو بطله المضاد الأمريكى إلى أقصى حد، والذى يعمل فى التأمينات، يصعد إلى الطابق الأربعين من ناطحة السحاب هذه فى سيتل، "أعلى مبنى موجود فى غرب نيويورك: ١٢٠٠ نضد فى الأساسات، ٥٠٠ قدم فى الارتفاع، ١٨ كم من الخطوط الكهربائية والتلفونية، ٢٣١٤ نافذة تعرض للشمس ٦٧٧٣٦ قدمًا مربعًا من الكريستال". لقد صعد ليتفحص هذه المدينة التى يدعوه إليها مسار حياته المهنية، ولكن نظرة الروائى تحدق من هذه الشرفة الهائلة فى الحياة الأمريكية. وبينما يعمل هوارد موظف التأمينات على الحصول على مخطط المدينة وعلى رسم مخطط حياته، يضع دورتين قارئه أمام غابة من الرموز: "فموظف التأمينات عاجز عن أن يدرك فى أن المبانى المرتفعة والمعبودة فى كل مدينة أمريكية من قبل القبائل الغازية لأصحاب الوجوه الشاحبة، وفى أن ناطحة السحاب هذه ذاتها التى ينظر من قمتها تتواجد مُنَضَّدَةً على امتداد علوها شركات هائلة (هذه الآلهة المكشرة للحضارة!)، تشبه تماماً العمود السحرى الذى كان يجلّه قديماً السكان الأصليون لجزر تونجاس Tongass[٤٨]. وكمشهد خارق مستطيل الشكل، يقدم المبنى بذلك، واحداً بعد الآخر، أسرار أمريكا: من طمعها العاجل إلى تصلبها التزمتى: "هيا، لقد قام الأحفاد بوضع نضدهم بصورة جميلة: هكذا تشهد هذه المبانى التى ترفع من كل الجهات أكتافها الصلبة والمتزمتة ـ هذه المبانى التى يسأم المرء فيها على نحو صارم بقدر ما كان يطلب الإله منذ ثلاثة قرون[٤٩]". توفيقية ناطحة السحاب حسب دورتين: موضوع سحرى، موضوع فأل، موضوع تاريخى، مجاز مطلق لأمريكا. يذكر دورتين المدينة كما تذكر الأرواح ـ الروح الكبرى لأمريكا، ومن المفهوم أن هذا الذكر قد أدهش معاصريه بما فيهم الأمريكان.

ناطحة السحاب: من الكذب إلى بيت الموتى

أحد الذين يستعيدونها ويضخمونها هو والدو فرانك Waldo Frank، مؤلف كتاب طموح يحمل عنوان *مدخل إلى فلسفة الحياة الأمريكية*. صدر الأصل فى صحيفة ***New Republic***. ونشرت ترجمة فرنسية له لدى منشورات ***Grasset*** عام ١٩٣٠ ضمن سلسلة بإشراف جان جيهنو Jean Guéhenno. يستند والدو فرانك ـ الذى انضم إلى الحزب الشيوعى الأمريكى ـ إلى هربير كرولى herbert Croly[٥٠] ووالتر ليبمان Walter Lipp-

mann، وينادى بـ"مفهوم أمة ديمقراطية تكونها أرستقراطية العقل"(٥١). يمزج نقده لأمريكا نزعة يسارية على قدر من القتامة بتحليل الاغتراب الروحى الذى يقربه بالأحرى من اللا ـ امتثاليين الفرنسيين. وإذ يستشهد بالطابق الأربعين لدورتين يطلق من جديد كلامه المكرر حول المدن ويفاقم رمزيته السياسية. يصير المبنى عنده فى آن واحد علامة عدم الثبات ودلالة الارتفاع. لدى دورتين، كانت ناطحات السحاب تتكدس مثل "صناديق التعبئة واحدها فوق الآخر" جسور عائمة، حقائب مهاجرين مصفوفة على رصيف، تكشف الحياة "غير العضوية" لأمريكا(٥٢). كان كلوديل يقول عنها بالقدر نفسه: فى أفضل ناطحات السحاب "بدأت خطوط خارجية بالتواجد، إلا أنه لا وجود لوحدة عضوية وداخلية"(٥٣)، لكن والدو فرانك لا يبشر بالعودة غير المفيدة للكاتدرائيات: تكفى ناطحة السحاب للكفر الأمريكى. "إن لآلهة القوة الأمريكيين معبداً، وهذا المعبد هو التحقيق الأكمل لما نكونه ولما نحبه. اسمه ناطحة السحاب، نحن كتلة مضغوطة فى صرامة هندسة معمارية تبسيطية، وضعنا متعادل، وقيمتنا العليا هى قوة حجمنا الخاص." وبوصفها شعار المزاعم الديمقراطية المزيفة، فإن ناطحة السحاب حسب والدو فرانك تكشف فى الوقت نفسه عن الطابع الخداع لهذه الديمقراطية. "حين تريد ناطحة السحاب تجاوز الشروط الخاصة بها تصير منافقة [...] إن ناطحة السحاب مجرد هيكل لا تلعب فيه الحجارة إلا دوراً فى الملء، وكما يليق بديمقراطية مزيفة لا تملك هذه الحجارة إذا ما أخذت فردياً أية أهمية معمارية." نتصور أن والدو فرانك قد وجد من القراء فى فرنسا أكثر مما وجد فى بلده؛ حيث كانت بداياته الأدبية فى عام ١٩١٩ باعترافه هو فشلاً مجلجلاً.

فى السنة نفسها التى صدر فيها فى فرنسا ***مدخل إلى فلسفة الحياة الأمريكية***، تكمل مشاهد من الحياة القادمة اللوحة ـ الاتهامية للمدينة الأمريكية؛ فالأخشاب المنقوشة لدوليان تخلق من حول النص جواً مثقلاً من الضغط المدينى. كنا أشرنا إلى الأول الذى يحتل موقع المقدمة والمزدحم بناطحات السحاب التى يراكم منها فى تصوير صعودى المستطيلات العمودية، العارية من أى زخرف، الأرض غير مرئية، والسماء مقلصة إلى بعض الفُرَجِ بين جبابرة الإسمنت هذه. على المستوى الأول، بناء أقل ارتفاعًا متوّج بساعة ضخمة، "الوقت من ذهب" ؟ الوقت لا يعوض؟ الاثنان دون شك، لكن المعنى الرمزى يقدم من قبل عنصر آخر شاذ ومركزى: فى أشد المبانى كثافة نتعرف الشعلة المرفوعة لتمثال الحرية، الذى يغيب مقدم ذراعه وراء الأبنية. فوق الشعلة رافعة، هل يجهدون فى استخراج الآنسة حرية من غلّ ناطحات السحاب حيث لا مكان

لها؟ أو أن ملجأها في بيدولز آيلاند هو الذى انغمر بدوره بحمى قطع الأرض وغرق تحت ناطحات السحاب؟ إن الحرية على كل حال تختنق شأن المشاهد أمام هذه الوريقة الخانقة.

على أن دوهاميل من جهته يعالج على عجل وبصراحة ناطحة السحاب؛ لأن ناطحة السحاب نفسها عملٌ عاجل. "إنها ترتفع، ترتفع"، لكنه ليس الارتفاع البطىء للنسغ وللأفكار. "إنها لا تستطيع انتظار وحى البعض، ولا التجارب البطيئة للبعض الآخر؛ فهناك وفرة من المصالح المترابطة تطالب بإنجازها." ولا النضج ولا الاندفاع: إن ناطحة السحاب هى نوبة حمى (نظرية)، تكاثر مرضى. وعلى نقيض استمرارية الجميل، "يحيا المبنى حياة الأشياء الفانية؛ فهو مبنى لثلاثين عامًا، وربما لأقل من ذلك. والرجال أنفسهم الذين بنوه سوف يهدمونه فى الغد، ثم يبنون مكانه شيئًا آخر أكبر، وأعقد، وأغلى". وهكذا فإن هذا "الترجمان الوحيد للعبقرية الأمريكية، الفن المعمارى"، يبدو لدوهاميل "فاسدًا فى رسومه، وفى وسائله، وفى مبدعاته"[٥٤]. الخواء الفنى للعالم الجديد وقد خانه مهندسوه المعماريون أنفسهم: هو ذا الدرس الجمالى لناطحة السحاب.

لكن ما تكشفه صفحة كهذه، هو نزوة الميت العنيفة التى تستحوذ على دوهاميل الإنسانى فى مواجهة المدينة الأمريكية؛ فناطحة السحاب هذه تؤوى "سكان منطقة فرعية فرنسية". رجال إذن ونساء، وبإيجاز الإنسانية، ليس من المؤكد ذلك. وسواء أكانوا حشرات أم طوافر، فإن سكان ناطحة السحاب هم بالنسبة لدوهاميل كتلة من اللاإنسانية، "كل هذا": وكل هذا يتكلم، ويأكل، ويعمل، ويكسب المال، ويضارب فى البورصة، ويدخن، ويشرب الكحول سرًا، ويحلم، ويمارس الحب." هذه الإنسانية الجديدة ليست أكثر إنسانية من كون ناطحة السحاب حية حقًا. المبنى مذنب: إنه "يعيش حياة الأشياء الفانية" بدلاً من أن يستهدف الخلود، "كل الأفكار التى تحركه تفوح بالموضة وبالموت". وليس الأفكار فحسب؛ لأنه هو نفسه يفوح ويرشح الوفاة. فى آخر صفحة من الكتاب، يعود دوهاميل مرة أخرى إلى هذه الطبيعة الفانية لناطحة السحاب: "إن المبنى تحت قدمى تهتز بكل علوها، توافق من الفولاذ ومن الطوب ومن الإسمنت. والمداخن المخفية فى زخارف السهم تزفر كلبان ميت، الغاز السامّ الذى تقطره على مسافة ثمانمائة قدم من هنا آليات الطوابق تحت الأرضية[٥٥]". كيف يكون سكانه المفتقرين للإنسانية بريئين كل البراءة؟ "كل هذا" يمكن أن يبيد مع هذا الهيكل الفانى. ألا يفكر دوهاميل بذلك؟ دون شك، لكنه يكتب: "المبنى يحيا! وفى المساء، يضىء كالمصلى الحار[٥٦]"...

مبنى طيب، مبنى للموتى. لا يوفر اللاوعى الإنسانيين، لكن هل يسعنا الحديث أيضًا عن اللاوعى حين تكون الأمنية الأخيرة التى عبر عنها دوهاميل، المساوية للمرارة التى لا توصف من عدم حبه ما يرا[ه]"؟ هو أن تتلقى أمريكا أخيراً ما "ينقصها": "مصائب كبرى، دون شك، ومحنًا كبرى"(٥٧).

"العمارة المتقشفة
للمستعمرات الصهيونية البعيدة"

كان دوهاميل يتمنى للأمريكيين "مغامرات رهيبة" تجعل منهم "حقًا شعبًا عظيمًا"(٥٨)، هذه الأمنية الودية ستتحقق بعد اثنى عشر عامًا فى بيرل هاربور. لن يفرح دوهاميل بها، لكن فرنسيين آخرين سيتصورون ابتهاجًا حقيقيًا. كانت جملة "على إنجلترا مثل قرطاج أن تُدَمَّر" الخاتمة المفضلة للمخبر الإذاعى جان هيرولد باكيس خلال الاحتلال، ولكن منذ ١٩٤١، ستنهال اللعنات أيضًا على العدو فيما وراء الأطلسى: قرطاج الجديدة ـ الجديدة. وعلى العكس من دوهاميل، فإن المتعاونين مع العدو الذين صفقوا للهجوم المباغت للطيران اليابانى لا يدعون أية نية طيبة؛ فقد أسعدهم إذلال القوة الأمريكية، واستخفهم إمكان انهيارها. إنها، بالنسبة للناقد اللاذع هنرى نيفير، مفاجأة إلهية: "بدأت الأعمال الحربية ويا للذهول!... بسرعة صاعقة؛ فقد توصلت أسراب الطيران اليابانى إلى أن تغرق خلال عدة أيام أهم وحدات الأسطول الأمريكى." هو ذا "العناد والإرادة السيئة لواشنطن"، وقد عوقبا على وجه الدقة والهذر الأمريكى، وقد كف: "لقد شحب خداع واشنطن أمام بطولة الجنود اليابانيين الصغار"؛ ذلك لأن الشعب اليابانى يملك صفات عظيمة: إنه شعب غير قابل للفساد، محترم لتقاليده السلفية ولدينه ولشرفه ولعرقه"(٥٩)، لوحة محفورة بالعيوب الأمريكية.

حرّر دخول الولايات المتحدة فى الصراع لدى الصحافيين والرسامين نزعة فى معاداة أمريكا كانت حتى ذلك الحين ملجومة على الأقل فى منطقة الجنوب من قبل نظام فيشى، الذى كان همه أن لا يقطع الجسور مع واشنطن. وقد نعم رسامو الكاريكاتير بها؛ فعلى أعمدة تشهيرهم انضم روزفلت إلى تشرشل، وفقد تشرشل شيئًا فشيئًا حظوته (لن يكون له عما قريب إلا مقعداً إضافيًا فى "مترو الحلفاء المشترك"، بينما يدفعه معاوناه نحو الباب(٦٠))، فى حين تزداد شخصية روزفلت قوة ومكراً. وفى وجه ستالين المتحول إلى وجه أبله، وقد ثُبِّتَ فى دوره كإنسان فظ غليظ، يقدم كاريكاتير المتعاونين مع العدو روزفلت شاذاً أكثر فأكثر. وحين يحتفل فى ثياب قسيس بروتستنتى عام ١٩٤١ بالاتحاد مع تشرشل المحمر وستالين المحتضر (نحن قبل معركة

ستالينجراد)[٦١]، فلم يكن يجسد بعد إلا النفاق الأبدى للمتزمت، هذا الرياء سيخلى المكان لأشد ضروب الدناءة حين يمنح روزفلت بوصفه رئيس بيت دعارة الخيار بين ديجول وجيرو لزبون يهوديًا متعجرفًا[٦٢]، وسيظهر فيما بعد أيضًا وقبيل الإنزال فى النورماندى بعدة أيام، فى صحيفة، فى شخص سوبرمان شيطانى؛ فقد كف عن أن يقوم بدور القواد، وانقض على فرنسا شاهرًا شمعدانًا بسبع شُعَب يهزه كما يهز الشعلة[٦٣]. قسيس بروتستنتى، قوادة، "أمير هذا العالم": ترقية لا جدال فيها.

وراء هذا الروزفلت الطماع والمقرّن، تعود أمريكا إلى حقل الرسم. القدم اليمنى (والظلفاء) للرئيس الشيطانى لا تزال تستند هناك، وراء خط الأفق، على القارة البعيدة التى نحزرها مغطاة بتكتل سكانى لا يحصى، فى حين ترتفع ذراعه المُحرِقة فوق مدينة فرنسية مجتمعة من حول كاتدرائية مرئية بوضوح - ربما هى كاتدرائية روان، المصابة بالقصف الأنجلو أمريكى. ستهلك المدينة الحية مدمّرة من قبل الوحش المنبثق من المتروبوليس اليهودى [دفتر الرسوم، ص٤]. يرسم الرسّام مارا على هذا النحو البرنامج التفسيرى الذى تكرره بلا كلل كتيبات الدعاية المعادية لأمريكا الخاصة بالتعاون؛ فالتضامن مع "اليهودية الإنجليزية" هو مفتاح العدوانية الأمريكية ضد فرنسا و"أوروبا الجديدة".

وبوصفه نموذجًا مثاليًا لهذا النوع، لا تبدو الكراسة الموقعة من قبل هنرى نيفر، والتى تحمل عنوان *لماذا دخلت أمريكا الحرب؟* للوهلة الأولى ككتابة ذات تعقيد كبير. فصفحاته الثلاث والعشرون ذات صنعة على قدر من الرصانة تتذيل ببعض النقشيات ذات الدلالة: أكياس من الذهب تحمل علامة نجمة داوود تواجه مسدسًا موضوعًا قرب قوارير مهربة، رقصة زنجية شيطانية تسبق منعطفًا نيويوركيًا مزدحمًا، تقدم الصفحات الأخيرة الرموز اليهودية والماسونية المعتادة (التلمود مفتوحًا، شمعدان بسبع شعب، مثلث و"عين")، فى حين أن الوريقة الأخيرة تبين طرادة أمريكية مهاجمة من قبل طائرات يابانية، على قاع من شمس مشرقة يستعيد نقش الشعار اليابانى. على أنه بوصفه تربويًا مزيفًا، فإن هذا الكتيب مكرس لكى "يشرح السبب الحقيقى للصراع الجديد" الذى انفجر لتوه بين اليابان وأمريكا. "لن نفاجأ على وجه اليقين حين نعلم" صيغة مفضلة لدى المؤلف، أن الأصل هو فى السيطرة الخفية "اليهودية - الماسونية المتدخلة" على الحكومة الأمريكية.

لماذا دخلت أمريكا الحرب؟ نصّ يقدم نفسه كشهادة معيشة ترصعها بعض الاستشهادات المبثوثة "لغاية وحيدة فى تأكيد" ملاحظات المؤلف. والواقع أنها نقل

واسع؛ فالمؤلف ينسخ من جديد أو ينتزع بإخلاص ودون أن يكره الطابع الذى استعاره. لفهم الحرب العالمية، لا بد من دراسة ضرورية "ثقافية وسياسية واجتماعية" لأمريكا، كما يؤكد دفعة واحدة برصانة مصطنعة. يعلن التصريح الذى جعله ضعف أفكار الكتيب هزليًا مع ذلك إستراتيجية الداعية؛ إذ لما كانت تقتصر على التشهير بالمؤامرة اليهودية الماسونية، فإن النقد لا يتوجه إلا إلى أقلية صغيرة مناضلة. والواقع أنه بحبكه أطروحة المؤامرة بشبكة معاداة أمريكا الثقافية الغنية إنما يمكن لنيفر الأمل فى أن يثير الاهتمام فيما وراء دائرة المقتنعين. من هنا غرابة نص "متطرف" يقوم معظمه على مختارات من النصوص "العادية" المعادية لأمريكا فى سنوات ١٩٣٠. ومن هنا أيضًا أثر اللا واقعية لعمل معاد للسامية ونصير للنازية يجر قارئه، كى يلحقه بالرايخ، إلى أكثر النزهات النيويوركية اصطلاحية، ويحدثه عن الضوضاء، وعن الازدحام، وعن الحدائق العامة "غير المعتنى بها"، ويلح على غياب المقاهي "كما يوجد الجميل منها فى أوروبا ولا سيما فى فيينا وفى برلين"(٦٥). تفاوت؟ بل هى بالأحرى مقمقة.

نقد نيفر كاشف فى كونه يمزج صوتين: صوت معاداة السامية المناضلة، وصوت معاداة أمريكا العادية. الصوت الأول يأخذ على عاتقه "تاريخية" الوجود اليهودى ونفوذ الماسونية فى الولايات المتحدة. لن "نفاجأ حين نعلم" إذن أنه "بين ١٧٨٩ و ١٩٢٢ [الحقيقة حتى ١٩٣٢]، كان من أصل تسعة وعشرين رئيسًا للولايات المتحدة، عشرون منهم ماسونيون"(٦٦)، وأن روزفلت منذ وصوله إلى السلطة قد "عهد بإدارة مختلف الوزارات حصرًا إلى اليهود"(٦٧). الصوت الثانى يستعيد الاستحضارات "الأنثروبولوجية" واسعة الانتشار من قبل لدى الجمهور الفرنسى: وصف المدن، والناس، وطريقة الحياة. بذلك تبرز الدسائس العريقة لليهود والماسونيين ضمن إطار ثقافى مألوف، مألوف ولا سيما أن هذا الجزء الوصفى مستخلص من نصوص سابقة شديدة الذيوع - وفى المقام الأول منها نص دوهاميل. والكولاج الخائف من أمريكا يمنح مصداقية للحجة المعادية للسامية التى تدور بصورة موازية، شريطة المبادلة بالمثل؛ لأن تهويد أمريكا "يفسر" بالمقابل معظم سماتها الخاصة (والمنفرة): منذ حب المال، الذى صار "وقفًا على الجيل الراهن فى الولايات المتحدة"، حتى الجاز الذى يقدم "الطابع الزنجى المحايث للجنس اليهودى"(٦٨). بين النمطية المعادية لأمريكا والنمطية المعادية للسامية، يقوم جهد الداعية بأكمله على الإكثار من الطرق المختصرة. وأقصر طريق من خطاب إلى آخر يمر بالطبع بالمدينة، بنيويورك خاصة، التى يكشف مظهرها المادى وحده المؤامرة اليهودية: "هذه الكتل الهائلة تنتصب حتى ارتفاعات جنونية، حاصرة

فيما بينها الطرق الضيقة، كل هذا المجموع يُذكِّر على مستوى واسع بالعمارة المتقشفة للمستعمرات الصهيونية البعيدة(٦٩)".

أما بالنسبة للنصوص المستشهد بها أو المنتحلة، فليست هي على الإطلاق تلك التي يمكننا أن نتوقعها أيديولوجياً. ليس سيلين، رفيق التعاون(*)، من زوّد هنرى نيفر بإطاره المدينى أو ملاحظاته "الأنثروبولوجية": بل هى مشاهد من الحياة القادمة لعالم الآداب القديمة دوهامل. ليست هى مقالات صحافة اليمين المتطرف قبل الحرب، ولا حتى مرافعات الاتهام المعادية للرأسمالية للا امتثاليين، التى أعيد تأهيلها لرسم ضروب الخلل الاجتماعية لأمريكا، بل هو كتاب *أمريكا الفقيرة* لريمون روكولى R. Recouly، وهو بحث حول أزمة ١٩٢٩ الذى كان مؤلفه، وهو صحفى قومى، وكاتب سيرتى فوش Foch ونابليون، لكنه كذلك من المعجبين بدوس باسوس Dos Passos وبهمنجواى Hemingway، يضعه تحت علامة "تعاطف حى وحار مع هذا الشعب العظيم" [الأمريكى(٧٠)]. نجد أيضاً لدى روكولى بعض الملاحظات ذات الطابع المعادى للسامية، لكنها بالأحرى أكثر رصانة من ملاحظات سيجفريد أو دوهاميل).

إن إعادة تأهيل مواد "عادية" من فترة ما بين الحربين كما هى، ذات دلالة؛ فالمنشورات التعاونية إذ تدمج دون تعديل كتاباً كلاسيكيا فى معاداة أمريكا ككتاب مشاهد من الحياة القادمة، تضىء بطريقة استعادية وبنور فياض أحد الأمور الجديدة الكبرى للسنوات العشر السابقة: تقارب الخطابين المعادى للسامية والمعادى لأمريكا.

إن التقاء هذه الخطابات وعدواها الجزئى هو فى الحقيقة تطور يطبع فترة ما بين الحربين؛ فحتى عام ١٩١٤، لم تكن نزعة معاداة أمريكا ونزعة معاداة السامية تتواصلان أبداً؛ فثيمات المال هو الملك، والإله الدولار، و"حكومة الأثرياء" لا تستدعى الروابط التى ستصير عملة رائجة فى سنوات ١٩٢٠. هناك لذلك ولا شك أكثر من سبب: الأول سيكون المطابقة القوية جدا للولايات المتحدة مع حكومة إثنية أنجلو ساكسونية، والثانى يعود إلى التأخر الذى سجل معه المراقبون الفرنسيون ما سيسمونه "الهجرة الجديدة" ذات التركيب اليهودى القوى القادم من أوروبا الوسطى والشرقية. أول من دهش بالوصول الكثيف للمهاجرين فى ميناء نيويورك هو الأب فليكس كلاين

(*) التعاون Collaboration، الفترة التى كان خلالها عدد من الفرنسيين، ومنهم سياسيين ومثقفين ومن عامة الناس، يتعاون مع سلطات الاحتلال الألمانى فى فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، ويطلق عليهم احتقاراً (المتعاونون Les Collabos). (المترجم)

Félix Klein، رأس المقدمة للتيار الكاثوليكي الليبرالي المسمى "النزعة الأمريكية": "أرسلت إسرائيل نصف هذه الجماهير، وتضم المدينة أصلاً حوالى ٨٠٠٠٠٠، وقد بدأوا فى احتلال مكان كبير فيها(٧١)". لكن الأب كلاين يكتب هذه السطور فى وقت متأخر نسبياً، فى عام ١٩١٠، كما أنه نفسه - بوصفه معجباً كبيراً بالولايات المتحدة وبتيدى روزفلت - لا يمثل بأى حال من الأحوال نزعة معاداة أمريكا، وتفسير ثالث يتوجب بحثه فى منطق النصوص المعادية لأمريكا قبل ١٩١٤ نفسه. فبأبلستهم اليانكيه، إنما اختصوه بصفات سلبية شديدة القرب من تلك المنسوبة إلى اليهود: شراسة تجارية، وإحساس حاد بالمصالح المادية يتعايش بصورة جيدة مع قناعة دينية صلبة. ضمن هذه الصورة النمطية، يتنافس اليهود واليانكيون ولا يترك العناد الأنجلو ساكسونى للأخيرين أى مجال عمل للأولين. كان ذلك تعليل ديمولان: "اليهودى [...]، نبتة لا تنمو إلا فى الأراضى الصالحة، [...] لا تنمو فى إنجلترا، ولا فى الدول الإسكندنافية، ولا فى الولايات المتحدة، ولا فى أستراليا" - فى كل مكان إذن يسود فيه الأنجلو ساكسونيون(٧٢). وبصورة أكثر صراحة أيضاً ومتحدثاً هذه المرة عن الأمريكيين وحدهم، كان فارينيى يلاحظ فى سنوات ١٨٩٠ نفسها أن "طاقتهم على الاستحواذ على الثروة" هى من القوة؛ بحيث إن اليهود عندهم لم يستطيعوا أن يستقروا ولن يعرفوا الازدهار"(٧٣).

كل ذلك تغير فى سنوات ١٩٢٠: صار يهود أمريكا مرئيين، ولو أشرنا بصورة عابرة إلى الإجراءات التمييزية التى كانوا ضحيتها، لأبرزنا فى المقدمة حضورهم الكثيف و"نفوذهم" الكبير عبر البنوك والصحافة والسينما. سبق وأن استشهدنا بالصفحات التى كرسها أندريه سيجفريد فى عام ١٩٢٧ لمختلف "أنماط" اليهود الأمريكيين. إن الدخول المفاجئ "ليهود روسيا وبولونيا" غيّر المشهد المدينى: إنهم "يشكلون فى الأحياء الفقيرة فى المدن الكبرى كتلاً متباينة لم يتم هضمها"(٧٤). وبالإلحاح على الطابع الاصطناعى والخداع لـ"أمركتهم"، فتح سيجفريد بصورة رسمية جداً الدرب نحو خطاب احتكار أمريكا من قبل اليهود الذى تضخم خلال السنوات العشر التالية. كتب سيجفريد: "إنها أكبر مدينة يهودية فى العالم مع مليون ونصف المليون يهودى." (ويضيف أنها دون شك أيضاً أكبر مدينة كاثوليكية.) ويكرر ريكولى فى عام ١٩٣٣: "إنها مدينة يهودية هائلة"، فاليهود يمثلون ثلث السكان، و"أهميتهم، ونفوذهم، من وجهة نظر اقتصادية وثقافية أكبر بكثير من نسبتهم العددية"(٧٥).

إن نزعة معاداة أمريكا العادية فى سنوات ١٩٣٠، من سيجفريد إلى ريكولى مروراً بدوهاميل نفسه - الذى رأى فى نادٍ رفيع المقام "يهودية جميلة أيضاً، لكنه جمال

مدنس، [...] وهى تبيع ابنتها إلى عجوز متداع"[٧٦] - هى إذن منجم لنزعة معاداة السامية المعادية لأمريكا التى ازدهرت فى ظل الاحتلال. والقطع الشجاعة الأكثر إحراجًا لا تأتى دومًا من النصوص الأشد نضالاً، مثل هذه الصفحة عن نيويورك التى تشكك فى أنها لا تزال "مدينة غربية": "عند الخروج من مكاتب مركز المدينة، حين يمتلئ أدنى المدينة بغفير ضاربى الآلة الكاتبة ذوى النظرات المظلمة، والأنف المعقوف، وعندما تسكب الطرق الضيقة في الطرف الشرقى موجات مستعجلة من المشارقة السمر أو العبرانيين المشعثى الشعر؛ فالانطباع شرقى وسيولة هذه الجماهير المتجددة دون توقف، والمارة كتيار بلا نهاية، تذكر بالأمداد البشرية فى العواصم الآسيوية[٧٧]". لا ينتمى هذا الوصف لا إلى ريكولى ولا إلى بول موران، بل ولا حتى لكتاب التعاون الهجائين. إنه لأندريه سيجفريد.

أمام المادة الغنية المجمعة فيما بين الحربين، والتى ذيلت بأكثر التوقيعات نبلاً، نفهم كيف أن المنتحلين الكسالى المتعاونين قد استسلموا للمحاولة.

نيويورك مدينة مفتوحة: غثيان سارتر

"من الصعب الانتقال من أناس يتضاجعون إلى أناس يأكل بعضهم بعضًا"، كما يلاحظ فولتير فى مقدمة مقال *آكلو لحم البشر* فى *القاموس الفلسفى*. من الصعب الانتقال من هنرى نيفر إلى جان بول سارتر؛ فلتتابع الأحداث تهافت روابطه شأن نظام الأبجدية؛ فعبر سارتر فى الحقيقة إنما اكتشفت فرنسا المحررة من جديد أمريكا.

لا شىء مسبقًا يهيئ سارتر ليصير ناقلَ الخطاب المعادى لأمريكا من فوق مستنقعات الاحتلال، لكنه مع ذلك هو من أذاع عند التحرير لازمة المدينة الأمريكية العسيرة على العيش: إحياء ناجح لا سيما وأنه قد بث فيه قوة "وجودية" شديدة الجدة والطابع الشخصى. وقبل أن يصير شخصية مركزية لنزعة معاداة أمريكا اليسارية، كان سارتر معيدَ الكتابةِ الموهوب للضيق الفرنسى أمام المتروبوليس. لم تكد الحرب العالمية تنته بعد حين ظهرت مقالاته عن أمريكا التى كانت ذات براعة لا نزاع فيها. ولقد لعبت هذه الصفحات عن أمريكا التى نشر الجوهرى منها فى صحيفتى *الفيجارو* و*الكومبا* قبل أن تستعاد (فى جزء منها) فى الجزء الثالث من كتاب *مواقف*، دوراً مفصليًا من أجل استمرارية الخطاب المعادى لأمريكا عن المدينة بإضفائه على المخاوف القديمة امتياز الغثيانات الأصيلة.

ذهب سارتر إلى الولايات المتحدة بناء على دعوة وجهت لبعض الصحافيين الفرنسيين من قبل مكتب الإعلام الحربي War Office Information في نهاية عام ١٩٤٤: كان الهدف جعلهم يقومون بجولة واسعة تسمح لهم ملاحظة الجهد الحربي الأمريكي بصورة حيّة. كانت الولايات المتحدة مجهولة عنهم وقلما شغلتهم قبل الحرب. وباعتباره مختصًا بالثقافة الألمانية ومولعًا بإيطاليا، فهو يعرف من أمريكا خاصة سينماها التي يفضلها وهو على اتفاق في هذا مع سيمون دو بوفوار، على السينما الفرنسية، كما يعرف بعض الكتاب بالطبع مثل فوكنر ودوس باسوس، اللذين أسهم في التعريف بهما في فرنسا، لكنه يعرف أيضًا تراثه الكلاسيكي، وشأن سيمون دو بوفوار بعده بثلاث سنوات، رحل محمّلاً بأمتعة من الكتب التي خلفتها فترة ما قبل الحرب.

هناك أشياء من دورتين إن لم يكن من كيسرلينج في وصفه للمدن الأمريكية بوصفها "معسكرات في الصحراء"، بوصفها هياكل مدن رسمت فيها الطرق "مثل الفقرات" من حول "العمود الفقري" لطريق ما[٧٨]. ومن دورتين أيضًا (أو من والدو فرانك) في تعريفه للمباني بوصفها "نذْر للنجاح"[٧٩]. وهناك من دوهاميل في ذكره للطابع الوقتي المقصود لمعمار صُمِّمَ كي لا يدوم، بما أن "البيت house"، على العكس من "مساكن"نا، هو مجرد "هيكل" "نهجره لأيٍّ عذر"[٨٠]. ومن سيلين أيضًا، ولكن لمناقضة الوصف الشهير لباردامو Bardamu": تصوروا أن مدينتهم كانت واقفة، مستقيمة تمام الاستقامة. نيويورك هي مدينة واقفة[٨١]". يجيب سارتر، لا على الإطلاق: فالأوروبي الذي يصل لتوه يملك الشعور "بأنه قد دبرت له مكيدة؛ فقد كانوا يحدثونه عن ناطحة السحاب، ويقدمون له نيويورك وشيكاجو بوصفهما "مدنًا واقفة". في حين أن أول شعور له هو على العكس أن الارتفاع المتوسط لمدينة في الولايات المتحدة أقل بصورة محسوسة جداً من ارتفاع مدينة فرنسية"[٨٢]. لقد ردَّ على باردامو بعنف وبنبرة تكشف عن بعض الانزعاج، كما لو أن سارتر قد ملّ من الاصطدام في كل خطوة وعند كل صفحة بكتاب رحلة لآخر الليل. حتى ثيمته الكبرى، ثيمة البلد المقتنع بالطبيعة التي تتواجد أصلاً عند سيلين: "فوق الطوابق الأخيرة بكثير، في الأعلى، يبقى بعض النهار وطيور النورس وقطع من السماء. أما نحن فقد كنا نتقدم في وميض الأسفل، الضعيف كوميض الغابة، والرمادي إلى حدّ أن الطريق كان حافلاً به كخليط ضخم من القطن القذر[٨٣]". ولكن لا يكفي وضع نيويورك أفقيا لمحو بعض الديون الأدبية. بعد خمسة عشر عامًا من ذلك، حسم رولان بارت النقاش بصورة رصينة: نيويورك ليست منتصبة ولا مسطحة، بل تبدو له بكل بساطة "جالسة"، بل "وجالسة بصورة رائعة، على غرار أروع المدن الكبرى"[٨٤].

يعيد سارتر العمل على أمريكا على العكس تمامًا من الناسخين في فترة التعاون؛ فهو يتحالف مع نصوص ما قبل الحرب، ويحتفظ منها ببعض السمات، لكنه يخلصها من شوائب خطاب عادي ومعروف (السرعة، الصخب، الافتقار للإنسانية،...إلخ.) ليعيد تنظيمها على طريقته من حول بعض الثيمات التي تم التأكيد عليها بقوة أو ما يمكن أن نطلق عليه بعض "الأفكار الفلسفية" الاستحواذية. الفكرة الأولى هي فكرة الوقتية؛ فالمدن الأمريكية حتى وإن لم "تولد مؤقتة" مثل ديترويت، مينيابوليس، كنوكسفيل، هي جوهريًا عارضة وهشة. يكتب سارتر أمام فونتانا، في تنيسي: "إن ما يدهش هو خفة، وهشاشة هذه المباني"(٨٥). حقًا إن فونتانا مدينة مسبوقة الصنع، صُممت لحاجات إدراة وادي تنيسيTennessee Valley Autority، لكن سارتر لا يتحدث بطريقة مغايرة عن نيويورك؛ حيث المسافر "يندهش من هشاشة المواد المستخدمة"(٨٦). لا حجارة في الولايات المتحدة: بل معادن، وإسمنت، وطوب، وأخشاب، كما أن بيوت أكبر المدن هي أيضًا "بيوت رخيصة"، وهي تشبه "البيوت المسبقة الصنع في فونتانا"، إنها غير مصنوعة لتبقى بل لتطير: "في صحراء الصخر هذه [مانهاتن] التي لا تسمح بأي نبات، تم بناء آلاف البيوت من الطوب والخشب والإسمنت المسلح التي تبدو جميعًا على وشك الطيران(٨٧)". صورة مدهشة تبين غرابة هذه الأوصاف؛ لأن هذه الهشاشة هي من جهة ضمان حرية: لا تمسك المدينة الإنسان، الحر دومًا في "الهرب" بعيدًا، لكنها لا تحميه أيضًا، بل تتركه عرضة لكل تهديدات العالم.

إن الاستيهام الديكتاتوري لهذه الصفحات هو الخوف، لا لأن المدينة الأمريكية خطيرة بوجه خاص؛ فهذه الثيمة غائبة تقريبًا عن قصص الرحلات الفرنسية حتى سنوات ١٩٦٠، بل لأنها لا تقوم بواجبها في العراقة (الأوروبية). إنها ليست بالنسبة للإنسان الدرع، و"القوقعة" التي يحتاج إليها. مدن أمريكا هي "مدن مفتوحة" كما يكتب سارتر: "على العالم"، "على المستقبل"، لكنها مدن مفتوحة أيضًا كما يقال على الحواضر المسلّمة دون دفاع للعدو. وهذا العدو، في أمريكا أكثر من أي مكان آخر، هو الطبيعة. تفصل قراءة سارتر إذن المدينة الأمريكية عن المدينة الأوروبية بصورة أكثر جذرية بكثير مما فعله سابقوه، فصلاً مكتوبًا في التاريخ وفي الأسطورة: "نحن الأوروبيون، أيضًا، نعيش على أسطورة المدينة الكبرى هذه التي اصطنعناها في القرن التاسع عشر. إن أساطير الأمريكيين ليست أساطيرنا والمدينة الأمريكية ليست مدينتنا؛ إذ لا تملك الطبيعة نفسها ولا الوظائف ذاتها." إن الإحالة إلى القرن التاسع عشر ليست هنا الحداثة التي يسعنا تخيلها بمساعدة بودلير وبينجامين: هذا القرن التاسع عشر هو بالأحرى مآل تاريخ طويل جدًا أكثر مما هو فجر الأزمنة الحديثة. أول

"الوظائف" التى يعتبر سارتر أنها لا تنفصل عن الأسطورة الأوروبية للمدينة (والتى تفتقر إليها المدينة الأمريكية افتقاراً جذرياً) تأتى من أعماق العصور. إنها المتمثلة فى السور. "فى إسبانيا وفى إيطاليا وفى ألمانيا وفى فرنسا نجد مدناً مستديرة، كانت فى البداية محاطة بأسوار مخصصة لا لحماية السكان ضد الاجتياح المعادى فحسب، بل كذلك لإخفاء وجود الطبيعة المحتوم". والحال أنه إذا كان العدو البشرى الولايات المتحدة مرمياً على مسافات تلغى التهديد، فإن الطبيعة كلية الحضور. "أنا ضائع فى مدينة أم فى الطبيعة؟ ليست نيويورك حماية ضد عنف الطبيعة. إنها مدينة ذات سماء مفتوحة؛ فالعواصف تغرق شوارعها العريضة والطويلة على الاجتياز حين تمطر. أما الأعاصير فتهز بيوت الطوب وترجح ناطحات السحاب، يعلن الراديو ذلك بخطورة كما لو كان يذيع إعلانات الحرب".

ينطوى تعبير سارتر "مدينة ذات سماء مفتوحة" تحت ظاهر تحصيل الحاصل على سلطة كبيرة فى الإيحاء. إنه يحيل بالتضاد إلى المدن: قاعات العرض، المدن، الأروقة، مدن أوروبا المغلقة والمطمئنة ذات المتاريس القديمة. المدينة الأمريكية حسب سارتر هى العكس من كل ذلك. إنها تترك سكانها بلا دفاع "فى هذا الفضاء الشاسع والعدوانى" الذى هو الطبيعة[88]. إنها إذن لا إنسانية بالغياب بقدر ما هى كذلك بالطفرة. إنها تعنف البشر بانتفاشها غير العضوى دون أن تخفف من قلقهم أمام طبيعة متكاثرة ونهمة: "كل العدوانية، كل فظاظة الطبيعة متواجدة فى هذه المدينة"؛ حتى في أعماق شقتي أعاني من هجمات طبيعة معادية، وصماء وسرية"[89]. تكف المدينة الأمريكية آنئذ عن أن تكون هذا المدخل للحرية، هذا المنطلق لكل الممكنات التى ينفتح فيها كل طريق على ما لا نهاية القارة. إنها تعترف أنها معسكر مخيف يعيش فيه الإنسان متحفزاً على الدوام مواجهاً الحشرات والمصاعد: "أظن أنى أعسكر في وسط غابة من الحشرات، هناك حشرجة الرياح، هناك الشحنات الكهربائية التى أتلقاها في كل مرة أمس فيها زر باب أو أصافح فيها يد صديق، هناك الصراصير التى تجرى في مطبخى، والمصاعد التى تسبب لى الغثيان، والعطش الذى لا يروى، والذى يحرقنى من الصباح إلى المساء." تشبيك أدبى رفيع يصهر فيه سارتر معاً مصائب عالم مفرط في طبيعته وجروح حضارة شديدة الآلية، والتى يلخصها بصورة جميلة: "سماء وحشية فوق سكك كبيرة متوازية: تلك هى نيويورك؛ ففى قلب المدينة، تجد نفسك فى قلب الطبيعة[90]".

حب نيويورك هو جهد، وعمل، وتعلم شاق: إن صيغ "تعلمت حبها"، و"تعودت عليها"، و"كان يجب أن أتعود عليها"، و"عندما نعرف النظر..."، صيغ تؤكد أوصاف

سارتر. هل يكفي ذلك لحب "أقسى مدينة في العالم"؟ يوسعنا الشك بما أنه "لكي نرخرفها بقليل من العذوبة" كان على سارتر شأنه شأن علماء الإنسانيات عندنا قبل الحرب أن يلجأ إلى شعرية الانقاض وإلى استيهام الدمار. يكتب أن العصر تغير، عصر "المباني الكبرى المهيمنة على المدينة"، وانتهى العصر الذي "كانت فيه ناطحات السحاب حيّة": "أصلاً لقد أهملت بعض الشيء، وربما ستهدم غداً". وعلى كل حال كان لابد لبنائها من إيمان لم يعد لدينا". يضحي سارتر متأخراً وجاهداً آنئذ نظرته، ويعتاد هذه المباني الزائلة ما دامت قد انهزمت: "أرى في البعيد مبنى الأمباير ستات [كذا] أو مبنى الكرايزلر اللذين يرتفعان عبثاً نحو السماء، وأحلم فجأة أن نيويورك هي قبل طريقها لاكتساب تاريخ، وأن لها من قبل أنقاضها"(٩١).

ثمة تقدم إجمالاً كان سارتر يرى المدينة الأمريكية في مدن أمريكا محرومة على وجه اليقين من الماضي: "لا شيء فيها يؤلف أثراً". ذلك لأن الماضي في هذه المدن التي تجرؤ بسرعة، والتي لم ترى لكي تشيخ، والتي تتقدم كالجيوش الحديثة محاصرة جزر المقاومة التي لا تستطيع تدميرها، لا تظهر كما هو الأمر عندنا من خلال الأطلال بل من خلال رواسب"(٩٢). في شيكاغو، ميشيغان آفينيو بريدج Michigan Avenue Bridge، الجسر "العتيق" الذي يحاذي القنال أمام مبنى صحيفة Chicago Tribune، أو أيضاً المترو الهوائي، هما كإشارة إلى أشغال تنتظر القيام بها". إنهما هنا بكل بساطة، لأننا لم نجد الوقت الكافي لهدمهما". في نهاية مقال "نيويورك، مدينة استعمارية"، اكتشف الراسب العتيق مقام الأنقاض الشابة.

مدينة بلا بوابة، حاضرة بلا شعب

لا يمكننا إلا أن ندهش لعودة أمنية التدمير ذاتها في كل هذه النصوص. فناطحة سحاب دوهاميل كانت تتطلع لتكون مصلى عابراً. أما هواجس سارتر الطبيعانية فتتبع طريقاً أكثر مهارة: إنها تجعل من المدينة الأمريكية مدخة أو دودة أرض، شكلاً من حياة أدنى، نود لو نقتلها دون أن نبلغ ما نريد. "كثير منها يملك البنية البسيطة للمدخة". تشبه لوس أنجلوس بوجه خاص دودة أرض كبيرة يسعنا قطعها عشرين قطعة دون قتلها(٩٣)". هذه النزوة الصبيانية في تقطيع المدينة - الدودة تأخذ بعد صفحة شكلاً أكثر رشداً، لكنه بالعنف ذاته لذكرى قصف بالقنابل: "فجأة يبدو أن قنبلة سقطت على ثلاثة أو أربعة بيوت، فتحيلها رماداً، وتأتي لتوننا على إزالته: إنه موقف سيارات"(٩٤).

هذه الهواجس بالحريق أو بالسحق لا تنفصل عن استيهام يسمح بالعنف: الفراغ البشرى لهذه اللا أماكن؛ فمادامت المدن الأمريكية غير مسكونة، فليس فيها سكان حقًا. كما أنّ لا إنسانيتها تؤثر على الجماهير التى تنضغط فيها دون أن تعيش فيها، والتى "تركب المترو السريع ساعة من الزمن لتعود إلى المرقد، ولا أجرؤ على القول إلى البيت"(٩٥). فى شيكاغو يبدو دوهاميل على استعداد كامل لأن يعتبر "هذه الأشكال الوردية المصفوفة فى مواجهتـ[ـه]" خنازير من نوع خاص. المسلخ ليس بعيداً، فهو يتعقبها: "قطيع"، "جماهير"، "كثرة زاحفة، "ماشية مبهمة"، "قطيع منهمك، حزين، وفى الوقت نفسه صاخب ومتجهم"، "مخلوقات بائسة، أرهقتها مشاغلها وحاجاتها"(٩٦): تلك هى الأوصاف الرحيمة التى يطبقها عالم الإنسانيات الفرنسى على الركام قليل الإنسانية للمدن الأمريكية. ليس لسارتر مثل هذه السوقيات، لكن إذا كانت المدينة الأمريكية دودة أرض، فكيف نسمى الإنسانية التى تعج فيها؟

وقتية المدن وقطيعية الجماهير هما الإحداثى السينى وإحداثية النقطة فى المعادلة المدينية الأمريكية. على لا مادية البعض ترد لا إنسانية البعض الآخر، وكماشية البلد لدى دوهاميل، تصير تلك الكتائب من الأجساد المتمايلة بحركة مترو الأنفاق خنزيرية، لدى سيلين، الأزواج الأمريكية التى لمحها باردامو من غرفة فندقه هى "حيوانات ضخمة مطيعة، معتادة جيداً على السأم"(٩٧). وفى أغلب الأحوال أيضاً عجاج خلايا النحل أو بيوت النمل، إن لم يكن حشرات طفيلية: حشرات من كل نوع، وكلها أسيرة اضطراب غريزى. لا إنسانية المدينة وقلة إنسانية الكائنات تتناديان وتتعززان. تنطبق جدلية الأسوأ هذه أيضاً على ناطحة السحاب؛ حيث تكتظ الحشرات العاملة، بل وكذلك على الشارع، وهو ليس شارعاً أبداً بل "جزءاً من طريق كبير"، كما يقول سارتر. وكما أن المدينة الأمريكية هى بلا نهاية ولا حدود، فإن الشارع هو "طريق قومى"(٩٨). من الممكن أن يدهس المرء فيه، وهذا هو اللقاء الوحيد الممكن. إن غياب المارّة، مضافاً إلى الإفراط، يجعل من الشارع شيئاً مختلفاً جذرياً عن الشارع الأوروبى الذى هو "وسيط بين درب المواصلات الكبرى والمكان العام المفتوح". يشرح سارتر أن الشارع الأوروبى يحيا، أى أنه "يغير من مظهره أكثر من مائة مرة فى يوم واحد"؛ لأن "الجمهور الذى يعمرها يتجدد والبشر يؤلفون فى أوروبا تركيبه الجوهرى"(٩٩).

الشارع الأمريكى ليس شارعاً بلا فرح فحسب؛ إنه شارع بلا بشر. يتعرف رولان بارت على هذه الأسطورة الفرنسية فى رسم برنار بوفيه Bernard Buffet الذى عرض سلسلة نيويوركية لدى دافيد وجارنييه فى عام ١٩٥٩: "لن تزعج نيويورك بوفيه

كثيرًا بالأحكام المسبقة؛ إنها مدينة عالية، هندسية، متحجرة، صحراء مُسيَّجة، جحيم من التجريد الأخضر تحت سماء مسطحة، متروبوليس حقيقى يغيب الإنسان عنه من كثرة ما يضغط فيه؛ والدلالة المضمرة لهذا الـ"جروز Greuze"(*) الجديد هو أننا قطعًا أكثر سعادة فى حى بيلفيل الباريسى مما نحن عليه فى مانهاتن." تلفيق مجامل به "يؤكد الفرنسى نفسه فى كمال مأواه"، وليس تحزب بوفيه إلا "عدوانًا" على مدينة يريد "التخلص منها"، "مطلقًا عليها رصاصة الرحمة [...] بإخلائه شوارعها". لكنه ليس "إلى أعلى، نحو السماء إنما يجب النظر إلى نيويورك، بل نحو الأسفل، نحو البشر والسلع". وبطرفة عين يعيد إلى المدينة الثقة بنفسها: "فناطحة السحاب تؤسس الكتلة، والكتلة تخلق الشارع، والشارع يستسلم للإنسان. أما بوفيه فيسير فى درب معاكس: فهو يخلى الشارع، ويصعد بمحاذاة الواجهات، إنه يهرب، ويدك بلا مقاومة ويخلخل: إن نيويوركه هى مدينة ـ مضادة(١٠٠)". هذه "المدينة ـ المضادة" هى تلك الخاصة بكل الإنتلجنسيا التى تخشى السياسة. وإذا كان بوفيه كما يفكر بارت قد رسم نيويورك بصورة رديئة، فقد عبر تمام التعبير عن هذا التقليد.

لكن ما يموت بوجه خاص فى المتروبوليس الأمريكى هى فكرة المدينة. ويُقالُ هذا الموت من سيلين إلى سارتر ومن دورتين إلى بودريار على كل المقامات. بما فيها الأسف، وهو أقل إدهاشًا لدى سيلين مما هو عليه لدى سيمون دو بوفوار، على عدم وجود البوابين. "رأيت غالبًا فى السينما هذه البيوت بلا بوابين"(١٠١)، كما تكتب سيمون دو بوفوار فى عام ١٩٤٨ ـ هى التى لم تكن لها علاقات ممتازة دومًا مع بوابيها. لكنها ولا شك قد قرأتها أيضًا هذه البيوت بلا بوابين، فى رواية رحلة لآخر الليل. هذا الغياب يسبب يأس باردامو الباحث عن لولا: "ولكن لم يكن يوجد بواب فى بيتها. بل إن المدينة بأكملها كانت تفتقر للبوابين. مدينة بلا بوابين، هى مدينة بلا تاريخ، بلا ذوق، إنها عديمة الطعم كحساء بلا فلفل ولا ملح، مثل خليط خضار بلا شكل." البواب هو الحقيقة، "التفاصيل الثابتة"؛ وبإيجاز إنه الحياة وإنه المدينة: مدينة لا تسرق اسمها و تستحق الحياة فيها أن تُعاش. وإلى كل ذلك "نجد أنفسنا مفتقرين فى نيويورك بصورة وحشية"(١٠٢): عكس الكراهية التى تدفئ، هى الوحدة التى تثلج. وحدة باردامو فى فندق Laugh Calvin": فى أفريقيا، كنت قد عرفت حقًا ضربًا من الوحدة على قدر من العنف، لكن العزلة فى هذه المنملة الأمريكية تكتسب شكلاً أكثر إرهاقًا أيضًا(١٠٣)".

(*) جروز Greuze، رسام فرنسى (١٧٢٥ ـ ١٨٠٥).

يتحدث سارتر بصورة أخرى، لكنه يقول الشيء نفسه، حين يقابل في عام ١٩٤٥ بين المدينة الأوروبية والمدينة الأمريكية. الأولى هي بالتعارض مع الثانية بالطبع "جماعية"، فيما أنها مغلقة على الخارج ("السور")، تنقسم داخلياً إلى "أحياء مستديرة ومغلقة هي الأخرى. [...] تصب الشوارع في شوارع أخرى. وبما أنها مغلقة عند كل من نهاياتها، ولا تبدو مؤدية إلى خارج المدينة فإننا ندور فيها عبثاً. هذه الشوارع هي التي أوحت لجول رومان Jules Romains بـ "إجماعيته". إنها تتحرك بروح جماعية تتنوع عند كل ساعة من النهار"[١٠٤]. في فرنسا ترتمي الشوارع في شوارع أخرى. أما في أمريكا، فهي ترتمي على رأس القارة، أو أنها ترتمي في المياه. يستبق فلاديمير بوزنر في كتابه الشديد المعاداة لأمريكا، *الولايات اللامتحدة*، الذي ظهر في عام ١٩٤٨ (والذي قدره سارتر)، الحدوس البودريارية حول "انتحار" مركز التجارة العالمي[١٠٥]. ففي غياب مركز التجارة العالمي الذي لم يكن قد بني بعد، يجعل وول ستريت تنتحر: "هذا الشارع الذي يبدأ في مقبرة ويرتمي في المياه! شارع قصير قصير اسمه: وول ستريت" وتستمر الرؤية - رؤية باتت من الآن فصاعداً مألوفة لنا: "المقبرة قديمة، وكل الأماكن قد أخذت. حول المعبد الأسود للثالوث الأقدس، يسحق الموتى بعضهم البعض الآخر كسماسرة البورصة في يوم رعب مفاجئ؛ وحول كل ذلك تقوم ناطحات السحاب بالحراسة[١٠٦].

إذا كانت المدينة تحتل مثل هذا المقام في الحجج المعادية لأمريكا، فليس بوصفها عالماً صغيراً لفرنسا - المضادة، بوصفها "حديقة فرنسا - المضادة" فحسب، بل كذلك لأن المدينة القطيعية هي نفي وحائل دون المدينة الشعبية، واختلاطها اللامبالي هو المبرز الكامل لمدنية مثالية تتضمن أسطورتها كل هذه الأوصاف المنفرة. ولا يعني الأمر مجرد طريقة في معرفة عيش الحياة وعذوبتها فحسب، بل من طريقة في العيش معاً، من ضيافة ومواطنية على الطريقة الفرنسية: لأن الشعب في متروبوليس غير موجود شأنه شأن البوابين، أو أنه موجود فقط في هيئة هذه الأنواع القلقة لكل كوسموبوليس: زكام، طمي، قبائل، مجبر ghetto. إن الاستناد إلى "المجبر" الأمريكي، ومجاز المجبر في الخطاب الفرنسي، يديم ويؤبد في بداية الألف الثالث الاستيهامات المنفرة التي يثيرها منذ ثلاثة أرباع القرن لدى المثقفين الفرنسيين البلد المختلط[١٠٧]. وعلى العكس من الحي الباريسي، المصمم كقرية، فإن الحي *neighbourhood* الأمريكي متهم على الدوام بالمشاركة في اقتسام إثني واجتماعي بل وديني. الحي "إجماعي" دون أن يكون حصرياً والمدينة الأوروبية هي بالإجمال فدرالية أحياء. أما الحي الأمريكي فهو مصمم فيما يخصه كحقل مغلق مآله المنطقي هو "المجبر": فالمدينة الكبرى لا تفلت على

هذا النحو من طبيعتها كـ"مدينة في قلب السماء" إلا لتتفتت في مصائر مقسمة. إن التنافر الإثني، المسكوب في الكتل المنفصلة للطوبوجرافيا المدينية، يتجمد في موقف عضال:

آخر ناطحات السحاب

التي راكم معماريوها طوابقها كما راكم البخلاء المال

شوارع، شعب تخنقها الظلمة.

حوافل كهربائية خالية، مضغوطة في المحطة الأخيرة

سكاري ساكسونيون، وآذان إيرلندية، وعيون لاتينية،

وأنوف يهودية

وأفواه زنجية

وجلود صينية،

دون الحديث عن النيام - نيام، والمجريين، والبوسنة، والرومانيين،

والليتوانيين، والنابوليتانيين

وآخرين من ذوي الجمجمة العريضة السمر

الذي أدانهم بقسوة جوبينو Gobineau، ولابوج Lapouge

وهوستون شامبرلان Houston Chamberlain(١٠٨).

لا تكفي لفتة السخرية النهائية لتحرر هذه القصيدة للوك دورتين "مباراة ملاكمة" من رؤية منمطة لخليط شاذ، ولا لتبرئ المدينة التي لا تجتمع قبائلها إلا حول الحلبات، وحيث "كل الشعوب تتدافع" كما يقول دوهاميل، ولن تشكل أبداً هذا الشعب على طريقة ميشليه الذي يبحث الفرنسيون عنه في كل مكان ولا يجدونه في أي مكان من أمريكا.

إن المتروبوليس الأمريكي هو في آن واحد مشبع بالبشر وخال من الإنسانية، لكن آخر عيوبه هو افتقاره للشعب كشخصية جماعية تضمن أصالة المدينة. هذا العيب يدهش، ويزعج، ويربك الزوار الفرنسيين منذ بداية القرن العشرين، وربما كان بول بورجيه أول من يقوم بإقرار ذلك في كتابه ما وراء البحار: "شيء غريب هذا البلد؛ حيث كل شيء مصنوع من الشعب وللشعب، لا يملك أياً من الخصائص التي اعتدنا على اعتبارها السمة الخاصة بالروح الشعبية(١٠٩)"؛ فالفلاحون والعمال لا يشبهون في شيء فلاحينا وعمالنا. وأكثر غياباً أيضاً هم الذين واللواتي يعطون للشارع الفرنسي هيئته:

الحرفيون، والتجار، والبوابون. بين الذهول والحزن والاستنكار، تتوقف القصص الفرنسية على امتداد القرن عند هذا السر وهذه الفضيحة: غياب المقاهى، والملاهى، والمطاعم الحقيقية، والمنتزهات العامة، وأمكنة النزهة دون الحديث عن الممرات والحدائق. كيف يمكن أن يكون هناك مدن بلا "أمكنة عامة" كما يقول سارتر؟ يستحق هذا الأسف الذى يمكن أن يعتبر غيظًا محزونًا لمسافر مشتاق لوطنه أن يعامل بجدية. إنه يترجم انزعاجًا عميقًا أمام كياسة غير مفهومة. وفى الوقت نفسه يكشف عن تمسك الإنتلجنسيا الفرنسية بمفهوم عمرانى خيالى، بروح ضيافة وهمية وفوق كل شيء بهذه الشخصية الناظمة للشعب ـ المتجانس فى اختلافاته، المتباين لكنه غير"طائفى". يتحسر الجميع على هذا الشعب، ويستحضرونه ضد أمريكا، اليسار واليمين بلا تمييز، وكان الأشد محافظة والأشد قدمًا مثل جول هوريه وبول بورجيه يفتقر إلى تمييز الهيئات والجماعات المهنية، برقشة المهن المعلن عنها فى ثياب العمل، دقة المبادلات الممكنة لأنها متدرجة؛ حيث تتجلى المسافة والألفة من خلال فوارق دقيقة لا يكاد المرء يتميزها، والتى يعارض بها هوريه الفظاظة الديمقراطية المحيرة التى عاناها فى طرق أمريكا وحتى فى القطارات الفخمة. يأسف التقليديون على الشعب الأصيل، صاحب المهن اليدوية، الحرفى، إنهم لا يتعرفون فى المزارع الأمريكى الفلاحَ الفرنسى، إنسان الاقتصاد والحذر والتجذر. أما فيما يخص "التقدميين"، فهم يبحثون عبثًا فى شوارع المدينة الكبرى عن هذه الوحدة الدينية العضوية: الحيّ، هذه البلدة الصغيرة، عالم مصغر من الديمقراطية المباشرة، فضاء على المستوى الإنسانى للتضامن، مركز المبادلات بين الجماعات الاجتماعية التى لا يتجاهل (ليس بعد؟) أو يكره بعضها البعض الآخر. إنه ليس شعب بورجيه "الساذج والخجول" هو من يأسف هؤلاء عليه، بل الشعب الكريم، المشارك والمزاح الذى سيجعل من الفوضوية أو حتى من ديكتاتورية البروليتاريا متعة حقيقية: شعب الشعبوية، شعب الواقعية الشعرية، شعب كونو، وكانابا وبيناك، وشعب دوهاميل كما رأينا: "هل ستختفين ذات يوم أيتها المقاهى الصغيرة فى بلادنا، أيتها القاعات الواطئة، الحارة، المدخنة؛ حيث يجلس ثلاثة أشخاص كتفًا إلى كتف من حول مائدة صغيرة من الحديد يلتهمون لحم البقر المعد على الطريقة البورجونية، يتبادلون حكاية القصص، ويمزحون بأصوات عالية! يمزحون وهم يجرعون الخمرة؟"(١٩٠). إن تعبير كتف إلى كتف هو النسخة الفرنسية المرحة عن تعبير مرفق إلى مرفق المنافس والخاص بـ"الجماعات" المنفصلة.

إذا كان الفرنسيون كافة تقريبًا، أمام المدينة اللامتناهية ذات البيوت المكدسة

كحقائب المهجر، يصيرون من جديد من أنصار موريس بارّس، فإن المدينة الكبرى عديمة الرأس التى "تتحاذى فيها الشعوب دون أن تتحاب" تعيدهم إلى الحلم "الإجماعى" كما سجل سارتر، لكنها تعيدهم أيضًا وبصورة أشد جذرية إلى هذه الأخوة التى اقترح أندريه مالرووبّين مونا أوزوف أنها "تنطوى على معنى الثورة الفرنسية"(١١١).

وسواء كانت برج بابل أو مدينة بابل، قرطاج أو مدينة الأثرياء Ploutopolis، دودة أرض أو وكر الأرض، فقد استقطبت المدينة الأمريكية اعتبارًا من سنوات ١٩٢٠ الكراهية التى كانت الإنتلجنسيا الفرنسية تحملها لأمريكا. كل أحلام الاستئصال وأمانى الإفناء هذه، سنعثر عليها ثانية، كما هى، مرتعشة وحيّة، فى "الابتهاج" يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١. يطلق جان بودريار فى صحيفة *اللوموند* فى الثالث من نوفمبر الذى تلا كلمة : "الابتهاج الخارق أمام رؤية دمار هذه القوة العظمى". ابتهاجه؟ ليس بهذه الحماقة! إنه ابتهاجنا: " وبمعنى ما هُمُ الذين فعلوه، لكننا نحن الذين أردناه"، ولكن على من طبق بودريار مقياسه فى الابتهاج؟ أم أنه يزعم إخافتنا: "هيا، اعترفوا بأنكم قد ابتهجتم" ـ شأن هذا الأستاذ فى كومبروفيتش الذى يأمر تلامذته أن يكونوا متحمسين؟ لكن من الطبيعى أكثر أن نفكر أن بودريار قد أراد – وهو على وعى بأنه وريث تقليد طويل وغنى – أن يثنى على لوك دورتين الذى تشبه عنده كاليفورنيا الصحراوية كاليفورنيا أمريكا، وعلى والدو فرانك الذى كان قد نظّر فى عام ١٩٣٠ أمريكا بوصفها "وهمًا"، وحتى على جورج دوهاميل، ولم لا، الذى كان يمكن لاستيهاماته النيويوركيه أن تفجر مقياس الابتهاج! من الطبيعى أكثر أن نفكر أن بودريار أراد أن يقول ببساطة: نحن، المثقفون الفرنسيون، الشركة المغفلة ذات المسؤولية المحدودة إروسترات(*) وشركاه، الذين نحافظ على لهيب معاداة أمريكا بدلاً من رفع شعلتها، بذلك نتلافى الحديث عن الأصداء الأخرى التى يوقظها افتتانه بـ"ثمانية عشر كاميكاز" وبـ"سلاح موتهم المطلق".

لقد حللت ليليان كانديل بالضبط، فى العريضة المسماة عريضة الـ ١١٣ ("هذه الحرب ليست حربنا") التى نشرت فى أكتوبر ٢٠٠١ فى الصحافة الفرنسية، الاختفاء

(*) إروسترات Erostrate: شخصية تاريخية فيما يظهر قام لكى يصير شهيرًا بإحراق معبد إيفيز Ephèse الذى كان يعتبره الإغريق واحدًا من عجائب العالم السبعة.

الكامل للحدث: "وبالإجمال، لم يحدث شيء في نيويورك يوم ١١ سبتمبر"(١١٢). مع نتيجة طبيعية إخفاء الضحايا؛ فقد قضى عليهم لدى بودريار في جملة بسيطة: "(ذلك لا يستبق الحكم في شيء على آلامهم وموتهم)". شاهدة قبر جميلة مقتضبة اقتضاب إدانة الاغتيالات "بلا غموض" من قبل بيان الـ ١١٣. إن الحرب التي شنت ضد نظام طالبان هي "حدث مزيف مكرر سبقت رؤيته"، كما يخلص بودريار في نهاية تحليل مزيف مكرر سبقت قراءته. إن نزعة معاداة أمريكا هي أيضاً مقبرة سياسية للمثقفين.

هوامش

(١) *Réaction* nº 3, juillet 1930, p. 77.

(٢) Croshier de Varigny, *Les Grandes Fortunes aux Etats-Unis et en Angleterre,* Paris, Hachette, 1889, p. 7.

(٣) B. de Jouvenel, *La Crise du capitalisme américain, dans Itinéraire 1928-1976,* Paris, Plon, 1993, p. 141.

(٤) Etiemble, *Parlez-vous franglais*, Paris, Gallimard, 1964, p. 75.

(٥) R. Recouly, *L Amérique pauvre*, Paris, Les Editions de France, 1933, p. 46.

(٦) كانت العشاءات والأعياد الاجتماعية بالنسبة للأمريكية ضرباً من مدرسة برليتز: فقد كانت تسمع الأسماء وتكررها دون أن تعرف مسبقاً قيمتها ومعناها الدقيق. انظر: M. Proust, *Le Temps retrouvé*, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, t. IV, p. 539.
والمقصود هنا الزوجة الأمريكية للسيد دو فارسي.

(٧) R. Gain, *Des Américains chez nous*, Paris, Editions Montaigne, 1928, p. 72.

(٨) *Ibid.*, p. 75.

(٩) *Ibid.*, p. 73.

(١٠) *Ibid.*, p. 83. (ناكفيل مكان خيالي في مقاطعة النورماندي حيث تدور أحداث الرواية. هـ. م.)

(١١) *Ibid.*, pp. 105, 106.

(١٢) *Ibid.*, p. 71.

(١٣) *Ibid.*, p. 99.

(١٤) *Ibid.*, p. 73.

(١٥) *Ibid.*, p. 157.

(١٦) *Ibid.*, p. 63.

(١٧) *Ibid.*, p. 73.

(١٨) يفسح كتاب V. Ponzer, *Les Etats-Désunis* (Paris, la Bibliothèque française, 1948) مكانًا واسعًا لنزعة السطو. يقدمه مؤلفه على أنه كتب قبل الحرب.

(١٩) انظر المدخل.

(٢٠) G. Duhamel, *Scènes de la vie future* [1930], Paris, Arthème Fayard, Le Livre de demain, 1938, p. 57.

(٢١) G. Lanson, *Trois mois d enseignement aux Etats-Unis*, Hachette, 1912, p. 31.

(٢٢) *Ibid.*, pp. 32-33 اعتبارًا من ١٨١٨، حلت نيويورك نهائيًا محل منافساتها بوصفها مدينة نموذجية. لقد قدم تاريخ ممتاز للمدينة مؤخرًا من قبل فرنسوا فيل، تاريخ نيويورك (François Weil, *Histoire de New York*, Paris, Fayard, 2000)؛ وعلى الجانب الأسطورى يمكننا أن نعود إلى كتاب:.Crystel Pinçonnat, *New York, mythe littéraire français*,Paris, PUF, 2001

(٢٣) Emile Verhaeren, *Les Campagnes hallucinées*, Paris, Mercure de France, 1893.

(٢٤) P. Bourget, *Outre-Mer. Notes sur l Amérique*, Paris, Alphonse Lemerre, 1895, p.41.

(٢٥) Jule Huret, *En Amérique* (I), Paris, Fasquelle, 1905, p. 9.

(٢٦) G. Simenon, *Maigret à New York*, Paris, Presse de la Cité, 1947, p. 14.

(٢٧) A. Maurois, *En Amérique*, Paris, Flammarion, 1933, p. 69.

(٢٨) P. Morand,*Champions du monde*, Paris, Grasset, 1930, p. 41.

(٢٩) *Ibid.*

(٣٠) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain*, Paris, Rioder, 1931, p. 104.

(٣١) Hérgé, *Tintin en Amérique*, 1931.؛ قبل مبدع تانتان أنه "خضع لتأثير جورج دوهاميل"، لكنه عمل بوجه خاص بناء على التحقيقات التى ظهرت فى صحافة اليمين، وفى صحيفة *Le Crapouillot* بوجه خاص. يستخلص هيرجيه الجوهرى من مادته من مقال لكلود بلانشار Claude Blanchard يحمل عنوان *أمريكا والأمريكيون* *L Amérique et les Américains* (أكتوبر ١٩٣٠)، كما يبرهن التحليل المقارن للتحقيق والألبوم الذى وضعه جان مارى آبوستوليديس Jean-Marie Apostolidès فى تحولات تانتان، انظر:

Les Métamorphoses de Tintin, Paris, Seghers, 1984, pp. 30-33

كما يلاحظ بمكر ج.م. أبوستوليديس، "بعد الحرب، لما كانت الموضة السائدة فى الأوساط الثقافية الناطقة باللغة الفرنسية بصورة عامة تسير فى تيار معاداة أمريكا، فستخضع مبدعات هيرجيه فى هذه النقطة على الأقل لقليل من التعديل"، وسيستمر الفرنسيون الصغار فى اكتشاف أمريكا مع عينيات صحيفة. *Crapouillot*

(٢٢) H. de Keyserling, *Psychanalyse de l Amérique (America Set Free)*, Tradult de l original anglais par Germain d Hangest, Stock, 1930, p. 48.Il est cité élogieusement par Claudel (*Lettre à Agnès Meyer, 28 août 1929, Claudel et l Amérique II, Lettres de Paul Claudel à Agnès Meyer [1928-1929]Note-Book d Agnès Meyer [1929]*, édition établle par E. Roberto, Editions de l Université d Ottawa, 1969, p. 130).

يدهش نجاح كيسرلينج القارئ الحديث، لكن مما يبعث على الطمأنينة أننا نلاحظ أنه كان يدهش مورو من قبل.

(٢٣) L. Durtain, *Hollywood dépassé*, Paris, Gallimard, 1928, pp. 138, 139.

(٢٤) *Ibid.*, p. 141.

(٢٥) L. Durtain, La cité que bâtit la vision, *Quarantième Etage*, paris, Gallimard, 1927, p. 129.

(٢٦) *Ibid.*, p. 131.

(٢٧) *Ibid.*, pp. 145, 149.

(٢٨) L. Durtain, *Hollywood dépassé*, ..., p. 140.

(٢٩) C. De Pauw, *Recherches philosophiques sur les Américains* [1768], Paris, Jean-Michel Place, 1990, p. 2.

(٤٠) P. Claudel, *Conversations dans le Loir-et-Cher, Ouvre en prose*, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, 1965, p. 790.

إذا كان المجتمع الأمريكى يبدو له "ماديًا"، فإن أمريكا تنزع لدى كلوديل لأن تصير لا مادية: "إنها جوهريًا وسطية". انظر:

Projet d une église souterraine à Chicago, *Positions et Propositions*, v. II, p.230)

(٤١) نجح كوربوزييه ضربة جميلة في الدعاية بإعلانه للصحافيين الأمريكيين منذ وصوله أن ناطحات السحاب النيويوركية شديدة الصغر، انظر قصته في: عندما كانت الكاتدرائيات بيضاء *Quand les cathédrales étaient blanches*, Paris, Plon, 1937

(٤٢) R. Recouly, *L Amérique pauvre*, Les Editions de France, 1933, pp. 12-13, 16.

(٤٣) P. Claudel, *Conversations...*, p. 738.

(٤٤) *Ibid.*, p. 741. إنه يضع أمله في "كاتدرائية العلم" القادمة في بيتسبورج [Cathedral of Learning in Pittsburgh].

(٤٥) G. Duhamel, *Scènes de la vie future* [1930], Paris, Arthème Fayard, Le livre de demain, 1938, p. 56.

(٤٦) L. Durtain, Smith Building, *Quarantième Etage...*, p. 192.

(٤٧) *Ibid.*, p. 206.

(٤٨) *Ibid.*, p. 193.

(٤٩) *Ibid.*, p231.

(٥٠) كان كتاب *The Promise of American life* (New York, Macmillan, 1909) قد ترجم إلى الفرنسية بنجاح عام ١٩١٢، لدى منشورات ألكان Alcan تحت العنوان: *Les promesses de la vie américaine*

(٥١) W. Frank, *Nouvelle Découverte de l Amérique. Introduction à une philosophie de la vie américaine*, traduction de L. Savitzky, Paris, Grasset, 1930, p. 336.

(٥٢) Cité par W. Franck, *Ibid.*, p. 105, n. 2.

(٥٣) P. Claudel, *Conversations...*, p. 739.

(٥٤) Duhamel, Scènes.., pp. 56-57.

(٥٥) *Ibid.*, p. 124.

(٥٦) *Ibid.*, p. 57.

(٥٧) *Ibid.*, p. 125.

(٥٨) *Ibid*.

(٥٩) Henri Nevers, *Pourquoi l Amérique est-elle en guerre?*, Paris, Nouvelles éditions française, s.d., pp. 21, 22.

(٦٠) "Métro interallié", dessin de Bogislas, *Au Pilori*, 2 août 1944. Ce dessin (et les suivants) sont reproduits dans l interressant ouvrage de Christian Delporte, *Les Crayons de la propagande. Dessinateurs et dessin politique sous l Occupation*, Préface de René Rémond, CNRS Editions, 1993, p. 102.

(٦١) "In articulo mortis", dessin de Soupault, *Je suis partout*, 21 juillet 1941, *ibid.*, p.95.

(٦٢) "Maison de rencontre" dessin de Soupault, *Ils sont partout*, album, 1944, *ibid.*, p.144.

(٦٣) La liberté...enfin, *éclaire le monde*, Mara, *La Gerbe*, 25 mai 1944, *ibid.*, p. 94.

(٦٤) Henri Nevers, *Pourquoi l Amérique est-elle en gurre*, ...,P. 20.

(٦٥) *Ibid.*, P. 8. حتى هذا المدح لمقاهي فيينا وبرلين منسوخ: فهو موجود حرفياً في كتاب *أمريكا الفقيرة* *L'Amérique pauvre* لريمون ركولي Raymond Recouly (ص. ٧٩).

(٦٦) *Ibid.*, p. 17.

(٦٧) *Ibid.*, p. 19.

(٦٨) *Ibid.*, pp. 7, 8.

(٦٩) *Ibid.*, p. 4.

(٧٠) *Ibid.*, p. 7.

(٧١) F. Klein (abbé), *L Amérique de demain*, Paris, Plon, 1910, p. 6.

(٧٢) E. Demolins, *A quoi tient la supériorité des Anglo-Saxons?*, Paris, Didot, 1897, P. 149.

(٧٣) Ch. Crosnier de Varigny, *La Femme aux Etats-Unis*, Paris, Armand Colin, 1893, p. 220.

نجد صدى متأخراً لهذه الفكرة لدى دوهاميل خلال حوار غريب بين فرنسيين في بهو الفندق: "...لا، إنه ليس مشرقياً، أؤكد لك، وليس يهودياً. يجب أن نكون عادلين. إنني أشتغل مع يهود من هنا، وهم أناس ذوي سلوك لائق تماماً. هو، إنه مائة بالمائة. فكر ياسميث!" والحال أن سميث هذا أكثر خداعاً ومكراً من كل المشارقة مجتمعين. "ماذا تريد؟ الشرق أكبر مما نفكر. إنه يبدأ في أطراف وارسو، ويدور حول العالم، ويتوقف تقريباً في وسط الأطلسي..."
Scènes.. ,. p. 109)

(٧٤) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui*, Paris, Armand Colin, 1927, p. 17.

(٧٥) R. Recouly, *L Amérique pauvre...*, p. 8.

(٧٦) G. Duhamel, *Scènes...*, p. 76.

(٧٧) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui*, Paris, Armand Colin, 1927, p. 16.

(٧٨) J.-P. Sartre, Villes d Amérique, [*Le Figaro*, 1945], *Situations III*, Paris, Gallimard, 1949, p. 94.

(٧٩) J.-P. Sartre, Individualisme et conformisme, [*Le Figaro*, février 1945], *ibid.*, p.87.

(٨٠) J.-P. Sartre, Villes d Amérique..., *Situations III*, Paris, Gallimard, 1949, p. 97.

(٨١) Céline, *Voyage au bout de la nuit* [1932], Paris, Gallimard, Folio, 1983, p. 237.

(٨٢) J.-P. Sartre, Villes d Amérique..., *Situations III*, Paris, Gallimard, 1949, pp.101-102.

(٨٣) Céline, *Voyage...*, p. 247.

(٨٤) R. Barthes, New York, Buffet et hauteur, *Arts*, 11-17 février 1959. (*Euvres Complètes*, Paris, Seuil, 1994, vol. I, p. 781.

(٨٥) J.-P. Sartre, Villes d Amérique..., *Situations III*, Paris, Gallimard, 1949, pp.97,96.

(٨٦) *Ibid.*, p. 102.

(٨٧) J.-P. Sartre, New York, ville coloniale, [Town and Country, 1946], *Situations III...*, p. 120.

(٨٨) *Ibid.*

Ibid., p. 119. (٨٩)

Ibid., p. 121. (٩٠)

Ibid., p. 124. (٩١)

J.-P. Sartre, Villes d Amérique..., *Situations III*, Paris, Gallimard, 1949, p. 105. (٩٢)

Ibid., p. 104. (٩٣)

Ibid., p. 105. (٩٤)

G. Duhamel, *Scènes...*, p. 68. (٩٥)

G. Duhamel, *Scènes...*, pp.68, 104, 29. (٩٦)

Céline, *Voyage...*, p. 255. (٩٧)

J.-P. Sartre, New York, ville coloniale, [Town and Country, 1946], *Situations* (٩٨)
III..., p. 121.

J.-P. Sartre, Villes d Amérique..., *Situations III*, Paris, Gallimard, 1949, p. 107. (٩٩)

R. Barthes, New York, Buffet et la hauteur, *Arts*, 11-17 février 1959. (*Euvres* (١٠٠)
Complètes, v. 1, pp. 781-782.

S. de Beauvoir, *L Amérique au jour le jour*, Paris, Editions Paul Morihlen, 1948, (١٠١)
p. 19.

Céline, *Voyage...*, p. 271. (١٠٢)

Céline, *Voyage...*, p. 261. (١٠٣)

J.-P. Sartre, New York, ville coloniale, [Town and Country, 1946], *Situations* (١٠٤)
III..., pp. 114-115.

J. Baudrillard, L esprit du terrorisme, *Le Monde*, 3 novembre 2001. عندما انهار (١٠٥)
البرجان تولّد الانطباع أنهما يستجيبان لانتحار الطائرتين الانتحاريتين بانتحارهما الخاص
بهما." (راجع الترجمة العربية لهذا المقال المنشورة فى كتاب "روح الإرهاب" لجان بودريار،
ترجمة: بدر الدين عرودكى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (تحت الطبع).

V. Pozner, *Les Etats-Désunis...*, p. 167. (١٠٦)

(١٠٧) في مداخلته خلال المهرجان الحادي عشر الدولي للفيلم التاريخي حول موضوع "السلطة الأمريكية" (مدينة بيساك Pessac، ٢٢ ـ ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٠)، بينت صوفي بودي جندرو Sophie Body-Gendrot كيف أن كلمة "جيتو" قد استعيرت وحول استخدامها لأغراض الجدل الفرنسي ـ الفرنسي حول "المدن"، في حين لا يوجد بين الواقعين شيئًا كبيرًا مشتركًا.

(١٠٨) L. Durtain, Match de boxe, USA 1927, Album de photographies lyriques, ornementation de Pierre Legrain, Paris, Plaisir du Bibliophile, 1928.

(١٠٩) P. Bourget, *Outre-Mer...*, II, p. 136.

(١١٠) G. Duhamel, *Scènes...*, p. 107.

(١١١) "لقد فهم الفرنسيون مع ذلك شيئًا ما مع حماقتهم في النقش على البلديات: لأن عكس الغيظ، هو الأخوة"؛ انظر:

A. Malraux, *L'Espoir*, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, 1947, p. 514. Mona Ozouf, article -Fraternité -, dans F. Furet et M. Ozouf, *Dictionnaire critique de la Révolution française*, Paris, Flammarion, 1988, pp. 731-740.

(١١٢) Liliane Kandel, Il ne s est rien passé le 11 septembre, *Libération*, 5 novembre 2001.

الفصل الخامس

دفاع عن الإنسان:

نزعة معاداة أمريكا هي نزعة إنسانية

يقول هيدجر إن العالم يظهر في أفق الأدوات الفاسدة، وهنا لا تفسد الأدوات.

سيمون دو بوفوار،

أمريكا يومًا بعد يوم(١٩٤٨)

إنهم يقولون – قبل كل شيء – إنهم مهندسون، وهو أمر، في الولايات المتحدة، أكثر قابلية للاحترام وجدية من أن يكون المرء فيلسوفًا.

راؤول دو روسي دو سال، مجلة باريس (١٩٣٣).

يقص أندريه موروا كيف أنه وهو على وشك أن يتلقى دعوة من جامعة برنستون في عام ١٩٣١، قد وبخ من قبل "صديق قديم" يجاهر عن الولايات المتحدة بأفكار عنيفة ودقيقة، وهي من الدقة كما يضيف موروا لا سيما وأنه لم يعبر الأطلسي في حياته أبدًا. قال له هذا الصديق: "يابني! لا تفعل ذلك! فلن تعود حيًا. أنت لا تعرف ما هي أمريكا: إنها بلد يبلغ فيه الاضطراب حدًا بحيث لا يتركون لك دقيقة واحدة من الراحة، بلد تستثمر الضجة فيه بحيث لا يسعك أن تنام ولا حتى أن ترتاح، بلد يموت فيه الرجال في الأربعين من عمرهم من طفرة العمل، وتترك فيه النساء منذ الصباح بيوتهن للمشاركة في الهياج العام. فالعقل والذكاء لا قيمة لهما هناك، وحرية الفكر لا وجود لها، والكائنات البشرية لا روح لها. إنك لن تسمع فيها إلا عن المال. لقد عرفت منذ طفولتك عذوبة حضارة روحية، وسوف تجد حضارة قاعات الحمام، والتدفئة المركزية، والبرادات..."[١]. وعلى أنه قد رحل مع ذلك، فسيكتشف أندريه موروا في برنستون "أمريكا غير متوقعة"[٢]، يسكنها السنجاب وقراء كوكتو، وحيث سيتزعزع نومه أحيانًا كثافة الصمت الليلي وحدها.

إن عظة الصديق القديم هي "ميثولوجيا صغيرة" لذيذة للنفور المعادي لأمريكا. إنها تنتهي من ثم بطرفة عين عند أشد الصور النمطية المرعبة استعمالاً: "هل قرأت يا

صديقى وصف مسالخ شيكاغو؟ إنها رؤية وحشية، أؤكد لك، رهيبة..."لا شيء سياسى فى هذه المقالة. وليس هناك أى احتجاج ضد ويلسون أو الانعزالية، ولا أى تلميح إلى قروض الحرب، ولا إلى فوائد هوفر. هذا المقطع الصغير من نزعة معاداة أمريكا الذى يجعل منه موروا الحاشية الساخرة لإقامة متحضرة تماماً يتناول "الثقافة" الأمريكية الموصوفة باعتبارها اغتصاباً وجودياً. إن الصديق القديم لا يحتج ضد أمة عدوة، بل ضد بلد لا يطاق؛ حيث لا يستطيع فيه أوروبى "عرف عذوبة الحضارة الروحية" إلا أن يتألم ـ جسديا وروحيا.

يصيب موروا إصابة دقيقة حين يصف الخطاب المعادى لأمريكا باعتباره خليطاً من المآخذ، متجر ثياب قديمة للعقيدة. إنه يصيب بصورة أشد دقة أيضاً حين يبين هذا الخطاب خالطاً المستويات، مازجاً الدنيوى والروحانى، مستعداً لاستخلاص حجة من قاعات الحمامات ليبرهن على غياب حرية التفكير. هذا يعنى الاستهزاء بإستراتيجية الخطاب الثقافى الفرنسى نفسه الذى يقوم على استنفار النزعة الإنسانية ضد "النزعة الأمريكية". هذا يعنى إزاحة الخلط المحافَظ عليه بين الفرد (الذى سيمنعه ضجيج أمريكا من النوم) والإنسان (الذى يفترض بحضارة البرادات أن تضرّ به على مستوى أشد ميتافيزيقية). هذا يعنى الإشارة برصانة إلى ضروب غريبة من التواطؤ.

"الدفاع عن الإنسان" واحدة من صرخات التجميع الأشد توحيداً للجبهة الثقافية المعادية لأمريكا: من دوهاميل إلى برنانو، ومن مونييه إلى جارودى، باتت القضية واضحة. إن نزعة معاداة أمريكا هى نزعة إنسانية. كل المعادين لأمريكا لا يعتبرون أنفسهم إنسانويين (يعفى اليمين المتطرف نفسه أحياناً من ذلك)، لكن ليس إنسانوياً من ينسى أن ينفجر ضد الولايات المتحدة. من اللا امتثاليين فى سنوات ١٩٣٠ إلى الستالينيين فى سنوات ١٩٥٠، ليس هناك واحد من المشنعين على النهج الأمريكى فى الحياة من لم ينصب نفسه محامياً عن الإنسانية المهانة. الحضارة الأمريكية ـ هذا الحلف بين لفظين متناقضين ـ قدمت على هذا النحو خلال نصف قرن باعتبارها الإنكار المطلق للقيم التى تؤسس الإنسانية. إنها "أسوأ انحطاط فرضته حضارة على الإنسان"، كما كتب فى عام ١٩٣٣ دانييل روبس ودنى دو روجمون[٢]. يزايد جورج برنانو فى عام ١٩٤٧: "إن ضرب الحضارة التى لا نزال نطلق عليها هذا الاسم ـ فى حين لم تحقق أى بربرية أفضل مما حققته، ولم تمض أبعد منها فى التدمير ـ لا تهدد منجزات الإنسان فحسب: إنها تهدد الإنسان نفسه." هذه "الحضارة" البشعة، كما

يشرح المناظر الكاثوليكي، هي "حضارة الآلات التي يسعنا دون أن نسيء إلى أحد أن نسميها الأنجلو أمريكية"(٤). في الصفحة التالية سيقارن برنانو بين هذا "التحالف المخيف بين المضاربة والآلة" و "اكتساحات جنكيز خان وتيمورلنك"، دون الإساءة إلى أحد على الدوام.

ومن جهتها، تضرب الصحافة الشيوعية بقوة وصراحة "معاداة بورصة نيويورك (وول ستريت) للإنسانية الثقافية" باسم "الإنسانية الاشتراكية للشعب السوفييتي العظيم"(٥)، لكن ههنا كل أدب الحرب الباردة الشيوعي أو المناصر للشيوعية الذي يتوجب الاستشهاد به لكثرة ما ردد اليقين بأن "السيطرة العالمية لعصابات الإمبريالية الأمريكية ستكون نهاية الحضارة"(٦). لا شيء أمريكي يفلت من هذا الغضب العظيم. وبعد أن يستعرض روجيه فايان اللائحة الطويلة للجرائم اليانكية ضد الإنسانية بأكملها، لا يزال يجد متسعًا من الوقت ليسدد حساب جين مانسفيلد، "نتاج حلم متزمت سكران، في نهاية مائدة انتخابية، في الغرب الأوسط Middle West(٧)". لم يعد الروائي الشيوعي (والفاسق) لطيفًا مع الثلاجة التي يمحضها نفس احتقار "الصديق القديم" لأندريه موروا: "في بلد كفرنسا؛ حيث يكون الطقس فيما عدا شهرين في السنة وليس كل السنوات باردًا برودة يكفي وضع خزانة الأطعمة أمام النافذة للمحافظة حتى الاثنين أو الثلاثاء أو الأربعاء على بقايا طعام يوم الأحد"، إن البراد التفاخري، المخصص جوهريًا لتزويد مشروبات اليانكيين بقطع الثلج، ليس إلا "رمزًا" أو بالأحرى "خداعًا" تفاقم الرغبة فيه المستثارة على نحو اصطناعي من استلاب العامل(٨). ما أكثر ما يتوجب على الإنسان بصورة عامة والإنسان الشيوعي بصورة خاصة أن يتحديا "بربرية الراحة"(٩).

إن معاداة المثقفين لأمريكا تظهر علنًا إذن بوصفها إنسانية، وذلك بقدر من الإلحاح والتقلب؛ لأنه من الإنسان حسب جورج دوهاميل أو جورج برنانو إلى الإنسان حسب روجيه فايان أو روجيه جارودي، أليس هناك سوء تفاهم؟ إن الإنسان المسكون بالإله حسب الشخصانيين ماريتان Maritain ومونييه Mounier يتقيأ إنسان الإنسانية العلمانية وفردانيته ولا أدريته. والإنسان الجديد، المجدد، الإنسان "كامل الإنسانية" الخاص بالاشتراكية الحقيقية يعيد الاثنين السابقين إلى ظلماتهما الماضوية. إن الاستناد الكثيف إلى الإنسان من قبل مختلف ضروب النزعات المعادية لأمريكا الفرنسية تثير تساؤلين. كيف، وعبر أي تصورات، وبناء على أي ضروب من التعليل وصلت أمريكا فيما بين الحربين إلى أن تجسد أسوأ تهديد للإنسان في نظر الجزء

الأعظم من الإنتلجنسيا الفرنسية؟ ومن جهة أخرى، كيف استطاعت هذه الخطابات المعادية التي قيلت باسم شخصيات متناقضة بل ومتخاصمة للإنسانية أن تتقارب بل وأن تنصهر في عريضة اتهام وحيدة ألقيت كما لو أنها تلقى بصوت واحد من قبل مثقفين كل شيء يفصل بينهم؟

عن البشر الآليين وعن البشر

يكتب مونييه في عام ١٩٣٦: "سيسمي التاريخ دون شك معاداة الرأسمالية بوصفها أكثر الأفكار العامة المبتذلة ثراء في سنوات ١٩٣٠"(١٠)، لكن فكرة عامة أخرى (مجاورة لها) يمكن أن تتغلب عليها: معاداة الآلية antimachinisme. وعلى نحو أشد وضوحًا بكثير من معاداة الرأسمالية التي تنتشر بوجه خاص على الحدود القصوى للطيف السياسي وفي "المجلات الشابة" التي يفكر بها مونييه، بات الخوف من الآلية آنئذ الهوى الفرنسي الأفضل اقتسامًا. كل الإنتلجنسيا وقعت تحت تأثيره. خائفون من الآلية الإنسانويون على طريقة دوهاميل الذي يروعه الشيء "المصنوع بالآلات دون روح من أجل جمهور غادرته الروح فيما يبدو أيضًا"(١١). خائفون من الآلية، المسيحيون مثل برنانو رافعًا المسيح على الصليب ضد عفن المسرات الحديثة أو مثل بول كلوديل منددًا بـ"الأصنام لا المصنوعة من الحجر والخشب فحسب، بل كذلك من الحديد والكهرباء التي لها آذان، والتي لا تسمع (الهاتف)"(١٢). خائفون من الآلية، أنصار العمل الفرنسي، وكذلك أيضًا الشباب الموراسيون الجدد الذين على تمردهم يبقون قادرين على التشهير بعبادة "المكتسبات الآلية" التي تحل محل "المعجزات" في أمريكا(١٣). خائفون من الآلية، اللا امتثاليون من النظام الجديد، بدءا بآرون ودانديو اللذين عرفا كتابهما اللهوب *السرطان الأمريكي* بوصفه "خطابًا ضد التقنية"(١٤). خائفون من الآلية أيضًا، وإن كانوا انتقائيين، الماركسيون لمثل فريدمان الذي يميز تحليله "العمل المفتت" بين الآلات الجيدة (تلك التي تشارك في اقتصاد مشبع) والآلات الأخرى كلها. خائفون من الآلية أخيرًا الهيدجريون الفرنسيون الذين سيتابعون بعد الحرب عمل الإنسانويين المتعبين ليفصلوا فلسفيًا حذرًا متصلاً من الآلية ومن البلد الذي يجسد "الحضارة". ستحتفظ سيمون دو بوفوار على نحو دقيق بذكرى يوم من ديسمبر ١٩٣٩ حين شرح لها سارتر وهو جالس على مقعد حجري في سيسترون وجهة نظر هيدجر في كيف أن "العالم يتكشف في أفق الأدوات الفاسدة"(١٥). بعد عشر سنوات من ذلك ستجد هذه الصيغة التي أذهلتها موقعها في كتابها *أمريكا يومًا بعد يوم*: "يقول هيدجر إن العالم يتكشف في أفق الأدوات الفاسدة، وهنا الآلات لا تفسد"(١٦). وبقدر ما يتعلق الأمر

بـ"عالم" الأمريكيين بقدر ما يتعلق بالإنسان: فمن برنانو الذي يدعم كتابه *فرنسا ضد البشر الآليين* فيما بعد الحرب معاداة الحداثة الخاصة بسنوات ١٩٣٠، إلى سيمون دو بوفوار وإلى كل الذين يجدون لدى هيدجر وحيًا جديدًا معاديًا للتقنية، لقد تمّ تأمين البديل.

لا تعود مطابقة أمريكا بالآلية إلى تايلور ولا إلى فورد. إنها تعود إلى بودلير. إننا نذكر جملته التنبؤية: "لقد أمركنا الميكانيك إلى درجة..." وتؤكد ملاحظة في يوميات الأخوين جونكور، بنبرة لا تكاد تقل في رهبتها على الصلة التي تقوم منذ القرن التاسع عشر لدى أهل الأدب الفرنسيين بين أمريكا التقنية ونهاية كل شيء: "وصل صديق من أمريكا، وأعلن لنا خبرًا لا نجرؤ على تصديقه، وستكون نهاية كل شيء، المغاسل معلقة على الجدران، الماء الجاري بوصفه نهاية الحضارة: ما كان ذلك ليخطر في بال بودلير؛ لكن ما يثير الدهشة أكثر من هلع الأخوين جونكور هو الصادقة التي يمنحها لهما كوكتو في وسط القرن العشرين: "للوهلة الأولى، تحمل مثل هذه الملاحظة على الضحك، ثم نأخذ في التفكير بذلك، ونبدأ في الخشية من ألا تكون بعض مصائبنا قد جاءت من هنا"[١٧].

ومع ذلك فإن النبوءة المعادية للحداثة لـ"صواريخ" لم تنجح في البداية، وعرف معظم الفرنسيين أن يسيطروا على هلعهم أمام المغسلة الثابتة. لقد انتظر نصف القرن الذي سبق الحرب العالمية الأولى الكثير من الآلة، لكن الآلة هي التي تأخرت في إنجاز وعودها: تخفيض زمن العمل والجهد الإنساني. أما بالنسبة لقدراتها على مضاعفة الأدوات المفيدة فقد أخفقت فجأة في أوروبا بفعاليتها التدميرية الرهيبة من خلال الدبابات والرشاشات والقنابل. إن منجزات الآلية التدميرية في ميدان القتال خلال سنوات ١٩١٤ - ١٩١٨ أعدت التغير المعادي للأمركة في سنوات ١٩٢٠.

وبعد أن كانت رمز الآلية الحديثة المذهل فإن سلسلة التركيب chaîne de montage التي لوحظت في فرنسا بانتباه أولاً تجد نفسها فجأة في عام ١٩٢٧ في مركز كل ضروب النقد الموجهة للأمركة[١٨]. ويقدم المؤرخ الذي قام بملاحظتها فرضية: هناك تداخل وثيق في نهاية الحرب العالمية الأولى بين الأوساط الدبلوماسية المشاركة في الحلف الأمريكي (جول جوسران، أندريه تارديو) والأوساط التجارية العليا التي افتتنت بمناهج الإنتاج الأمريكية (شارل سيستن، إميل شرايبر - صاحب صحيفة Echos ووالد جان جاك سرفان شرايبر، فيكتور كامبون، جان كونتار). إن الغضب الذي استثارته في فرنسا السياسة الخارجية للولايات المتحدة في أعقاب الحرب قد انعكست

على هذا النحو على المبتكرات الصناعية التى تبجلها حلقة وثيقة الصلة بالمصالح الأمريكية[١٩]، ولكن هل كان فرنسيو سنوات ١٩٢٠ والمثقفون بوجه خاص بحاجة لكل ذلك ليشتركوا فى حملة صليبية ضد الآلية؟ بوسعنا الشك فى ذلك، لكثرة ما ألفوا الموقف المشبع بالكبرياء والتواضع المصطنع الذى تبناه أيضًا كوكتو فى عام ١٩٤٩ فى مواجهة ضيوفه الأمريكيين: "أنا رجل الفناء القديم الفرنسى، أنا الحرفى الذى يصنع أشياءه بيديه ويحملها تحت ذراعه فى مدينتكم[٢٠]..." تزداد عنوبة هذه اللوحة الذاتية لا سيما وأنها مستخلصة من رسالة إلى الأمريكيين حررت فى الطائرة فوق الأطلسى ومؤرخة بصورة تقنية أنيقة : "باريس - نيويورك (إير فرانس)، ١٢ - ١٣ يناير ١٩٤٩"...

يعود رد الفعل المعادى للآلية الذى ساد فيما بين الحربين فى آن واحد إلى قلق عامّ - يشهد عليه فى ألمانيا فيلم ***متروبوليس*** ***Metropolis*** لفريتز لانج **Fritz Lang** (١٩٢٦) أو فى الولايات المتحدة ذاتها ***الأزمنة الحديثة*** ***Modern Times*** لشارلى شابلين (١٩٣٦) - والخوف من الآلة الخاصة بالمثقفين كعصبة. وفى هذا الميدان لا يضير المثقفين أن يجسّدوا حنينًا قوميًا، ويعكس ظرف كوكتو فى لوحته الذاتية كَحِرَفِىٍّ "مثلاً أعلى" هو المثل الأعلى لفرنسا بأجمعها. يكتب سيجفريد فى عام ١٩٢٧: لا يزال "المثل الأعلى لكل فرنسى يتمثل فى الصناعات اليدوية، وهو شكل عفا عليه الزمن من الإنتاج [...]، مرتبط فى فكرنا بفكرة الحضارة نفسها"[٢١]، وهذا المثل الأعلى الذى "لا يلائم الصناعة الغزيرة" مُدان على المدى القصير من قبل الأمركة الشاملة.

فى هذه القضية الفرنسية حول الآلية، يؤلف كتاب ***مشاهد من الحياة القادمة*** مرافعة اتهام عامة، ويُصَفَّقُ لها بصورة عامة، لكنها مع ذلك ليست القضية الأفضل بناء ولا الأصلب حججًا. كان موريس بلانشو يحدد منذ ١٩٣٢ بصورة ساخرة حدودها: "باعتباره عدوًا شخصيًا للآلة، فإنه [دوهاميل] يخصها بكل سهامه المخيفة"؛ ففى نظره، "ليس هناك آلة، ولا محرك، ولا مسمار لا يمكن أن يكون مذنبًا بقدر ما"، لكن مثل هذه الكراهية "تضفى على الوثن قوة خارقة"[٢٢]. يأخذ بلانشو لكى ينتهى على هذا الإنسانوى المعروف أنه كتب كتابًا ضد أمريكا "لا يتطرق إلا قليلاً جداً للإنسان". وبوسعنا أن نضيف أنه لا يتطرق إلا قليلاً جداً للآلية: لم يكن دوهاميل يهتم أبداً بالتنظيم الجديد للعمل؛ فالآلة بالنسبة له هى لعنة مجردة، ثم إنها الآلات المكرسة للاستهلاك لا الآلات المكرسة للإنتاج ما يصف: السيارة، المصعد الكهربائى، السينما - أوثان الكسل والاسترقاق، ويكشف نقده لتوحيد النمط بوجه خاص كبت المتعى المهدد بالافتقار الكيفى للعالم، القلق على "الخمسين ضربًا من البرقوق المختلفة" وبالطبع من

أجل "أكثر من مائة نوع من الجبن" صنعت فرنسا(٢٣). لكلٍّ "إلهه الكريه"... كان لوتى فى نهاية القرن التاسع عشر يشهر بإله الأمريكيين: الآلة التى تبصق الفحم الحجرى والناضحة بالنفط. ويحتج دوهاميل على إثره ضد الآلات التى صارت كلية الحضور، والتى تفرض فى كل مكان فى أمريكا صخبها وشناعتها. النفور هو ذاته من لوتى إلى دوهاميل، ولم يحقق تحليل الآلية أى تقدم. وجهة النظر هى التى انتقلت فحسب؛ فما يهم دوهاميل هو أن يبين اجتياح الحياة اليومية من قبل آليات لا تحصى ولا تفيد. وإن جدد، فمن خلال انزلاقه فى جلد "المستهلك" على الرغم منه، الإنسان الشريف المصطاد فى عرض الشارع من قبل حضارة سيئة الأخلاق.

لكن الرفض العميق والتهذيبى الذى يواجِهُ به كلَّ ما يحيط به يجعله لا يرى آخر منجزات "النظام" فى الإتقان. وعلى أنه قارئ لسيجفريد، إلا أنه لم يفهم الدرس، مع أن سيجفريد قد شرح منذ ١٩٢٧ أن الثورة الصناعية الجديدة القائمة فى الولايات المتحدة لا تقوم فحسب ولا حتى أساسًا فى تعدد وإتقان الآلات، بل فى "فلسفة جديدة للإنتاج". فاتت هذه الجدة دوهاميل، لم تتجاوز إدانته للآلة ما سماه جورج فريدمان Georges Friedmann فى اللحظة ذاتها "اللعنات العاطفية للمثقفين العائدين من أمريكا"(٢٤). ويبقى إنكاره أخلاقيًا بصورة عميقة وأخلاقه أخلاق الجهد: "يوجد الإنسان دومًا حيث يتطلب الجهد الرهيب والقاتل إنسانًا ولا شيء آخر(٢٥)". وسيكون هناك على الدوام عرق وعذاب بل ودماء، كما يستنكر دوهاميل، لا تستطيع الآلية شيئًا ضد ذلك، والذين يزعمون العكس هم مشعوذون. ولو استطاعت لصارت أكثر "لا إنسانية" أيضًا؛ لأن الجهد هو الفحل ـ الإنسان، ولا يسعنا إلغاءه دون أضرار تحيق بالإنسانية: "كما لو أن الجهد لم يكن مقياس الكائن نفسه(٢٦)!" لا يبدو أن دوهاميل ينتبه إلى أنه يضعف بالقدر ذاته أطروحته الأساسية: القدرة الكلية للآلة. (فى مكان آخر وبصورة متناقضة يأخذ على سيجفريد اعتقاده أن لتعميم الآلة حدوده، وأننا "سننتظر زمنًا طويلاً أيضًا الآلة التى ستقطف الفراولة": "آلة لقطف الفراولة؟ لا تدفعونهم أبدًا فى هذه المجال: إنهم سوف يخترعونها يا للسماء(٢٧)!") وكمتنبئ متردد، لم يعد يعرف أحيانًا إن كان عليه أن يعلن نهاية الإنسان وقد حلت الآلة محله، أو ضياع إنسانية الإنسان، وقد ألغيت فى الوقت نفسه الذى ألغى فيه الجهد.

ولا يسعنا قراءة ثنائه على الجهد "القاتل" للعامل دون انزعاج، لكن سلفيّته وأمله الزاجر اللذين يدعمان حماسته المعادية للآلية، لا يسعهما بدلاً من الإساءة لنجاحه، إلا أن تسهما فيه. إن نزعة معاداة أمريكا فى سنوات ١٩٣٠ تتعاظم طوعًا فى ضرب من

لحن مخزن مهان: كيف يسعهم أن يفعلوا لنا ذلك - لنا وللإنسان؟ إن النفاق الذي يرشح من دفاعه عن عذاب "البشر ليس خاصًا بدوهاميل؛ ففي مواجهة أمريكا الرفاهية المخزية والمتع المادية الدنيا، يقدم دوهاميل الرواية "الإنساناوية" لخطاب ندمي يجهر به كلاً من مكانه المسيحيون والشيوعيون؛ فالقرابات بين الذين يعتقدون أن "مصيبة الإنسان هي روعة الكون"، والذين يرون أن طريق المستقبل المشرق مبلط بـ "أجيال مضحى بها"، والذي يجعل من المهمة المنهكة "مقياس الكائن ذاته"، أكثر عمقًا مما يظنه المعنيون بالأمر أنفسهم، وليست هذه المرة الأولى التي تُظهِرُ فيها أمريكا - الوسيطة هذه الضروب من التواطؤ المقلقة. إذا كان دوهاميل يتقيئ فبالأحرى بفعل وعيه الطبيب الرائع. يُقال لنا إن الآلة ستخفف من أكثر الجهود ألمًا، كما يتساءل بحذر؛ ولكن "ما الذي نسميه جهدًا أليمًا؟" على وجه الدقة. جوابه جاهز: إنه الجهد الأخير "لصحفي منهك" يعتبر "القلم أشد ثقلاً من أكثر المعاول ثقلاً". كذلك الطبيب المناوب المستيقظ بصعوبة، والذي يرى أن "معطفه يبدو أيضًا أشد ثقلاً من سلة كاملة من الفحم الحجري". لنذكر أن جورج دوهاميل كان طبيبًا قبل أن يصير أديبًا.

دوهاميل، كوكتو: حزفيان بطوليان، شهيدا العمل الذهني؛ على الأقل كوكتو يلتهم نقشه بلا أخلاقية ممتعة حنين يأسف دون حياء على "اليد العاملة التي لا تحصى واللطيفة" التي كانت تخفف قديمًا من الهموم اليومية للكاتب: "قديمًا كانوا يحملون الماء لنا والضوء والطعام، لم يكن علينا أن نغير مكاننا. كنا أحرارًا في ألا نغادر مقعدنا وكتابنا(٢٨)". إن "خشونته" المقصودة تذكرنا به بدراية؛ فوراء الكثير من نحيب الإنتلجنسيا الفرنسية المعادي للآلات، هناك أيضًا الحنين، الصريح غالبًا، للفردوس الضائع للخدمة المنزلية، للعصر الذهبي حيث كانت المغاسل الحرة في حركتها تأتي إليك محمولة من أيد خادمة. "اختفت اليد العاملة"، كما يقر كوكتو. "حل محلها الميكانيك" وإلى وجوه الإنسان المهددة حسب مثقفينا بأمركة الحياة، يجب أن نضيف بكل إخلاص الفراش والفراشة...

"فلسفة الإنتاج الأمريكي"

لكن دوهاميل هنا هو الشجرة التي تخفي وراءها الغابة؛ لأن هناك بين قبل وبعد حرب ١٩١٤ تحولاً عميقًا للخطاب الفرنسي المعادي لأمريكا بوصفها إمبراطورية التقنية. تشهد على ذلك المفردات ذاتها؛ فاعتبارًا من سنوات ١٩٢٠، تضاعفت قضية الآلة باتهام أوسع يستهدف عقدة تقنية اجتماعية ثقافية تؤلف الولايات المتحدة مختبرها

ونموذجها، يقال من الآن فصاعداً: "منهج أمريكى" "نظام أمريكى" أو أيضاً (لدى أندريه سيجفريد) "فلسفة الإنتاج الأمريكى"(٢٩). لقد كفت آلة أمريكا عن أن تكون مجرد وثن، والآلية عبادته المعزولة، صارت عبادة الأوثان ديناً، ديناً اجتماعياً وحتى دين دولة. تبدو الولايات المتحدة من الآن فصاعداً للمراقبين الفرنسيين كما لو أنها تتمتع بمجموعة من المذاهب، والعقائد العلمية والممارسات الاجتماعية مؤلفة كلية من حول القطب المزدوج تقنية/رأسمالية.

من جهة، اكتسب الفرنسيون، في الحقيقة، القناعة بأن الولايات المتحدة والرأسمالية ليستا إلا واحداً. وعلى أنها تبدو لنا مبتذلة فإن هذه المطابقة جديدة، إنها لا تفرض نفسها إلا في سنوات ١٩٢٠ حين كففنا عن الاعتقاد بإمكانية تحول ثوري للولايات المتحدة. لم تشق التروستات طرق الاشتراكية، وبدت الرأسمالية اليانكية أشد صلابة من أي وقت مضى، بل أفضل من ذلك، كما يشير جوفنيل في عام ١٩٣٣: لم يسبق فى تاريخ البشرية أن تمّ اتحاد أكثر كمالاً بين مؤسسة ومجتمع: "لم يسبق لأى مؤسسة من قبل أن كانت أكثر ملازمة للمجتمع مما هى عليه المؤسسة الرأسمالية بالنسبة للمجتمع الأمريكي، وكنتيجة طبيعية لم يسبق لأى مجتمع أبداً أن تجدد من قبل مؤسسة(٣٠)". تغير كبير بالعلاقة مع فترة ما قبل الحرب التى كانت تتساءل حول الانقلاب الاجتماعي للنظام، تغير حاسم لمستقبل الصور الأمريكية.

ومن جهة أخرى، وفى اللحظة نفسها، كفت الآلية عن أن ترى بوصفها تطوراً مادياً فرضته متطلبات التنافس فحسب؛ فهى تبدو من الآن فصاعداً كواحد فقط من دواليب آلة اجتماعية منظمة من حولها، لكنها تتجاوزها. فى هذا "النظام" كل شئ متضامن: الفرضيات الأيديولوجية والأخلاقية، تقنيات الإنتاج، ضوابط العمل والنظافة والحياة، العلاقات الإنسانية، عادات الاستهلاك. إن النهج الأمريكى فى الحياة هو هذا الكل، الذى يتعذر الكلام عنه دون صيغة تحصيل الحاصل هذه.

إن الفصل الذى كرسه أندريه سيجفريد للإنتاج الصناعى فى الولايات المتحدة اليوم يبنى لدى جمهور واسع هذه الرؤية الجديدة للولايات المتحدة؛ فلوحته المرسومة بريشة متحفظة تكاد تكون أكثر إدهاشاً؛ فقبل ست سنوات من أزمة الرأسمالية الأمريكية لبرتران دو جوفنيل، وبنبرات لاذعة أكثر، يرسم سيجفريد بهدوء الصورة الافتراضية لمجتمع مقيد بمنطق شامل. إن الثراء الفاحش للولايات المتحدة لا يجب أن يخفى ظاهرة أشد عمقاً: تكون نظام يجعل من "تنظيم الإنتاج" و"تعميم وحدة النمط"،

وصنع الاستهلاك بواسطة الدعاية، و"الاستخدام المنهجي للموظفين" ("التايلورية")، وروائز الاستعداد، واللجوء الدائم للتوقعات الإحصائية، وتعاون الدولة مع إمبراطوريات الإنتاج (لتوحيد المعايير مثلاً) لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر؛ كل ذلك متوج بأيديولوجية "الخدمة"(*)؛ ذلك هو حسب النسق ذاته الذي يعرض بموجبه سيجفريد، مفصَلُ nexus أمريكا الجديدة. في مثل هذا المجتمع، لا وجود هناك لأي حل استمرارية بين الصناعي والسياسي والاجتماعي. أما بالنسبة للتمييز بين الفردي والجماعي، إذا كان الأمريكيون لا يزالون يؤمنون به، فلأنهم مخدوعون بخيالهم الاجتماعي. "إن الأمريكي الذي يظن نفسه طواعية صعب الترويض كجواد برى [...] هو في الواقع أكثر الناس وداعة في العالم"، كما يشرح سيجفريد(٢١). إنه "عجينة مطواعة"، ويستسلم دون تردد لـ"تربيته" الذاتية، أي إلى تأثير أنواقه وعاداته الحميمة. بالطبيعة والثقافة "المشابهة واحدتهما للأخرى"، مائة مليون من الأمريكيين لا يزالون يتركون أنفسهم يصقلون حسب الشخصية التي يرغبها كبار كهنة السلعة: "العلماء، والاقتصاديون، وعلماء النفس" في خدمة الاستهلاك.

إن التلاعب بالحاجات وتغيير الفرد إلى مستهلك هما في قلب كل التعليقات؛ فدوهاميل القليل الانتباه لتطور الهندسة الشاملة الإنسانية، يذهل مع ذلك من "الفتنة" الدعائية التي يستشعرها كما لو أنها نيلاً من كرامته: إنها "شتيمة" دائمة يوجهها إلى الإنسان "هؤلاء المهربون الوقحون الذين يزعمون إرغام قبولنا". إلى الإنسان، نعم! ليس إلى البشر فحسب، إلى"الناس البسطاء" الذين يدمرونهم. إلى الإنسان الذي يعامل من قبل الدعاية "كأكثر الحيوانات الدنيا بلادة"، إلى الإنسان المضايق، المسلوب، ولكن المخفض إلى مقام "رخويات حضرية"، إلى هذا الإنسان الخائر بفعل أمريكا، والذي ليس هو "كما يقول أونامونو" "أقل من إنسان بأكمله"(٢٢). (ميجيل أونامونو، المعادي للنفعية بامتياز، لكنه أيضاً المعادي للعقلانية في الشعور المأساوي للحياة، هو حليف ذو دلالة للإنسانوية المعادية لأمريكا)، ومع هموم مختلفة تمام الاختلاف عن هموم دوهاميل، يعالج برتران دو جوفنيل هو أيضاً التلاعب بالحاجات باعتباره ابتكاراً حاسماً، ويلاحظ أنه قد غير مفردات الأمريكيين: "فالمدراء [الصناعيون] بذلوا أكبر الجهود لإيقاظ هذه الحاجات. ويلغ من استمرار هذا الهمّ لديهم أنه أثرى اللغة بكلمات

(*) الخدمة Service: مفهوم أمريكي جدا كان سائداً في سنوات ١٩٢٠ يعني جعل العمال يتحملون المسئولية وتبرير الرأسمالية من خلال تقديم مجموع العمليات الاقتصادية بوصفها خدمات منجزة للمجتمع مع خلفية دينية بالطبع. سيرد هذا المفهوم في الفصول التالية.

جديدة، عادة السيجارة، عادة السينما، عادة السيارة، عادة الراديو، عادة الثلاجة، وانصب الجهد على منح المستهلك مجموعة من العادات تضمن سوقًا يتسع بالتدريج للمنتجات الحديثة[٣٣]". كان دوهاميل قبل عدد من السنوات لا يزال يضع حول لفظة "المستهلك" الأقواس الصغيرة المشمئزة، أما جوفنيل فلم يشعر بالحاجة لذلك. لقد فرضت الآلة إيقاعها الشيطاني على المكتسبات اللفظية ذاتها.

مطعن ثان ونيل آخر من الشخصية: توحيد النمط الذي استرعى عدد من المؤلفين الفرنسيين إليه انتباه الجمهور[٣٤]؛ فتوحيد نمط الأشياء الذي أرادته العقلانية الاقتصادية لا يمكن إلا أن يؤدى على المدى القصير إلى توحيد نمط الكائنات. يكتب منذ عام ١٩٢٧ لوسيان روميبه فى كتابه ***من سيكون السيد، أوروبا أو أمريكا؟***[٣٥]: "فى بلاد كالولايات المتحدة التى يسود فيها نمط الشكل الواحد، الستاندار، لم تعد المقاومة تجد أى ملجأ فى الأذواق الفردية"، ويلاحظ مراقب اشتراكى معتدل عمومًا مثل فرانسوا دروجون وجود "تجنيد" للحياة بواسطة توحيد الأنماط أقوى مما يمكن لنا تصوره عن الجماعية السوفيتية: "لا يمكن أن يكون فى نظر الكثير منا وطن الامتثالية، والرتابة، والتجنيد إلا الوطن الذى يتبنى المذاهب الجماعية، أى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. [...] وعلى العكس، فإن على بلد ديمقراطى على الصعيد السياسى كالولايات المتحدة أن يقدم بالطبع المظهر المستحب فى التنوع. لا شيء أكثر زيفًا! إن مصانع الطعام، والدكاكين الموحدة النمط، والوجبات الموحدة النمط، واللحوم المثلجة الموحدة النمط، والبارات الموحدة النمط، وخدم المقاهى الموحدى النمط ليسوا فى الاتحاد السوفيتى بل فى الولايات المتحدة"، ويستخلص هذا القانون فى التطور التاريخى: "إن الحياة الموحدة النمط هى نتاج ثانوى للمستوى الأعلى من الرأسمالية لا للاشتراكية[٣٦]". كل المدن الصغيرة فى أمريكا تبدو فى نظر دروجون "كفروع للشركة الأم، وهى مخيبة بقدر ما هى مخيبة الفروع التى لا تحصى لمتاجر وولورث **Woolworth** التى تنتشر على مجمل الأراضى الأمريكية"[٣٧]. كيف يمكن للبشر أن يفلتوا من هذه التسوية؟ بهذا المعنى كما يقترح سيجفريد، تصوغ "فلسفة الإنتاج الأمريكى" بصورة حتمية ضربًا من "فلسفة" الوجود، تلك التى يصفها سنكلير لويس: "إن ابن أركنساس يلبس ذات الطقم الجاهز الذى يلبسه ابن دالوير، وكلاهما يتكلمان العامية ذاتها، ومخصصان لضروب الرياضة ذاتها. إذا درس أحدهما فى جامعة، وإذا كان الآخر حلاقًا، فلن يستطيع أحد أن يميز بينهما، فهما قابلين للتبادل." إن الاهتمام الذى أولاه سيجفريد لهذه السطور من ***Main Street***، خاص بالرفض الفرنسى لعدم التمييز الاجتماعى، الموضوع على نفس الصعيد (السلبى) الذى وضع عليه توحيد أنماط

المنتجات، يسخط دوهاميل: "إن الترف الرفيع في نظر امرأة من بلدي هو أن تضع قبعة تكون الفريدة من نوعها في كل مدينة باريس"(٢٨). لكن الضيق الفرنسي في مواجهة تجانس الملابس الأمريكية يتجاوز هذا التعلق بـ"التميز" الشخصي: إنه يترجم أيضاً انزعاجاً أمام اختفاء العلامات الخارجية التي تسمح بتعرف المهن والمستويات. ومن خلال لويس كوسيط يديم سيجفريد تضايق أوروبان جوهييه في بداية القرن أمام العمال الأمريكيين الذين يرتدون ملابس البورجوازيين. في هذا المجال أيضاً سيكون الاتفاق كاملاً خلال نصف قرن بين الحنين البورجوازي إلى عالم محدد بوضوح والهم البروليتاري في الحفاظ على هوية العمال بما في ذلك المتعلقة بالثياب، بالدفاع عن المخمل المضلع ضد غزو الجينز، كما سيفعل الشيوعيون عند التحرير. ولسوف يحكم الفرنسيون، المحافظون منهم والتقدميون معاً، ولزمن طويل على هذا اللا تمييز في المظهر الذي يُعاش في أمريكا باعتباره مظهر وأداة للمساواة الديمقراطية، بوصفه غير مرغوب فيه بل ومشبوه.

إن إعلان وحدة النمط الذي يبين أن "الحضارة الأمريكية" تطلقه، يغذي بصورة قوية على كل حال نزعة معاداة أمريكا في "الاختلاف" الذي يُطالب به من أجل الأفراد، وكذلك أيضاً من أجل الجماعات الاجتماعية. أولئك الذين لا يريدون "الخيانة" وأولئك الذين لا يريدون "الاختلاط" يتفقون على رفض النموذج الأمريكي: يعترف بذلك أندريه سيجفريد مع تأنيب ضمير مزيف: إن الفرنسي ليس "قابلاً للتبادل": إن عيبه هو شخصيته، "وهذه الشخصية هي من وجهة نظر اقتصادية عائق، ومن الأفضل أن يذوب في القالب المشترك". ولكن هل على الاقتصاد، هذه العقلانية الأمريكية الأخيرة *ultima ratio americana*، أن يملي علينا قانونه؟ لا يعتقد سيجفريد بالطبع، بذلك أكثر من دوهاميل وجوفنيل ولا أي من معاصريهما - بمن فيهم الاقتصاديون. يضيف سيجفريد: أن الفرنسي "هذا المتحضر يقول لنفسه بشيء من الكآبة إن الإنتاج الكبير [في أوروبا] والحضارة لا يجعلان المعنى نفسه بصورة دقيقة". لكن كل كآبته لن تحمله على أن يكفر بحضارته - أي الحضارة - من أجل طبق من العدس، وأقل من ذلك من أجل علبة من لحم البقر *corned-beef*.

الإنسان الجديد ضد الإنسان المفتت

في قضية الآلية الكبرى التي درست في فرنسا خلال فترة ما بين الحربين، كان بوسعنا أن نتوقع قيام اليسار، وبصورة خاصة اليسار الماركسي بالدفاع عن الآلة المحررة. لقد اتخذ المستقبل في مرحلة الاقتصاد السياسي الجديد NEP في الاتحاد

السوفيتي ألوان أمريكا بسهولة؛ فقد نادت وسائل الدعاية من خلال الملصقات بهذا التركيب الجدلي: "فلنأخذ سيل الثورة/ولنضف فعالية التقنية الأمريكية/ولنبن الاشتراكية"، ولكن من المباراة انتقلت روسيا السوفيتية بسرعة إلى السباق المادي ولا سيما الأيديولوجي، وتجهمت صورة الآلية الأمريكية؛ فسيشار من الآن فصاعداً إليها باعتبارها لا تحترم الإنسان، كما أن منتجاتها تافهة أو مشئومة، وتحتل فيها الصناعة الحربية المقام الأول، بل إن السرعة ذاتها التي يقدرها المستقبليون والبنائيون غيرت معناها في أمريكا؛ حيث تجر الجماهير إلى "الدورية الجهنمية" للرأسمالية: سباق سيارات قاتل، مسابقات في قوة الجلد منهكة، متابعات صاخبة للسينما الصامتة، كل ذلك يعكس السير الإجباري للصناعة، و"يربي" الجماهير الأمريكية على إيقاعات تتسارع على الدوام. لم تكن الشيوعية الفرنسية التي لم تمسها العلاقة الغزلية القصيرة بين اللينينية والفوردية (أراد فورد أن يهدي الآلات والمهندسين للإتحاد السوفيتي كي يحضره بواسطة السيارة)، بحاجة إلى تشجيع خارجي كي تكره الرأسمالية الأمريكية، إلا أنه لا مجال بالنسبة لها أن تنضم إلى نزعة معاداة أمريكا "الفريسية" الخاصة بالمثقفين البورجوازيين. إن تبرئة الآلية مع إدانة شكلها الأمريكي؛ ذلك هو الخط العام الذي اتبعه جورج فريدمان في الكتب التي بدأ بنشرها في سنوات الـ ١٩٣٠: مشكلة الآلية في الاتحاد السوفيتي وفي البلدان الرأسمالية (١٩٣٤) وأزمة التقدم: موجز لتاريخ الأفكار (١٩٣٦).

الهم الأول لفريدمان هو التميز عن "نواح - العالم بلا روح -": عن كل الذين يعتبرون "التقنية" بوصفها "مشكلة عامة وميتافيزيقية". وهذا يبدأ من دوهاميل وبرجسون مروراً بـ "محرري" المجلات الذين "يهيئون - في نظره - نظرية الوطنية الاشتراكية الفرنسية"، مثل مجلتي *Esprit* و*Ordre Nouveau*. إن اللعنة الموجهة من قبل الكثير من الأيديولوجيين إلى "الآلة" هي علامة على عجزهم وبلبلتهم". كما يحسم فريدمان الذي يجد فورد أكثر إثارة للاهتمام منهم. إن الآلة ليست كياناً ميتافيزيقياً. إنها ليست كذلك الشر مجسداً. "ليس العمل في الإنتاج الغزير في حد ذاته شكلاً بربرياً من الإنتاج". أهي إعادة اعتبار للآلية؟ مهلاً. الآلية في بلد واحد - البلد الذي يتخذ فيه "ما نسميه التقدم التقني، معنى مختلفاً"، البلد الوحيد الذي "نشعر" فيه أن الآلات "ليست عكس" العمال. وبإيجاز الآلية في الاتحاد السوفيتي. أما باقي أنحاء العالم، فهو يقدم لدى فريدمان مشهداً مألوفاً: "إن الآلات التي تكتمل كل يوم تقذف بالعمال إلى الشارع، وتلاحق كل النظام الاقتصادي، من خلال الإنتاج الغزير للسلع التي لا تستطيع الجماهير شراءها". "إنها تعرض صحة وأحياناً حياة العمال للخطر".

إنها تشوش البورجوازية ذاتها، "المتضايقة وسط هذا الانتشار لضروب التقنية التى تسحقها"(٣٩). فى أوروبا مصابة فى القلب بالأزمة العالمية القادمة من الولايات المتحدة، كان فريدمان يقنع المقتنعين.

لا يجب إذن أن ينظر إلى الآلية فى ذاتها مقطوعة عن الوقائع الاجتماعية. هناك كما يقول من الآن فصاعداً السوفيتيون آلية محررة (تلك التى تمارس فى إطار إنتاج جماعى) وآلية نهابة ومخربة (آلية الرأسمالية والمنافسة القاتلة). اليوم فوضى، وغداً حرب وفاشية، يقدمهما فريدمان من خلال طريق مختصر مثير بوصفهما جواب المثقفين البورجوازيين على ما انتظره برجسون من "فيض روح" يتوجب نفخه فى كل هذه التقنيات(٤٠).

أول نتيجة للعملية المانوية التى قسم بها فريدمان العالم إلى عالمين هو الحفاظ على صيغ معاداة الآلية اليمينية التى يزعم التميز عنها على ما هى عليه ليصف العالم الرأسمالى. وحين يتعلق الأمر بالآلية الأمريكية الضالة يستعيد دون أن يرف له جفن مفردات الذين يشهر بهم. إنه يتحدث مثل اللا امتثاليين عن "العقلانية العمياء"، ومثل دوهاميل يصف أناس المجتمع التقنى غير الاشتراكى باعتبارهم مرتعًا لـ"هاجس كل ما تلقيه التقنية عليهم"(٤١)، لكن الأثر الآخر الكبير الذى يهمنا هنا بصورة مباشرة هو تعزيز "تجريم" الولايات المتحدة. إذا كانت الآلة السوفيتية قادرة على البراءة فإن ما يجب القيام به هو الادعاء ضد أمريكا إذن لا ضد الآلة. وفى حين أن المحافظين واللا امتثاليين يطابقون الولايات المتحدة والآلية فى نفس الكراهية، يفصل فريدمان باسم المادية التاريخية بينهما، ويلقى باللوم كله على أمريكا المتشبثة بالملكية الفردية لوسائل الإنتاج.

ضمن هذه الشروط لا يمكن للثناء المجمل على فورد إلا أن ينقلب مرافعة اتهام. لا لأن فريدمان يهاجم الشخصية ذاتها ولا غرائب هذا العصامى المهووس والرعوى الذى كان تصور فى عام ١٩١٥ تخصيص سفينة للسلام لإقناع الأوروبيين بإيقاف الحرب، الذى طمح وقتًا طويلاً إلى رئاسة الولايات المتحدة، والذى أتى لتوه على شن حملة صليبية ضد بورصة نيويورك؛ كل ذلك دون أن يتوقف عن إغراق أمريكا بملايين سياراته الرخيصة. ضد فورد، لا يستعيد جورج فريدمان لعنات روبير أرون ولا دوهاميل. إنه هنا أيضًا، يميز، ويشرح. هناك فورد صاحب المشروعات الواقعى، وفورد الأخلاقى: فورد المهندس، وفورد الأيديولوجى، أظهر الأول جرأة وبصيرة، أما الثانى فهو عقل ضعيف محدود مملوء بالأحكام المسبقة. يؤمن فورد "بالأجور المرتفعة،

وبالحظر، وبالآلات الأتوماتيكية، وبالطيور وبالزهور، وبـ"الحرية"، وبالصناعة، وبأيام العمل القصيرة، وبالسيارة، وبالتقدم. إنه لا يؤمن بالبيع بالتقسيط، ولا بأصحاب المصارف، ولا بالفقر، ولا بالشيخوخة، ولا بالخمرة، ولا بالدولة، ولا بالأنانية، ولا بالإحسان، ولا باليهود، ولا بالإنتاج الزائد"[٤٢]. تلك هى "العقيدة الفوردية"، وقد أعاد فريدمان تكوينها. لا شك أنها لوحة صينية لرجل، ولكنها أكثر من ذلك لوحة "الحضارة" التى يمثلها بامتياز. يعيد فريدمان عبر هذه اللوحة لفورد رسم خريطة مألوفة: خريطة أمريكا الساذجة والحاذقة، التقدمية والفريسية، المتزمتة والمتعصبة. إنها أيديولوجية "الخدمة" المنافقة التى سخر منها موران، واستهزأ بها سيجفريد وهاجمها اللا امتثاليون[٤٣]، والتى يندد بها فريدمان بدوره بوصفها ورقة التوت الموضوعة على الواقع العارى للتلاعب بـ"الحاجات" من قبل رب العمل المحسن.

لكن فورد الآخر، المنظم الكبير للإنتاج، هل هو فعلاً أفضل من مثيله الأيديولوجى؟ إن سلسلة التركيب ليست شراً فى حد ذاته، ولا شك، لكنها تبقى لدى فورد بنية مستلبة. لا يعيش الإنسان بالخبز وحده، ولا بالإجازات: إنه يعيش بالمعنى. وهذا المعنى، لا يمنحه له "العمل المفتت". يقابل فريدمان بوضوح فعالية التآلية ذات الوجه الإنسانى ونعمها المحتملة و"المعيش" المخيب للعامل حسب نظام العمل المسلسل. إذا كان تقليص الحركات جيداً بوصفه اقتصاداً فى الجهد؛ فهو سيئ بوصفه تقييداً لمجال الوعى وجهلاً بغايات العمل. ينزع الاختصاص وإن كان فعالاً صفة الاختصاص من العامل "المجزأ"، المحروم من رؤية مجموع عملية الإنتاج. يجد فريدمان نفسه على هذا النحو شديد القرب من الخطاب "الإنسانوى" الذى كان يسخر منه. إن مذهب فورد لن يكون أبداً إلا "مذهب مهندس"، بكل ما يملكه من الحدود. ويسرى المأخذ نفسه على التايلورية، وهى التطبيق المنتظم والآلى لمبادئ لا تلائم تعقد العلاقات الاجتماعية والإنسانية كما تتكون وتتفرع فى إطار الإنتاج. يشرح فريدمان أن التايلورية، بوصفها مادة بديلة للعلموية، أكثر صعوبة على الاستعادة من الفوردية؛ لأنها أكثر احتفالاً بالأيديولوجية فى التصور الذى تفترضه عن الإنسان.

إن تحليل فريدمان مهم فى حد ذاته وللطريقة التى يعيد بموجبها توجيه نزعة معاداة أمريكا اليسارية. ويعزز تقاربه مع تحليل جرامشى من صداه بعد الحرب[٤٤]. إنه يبرئ الآلة، لكنه لا يبرئ الآلة على الطريقة الأمريكية. إنه يصون فكرة تقدم (الآلة الجيدة)، لكنه يرفض الأشكال التى تزعم أمريكا أنها عثرت لها عليها. لا يقترح فريدمان فرزاً بين المبتكرات العملية والواقعية من جهة وأيديولوجية غامضة أو بصراحة مشئومة من جهة أخرى. إنه يبين فى قلب "النظام الأمريكى" ثغرة هواء وأفكار. بين

مبتكرات المهندس وعقيدته العسيرة على الهضم: لا شيء. وهذا الفراغ يشير إلى مكان البشر ـ المخفى مرة أخرى من قبل أمريكا. إن الاهتمام بالإنسان المعلن فى الولايات المتحدة من قبل فورد ونساخيه لا يمكن أن يكون إلا خدعة: بديلاً للإنسانوية، سلعة أيديولوجية مغشوشة. وبطرق مختلفة تمام الاختلاف، تنضم الماركسية بذلك إلى كورس المتهمين الذى انتشر على اليمين باسم الإنسان، لا سيما وأن حكم فريدمان على فورد وتايلور و"مذهبهما كمهندسين" يمدد ويضخم تقليداً فى معاداة أمريكا يُقابِل بـ"العالِم" الأوروبى الذى لا يبدو أى شيء إنسانى غريبًا عليه، ضيق أفق التقنى أو المهندس الأمريكى مثل الإديسون ـ هاتيزون الذى صوره جوستاف لوروج على نحو كاريكاتيرى. تقليد حى يشهد عليه هذا المقطع من السرطان الأمريكى؛ حيث يعرف أرون ودانديو الحضارة الأمريكية بوصفها "حضارة التقنيين، حيث العالم أداة كالآخرين، وعلى الأكثر آلة ـ أداة"(٤٥). كما نرى يمكن لأيديولوجيى النظام الجديد على الرغم من كل شيء التفاهم مع علم الاجتماع الماركسى، ضد الآلة الأمريكية.

"التكنوقراطية" وآلات التصويت

وبانتظار ذلك، كيف نسمى هذا الترتيب الجديد؟ أى كلمة نختار أو نبتكر لنسمى مثل هذا الجهاز الذى تدير فيه التقنية كل مظاهر الاجتماعى؟ الصعوبة حقيقية. إنها تفسر جزئيًا تكاثر المجازات، وكلها سقيمة. يستخدم آرون ودانديو ويسرفان فى استخدام مجاز السرطان. فى حين أن دوهاميل، رجل الفن، لا يكف عن نداء الالتهابات والبكتيريا المساعدة. أما برنانو الذى وصل بعد التحرير إلى حقل معد ممتلئ أساسًا فسيلقى على نحو غريب خياره على مرض السكرى، محتجًا بأن الحضارة الأمريكية "لا تستحق حتى اسم الحضارة المضادة، وأنها مرض الحضارة العام" (وهو ما كانت عليه أطروحة آرون ودانديو)، ويتابع برنانو: "سيكون من العبث رفض اسم الحضارة لها. فالطبيب لا يرفض اسم الكبد لكبد مريض بالسكرى(٤٦)". و"ليس هذا خطئى" كما يختم برنانو فى نهاية مماثلة ثقيلة بين أمريكا و"مرض وظيفى"، لا، ليس خطئى "إذا أريد إعطاء هذا السكرى الميكانيكى اسم الحضارة ذاته، أى ذات الاسم لما هو بصدد تدميره".

هناك محاولة تمت فى عام ١٩٣٣ للخروج من هذا الاضطراب الدلالى منيرة بفشلها ذاته. إنها محاولة راؤول دو روسى دو سال وهو يقدم للجمهور الفرنسى التكنوقراطية(٤٧)؛ لأنه إذا نجحت الكلمة المستحدثة فإن جهد صاحبها لربطها بـ"النظام الأمريكى" قد فشل. تبدو الكلمة خاصة، وقد استعيرت من المعنيّين أنفسهم

وهم أشد حكمة بالنسبة للخطابات المحمومة التى يقولها الفرنسيون حول أمريكا، أضيق وأكثر "تقنية" على وجه الدقة من أن تغطى جميع مظاهر شرٍّ أمريكى راكم عليه المعلقون الفرنسيون المبالغات المفجعة. اصطدم الاقتراح غير المثمر لدو روسى دو سال برؤية "للنظام" الأمريكى أشمل من أن لا تشعر بالضيق ضمن هذا التعريف. والفائدة الأخرى من مقاله الذى نشر فى مجلة *باريس*: "حركة جديدة قادمة من الولايات المتحدة: التكنوقراطية"، تتمثل فى المناداة، فى وجه "التكنوقراطية" على النحو الذى تتكون فيه كأيديولوجية للآلية فى وسط ليبرالى، إلى التأكيد على أولوية السياسى.

يحدد روسى دو سال، وهوعميد المراسلين الصحفيين الأجانب فى الولايات المتحدة، أن الأمريكيين أبعد من أن يتفقوا على تعريف وحيد للتكنوقراطية، وهو نفسه يقترح أصلين: من جهة اليوتوبيا التقنية للمهندس وليام هـ. سميث، التى يعرفها بوصفها "نظام فلسفة وحكومة ستكون بموجبها المصادر الصناعية للأمة منظمة ومراقبة من قبل التقنيين من أجل مصلحة الجماعة"؛ ومن جهة أخرى، التجميع المنهجى للمعطيات الرقمية والإحصاءات الاقتصادية الذى تم منذ ١٩٢٠ فى جامعة كولومبيا تحت رعاية مهندس آخر، هوارد سكوت. هذا التقدير بالأرقام الذى يتناول بوجه خاص الطاقة المتاحة حسب الأماكن والحقب، يبين أن فرقًا هائلاً قد تعمق خلال ثلاثين سنة بين الاستعداد الطاقى لمجتمع تقليدى والاستعداد الطاقى لمجتمع صناعى. إن عنفةً حديثة ذات قوة ٣٠٠٠٠٠ حصان تعمل أربعًا وعشرين ساعة يوميًا "تساوى" ٩ مليون مرة القوة التى ينشرها "المحرك الإنسانى [...] وبالنتيجة تكفى أربع عنفات مشابهة لتقدم قوة تساوى قوة العمال جميعًا فى الولايات المتحدة"، لكن هذه التقوية الإعجازية لوسائل الطاقة التى كان يمكن لها أن تذهل الجيل السابق صارت فى عام ١٩٣٣ حين كانت الأزمة العالمية قد بلغت مداها الأقصى مصدر قلق لا تعظيم. ويعلق روسى دو سال إنه إذا كانت أرقام التكنوقراطيين صحيحة افتراضًا فإن معناها الاجتماعى كارثى؛ فهذه الحسابات تعلن للبشر عدم صلاحيتهم النهائية: "لن نكون بحاجة إليهم"، هذا إلا إلى "أقلية صغيرة تتناقص باستمرار من المهندسين والعمال المختصين". كان لوك دورتين قد أعطى فى "مبنى سميث" عنوان هذه الندرة فى الرجال فى "النظام الأمريكى": "تحت رقابة بعض نوادر العمال تعمل، هذا هو النظام الأمريكى، عصبة من

(*) على طريقة بيروس Pyrrhus، وهو ملك إيبير، كان قد حقق النصر على الرومان، لكنه خسر كل جيشه تقريبًا. ومن هنا المثل: نصر على طريقة بيروس، للقول إن هذا الانتصار قد كلف الكثير بحيث يشبه الهزيمة. (هـ. م.)

الآلات، زنوج من الفولاذ(٤٨)". يعلق روسى دو سال، وعلى هذا "كيف نحولُ دون أن يصير الـ ١٤ مليونًا من العاطلين عن العمل حاليًا ٢٠ مليونًا فى السنة القادمة[...]؟"

هذا التقديم للمذهب التكنوقراطى أبعد إذن من أن يكون دفاعًا عنه؛ فانتصار التقنية يُقدم باعتباره انتصارًا يخفى هزيمة(*). إنه الدخول فى عالم "عبثى" سيصيرُ فيه الإنسان "بصورة عمياء على أن ينافس بعضلاته الآلات الرائعة التى ابتكرها بالضبط من أجل توفير قواه ولخدمته"(٤٩). نلتقى هنا الثيمة ذات الأصل الماركسى عن الرأسمالية الصناعية بوصفها "سبب أحداث تعجز عن وقفها"، وهى ثيمة تكررت فى سنوات ١٩٣٠، سواء لدى فريدمان أو لدى اللا امتثاليين. مثل هذا النظام، هل هو قابل للحياة؟ إنه على وجه التأكيد لا يُعاش بالنسبة للبشر. ومن هنا هذا البديل: "إلغاء الآلات" أو استخلاص نتيجة فقدان العمل البشرى لقيمته كليًا باستصدار "حق" فى "حد أدنى من الأمن" فى الحصول على الأموال والخدمات الأساسية. يوصى روسى دو سال إذن بـ"إعلان جديد لحقوق الإنسان" يثبت الحقوق البدائية للشخص: الغذاء، السكن، التدفئة، الإضاءة، النقل؛ ففى نظام لا "يساوى" فيه الإنسان اقتصاديًا أى شىء، من الجوهرى أن يُعاد التأكيد على الاهتمام بالإنسان.

إن الرجوع إلى أول إعلان لحقوق الإنسان وإلى الثورة الفرنسية ذو دلالة، لماذا الإعلان الجديد إذا لم يكن لوضع حدً كما كان الأمر فى عام ١٧٨٩ للاغتصاب وللتعسف؟ هكذا كان يشار إلى "التكنوقراطية"، قبل أن تكتسب المعنى الحكومى والإدارى الذى نضفيه عليها اليوم لا بوصفها منظمة الإنتاج القمعى من أجل المنتجين والمستهلكين فحسب، بل كذلك بوصفها مصادرة للديمقراطية. يتسع نادى ضحايا أمريكا. لم يعد الإنسان الذى يقوم المناظرون الفرنسيون بالدفاع عنه هو العامل المرتبط بآلته كما كان مرتبطًا قديمًا بأرضه فحسب، ولا المستهلك المشدود إلى الرغبات المزيفة التى قُطِّرَت له، ولا الإنسان العادى ***homo quisquis*** الذى صنعه تعميم وحدة الأنماط. إنه أيضًا الإنسان الملاحق بالرقابة، المسجل من قبل علماء النفس، المقيد فى كتالوجات الخبراء بوصفه "مصادر بشرية"، الموزون والمقدر بميزان روائز الاستعدادات. (لا يتردد أندريه سيجفريد الذى لا يملك أية صفة يسارية فى أن يقارن رائز الذكاء بـ"بطاقة الشرطة" التى "تلاحقك"، والتى "لا يسعك التخلص منها طوال حياتك"(٥٠)). إنه أخيرًا المواطن المنزوع الملكية؛ لأنه كيف نتصور أن سيادته المعلنة عشية الانتخابات والمنسية غداتها يمكن أن تبقى حية بعد هذا الفقدان المطلق، هذا الإلغاء الذى سيصير غدًا إلغاءه؟ كيف نزعم دون كذب أن الإنسان سيظل يعيش فى الديمقراطية حين سيعيش فى التكنوقراطية؟

سيطلق الخوف الجديد من التكنوقراطية على هذا النحو الثيمة العتيقة الخاصة بالديمقراطية الوهمية، الثابتة فى الخطاب المعادى لأمريكا منذ نهاية القرن التاسع عشر. سيقابل جيل ١٨٨٠ هذا الوهم بواقع مجتمع "أرستقراطى" بصورة عميقة. وسيقابله جيل ١٩٠٠ بالثقل الساحق لأوليجارشية الأثرياء. يؤلف اتهام "التكنوقراطية" التنويع الثالث على الثيمة ذاتها، لا لأنه يحل محل الاتهامات بالفساد وعدم عدالة العملية الانتخابية والقمع الدائم للحركة النقابية؛ فهذه الاتهامات تستمر بلا هوادة لا سيما وأن مادتها متوافرة. يمكن لجوفنيل أن يصرخ فى عام ١٩٣٣ (كما كانوا سيصرخون فى عام ١٩٠٢): "أوه! هذه الانتخابات الأمريكية حيث يترنح"المواطنون" أنفسهم الذين لا يكادون يعرفون لغتهم من مكتب انتخابى إلى مكتب انتخابى، مصوتين عشر مرات، خمس عشرة مرة، لقائمة أمليت عليهم، ضاربين فى لحظاتهم الضائعة أولئك الذين يزعمون التصويت لمرشحين آخرين غير مرشحيهم[٥١]!" إن بوسعه أيضاً أن يشهر بعد دوس باسوس Dos Passos ودريزر Dreiser بحلقات القمع القاتل التى تذكر بأشد اللحظات سواداً خلال الانتفاضة الكبرى Great Upheaval أوهارلن كاونتى Harlan County عام ١٩٣١، أو مذبحة ديربورن Dearborn (٧مارس ١٩٣٢): "عاقب أرباب العمل بقسوة كل محاولة لإفساد قطعانهم المطيعة من المهاجرين. وعند أقل إضراب، يستأجر أرباب العمل "أعضاء عصابات" يحملون صفة "نائب الشريف"[٥٢]". تستمر قسوة الشرطة وتزييف الانتخابات فى أن تكون موضع تشهير، لكن الجوهرى يكمن فى مكان آخر: فى مصادرة شاملة للديمقراطية تحيل إلى المقام الثانى أخطاءها وانحرافاتها؛ فالذين يفضحون ابتزاز الأقوياء أنفسهم يخافون أكثر من اللحظة التى تكف فيها الآلة الاجتماعية حتى عن الأذى، والتى ستخرّ فيها هذه الديكتاتورية العذبة دون عواقب.

لقد اعتبرت المجازات ذاتها التى دخلت مبكراً فى المفردات السياسية الأمريكية: "الآلة الانتخابية"، "الآلة الديمقراطية"، بمثابة اعترافات بأن "حضارة الآلات" قد غزت كلياً منطقة السياسة؛ فرجل الشارع فى الولايات المتحدة لا يتصور الأحزاب على نحو آخر إلا بوصفها "آلات"، كما يشير إلى ذلك المؤرخ برنار فاى: كل تعريف أكثر "أيديولوجية" أو أكثر اجتماعية، على الطريقة الأوروبية، يستثير عدم فهمه. فقيمة حزب لا تتوقف على مذهبه، ولا حتى على الصفة الاستثنائية لزعيمه، ولو كان "إنساناً خارقاً". المهم هو أن "كل واحد من أجهزته يعمل بانسجام". إنها هذه "العلاقة الآلية التى يجب أن تقام وأن يحافظ على استمرارها بين مختلف عناصر ومختلف محركات الحزب"[٥٣]. فى الواقع، إن تآلية السياسة فى أمريكا قليلة الطابع المجازى إلى درجة

أنها أدت كما هو متوقع إلى آلة التصويت، "رمز" و "مركز" كل التنظيم الأمريكي حسب برنار فاي.

صورة كاملة للألوهة. "يجب أن يكون المرء قد رأى في أمريكا خلال الفترات الانتخابية الكبرى، هذه الأداة الضخمة المحفوفة بالمقابض، والمزينة بالسهام والتعليقات، الجليلة كالخزنة والسرية كعلبة باندورا، لماعة كعدة طبيب الأسنان وجذابة كخوذة الغواص، وأخيراً ضخمة وصاخبة، لكي يعي دور الآلة في الحياة الأمريكية." كانت الآلة الصناعية تكتفي بابتلاع خدمها، كشارلو في فيلم ***الأزمنة الحديثة***، وقد ابتلعته التروس، سوى أن آلة التصويت تقوم بما هو أفضل: إنها تفرض نفسها على الناخب بوصفها الضامن النزيه للخيارات العقلانية وللحسابات الشريفة؛ فالديمقراطية قضية أهم من أن تترك للمواطنين: يجب من أجل ضعفهم وصاية آلة التصويت، "هي وحدها تبدو جديرة بالقيام بالوظائف الأعلى من الفعالية البشرية"، كما يعلق فاي. "وحدها التي تبدو قادرة على منح ضمانة بالدقة والإخلاص والكرامة التي تناسب المواطن السيد. وجهاً لوجه مع آلته، يشعر الناخب بحس مسئوليته وحس ملكيته(٥٤)". خزنة، وكرسي طبيب أسنان، وعلبة باندورا، وخوذة الغواص: تتحدث الصور التي راكمها فاي بقدر من القوة يكفي كي لا نلح على المشاعر التي توحي بها ديمقراطية اضغط على الزر هذه للفرنسيين؛ فبدلاً من المجالس السياسية أحلت أمريكا يقيناً السرة المنعزلة والمشبوهة بصورة غريبة لهذه الدغدغة الآلية - ربما الموازي السياسي لـ"جلد عميرة المرئي" الذي أدخل إليه حسب دوهاميل الحضري الأمريكي المُسلَّم للآلات المضيئة والمتحركة والناطقة(٥٥). إن آلة التصويت، رمز سخرية تكنولوجية من الديمقراطية، تدخل على هذا النحو في ثكنة الدلالات الخاصة بنزعة معاداة أمريكا؛ ففي أوج الحرب الباردة، وفي مجلة ***دفاع عن السلام*** ***Défense de la paix*** الشيوعية المتسترة، يفتتح مقال حول الآليات الانتخابية الأمريكية بصورة لآلة تصويت إلى جانب هذا العنوان: "شركة سباق الخيل هائلة"(٥٦).

في عام ٢٠٠٠، ستأتي آلات فلوريدا لتثبيت الفرنسيين في قناعتهم أن الانتخابات الرئاسية الأمريكية تكتسب إن لم يكن بالكشط؛ فعلى الأقل بالتثقيب بقدر ما تكتسب بمجرد الأصوات. على أن الولايات المتحدة لا تملك احتكار الانتخابات الصعبة، وقد جاء انتخاب جورج بوش الابن أيضاً ليذكر أن لازمة "إنسان واحد، صوت واحد one man, one vote" هي أن كل إنسان، وكل صوت يمكن أن يقلب الانتخابات. ذلك لم يكن - وتلك تورية - رد الفعل السائد في الإعلام ولدى الجمهور الفرنسي؛ فقد أعقبت الموجة الأولى من المزح الصاخب غير المصدق - الضحكة البرجسونية المجنونة

التى تستحوذ علينا أمام رؤية رجل ضخم ينزلق على سلم - مرحلة طويلة من البهجة الهادئة أمام تشوش غير مأمول، لكنه غير مفاجئ كثيراً؛ إذ بوضع مئات الملايين من المواطنين تحت رحمة حفنة من نثار مبعثر من بطاقة مثقوبة، جاء ليصادق على كل الذين كانوا فى فرنسا منذ أكثر من قرن يقولون إنه لم يكن فى هذه الديمقراطية "التكنوقراطية" من فرق أبداً بين الآلية والتآمر.

أمريكا البوليسية، أمريكا الشمولية

تجتمع من حول المفترس الآلى إذن حزمة من التهم التى تغيّر إدراك الفرنسيين السياسى للولايات المتحدة؛ فقد أعقب الشكوك بالظلم التى ولدت لدى اليسار بوجه خاص بمناسبة حركات القمع الكبرى فى القرن التاسع عشر، والتى أحيت ذكراها الصدامات الاجتماعية فى بداية سنوات ١٩٢٠، اليقين بأن الولايات تحت قناع الديمقراطية وطلاء المبادئ الدستورية قد استحالت مجتمعاً شمولياً.

هذا المصير الشمولى الذى سيعلنه برنانو عما قريب محايثاً لـ"حضارة الآلات"، هو حقيقة النهج الأمريكى فى الحياة. "النظام الأمريكى" هو كتلة واحدة. وليست الآلية فيه مجرد بنية مادية، بَل "شكلاً من الحياة". وبالنسبة لجورج دوهاميل تغزو المكننة (وتفسد) المسرات والأيام: الموسيقى المحفوظة، والصور فى علب، والنزهات بالسيارات حيث نقود السيارة لمجرد ركوبها، ولونا بارك المؤتمتة. "لقد دخلت الآلة كل الأشكال المختلفة من الفعالية الأمريكية"، كما يشير المؤرخ برنار فاى بعد عدة سنوات. "إنها بالطبع الحافز الرئيس للصناعة، بل وللتجارة والتربية وللرأى العام وللحياة الثقافية[٥٧]."لا تزيف الآلية الحركات وردود الأفعال والإيقاعات البيولوجية للذين يخضعون لها فى العمل فحسب، بل إنها تكوّن الناس جميعًا حسب غاياتها الخاصة. إن كلمة النمطية أو الستاندار التى اكتشفها الفرنسيون فى سنوات ١٩٢٠ قد انسحبت بسرعة من الأشياء إلى البشر. شدد المؤرخون وعلماء الاجتماع والفلاسفة والصحافيون على خضوع الإنسان لعمليات كان يجب أن تخضع له. ويفسر سيجفريد ودوهاميل أخلاقيًا متفقيْن: "تنميط الفرد من أجل تنميط أفضل للمنتجات التى ستُباع له، يعنى نسيان أن الأشياء صنعت من أجل الإنسان لا الإنسان من أجل الأشياء". "إن البشر الذين يعمرون اليوم المنامل الأمريكية [...] يريدون أن يمتلكوا بأسرع وقت ممكن كل هذه الأشياء المريحة على نحو رائع، والذين سرعان ما يصيرون بانقلاب غريب للأشياء عبيدها المهمومين"[٥٨]. ولا يكلّ اللا امتثاليون عن التشهير بانقلاب القيم ذاته: "هل الإنسان هو الذى يسود العالم؟ لا، إنها الأشياء التى تقود الإنسان إلى العبودية[٥٩]".

مجاز؟ على الإطلاق، أو أقل فأقل. ليس الإنسان الأمريكى خادم الآلة فحسب، ليس مستعبداً اجتماعياً بالحاجات التى زرعت فيه فحسب، لكنه أيضاً، وبكل خشونة، سجين مجتمع مفرط البوليسية. من القمع الوحشى للحركة النقابية الذى شهر به أعلاه جوفنيل إلى وصف الرائز بوصفه "بطاقة الشرطة" الموجود لدى سيجفريد، لاوجود لأى جانب من جوانب الحياة الأمريكية دون أن يظهر من الآن فصاعداً خاضعًا لأشد ضروب الرقابة شدة وعند الحاجة إلى القمع الأشد قسوة. رأينا أعلاه اشتراكيًا مثل دروجون يجعل من النمطية طابع أعلى مراحل الرأسمالية؛ فتعميم التنميط والديمقراطية يبدوان له متناقضين بل ومتنافرين؛ وما دامت النمطية تسود فيها بلا نزاع، فهل لا تزال أمريكا ديمقراطية؟ "أمريكا هى ديمقراطية. حسنًا. لا تسرعوا فى القول إن ذلك حسن. يبقى عليكم أن تعلموا إلى أى درجة ديمقراطية واشنطن هى ديمقراطية. انظروا جيداً وستكتشفوا – دون عذاب – أنها محكومة من قبل إقطاعيات، لا تسرعوا الآن بالاستنتاج أنها ليست ديمقراطية على الإطلاق. إنها ديمقراطية بالنسبة للديكتاتوريات الأخرى(٦٠)"، أقل الديكتاتوريات سوءًا: هكذا تبدو أمريكا روزفلت لهذا الاشتراكى سليم النية، فى عام ١٩٣٨، فى أوروبا المحبوكة بالديكتاتوريات الصغيرة والكبيرة والوسطى، ولكن لماذا يتردد فى الواقع فى استخدام كلمة الديكتاتورية التى نجدها حتى بقلم أندريه فيليب، المهاجِم بانتظام على عبادته لأمريكا المفترضة؟ يحتفظ أندريه فيليب هو الآخر باعتباره كبش فداء اليسار بهذا المعنى شأن تارديو الذى كانه بالنسبة لليمين، بالمفاجآت لقارئ على قدر من الشجاعة ليغامر بقراءة الـ٥٥٢ صفحة من كتابه الكبير فى عام ١٩٢٧: *المشكلة العمالية فى الولايات المتحدة*، الذى قدم له من لا يمكن تلافيه أندريه سيجفريد. كل الفصل الأول الذى يفصِّل الضغوط وأعمال العنف والقتل التى اقترفها أرباب العمل أو من استأجروهم لذلك ينتهى بهذا المقطع الخالى من الغموض: "هكذا يسعنا القول بلا مبالغة إنه على الرغم من الطابع الديمقراطى المزيف للدستور الأمريكى ووجود تمثال الحرية عند مدخل ميناء نيويورك، فإن الولايات المتحدة تمثل اليوم فى العالم النمط الأكمل من الديكتاتورية الرأسمالية." ملاحظة حول تمثال الحرية تضيف هذه السخرية: "لقد تبنى الأمريكيون فى الحقيقة عادة الفرنسيين برفع نصب تذكارية لموتاهم المشهورين(٦١)"...

ومن هنا الأهمية المركزية التى يكتسبها التحريم فى قصص أمريكا. بالطبع، يكفى منع الشراب الكحولى بما فى ذلك النبيذ المغذى للشك فى الصحة العقلية للولايات

المتحدة. بالطبع، يرضي تعديل فولستيد Volstead(*) انتظار الفرنسيين الذين سيحكون اليانكيه ليعثروا على المتزمت. بالطبع، يسمح عدم احترام القانون من قبل الأغنياء والأقوياء واللصوص مباشرة باغتياب أمريكا المنافقة، لكن إذا كان التحريم يكتسب مثل هذه الأهمية في الخطاب المعادي لأمريكا، فلأنه أيضًا وبوجه خاص برهان على تحول سلطوي وحكومي لـ"بلد الحريات". كنا نسخر من blue laws القانون الذي يحدد الفعاليات يوم الأحد) في بداية القرن العشرين بسبب "تعقيداته التي لا تكاد تصدق"(٦٢)، بل إن لانسون الوديع نفسه كان يسخط من "النظم الجائرة" التي تتفنن أمريكا الحرة في الإكثار منها(٦٣)، لكن التحريم "يمس الروح الأمريكية في القلب"، وهو يكشف - إن جاز لنا القول - قاع البرميل، ويؤكد الشمولية المعلن عنها لبلد "تزعم فيه الدولة الحلول محل الإله"(٦٤). إنه دوهاميل الذي يستخلص هذه النتائج قوية المفعول، لكنه جول رومان، أحد المتسامحين مع أمريكا في سنوات ١٩٣٠، الذي يكتب: "كانت فكرة أمريكا - وطن الرجال الأحرار [مع التحريم] مشحونة بسخرية شديدة القوة، وفي مواجهة سخرية على هذا القدر من الازدياد، وتتناول المبادئ نفسها، فإن كرامة حضارة ما لا تقاوم(٦٥)".

أين نصنف أمريكا الحريات المهانة، والشرطة القاتلة، وضروب السلوك المتلاعب بها؟ أي نظام يشبه بلد آلات التصويت، والبارات السرية المزدحمة، والقبلات السينمائية المقاسة بالمليمتر منذ أن حدد قانون هايس Hayes طول الوهن بسبعة أقدام من الشريط السينمائي دون أية زيادة؟ إن الجواب الفرنسي الغالب خلال فترة ما بين الحربين أمام أمريكا هوفر أو دون فرق أمام أمريكا روزفلت، هو المآل المنطقي للأوصاف السابقة، أمريكا لا تشبهنا. إنها تشبه اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، إنها تشبه الدول الفاشية.

الاتحاد السوفيتي أولاً وربما بوجه خاص. كان بوسعنا الظن أنه كان على التباعد المذهبي بين النظامين بعد عام ١٩١٧ أن يخفف من هذه اللازمة القديمة من القرن التاسع عشر حول التشابه بين أمريكا وروسيا، لكن ما حصل هو العكس تمامًا. وهي لدى دوهاميل، عادة عفوية؛ فالمغاسل (مرة أخرى المغاسل!) التي يتقاسمها ركاب البولمانات سوفيتية الصنع. وسوفيتية أيضًا النوادي النيويوركية التي تشبه "بيوت

(*) تعديل فولستيد: عضو مجلس الشيوخ الأمريكي، الذي عرف تعديل القانون الخاص بتحريم المشروبات الكحولية باسمه، والذي صوت عليه الكونجرس الأمريكي في شهر أكتوبر عام ١٩١٩.(المترجم)

الكتاب" أو "بيوت المعماريين" فى موسكو: إنها "الشيوعية البورجوازية" كما يشرح دوهاميل لمضيفه الأمريكى الذى كان يظن بسذاجة أنه يديم تقليداً بريطانياً. حتى هوليود التى تشبه من فرنسا مكتباً لجوبلان!(*)، وهاهى قصيدة للوك دورتين جاءت لتعرفنا ذلك "[...] لكل من لا يعلمون / أن شقة صغيرة تشبه أكثر ما تشبه/ إدارة سوفيتية"(٦٦). وبعيداً عن أى شعر، فإن الموازنة لدى روبير آرون هى بلا غموض: "الاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة الأمريكية، [...] فى آن واحد مفرطان فى امتلاك الأدوات، ومفرطان فى هيمنة الدولة"(٦٧). ها هما وقد قورب بينهما لا باسم الآلية فحسب، بل بطريقة أشد دلالة أيضاً على النظرة الفرنسية خلال هذه الفترة أى باسم كلية حضور الدولة. أما بالنسبة لسيلين (ولكن ممن يسخر؟)، فإنه يصادق على المماثلة فى مشهد غائطى مجيد من رواية ***رحلة لآخر الليل***؛ حيث "الشيوعية جوهرة الخراء" تقدم بوصفها سمة جوهرية للضيافة الأمريكية(٦٨). ويجتر اللا امتثاليون أيضاً الموازنة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى دون الارتياب فى حالتهم بأقل مزاح. يدافع جان بيير مكسانس فى المجلة الفرنسية عام ١٩٣١ عن الروح والإنسان وأوروبا ضد "مادية موسكو واتجارية نيويورك"(٦٩). فى حين كلف دانييل روبس الشاب النشيط والمقارع بالأفكار، فى عام ١٩٣٣ بعرض خلاصة للمواقف المشتركة بين "حركات الشبيبة": **Esprit** و **Réaction** و**Ordre Nouveau**. وفى هذا النص، يعود عدة مرات إلى الهوية العميقة للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى: "الستالينية الشديدة البعد عن الماركسية الحقيقية،[...] تبدو عبثية وشريرة بقدر الفوردية الأمريكية(٧٠)". ويوسع من الثنائى ليجعله ثلاثياً بعد عدة أشهر من ذلك فى مجلة **Ordre Nouveau**، بتشهيره بـ"الجماهير، سواء كانت فاشية أو أمريكية أو سوفيتية"(٧١). وفى عام ١٩٣٥، شهّر روبير آرون بـ"أنبياء اليوم المزيفين الذين يقترحون هادياً لعصرنا فورد أو تايلور أو هتلر"(٧٢). حلت ألمانيا النازية هنا محل الاتحاد السوفيتى، لكن إذا كانت الشيوعية والفاشية قابلتين للتبديل حسب القناعات الأيديولوجية، فإنّ أمريكا تبقى المحور الثابت لهذه الأبنية الزائلة.

يحفل أدب سنوات ١٩٣٠ بهذه "المتوازيات": فالجمهور الذى يظن أصلاً بأنه لا شيء يمكن انتظاره من "الأنانية" الأمريكية فى حالة وقوع أزمة أوروبية يقتنع فضلاً عن

(*) مؤسسة سوفيتية رسمية، أنشئت فى عام ١٩٢١ لوضع الخطط الخمسية فى التطوير الاقتصادى ومراقبة تنفيذها. (هـ. م.)

ذلك بأن الولايات المتحدة لا تختلف اختلافًا عميقًا عن الدول الشمولية، وأنها تخضع لنفس المنطق الجماعى، إن لم يكن المنطق المشاعى، وأنها حتى أكثر شمولية فى الإجمال من "منافسيها" فى أوروبا. (فالانتفاضة اليائسة لليسار غير الشيوعى الباحث عن قليل من الأمل لدى روزفلت ضد الهتلرية عشية الحرب العالمية جاء متأخراً، وتلقى بالمقابل أقل مما يجعله يغير هذه الصورة[٧٣]) ندهش اليوم لرؤية روبير آرون يضع فورد وتايلور على المستوى نفسه الذى يضع عليه هتلر، لكن الشعور المهيمن، وليس لدى اللا امتثاليين فحسب هو أن "النظام الأمريكى" يمضى إلى حد أبعد فى الضغط؛ بحيث إنه يؤمن سيطرته على الناس على نحو أفضل من الستالينية والفاشية مجتمعين. هذا ما يشرحه دوهاميل للسيد بيتكين فى الفصل الذى يحمل عنوان "حوار قصير حول الشعور بالحرية" من كتاب ***مشاهد من الحياة القادمة***، ويستحق المقطع أن يستشهد به بتفصيل أكثر: "الديكتاتورية السياسية هى على نحو أكيد شنيعة، وتبدو لى دون أى شك لا تطاق، لكنى أعترف وإن بدا الأمر غريبًا، أنها لا تحتل فى مخاوفى مكانة شديدة الأهمية. [...] فالديكتاتوريتان السوفيتية والفاشية لكى لا أذكر سواهما تثيران فى بلديهما الأصليين وفى العالم أجمع احتجاجًا بلغ من الحدة لا يستطيع الفيلسوف معها إلا أن يتساءل بصددهما بإحباط." جرىء إذن ! لنعتمد على "روح التمرد السياسى" التى "لم تنطفئ فى قلب الإنسان"، وأمنياتنا لكم بحظ طيب مع ديكتاتورياتكم، لكن ثقة دوهاميل ليست مع ذلك بلا حدود؛ فماذا لو أن البشر استسلموا فى مواجهة "الديكتاتورية الأخرى، ديكتاتورية الحضارة المزيفة"، تلك التى تجعل المرء "عبد أمريكا" وعبد نفسه؟ "هذا ما يؤلمـ[ـه][٧٤]"، ألم مثقف لم تكن خيانته هى التى كان باندا يستهدفها.

رويداً رويداً، من اليمين إلى اليسار، ومن المصادرة إلى الضياع، ومن "الديمقراطية شديدة الإفراط فى شكليتها لتقنع بحقيقتها" إلى " التكنوقراطية" شديدة الإفراط فى رأسماليتها لتقنع بإنسانيتها، هذا هو "النظام الأمريكى" وقد حشر فى آخر معاقله. أوليست هذه الكلية التى لا يفلت منها شىء هى الشكل الكامل للنزعة الشمولية؟ أوليست هذه الضخامة فى الوسائل المستخدمة لـ"الضغط على الإنسان، فى الوقت الذى يترك له ظاهر ووهم حريته فى الاختيار" هى كمال الديكتاتورية؟ يطرح روبير آرون على نفسه السؤال فى كتابه عام ١٩٣٥ ديكتاتورية الحرية. وجوابه المدهش لا سيما وأنه يستهدف أمريكا روزفلت والنيو ديل، هو سحق الفرد القطعى وتصفيح الحريات، وبإيجاز الديكتاتورية اللامرئية والحقيقية مع ذلك: "كل قوى الاقتراح

كالصحافة والإعلانات - كل القوى غير المباشرة فى الضغط كتوزيع التعويضات والمكافآت، أو التسهيلات فى الحياة الممنوحة للأفراد المجندين فى بعض أعمال الإحسان والمساعدة المشتركة ذات النوايا الطيبة والامتثالية، كل ذلك يجعل من استخدام العنف الصريح والديكتاتورية الظاهرة شبه فائض عن اللزوم[٧٥]". فى كلمة شبه هذه برنامج بلاغى كامل لن تنساه نزعة معاداة أمريكا اليسارية.

هذه المنظومة هى الأخرى واعدة؛ فما هو الأشد ضرراً من "ديكتاتورية غير ظاهرة"؟ وما هو الأعسر على الدحض من اتهام يستمد حجته من أنه لا شىء مرئىّ يؤكدها؟ مرة أخرى، أفادت الحالة الضميرية للمناظرين غير الامتثاليين كنموذج للكتابة أجيالاً من الناسخين الشيوعيين وأشباه اليساريين واليساريين المتطرفين. منطق الشك هذا الذى استقر فى فترة ما بين الحربين لم يكف عن تغذية الخطاب الجماعى الفرنسى عن أمريكا، ديمقراطية الواجهة والشمولية الماكرة، آخر خدعة للشيطان كما نعلم هى الحمل على الاعتقاد بأنه غير موجود: هكذا الأمر بالنسبة لـ"الديكتاتورية" الأمريكية، لكن المثقفين الفرنسيين ليسوا مخدوعين؛ ففى أوج صعود الفاشية وتعزيز الستالينية، كانت أمريكا هى التى يشهرون بها بوصفها الشيطان الأكبر الشمولى. ففى أوروبا المدمرة خلال الحرب الباردة التى يخضع نصفها لـ"المحرر" السوفيتى، لا يزالون من جانب الولايات المتحدة يكشفون تحت طلاء الديمقراطية الشكلية نسيج "الفاشية الحقيقية". الشيوعيون بالطبع؛ فهم على الأقل يفعلون ذلك بصورة رسمية، ولكن كم هم الآخرون معهم ممن لا تتوجب عليهم نفس الالتزامات؛ إذ من الذى يسخط فى عام ١٩٤٨ من جمود الشباب الأمريكى أمام "ولادة فاشية ما" - غير سيمون دو بوفوار[٧٦]؟ ومن يتكلم فى عام ١٩٤٧ عن هذا "المجتمع الرأسمالى المكرس منذ ولادته ليصير الحضارة الشمولية" - غير جورج برنانو[٧٧]؟

إن مقارنة الولايات المتحدة بالشمولية إن لم يكن بالشمولية بامتياز لن يكون لها آثار مباشرة فى العمى السياسى والدبلوماسى فحسب؛ فعلى المدى البعيد تسمح للحزب الشيوعى الفرنسى فى الحرب الباردة أن يكرر مشابهة الولايات المتحدة الأمريكية بألمانيا النازية، دون أن يقنع دوماً، ولكن دون أن يصدم أحداً أيضاً. إنها تحرض أيضاً الورثة الروحيين للا امتثاليين قبل الحرب على أن يستعيدوا بعد الحرب هذه اللازمة التى لم تكد تتغير. وكصدى للدعاوى بالفاشية التى أقيمت على اليسار وبمفردات تكاد لا تكون أقل جذرية، يستطيع ألبير بيجان أن يصف فى عام ١٩٥١ أمريكا باعتبارها "ديكتاتورية بلا ديكتاتور"[٧٨]، وجان مارى دوماناش فى عام ١٩٥٩

أن يؤكد على إثر التهم اللا امتثالية: "الدولة الأمريكية ليبرالية، لكن المجتمع شمولى: وربما هو المجتمع الأكثر شمولية فى العالم(٧٩)".

عندما سيقضى على الفاشيات الأوروبية واحدة بعد الأخرى (أو عندما ستموت من نفسها)، عندما ستسقط النظم الشيوعية كالقرود المقلنسة، عندما ستتلاشى الشموليات التاريخية ـ عندئذ، أى اليوم، إن لم يبق إلا واحدة، فستكون هى أمريكا.

ديكتاتورية وتجريد

طرحت قضية الآلية بوصفها "نظامًا" منذ ما قبل منتصف القرن التاسع عشر موضوعين رئيسيين: موضوع أمريكا "الشمولية" (ثم "الفاشية" أو"الشبيهة بالفاشية") وموضوع أمريكا "التجريدية"، وكما أن تآلية الحياة والتلاعب بالبشر جعلا من الولايات المتحدة نموذجًا للشمولية، لم تعد الديكتاتوريات الأشد وضوحًا فى الأساس معها سوى مسودّة رديئة لها، كذلك فإن تآلية العقول التى صنعت على مثال "التبسيط" بواسطة هيمنة الأرقام والحساب والإحصاءات تجعل من أمريكا الذهنية مملكة التجريد، شبكة ضيقة تربط على هذا النحو فى خطاب المثقفين المعادى لأمريكا الآلية والديمقراطية (الشكلية) والتجريد.

يصير التشهير بـ"التجريد" باعتباره شكلاً مكوِّنًا للضياع الأمريكى فى سنوات ١٩٣٠ محطة بلاغية للمعادين لأمريكا اليمينيين منهم واليساريين. ثمة هنا مفاجأة وتناقض ظاهر؛ فقد سبق وأن وصفت أمريكا تقليديًا فى فرنسا باعتبارها بلد الذكاء العملى. وكان يقال عنها إنها قليلة الموهبة بالمقابل فى المضاربة الثقافية، ونادرًا ما اهتمت بالأفكار العامة. كانت سيمون دو بوفوار على وعى بالمفارقة عام ١٩٤٨: "ففى هذا البلد الملتفت بحمية إلى حضارات عيانية تعود هذه الكلمة" تجريد" إلى شفتى كل يوم"؛ لأنها مرغمة على الإقرار بالتجريد فى كل مكان، تجريدىُ جاز البيض، تجريدىُ الأدب الأمريكى الشاب، تجريدىُ الرسم الذى تكتشفه فى قاعات الفنون. لا تريد من ذلك أن تفهم أنها بصدد "رسم تجريدى"، بل برسم تخطيطى و"مفرغ من محتواه": "لقد دهشت فى طوافى قاعات الفنون وفى قراءتى بعض كتب الشباب بعمومية الظاهرة؛ فالتكعيبية والسريالية فرغتا هما الأخريان من مضمونهما. لم يُحتفظ إلا بالمخطط التجريدى. هذه الأشكال التى كانت فى أوروبا لغات حية[...]، نجدها هنا على ما هى عليه، لكنها محنطة"، كالأديرة المشتراة بالملايين، أكثر من الأديرة المشتراة بالملايين؛ لأن هذه المبدعات المقطوعة الملصقة من أوروبا، "تنتج ويعاد إنتاجها آليًا دون الانتباه

إلى أنها لم تعد تقول شيئًا"(٨٠). التعبيرية التجريدية حسب بوفوار: هى الآلية ملصقة على الاجتثاث.

إذا كانت ثيمة التجريد الأمريكى قد استقبلت من قبل اليسار فإن لها أصل لدى اليمين. وباعتبارها اتحادًا تجريديًا ولد من ورق التصريحات، وتكتلاً بلا وحدة عضوية، تتعرض الولايات المتحدة على هذا النحو منذ زمن طويل لهجوم التقليديين. هذه العداوة القديمة انتعشت بجو سنوات ١٩٣٠. لم يكف أرون ودانديو عن جلد "سحر التجريد"، غير اللائق بـ"تلميذ الصف الأول فى مدرسة البوليتكنيك"، الذى تسكر به بلاد اليانكيه(٨١). إنهما يسخران من أمريكا المعجونة من "الديكارتية الفاسدة والمعاد النظر بها من قبل تايلور"، ومن "الهيجلية المشوبة بالعار"(٨٢). هنا أيضًا ستؤلف اللا امتثالية مدرسة. لا تقول سيمون دو بوفوار، لكى نعود إليها، شيئًا آخر غير ما يقوله مؤلفا السرطان الأمريكى فى كتابها *أمريكا يومًا بعد يوم*. إنها تشرح أن معادلة أمريكا هى الإنكار المزدوج للذات وللعقل: "بالمفردات الهيجلية، يمكننا القول إن إنكار الذات يقود إلى انتصار الفهم على العقل، أى انتصار التجريد(٨٣)". أفضل من ذلك (أو أسوأ) فى نظر بوفوار كما هو الأمر فى نظر نزعة معاداة أمريكا الروحانية قبل الحرب، تعبد أمريكا المال؛ لأنّ "رمز الخواء" هذا يردّ على هواها فى التجريد: "إذا كان المال فى نظر الكثير من الناس هو الغاية الوحيدة، فلأن كل القيم الأخرى قد أعيدت إلى هذا القاسم المشترك [...] ويرضى الأمريكيون برمز الخواء هذا"، وسيرضون بذلك بقدر من السهولة لا سيما وأنهم "لا يملكون نارًا داخلية"(٨٤).

هذا يعنى الانزلاق على السفح ذاته الذى انحدر عليه برنانو فى اللحظة ذاتها فى كتابه *الحرية لماذا*؟ لأن برنانو لا يكتفى بالتشهير صراحة وعلنًا بـ"حضارة الآلات الأنجلو أمريكية"، ولا يتوقف حتى عند المناداة بمصيرها "الشمولى" حتمًا، بل ينطلق فى تحديد أصول الزوج ربا - آلة (usure-machine) الذى يعطى انطباعًا سيئًا عن شىء سبق الحديث عنه. يذكر برنانو بأنه كان هناك على الدوام مضاربون، حتى قبل الأنجلو أمريكيين، والبرهان على ذلك أن الحديث عنهم جرى فى الإنجيل. "ربما فكر هؤلاء الناس دومًا تقريبًا أنهم سيصيرون يوما ما سادة العالم، لكننا كنا نحذر منهم، ونضعهم موضع الشك." ما أكثر ما كنا على حق! "تذكروا ما كانت القرون الوسطى تفكر بالربا والمرابى..."، كم كنا نحب لو أن برنانو بعد سنتين من الحرب يتذكر هو الآخر معنى ووزن الكلمات. لا، إنه يتابع مثل باتيست Baptiste": وأخيرًا سواء أكانت منتظرة أم لا فقد حانت ساعتهم؛ فابتكار الآلات أعطاهم فجأة ودفعة واحدة الأداة التى كانت تنقصهم. "يضيف برنانو أن "الآلات لا تتحمل أية مسئولية شخصية فى هذا

الموضوع". ويضيف مازحًا إنه لا يريد "إرسال الآلات إلى نورمبرج، فمصاريف الدعوى ستكون شديدة الارتفاع"، تعليل ممتاز، ولكن لم لا يرسل سادتها ومالكيها؟ لم لا يرسل "الأنجلو أمريكيين" (دون إهانة أحد) وكل هؤلاء المرابين الغامضين الذين ينتظرون ساعتهم منذ القرون الوسطى. "في عهد الملكية القديم، انتهى كل وزراء المال الكبار من جاك كور Jacques Coeur إلى فوكيه Fouquet نهاية سيئة." نشعر بالتعبير عن الأسف. فليرسل إلى نورمبرج أو إلى مونتفوكون Montfaucon، "وزراء المال" و "الأنجلو ساكسونيون"! هذا ما يسميه برنانو"تساعدون على إعادة النظر ببعض الأفكار الاتفاقية"[^85]...

إن الاتهام بالتجريد يلعب دوره هنا على عدة مستويات؛ فعلى المستوى الأول تكذب أمريكا "التجريدية" التي صنعها الخطاب المعادى لأمريكا الذين يمجدون "الحيوية" الأمريكية. من الواضح أن معارضة الآلى بالحى أمر مبتذل[^86]. يظهر اسم برجسون غالبًا بهذه الصفة فى الجدال المعادى لأمريكا. يتناول كتابه الأخير ***منبع الأخلاق والدين*** (١٩٣٢) مباشرة مشكلة الآلية فى المجتمعات المتطورة. يقول برجسون إن الآثار المدمرة للآلية "يمكن من ثم أن تتصحح [...] يجب أن تشرع الإنسانية بتبسيط وجودها بالقدر نفسه من الحماس الذى تعقده به، ولا يمكن للمبادرة أن تأتى إلا منها؛ لأنها، وليست قوة الأشياء المزعومة، وأقل منها القدرية المحايثة للآلة، هى التى أطلقت على بعض الدروب روح الابتكار"[^87]. نرى من أين استقى روسى دو سال فى السنة التالية فكرة(سيبعدها بتهذيب) "إلغاء الآلات": ثناء رصين على فيلسوف عجوز من اقتصادى جاحد. على أن جورج فريدمان سيجادل من ناحيته بصراحة ضد "النزعة الصوفية" التى تبدو له "فلسفة التاريخ" هذه مشوبة بها[^88]، ولكن حتى قبل صدور كتاب ***منبع الأخلاق والدين***، قدمت البرجسونية المنتشرة ضمانة فلسفية لنقد الآلة لدى دوهاميل مثلاً الذى وضع تحت سلطة برجسون واحدةً من دراساته حول الفرق الشاسع بين الجامد والحى[^89].

ننتقل من هذه البيئة البرجسونية (فى الصفحات ذاتها أحيانًا) إلى جو مختلف تمام الاختلاف تعيدنا فيه "الحيوية" بالأحرى إلى داروينية جديدة غير دقيقة. المقصود عندئذ كما هو الأمر عند برنانو التشهير بالخطأ الحديث (أو بالخداع الأمريكى) الذى يقوم على تقديم انتشار الآلات كعلامة على الحيوية. يجيب برنانو فى عام ١٩٤٧ أنه لاشىء أكثر زيفًا : "كان اليانكيون يريدون حملنا على الاعتقاد قبل عشرين عامًا بأن الآلية كانت عرضًا من أعراض حمى مفرطة من الحيوية! لو كان الأمر على هذا النحو لحلت أزمة العالم بدلاً من أن لا تكف عن الاتساع، وعن التفاقم، وعن اكتساب طابع

غير طبيعى بالتدريج." يلحّ برنانو: لا، ليس هناك أى "حيوية مفرطة" فى الآلية. وأقل أيضاً لدى "إنسان الآلة"، هذا "المصاب بمرض عصابى" منتقلاً بالدور من الهيجان إلى الإعياء، تحت تهديد الجنون والعجز"(٩٠). ويضيف برنانو أن "الآلات المخصصة لعمل معين" هى تجنب الحياة والالتفاف عليها، وفى ذلك ليست الآلية خطأً فحسب، بل هى "أيضًا رذيلة الإنسان التى تقارن برذيلة المخدرات أو المورفين". الحقيقة هى أن "الإنسان الحديث يطلب إلى الآلات دون أن يجرؤ على قول أو ربما على الاعتراف بذلك لنفسه، لا على أن تساعده فى تحمل الحياة بل على تلافيها، وعلى تجنبها كما نتجنب عقبة كأداء"(٩١). إنّ الآلة بوصفها آخر مخدر للعالم المتآمرك هى "شكل فاسد من الهروب" بعيدًا عن الواقع، وخارج الحياة.

إن ثيمة التجريد الأمريكى هى على هذا النحو تصرُّف فى علاقة وثيقة مع ثيمة تألية الحياة والطابع المصطنع للديمقراطية. يكتب روبير آرون: "الحرية ليست هنا، إنها ليست لا فى الآليات ولا فى التجريدات"(٩٢). وحرية العقل أيضًا كما يقترح المؤرخ برنار فاى، منددًا بـ"التعليم المغلل بصلابة"(الصفة غامضة) للجامعات الأمريكية التى تفضل الصيغة التجريدية بالنسبة للقول الحى: "تتخلى الكلمة عن مكانها للعلامة، والكلام للأرقام، والفكرة للصيغة(٩٣)". يجمع المطعن الروحانيين والماركسيين. يأخذ البعض على أمريكا "عقلانيتها المنحطة"، والبعض الآخر إنكارها المقصود للعينى الاجتماعى. يحشد الاتهام بالتجريد ضد الولايات المتحدة بطابعه العام نفسه جمعًا خياليًا حيويًا، جسديًا، عضويًا، وكذلك اجتماعيًا، بل وحتى اسميًا. يقول كلوديل المصعوق من هذا الخواء إن أمريكا جوفاء. جوفاء ككلمة "مواطن" مطبقة على أمريكى ما كما يضيف سيجفريد: يكفى أن توجه أذنك. كان إميل بوتمى مؤسس معهد العلوم السياسية يقترح هذه التجربة العلمية: "أصغوا إلى رنين هذا الاسم: فرنسا، وانطقوا بعد ذلك اسم الولايات المتحدة: الأول يجعل الأعماق تصدح: ونكاد نقول إنه صوت ارتد وقتًا طويلاً قبل أن يخرج من الجوف. الثانى يعطى صخبًا جافًا وموجزًا، صخبًا فى الهواء الطلق، كحجرى صوان تصادما على مسافة خطوات منا(٩٤)". حيلة ممتازة من هندى أحمر لمفاجأة سرّ أمريكا الأكبر. يقترح روبير آرون سرًا آخر من ابتكاره؛ فهو يعامل الولايات المتحدة حرفيًا ويقبض عليها بتهمة عدم الوجود المشهود. الولايات المتحدة الأمريكية: ما ذا تشبه؟ لا تشبه بلدًا حقيقيًا على كل حال.البلد الحقيقى هو مثلاً: "إيطاليا"، وبئسًا للعقول الحزينة التى تجدها قد اختلفت قليلاً فى عهد الدوتشى. "بين إيطاليا، مهد العقل الأوروبى، وهذه الملحقات الاستعمارية التى كونتها البلدان التى تحمل أسماء أوائلية، اتحادالجمهوريات الاشتراكية السوفياتية URSS والولايات المتحدة الأمريكية USA، لا

يمكن أن يكون هناك من وجهة نظر منهجية وثقافية تنافس حقيقى[٩٥]". يلى ذلك ثناء على موسولينى.

كان إدموند بورك Edmund Burke يستنكر قديماً فى عام ١٧٩٠ أن الثورة، وقد أوجدت اعتباطًا وسمّت بلدانًا صغيرة ليس لها أى واقع بشرى كانت تتنبأ باختفائها السريع: كان يعنى بذلك المقاطعات الفرنسية. "البلدان ذات الأسماء الأوائلية"، لقية موفقة تعيد الشباب إلى الاتهام القديم بالاصطناع، وتقترح فى الوقت نفسه المماثلة التكوينية لمثل هذه البلدان مع الشركات المغفلة الاسم أو التروستات أو الاتحادات الصناعية، وهى إمبراطوريات ذات أسماء أوائلية. يشير روبير آرون إلى أنها خدعة بصرية ديمقراطية هذه الأمريكا؛ حيث "تختبئ قوى القمع الجماعى [...] تحت اسم بعض الشركات المغفلة الاسم أو التجمعات الصناعية أو المصرفية"[٩٦]. فلتكن هناك اليقظة الأبدية ضد هذه المؤامرة الواسعة! لقد كان فوكيه وجاك كور وخلفاؤهما مفروشين تحت هذه الألفاظ الأوائلية. يجب إبطال التفاهة الماكرة لهذه الأوائليات وهذه العلامات. يجب أن نشرح أن اسم USA ليس إلا اسمًا معاراً للقوة المادية. سيتوجب عما قريب بمساعدة الاحتلال أن نبين أن تجريد الدولار يحجب المؤامرة اليهودية الماسونية، كما جهد فى ذلك المعرض المعادى لليهود فى باريس عام ١٩٤١؛ حيث فسر كل عنصر جرافى فى العملة الخضراء بوصفه إشارة متفقًا عليها للكنيس أو المحافل الماسونية. دون نسيان التذكير شأن بيير أنطوان كوستو فى كتابه أمريكا اليهودية عام ١٩٤٢، بأنه تحت هذه العلامة جمعت الولايات المتحدة أوائلياتها إلى أوائليات اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية"[٩٧].

يجب أن نحمل على الحديث بكل قوة، الابتذال المصطنع للأيقونات، ويعرف دوهاميل على وجهى نيكيل أن يعثر على أثر مذبحة الهنود واستئصال الثيران الأمريكية[٩٨]. تقف على محيط السميوطيقا وهذيان التأويل، نزعة كاملة فى معاداة أمريكا مرتابة وطبشورتها فى يدها على استعداد لأن ترسم على ظهر القاتل الكوكبى علامة العار التى تساوى إدانة ـ لا السيد الملعون بل اليو إس أسساسسان (U$ A$$A$$IN).

الرجل الثالث

خواء، تجريد، وهم: إن خطاب المثقفين حول أمريكا خطاب قليل الواقعية عن أمريكا، أو إنه بالأحرى جهد عنيد لانتزاع واقعية أمريكا. يمكن للصيغ أن تكون فاجرة:

معارضة أمريكا بالبلدان الحقيقية، بالأمم العضوية، بالعيانات الجدلية. ويمكن لها أن تكون أكثر مهارة: ينتزع آرون ودانديو المكان من "بلاد اليانكيه" (فهى فى كل مكان)، ويخلط لوك دورتين العلامات والأشياء (عقار: تاجر العقارات، تاجر اللاشىء)، وبودريار مبخراً أمريكا(إنها ليست فى أىّ مكان). إنها بالطبع أمريكا منذ سنوات ١٩٢٠ التى ترسمها حفراً مختلف وجوه الإنسان باعتبارها لم تستجب للنداء.

أول إنسان، الأقدم، هو مخلوق الله، الذي تجد خصومته مع حضارة الآلات عديداً من المفسرين فى فرنسا. كان ماريتان Maritain فى أكثر كتبه تأثيراً عن النظام الدنيوى وعن الحرية، يعرف الحقبة الحديثة على النحو الذى أنجزت الولايات المتحدة نمطها، باعتبارها تحقق "الطرد التدريجي للإنسانى بواسطة المادة". كان يشهر بـ"ورثة العقلانية" هؤلاء الذين "يزعمون أنهم يفرضون علينا اليوم [...] أخلاقاً معادية للتقشف، تكنولوجية حصراً". كان يدعو للمقاومة: "إن لم يتم ترويض الآلة والتقنية، وإخضاعهما بالقوة إلى خير الإنسان، أى بربطهما كليًا وبصرامة للأخلاق الدينية وبجعلهما أدوات أخلاق تقشفية، فالإنسانية ضائعة بكل معنى الكلمة(١٠٠)". على الرغم من أن ماريتان قد حرص فيما بعد على تأكيد الطبيعة "الروحية" لأمريكا، فإن كتاباته السابقة على الحرب ستسقى لزمن طويل نزعتى معاداة الحداثة ومعاداة الآلية الكاثوليكيتين، اللتين صار جورج برنانو الناطق العنيف باسمهما؛ فالنصوص المجموعة فى كتاب *الحرية لماذا؟* (١٩٥٣) هى بين أعنف النصوص المعادية لأمريكا فيما بعد الحرب؛ فهى تبدأ بنوع من استلهام الإنسان، هذا الإنسان "المخلوق على صورة الله"، والذى يمضى برنانو باسمه فى حملة صليبية، "ولكن إذا كان الإنسان حقًا مخلوقًا على صورة الله [...]، إذا لم يكن بوسع الإنسان تحقيق نفسه إلا فى الله؟ إذا كانت العملية الدقيقة فى فصله عن جزئه الإلهى - أو على الأقل إيقاف نمو هذا الجزء بصورة مطردة حتى يسقط جافًا كعضو لم يعد الدم يجرى فيه - تؤدى إلى جعله حيوانًا ضاريًا؟ أو أسوأ من ذلك أيضًا، حيوانًا مستخدمًا إلى الأبد، حيوانًا أهليًا؟ أو أقل أيضًا، شاذًا، مجنونًا(١٠١)؟" الأمر يتطلب العجلة: "فعالم الغد سيكون إما ديكارتيًا أو هيجليًا"(١٠٢)، كما يحذر برنانو فى إثر ماريتان واللا امتثاليين - أى أمريكانيًا، هذا إلا إذا...

الإنسان الثانى لايرتبط بعلاقات جيدة مع الإنسان الأول. إنه الفرد المستقل والعقلانى لعالم أمين. (العالم الذى يهدر كلوديل ضده فى رسالة إلى أنييس ماير: "*الحرية الفردية* ***Individual liberty*** ! ليس هناك *حرية فردية* ***Individual liberty***. ليس هناك إلا حرية أطفال الإله(١٠٣)"). تفتخر أمريكا بأنها تحترم هذا الفرد، بل وحتى

تشجع "ملحقاته" الشرعية، لكن حذار من الغش! هذه الفردانية ليست فردانيتنا، بل إنها كما يشرح تارديو عكس فردانيتنا: "إن الفردانية التى يتشرف البلدان أيضاً بها تخضع لدى كل منهما إلى قوانين متضادة؛ فالفردانية الأمريكية أكثر اجتماعية من الفردانية الفرنسية؛ ففى الولايات المتحدة الفرد يندمج. أما فى فرنسا فهو ينعزل(١٠٤)". هذا الفرد مهدد، ويجب الدفاع عنه ضد "حضارة الجماهير". وأمريكا ليست على الرغم من أساطيرها الخاصة بها جنَّة الفرد، ولا أرض الفردانية المختارة. القطيعة جلية حول هذه النقطة بين الخطاب الفرنسى الذى يفرض نفسه اعتباراً من سنوات ١٩٣٠ والقراءة "الأنجلو ـ ساكسونية" التى كانت منذ فيلاريس شاسل وحتى بداية القرن العشرين قد اقترحت من حول مربى الغنم **squatter**، والمستعمِر **colon**، والحدود **frontier s man**، تصنيفاً كاملاً للطاقة الفردية الأمريكية. اعتباراً من سنوات ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠، ولبقية القرن العشرين جَهِدَ الخطاب المعادى لأمريكا على فك هذه "الميثولوجية" اليانكية، وعلى تقديم المجتمع الأمريكى بوصفه طاحناً لكل فردية. الرهان ذو أهمية؛ فهو يعنى احتمالية الاتهامات بـ"الشمولية"، لكنه أيضاً وسيلة لهدم الاعتقاد بالعصامية، وبالمجتمع المفتوح، وبالنجاح الممكن على الدوام. بحجر واحد نصطاد أسطورتين.

هذا الافتقار فى أمريكا للفردانية الحقيقية هو لدى أندريه سيجفريد واقع إثنى ثقافى يرتبط فى المقام الأول بغياب الهجرة الفرنسية. ويخلص سيجفريد، وهو يشير إلى هذا النقص فى "الفردانية الغالية فى الخليط الأمريكى إلى التضاد المطلق الذى تقدمه من هذه الناحية فرنسا والولايات المتحدة: "إن فرنسا، وهى حضارة الأفراد، تقع على النقيض من المجتمع القطيعى للإنتاج الذى هو مجتمع أمريكا المعاصرة(١٠٥)". الفرنسى حسب سيجفريد أشد "عصياناً"، وأشد "لاإجتماعية" من أن يقبل مجتمعاً ينزع إلى "تقليص أصالة الفرد"(١٠٦). لن يقول دوهاميل شيئًا آخر؛ فنزعته فى معاداة أمريكا هى جوهرياً احتجاج ضد "انمحاء الفرد، إنكار وإعدام الفرد"(١٠٧). وعلى أن هذا الدفاع عن الإنسان ـ الفرد كلى الحضور لدى سيجفريد ودوهاميل فإنه ليس احتكاراً لهذيْن المحافظيْن؛ لأن الدفاع عن الفرد يعنى أيضاً امتداداً للاحتجاج البودليرى المُطالِب بحقوق الفنان والكاتب والمبدع المهدد بالاختناق، وتضامن المثقفين يجهل هنا الحدود الأيديولوجية. لقد كانت سيمون دو بوفوار تفكر دون شك بهذا الوضع للمثقف ـ وليس له فحسب ـ فى عام ١٩٤٨ حين تكتب : "فى أمريكا، الفرد ليس شيئًا. إنه يؤلف موضوع عبادة تجريدية(١٠٨)".

ليس له فحسب؛ لأن هناك هذا الإنسان الثالث الذى يفكر به قليلاً أو كثيراً كل الذين يكتبون حول أمريكا، هذا الإنسان الثالث الذى هو عميل الارتباط الغريب بين الكاثوليكيين والجاحدين، أشباه الفاشيين وأشباه الشيوعيين، اللا امتثاليين و"المحتجين"، هذه الشخصية الجوهرية فى الدرامية الفكرية الفرنسية فى القرن العشرين؛ حيث تتقدم تارة مقنعة وتارة مكشوفة الوجه، هذا الوجه الرئيسى فى حد ذاته والأصلى فى الخطاب المعادى لأمريكا هو ***وجه الإنسان الثورى***.

ليس الثورى فى الخطاب الفكرى الفرنسى فى القرن العشرين بطلاً هامشياً ولا شخصية متطرفة. إنه يلاحق كشبح غير خطير كل النصوص المعادية لأمريكا(١٠٩). من هو اليسارى المتطرف المغتاظ، الناشط المغتم الذى يأسف لأنه ليس ثمة "ثورة يمكن تصورها فى المنملة الأمريكية"، مع استبقائه فى زاوية من نفسه بقية من أمل: "لأننا لا ندرى شيئًا مع الإنسان"(١١٠)؟ هذا المهيِّج الخطير هو جورج دوهاميل الذى لم نكن نرتاب لديه بمثل هذه الضروب من الولع. من هم المهووسون بالإحراق من أنصار العالم الثالث، لاهوتيو التحرير ربما الذين يأخذون على الولايات المتحدة أن لها "غاية عميقة [...] فى تلافى الانفجار النفسى الثورى" الذى ينقذ العالم(١١١)؟ إنهما الشريكان المتقشفان للنظام الجديد: أرون ودانديو، فى عام ١٩٣١. يمكننا الإكثار من التشابكات ومن الملابسات؛ فرجل الثورة يركض فى الخطاب المعادى لأمريكا كالكشاف: إنه صاحبه ***famulus*** وكما لو أنه مُحَرِّكه الأوّل.

إن خطاب المثقفين فى مواجهة الولايات المتحدة ثورى بصورة إجماعية. مع أثر سحرى لدى المناظرين من عتاة المعادين للجمهورية فى سنوات ١٩٣٠، يتمثل فى إعادة الاعتبار (على الأقل مؤقتًا) لهذا الشىء العتيق المحتقر: الثورة الفرنسية. قليلون هم الذين لا يرفعون لمجرد ذكر اسم الولايات المتحدة شعارهم "إعلان حقوق الإنسان". فروبير أرون الذى أتى على القول عن نفسه إنه "معاد منهجيًا" للثورة، يُكنّ لها عاطفة متجددة لمجرد مقارنة إعلانى حقوق الإنسان: "عرف الفكر الفرنسى استخلاص عقيدة إنسانية حقيقية مما كان فيما وراء الأطلسى بالأحرى مجموعة إجراءات محلية(١١٢)". رأينا من قبل روسى دو سال يطالب بـ"إعلان لحقوق الإنسان" جديد كى يستر عواقب "التكنوقراطية". وبرنانو نفسه فى وسط نقد لاذع شديد العنف ضد "حضارة الآلات"، يذكر فجأة "آخر رسالة تلقاها العالم [من فرنسا]: هذا الإعلان لحقوق الإنسان الذى كان صرخة إيمان فى الإنسان، فى أخوة الإنسان للإنسان"، لكنه الذى كان يمكن أن يكون أيضًا صرخة لعنة على حضارة توشك أن تستعبد الإنسان للأشياء"، كما يضيف برنانو أمام جمهور نتصوره مذهولاً، "صرخة لعنة" إذن ضد هذه الحضارة التى وصفها لتوه بـ"الأنجلو ـ ساكسونية"(١١٣).

إعلان حقوق الإنسان عام ١٧٨٩ بوصفه إدانة لبلد إعلان الاستقلال: تحمل جرأة برنانو على التفكير. غالبًا ما نجد لدى المؤرخين ولا سيما لدى المؤرخين الأمريكيين المضطربين من عنف نزعة معاداة أمريكا الفرنسية، هذه الفكرة أن الخصومة تولد من تنافس بين ثورتين كبيرتين ديمقراطيتين: أي أن الفرنسيين قد أعلنوا حربهم ضد الأمة الوحيدة التي يمكنها أن تنازعهم البكورة الديمقراطية؛ والتي يمكنها أيضًا أن تتفاخر بأنها أعطت لمؤسساتها أسسًا أكثر ثباتًا وأقل صبغة بالدماء. الفرضية فاتنة، لكن تحليل الخطابات المعادية لأمريكا لا تؤكدها. هذه المنافسة المزعومة بين الثورتين لم تخطر لحظة واحدة ببال الفرنسيين الذين لم يشكوا أبدًا في الأولوية التاريخية ولا في المثالية العليا للثورة الفرنسية، حتى دون الحديث عن عظمتها الملحمية وقوتها الشعرية. لم يغذ المرجع الأمريكي أبدًا سوى "سواقٍ" جمهورية في فرنسا "الخيوط الضامرة من الإخلاص" التي يتحدث عنها رنيه ريمون(١١٤)؛ لأن الثورة الفرنسية على وجه الدقة تظهر فيها بوصفها الثورة الحقيقية الوحيدة. إن النقد الذاتي الذي قام به فريديريك جاياردیه في سنوات ١٨٨٠ كان يدور جميعه حول هذا الاكتشاف الذي صار بعد ذلك أشد البداهات عسرًا على الدحض: لم تكن الأمة الأمريكية ثورية أبدًا. هذا ما لم تكف بلا كلل فرنسا - وحتى فرنسا الأشد بورجوازية - عن مؤاخذتها على ذلك، لن تكف نزعة معاداة أمريكا الفرنسية في القرن العشرين عن استعادة وإعادة صياغة هذا المطعن سواء باسم قناعة ثورية حقيقية أو في أغلب الأحيان باسم كلمات ثورية رنانة منعزلة عن أي مشروع، ويؤلف استمرارها حتى الألف الثالث جزءًا لا يتجزأ من "الاستثناء الفرنسي".

"لقد وضعت أوروبا نواة أول جواب على الافتتان بالنزعة الأمريكية(١١٥)". هذه الجملة لجان ماري دوماناش تلخيص مثير للفضول لمايو ١٩٦٨؛ لأنه إذا كان الاحتجاج ضد حرب فييتنام قد لعب خلال الأشهر السابقة دورًا في استنفار الحركة الطلابية؛ فالولايات المتحدة لم تكن على رأس قائمة (لا وجود لها) المظاهرات ولا المضربين. بعد عشر سنوات يتخذ ر يجيس دوبريه موقفًا معاكسًا لرد الفعل السريع هذا؛ فهو يقرأ مايو ١٩٦٨ كما لو أنه سيناريو أمركة: "كان الطريق الفرنسي نحو أمريكا يمر بمايو ١٩٦٨(١١٦)". مِنْ تمرد العقل ضد "النزعة الأمريكية" لدى دوماناش صارت مايو ٦٨ لدى دوبريه المسرح الصغير (أو المهرج الكبير) لوضع فرنسا حسب المطلوب: بفضل مايو ٦٨ بوسعنا من الآن فصاعدًا "أن نصير أمريكيين حتى النهاية". وبدلاً من أن تكون علاجًا لإزالة التسمم من النزعة الأمريكية، كان بوسع "الأحداث" أن ترزق الفرنسيين بمورفين أمريكا للتضحية. "مزيدًا من الجهد أيها الفرنسيون من أجل

التخلى عن آخر أحلامكم: الشعب (العمال، الحرفيون، الطلبة)، الكتلة أو تحالف الطبقات (قوة الثقافة + قوة العمل)، إعادة استملاك جماعية من قبل العمال لشروط حياتهم وعملهم، الحفاظ على الجماعة القومية والتضامن مع المستغلين والمضطهدين فى العالم(١١٧)". يوضح هذا الفارق الكبير فى التأويلات حتى السخرية الاستثمارات المتناقضة التى كانت أمريكا موضوعها. يحتفل هاوى مايو فيها بثأر للعقل على "المادية" وعلى نزعة التبذير الخاصة بالنهج الأمريكى فى الحياة. إن من يحتقر مايو ٦٨ لا يرى فيه إلا تصفية فى آن واحد صاخبة ومرائية للكيان الثورى على الطريقة الفرنسية لصالح أمركة زاحفة. لا يتفق ريجيس دوبريه وجان مارى دوماناش على مايو ولا على ما يكون دون شك "النزعة الأمريكانية"ـ إنهما لا يتفقان إلا من أجل أن يجعلا من أمريكا القطب السلبى لتحليلاتهما المتباينة.

يجرف خطاب ما بعد مايو قدرًا من العناصر المتناقضة يكفى لكى يكون من الخطر استخلاص دروس ذات معنى واحد. يجب قبل كل شىء أن نميز بين الجاذبية التى بدأت الولايات المتحدة فى ممارستها على قسم من الشباب عبر الموسيقى والكتب والأفلام والجنس، وبين تأثير الثيمات الأشد إلحاحًا والتى تتكثف لتشكل الثقافة (أو الثقافة المضادة) لليسار المتطرف. لنقل دون أى حكم قيمة، كل شىء تقريبًا "عتيق": معاداة الآلية وكراهية التقنية، نقد الاستلاب كرغبة غير أصيلة فى "الأشياء"، عبادة القول كصيغة المضمون وبالطبع كمرجع تعزيمى إلى الثورة. ولم يكن دوماناش من هذه الناحية قد جاء فى غير أوانه حين رأى فيه بعثًا لنزعة فى معاداة أمريكا مصممة (ضمن تراث اللا امتثاليين) كيقظة للعقل، كما أن اليسار المسمى "كلاسيكيًا" لم يكن على خطأ فى أن يتعرف فيه غير مصدق أو منزعج نبرات ثوروية منصوبة، كالمتاريس نفسها، من ماضيه البعيد. وسواء أكان "انتفاضة الحياة" بالنسبة للبعض، أم عودة مذهلة للثورات بالنسبة للبعض الآخر، فقد وضع مايو ٦٨ دون أى ريب على السكك ولجيل كامل على الأقل خطابات الدفاع عن الإنسان التى كانت قد غذت بطريقة تنافسية نزعة معاداة أمريكا منذ سنوات ١٩٣٠. أما بالنسبة لاستيراد عناصر من الثقافة المضادة الأمريكية بعد مايو فهو أمر لا شك فيه، سوى أنه يجب وضع خط تحت كلمة المضادة من جهة، والإقرار من جهة أخرى بأنها قلما غيرت شيئًا من المشهدية الخيالية، الفرنسية بصلابة، للسنوات اليسارية المتطرفة: الأممية، حرب إسبانيا، المقاومة، العمالية والنشاط الستالينى فى سنوات ١٩٥٠، النضال ضد الحروب الاستعمارية. إن الاحتفال بالكومونة كما كانت على نحو عنيف الحالة فى عام ١٩٧١، ليس على وجه الدقة فكرة هوليودية؛ ولا حتى وودستوكية...

لقد أطلقت "أفكار مايو"، وقد ارتبطت بالاستنكار الحماسى للإمبريالية إمكانية خطاب سلبى على نحو شمولى حول الولايات المتحدة. وحتى معاداة الإنتاجية، التى ظهرت للمراقبين على المدى القصير بوصفها تغيرًا فى النموذج حاسمًا، قد نشطت تقليدًا عريقًا وقويًا. إن الآلة هى قلب للحياة: هذه الثيمة المشتركة لدى الإنسانويين على طريقة دوهاميل ولدى الشخصانيين والروحانيين، انبثقت من جديد فى عام ١٩٦٨. إنها تشكل جوهر نزعة معاداة الحداثة اليوتوبية والتحررية الخاصة بـ"حركة مايو ٦٨". إن الطاقة الموحدة (وأحيانًا المختلطة) لليسار المتطرف تقاربُ على هذا النحو بين ضروبٍ من النقد بقيت حتى ذلك الحين متوازية: معاداة الآلية المبدئية لمعادى المشاعيات ومعادى الآلية "الاختيارية" للتراث الماركسى، التى كانت كرست عداوتها للآلة "فى النظام الرأسمالى". صاروخ متأخر أشعلت فتيلته فى سنوات الثلاثين.

فى قلب هذا الخطاب: الثورة. بين التعزيم والتجسيد أعيد تمثيل مشهد على مستوى كبير كان نموذجه قد قدم قبل نصف قرن تقريبًا من قبل السريالية. ومن بين كل "الأجواء" الفكرية والأخلاقية التى دخلت فى التركيبة ضمن بيئة مايو ٦٨ كان الجو الوحيد جلى الحضور حتى على الرغم من صانعيه هو هذا. والحق أنه إذا كان هناك خطاب قامت فيه وثنية الثورة وكره أمريكا بتبادل العناية والتبرير؛ فهو بالضبط خطاب الحركة السريالية. كانت السريالية قطبًا فكريا وفنيا حاسمًا من أجل تنشيط نزعة فى معاداة أمريكا بدهيّة، وبوسعنا القول براقة لا تنفصل عن كلام ثورى يعسر دحضه لا سيما وأنه لم يكن يهتم كثيرًا بمرجعياته. وكان تأثيرها من القوة والديمومة؛ بحيث لم يثر العنف الخارق لألفاظها فى الشتائم أبدًا، ولا حمية نداءاتها للقتل أبدًا ولا هذه البلاغة العامة فى الإحراق وفى التدمير وفى الإعدام وفى الاستئصال أبدًا فى فرنسا أى تحفظ أو شك أو ارتياب. "لا يسعنا أن نمنع أنفسنا من التفكير"، كما كان يقر أخيرًا جان كلير، "بأنه على العكس من الطلائع الأخرى، يستمر السرياليون بالتمتع بتساهل غريب"(١١٨). ومع ذلك "تختلف البيانات السريالية قليلاً إن جهدنا فى قراءتها ببرودة عن الأحاديث المتطرفة التى تصدر عن الدافعين إلياالجريمة آنئذ من اليسار ومن اليمين". هل يدفع جان كلير بدوره التجريم بعيدًا؟ لا يسعنا إلا الانضمام على كل حال إلى ملاحظاته حول الماضوية الغريبة للسريالية التى ورثها مايو ٦٨، والحقيقة أن "العالم الحديث ليس فعلها" وهى لا مبالية على نحو مدهش بـ"الآلة، والسرعة والطاقة"، العزيزة على المستقبليين وعلى البنائيين. فى مواجهة الحداثة، تعتبر السريالية جبهة رفض مرتابة وعنيدة. ليس هناك إذن ما يدهش كثيرًا عند رؤية السرياليين جنبًا إلى جنب مع "الإنسانويين" المفضوحين والمنبوذين ما إن يعنى الأمر مهاجمة أمريكا.

يقولون :التدمير. يطلق أراجون في عام ١٩٢٥: "فلتنهار أمريكا في البعيد بأبنيتها البيضاء وسط المحرمات العبثية"(١١٩)، وستكون إهانة للسرياليين الذين يعتبرون أن المجاز ينطوى على قوة المنطق والصورة على قوة الفعل أن يُذكر بصددهم عدم الضرر "الشعرى". كما يذكر بذلك أيضًا جان كلير، لا تترك الخريطة المنشورة في *Variété* عام ١٩٢٩؛ حيث تتطابق قامة كل بلد مع الأهمية التى تضفيها عليه السريالية، في أمريكا الشمالية سوى كندا والمكسيك اللذين صارا من الآن فصاعدًا جارين؛ فقد تم استئصال الولايات المتحدة. وليست الزيارة الكئيبة لبروتون اعتبارًا من ١٩٣٩ إلى البلد الذى استؤصل من الخريطة السريالية قبل عشر سنوات هى التى ستحسن الأمور.

فى ٣٠ أبريل ١٩٤٩، مع عودته إلى البلاد كان على بروتون أن يتكلم فى المظاهرة السياسية التى دعا إليها التجمع الديمقراطى الثورى(*) لدافيد روسيه. يؤلف هذا الـ"يوم الدولى لمقاومة الديكتاتورية والحرب" محاولة إجابة على الهيمنة الستالينية على الحركات السلمية. وبصورة أكثر مباشرة أيضًا إجابة على المؤتمر العالمى لأنصار السلام المنعقد فى ٢٣و٢٤و٢٥ أبريل، تحت الرعاية الشيوعية، والذى أبعد منه كل المنحرفين. على أن مظاهرة التجمع الديمقراطى الثورى أقل سهولة بما لا يقاس؛ ففى الخارج يجاور التروتسكيون والتحرريون الماركسيين النقديين والسلميين غير المنحازين. على أنّ تدخل عالم أمريكى (فرضه الممولون المجهولون:النقابات الأمريكية ووكالة الاستخبارات الأمريكية) لصالح الردع النووى قلب الأمسية قبل أن يتمكن بروتون من إلقاء كلمته.

يبقى النص الذى لا يكف عن الإدهاش، يبدأ بروتون بالطبع بالابتعاد عن الستالينية، لكنه فجأة، وفى منتصف الطريق، يغير من اتجاهه، وينحرف نحو الغرب، وينطلق فى هجوم ضد الولايات المتحدة أشد حماسًا من إدانته "بلا لبس" كما يقال لجمهوريات الاتحاد السوفيتى: "كل واحد ممن عرفونى يعرف أننى أوجه ضد الولايات المتحدة أسوأ المآخذ لا الشخصية بل التى تتجاوز الشخصية، إلى درجة أننى لم أرتبط خلال خمس سنوات من الإقامة فيها بأية صداقة." (تتركنا الحجة حالمين). يتبع ذلك قطعة مختارات: "أكره بقدر ما يستطيع أى واحد وبقدر ما يكرهوا هم أنفسهم السود وأكثر من ذلك أيضًا، إن أمكن، الطريقةَ التى تصرفوا بها مع أصدقائى الهنود. إننى

(*) التجمع الديمقراطى الثورى :حزب صغير من المثقفين خصوصًا أسسه جان بول سارتر ودافيد روسيه (اليسار المتطرف غير الشيوعى). (المترجم)

أستفظع النفاق الجنسى الذى يسود فى الولايات المتحدة الأمريكية والفسق المخجل الذى يتبعه." فلنقفز آسفين على مقطع حول العادات الجنائزية الأمريكية. "لاشىء فى الولايات المتحدة أشد تضاداً معى من نفعيتهم الرخيصة، لاشىء ينفرنى فكرياً مثلما ينفرنى ابتكارهم للديجست ***Digest***، ولاشىء يسخطنى أكثر من عقدتهم فى التفوق". إنه العرف فى فرنسا الذى كان يقوم آنئذ على الاستطراد من الريدرز دايجست ***Reader's Digest*** إلى الإمبريالية. ولا يقوى بروتون على تفويته: "أمقت هيمنتهم على أمريكا الوسطى وعلى أمريكا الجنوبية. إننى إذ آخذهم فى مرحلتهم الحالية، وإذ أجدنى مرغماً على الإقرار بأنهم سيمدون إلى القارة القديمة خطتهم الإمبريالية، أنكر بشدة أن تتمكن حماقة الكوكا كولا وقادتها ومصارفها من الانتصار على أوروبا..."(١٢٠)

كان من الضرورى إجمالاً الدعوة إلى اجتماع شعبى مضاد، ضد الستالينية لمنافسة جاك دوكلو **Jacques Duclos** وهو يتحدث عن "الديكتاتورية الوقحة التى يريد الأمريكيون أن يثقلوا بها على بلدنا، ديكتاتورية الطغاة الجهلة، المزدرين والمغترّين بتفوق الدولار..."(١٢١) رهاب: إنه بروتون نفسه الذى يلفظ الكلمة. "أعانى بعض الرهاب إزاء لغة كما لو أنه ورم اللغة الإنجليزية، والتى لا تستطيع كلمة "قلق" مثلاً أن تترجم إليها." نعلم أن بروتون لا يتكلم الإنجليزية إلا قليلاً، ولكن ليس إلى درجة أن يجهل وجود كلمات لترجمة القلق التى يوجد منها اثنتان: ***anguish*** و ***anxiety***، لكنه ليس عن ذلك إنما يتحدث ولكن عن نقص أقل علاقة بالدلالة أو إن فضلنا أكثر عسراً على الوصف، وهو النقص الذى يذكره ألبير بيجين مستشهداً ببرنانو: "من هو الأمريكى المعاصر الذى يبدى استعداده لسماع هذه الكلمة لبرنانو: - إن مصيبة الإنسان هى عجيبة من عجائب الكون(١٢٢)؟ " كان من الضرورى قول السوء كثيراً عن "المكان المسمى جرونوبير"(١٢٣) لضم مدّ معاداة أمريكا الخاصة بالنزعة الروحانية إلى ميناء القلق... إن كره الأمريكيين هو على وجه اليقين بين الفرنسيين معجزة فى الحب.

ولكن كم هم أمثال بروتون الذين لم يكرهوا الولايات المتحدة بهذا المقدار إلا لأنهم أحبوا الثورة كثيراً أو بالأحرى شبحها الذى لا يكفون عن ذكره؟

هوامش

(١) A. Maurois, *En Amérique*, Paris, Flammarion, 1933, pp. 70-71.

(٢) ظهرت الدفاتر الأمريكية لموروا Maurois أولاً بصورة منفصلة تحت عناوين: صلات *Contacts* (A.M.M. Stols, 1928، و" أمريكا غير المتوقعة "L Amérique inattendue, A. et G. (Mornay, 1931) وذلك قبل جمعها عام ١٩٣٣ في كتاب تحت عنوان "في أمريكا".

(٣) Daniel-Rops et D. de Rougemont, *Ordre Nouveau*, n0 3, juillet 1933, cité par J.-L. Loubet de Bayle, *Les Non-Conformistes des années 30. Une tentative de renouvellement de la pensée politique française*, Paris, Seuil, 1969, p. 260.

(٤) G. Bernanos, Révolution et liberté, [Sorbonne, 7 février 1947], *La Liberté pour quoi faire?*, Paris, Gallimard, 1953, pp.156, 158.

(٥) *La Nouvelle Critique*, nº 27, juin 1951, V.I. Jérôme, Aux sources américaines de la culture occidentale, pp. 29, 34.

(٦) *Etudes soviétiques*, nº 35, mars 1951, E. Tarlé, De Wilson à Truman. L acharnement antisoviétique des impérialistes américains, p. 11.

(٧) R. Vaillant, *Arts, Lettres, Spectacle*, 9 octobre 1957, dans *Chroniques II, D Hiroshima à Goldfinger*, éditité et dirigé par René Ballet, Messidor-Editions Sociales, 1984, p. 425.

(٨) R. Vaillant, Le ménage n est pas un art de salon, *La Tribune des nations*, 14 mars 1952.

(٩) أستعيد هنا العنوان الذي وضعته ميشيلا ناكشي لدراستها الغنية. انظر:
Michela Nacci, *La Barbarie del comfort. Il modello di vita americano nella cultura francese del 900*, Napoli, Instituto Italiano per gli Studi Filosofici/Milano, Guerini e Associati, 1992.

(١٠) E. Mounier, Manifeste au service du personnalisme, *Esprit*, octobre 1936, p. 129, cité par J.-L. Loubet del Bayle, *Les Non-Conformistes...*, p. 217.

(١١) G. Duhamel, *Scènes de la vie future* [1930], Paris, Arthème Fayard, Le Livre de

demain, 1938, p. 25.

P. Claudel à Agnès Meyer, 30 août 1929. *Claudel et L Amérique II, Lettres de* (١٢)
Paul Claudel à Agnès Mayer [1928-1929] Note-Book d Agnès Meyer [1929], édition établie par E. Roberto, Ed. de l Université d Ottawa, 1969, p. 132.

Roger Magniez, numéro spécial de *Réaction* intitulé Procès de l Amérique, nº 3, (١٣)
juillet 1930, p. 83.

R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain*, Paris, Rioder, 1931, p. 236. (١٤)

S. de Beauvoir, *La Force de l âge*, Paris, Gallimard, 1960, p. 363. (١٥)

S. de Beauvoir, *L Amérique au jour le jour*, Paris, Ed. Paul Morihien, 1948, (١٦)
p.316.

J. Cocteau, *Lettre aux Américains*, Paris, Bernard Grasset, 1949, p. 85. يتصرف (١٧)
كوكتو بعض التصرف بنص الأخوين جونكور (*Journal*, 17 juillet 1895) راويًا شهادة طبيب العيون لاندول حول "هاتين الحنفيتين الشهيرتين للماء البارد والماء الساخن في حوض من المرمر في زاوية من الغرفة يستحيل علينا نقلها من مكان إلى آخر، وهو ما يزعج تمام الإزعاج عند الاغتسال، وهذه الإضاءة بالغاز الموضوعة في وسط الغرفة، والتي لا تسمح لك بالقراءة في السرير الذي لا يوجد بالقرب منه لا شمعدان ولا كبريت، وهذه الخدمة التي يقوم بها الخدم الذين لا ينظفون بالفرشاة الملابس أبدًا": Paris, Fasquelle-Flammarion, 1956, t. IV, p.820.

David Strauss, *Menace in the West. The Rise of French Anti-Americanisme in* (١٨)
Moderne Times, Westport, Connecticut/London, England, Greenwood Press, 1978, p. 175.

"Their linkage helps to explain the extreme reaction against both", écrit David (١٩)
Strauss (*ibid.*, p.30).

J. Cocteau, *Lettres...*, p. 34. (٢٠)

A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui*, Paris, Armand Colin, 1927, p. 347.(٢١)

M. Blanchot, *Réaction*, nº 11, avril 1932, p. 14, cité par J.-P. Loubet del Bayle, (٢٢)
Les Non-Conformistes..., p. 254.

G. Duhamel, *Scènes...*, pp. 118, 117. (٢٣)

G. Friedmann, *Problèmes du machinisme en URSS et dans les pays capitalists,* (٢٤)
Paris, Editions Sociales Internationales, 1934, p. 108.

G. Duhamel, *Scènes...*, p. 121.. (٢٥)

Ibid. (٢٦)

A. Siegfried, Les Etats-Unis *d aujourd hui...*, p. 178. G. Duhamel, *Scènes...*, (٢٧)
p.113: هذا كل ما يبدو أنه حفظه من الفصل الخاص بـ"الإنتاج الصناعي" الذى سيدور الحديث عليه فيما بعد.

J. Cocteau, *Lettre...*, p. 86. (٢٨)

A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*, p. 163. تتكرر كلمة "فلسفة" عدة مرات في هذا الفصل. (٢٩)

B. de Jouvenel, *La Crise du capitalisme américaine,* dans *Itinéraire* 1928-1976, (٣٠)
textes réunis et présentés par Eric Roussel, Paris, Plon, 1993, p. 9. Jouvenel, après avoir été rooseveltien passe au PPF de Doriot mais rompt en 1938 par anti-hitlérisme.

A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*, p. 165. (٣١)

G. Duhamel, *Scènes...*, p. 81. (٣٢)

B. de Jouvenel, *La Crise...*, p. 146. (٣٣)

Notamment Hyacinthe Dubreuil, *Standards. Le Travail américain vu par un ouv-* (٣٤)
rier français (Grasset, 1929) et *Nouveaux Standards. Les Sources de la productivité et de la joie* (Grasset, 1931).

L. Romier, *Qui sera le maître, Europe ou Amérique,* Paris, Hachette, 1927, p.85. (٣٥)

F. Drujon, *L Amérique et son avenir,* Paris, Corrêa, 1938, pp. 158-159. (٣٦)

Ibid., pp. 112-113. (٣٧)

G. Duhamel, *Scènes...*, p. 117. (٣٨)

(٣٩) G. Friedmann, *Problèmes du machinisme...*, pp. 80, 79, 78.

(٤٠) *Ibid.*, p. 79.

(٤١) *Ibid.*, P. 102.

(٤٢) *Ibid.*, P. 104.

(٤٣) انظر الفصل التالي.

(٤٤) سنجده في دفاتر السجن لجرامشي الذي يعتقد أن أوروبا تستطيع أن تتمثل الفوردية المتلائمة مع رقابة ديمقراطية، لا التايلورية، وهي أيديولوجية أمريكية يتوجب رفضها.

(٤٥) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain...*, p. 83.

(٤٦) G. Bernanos, *La Liberté por quoi faire?...*, p. 58.

(٤٧) R. de Roussy de Sales, Un mouvement venu des Etats-Unis, la technocratie, *La Revue de Paris*, vol. 2, 1933: ظهرت كلمة "تكنوقراط" في اللحظة نفسها مثلاً لدى ر.روكولي: إنهم ليسوا "من نسميهم - التكنوقراط" [الذين] سيعالجون الأزمة الحالية". انظر: (R.Recouly, *L Amérique pauvre*, Paris, Les Editions de France, 1933, p. 5).

(٤٨) L. Durtain, Smiyh Building, *Quarantième Etage*, Paris, Gallimard, 1927, p. 223.

(٤٩) R. de Roussy de Sales, Un mouvement...

(٥٠) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui...*, p. 171. Il rappelle aussi l origine française du test (Binet et Simon), encore un brevet volé...

(٥١) B. de Jouvenel, *La Crise...*, p. 147.

(٥٢) *Ibid.*, p. 145.

(٥٣) B. Faÿ, *Civilisation américaine*, Paris, Sagittaire, 1939, pp. 84-85.

(٥٤) *Ibid.*, p. 85.

(٥٥) G. Duhamel, *Scènes...*, p. 81.

(٥٦) "Election aux , Gérald Cazaubon, *Défense de la paix*, nº 13, juin 1952, pp. 85-94 USA", هذه الصور المغرية (نرى أيضًا صور سيقان امرأة مرسومة بإعلان : يعجبني آيك like Ike تتضاد مع المعلومات الدقيقة التي يقدمها المقال.

(٥٧) B. Fa?, *Civilisation américaine* ..., pp. 82-83.

(٥٨) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui*..., p. 166. G. Duhamel, *Scènes*..., p.118.

(٥٩) J. de Fabrègues, *Réaction*, nº 8, février 1932, p. 24, cité par J.-L. Loubet del Bayle, *Les Non-Conformistes*..., pp. 260-261.

(٦٠) F. Drujon, *L Amérique et son avenir*..., pp. 21-22.

(٦١) A. Philip, *Le Problème ouvrier aux Etats-Unis*, Paris, Félix Alcan, 1927, p. 38.
على النسخة التي حصل عليها جورج فريدمان عام ١٩٣٠ وأوصى بها ميراثًا لمكتبة دار علوم الإنسان، كل نهاية الفصل هذه تحمل خطًا عريضًا بقلم أزرق...

(٦٢) J. Huret, *En Amérique (II)*, Paris, Fasquelle, 1905, p. 172.

(٦٣) G. Lanson, *Trois Mois d enseignement aux Etats-Unis*, Paris, Hachette, 1912, p.82.

(٦٤) G. Duhamel, *Scène*..., pp. 42-43.

(٦٥) J. Romains, *Visite aux Américains*, Paris, Flammarion, 1936, p. 31.

(٦٦) L. Durtain, Hollywood, *USA 1927*... ,[non paginé]

(٦٧) R. Aron, *Dictature de la liberté*, Paris, Grasset, 1935, p. 173.

(٦٨) Céline, *Voyage au bout de la nuit*, Paris, Gallimard, Folio, 1983, p. 252.

(٦٩) J.-P. Maxance, L Europe en danger, *La Revue française*, 22 mars 1931, p. 266, cité par J.-L. Loubet del Bayle, Les Non-Conformistes..., p. 56.

(٧٠) Daniel-Rops, Positions générales, publié par *La Revue française*, avril 1933, *Ibid.*, pp. 455, 454.

(٧١) Daniel-Rops, *Ordre Nouveau*, nº 3, juillet 1933, p. 3, cité par J.-L. Loubet del Bayle, *Les Non-Conformistes*.., p. 85.

(٧٢) R. Aron, *Dictature de la liberté*, Paris, Grasset, 1935, p. 28.

(٧٣) Voir Donald R. Allen, *French Views of America, in the 1930s*, New York & Lon-

don, Garland Publishing Inc., Troisième partie, The impact of Franklin Delano Roosevelt and the emergence from isolationism, pp. 245-321.

G. Duhamel, *Scènes* ..., pp. 34-35. (٧٤)

R. Aron, *Dictature*..., p. 111, je souligne. (٧٥)

S. de Beauvoir, *L Amérique au jour le jour*, Paris, Editions Paul Morihien, 1948, (٧٦)
p. 100.

G. Bernanos, Révolution en liberté..., *La liberté pourquoi faire*, ... pp. 158-159. (٧٧)

A. Béguin, Réflexions sur l Amérique, l Europe, la neutralité..., *Esprit*, juin 1951, (٧٨)
La France contre les robots de Bernanos est cité dans l article.

J.-M. Domenach, Le Diplodocus et les fourmis, *Esprit*, mars 1959. (٧٩)

S. de Beauvoir, *L Amérique*..., p. 270. (٨٠)

Et même d un polytechnicien de première année, "après boire", R.Aron et (٨١)
A.Dandieu, *Le Cancer américain*... p.87.

Ibid., p. 74. (٨٢)

S. de Beauvoir, *L Amérique*..., p. 385. (٨٣)

Ibid., p. 321. (٨٤)

G. Bernanos, Révolution et liberté..., *La Liberté, pour quoi faire*..., pp. 160-162. (٨٥)
لنسجل أن إمانويل مونييه الذى كان قبل الحرب يشهر بـ"التفاؤلية اللا إنسانية لإنسانوية فورد
ـ ستالين، يجادل فى عام ١٩٤٩ ضد برنانو (الذى "يتمسك بصخب الفصاحة") وبصورة أعم
ضد "نزعة معاداة أمريكا العاطفية والمتحمسة"، انظر :
(*La Petite Peur du xx[e] siècle*, Neufchâtel, 1949, (Euvre, Paris, Seuil, III, pp. 364, 367).

(٨٦) وهو ما لم يمنع إطلاقًا على العكس من تصور الخرق من عهد إلى أخر شأن فيلييه Villiers فى
حواء المستقبل *Eve future*، أو الزعم مثل جول هوريه أمام الآلات الأمريكية، بأنها "تبدو وهى
تفكر" (*En Amérique*..., p. 295)

P. Bergson, *Les Deux Sources de la morale et de la religion*, Paris, PUF [1932], (٨٧)

1992, pp. 327-328.

G. Friedmann, *Problèmes du machinisme...*, p. 99, note 4, en particulier. (٨٨)

G. Duhamel, *Scènes...*, p. 99. (٨٩)

G. Bernanos, Révolution et liberté..., *La Liberté pour quoi faire...*, pp. 155-156. (٩٠)

Ibid., p. 155. (٩١)

R. Aron, *Dictature...*, p. 22. (٩٢)

B. Faÿ, *Civilisation américaine...*, p. 83. (٩٣)

E. Boutmy, *Eléments d une psychologie politique du people américain*, [1902], (٩٤)
Paris, A. Colin, 1911, p. 77.

R. Aron, *Dictature...*, p. 108. (٩٥)

Ibid., p. 110. (٩٦)

P.-A. Cousteau, *L Amérique juive*, Paris, Editions de France, 1942, p. 71. (٩٧)

(٩٨) عندى فى جيبى عدة قطع صغيرة من نقودكم مطبوع عليها كلمة حرية liberty. وماذا ترون تمامًا تحت هذه الكلمة؟ صورة هندى أو ثور أمريكى. يا للسخرية! جنسان حيان وحران قمتم بالقضاء عليهما فى أقل من ثلاثة قرون!" (G. Duhamel, *Scènes...*, p. 36.). أما وقد افتتن بهذه السميولوجيا فإن المؤلف المتعاون والمنتحل نسبيًا لكتاب لماذا دخلت أمريكا الحرب؟ يستعيدها لحسابه: "- الحرية Liberty - هى أيضًا النقش المحفور على قطعة النيكيل إلى جانب - ياللسخرية - رأس هندى بارز(Henri Nevers, *Pourquoi l Amérique est-elle en guerre* ?, Paris, Nouvelles éditions françaises, s.d., p. 11)

(٩٩) انتهى بودريار نفسه إلى العثور على رجله: "كاميكاز" ١١ سبتمبر، الذى "يبعث فعله [...]فى آن واحد الصورة والحدث". (انظر : روح الإرهاب Esprit du terrorisme، صحيفة اللوموند Le Monde، ٣ نوفمبر ٢٠٠١).

J. Maritain, *Du Régime temporel et de la liberté*, Paris, Desclée de Brouwer, (١٠٠)
1933, pp. 110, 112-113. Les deux dernières citations sont reprises de son *Songe de Descartes*.

G.Bernanos, Révolution et liberté..., *La liberté pour quoi faire?...*, p.154. (١٠١)

(١٠٢) *Ibid.*, p. 63.

(١٠٣) P. Claudel à Agnès Meyer, 23 juillet 1929, *Claudel et l Amérique II...*, p. 99.

(١٠٤) A. Tardieu, *Devant l obstacle.* L Amérique et nous, Paris, Editions Emile-Paul Frères, 1927, P. 53.

(١٠٥) A. Siegfried, *Les Etats-Unis aujourd hui...*, p. 19.

(١٠٦) *Ibid.*, p. 23.

(١٠٧) G. Duhamel, *Scènes...*, p. 36. لن ينتهى الاستشهاد لدى دوهاميل ومعاصريه بكل المجازات الحيوانية والقطيعية التى تم تبنيها لوصف المجتمع الأمريكى: نعامة، مأرضة، منملة،...إلخ، وفى الخيال الذى توجد فى فترة ما بين الحربين يبدو المجتمع الأمريكى فى آن واحد "غير عضوى" وحيوانى ـ الجماعات الحيوانية الدنيا لا تفعل إلا فى مدّ التخيلات الشعبية الآلية.

(١٠٨) S. de Beauvoir, *L Amérique...*, p. 100.

(١٠٩) يسجل بيير نورا فى مقال خصصه لنزعة معاداة أمريكا أن الفكرة الثورية هى فى قلب اليسار الذى هو نفسه فى قلب الثقافة القومية. انظر :
("America and the French Intellectuals ", *Daedalus* nº 107, Winter 1978, p. 334.

(١١٠) G. Duhamel, *Scènes...*, p. 123.

(١١١) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain...*, p. 162.

(١١٢) R.Aron, *Dictature...*, p.123.

(١١٣) *G. Bernanos, Révolution et liberté..., La liberté pour quoi faire?...*, p.154.

(١١٤) René Rémond, *Les Etats-Unis devant l opinion française.* 1815-1852, Paris, Armand Colin, 1962, p. 826.

(١١٥) J.-M. Domenach, *Esprit*, juin-juillet 1968.

(١١٦) R. Debray, *Modeste Contribution aux discours et cérémonies officielles du dixième anniversairee*, Paris, Maspéro, 1978, p. 39.

(١١٧) *Ibid.*, pp. 51-52.

(١١٨) J. Clair, Le surréalisme et la démoralisation de l Occident, *Le Monde*, 22 novembre 2001.

(١١٩) L. Aragon, Fragments d une conférence, *La Révolution surréaliste*, nº 4, 1925, p. 25.

(١٢٠) A. Breton, Allocution au meeting du 30 avril 1949, (*Euvre complètes*, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléade, vol. III, 1999, pp. 1107-1113.

(١٢١) J. Duclos, cité dans *La Nouvelle Critique*, nº 30, novembre 1951, p. 125, le discours date de septembre.

(١٢٢) A. Béguin, Réflexions sur l Amérique, l Europe, la neutralité...,*Esprit*, juin 1951.

(١٢٣) "لم أركع أبدًا فى المكان المسمى لا جرونويير" [...]، انظر:
"Pleine Marge" (1940), *Poèmes*, Paris, Gallimard.

الفصل السادس

تمرد العقل،

معركة الثقافة، دفاع عن الجمعيات المهنية

روح أمريكية! سيكون ذلك ادعاءً. وربما سيكون ذلك مستحيلاً. نكتفي إذن بالأمركة.

كادمي - كوهين،

الفظاعة الأمريكية (١٩٣٠).

نقول لا! لا نريد دروسًا في الفطائر...

لا نوفيل كريتيك (١٩٥١).

أتينا على رؤية كيف إن الالتماس الثورى، المقدم بوصفه محايثًا لإنسانية أصيلة، قد ربط على امتداد القرن العشرين بين نزعات فى معاداة أمريكا لا تتلاءم ظاهريا فيما بينها. يبقى علينا أن نبين كيف أن العداوة الثقافية، وهى عنصر دائم وفى أغلب الأحوال سائد فى الخطاب المعادى لأمريكا تستمد قوتها الفريدة فى فرنسا لا من الثقل الخاص الذى يملكه المثقفون فحسب - وهو أمر بدهى - بل كذلك وبصورة أكثر حذقًا من التقاء تقليدين كبيرين، روحانى وعلمانى، قلّ أن مالا فى العادة إلى الاشتراك معًا فى قضية واحدة، لكنهما يتحالفا استثنائياً ضد أمريكا المرائية والفظة. وحين نقول عنهما حليفين، فإننا لا نقصد أحلافًا محتملة - كتلك التى تمت - وهى مهمة رمزيًا - بين الشيوعيين ومسيحيى اليسار خلال الحرب الباردة - بقدر ما نقصد مزيج خطابين. هنا أيضًا أفادت أمريكا بوصفها مكان امتزاج اجتماعى؛ فقد انصهرت حول موضوعها وعلى حسابها بالتدريج فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر التماسات روحانية واحتجاجات باسم الثقافة صادرة عن معسكرين يعادى أحدهما تقليديًا الآخر. إن فضح الحضارة "المادية" الأمريكية باسم قيم روحية ودينية وجد صداه ثم، مع علمنة المجتمع الفرنسى، امتداده ومحطته إن لم يكن "بديلة" فى تشهير بالولايات المتحدة باسم قيم ثقافية كلها دنيوية لكنها مكلّفة خِفيةً بمتعالٍ مُعلمَن. وفى مفترق الطرق: كلمة روح *Esprit* التى شجع تعدد معانيها انتقالها كشاهد بين الثورة الروحية والمقاومة الثقافية.

اكتسب التشهير الروحانى بأمريكا كل قوته فى سنوات ١٩٢٠ و١٩٣٠ . وتمثل هدفه فى حشد الأرواح باسم الروح نفسه. وسواء كتبت كلمة الروح بحروف كبيرة ***ESPRIT*** أو بحروف صغيرة ***esprit*** فإن الكلمة تسمح بحرية كبيرة فى التأويل. إنها هى الأخرى ملائمة إذن للتقارب. فرنينها الدينى يسمح لها بضم الجبهة الواسعة من المقاومة الكاثوليكية لـ"الأمركة" التى تمتد من كلوديل إلى برنانو ومن موراس إلى مونييه. لكن "أولوية الروحى" التى أكدها جاك ماريتان فى كتاب مهم عام ١٩٢٧ ليست مطلبًا يمليه الإيمان فحسب. إنها أيضًا شعار الكثير من "اللا امتثاليين" غير المتدينين. فيما وراء حلقة المؤمنين فى هذه المناطق الملتبسة حيث ترخى الشخصانية قلوسها الكاثوليكية، يطرح "الروحى" بوصفه قيمة معركة ضد كل نزعات الاختزال (المادية أو العقلانية)، دون افتراض التعالى الدينى بالضرورة ولا اقتضاء خضوع رهبانى. إن الدفاع عن الروح يريد أن يكون آنئذ جوهريًا تنبيهًا للقيم الحقيقية المنسية أو المنحطة من قبل أمريكا. "إن ما يهيمن إنما هى العوامل الروحية والأخلاقية"، كما يطرح روبير آرون فى عام ١٩٣٥(١). وقبل عدة سنوات من ذلك كان كتاب السرطان الأمريكى يقدم تعريفًا مفحمًا لأمريكا بوصفها "ضلال الروحى"(٢). ومن بين الصيغ العديدة اللاذعة التى صيغت فى فترة ما بين الحربين، تبدو هذه الصيغة كشافة بوجه خاص. لا لأمريكا دون شك؛ وسيشعر ماريتان الذى غالبًا ما يذكر فى هذه المناقشة بالحاجة المتأخرة (١٩٥٨) لسحب ضمانته معرفًا الشعب الأمريكى بوصفه "الأقل مادية بين الشعوب الحديثة التى بلغت المرحلة الصناعية"(٣)، لكنها كشافة لنزعة فى معاداة أمريكا محمولة على أن تجعل من أمريكا وحشًا تحت نظر الروح **Esprit**.

يتم الانتقال بهدوء بين البلاغة الروحانية ذات النتائج الثقافية فى فترة ما قبل الحرب والبلاغة الثقافية ذات الذكريات الروحانية من فترة ما بعد الحرب. بعد عام ١٩٤٥ يشترك كبار "المدافعين عن الروح" فى معاداة أمريكا مع أشد عتاة المتمسكين بالمادية التاريخية والجدلية. سيعرف الأخيرون هؤلاء بوجه خاص أن يتحملوا عبء ميراث "الدفاع عن القيم" الذى خلفه خصومهم أيديولوجيا، وأن يستميلوا لصالحهم جزءًا كبيرًا من رأس المال الرمزى الذى زج به قبل الحرب صليبيو النزعة الروحانية. فى مواجهة أمريكا متهمة بـ"التآمر ضد الذكاء" والتمرغ فى الاستلاب المضنى، سيحددون لأنفسهم خط عمل فعال، بين الدفاع عن "العمل الفكرى" (الذى أنزلت قيمته أو حطت منه الرأسمالية الأمريكية) ونقد هذه المادية العامية التى هى النهج الأمريكى فى الحياة. نرى آنئذ الشيوعيين الستالينيين ومتابعى الشخصانية الكاثوليكية يبحرون جنبًا إلى جنب، متوحدين فى نزعة فى معاداة أمريكا فتاكة، ذات مظهر سلمى، وذات مضمون ثقافى وطموحات أخلاقية.

معرض للأديان وإفلاس الروحى

إن الاحتجاج ضد أمريكا باسم "الروحى" يمد جذوره فى تقليد طائفى لا يتبناه دومًا لكنه يدين له بجزء من موضوعه. "بلد ليس الصليب فيه إلا علامة زائدًا ...": يطرح بول موران فى الصفحة الأخيرة من أبطال العالم هذا الرمز بوصفه زهرة قاتلة على قبر أبطاله اليانكيين الذين أتى على جعلهم يموتون بعضهم وراء البعض الآخر(٤). من المستحيل أن نجهل فى بداية الحملة الصليبية التى تنصب كل جيلها تقريبًا ضد أمريكا "المادية"، الاشمئزاز الطويل للكاثوليكية الفرنسية من البروتستانتية عامة وأشكالها الأمريكية بوجه خاص. قالبان يتواجهان فى فرنسا فيما يتعلق بوجود الطابع الدينى أو عدم وجوده لأمريكا. وعلى تناقضهما فإنهما يتعايشا مع ذلك منذ أكثر من قرن. الأول يجعل من أمريكا بلدًا معجونًا بالدين على الرغم من التصريحات المبدئية للآباء المؤسسين ومن علمانية مسجلة شرعًا فى الدستور: من الدين، "هناك منه فى كل مكان فى الجمهورية الأمريكية"، كما يسخر أوروبان جوهييه فى بداية القرن العشرين(٥). أما الثانى فهو ينزل أمريكا فى منزلة البلد الذى أضاع كل فكرة عن الدين: فـ"الإيمان" يتقلص فيها فى أفضل الأحوال إلى أخلاق اجتماعية غامضة، وفى أسوأ الأحوال إلى موقف منافق، إلى مراءاة معممة تغطى ابتزازات ثرية. تقسيم عمل اتهامى؛ فالكهنة يستنكرون تدينًا أمريكيًا زائفًا، فى حين أن المضادين للكهنة يشهرون بخداع جمهورية تزعم أنها علمانية لكن كل شىء فيها يتمّ فيها واليد على التوراة أو التوراة باليد. إن الولايات المتحدة شديدة التدين بالنسبة لغير المؤمنين، وقليلة التدين بشدة بالنسبة للمتدينين.

يتم الاتفاق إذن بين هؤلاء وأولئك من أجل التنديد بهذا الدين المزيف ـ سواء بوصفه مزيفًا أو بوصفه دينًا، بل أفضل من ذلك؛ إذ إن النفور الذى يوحى به يقرب من وجهات النظر. فبعض مضادى الكهنة المغالين يُسكِتون أهواءهم المهيمنة. فهم يعترفون وقد ضلوا تحت السماوات الأمريكية بسحر وفضائل السماء الكاثوليكية. كان معاصر كومونة ٤٨ جاياردييه من قبل، كما نذكر، قد أدار قبعته؛ فلا شىء يماثل فى نظره معاشرة البروتستانتيين الأمريكيين لإدراك أن "هناك زرقة أكثر" فى الكاثوليكية(٦). لم يبق إلا أن تصير الرحلة إلى نيويورك أو إلى شيكاغو الطريق إلى دمشق؛ فقد كاد أوروبان جوهييه العدو الصلب للإكليروس أن يقع تحت فتنة الاهتداء. "شعرت هذا الأحد بالرغبة فى أن أجعل من نفسى كاثوليكيًا"، كما اعترف بعد أن أصغى إلى موعظة ألقاها "شاب متزوج" خلفه مضطربًا(٧): فالكفرة القساة والكاثوليكيون الورعون

يشتركون على هذا النحو فى النفور - نفور يبوح به بول كلوديل السفير فى واشنطن إلى يومياته بمفردات تخلو من الدبلوماسية. وكضحية لواجبات أعبائه يحضر قداساً أسقفياً أقيم فى الكاتدرائية الوطنية فى واشنطن بعد أن تسنم فرانكلين ديلانو روزفلت أعباء منصبه. "مرغم مرة أخرى ومع نفورى العميق على حضور صَبيْنَة أسقفية بمناسبة تدشين الرئيس الجديد. منفرة بالخداع والنفاق [...]؛ لكى يفسر المرء لنفسه الخواء، والقحط، والكبرياء، والبؤس الفكرى، لطبع وروح البروتستانتى، فإن عليه أن يحضر واحدة من هذه الفروض التى تلقى بالضوء على الحياة الروحية لكل هؤلاء التعساء (٨)." من الخسارة أن هذا الخبير فى الهداية لم يقابل خلال إقامته الأمريكية الأولى أوروبان جوهييه...

إن نمطية القوالب المتناقضة المرعية فى فرنسا حول الحالة الدينية للاتحاد يمكن أن تنحل فى مقترح فريد: الأمريكيون هم مواطنون مزيفو التدين فى دولة مزيفة العلمانية. ضمن منطق خطاب العداوة لا يدمر هذان المقترحان أحدهما الآخر، إنهما يرسمان خطوطاً فى المحاجة متنافسة ذات آثار يمكن مراكمتها. يلاحظ هذا الأثر فى المراكمة منذ نهاية القرن الثامن عشر وعبر القرن التاسع عشر بأكمله. فى مواجهة الأب رينال الذى كان فى تاريخ الهندين يعدّ قضية التزمت فى إنجلترا الجديدة و"عدم تسامحها المثير للاشمئزاز" و"روحها فى الضلال" ذا "الأشكال الدموية"(٩)، سيشرع جوزيف دو ميستر بقضية متممة أكثر مما هى معاكسة لبلد ضال كله، ممعناً باستمرار فى الانحراف بعيداً فى الخطأ البروتستانتى. وسواء أكان ابن عصر التنوير أم طفل الكنيسة، لا يبدو أن الفرنسى يتعرف نفسه فى هذا التدين المبعثر، ذى التقشف غير المفهوم والإطار العقائدى الذى لا يدرك. وإذ تؤكد نكتة تاليران حول الولايات المتحدة - "اثنان وثلاثون ديناً وطبق واحد" - فإن كتابات فانى ترولوب الساخرة حول التجديدات ***revivals*** الهستيرية لا تحسّن صورة أمريكا الدينية لدى الجمهور الفرنسى. لم تتغير الأمور كثيراً فى نهاية القرن التاسع عشر حيث تسود لوازم الكذب و"تجارة النفوس"(١٠). تقدم أمريكا لإميل باربييه مشهد "معرض للأديان"، ذى "تنوع كرنفالى من الكنائس وأمكنة الصلاة؛ حيث تتساجل أشد النخب إضحاكاً من المنافقين والممسوسين، كهنة مضحكين ذوى ماض غامض، فرسان صناعة يقومون بتجارة تهريب الآلهة، مهرجون محترمون يفرطون فى الدعاية والطيبة لاجتذاب المتسكعين إلى بيوتهم المقدسة"(١١). وبفرق عشر سنوات، ها هو خطاب جوهييه نفسه: "للأعمال دين أمريكى، والدين الأمريكى هو عمل (١٢)..." لكن العداوة الفرنسية ليست مخصصة على الإطلاق للملل - عرف المورمون المحيرون آنئذ رواجاً أدبياً كبيراً، ولا للقسس الغربيين

الذين يجوبون فى عمق البلاد. إنها مسكوبة بالقسطاس على أكثر الكنائس استقراراً وثراء. رحالة آخر من بداية القرن العشرين، إدمون جوهانيه، يلغى "كنائس أصحاب الملايين" من الشارع الخامس. ليس باسم الاجتماعى على الإطلاق، ولا باسم الراديكالية الاشتراكية الصلبة، بل باسم الكاثوليكية "المتفوقة على البروتستانتية"، بما فى ذلك كما يحدد دون تفاصيل إضافية، "فى إدارة الأعمال الدنيوية"(١٣).

وفى حين بلغ التوتر فى فرنسا بين "الإكليروس" و "المعادين للإكليروس" أوجَه، كان الإجماع يتم إذن أمام مشهد الأديان الأمريكية ذات التدين المريب التى لا تحصى. على أن هذا التقارب لم يتضرر لا بالجدال الفرنسى حول الفصل بين الكنيسة والدولة، ولا بالسجال الذى يشغل الأوساط الكاثوليكية عدداً من السنوات حول "النزعة الأمريكية"؛ ففضلاً عن أن هذا الشجار بين الاتجاهين الليبرالى والمحافظ فى وسط الكنيسة ليس إلا أمريكيًا عرضًا، فإنه يبقى أكثر اقتصاراً على حلقات ضيقة داخل الكاثوليكية نفسها من أن يطبع التصورات الفرنسية عن أمريكا(١٤).

العلامة الأصيلة الوحيدة على منعطف القرنين التاسع عشر والعشرين: الفرضية التى يصوغها إميل بوتمى فى كتابه *مبادئ علم نفس* سياسى للشعب الأمريكى. ذكرنا من قبل العلاقات الملتوية التى كانت لإميل بوتمى مع مؤلفات دو توكفيل؛ فتقديمه للظاهرة الدينية الأمريكية لا ينفصل عن إعادة الاعتبار الجزئى والغامض الذى يقترحه لمؤلف عن الديمقراطية. وخلافًا لمعاصريه، لم يَفتْه الثناء التوكفلى على تزمت إنجلترا الجديدة بوصفه مدرسة للحريات الأمريكية، لكن بوتمى يدور مع كثير من الحرج من حول هذه الأطروحة التى يرى أهميتها لكى ينتهى أخيراً إلى مواربتها. نعم، إن اليانكيه يعرف نفسه بإيمانه الدينى. نعم، إن هذا الإيمان هو "مسيحية لاجئين". نعم، لقد "صنع الدين والكنيسة اليانكيه" الذى قام هو نفسه بـ"صنع أمريكا". نعم، إن "أمريكا بقيت بصورة إجماعية كبيرة مسيحية" ,ولكن هذه المسيحية فى نهاية الأمر، ليست إلا شراباً بلا لباب، فضلة "بلا أريحية ولا عبير" (١٥). لا شيئ جديد حتى الآن. يقبل بوتمى الأهمية التاريخية للتزمت دون أن يرى فيه نبعًا حيًا للحاضر. لكن كيف نفسر أنّ هذا التدين حتى وإن كان مخففًا، لا يزال يحقق إجماع الأمريكيين بقوة؟ يظن بوتمى أن من الضرورى العودة إلى المسألة فى الفصل الأخير من كتابه حيث يقدم تفسيراً: هذا التدين الأكيد هو نتيجة العداوة الأمريكية إزاء شؤون العقل. ففى أمريكا "لا يوجد حساب مفتوح كما هو الأمر فى أوروبا للعقل المتفوق، خالق الأفكار الجديدة والذى يحاول تغليبها؛ فالوقاية موجودة ضده"، يبتكر بوتمى

اسمًا لهذه الظاهرة: "خوف التجديد misonéisme أو بالأحرى خوف المجهول phobo-néisme الذى يشعر به هؤلاء الرجال نصف المتنورين". موضوع غريب فى الظاهر: أليست أمريكا هى بلد التجديد الدائم (والمتعب) حتى الطفرة وحتى الدوار؟ موضوع تم تلقيه جيدًا مع ذلك من قبل المعادين الفرنسيين لأمريكا فى القرن العشرين. ومن بين استعاداته العديدة، أليس أقلها مفاجأة استعادة سيمون دو بوفوار التى تزاود على إميل بوتمى بعد نصف قرن: حين تشرح فى كتابها أمريكا يوميًا أن الأمريكيين "يرفضون ابتكار أى شىء جديد". فامتثاليتهم الوجودية كلية و"لدينا الانطباع دومًا بأن آلافًا من الروابط غير المرئية تشلهم"(١٦). الخوف نفسه من المجهول فى الحياة الثقافية: فالأمريكيون مهمومون قبل كل شىء بألا يُزعَجوا بأفكار جديدة. وقد وجدوا لذلك منهجًا ناجعًا يقوم على تلافى أى اتصال بالقراءة؛ وتستشهد سيمون دوبوفوار بشهادة إلزا ماكسويل التى تصرح لها: "فى أمريكا، لا يحتاج أى شخص للقراءة لأنه ليس هناك أى شخص يفكر(١٧)."

حرص إميل بوتمى ألا يذهب إلى هذا الحد ,إلا أنه مع ذلك فتح خطًا تأويليًا قيمًا للخطاب المعادى لأمريكا بما أنه يقيم علاقة مباشرة فى أمريكا بين الحضور الكلى للدين كشكل فارغ والحذر إزاء العقل المبدع. لقد صار الأمريكيون إن لم يكن ورعين فعلى الأقل مسيحيين لإخفاء خوفهم من العقل. ذلك يعنى ضرب عصفورين بحجر واحد ونزع القيمة عن شعورهم الدينى والتأكيد فى الوقت نفسه بعد ستندال وبودلير على افتقار الشهية لدى الأمريكيين للفكر ولضروب جرأته. يختتم بوتمى بكلمة رهيبة (أو عجيبة): "وحدها المسيحية تمنح نفسها(١٨)." إن أمريكيى بوتمى هم إذن وعلى وجه اليقين شديدو المسحية بل وأكثر مسيحية من أمريكيى دو توكفيل، لكنهم كذلك بدلاً من لا شىء، بل وبصورة مزدوجة: لستر فقرهم الفكرى ولأنهم لم يجدوا شيئًا أفضل.

لقد كتب الكثير عن الظاهرة الدينية فى الولايات المتحدة فى فرنسا، وهذه هى المرة الأولى مع ذلك التى تقدم فيها فى آن واحد بوصفها سد ثغرة اجتماعى وساترًا للعورة الثقافية. هذا الدين البديل عن حياة ثقافية غائبة، لا شىء يدهش فى افتقاره لـ"العبير"... نقص فى الروحانية وإفلاس فكرى يرتبطان من الآن فصاعدًا ارتباطًا وثيقًا فى التصورات الفرنسية عن "الحضارة" الأمريكية: رابطة رصينة لكنها هامة تقيم منذ بداية القرن ممرات مريحة بين النقد "الروحانى" من أصل كاثوليكى والنقد العلمانى الذى يخاض باسم الثقافة والذكاء. وسنرى كل المنافع التى ستعرفُ استخلاصَها من هذا التحالف نزعة معاداة أمريكا فى النصف الثانى من القرن العشرين.

بلا لون ولا رائحة، لا تقل المسيحية على الطريقة الأمريكية وهى المصممة بوصفها مادة ثقافية بديلة، فى نظر المراقبين الفرنسيين عن كونها قوة حقيقية وفاعلة: لكن هذه القوة ليست شيئًا كبيراً من الروحانى؛ إنها اجتماعية كلها. لقد التفتت البروتستانتية الأمريكية على وجه اليقين كما يشير سيجفريد فى عام ١٩٣٥، إلى "العمل الاجتماعى"، وكان من نتيجة ذلك دينًا محرومًا تقريبًا من كل طابع دينى تشبه مجالسه المؤتمرات السياسية"(١٩). لا شىء يثمل إذن أو يسكر، لكن هذه التفاهة سلطوية، وهذا الدين اللادينى جبرى بالمعنى الاجتماعى للكلمة شأن الكاثوليكية، بل وأكثر جبرية كما يصحح عدد من الكاثوليكيين ومنهم كلوديل؛ إذ لما كانت قد محت الحدود بين المقدس والاجتماعى، تتسرب البروتستانتية بصورة ماكرة فى السلوك اليومى والمبادئ المدنية، وليست "إدارة الضمير" الكاثوليكية شيئًا بالمقارنة مع هذا التلاعب الدائم. ستجد الطروحات الكاثوليكية نفسها فى هذا الميدان بعد أن أنعشتها النزعة البيجية فى تناغم مع طروحات اليسار المناصر للعلمانية والقلق تقليدياً من التلاعب الدينى بالشأن الاجتماعى.

كان الظرف التاريخى مشجعًا بوجه خاص لتقارب المواقف الفرنسية مع الولايات المتحدة كموضوع رفض. صار الفصل بين الكنيسة والدولة من الآن فصاعداً أمراً قائمًا. ولقد قام المثقفون الكاثوليكيون فى هذا المجال بتحقيق التجديد؛ فكثير منهم يرى فى هذا الفصل ذاته فرصة انطلاقة روحية جديدة. وفى الوقت الذى تنطلق فيه كاثوليكية مناضلة وتنتشر روحانية مقاتلة، يتكيّفُ الجدال القديم حول الإصلاح مع الأزمنة الحديثة. ويفضل هؤلاء المثقفون على الحرمان اللاهوتى، العقيم والمهجور، الجدال حول "مستوى" الإيمان. ويبدو لهم مستوى إيمان الأمريكيين كئيباً بوجه خاص، بلا حافز ولا سرّ: مبتذل وحَرفى فى آن واحد. ومن غير المجدى الضياع فى مماحكات عقائدية: فمشهد فضائلهم الفاترة يحمل على التقوى بما فيه الكفاية. تعتقد أمريكا أنها تمتلك الإيمان، لكنها تجهل الارتعاد؛ فهى شديدة الاحتفال بضروب يقينها ونجاحاتها كى تحتاج إلى الأمل. أما بالنسبة للإحسان المهدد منذ زمن طويل بنزعة حب البشر، فهاهو قد صار صالحًا للمتاحف منذ أن حلت "الخدمة" محله، هذا الدين الجديد المدنى الذى يتبلور من حوله الحذر الفرنسى.

هكذا يفكر الروحانيون الفرنسيون وكثيرة هى العقول التى تسير على خطاهم. لم يعد لدى مثقفى فترة ما بين الحربين نفس الإعجاب القلق إزاء البروتستانتية الأنجلو

ساكسونية الذى كان لسابقيهم من الجيل السابق؛ فهم يفصلون أكثر فأكثر فى تقويماتهم بين الحالة الأمريكية والحالة الإنجليزية. والتدين الأمريكى يبدو للأدريين وللمعادين للإكليروس بدائيًا على الصعيد الفكرى. وحين يحكم على البروتستانتية الأمريكية من خلال منجزاتها (الروحية والفنية) فإنها تعتبر حرفيًا جاهلة، وتحمل على الأسف على كنوز المعرفة والجمال المجمّعة خلال قرون من قبل المسيحية الأوروبية التى تريد الكاثوليكية اللاتينية أن تكون وريثتها. جبهة من الفكر ترتسم، مُقرّبة بين المؤمنين وغير المؤمنين فى فرنسا فى وجه تدين مشهور بافتقاره إلى الحمية، بل وكذلك إلى الحافز المبدع. ومع انضمامه للإقرار بهذا النقص الفكرى يقوم جيل كاثوليكى تغذى على أيدى باريس وبيجى بل وليون بلوا بتعزيزها من خلال تشهيره بالتدين الأمريكى باعتباره جافًا و"بورجوازيًا" وحسابيًا. إن البروتستانتية الأمريكية فى عجزها عن الارتقاء إلى المستوى الثقافى العالى للكاثوليكية العريقة، غير صالحة كذلك لاستقبال الإقبال العفوى للبسطاء- هؤلاء "البسطاء" الذين كما يذكر كلوديل "بهم تمت المحافظة على الروحانية الحقيقية" فى أوروبا[٢٠]، ولكن بدلاً من أن تصدر مثل هذه الأحكام فى فرنسا، من قبل الكاثوليكيين المناضلين وحدهم، فإنها تؤلف موضوع إجماع واسع يتجاوز الانقسامات الأيديولوجية، بل وتقسيمات الفروع العلمية أيضًا؛ فمؤرخ مثل برنار فاى يمكنه أن يكتب على هذا النحو فى عام ١٩٣٥: "كل الناس شعروا بصورة قوية بفراغ وببرودة هذا الدين[٢١]." من يتكلم هنا باسم كل الناس: الاختصاصى بالولايات المتحدة أم المثقف الفرنسى مدفوعًا بسيل العقيدة المعادية لأمريكا؟

اتخذت هذه الازدراءات التقليدية فى سنوات ١٩٢٠-١٩٣٠ طابعًا ولهجة جديدين كليًا كرد فعل على ازدهار التكوينات الاجتماعية فى الولايات المتحدة التى يبدو أنها تضع الفكرة الدينية فى خدمة الأهداف الاقتصادية مباشرة. يبدو الدين الأمريكى متورطًا فى شركات دنيوية تمامًا: البحث عن الربح، الرقابة الاجتماعية، إدارة المظالم. متورط بل ومتعهر؛ ففى نظر فرنسيى سنوات ١٩٣٠، كما يكتب دونالد روى آلن، "عهرت البروتستانتية الأمريكية مكوناتها العقائدية والصوفية والثقافية لصالح عقيدة اجتماعية مريحة تجاهر بها من الآن فصاعداً"[٢٢]. ثيمة جدالية جديدة تعكس هذه الحالة العقلية: النقد النفاذ للخدمة Serviceالمنتشر عامة فى الكتابات الفرنسية؛ فمع مفهوم الخدمة تبدو "الخلية الكالفنية"[٢٣] التى وصفها فيلاريت شاسل فى القرن التاسع عشر قد أفرزت أيديولوجية ممارستها.

إن السخط الذى يثيره المفهوم لدى المراقبين الفرنسيين يبقى غير مفهوم إذا لم نعد وضعه ضمن ظرف أشد عمومية لعداوة تستهدف تداخل الاجتماعى بالدينى.

والكلمة التى يعطيها الفرنسيون حرفًا كبيرًا فى بدايتها أو يضعونها بين قوسين، والتى تشير إلى غرابتها تسمى الأخلاق المدنية الدينية التى يضع الفرد نفسه باسمها فى "خدمة" جماعته. يضع نفسه أو يزعم وضع نفسه؛ لأنه من وجهة النظر الفرنسية الإجماعية، إذا كان قادة وسادة الصناعة يتدثرون بالبلاغة الدبقة للخدمة؛ فذلك فى آن واحد كى "يقدسون" أرباحهم بتقديمها على أنها جزاء خدمات جلى قدمت للجماعة، ولكى تغرق العمال فى أيديولوجية ترغمهم على العمل دون أن يتذمروا بضمير وإخلاص. يمنح التأويل الفرنسى على هذا النحو امتدادًا واسعًا للمفهوم حين يجعل من الخدمة أخلاقًا أمريكية جديدة، مزيجًا من التلاعب والتصوف، من الابتزاز بالمشاعر الطيبة والطغيان الأيديولوجى.

تنفر الخدمة الفرنسيين باعتبارها خليطًا دنسًا من التقوى والمنفعة، وتحيى أقل دروس توكفيل نسيانًا ، الدرس الذى يرسم الامتثالية الأكثرية بوصفها "حلقة رائعة من حول الفكر" (٢٤). هنا أيضا يتجلى موران مترجمًا لامعًا للنفور الفرنسى، لكنه بوصفه حرفيًا ماهرًا فى الرواية، فإنه يعهد بالصيغة إلى شخصية شاب أمريكى فى قطيعة مع أمريكا: "منفعة! خدمة! لا يتلفظون إلا بهذه الكلمات ! ذلك هو جواب كوندرى إلى بارسيفال، الصيحة المخلصة من أعماق البنطال العتيق الذى لا يريد أن يهجر سيده! أكره هذه الكلمات مع حرف البداية الكبير والله يعلم إن كان هذا البلد يكثر من استخدامها (٢٥) !" خطبة طويلة هزلية عن كراهية جادة. كان كتاب من سيكون السيد، أوروبا أم أمريكا؟ للوسيان رومييه فى عام ١٩٢٧، ومنذ بداية تدفق المؤلفات المعادية لأمريكا، قد بيَّن كل أهمية الخدمة فى الحالة الاجتماعية الجديدة لأمريكا فى بداية القرن العشرين: "تتلقى الجماهير الأمريكية تربية تستوحى فكرتين قويتين عن "الخدمة" وعن "الربح"؛ وهذه المزاوجة الوحشية لكنها الفعالة هى التى تضمن تفوق الولايات المتحدة على الأمم اللاتينية (٢٦).

كرس أندريه سيجفريد فى السنة نفسها لـ"مذهب الخدمة أربع صفحات ذات تأثير دائم . إن كتاب الولايات المتحدة اليوم يسجن فى الحقيقة الخدمة بوصفها آخر ميثولوجيا اجتماعية لـ"أمريكا ثرية وراضية يطيب لها أن تصرح بأن الخدمة المقدمة صارت اليوم الشرط ذاته للربح، وأنه الصناعى الكبير، والتاجر الكبير بالنتيجة ليسا هنا لكى يكتسبا الثروات، بل لكى يخدما الجماعة". إن "الخدمة" كما يصفها سيجفريد هى خديعة أو فى أفضل الأحوال خديعة ذاتية ("لأن الأمريكى يخدع نفسه بسهولة")، عارض بلاغى للضمير الطيب والتفاؤل الأمريكى، شعار لخطيب فى غرفة التجارة، "كلمة سر لا غنى عنها لمن يريد تبرير أرباحه". إن "الخدمة" هى كل ذلك، لكنها أيضًا أكثر من

ذلك؛ لأن وراء هذه "اللازمة" (الكلمة لسيجفريد) فى السنوات الجنونية (أوبداية القرن العشرين) يتقدم جهاز اقتصادى اجتماعى جديد، تجهيز كامل للتصورات ذو فعالية مخيفة. إذا كان أندريه سيجفريد يجعل من الخدمة نقطة التوقف فى الفصل الذى يخصصه للإنتاج الصناعى؛ فلأن من الجلى أنه لا يعتبره مجرد لهوة لفظية بل يكشف فيه "مذهبًا" جديداً، النقطة المركزية لـ"إصلاح عام لإجراءات الإنتاج" الذى ترعاه الحكومة وهوفر بوجه خاص، بوصفه وزير التجارة [٢٧]. "يبدو مذهب الخدمة" ضمن هذا الظرف الموسع بوصفه "بديلاً حقيقياً للأخلاق الاجتماعية": الأيديولوجية العلمانية ـ الدينية الأفضل تكيفًا مع الطور الجديد من النمو الاقتصادى الأمريكى. وهى تبدو ناجحة إلى درجة أنها تتجذر فى الأساس الثقافى لهوية الأنجلو ساكسونيين البروتستانتيين البيض White Anglo-Saxon Protestant،أو WASP بما أنها مصنوعة من "التهذيب البروتستانتى، والنفعية البنتامية، وعبادة التقدم". إن الخدمة فى الحقيقة "ليست مفهومًا كاثوليكيًا؛ فهى لا تزدهر فى أوروبا اللاتينية". والسبب الذى يسوقه سيجفريد هام مادام يعيدنا مرة أخرى إلى اللاثقافية الأمريكية: "إنه ليس مفهوم مثقفين أو فنانين معتادين على العمل الفردى بل مفهوم تجار يمتلكون حس المال." جعل سيجفريد إذن من الخدمة فى عدة صفحات، جهازًا أيديولوجيًا مركزيًا فى أمريكا الجديدة: نتيجة منطقية لتطور اجتماعى ودينى طويل، بل وكذلك انعكاسًا دقيقًا للشعب الأمريكى فى القرن العشرين، بوصفه "مذهب شعب متفائل يعمل على التوفيق بين النجاح والعدالة". من يريد أن يكون بطل العالم كما سيقول موران دون أن يتألم. وراء العادة اللفظية التى سخر منها برودسكى "فائدة! خدمة!..." يتكشف هدف كبير فى الرقابة والسيطرة. "يستهوينا الابتسام"، كما يحذر سيجفريد، ولكن حذار من أن نفعل! على الخدمة أن تقلقنا. هذا "المذهب" تعود الكلمة بإلحاح لدى سيجفريد، موقظة بصورة لا تقاوم صدى مذهب مونرو هو سلاح فعال فى هذه الحرب الاقتصادية، بما أنه يوحد بين الحكومة والصناعيين والعمال والمستهلكين، وكذلك "الرأى العام نفسه فى اتفاق مذهل" تبدو فرنسا فيما يخصها عاجزة عن تحقيقه[٢٨].

لم تتم الملاحظة من أجل مصالحة الفرنسيين مع الخدمة ولا مع البروتستانتية الأمريكية التى تبدو ولو كره إدمون جوهانيه، أكثر قدرة على "إدارة الشئون الدنيوية". وبوصفها آخر تحول لدين منحط، تصدمهم الخدمة باعتبارها دنيوية تحط من قدر الإيمان، أو باعتبارها تلاعبًا اجتماعيًا مموهًا فى أخلاق مدنية. وشأن برودسكى فى رواية أبطال العالم، يحتفظ الفرنسيون بأنوفهم مفتوحة لهذه العطور القبيحة التى

تتصاعد كما يقال من الضمائر الحية"(٢٩). إنها رائحة العفونة التى يحزرونها من حول الخدمة، آخر تحول للخديعة الإحسانية الكبرى.

لم يكن للإحسان الأمريكى فى الحقيقة أية سمعة حسنة فى فرنسا؛ فهو يُرى فى أغلب الأحوال كما لو أنه تكشيرة تجميلية وحيلة مفضوحة للمالكين. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر سخط الرحالة الفرنسيون بانتظام من المؤسسات التفاخرية لأصحاب المليارات، التى يقابلونها بانعدام الخدمة العامة المخجل. كان جول هوريه يفسر أن روكفلر "هو سيد النفط المطلق"، وأنه "لو راق له ذات صباح وهو يستيقظ أن يقدم هدية بعدة ملايين لصديقه هاربر، رئيس جامعة شيكاغو، فليس عليه إلا أن يزيد بخط من قلمه قرشًا واحداً من سعر اليوم"(٣٠). هو ذا الإحسان المنظم؛ فهو لا يكلف إلا الآخرين. وإلى جانب ذلك، مدينة كبوسطن التى تمتلك "شبكة طرقات تدعو للرثاء"(٣١)؛ فى مدينة بروكس فيل Brooks-ville فى فلوريدا، عُهِدَ بخدمة الطرقات إلى الطيور الجارحة(٣٢)؛ أما بالنسبة لنيويورك، فإن "أعضاء البلدية" فيها "يقبضون من ثمانمائة إلى تسعمائة ألف دولار سنوياً ليهملوا بوقاحة وبصورة شبه كاملة خدمة الطرقات"(٣٣). ، ولقد بقيت الأوصاف ذاتها فى فترة ما بين الحربين: فالرفاه ***prosperity*** لم يغير شيئًا. ما إن تترك الشارع الخامس، "بعد خمسين متراً، حتى تقع على حوانيت صغيرة حقيقية، وأرصفة نصف مبقورة، وأرض سيئة التبليط" (٣٤). إن حساسية الفرنسيين المفرطة إزاء أعشاش الدجاج التى لا تنكر والتى تثقب بمسافات غير منتظمة الأسفلت النيويوركى تترجم استنكاراً عميقًا وإجماعيًا لنظام يهمل بسبب تفضيله المبادرة الخاصة أشد الواجبات أولوية لكل جماعة متمدنة. إحسان ضد حكومة طيبة، الخدمة ضد "الخدمة العامة": ليس فى المشاجرة أى طابع جكائى، إنها تعكس على العكس تعارضًا ثقافيًا وسياسيًا قويًا ودائمًا بين فرنسا والولايات المتحدة.

نعثر على كل العناصر فى الصفحات المحمومة من كتاب السرطان الأمريكى. فالأسلوب التوضيحى لآرون ودانديو، "المعادى للديكارتية" عمداً، والخاضع للرقابة بصورة قليلة جداً، وفى أغلب الأحيان على حافة التداعى الحر، يجعل من المقالة النقدية هاديًا ميثولوجيًا ممتازًا. نتعرف فيها على ما هو عليه حذر القرن التاسع عشر إزاء الإحسان الذى لا يتردد آرون ودانديو فى أن يستنفرا (باستخفاف نوعًا ما) توكفيل ضدّه: "فحسب توكفيل الطيب، كان اليانكييون يقصون أصحاب الجلود الحمراء بإحسان(٣٥)"، لكن الحاضر هو الذى يهم آرون ودانديو: حاضر لم تعد فيه نزعة الإحسان مجرد ورقة التين المنافقة لواقعية سياسية لا ترحم فحسب، بل أحد محركات البلد الاقتصادية والقطعة الرئيسة فى بنيته الرمزية. هكذا، كفت نزعة الإحسان

الأمريكية فى القرن العشرين حسب آرون ودانديو عن أن تكون خطاباً من خطابات الشرعنة. لقد صارت دعامة الاقتصاد الرأسمالى: فى "المقام الثامن من الصناعات القومية"[٣٦]، وخاصة أنها تؤلف القاعدة الرئيسية الجديدة فى البناء النفسى الأمريكى: "تأمينات وإحسان: بديل السعادة النفسية"[٣٧]. وبما أنها تنتج فى آن واحد الثراء و"الرغد" الأخلاقى، فإن نزعة الإحسان هى فى قلب الحضارة الموصوفة (والمشهر بها) من قبل آرون ودانديو. فى هذا الوصف، لم تُنسَ الخدمة، أفضل ما قدمته الشمولية المهدئة. وباعتبارها جهازاً متمماً، ومساعداً ميثولوجيًا للنظام، كما هو الأمر لدى سيجفريد وموران ، فإن الخدمة حسب آرون ودانديو هى فضلاً عن ذلك مدرسة للنسيان: أداة رائعة لاستئصال القيم القديمة لصالح إعادة تكوين أمريكى للأدمغة. إن "الخدمة الاجتماعية" هى "مدرسة تطويع"، وبهذا المعنى فإنها آخر دورة برغى تعطى لحلقة الحديد الامتثالية. لكن هذه الطاعة الحديثة تنتج عن نسيان مفروض: فالنجاح الكبير للخدمة هو فى "الحمل على نسيان المبادئ الفردية فى البر والأخوة"[٣٨]. وباعتبارها أوروبية قبل الأوان، فإن الخدمة على الطريقة الأمريكية لا تُخضِع الكائنات فحسب، بل تدمر ذاكرة الماضى.

بر وحرية: لم تسمَّ القيمتان المكرستان للإلغاء من قبل الخدمة بالصدفة. قيم "أساسية" للشخص (بالمعنى الشخصانى)، وهى أيضًا قيم تاريخية مؤسسة لأوروبا المسيحية وفرنسا الثورية. آرون ودانديو، السياسيان غير المنحازين اللذين ينتميان إلى النزعة الشخصانية فى عام ١٧٨٩، هما فى وضع جيد للدفاع بصورة توحيدية ضد أمريكا عن "البر" الذى يقع قلبها على اليمين و"الأخوة"، صغيرتها على اليسار. وكتابهما ليس إلا الدلالة الأشد على الممرات بين خطابات اليمين واليسار التى تقوم بفضل نزعة معاداة أمريكا.

فريسيون وشرسون:
"بم! بم! زم لاى لا!"

يحشر فلاديمير بوزنر الذى صدر كتابه الولايات غير المتحدة فى عام ١٩٤٨ (لكنه كتب فى عام ١٩٣٨ ويصف الحقبة الروزفلتية) فى قصته نوعًا من اليوميات تقوم على قصاصات الصحف. يسجل بتاريخ ٨ أبريل ١٩٣٦: "٩١٨ شخصًا من سكان لوس أنجلوس صاروا قسسًا بالمراسلة. كان يكفى أن يكتب المرء إلى عنوان ما، وأن يرفق المال بالرسالة. بعشرة دولارات يُسام المرء كاهنًا، أما شهادة الدكتوراه فى العلوم الإلهية فتقدر بخمسة عشر دولاراً، وبضعف هذا المبلغ يرسم المرء أسقفًا[٣٩]." يستنكر

هذا الماركسي ذلك بدلاً من أن يضحك منه، ناسيًا أن لينين كان يجد في الكهنة الرديئين خطرًا أقل مما يجده في الكهنة الجيدين.

إن ما يجمع على نحو يقيني الروحانيين والمثقفين العلمانيين، وما يلحم جبهتهم المشتركة، هو اليقين بأن الدين والثقافة يسكنان في أمريكا تحت لافتة واحدة: لافتة الدولار. أن يصير المرء كاهنًا هي قضية مال، ويتطلب البقاء ككاتب إلا إذا حدثت معجزة، خضوعًا لقوانين السوق الصحافية[٤٠]. وعيش المرء من فنه يعني إرضاء طلبات غريبة، متنافرة لطبقة الأثرياء الجاهلة، تلك قناعات راسخة.

ودون العودة إلى اللعنات التي صبها بودلير على أمريكا التي تهجر آلان إدجار بو في بؤسه، يجب أن نشير إلى أقدمية الشكاوى الفرنسية (والأوروبية: شارل ديكنز شاهدًا عليها) من قلة التقدير المكرس للفنون والآداب في أمريكا؛ فالأمريكي لا يبالي بشؤون العقل كالفن. وإذا قاده صعوده الاجتماعي إلى أن يحصل على الأعمال الفنية أو أرغمه على الحصول عليها، فإن ذوقه الرديء يتفجر في نزوات مجانية أو في مصروفات باذخة. رأى جول هوريه في ستانفور Stanford قوس نصر تعلوه السيدة ستانفور على حصانها في كل ألقها [و] قاعدة فسيحة تعلوها كل أسرة ستانفور، الأب والأم والطفل من البرونز، بكل سذاجة وطيش وافتقار للذوق مثالي"[٤١]. وحين يسمع بول دو روزييه ما يكررونه على أسماعه: "ألا ترى أننا سرنا منذ زمن الهنود!" فإنه يجيب على الفور: "لاشك، ولكنكم في ذوقكم الفني إنما لا تزالون هنودًا أكثر[٤٢]!" إن المباني الخاصة كالمباني العامة تستجيب لنفس المعايير: ضخمة وباهظة الثمن. هل سنذهب إلى مصرف ما؟ "ندخل إلى المصرف بواسطة سلالم من المرمر ودرابزين من البرونز المذهب. السقوف مذهبة أيضًا، والجدران مزخرفة بزخارف ذهبية لا تحصى، أطر المصاعد وشبكات النوافذ كلها مذهبة وكلها بشعة[٤٣]..." وهذا البذخ لن يروق أكثر لدوهاميل بعد أربعين عامًا في السينما؛ حيث يحاولون قلع روحه "كما يقلع السن": "بذخ بيت دعارة بورجوازي"[٤٤]. الشيء نفسه على مستوى المدينة؛ لأن "البحث عن الجميل يحتل مكانًا قليلاً في المباني العامة [...] إن ما يحبه الأمريكيون هو الواسع، والخارق، وما يدل على القوة"[٤٥]. ويستشهد بالبيت الأبيض كمثل على البشاعة المحيطة[٤٦]. يشرح هوريه من جهته أن "الأشياء الجميلة المحضة، أي الأشياء الجميلة في حد ذاتها، الجميلة دون أي فائدة، دون إرادة الإنسان، هي أندر الأشياء في أمريكا"[٤٧]. كل شيء فيها يحكم عليه بالوزن وبالثمن. يذكر روزييه النبذة المخصصة لصورة بولين بونابرت المعروضة في سنسناتي Cincinnati حسب هذه اللوحة، يبدو أنها تزن مائة وخمسين جنيهًا أو أكثر قليلاً." وفي هذا القول ما يغني عن هاوي الفن فيما

وراء الأطلسي ومشاغله المعتادة: "كم نسشعر جيداً العين المجربة لرجل المزرعة"ranchman، لكن المعيار الأوثق بالنسبة للأمريكي هو ثمن العمل الفني"(٤٨). يسجل باربييه في عام ١٨٩٣ أن أنجيلوس *Angélus* لميلييه [...] Millet تستمد قيمتها في نظرهم من كونها انتزعت من متاحفنا بقوة المزايدات"(٤٩). أما ماري دوجار التي لم تكن أكثر الناس سوء قصد فتشهر هي الأخرى بالأمريكيين الذين "شأنهم شأن هؤلاء الرومان الذين يستولون بكبرياء المنتصر على تماثيل اليونان لكي يعمروا بها ديارهم، ينهبون متاحفنا، ويأخذون منا بقوة الدولار أعمال هوبيما Hobbema ورامبرانت Rembrandt وميسونييه Meissonier وكورو Corot ليزخرفوا بها قاعات فنية لا يرتادونها على الإطلاق"(٥٠). وكصدى لهذه الاتهامات المتكررة، يتهكم الساخر جوهييه على الأدباء الفرنسيين الذين لا يزنون شيئًا في الولايات المتحدة: يؤكد جوهييه، إنهم شديدو الهزال! في بلد يحكم فيه على كل شيء بما في ذلك الفن على أساس الكمية، يجب على "فرنسا أن تسمّن بعض السمنة أدباءها". فليس للنحيلين أي حظ. نرى أن صورة الأمريكي كثريّ جاهل لا تعود إلى الأمس ولا حتى إلى أول أمس. نشرت الصحافة الفرنسية لدى تدشين مركز لينكولن في عام ١٩٦٦ صوراً "فاضحة": فالمدعوون وضعوا أقداح الشمبانيا (الفارغة) على قاعدة تمثال لمايول Maillol. قبل ثلاثة أرباع القرن كان باربييه Barbier يغضب من عثوره في أمريكا وفي وضع منحط لوحة "الحوريات *Nymphes* لبوجرو" Bouguereau، وقد صارت "الجاذب الأساسي لحانة كبيرة في نيويورك"(٥١)...

ولكن فيما وراء العديد من التهم بالجهل وبالذوق السيئ، هناك مآخذ أكثر دقة فصلت مبكراً وخاصة حول عدم احترام الأمريكيين لحقوق المؤلفين. لقد جعل منها ديكنز بعناد لازمة محاضراته الأمريكية مثيراً ضده حملات صحفية شديدة العداء. وحوالي سنة ١٩٠٠ كان هذا المأخذ كلي الحضور لدى الفرنسيين. يسخر مؤلف جوناثان وقارته قائلاً: "يبدو غريبًا في بلد يحكمه أنصار الحماية، أن تحمي فيه كل المنتجات الوطنية فيما عدا منتجات العقل(٥٢)." من غير المفيد أن نضيف أن حقوق غير الوطنيين محمية أقل أيضًا، ويؤلف مراسل الفيجارو جول هوريه جوقة مع مؤلف المسلسلات جوستاف لو روج لكي يشهر بالسرقة المنتظمة لحقوق المؤلفين(٥٣). هل يسوء الدفاع عن المثقف في أمريكا؛ لأن "تروستات الثقافة لم تتكون بعد" (٥٤) ؟ يبقى أن مصير الكاتب أو الفنان، حتى المادي، يبدو فيها أقل مدعاة للحسد في نظر زملائه الفرنسيين. عهر، وعهر أقل تسلية للمبدع النزيه، أن يمارس موهبته في بلد يكون فيه "ما يطلق عليه اسم الفن، لعدم وجود اسم آخر أكثر صحة وأكثر كشفًا، المجالَ الواسع

للاستعراض فى كل وجوهه؛ حيث يسود فيه الرمزى بارنوم Barnum وينتصر". إن الشعور الجمالى فيما وراء الأطلسى كما يلخص باربييه هو "بوم! بوم! زم لاى لا!"(٥٥). إن الحاكية الصوتية تلخص كل الفنون الأمريكية. بما فى ذلك الموسيقى التى يقتضبها جوهييه : "يجب ألا نتحدث عنها. إنها بدائية بكل معنى الكلمة (٥٦)." ونفس أوروبان جوهييه يعنون فصله: "الصحافة، الأدب، الفن، المسرح، المحاكم". مع هذا العنوان الفرعى: "هذا الفصل سيكون بالضرورة قصيراً".

استعراض ورقابة، تفاخر بـ"الغنيمة" الفنية وحذر غريزى إزاء "القيم" التى لا تستطيع كل أسعار البيع أن تحددها: تلك هى الأقطاب التى تضطرب فيما بينها الرغبة الثقافية الأمريكية. إن الطمع لا يشهد على أى سيادة معرفية وفرحة الامتلاك لا تمنع الرغبة السرية فى التدمير. إننا نتذكر صاحب الملايين فى رواية جوستاف لو روج الذى يطوف فى قاعته الخاصة كى يفقأ لوحات كبار الفنانين الأوروبيين. "الكتاب، والمبدع الفنى، هو التلقيح الخطير من وجهة النظر الأمريكية للحاجات العليا ، للمتع غير المغرضة"، كما يعلق باربييه. "بدلاً من رؤية تجارة الخنزير المملح تتلف، يتلف الكتاب(٥٧)."

بعد جيل من ذلك، اكتشف خلفاء باربييه بذهول أن الأمريكيين قد عثروا على منهج أكثر يقيناً لحماية تجارة الخنزير المملح، وهو أن يجعلوا من الفن ومن الفكر "سوقًا جديدة" يشبه من كل وجوهه سوق الخنزير المملح.

السوق الكبرى والروح المشبعة بفكر تايلور

مع فترة ما بين الحربين، لم يضعف الازدراء الثقافى، لكن الأهداف تغيرت؛ فاحترام الملكية الأدبية قد تأمن على نحو أفضل منذ مؤتمر برن ومنذ وضع تشريع لحقوق المؤلف فى الولايات المتحدة. وصار من ثم من الصعب الاحتجاج بأن أمريكا المال السهل تكافئ مبدعيها بصورة رديئة. والتوزيع الواسع للكتب والصحف والمجلات يسمح على العكس بدفع ثمن مرتفع للمؤلفين، يسجل من اعتادوا أمريكا مثل ركولى أن الذين ينجحون فى المجال الفنى صاروا يربحون من المال أكثر من رفاقهم الفرنسيين.

وفضلاً عن ذلك، من الواضح أن الولايات المتحدة لم تعد على استعداد لتحصر نفسها فى دور الزبائن والمستهلكين للمبدعات الأوروبية. ومنذ ما قبل ١٩١٤، كان لابد من الإقرار بوجود أدب قومى حى ومتنوع: أدب مارك توين، أوإديث وارتون، أوهنرى جيمس، أو تيودور دريزر؛ ومع سكوت فيتزجرالد أو سنكلير لويس، كان الاستمرار

مضمونًا. بناء على ذلك، لماذا يتوقف الأمريكيون عند الأدب؟ حذر جوهييه فى عام ١٩٠٣: "فلنسرع فى المزاح، إذ سيكون لهم فنهم قبل خمسين عامًا"(٥٨). إذا كان الفنانون الأمريكيون لم يفعلوا حتى الآن إلا أن "ينسخوا وينسخوا وينسخوا ويجمعوا ويجمعوا"، فإن هذه الحقبة يمكن أن تنتهى قبل الموعد الذى حدده جوهييه؛ فمعادلة أمريكا الثقافية تضع بندقيتها على كتف آخر. لم يعد غياب الإنتاج المحلى هو ما يشار إليه بالبنان، بل هو التصنيع والتسويق على صعيد واسع لـ"المنتجات" الثقافية التى تقوض مفهوم الثقافة نفسه. لم يعد طغيان الشركاء المولين قصيرى النظر هو الموضوع، بل هو أخطر المخاطر التى يواجهها الأدب والفن، اللذين يطلب إليهما أن يستجيبا "لطلبات" جمهور جاهل.

تغير فى النبرة محسوس إذن بين فترة ما قبل وفترة ما بعد ١٩١٤، حتى وإن كان الخوف من أن تفقد أوروبا هيمنتها الثقافية لا يزال منتشرًا بعض الانتشار؛ لأنه "من جانب أمريكا على الصعيد الثقافى والروحى والأخلاقى ليس هناك شىء، ليس هناك أحد"، كما يؤكد صحفى فى عام ١٩٣٠(٥٩). إن فكرة أن تصير أمريكا منافسًا حقيقيًا فى هذه المجالات يستمر فى إثارة الريبة والاحتجاج. كان أحد الفرنسيين فى عام ١٩٠٩ يلخص الشعور العام على هذا النحو: "قد يكونوا أسسوا بقوة الشيكات الضخمة الجامعات والأكاديميات والمكتبات والمتاحف، لن يفيدهم كل ذلك؛ إذ عليهم أن يأتوا وينحنوا أمام تفوقنا الثقافى(٦٠)." يعتقد مؤلف كتاب ***المقت الأمريكى*** فى عام ١٩٣٠ على الدوام وبصورة قاطعة بـ"تفوقنا الثقافى"، حتى وإن كان يقلق من التباين المتزايد فى القوى المادية: "لو أرادت أمريكا استعباد أوروبا بواسطة "مفكريها"، لاستثار ذلك عل الأكثر شعورًا بالفضول العابر"، يضيف كادمى - كوهين: من المؤسف أنها تتمتع أيضًا بمصرف التسديدات الدولية... تبقى أمريكا وهى جبارة العالم المادى قصيرة جدًا فى نظام العقل: "فهى لا تغامر بمثل هذا اللقاء: القزم الأمريكى وقد تجرأ على مواجهة العالم القديم العملاق (٦١)." فى اللحظة نفسها، لم يتخيل أوكتاف أومبرج أن الولايات المتحدة تخاطر بإرادة السيطرة ثقافيًا على الكوكب، خوفًا من ثورة شاملة: "إذا كان الشعب الأمريكى الذى لا يؤلف إلا ٧٪ من سكان العالم يريد أن يسيطر؛ حيث لا يمكن لسيطرته أن تكون مبررة، أى أن يفرض قانون الدولار على القوى الأخلاقية وعلى الأفكار، فإنه لن يفتأ يثير ثورة لن تكون ثورة البرابرة بل ثورة الحضارة ضد هذا الغزو العنيف الجديد (٦٢)".

إذا قبلنا أن أمريكا تبقى إزاء أوروبا فى دونية ثقافية جلية (وهو ما يجهد كتاب دوهاميل الذى ظهر فى السنة نفسها بأجمعه أن يبينه)، فإن قوتها المادية الهائلة تؤلف

مع ذلك لوجدها تهديداً لثقافة العالم القديم، وأشد الباحثين الفرنسيين ثقة من تفوقهم لا يموهون على أنفسهم هذا الخطر.

والشكل الأشد فظاظة الذى يتخذه هذا التهديد، والأكثر قابلية للرؤية أيضاً هو النهب الفنى. لأن أصحاب الملايين ورعاة الفن لا ينفكون عن "التجميع، التجميع". وصار نشاطهم الذى تضاعف بقوة الدولار مصدر عداوة عامة فى سنوات ١٩٢٠. نتذكر الثناءات المرائية لشارلو: "إنهم يحبون روائعنا. وكثير منها صارت عندهم الآن"؛ والصدى (الأقل جدارة بالذكر حرفياً) الذى تعطيه لهذه الصفحة من رواية الزمن *المستعاد* رواية راؤول جين؛ حيث يريد صاحب الملايين بيردكال وابنته امتلاك كنيسة كيركفيل - "إنها تحب كما قالت لى قرانا القديمة [٦٣]..." نفس اللازمة أيضاً فى نهاية سنوات ١٩٣٠ فى الإنسان المستعجل لموران الذى يقص محاولات تصدير نصف مستترة لديْرٍ فى جنوب شرقى فرنسا. كان ذلك هو الوقت فى الحقيقة الذى كانت فيه الأديرة والقصور ترحل فى طرود مرقمة بعناية لتعيش فى أمريكا حياة ثانية "مجتثة" كما يقول شارلو، وهو يستشهد بـ"السيد بارس". إن الانزعاج الذى أثارته هذه المبيعات جلى فى سنوات ١٩٣٠؛ حيث تكاثرت المبادرات لإخطار الرأى العام وتحريك السلطات العامة. هذا النهب للتراث المقتلع "بقوة الدولارات"، والذى غالبًا ما أخرج فى الأعمال التخييلية يغيب تقريباً لدى الباحثين المعادين لأمريكا. أولم يفرح ربما أكثر المتشائمين شأن فاليرى قبيل الحرب العالمية الثانية لفكرة أن قليلاً من الحضارة الأوروبية سينقذ بفضل المتاحف الأمريكية من الدمار المنتظر؟ دون شك، وببساطة فإن هؤلاء المبدعين المثقفين يهتمون بمنتجاتهم الخاصة أكثر من اهتمامهم بالتراث. يبقى أن قلقهم يستثمر فى مكان آخر: فى الخوف من رؤية أشكال الثقافة نفسها تنقلب تحت التأثير المزدوج لضرورة تحقيق المردود والخضوع لذوق الجماهير.

لقد أنشأت أمريكا "حضارة الكم" كما يسميها لوسيان روميه (مستشهداً ببول فاليرى)، سوقًا لشؤون العقل مثلما فعلت بالنسبة لكل المنتجات؛ فالثقافة فى طريقها لأن تصبح مالاً، غذاء، يوضع تحت تصرف المشترين. وفى غياب نخبة قوية بما فيه الكفاية ومنظمة لكى تقود الخيارات الجمالية، سيكون الطلب الثقافى إذن مجرد انعكاس للرغبات "العامية" للجماهير أو نتيجة تلاعبات مخصصة لـ"تربية" أذواقها ضمن الاتجاه المرغوب من قبل صناعات التسلية. لقد وُضعت بواكير شجار دائم بين مفهومين للثقافة: أحدهما يفصل تمام الفصل بين "الثقافة الرفيعة ***high culture***" وثقافة الجماهير الهادفة إلى التسلية ***entertainment***، وثانيهما لا تنقسم الثقافة بالنسبة له ولا تباع، بل تؤلف "مالاً مشتركًا" غير مادى، موضوعًا تحت حماية المثقفين،

ومكتسبًا بالجهد، ومكتملاً بنسيان هذا الجهد - "ما يبقى عندما ننسى كل شيء"، حسب قول مالرو المأثور. هذا المنطق الثانى، منطق المثقفين الفرنسيين، يحشر أكثرهم تقدمية فى موقع نخبوى، يُعادلُ بميثولوجيا التناغم بين الخيارات المثقفة للنخبة و"التطلعات الحقيقية للشعب". وبتشهيرها بالنتاج الثقافى الجماهيرى، فإن الإنتلجنسيا هذه على قناعة من أنها تقوم بواجبها إزاء الشعب، وأنها تحميه ضد نفسه؛ لأنه إذا كان الشعب "سليمًا"، كما هو الأمر فى نورمانديّ راؤول جين، فإنه هشٌ روحيًا؛ والسينما الهوليودية "التى تأتى منتجاتها لأوروبا لتحقر وتفسد وتذل الروح الشعبية" (٦٤)، هى فى نظره أسوأ من الأفيون: إنها سمٌ أخلاقى وثقافى.

المصدر الرئيسى للتسمم: هوليود، التى تتكاثر أوصافها فى فرنسا خلال سنوات ١٩٣٠ . لا لرواية *قصة الاستوديوهات الطويلة*، بل لكشف الطبيعة الحقيقية لهذا النمو المفرط الشاذ فى الإنتاج. هنا أيضًا، يتجلى دوهاميل قليل التمثيل مع قطعته الشجاعة ضد سينما "تسلية الرقيق" و"تزجية وقت الأميين"؛ ففى القاعة التى تشبه فى أسلوبها "بيوت الدعارة"؛ حيث جرّهُ السيد بيتكين رأى التذهيبات، والأفخاذ العارية، والبهلوانات، والخدم المحتقرين، والفقراء الصعاليك المبهورين. أما عن الأفلام، فلا شيء. وحده التبدد الصوتى للمرافقة الموسيقية، تلاحق لا يرحم من القطع المعذبة ضربَ أحاسيسه التى نومتها المحنة. يحمل الفصل عنوان "فاصل سينمائى" ؛ لقد اعتبر لزمن طويل نقدًا لاذعًا عبقريا للفن السابع. ولو أعدنا قراءته لدهشنا منه؛ فالسينما ليست فيه.

لا يشاركه أقرانه تحزبه الأعمى، وعلى أنه ظهر فى السنة نفسها التى نشر فيها كتاب مشاهد للحياة القادمة، فإن كتاب المقت الأمريكى يقلق أيضًا من خطر التسوية الثقافية المحايثة للإنتاج الجماهيرى، لكنه يركز هجومه على هوليود بوصفها معملاً لتوحيد الأنماط مطبقًا على العمل الثقافى ويرفض إدانة السينما كلية. يندهش ريمون روكولى بوجه خاص من ضروب الإكراه الطاغية المفروضة على المبدعين: "يحبس هؤلاء العمال المثقفون فى تبعية ضيقة [...]؛ فأفكارهم ومفاهيمهم تجد نفسها ملجومة إن لم تكن معاكسة." هوليود ما بين الحربين هذه التى ستصير فيما بعد "العصر الذهبى" لمحبى السينما كانت تُرى بوصفها مزيجًا من التايلورية واحتقار العقل. "لم يسبق من قبل أبدًا أن كان كل ما يمسّ النتاج الأدبى والفنى موضع احتقار بهذا الكمال. فالمؤلفون يعتبرون كما لو كانوا مرتزقة، - زنوجًا -"، كما يكتب ركولى(٦٥). ويسير الكتاب اللامع هوليود، المدينة السراب الذى نشره جوزيف كيسيل فى عام ١٩٣٧ فى الاتجاه نفسه. يصف كتاب كيسيل وهو تحقيق صحفى ذاتى دون خشونة ودون حماس أيضًا

حول عالم أكثر "عبثية" منه عجائبيةً، وأشد اجتهاداً منه لعبًا، وأشد صناعية منه مهارة، "سجنَ أشغالٍ شاقة ذهبيًا، مصطنعًا ومخيفًا" ـ سجن الهوس والاختصاص، قصر الإبداع المشبع بالتايلورية. "هوليود هى مدينة عمالية"، كما يكتب كيسيل، تقوم "بصناعة صور ناطقة كما يصنع فورد السيارات". لكن الكتاب والفنانين هنا هم الذين يقفون مصطفين فى سلسلة الإنتاج، مرغمين على تسجيل أوقات وصولهم، ومحجوزين فى مكاتب عملهم. "كل الكتاب ، وكل المؤلفين الموسيقيين حتى وإن كانوا مشهورين، حتى وإن كانوا يتلقون بين ٢٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ فرنك فى الأسبوع، يتوجب عليهم أن ينتجوا فى مكاتبهم المرقمة. حضورهم واجب منذ الساعة التاسعة صباحًا بدقة كما لو كانوا يسجلون لحظة وصولهم. تنتظرهم أدواتهم هناك: آلة كاتبة، ومكتبة، وبيانو، وأرغن أو كمان." تحت الألماس الصناعى القلق. إن مصنع التسلية هو سجن مؤبد للعقل: "كل شىء منظم، متراتب ، موحد الأنماط. حتى الأفكار، ووصولاً إلى الوحى(٦٦)." إن الإيقاعات المفروضة على الابتكار لإخراج تسعمائة فيلم سنويًا أشد جهنمية من إيقاعات سلاسل التركيب فى ديترويت. السينما "لم تعد فنًا. إنها آلية ثقافية". لقد سبق للوك دورتين أن قالها عن المصانع الأمريكية بصورة عامة: "كل شىء ناجح بصورة تامة، لكن حزنًا كبيرًا يتحرر منها: انطباع، فيما وراء الكلمات، بهزيمة الروح(٦٧)." "سرعة، مردود، دقة، تهذيب: تلك هى خصائص الوجود الجوهرية فى هوليود"، كما يسجل كيسيل؛ "كل شىء صقيل، كل شىء يندمج آليًا" و"هذه اللعبة بلا حرارة [...] تعطى لهوليود رتابة وزهو حلم بلا جوهر"(٦٨).

ولكن لا "مصانع السراب" التى يحكيها كيسيل، ولا أشكال الإنتاج الثقافى الجماهيرى الأخرى وحدها المسئولة عن انحطاط العقل فى الولايات المتحدة. وإذا كان الإله فيها يُخدَمُ من قبل "أولاده المتزوجين" ودعاته الدجالين، فإن الذكاء يضمحل فيها لفقدان ...المثقفين.

إننا لا نفهم فى فرنسا ونغضب أكثر فأكثر غالبًا من عجز أو من "سلبية" الذين كان يتوجب عليهم خوض المعركة فى الميدان: الكتاب والفنانون والجامعيون الأمريكيون. وإننا لنقر مجيئهم دون أن يخلو ذلك من لبس، للبحث فى أوروبا وفى فرنسا عن تربة صالحة يفتقرون إليها فيما وراء الأطلسى، لكننا نمتعض منهم لهروبهم من ميدان المعركة الثقافية الأمريكية. يأخذ عليهم المثقفون الفرنسيون أنهم لم يحترموا مقاماتهم؛ أنهم لم يعرفوا أو يريدوا أن يتخذوا أنفسهم سلطة ثقافية. كان جول هوريه منذ بداية القرن قد فوجئ بملاحظة "التأثير المعدوم" للنخب فى الولايات المتحدة، ومن هنا نكتته التى سبق وذكرناها: "لم يركز الأمريكيون حتى هنا إلا قواهم الصناعية والمالية، ولم

تتكون بعد التروستات الثقافية[٦٩]". ولن تتكون لا بعد عشرين ولا بعد خمسين سنة من ذلك. لقد نشأت مكانها تكتلات صحافة ونشر وسينمائيين وتلفزيون، لم يكن الكتاب والفنانون سوى أجهزتها. حتى ولو عرفت بعض الأصوات القوية أن تسمع نقدها لـ"النظام"، من جاك لندن ودريزر إلى دوس باسوس وشتاينبك، فإن الخيبة سادت فى فرنسا أمام فشل المثقفين ـ كلمة هى ذاتها غير ملائمة ـ فى إقامة سلطة مضادة. هذا العجز فى التأثير على حياة الأمة نسب إلى الخطيئة بقدر ما نسب إلى أمريكا ذاتها، التى لا تزال تبدو هنا بوصفها معادية لفرنسا، مانعة على نخبها الثقافية القيام بأى دور فى المدينة، بل أسوأ من ذلك: إن مكانهم مستنزف من قبل أخصائيين ضيقى الأفق، سموا أنفسهم "تكنوقراطيين" وعما قريب خبراء خفيين فى "هيئة الخبراء". نجد هذا المأخذ وقد صيغ فى أشد النصوص مفاجأة، كهذا الكتيب التعاونى شديد المعاداة لأمريكا، يشير إلى أنه توجد فى الولايات المتحدة "نخبة مثقفة شديدة التميز، ذات عقل راجح ومثقف. وللأسف، بما أنه لا توجد قاعات ولا حياة اجتماعية، فإن هذه النخبة تبقى مبعثرة وليس لها أى تأثير على الأوساط الأخرى"[٧٠]. وليس بالطبع لنفس "التأثير" إنما يتجه تفكير سيمون دو بوفوار فى عام ١٩٤٨، لكنها هى أيضًا تأسف لـ"الطلاق الجلى بين العالم الجامعى والعالم الثقافى الحى" فى الولايات المتحدة ولـ"الانهزامية" التى تبعد المثقفين الأمريكيين عن التدخل فى الشئون العامة: "لقد استقرّ فى هذا العالم شديد الجدة، والذى صار شديد القدم تقليد فى الانهزامية الثقافية[٧١]". فالكاتب لا وجود له فى الولايات المتحدة إلا بوصفه ممثلاً هزليًا *entertainer*: ليس الكتاب شعبيين إلا بوصفهم مسلين" ، كما تسجل أيضًا سيمون دو بوفوار، "ليس للكاتب إمكانية تحريك الرأى العام بصورة عميقة"[٧٢]. هذا تلخيص كامل بصورة معاكسة لحلم "شعبية جادة" وتأثير مدنى يغذيه الكتاب الفرنسيون بكثرة.

وسواء أكانوا ضحايا كلية أم مذنبين جزئيا فإن انسحاب المثقفين مفجع؛ فهو يترك المجال حرًا أمام مناورات الرأسمالية والإمبريالية الثقافية كما يشير كادمى كوهين: "اكتفت الإمبريالية الأمريكية بالنظر إلى المجال الرفيع للفكر مثلما ينظر الصناعى إلى سوق يريد غزوها." وفى عام ١٩٣٠، كان لا يزال يعتقد مع كثير من المثقفين الفرنسيين أن النخب الأوروبية تفزع "الإمبريالية" إلى درجة لا تستطيع معها هذه الأخيرة مهاجمتها مباشرة. إن النتاج الثقافى الجماهيرى (السينما فى المقام الأول) هو حصان طروادة عملية تتم فى وحدتين زمنيتين: سيكون "شعب" أوروبا مكتسبًا و"مدللاً"؛ وسيتخلى بالتدريج عن مرشديه الفكريين والروحيين كى ينتهوا مخنوقين كالسمك خارج المياه، سيصير سهلاً آنئذ على شراذم أوغاد الإبداع أن

يتجاوزوهم ويخدعونهم"(٧٣). إنه الرسم الأولى المبكر لسيناريو "مؤامرة ضد الذكاء" على النحو الذى ستغذيها نزعة معاداة أمريكا خلال الحرب الباردة.

وبانتظار ذلك، تتكاثر الأعراض المقلقة؛ لأنه فى غياب كل سلطة أو سلطة مضادة ثقافية، فإن السوق هو الملك والثقافة نتاج عادىُ مُكرسٌ بذلك نفسه ليصير نتاجًا مبتذلاً. إن المبدعين "الحقيقيين" والكتاب الكبار الذين صاروا كتاب سيناريو (مثل فوكنر)، يخضعون أكثر فأكثر لطلبات محكمة التأطير وإلى واجب العمل الجماعى وإلى إهانة إعادة الكتابة ***rewriting***. لكن هذا السوق ـ الملك يبتكر أيضًا وبوجه خاص أشكاله الثقافية الخاصة به، صحونًا طائرة أدبية أو فنية بدأت فى زرع الاضطراب والذهول لدى المثقفين الفرنسيين. قلما تمَّ الحديث حتى عام ١٩٤٥ عن كتب القصص المرسومة، وبالكاد بدأ ذكر الدايجست، لكن ساد القلق من وضع الكتاب ذاته الذى بات يُنظر إليه كسلعة من السلع الأخرى. يذكر دوهاميل "تجار الأدب" الأمريكيين، ولا يرى المؤرخ برنار فاى دون قلق انتشار أدب المجلات المباعة فى الأمكنة نفسها وأحيانًا على الرفوف نفسها التى يباع عليها صابون الحلاقة. إن التعايش الوثيق بين الكتاب والمجلة والصحيفة يقلق بالنسبة للمستوى الأدبى للأعمال والصحافة الأمريكية تؤلف بصورة منتظمة موضوع أحكام شديدة السلبية(٧٤)، لكن التآزر الاقتصادى الذى لا تفلت منه الجامعات يثير القلق أيضًا على استقلال الفكر. يتناول آرون ودانديو الموضوع بجذريتهما المعتادة ـ جذرية سيكون لها عديد من الورثة فى النصف الثانى من القرن العشرين، والذين يقلقون لمصير الكتاب، شعار الثقافة على الطريقة الأوروبية، لم يفهموا شيئًا فى "السرطان الأمريكى". وسواء اختفت الكتب أم لم تختف لصالح الملخصات ***digests*** فليس لذلك أية أهمية؛ فالكتاب أصلاً "ليس هو نفسه على أرض اليانكيه مثلما هو فى البلدان الحرة". فى بلد الاستعباد المعمم هذا حيث "منذ الولادة تكون الحياة الثقافية عبدة"، وحيث الطلبة "بلا دفاع"، وحيث المعلم ليس إلا "طفيليًا محتملاً"، فإن أجمل المكتبات ليست إلا ضروبَ سرابٍ مضحكة. وحين نقرأ على الواجهة مكتبة حرة ***free library*** يجب أن نعلم أن "فى هذه المكتبة الحرة ***free library*** كل شىء وكل إنسان حر، وحده العقل ربما ليس كذلك".

ليس من السهل على أمريكا أن تخرج من هذا الوضع، إذا كانت تنتج ملخصات فإنها تتهم بالهمجية. ولكن إذا فتحت المكتبات فإننا نفضل عليها البرابرة؛ لأنه كما يختم آرون ودانديو "من الأفضل حرق المكتبات على أن نجعل منها ملحقات للمصارف"(٧٥).

منذ فترة ما بين الحربين، كل المركبات متاحة إذن من أجل الدواء الثقافى الموصوف على جرعات؛ حيث تمتح معاداة أمريكا فى سنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٠ قوتها: قلق أمام الانتقاص من مبدعات العقل وجعلها بمستوى السلع، إسقاط رمزى لمنزلة المثقفين والمبدعين، استعباد الفكر عامة والجامعة خاصة، بعد حصرها فى مهمات اختصاصية، إنشاء سوق ثقافى جماهيرى يفلت كليًا من سلطة المثقفين. فى فرنسا المهانة والمدمرة عام ١٩٤٥، تبلورت هذه المخاوف المبعثرة والمضطربة فى شعور عنيف بانتزاع الملكية. وفى هذا المشهد السياسى الذى يغيب فيه يمين المعركة مؤقتًا ولا يملك اليسار المعتدل فى الحكومة من خيارات سوى خيارات "أطلسية" بالضرورة، ينجح الحزب الشيوعى، وهو قطب التقاء العديد من المثقفين والجامعيين والفنانين، فى نشل كل هذه الثروة الهائلة من أجل نفوذه ومن أجل "المعركة الأيديولوجية": كى يصير زعيم المقاومة الثقافية الفرنسية.

هناك "مؤامرة ضد الذكاء"، كما تكتب ذلك مجلة النقد الجديد ***La Nouvelle Critique*** عام ١٩٥١. يحرص الحزب الشيوعى الذى يقدم نفسه من الآن فصاعداً بوصفه المثل الحقيقى الوحيد للأمة على أن يظهر أيضًا بوصفه المدافع الحقيقى عن الكنز الثقافى الفرنسى. "إن فرنسا، بلد رابليه ومونتينى وفولتير وديدرو وهوجو ورامبو وأناتول فرانس وشعراء المقاومة ضد الغازى، تغرق تحت وطأة أدب مستورد يمجد كل ما هو خسيس لدى الإنسان، وبعض المجلات الأمريكية التى تؤلف حماقتها إهانة للعقل البشرى"[٧٦]: ضد هذا التخريب بواسطة إفساد العقول لا تنضب قريحة الصحافة الشيوعية؛ فالمقصود من جهة مواجهة محاولات تجميع بعض المثقفين والفنانين المعادين للستالينية؛ لكن المقصود خصوصًا استغلال بئر أيديولوجى شديد المردودية ومنح المثقفين المنضمين للحزب الشيوعى الفرنسى انطلاقًا من آفاق مختلفة هدفًا موحدًا لدفاع نقابى ضد الغزو الثقافى. يمكن أن يبدو تأثير هذه الحملات التى قيست بواسطة استطلاعات الرأى متواضعًا[٧٧]، لكن "هدف"ها ليس الجمهور العريض بقدر ما هو هذه "الفئات من المثقفين" التى يجدر كسبها للقضية والتى تتلقى بترحيب هذه الرسالة فى المقاومة. إن المبالغة فى تقدير الثقافة وممثليها، على النحو الذى كان دوهاميل يمارسه قبل الحرب مضطلع به كليا، لكنه أيضًا مُسَيَّسٌ من أوله إلى آخره: يجب الانتقال من الكراهية الفردية إلى الاستنفار الجماعى. إن الدفاع عن "شؤون العقل" مسألة سلامة عامة طالما أنه "من أجل محاولة كسر ظهر أمة ما، ومن أجل إلغاء استجاباتها الدفاعية، إنما يُبدأ بمهاجمة عقلها"[٧٨].

إن مشروع "الاستعباد الأخلاقى" الذى كان يعتبر قبل الحرب صلفًا يستعاد اليوم من قبل أمريكا شديدة القوة. إن الوضع شبه الاستعمارى لفرنسا "المحتلة" يضفى عليه احتمالاً مأساويًا. هذا ما تكرره على كل حال الصحافة الشيوعية. فى عددها الخاص الصادر فى يونيو ١٩٥١، تشرح مجلة النقد الجديد أن "فساد" الثقافة والاستعباد السياسى يسيران جنبًا إلى جنب: "هناك مشروع هائل لإفساد العلم والفن، وانحطاط الثقافة يحتل مكانه فى بلدنا، على نمط ما يجرى فى الولايات المتحدة الأمريكية [...] لا يريد الفرنسيون أن يصيروا أناسًا آليين، ولا المثقفين مرتزقة للتروستات." ويخلص كاتب المقال بعد أن يمضى بعيدًا فى تعليل التشابك الكامل بين النضال الثقافى والمعركة السياسية إلى أن "التصويت لصالح قوائم الأحزاب الحكومية والتجمع من أجل فرنسا يعنى التصويت لصالح هوليود والكوكلوكس كلان والظلامية والرقابة، لصالح الفساد الأخلاقى والشرطة فى المختبر، لصالح تحويل الرسامين إلى عمال يدويين، لصالح موت الأدب(٧٩)." برنامج واسع هو برنامج الإمبريالية وعملائها.

إن الاستعادة الشيوعية لخطابات الدفاع الذاتى الثقافى يعيد توجيه ترسانة الحجج المتراكمة خاصة لدى اليمين قبل الحرب، إلى اليسار: فمعاداة أمريكا الثقافية تصير واجبًا وطنيًا. لم يعد الخطر محايثًا لأشكال الثقافة الجماهيرية المزعومة فحسب. إنه مسجل فى برنامج تدمير مقصود للثقافات "القومية" التى تعرقل العولمة الأيديولوجية التى تريدها أمريكا. يعمل القادة الأمريكيون على "إضاعة ضمير" نا، كما تؤكد المجلة الفكرية للحزب الشيوعى والتى تطلق فى نهاية عام ١٩٥١ تحقيقًا كبيرًا حول "المؤامرة ضد الذكاء": "إن ما يتطلبه فى الحقيقة خنق اقتصادنا وإعداد المشاة [فى إطار منظمة حلف الأطلسى] هو أن نفقد ضميرنا وأن نعثر عليه من جديد بصورة مضحكة فى ضميرهم هم." وقول أقل هيجلية: "حين يفرضون علينا [ثقافتهم]، يظنون أنهم ينوموننا بأسطورة "شراكة" الأفكار والمشاعر والتاريخ"(٨٠). إن الأدوار القديمة قد قلبت: فالأمريكيون هم الذين يُغرونَ بالماضى ويرنون باسم لافاييت. إننا نذكر إتيامبل: "واشنطن، ها نحن! لافاييت ها نحن! وبإيجاز الأسطورة الهوليودية للولايات المتحدة الأمريكية(٨١)." وأكثر من السخرية والاستهزاء والاحتقار الذى يميز الهجوم قبل الحرب، تسود نزعة التخويف المعجونة ببلاغة المؤامرة. وكنتيجة لخطة مارشال، هناك "خطة مارشال للأفكار" التى يكشف روجيه جارودى عن وجودها فى مارس ١٩٥١: "إثر التوجيهات التى أعطاها ترومان فى ٢٠ أبريل ١٩٥٠ ودين أشسون فى ٢٢ أبريل حول الدعاية الشاملة التى تتطابق مع الدبلوماسية الشاملة، أنشأت وزارة الخارجية

الأمريكية المجلس الأعلى للحرب الباردة." وتنشر الصحف الفرنسية المأمورة مثل الفيجارو من الآن فصاعداً مقالات تقريظية و"هاذية" حول الثقافة الأمريكية أملاها مباشرة "المكتب الأمريكى للإستراتيجية النفسية "، والذى هو "الدعاية الشاملة" الجديدة الخاصة بترومان. والبرهان على ذلك: بوسعنا من الآن فصاعداً أن "نقرأ الصحافة التى يقال إنها فرنسية قبل يومين من ظهورها... بتصفحنا نشرات الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ـ أمريكا"، لكن تفرع "المؤامرة" يمتد إلى ما وراء هذه التلاعبات الفجة على أيدى "خدام صحافة مارشال بقلمهم"(٨٢)، وتنتشر وفق محورين سبق وأن أشير إليهما من قبل معادى أمريكا قبل الحرب.

المحور الأول: الجامعة. يؤلف النموذج الجامعى الأمريكى منذ نهاية القرن التاسع عشر موضوع تحليلات شديدة التناقض؛ فالجامعيون والمربون يجدون له سحراً ومؤهلات أكيدة، منذ جوستاف لانسون إلى جان مارى دوماناش ـ"ستكون لنا جرائمهم. هل يسعنا أن نمتلك جامعاتهم (٨٣)." لكن معظم المراقبين الفرنسيين يجدون الجامعات الأمريكية شديدة التبعية لميدان الأعمال الكبير، وهم يشيرون إلى العزلة الفكرية للجامعيين، وينقدون الطابع شديد التجريد وشديد الاختصاص للتعليم المعطى. هذان المأخذان الأخيران لا يبدوان لهما متناقضين: بما أنهم نشأوا على الآداب فإنهم ينظرون إلى الاختصاص المفرط باعتباره شكلاً من التجريد يقابلونه مع الخلاصة الإنسانوية التى هى هدف كل تربية، ولكن حتى عام ١٩٤٥ لم يكن من المتصور عدوى النموذج الجامعى الأمريكى أكثر من الاعتقاد فعلاً بهجوم "ثقافى" أمريكى فى أوروبا.

سوى أن التهديد معلن من الآن فصاعداً بتقييد الجامعة الفرنسية راضية أو مرغمة بالجامعات الأمريكية معلن من قبل موريس توريز نفسه : "على التعليم الفرنسى أن يتقيد بسياسة الحرب الأمريكية." ينوى الأمريكيون استخدام مصادره العلمية، لكنهم يريدون أن يجعلوا منه بوجه خاص قناة اتصال أيديولوجية. يترجم هذا الإلزام نفسه من خلال معاقبة المعلمين، مقدمة لمكارثية مقنعة(٨٤)، ولكن أكثر أيضاً من خلال تغيير مضمون التعليم نفسه. ولما كان موجهاً نحو اختصاص أحمق، مجوف من جوهره، فإنه لن يقدم لا سلاحاً ولا معلماً للمقاومة الثقافية. إن التعليم الذى تكرسنا له الإمبريالية هو "درس الفطيرة" الذى عثرت عليه مجلة النقد الجديد فى برامج جامعة فانكوفر ***Vancouver***. ومن هنا هذا الشعار: لا! لا نريد دروس فطيرة ولا نريد أمركة جامعاتنا! لا نريد الانحطاط المخجل للثقافة التى تروج لها واشنطن فى العالم(٨٥)." بملامحه كنكتة، يعيد هذا الشعار وصل حلقة الأزمنة: كان جوفنيل فى عام ١٩٣٢ يثور

ضد الدروس الفندقية أو التدريب على التسويق الذى تعطيه الجامعات الأمريكية(٨٦). لكنه أيضًا ذو طابع تحذيرى: رقية الفطيرة باعتبارها "مادة تعليم" تحقق مسبقًا التركيب بين رفض الغذاء السيئ ورفض "المدرسة الثانوية الخفيفة".

الدرب الثاني للاختراق الأمريكى هو الدرب الذى كان المثقفون يخشونه فى فترة ما بين الحربين: محاصرة الثقافة الشعبية بواسطة "ثقافة جماهير" من صنع الولايات المتحدة الأمريكية. هنا أيضًا نجحت الحملات الشيوعية فى تحقيق تركيب ذروى من ضروب رفض الإنتلجنسيا وجزء كبير من االشعب. فأفلام الكرتون تزدهر فى الولايات المتحدة منذ سنوات ١٩٢٠ . وكتب الحكايات المصورة ***Comic Book*** صممت وأطلقت على أيدى بروكتر وجامبل **Procter & Gamble** فى عام ١٩٣٣، والتى كانت فى الأصل مجرد "تسلية" مجانية، وبدأ توزيعها المدفوع منذ السنة التالية وبلغ خلال عشر سنوات ١٨ مليون نسخة شهريًا فى الولايات المتحدة. لكن وصولها الكثيف بعد عام ١٩٤٥ إلى صالات السينما وفى أكشاك الصحف هو الذى أثار عداوة بلد كانت فيه الصحافة المخصصة للطفل قريبة دومًا من "الصحافة الطيبة"(٨٧). لقد جمع التشهير بالرسوم المتحركة وبكتب الحكايات المصورة، العنيفة والمبتذلة، الصحافة الشيوعية والصحافة الطائفية والصحافة التربوية العلمانية. وحين يسخطون من "الرسوم المتحركة التى تحمل على الضحك من التعذيب المفروض على دونالد البطة أو على بلوتو الكلب"، وحين يشهرون بـ"الغزو الفاضح بوجه خاص" لصحافة الأطفال" بواسطة "دفاتر منقولة بفظاظة عن أفلام الكرتون فيما وراء الأطلسى" وحافلة "بمزيج لا يصدق من البورنوجرافيا والسادية وكل ما يستثير المشاعر الدنيا"، وحين ينبهرون من أن يروا فيها "تنورات قصيرة وأثداء متفجرة"، فإن محررى مجلة ***النقد الجديد*** يتبنون هموم جزء كامل من الرأى العام الكاثوليكى أو المتمسك بأدب للطفولة ذى تقليد "تربوى". تلعب الصحافة الشيوعية هنا على مشهدين؛ فهى تطلق نداءات ملحة لـ"آباء الأسر القلقين من المثل السيئ الذى يقدم على الشاشات"(٨٨). لكنها تعطى الكلمة أيضًا للويس داكين ليشهر بالتواطؤ بين أصابع الفاتيكان وقانون هايز **Hayes** الذى يحدد معايير الخجل السينمائية، والذى حرره جزويتى فى عام ١٩٢٩"(٨٩). ضربة ضد الرقابة "المتزمتة" للسينما ثم ضربة ضد البذاءة "البورنوجرافية" للحكايا المصورة تعادلان ضربتين على أصابع أمريكا.

سيأتى قانون حماية الشبيبة فى ١٦ يوليو ١٩٤٩، وهو "أداة حرب ضد الإنتاج السينمائى الأمريكى" حقيقية (٩٠)، ليعوض جهود المحتجين. تقضى المادة الثانية أنه لا يمكن لأى منشور للشبيبة أن يبين على نحو إيجابى اللصوصية والسرقة والكسل

والجبن والكراهية والفجور أو أى عمل من شأنه أن يفسد أخلاق الطفولة والشبيبة. وباعتراف المحرضين على وضع هذا القانون أنفسهم، فإن "الهدف المعيّن هو بصراحة كتب الحكايا المصورة الأمريكية وتوقفت مجلة طرزان عن الظهور فى اكتوبر ١٩٥٣"(٩١). أما بالنسبة لأدب الراشدين الذى تؤلفه (من حيث المبدأ) الرواية البوليسية حسب الأسلوب الأمريكي، فقد استثار هو أيضًا نفوراً واسعًا. ومن بين نقاده غير المنتظرين ريمون كينو الذى ربط على نحو يثير الفضول فى عام ١٩٤٥ بين جو الروايات البوليسية وعالم المركيز دو ساد وعالم الجستابو ومعسكرات الاعتقال(٩٢). إن فرض الرواية البوليسية السوداء أو أفلام العصابات يعنى تربية الجماهير على العنف وإعدادها للحرب كما تظن مجلة النقد الجديد، لكن بوزنر يذهب إلى أبعد من ذلك: إذا كان رجل العصابات موضع كل الاهتمامات "الفنية" لأمريكا، فلأن العصابات صارت "صناعة الجريمة فى حقبة الاحتكارات وأن فرعها الأهم، الابتزاز ***racketeering***، ليس شيئًا آخر سوى استمرارية التنافس الرأسمالى بوسائل أخرى"(٩٣). وليس هناك أشد دناءة من رجل العصابات ومقرظيه الأمريكيين، سوى هؤلاء "الكتاب الفرنسيون [الذين نراهم] ينحطون إلى درجة تقديم مبدعاتهم باعتبارها ترجمات عن الأمريكية" - إشارة محتملة لكتاب سأذهب لأبصق على قبوركمالذى نشره بوريس فيان **Boris Vian** تحت الاسم المستعار فيرنون سوليفان(٩٤) **Vernon Sullivan**.

لكن "نتاجًا" آخر يركز، وهذا ما يستوجب القول، الهول الثقافى الأمريكي: الملخصات ***digest***؛ فالروايات المضغوطة "فى ثلاثين صفحة" تستثير الاستنكار العام. تتحدث صحيفة الشهادة المسيحية ***Témoignage chrétien***عن أدب موضوع فى حبة أسبرين. يشرح فلاديمير بوزنر أن الملخصات تصدر عن منطق الرقابة نفسه الذى تخضع له استمارات الأسئلة والتخصص الفوردى(٩٥). وحدها أمريكا "الوقت من ذهب" يمكنها أن تبتكر مثل هذه الفضيحة. (فى الواقع، كانت إعادة الكتابة الروائية فى شكل ملخص ومخفف تمارس بكثرة فى فرنسا القرن الثامن عشر، وكانت الروايات الطويلة فى القرن المشار إليه تدفع الثمن(٩٦)) إن الكلمة ذاتها ديجست تعزز القرف الذى يوحى به هذا الغذاء الروحى المعلوك من قبل، هذه النصوص المهروسة بشدة. لا تملك فرنسا الحق فى مادة الثقافة إلا بسلات المهملات الأمريكية: كشط أعماق الأدراج، بكرات قديمة مهترئة لأفلام مستهلكة منذ خمسة عشر عامًا، دون الحديث عن "القذارة" المحضة (إتيامبل) التى تؤلفها الكوكا كولا. يكتب بوزنر فى عام ١٩٤٨ مشيراً إلى إقامته فى الولايات المتحدة عام ١٩٣٨ وخلال الحرب: "أتَعَرَّفُ على هذه العدة التى سبق استخدامها، والتى لم يبذل أى جهد فى تمويهها: الأفلام، والكتب

الرائجـــة، والمجلات، والملخصـات، والحكايا فى صـور، والصـور الفوتوجرافـــية الملـونة للفتـيات الجميلات [٩٧]. تلك هى البهرجــات الثقافـية التى يغرقنا بها هـذا التاجـر الغشـاش (gougnafiers إتيـامبل كذلك)، والذى يـحدث له أن يربح منهـا مـالاً كـثيـراً مثلما يربح من بيع معداته العسكرية الفائضة.

من الأوهام الخادعة إلى الأساطير

من بين كل هذه "المعارك"، كانت معركة السينما الأكثر عنفًا. وأسباب ذلك كثيرة بدءًا بأهمية الجمهور المستهدف، ثم إن الوسط السينمائى الفرنسى يمتلك تقليداً قوياً إلى اليسار؛ فهو قائد جيد للاستنفارات السياسية والنقابية. ظروف أخرى أساسية سياسيًا: وهى اتفاقات بلوم ـ بينز عـام ١٩٤٦ التى نظمت الدخول الكثيف للسينما الأمريكية بوضعـها حـداً أدنى من حـصص التوزيع فى فرنسـا. إن التشـهـير بهـذه الاتفاقات باعتبارها "استسلامًا" ثقافيًا سمح للشيوعيين بإلقاء الضوء على تواطؤ السيـاسيين الاشتراكيين مع "الإمبريالية" وتسويق صورة بلوم بوصفه أيديولوجى الحزب الأمريكى فى فرنسا"[٩٨]. قدمت حصص عام ١٩٤٦ بصورة مثابرة باعتبارها غدراً. يكتب جورج صوريا : "سيدخل السيد بلوم التاريخ على هذا النحو بوصفه الرجل الذى فتح شـاشـات فرنسـا على مَدً الجـريمـة من صناعـة الولايات المتحـدة الأمريكية، والذى يحكم على السينما الفرنسية بموت بطىء لكنه أكيد".

كان ذلك يعنى التناسى (عن عمد)؛ لأن الخوف من الغرق على أيدى الصناعة الأمريكية يعود فى الواقع إلى سنوات ١٩٢٠ . فالسينما الفرنسية التى كانت شديدة النشاط قبل ١٩١٤ كانت فى الواقع تشكو كثيراً من التوقف بسبب الحرب الكبرى، كما أن الاستثمارات الضرورية لإعادة بناء البلد كانت تخفض بالقدر نفسه مصادر تمويلها. فى عام ١٩٢٤، كان ٨٥٪ من الأفلام الطويلة المعروضة فى فرنسا أمريكى المصدر، بيد أن النسبة تنخفض بعد ذلك وإن كانت لا تزال ٦٣٪ فى عام ١٩٢٧ . نُظِرَ إلى الوضع آنئذ على أنه يثير القلق إلى حدً دعا هوريو معه لجنة السينما المؤلفة جوهرياً من المنتجين للاجتماع. وتوصلت إلى ضرورة حصص محصورة: سوف يُسمح لأربعة أفلام أمريكية مقابل كل فيلم فرنسى مُصدَّر. طبقت هذه الحصص فى عام ١٩٢٨ وأطلقت على الفور مقاطعة فرنسا من قبل ***رابطة المنتجين والموزعين الأمريكيين Motion Picture Producers and Distributors***. قبل نهاية السنة، "صُحِّحَ" الموقف الفرنسى: صار من الممكن من الآن فصاعداً السماح باستيراد سبعة أفلام لكل فيلم منتج فى فرنسا. كان ذلك يشبه الاستسلام شبهًا كبيراً. كانت المقاومة شديدة الصعوبة لا سيما وأن ثلاثة

أرباع أفضل قاعات سينما الواقعة فى المدن الكبرى تعود ملكيتها للأمريكان أصلاً. كانت الفكرة نفسها فى إقامة نسبة منتظمة بين أفلام أمريكية تعرض فى فرنسا وأفلام فرنسية تعرض فى الولايات المتحدة مجرد أمل واهم منذ تلك الحقبة أو فكرة ديماجوجية نظراً لعلاقات القوى الحقيقية: فى عام ١٩٢٩، لم يعرض فى الولايات المتحدة سوى تسعة عشر فيلمًا فرنسيا[٩٩]. يعطى هذا الرقم مستوى مشكلة سابقة تمامًا على فتح الأبواب بفضل اتفاقيات بلوم - بيرنز.

مزجت حملة الدفاع عن السينما الفرنسية التى أطلقت اعتباراً من عام ١٩٤٧، والتى بلغت أوجها فى بداية سنوات ١٩٥٠ على نحو وثيق فى الصحافة الشيوعية الحجج الثقافية والاقتصادية والأيديولوجية. "صار الفيلم فى الولايات المتحدة الوسيلة الأقوى لتخبيل الشعب"، كما يلاحظ فى عام ١٩٥٠ مؤلف مقال كان يلح على العدد المقلق لأفلام الحرب المنتجة خلال ستة أشهر فى الولايات المتحدة وحول تكاثر الأفلام البوليسية حيث "يحتل العنف شبه السادى (المشابه لعنف الروايات البوليسية) موقع البطولة"[١٠٠]. لم يُنسَ الطابع المعادى للسوفيات غالبًا للإنتاج الهوليودى؛ فهو يؤكد أطروحة الاستخدام الدعائى بصورة وقحة للسينما من قبل الأمريكيين. تبيّن أفلام الستار الحديدى، والدانوب الأحمر، وتزوجت شيوعيًا، كيف تجهد "حرب البورصة النيويوركية (وول ستريت) فى إفساد أدوات الثقافة"؛ إنها المعادل السينمائى للأيدى القذرة فى المسرح؛ وهو فى نظر الشيوعيين عام ١٩٥٠ ليس قولاً فى الهواء. "تخبيل أيديولوجى، معاداة السوفيات، تقريظ لنهج الحياة الأمريكى (الرأسمالى)"[١٠١]: ذلك هو البرنامج الأسبوعى لقاعات السينما الخاضعة لهوليود.

تتجاوز صرخة الغضب المعادية لأمريكا حول السينما بصورة واسعة الحلقات السياسية المكتسبة لصالح الحملات الشيوعية، ويأتى جزء من الصدمة من أن سلاح الحصص الذى شرعته فرنسا برعونة عام ١٩٢٧ قد غاد فى عام ١٩٤٦ ليَمَسّ جرح اقتصاد منهك، لكن عنف اللهجة المدهش لدى المخرجين، وكذلك لدى العديد من الممثلين يخفى أيضًا ما لا يقال باستمرار: المهلة التى حصلت عليها السينما الفرنسية المحمية من المنافسة "الأنجلو - ساكسونية" فى عهد فيشى. شأن الأمور فى المجال الحساس الخاص بالمنشورات للأطفال والحكايات المصورة، يبدو الاحتلال بصورة استرجاعية كما لو أنه واحة للإنتاج الفرنسى. ومن وضع تفوق لا مراء فيه (ولم العجب) للإنتاج الفرنسى ننتقل فجأة إلى وضع استيراد كثيف لأعمال غالبًا ما تكون رديئة. من يناير إلى يونيو ١٩٤٦، لم يُعرض فى فرنسا إلا ٣٦ فيلمًا أمريكيًا فقط. يبلغ الرقم ٣٨٨ فيلمًا فى عام ١٩٤٧. وخلال عشر سنوات منح الفيلم الأمريكى نفسه، وهو الذى يحظى

بنصف التوزيع حوالى ٤٣٪ من المشاهدين[١٠٢]. ليست فيشى ما يأسف عليها بالطبع كل الذين واللواتى احتجوا ضد الحصص الأمريكية، لكن الرغبة كبيرة موجودة فى المهنة ولدى أصدقائها فى رؤية قيام حماية "سلام ثقافى" تعرف أن تفرضه "دولة قوية"[١٠٣]. إن فرنسا فى حالة دفاع شرعية؛ فإما أن تواجه أو أن ترد على الغزو بالتخريب. يقترح السينمائى جاك بيكير على هذا النحو أن تُمنعَ من أجل الالتفاف على اتفاقات بلوم ـ بيرنز لا الأفلام الأمريكية بل دبلجتها: بهذا الإجراء وحده "نطهِّر السوق بنسبة ٩٥٪ من الإنتاج الأمريكى"[١٠٤]. نطهر: إن الفعل الذى يستخدمه بيكير ينطوى على دلالة. فالسينما اليانكيه هى سمٌ أو مخدر ـ شأن الكوكا كولا، التى يحاول الشيوعيون فى اللحظة نفسها بالتحالف مع لوبى مزارع الكروم أن يمنعوها باسم الصحة العامة [١٠٥].

مشهد أساسى هنا أيضاً؛ فالحملات المعادية لهوليود خلال الحرب الباردة تعتمد على مناقشات سنوات ١٩٣٠ وفى الوقت نفسه تستبق تصور "حرب الصور" الأشد معاصرة. منذ سنوات ١٩٢٠، كانت الاعتبارات الاقتصادية والأبعاد الرمزية قد امتزجت بصورة نهائية. كان إدوار هيريو بوصفه ناقداً لا سياسياً يطرح منذئذ السؤال الذى غدا اليوم مركزياً فى المداولات حول الهيمنة الثقافية الأمريكية :السؤال الخاص بحق الشعوب فى إنتاج صورها الخاصة بها ـ صور العالم وصورها عن ذاتها. كان هيريو يتساءل: هل من العبث أن تتجسد جان دارك من الآن فصاعداً تحت قسمات فتاة كاليفورنية، وأن يتجسد نابليون تحت سمات ممثل من إيللنوا[١٠٦] ؟ أليس ثمة فى ذلك شكل ماكر من جعل الخيال التراثى مصاص دماء؟ ألا يتوجب على الصور السينمائية، وأسلوب ولغة السينمائيين أن تدعى تجذراً فى الثقافة بالمعنى القومى وشبه الإثنى؟ كانت هذه التساؤلات تأتى من اليسار منذ ما قبل الحرب. إنه جان رنوار الذى يقدم (فى عام ١٩٣٨) هذا الاعتراف المثير للفضول بالذنب: "بسذاجة وبجهد كنت أجهد فى تقليد أساتذتى الأمريكيين، لم أكن قد فهمت أن فرنسياً يعيش فى فرنسا، ويشرب النبيذ الأحمر ويأكل الجبن من برى Brie أمام رمادية الآفاق الباريسية لا يمكنه أن ينجز فيلماً ذا مستوى إلا معتمداً على تقاليد الناس الذين عاشوا مثله[١٠٧]." فحتى الوهم السينمائى يجعل الاختلاف الجسدى للأصوات وللأجساد وللأمزجة بينـ"ـهم" وبينـ"ـنا"، يعود. وهناك استقصاء للرأى تم بعد ثلاثين سنة من ذلك طُلِبَ إلى الفرنسيين فيه أن يقولوا بأى شعب يشعرون أنهم أكثر شبهاً: يصل الأمريكيون بعيداً جداً وراء الإنجليز والإيطاليين والألمان. كيف نقبل أن نكون "ممثَّلين"؟ وأن نكون كذلك من قبل من نريد أن نكون الأقل شبهاً بهم؟

"ليس الفيلم مجرد سلعة فحسب": هذه الجملة الجوهرية فى المحاججة الفرنسية خلال مفاوضات "الجزء الثقافى" فى منظمة التجارة العالمية GATT فى عام ١٩٣٣ (ومنذ ذلك الحين فى المنظمة العالمية للتجارة OMC) قد لفظت منذ التحرير من قبل المخرج لويس داكين Louis Daquin الذى أخرج فيلم وطن(Patrie (1945[١٠٨]. وسيرث خطاب "الاستثناء الثقافى" بصورة مباشرة جداً هذا التطلع إلى حماية القطاعات الهشة اقتصادياً والحساسة رمزياً، ونجد فيه اليوم نفس الإلحاح على الحق (الجماعى) فى الاختلاف، باعتبار أن إنتاج الصور "المحلية" مصمم بوصفه إعادة موازنة فى مواجهة مصادرة تتمّ بواسطة خيال أجنبى. لا يجهل الذين يقولون هذا الخطاب فى فرنسا ما فيه من غموض: ومن هنا استنادهم المُلحّ على "الاختلاف" وعلى "التعددية" المأمولة من صور العالم، لكن الدفاع عن الثقافة والخيال القوميين الذى هو، كما كان الأمر عند التحرير، فى قلب الضيق والمطالبة ؛ والحق أنها الأسطورية المحلية (ميتوجرافية) المطلوب حمايتها ضد تطاول الأساطير القادمة من أماكن أخرى.

يطلق فلاديمير بوزنر فى عام ١٩٤٨ صيحة: "ها هى أساطيرنا تتدفق على فرنسا". لم تعد السينما الأمريكية (فحسب) متهمة بالفقر بل هى متهمة بالتدخل. كان كيسيل يتكلم قبل الحرب عن الأوهام. وكلمة أسطورة الأشد ثقلاً على الصعيد السياسى تكشف عن تغيّر فى المنظور. فعلى اليسار ربطت الأسطورة من الآن فصاعداً وبقوة بالنزعات الفاشية التاريخية، وبغزوها "اللاعقلانى" للرأى العام وباستخدامها الكثيف للصور السينمائية. فى نص من الجزء الأول من كتاب مواقف (١٩٤٧)، استرعى سارتر الانتباه إلى الأصل المريب، للأسطورة "وهو شديد الذيوع منذ سوريل"[١٠٩]. يهدى بوزنر تاريخه عن الولايات غير المتحدة باعتباره "سلاحًا بين أيدى قتلة الأساطير - وأشدها ضرراً، "أسطورة الديمقراطية" فى أمريكا [١١٠]. ولا يقوى رولان بارت، عالم الأساطير فى سنوات ١٩٥٠، الأقل عنفًا والأشد قتالاً هو الآخر، على أن ينسى السينما الأمريكية: من الأزمنة الحديثة لشارلى شابلن إلى على جبهة البحر لإيليا كازان، تقدم له هوليود فرصة مجموعة "أساطير صغيرة " من بين أشد الأساطير سخرية وحيث يعاد بمناسبة فيلم يوليوس قيصر لمانكييفيتزMankiewicz طرح نفس السؤال الذى كان هيريو يطرحه فى عام ١٩٣٠: هل من الممكن صنع رومانى مع "وجه يانكيه من ممثلى هوليود"؟ لا يرى بارت وهو الشديد الحذر من كل "طبيعانية"، مع ذلك إلا مارلون براندو لكى يعرض فى الفيلم أهدابًا مقنعةً بفضل "جبهته اللاتينية بصورة طبيعية"، فى حين أن يوليوس قيصر "لا يصدق مع سحنته كمحام أنجلو ساكسونى". ليس المطارد المرهف للصور النمطية فى مواجهة هذه

"الوجوه اليانكية"، بمعزل عن الصورالنمطية كما تبرهن على ذلك هذه العبارة المعترضة حول العرق المتصبب بغزارة على هذه الوجوه الرومانية المزيفة: "أن تعرق يعنى أن تفكر (وهو ما يعتمد بالطبع على مصادرة خاصة بشعبٍ من رجال الأعمال، وهى أن: التفكير عملية عنيفة...)(١١١)."إن "شعب رجال الأعمال" كما نتوقع ليس الشعب الروماني، ويعطى بارت برهانًا إضافيًا، لكنه لا إرادى فى أنه لا فرق كبير بين النموذجية الجسدية والصور النمطية الثقافية.

إذا كانت السينما الأمريكية تركز حولها الجوهرى من الهجومات المضادة الثقافية الفرنسية فى تلك الفترة، فلأنه يُنظر إليها أيضًا بوصفها الأذرع "الميثولوجية" لغزو شمولى للعقول. بوسعنا الابتسام إزاء القناعة الهادئة التى تشهر معها المجلة الشهرية دراسات سوفيتية فى عام ١٩٥١ "استعجال الرأسماليين الأمريكيين لاستئصال ثلثى شعب أى بلد لإرغام الثلث المتبقى على ألا يرى سوى الأفلام الأمريكية"(١١٢). بلاغة الحرب الباردة... شأن هذه المقارنة الألف بين هوليود ودائرة الدعاية الألمانية ***Propagandastaffel***: نسمع فى الولايات المتحدة رؤساء ستوديوهات أو البرامج الإذاعية والتلفزيونية يؤكدون بالإجماع أن الصور الوحيدة المرئية فى العالم ستكون فى المستقبل أمريكية. كان جوبلز يقول الشىء نفسه فى زمانه عن الصور الألمانية." سوى أننا هنا لم نعد فى عام ١٩٥١، بل فى عام ١٩٩١، وأننا لم نعد نقرأ الدراسات السوفيتية، بل النقد السينمائى لصحيفة يومية كبرى تصدر فى المساء(١١٣)...

سيكون غبار المشاحنات القديمة خلال الحرب الباردة بطيئًا فى الزوال، تاركًا السؤال كليًا: ما العمل؟ إذا كانت أمريكا من الآن فصاعداً قادرة على أن تستورد، أن تفرض فى فرنسا "ثقافة" مضغوطة كما لوكانت ملخصًا، فاسدة شأن رواية بوليسية، "شبه سادية" أو منشئة للأساطير شأن هدب جيمس ماسون، فأين نقيم خط ماجينو العقل؟

"تبادل متفاوت" وثقافة مضادة

عن هذا السؤال يعطى القرن العشرون جوابين: الأول هو الرفض الشامل للثقافة الأمريكية، المنظر من قبل سارتر بوصفه رفضًا "للتبادل المتفاوت"، والثانى – وهو نتيجة الأول– هو تبنى "الثقافة المضادة" الأمريكية وفقًا لمبدأ: أعداء أعدائى هم أصدقائى.

إن العصر الذى يبدأ بعد عام ١٩٤٥ ممهور بالوعى المؤلم بتفاوت علاقات القوة: كيف يمكن لبلد انتزعت منه كل وسائل القوة بل وحتى الاستقلال أن يحتفظ بهذه الهيمنة الثقافية التى كان يؤمن بها الفرنسيون قبل عام ١٩٤٠؟ يثور عقل مثل برنانو ضد فكرة أن "إشعاع" فرنسا الثقافى يجب أن ينحط بالضرورة مع انحطاط وضعها فى العالم، لكنها نادرة هذه العقول والجيل الجديد المثقف لا يتوهم: فالإشعاع هو أيضاً مسألة قوة. ونداءات ريمون آرون لتحمل عبء هذا الوضع مع تواضع معقول بانتظار أيام أفضل تقنط سان جيرمان دو بريه أكثر مما تقنط بيانكور(*).

لا يقدم سارتر حلاً للمشكلة، لكنه يجسّد لجيل كامل مقاومة "الخنق" المهدد للثقافة الفرنسية. إنه الوحيد الذى يقترح على المثقفين فى مواجهة "الدفق" الأمريكى بين الصبر الذى يوصى به آرون والتعنيف الذهانى للحزب الشيوعى، أخلاق معركة: ضرباً من رواقية عدوانية. تبدأ معاداته لأمريكا هنا: مع الإقرار بتفاوت صار بلا رجوع على مدى البصر الإنسانى بين فرنسا والولايات المتحدة. لم تعد فرنسا تزن كثيراً فى الميزان، وعلى هذا التفاوت يجب الرد بالتراجع والامتناع. هذا الحساب، وهذه الزنة للمصائر هما ما يجعلان من سارتر معادياً منتظماً لأمريكا، أكثر مما هو متحمس وأكثر أيضاً مما هو سياسى. ووسواس سارتر منذئذ هو فى قطع الجسور مع أمريكا، ورفض الاتصال، والهرب من اليانكيه كما كان ديدرو يوصى المتوحش هوتانتو hoten-tot أن يهرب من البيض - أو أن يقتلهم. تلك هى خاتمة الافتتاحية "الحيوانات المرضى بالكَلَب"، التى كتبت بعد إعدام الزوجين روزنبرج: "لنقطعن الصلات التى تربطنا بها." هذه هى روح وحرفية المحادثة القاسية التى أجراها مع مجلة النوفيل أوبزرفاتور عام ١٩٧٢ حول قصف فيتنام الشمالية بالقنابل: "لم يعد هنا أى حوار ممكن." يلغى حينئذ رحلة إلى كورنيل Cornell، وهى المكان الأشهر للاحتجاج ضد الحرب(١١٤). يدهش الأمريكيون: لا حوار ممكن حتى مع معارضى الحرب؟ يجيبهم سارتر ساخطاً: إنه لاشىء يجيبهم به. هناك جملة تعود مرتين فى محادثة النوفيل أوبزرفاتور: "أمريكا ليست مركز العالم"، لكنها مع ذلك فى مركز هموم سارتر منذ الأيام التالية للحرب. وتكرر تعليمات الحجر الصحى هذه فى الواقع فى ظروف ذات طابع سياسىّ شامل قناعة سبق وعرضت على نحو أكثر هدوءاً فى عام ١٩٤٩ فى الظرف الثقافى.

(*) يريد المؤلف أن يقول نسبة إلى حى سان جيرمان (حى المثقفين) وإلى حى بيانكور (حىّ العمال) أن الوضع يقلق المثقفين أكثر مما يقلق العمال.

النص أقل شهرة من النصوص السابقة، لكنه حاسم. إنه يحمل عنوان "دفاع عن الثقافة الفرنسية بالثقافة الأوروبية". يدعو سارتر فرنسا فيه للامتناع عن كل علاقة ثقافية مع بلد ذى "إمكانية" تتفوق على إمكانيتها: ويسمى أمريكا. والحجة الجوهرية لديه: مفهوم "التبادل بدون معاملة بالمثل". يعلن سارتر: "تفرض الهيمنة السياسة والاقتصادية والسكانية والعسكرية لبلد ما تبادلات ثقافية دون معاملة بالمثل". يجب الهرب منها وعدم القبول بالتبادل إلا مع بلد ذى إمكانية مساوية ـ تقريبًا مثل المدينة التى يتوجب عليها للتوأمة أن تبحث عن مدينة أجنبية من الوزن نفسه. يدهش مفهوم "التبادل بلا معاملة بالمثل"هذا قليلاً لدى سارتر عام ١٩٤٩. إنها مفردات موس أو باتاى(*)، لامفردات الوجودية. يحاذى سارتر هنا التحليلات حول المنحة، المألوفة من قراء مجلة النقد، لكن هذه التحليلات ذكرت بالضبط في السنة السابقة فى أكثر الكتب أصالة والمكرس لخطة مارشال، وهو الكتاب الذى نشره جان بييل فى منشورات مينوى فى السلسلة العابرة "استخدام الثروات" التى كان يديرها صهر جورج باتاى. ***الثروة الأمريكية ومصيرها***، كتاب اقتصادى يقابل المقترحات الأمريكية عام ١٩٤٨ بالحالة الحقيقية للعالم وبالنماذج الاقتصادية التى تنطوى عليها، لكن هذه اللوحة تؤدى إلى مقترح باتايى النزعة، وإذ يعود إلى قانون "القرض ـ لأجل" بتاريخ ١١ مارس ١٩٤١ الذى كان سمح لحكومة الولايات المتحدة تقديمَ معداتٍ حربية وأى أموال بصورة عامة للمتحاربين المعادين للنازية، دون أن تؤلف هذه التوريدات بالضرورة موضوع تعويض (يمكن لهذا التعويض أن يقوم على "أى كسب آخر مباشر أو غير مباشر سيعتبره الرئيس كافيًا")، يشير جان بييل إلى الطابع المجدد كلية لمثل هذه الإجراءات. وعند ساعة النصر، لم يزد التفاوت الشاسع فى الوسائل بين أمريكا وأوروبا إلا استفحالاً: هنا يقع "الاختلال الأساسى" للعالم. لا مجال لتبادلات متوازنة ولزمن طويل، بل لعمل تعويضى لهذا الاختلال الذى لا يحتمل بالنسبة لكل الأطراف. يكتب جان بييل: "لا يستطيع التعويض بصورة دائمة أن يتم إلا بتدفق مستمر وربما متزايد وبدون معاملة بالمثل، لرؤوس الأموال الأمريكية نحو باقى أنحاء العالم، وكذلك بأن تقام، بين البلد الذى سيؤلف المصدر الوحيد لهذا التدفق والبلدان التى ستصير المستفيدة منه، علاقات من نوع جديد، قاصرة على النظم القانونية التى نظمت حتى الآن علاقات المدين بالدائن، والتى يمكن على أبعد حد أن نعثر على صورة لها قديمة فى بعض أشكال

(*) مارسيل موس (١٨٧٠-١٩٥٠) عالم اجتماع وإتنولوجى فرنسى. أما جورج باتاى (١٨٩٧-١٩٦٢) فهو كاتب فرنسى.

المنحة الملاحظة فى المجتمعات البدائية". وبإيجاز، كما يشير فى الختام جان بييل : "تصير المنحة منذئذ الصيغة الأفضل والوحيدة للقرض الخارجى". هل ستعرف الولايات المتحدة وأوروبا أن يقفا على مستوى هذا الخيال، مانحين بذلك بالفعل "مصيراً" حقيقياً لـ"الثروة الأمريكية"؟ هذا ما لا يظنه بييل أكيداً ملاحظاً برصانة أن "المفهوم الأصلى لخطة مارشال كانت يبدو أنه يقتضى وعياً جزئياً بهذه الضرورة"(١١٦)، وهذا ما يرفضه سارتر بصورة قوية.

لأنه إذا تبنى فكرة "التبادل بلا معاملة بالمثل"، فإن سارتر لا يتبصر ثانية واحدة أنه يمكن للعلاقات الفرنسية الأمريكية أن تجرى حسب منطق المنحة. اعتباراً من المبادئ نفسها، يتوصل إلى نتيجة أن التجارة الحقيقية الثقافية مع الولايات المتحدة هى استحالة قبْليَّة، وهذا هو السبب فى أن سارتر سيرفض أن يتباحث فى أى موضوع أدبى أو فلسفى كان، وهذا هو السبب أيضاً فى أنه سيبقى صامتاً أمام طلبات التفسير الصادرة عن أساتذة من كورنيل. وهذا هو السبب فى أنه سيستجيب دوماً بصورة غير عادلة إزاء أمريكا، وهذا هو السبب فى أنه سوف يسخط من أو سيعتاد على الممارسات الثقافية نفسها حسبما إذا كانت أمريكية أو لا. وهذا هو السبب فى أنه سيقبل دون تردد التنظيف القوى السوفييتى لمسرحيتى ***المومس الفاضلة*** و***نكراسوف***(١١٧)، لكنه سيقيم دعوى على ناشره ناجل فى الولايات المتحدة؛ لأنه سمح بأن يتم إخراجُ أقل تعديلاً بكثير لمسرحية ***الأيدى القذرة***. سيكون سارتر مع أمريكا رجل "الكيل بمعيارين"؛ لأنه يعتبر ميزان العلاقات مزيفاً. إنه يورِّثُ نزعة معاداة أمريكا الفرنسية قاعدة أيديولوجية لا تفنى تربط التحزب القصدى وتبرير هذا التحزب، قائمة على عدم تناظرية القوى. وستوطد الحجة الباطلة لغياب المعاملة بالمثل بهدوء موقعها حتى صارت تملى السياسة الثقافية لفرنسا. فى بداية العهد الأول لفرنسوا ميتران سيشرح جاك لانج ذو الطبع المناضل فى مجلة الاكسبريس أن هناك الحلم الأمريكى - الأفلام التى كبرنا معها - وهناك أيضاً "الوجه الآخر للحلم: هيمنة صناعة وواجب كل امرئ أن يبتكر فنه فى العيش، ويتبادل منتجاته على قاعدة المعاملة بالمثل"(١١٨).

يتذبذب موقف سارتر غالباً بين إنكار "المركزية" الأمريكية وضراوته فى اتهام أمريكا (إظهار المجتمع الأمريكى فى حقيقته"(١١٩))، لكن جذرية سارتر لا تقوم فى الأساس على صلابة اتهامه لأمريكا المخطئة بقدر ما تقوم فى الطلاق المسبق مع كل تبادل معها، هذا الإمساك السارترى ينظِّر الحركة التى سيقوم بها كل بأسلوبه الخاص، روجيه فايان الذى يقطع علاقاته مع رفيق قديم فى الحرب بعد أن صار "قذراً"(١٢٠)، وبوزنر وهو يترك "صديقاً أمريكياً" فى مقدمة كتابه ***الولايات غير المتحدة***،

دون نسيان بروتون الذى يتشرف بأنه لم يعقد خلال إقامته فى الولايات المتحدة أية صداقة. كل هذه الضروب من القطيعة الخيالية توضح ضرورة اللجوء بالنسبة للمثقف إلى خيال القطيعة الكبير.

أليس هناك أصدقاء إذن فى الولايات المتحدة؟ بلى، بعد كل حساب هناك الذين كان يسميهم بروتون فى عام ١٩٤٩ "أصدقائى السود" و"أصدقائى الهنود". ولدى بوزنر شعب هارلم. وفى مسرح سارتر الأسود المعاقب بلا محكمة وساحرة سالم. (قصة اقتباس أخرى: يحتج سارتر بعنف شديد ضد اقتباس مسرحيته من قبل مارسيل إيميه للسينما، متهمًا إياه أنه امتهن "ما كان يؤلف ظاهرة أمريكية بوجه خاص"(١٢١)). النموذج الإستراتيجى السارترى: رفض أمريكا المهيمنة، تطبيع "أمريكا أخرى"، سيهدى عن وعى أو عن غير وعى خطوات معاداة أمريكا الثقافية حتى نهاية القرن. لا يعتبر مقبولاً فى أمريكا إلا غير الأمريكى أو على نحو أفضل، كلمة جديدة مكارثية كان نجاحها فى فرنسا صاعقًا: أمريكا اللا أمريكى. يكتب بوزنر بفخر: "إن كتابى بالطبع غير أمريكى، وهو البداهة عينها، ما دام كتابًا فرنسيًا..."(١٢٢). من جان جينيه الذى ذهب لدعم الفهود السوداء وحتى طالب الثانوية البريشونى الذى يجهد فى فهم المقاطع الغنائية الخنينة التى يؤديها بوب دايلان Bob Dylan الذى يسهل تفكيك "رسالته" فى نسختها الفرنسية التى يؤديها هوج أوفرى Hugues Aufray، يرتبط الولع بما يسمى من الآن فصاعداً الثقافة المضادة بلا انحلال بقضية أمريكا الأكثرية، والبيضاء، والمحافظة. يكتب مالكولم إكس فى سيرته الذاتية: "لست أمريكيًا". إنه عنوان كاف لاهتمام الفرنسيين. ويمكن أن يكون شعار هذه الثقافة المضادة الذى كان نجاحها فى فرنسا اعتباراً من سنوات ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ يؤلف، بدلاً من تكذيب نزعة معاداة أمريكا، نظامًا معها. من الغريب تمامًا فى الحقيقة كما نفعل غالبًا تقديم التذوق الفرنسى للجاز(١٢٣)، أوالروك أندرول، أوالويسترن أو أفلام جيرى لويس أو الأغانى الاحتجاجية أو الراب كما لو أنها أعراض "أمركة": لأنه إذا كانت المقدمة حقيقية حرفيًا ـ كل ذلك "آت من أمريكا" ـ فإنها مزيفة أيديولوجيًا. إن إضفاء القيمة على هذه الأشكال فى فرنسا مرتبط ارتباطًا لا ينفصم بواقعة أنها تظهر (أو أنها ظهرت فى وقتها) منشقة أو مخربة فى قلب الثقافة الأمريكية. ليس بين تبنى هذه الأشكال وتأييد خطاب معاد لأمريكا من قبل المعجبين بها تناقضًا ولا توترًا ولا حتى حل استمرارية، فتذوق الثقافة المضادة من أصل أمريكى هو معاداة أمريكا المستمر بوسائل أخرى.

* * *

فى الجزء الثانى من كتاب *عن الديمقراطية* كان توكفيل يرفض اللازمة الشائعة فى وقته والقائلة إن الحالة الديمقراطية كانت الأكثر ضرراً "للعلوم والأدب والفنون". لايمكن لأمريكا فى نظره أن تذكر بوصفه برهاناً على مثل عدم التلاؤم هذا: كان وضع الأمريكيين شديد الاستثناء، باعتبار أن أوروبا تقوم بمعنى ما بدور مخزن الأموال غير المادية. كتب توكفيل: "أعتبر شعب الولايات المتحدة بوصفه الجزء من الشعب الإنجليزى المكلف باستغلال غابات العالم الجديد". وخلال هذا الوقت، "كانت أوروبا العلامة والأدبية تتحمل عبء المضى إلى المصادر العامة للحقيقة وكانت تحسّن فى الوقت نفسه كل ما يمكن أن يؤدى إلى المسرات [...]. بفضل هذا التقسيم للمهمات بين القارات، تستطيع أمريكا التوكفلية أن تستسلم كلياً لمهماتها الصناعية والتجارية؛ نظراً لأن "جيرة أوروبا" تسمح لها بفعل ذلك "دون أن تسقط فى البربرية(١٢٤).

بعد قرن ونصف من ذلك، صار هذه النموذج فى اقتسام المهمات فتاتاً. لا لأن الولايات المتحدة قد نوعت منذ زمن طويل هواها فى التحطيب فحسب، ولكن أيضاً وبصورة أشد خطورة؛ لأن طبيعة عمليات العقل التى كانت من اختصاص أوروبا قد كفت عن أن تكون واضحة. وحتى وقت متقدم فى القرن العشرين، استطاع حلف المثقفين المتحدين فى المصالح إن لم يكن دوماً فى الأهداف ضد أمريكا المحافظة - على الأقل فى نظره - التخييل المسوغ لأوروبا بوصفها "قطباً ثقافياً" فى وجه أمريكا بوصفها "قطباً مادياً". إنه جهد المعادين لأمريكا الفرنسيين كله فيما بين الحربين الذى يقوم على تأكيد الأولوية الروحية والثقافية لأوروبا - ويُفضل أن تكون أوروبا فرنسية أو متطلعة إلى فرنسا. إلى درجة اعتبار كل توسع لمنطقة النفوذ الأمريكى أراض فقدها العقل: يكتب إمانويل بيرل فى عام ١٩٢٩: "تكثر أمريكا أوكارها؛ حيث توشك أن تموت قيم الغرب"(١٢٥). والخراب المُعَاد فى الحرب العالمية الثانية ونهاية الإمبراطوريات الاستعمارية جعلا من قدرة أوروبا على تحمّل أعباء هذا الطموح مشكوكاً فيها فى اللحظة نفسها التى تفتح فيها ثقافة الجماهير "سوقاً ثانية" لمنتجات العقل - وثغرة هائلة فى الاحتكار الأوروبى.

من "دفاعى" إلى تراجع، بدا المرج المربع يتقلص إلى أبعاد قرية أستريكس فى خيال فرنسى ملبد من الآن فصاعداً بانحطاط كان من قبل منتفخاً بشعوره الخاص بالأهمية. أدى تركيز ما بعد الحرب على "المبادلات غير المتساوية" منطقياً إلى البرنامج السارترى بمقاطعة الثقافة الأمريكية، مقاطعةً يمكن للثقافة المضادة وحدها فى أقصى حد أن تعفى منها. سحبت حملات نهاية القرن العشرين الثقافية منطق المقاطعة هذا على أسلوب "التمييز الإيجابى": نريد كل ثقافات العالم، وإذن لا نريد الثقافة الأمريكية،

التى تحتل كل المكان. ليس الاستثناء الثقافى(١٢٦) - أيا كانت شرعية الهموم التى توحى به - مبدأ حركيا، والخيال الذى يحيط به، وهو حضارى وذو طابع بيئوى، هو على هدى نصف قرن من إستراتيجية ماجينو فى مواجهة الولايات المتحدة.

سوى أنه يبدو جيداً أن هذا الدفاع على طريقة ماجينو قد تم الالتفاف عليه. لا من قبل العدو الأمريكى، بل من قبل المدافعين أنفسهم. لا تستطيع معارك "الاستثناء الثقافى" أن تخفى حقيقة أن معظم المعارك "الثقافية" خلال خمسة عشر سنة الأخيرة قد خيض فى الواقع على ميدان الخصم. وكانت الحملة الصليبية ضد ميكى Mickeys فى مدينة ديزنى الأوروبية Eurodisney أولى خطوات المثقفين هذه بكل معانى المكلمة: لا لأن الاحتجاجات الفرنكوفونية التى ارتفعت ضد عنونة بعض الملاهى بالإنجليزية اتخذت طابعًا خياليًا تمامًا فى مواجهة آلية خيالية وتكنولوجية أمريكية جوهريًا إلى درجة أننا قلما نرى كيف كان يمكن لتحويل *Pirates of the Carribean* إلى *Pirates des Caraïbes* قراصنة جزر الكاراييب أن يعرقل هذا "السيل من الأساطير" المعاد كتابتها، بل كذلك وبوجه خاص لأن مدينة الملاهى من نوع ديزنى هى النمط الأمثل لمنتجات الثقافة الجماهيرية الأمريكية هذه التى نصبت ضدها خلال نصف قرن متاريس العقل، وكان بوسعنا دون أى شك أن ندهش برنانو أو مالرو لو طلبنا منه أن يوقع على عريضة لصالح حديقة أستريكس... وسواء هجى القرصان بالفرنسية أو دسّت مطاعم الماكدونالد McDonald ورقة خس فى الهمبورجر(١٢٧) لترضى المطالب المفترضة للاختلاف الفرنسى، فلن يجدى الأمر شيئًا، ولن يغير من طعم الخبز الصغير. مما لا شك فيه أن الاستنفار ضد الطعام الردىء يؤيد تقليداً فى التمرد الفرنسى ضد الفقر المفترض لفن الطبخ الأمريكى، لكنه سيصل بالتدريج إلى معايير هى ذاتها "أمريكية" : حميوية وصحية، بقدر ما هى تذوقيّة وضيافية وأكثر. إن الحجج المعاصرة ضد الطعام الجاهز تتبع نزعة الاستهلاك المستنير على طريقة رالف نادر أكثر مما هى صرخة غضب وحنق على طريقة دوهاميل، حيث بقيت الطبيعة والثقافة الفرنسيتان عسيرتين على الفصل. إن تمكن الفرع الفرنسى لماكدونالد من الإجابة على الحملات المعادية بحملات دعائية مضادة كانت تلعب كليًا على نزعة القراء فى معاداة أمريكا، يحمل على التأمل فى خطأ اختيار موقع إستراتيجية دفاع ثقافى ضلت فى المعقل السئ. وأكثرهم بصيرة مثل جوزيه بوفيه قالوا وكرروا إن المعركة ليست معادية لأمريكا منضمّين بذلك إلى تونى نيجرى الذى صرح لخصوم العولمة: "إنه لمن الحماقة التامة أن يكون المرء معاديًا لأمريكا(١٢٨)." يمكن لمعاداة أمريكا فى الفترة الأولى أن تغذى الحملات ضد الغذاء الردىء وضد العولمة، لكن عليها أن تنحل فيها حتميا شأن انحلال

"الماكدو في فتيلة البط" - لكي نستعيد عنوانًا عسيراً على الهضم بوجه خاص من صحيفة *ليبراسيون*(١٢٩).

إن "الثقافي" يمكن أن ينحلَّ، هو الآخر في "الزرعي". إن المعادين الثقافيين لأمريكا في هذه السنوات الأخيرة الذين انقضّوا لاقتحام ميكي الصغير والهمبرجر الكبير باسم آستريكس والكروك مسيو يشبهون شارلو الجندي في أول مشهد من فيلم الديكتاتور، وهو يمشي إلى المعركة عبر سحابة من الضباب، ثمّ يجد نفسه ما إن يتبدد الضباب جنبًا إلى جنب مع العدو.

هوامش

(١) R. Aron, *Dictature de la liberté*, Paris, Grasset, 1935, pp. 26, 28.

(٢) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain*, Paris, Rioder, 1931, p. 16.

(٣) ؛J. Maritain, *Réflexions sur l Amérique*, Fayard, 1958, p. 29.

هذا الكتاب، ومصدره محاضرة ألقيت بدعوة من لجنة الفكر الاجتماعي Committee on Social Thought في جامعة شيكاغو يدل على رغبة واضحة في الاختلاف عن الاستخدام المعادي لأمريكا لنصوصه التي تعود إلى ما قبل الحرب. وحرص ماريتان على الإشارة إلى أنه دافع من قبل عن إمكانية الروحانية على الأرض الأمريكية في محاضرة له عام ١٩٣٨ نشرت في نيويورك عام ١٩٤٠ . انظر:

("Action et contemplation", dans le volume *Scholasticism and Politics*, Macmillan, 1940)

(٤) لا المكان ولا التاريخ كان يمكن أن يساعدا على إذاعة واسعة له بين قرائه الفرنسيين..

P. Morand, *Champions du monde*, Paris, Grasset, 1930, p. 275.

(٥) U. Gohier, *Le Peuple du xxº siècle aux Etats-Unis*, Paris, Fasquelle, 1903, chapitre V, La question cléricale.

(٦) F. Gaillardet, *L Aristocratie en Amérique*, Paris, Dentu, 1883, p. 152.

(٧) U. Gohier, *Le Peuple du xxº siècle aux Etats-Unis...*, p. 115.

(٨) P. Claudel, *Journal II (1933-1955)*, texte établi et annoté par F. Varillon et J. Petit, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1969, pp. 10-11 (entrée du 5 mars 1933).

(٩) G. T. Raynal, *Histoire des deux Indes*, Pellet, 1780 in-4º, ch. XVIII, Fondation de la Nouvelle-Angleterre, pp. 233, 229, 237.

(١٠) E. Barbier, *Voyage au pays des dollars*, Paris, Marpon & Flammarion, 1893, p. 167.

(١١) *Ibid.*

(١٢) U. Gohier, *Le Peuple du xxº siècle...*, p. 119.

(١٣) E. Johanet, *Autour du monde millionnaire*, Paris, Calmann-Lévy, 1898, pp. 111, 351.

(١٤) اسم الأمريكانية أعطى في نهاية القرن التاسع عشر لتيار كاثوليكي ليبرالي وديمقراطي واجتماعي (كان الأب كلاين من أبرز شخصياته) سوف يدان من قبل البابا ليون الثالث عشر في

عام ١٨٩٩ .

(١٥) E. Boutmy, *Eléments d une psychologie politique du peuple américain* [1902], Paris, A. Colin, 1911, pp. 89, 90, 94.

(١٦) S. de Beauvoir, *L Amérique au jour le jour*, Paris, Editions Paul Morihien, 1948, p. 319.

(١٧) *Ibid.*, p. 176.

(١٨) E. Boutmy, *Eléments...*, pp. 288, 289.

(١٩) A. Siegfried, *Etats-Unis, Canada, Mexique. Lettres de voyage écrites au Petit Havre*, juin-décembre 1935, Le Havre, Imprimerie du Petit Havre, 1935, p. 89.

(٢٠) p. Claudel à Agnès Meyer, 17 sept. 1929, *Claudel et l Amérique II, Lettres de Paul Claudel à Agnès Meyer [1928-1929] Note-Book d Agnès Meyer [1929]*, édition établie par E. Roberto, Ed. de l Université d Ottawa, 1969, p. 137. (L erreur principale de Dewey consiste dans son mépris pour le paysan et l homme du peuple européen. Pendant longtemps, c est dans le c ur des simples et des pauvres que la véritable spiritualité s est conservée.)

(الخطأ الرئيسى لديوى يقوم فى كراهيته للفلاح ولإنسان الشعب الأوروبى، سوى أنه فى قلب البسطاء والفقراء إنما بقيت الروحانية الحقيقية.)

(٢١) B. Faÿ, *Civilisation américaine*, Paris, Sagittaire, 1939, pp. 282, 271.

(٢٢) Donald Roy Allen, *French Views of America in the 1930 s*, New York London, Garland Publishing Inc., 1979, p. 206.

(٢٣) Ph. Chasles, *Etudes sur la literature et les moeurs des Anglo-Américains au XIX^e siècle*, Paris, Amyot, 1851, p. 456.

(٢٤) A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique (I)*, Paris, Robert Laffont, collection Bouquins, édition procurée par J.-Cl. Lamberti et F. Mélonio, 1986, p. 246.

(٢٥) P. Morand, *Champions du monde*, Paris, Grasset, 1930, p. 22.

(٢٦) L. Romier, *Qui sera le maître, Europe ou Amérique*, Paris, Hachette, 1927, p. 16.

(٢٧) A. Siegfried, *Les Etats-Unis d aujourd hui*, Paris, Armand Colin, 1927, p. 174.

(٢٨) *Ibid.*, p. 177.

(٢٩) P. Morand, *Champions ...*, p. 22.

فى اللحظة التى كان فيها المعادى للسامية بول موران يجعل من برودسكى Brodsky البطل

الإيجابى الوحيد لروايته والناطق الرسمى باسم ثورة "صوفية" وعميقة ضد أمريكا، كان الدبلوماسى السابق أوكتاف هومبيرج Octave Homberg يعزى العجز الأمريكى "عن تمييز الروحانى من الدنيوى" للسيطرة المشتركة للنخب "البروتستانتية والإسرائيلية"، انظر:

O. Homberg, *L Impérialisme américain*, Paris, Plon, 1929, p. 5.

(٣٠) J. Huret, *En Amérique (II)*, Paris, Fasquelle, 1905, p. 23.

(٣١) *Ibid.*, p. 56.

(٣٢) E. Johanet, *Un Français dans la Floride*, Paris, Mame, 1889, p. 76.

(٣٣) E. Barbier, Voyage au pays des dollars, Paris, Marpon et Flammarion, 1893, p.33.

(٣٤) R. Recouly, *L Amérique des pauvres*, Paris, Les Editionsde France, 1933, p. 15.

(٣٥) A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique (I)*..., p. 139.

(٣٦) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer Américain*..., p. 211.

(٣٧) *Ibid.*, p. 200.

(٣٨) *Ibid.*, p. 96.

(٣٩) V. Pozner, *Les Etats-Désunis*, Paris, La Bibliothèque française, 1948, p. 163.

(٤٠) لا يستطيع معظم كتاب أمريكا أن يكتبوا إلا فى أوقات راحتهم، وليس منهم إلا أقل القليل الذى يعيش من قلمه، انظر:

(Max O Rell [Paul Blouët] et Jack Allyn, *Jonathan et son continent. La société américaine*, Paris, Calmann-Lévy, 1900, p. 29).

(٤١) J. Huret, *En Amérique (II)*..., p. 68.

(٤٢) P. de Rousiers, *La Vie américaine*, Paris, Didot, 1892, p. 108.

(٤٣) *Ibid.*, p. 107.

(٤٤) G. Duhamel, *Scènes de la vie future* [1930], Paris, Arthème Fayard, Le Livre de demain, 1938, p. 25.

(٤٥) P. de Rousiers, *La Vie américaine*, Paris, Didot, 1892, p. 108.

(٤٦) Ibid., p. 596.

(٤٧) J. Huret, *En Amérique (I)*..., p. 177. .

(٤٨) P. de Rousiers, *La Vie américaine*, Paris, Didot, 1892, p. 648.

(٤٩) E. Barbier, *Voyage au pays des dollars*, Paris, Marpon et Flammarion, 1893, p.293.

(٥٠) Marie Dugard, *La société américaine*, Paris, Hachette, 1896, p. 310.

(٥١) E. Barbler, *Voyage au pays des dollars...*, p. 96.

(٥٢) ... Max O Rell [Paul Blouët] et Jack Allyn, *Jonathan et son continent...*, pp. 30, 29.

(٥٣) J. Huret, *En Amérique (II)...*, p. 298. .

(٥٤) *Ibid.*, p. 243.

(٥٥) E. Barbier, *Voyage au pays des dollars...*, p. 288-289.

(٥٦) U. Gohler, *Le Peuple du XXº siècle...*, p. 203.

(٥٧) E. Barbier, *Voyage au pays des dollars...*, p. 89.

(٥٨) U. Gohier, *Le Peuple du XXº siècle...*, p. 203.

(٥٩) Kadmi-Cohen, *L Abomination américaine*, Paris, Flammarion, 1930, p. 106.

(٦٠) A. Saint-André de Lignereux, *L Amérique au XXº siècle*, Paris, Taillandier, 1909, p. 148. Cité par J. Portes, *Une fascination réticente. Les Etats-Unis dans l opinion française*, Presses Universitaires de Nancy, 1990, p. 376.

(٦١) Kadmi-Cohen, *L Abomination américaine...*, p. 106.

(٦٢) O. Homberg, *L Impérialisme américain*, Paris, Plon, 1929, p. 82.

(٦٣) R. Gain, *Des Américains chez nous*, Paris, Editions Montaigne, 1928, p. 60.

(٦٤) Kadmi-Cohen, *L Abomination américaine...*, p. 116.

(٦٥) R. Recouly, *L Amérique pauvre...*, pp. 246, 252.

(٦٦) J. Kessel, *Hollywood, ville mirage* [1937], Paris, Ramsay, Proche-Cinéma, 1989, pp. 93, 19-20, 23, 43.

(٦٧) L. Durtain, La cité que bâtit la vision, *Quarantième Etage*, Paris, Gallimard, 1928, pp. 159-160.

(٦٨) J. Kessel, *Hollywood, ville mirage...*, pp. 59, 13-14.

(٦٩) J. Huret, *En Amérique (II)...*, p. 243.

(٧٠) Henrl Nevers, *Pourquoi l Amérique est-elle en guerre*, Paris, Nouvelles éditions françaises, s.d., p. 7.

(٧١) S. de Beauvoir, *L Amérique...*, p. 312.

(٧٢) *Ibid.*, p. 348.

(٧٣) Kadml-Cohen, *L Abomination américaine...*, p. 106.

(٧٤) أسف جوستاف لانسون فى بداية القرن لـ"ثقافة الصحافيين الرديئة"
(*Trois Mois d enseignement aux Etats-Unis*, Paris, Hachette, 1912, p. 89).

وتعطى عدم معرفة معظم الرحالة الفرنسيين للإنجليزية لأحكامهم على الصحافة وزنًا نسبيًا جدًا.

(٧٥) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain...*, pp. 216, 217, 221, 223.

(٧٦) G. Soria, *La France deviendra-t-elle une colonie américaine*, Préface de F. Joliot-Curie, Paris, Editions du Pavillon, 1948, p. 128.

(٧٧) انظر التحليلات المفصلة لفيليب روجيه (بلا علاقة قرابة مع المؤلف) فى :
Ph. Roger, *Rêves et cauchemars américains. Les Etats-Unis au miroir de l opinion publique française(1945-1953)*, Lille, Presses Universitairs du Septentrion, 1996, notamment, -Une culture de masse fascinante- pp. 211-223.

(٧٨) G. Soria, *La France deviendra-t-elle...*, p. 186.

(٧٩) *La Nouvelle Critique*, nº 27, juin 1951, pp. 3-4.

(٨٠) *La Nouvelle Critique*, nº 30, novembre 1951, p. 124.

(٨١) Etiemble, *Parlez-vous franglais*, Paris, Gallimard, 1946, p. 291.

(٨٢) *La Nouvelle Critique*, nº 16, mai 1950, éditorial de Victor Joanne, Notre fierté nationale ou le Congrès du Parti de la France.

(٨٣) J.-M. Domenach, *Esprit*, nº 354, nov. 1966, p. 625.

(٨٤) *La Nouvelle Critique*, nº 14, mars 1950, Guy Besse, Notre Université ne sera pas atlantique.

(٨٥) *La Nouvelle Critique*, nº 27, juin 1951.

كان يمكن لدروس فى الطبخ أن تتواجد فى برنامج بعض المعاهد العليا تحت اسم "البيت الاقتصادى Home economics".

(٨٦) B. de Jouvenel, *La Crise du capitalisme américain*, dans Itinéraire 1928-1976, Paris, Plon, 1993, p. 167.

(٨٧) Voir François Cochet, La bande dessiné en France et aux Etats-Unis dans l entre-deux-guerre, deux modèles en action, *Les Américains et la France (1917-1947). Engagements et représentations*, sous la direction de F. Cochet, M.-Cl. Genet-Delacroix, H. Trocmé, Actes du colloque organisé à Reims par le Centre Arpège (Université de Reims) et le Centre de recherche d histoire nord-

américaine (U. de Paris I), Paris, Maisonneuve et Larose, 1999, p. 200.

(٨٨) G. Soria, *La France deviendra-t-elle* ..., p. 134.

(٨٩) L. Daquin, Le cinéma, *La Nouvelle Critique*, nº 25, avril 195.

(٩٠) Fr. Cochet, La bande dessinée en France et aux Etats-Unis..., p. 201.

(٩١) *Ibid.*, يعلق عضو من أعضاء لجنة الرقابة، رينيه فنكلشتين: "سيكون أطفالنا على هذا النحو محميين من كتب الحكايات المصورة المخصصة للراشدين، ومن الصور المرفقة ببعض الكلمات التي تمجد العنف والهوى والإنسان المتفوق".

(٩٢) R. Queneau, *Front national*, 3 novembre 1945, repris dans Bâton, Chiffres et Lettres, Paris, Gallimard, 1950, p. 152.

(٩٣) V. Pozner, *Les Etats-Désunis*..., p. 161.

(٩٤) E. Cary, Défense de la France, Défense de la langue française, *La Nouvelle Critique*, nº 3, février 1949. J irai cracher sur vos tombes est de 1946.

(٩٥) V. Pozner, *Les Etats-Désunis*..., p. 14.

(٩٦) Voir Muriel Brot, Réécriture des Lumières, *Critique*, nº 663-664, - Couper-Coller, Les Plagiaires, août- septembre 2002.

(٩٧) V. Pozner, *Les Etats-Désunis*..., p. 18.

(٩٨) G. Soria, *La France deviendra-t-elle*..., p. 110.

(٩٩) Voir Carlton J.H. Hayes, *France, A Nation of Patriots*, New-York, Colombia, 1930, pp. 186-195. David Strauss, (The Rise of Anti-Americanism in France, Fmch Intellectuals and the American Film Industry, 1927-1932), *Journal of Popular Culture*, Bowling Green State University, Spring 1977, vol. X, nº 4. Jacques Portes, (L Internationalisation du cinéma-années 1920) in J. Portes, *L Amérique comme modèle, L Amérique sans modèle*, Presses Universitaires de Lille 1993.

(١٠٠) *La Nouvelle Critique*, nº 12, janvier 1950, p. 108.

(١٠١) [Sic], *Ibid.*, p. 115.

(١٠٢) Données fournies par Patricia Hubert-Lacombe, L accueil des films américains

en France pendant la guerre froide (1946-1953), *Revue d histoire moderne et contemporaine*, nº 33, 1986, pp. 301-314.

(١٠٣) G. Soria, *La France deviendra-t-elle...*, p. 135.

(١٠٤) Jacques Becker, *cité in G. Soria*, ibid. p. 136.

(١٠٥) كان كويزل R. Kuisel قد أعطى تحليلاً مفصلاً لهذا النزاع الاقتصادى والسياسى فى كتاب: *Le Miroir américain. 50 ans de regard français sur l Amérique*, Paris, J.-C. Lattès, 1993, pp. 92-124. Voir aussi, paru au moment du bref rebond de 1999, l article de Jean-Noël Jeanneney, Coca-Cola, le sens d un écho, *Le Monde*, 29 juin 1999.

(١٠٦) E. Herriot, *Europe*, Paris, Rieder, 1930. حين لاحظ أصلاً "أن فولكلورنا الأوربى يترجم وكذلك أيضاً تاريخ قارتنا من قبل مواطنين شرفاء من لوس أنجلوس"، يدعو هيريو من أجل "تجمع أوربى [...]، يكون الأداة الوحيدة التى بقيت لنا لإنقاذ التأويل الصحيح لثقافتنا القارية" PP. 212-213.

(١٠٧) J. Renoir, cité par G. Sadoul, *Dictionnaire des cinéastes*, Paris, Seuil, 1965, p.190.

(١٠٨) Cité par G. Soria, *La France deviendra-t-elle...*, p. 137.

(١٠٩) J.-P. Sartre, Denis de Rougemont, L Amour et l Occident, *Situations I*, Paris, Gallimard, 1947, p. 58.

(١١٠) V. Pozner, *Les Etats-Désunis...*, p. 19.

(١١١) R. Barthes, Les Romains au cinéma, *Mythologies* [1957], (*Euvres Complètes*, dirigées par E. Marty, Paris, Seuil, 1994, t. I, p. 579.

(١١٢) Nicolas Virta, Une super-Gestapo, le FBI, *Etudes soviétiques*, nº 36, avril 1951, p. 32.

(١١٣) J.-M. Frodon, Chauvauchée fantastique dans la pellicule, compte rendu de *Cinquante ans de cinéma américain* de B. Tavernier et J.-P. Coursodon, Le Monde 18 avril 1991.

(١١٤) J.-P. Sartre, Il n y a plus de dialogue possible, *Le Nouvel Observateur*, 1er av-

ril 1965, *Situations VIII*, pp. 9-19.

(١١٥) J.-P. Sartre, Défense de la culture française par la culture européenne *Politique étrangère*, nº 3, juin 1949, p. 240. Cité par M. Contat et M. Rybalka, *Les Ecrits de Sartre*, Paris, Gallimard, 1970, pp. 212-213.

(١١٦) Jean Piel, *La Fortune américaine et son destin*, Paris, Editions de Minuit, 1948, respectivement pp. 49, 119, 8-9, 207 (souligné par lui) et 9.

(١١٧) E. Galtsova, *La Putain respectueuse et Nekrassov* en URSS, fox-tro avec Jean-Paul Sartre, *Sartre. Uneécriture en acte*, diregé par Genvième Idt, Ritm- Université de Paris X, 2001, pp. 221-251. *Les Mains sales* avait été adapté en1949 .sous le titre *Red Golves* par Richard Taradash

(١١٨) J. Lang, *L Express*, septembre 1982, cité par M. Winock, US go home, *L Histoire*, nº 50, novembre 1982 (Je souligne).

(١١٩) J.-P. Sartre, Sartre répond (au professeur Grossvogel), *Le Nouvel Observateur*, 8 avril 1965, Situation VIII, Paris, Gallimard, 1972, p. 25.

(١٢٠) R. Vailland, Lettre au Capitaine Jimmy F.B., *L Humanité Dimanche*, Février 1954, *Chroniques II...*, pp. 230-231.

(١٢١) J.-P. Sartre, *Théâtre populaire*, nº 15, sept.-oct. 1955.

(١٢٢) V. Pozner, *Les Etats-Désunis...*, p. 16.

(١٢٣) Voir Ludovic Tournès, La réinterprétation du jazz, un phénomène de contre-américanisation, dans l intéressant volume *L Antiaméricanisme*, dirigé par S. Mathé, Aix-en-Provence, Publications de l Université de Prvence, 2000.

(١٢٤) A. de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique (1)...*, p. 451.

(١٢٥) E. Berl, *Mort de la pensée bourgeoise* [1929], Paris, Robert Laffont, 1970, pp. 76-77.

(١٢٦) الاستثناء الثقافى الذى تتمسك به فرنسا فى المفاوضات التجارية وسواها منذ ١٩٩٢ ينطوى على ثلاث معان على قدر من الاختلاف، وهو ما لا يسهم فى وضوح المباحثات. إنه أولاً التأكيد بأن "مبدعات الثقافة ليست سلعًا كالسلع الأخرى"، وهو مقترح يتذبذب بين إقرار البداهة وموضع القيمة، والذى لا يجب أن يعفى من القول بماذا "تختلف عن السلع الأخرى"، وأين تمر الحدود مع هذه "الأخرى"؟ والثانى، يشير الاستثناء الثقافى إلى إرادة سياسية فى الحماية الثقافية يمكن أن

نقدر أن الأهداف شرعية تماماً؛ ثالثاً، إن راية الاستثناء الثقافى المرفوعة ضد الولايات المتحدة قد ضم منطقياً من حوله كل الخطاب الثقافى المعادى لأمريكا.

(١٢٧) موضوع الهجوم المضاد الدعائى لماكوماك فى نوفمبر ١٩٩٩ الذى كان يلعب عمداً على وتر معاداة أمريكا لدى الفرنسيين . هناك صورة ملء الصفحة ظهرت بصورة خاصة فى صحيفة ليبراسيون تبين أمريكيًا بدينًا وملتحيًا يلبس لباس العمال مع جاكتة من نسيج غليظ قائلاً: "سلطات فى ماكدونالد، لا أرى فائدة ضلك"؛ ويرد عليه صوت ماكدونالد وقد صار صوت فرنسا: "نعم! ولكن فى فرنسا الناس يحبون السلطات..." ثم يتبع ذلك اعتبارات ذوقية وغذائية حميوية تقدم لهذا الأمريكى المسكين بلهجة متسامحة من نوع: "تعلم من ذلك...".

(١٢٨) Toni Negri, *Le Monde*, 27-28 janvier 2002.

(١٢٩) Jean François Perigot, Le McDo est-il soluble dans le magret, *Libération*, 18 et 19 septembre 1999.

خاتمة

يصرخ جوليان سوريل فى رواية الأحمروالأسود: "لقد عشت بما فيه الكفاية لأرى أن الاختلاف يولد الكراهية"، لكن ستندال الذى لم يكن أبداً بعيداً جدا يُخطِّئه؛ فالأمور فى الحقيقة أكثر تعقيداً. يمكن للاختلاف أن يولد الكراهية، لكنه يمكنه أيضاً أن يستثير الاهتمام، والإعجاب، والاحترام، والرغبة. مع أى درجات وصفية من الاختلاف يتطابق الحب أوالكراهية أو...اللامبالاة، هذا ما سيعلمنا إياه علم الدرجات، "باثمولوجيا" كتلك التى كان بارت يحلم بها من أجل "تدريج اللغة"(١). أىّ عالم أنثربولوجيا من أتباع فورييه إلى حدٍّ ما سيعطينا لوحة على طريقة لافوازييه عن الإمكانات السعيدة المتعددة ومخاطر الانفجار؟ أىّ مؤرخ أو أخلاقىّ ساخر قليلاً سيتابع الطريق الذى رسمه أندريه موروا - "إن زواج فرنسى وأمريكية هو زواج طفلين مدللين: تركيب مهتز(٢)" - ويقترح علينا حساباً ثقافياً عن تعارض الأمزجة؟

بانتظار هذا القياس للثقافات، لنطرح السؤال البسيط: على أى مسافة يقف الأمريكى؟ شديد القرب وشديد البعد فى آن واحد. شديد القرب ليثير الفضول المذهول، كما كان الأمر فى الأزمنة الرائعة لأمريكا الوحشية، وكل نوى النيات الحسنة الذين يلحون من فاليرى إلى مالرو على الاستمرارية الثقافية من أوروبا إلى أمريكا لم يفعلوا إلا أن فاقموا الأشياء: لماذا الاهتمام بالنسخة الشاحبة التى نؤلف نحن أنفسنا أصلها الفخور؟ وشديد البعد أيضاً ليوحى بالشراكة العاطفية والفكرية. هذا ما يستخلص من النصوص المعادية أو المؤذية المتراكمة حول أمريكا منذ قرن، وهذا ما كان يؤكده استقصاء الرأى الذى أنجز فى أوانه خلال سنة ١٩٦٨؛ حيث فتح معادو أمريكا (مرة أخرى) قنوات الأمركة. سؤال بسيط: "أىّ شعب يشبه شبهاً أقل الفرنسيين؟" لقد انتخبوا بصورة كثيفة: الأمريكيون (٤٣٪)، الدرجة الثانية بشرف، فى حين يأتى الإنجليز (٢٢٪) بعدهم بمسافة كبيرة مع ذلك. لا يفنى الأنجلو ساكسونيون...أما الإيطاليون والألمان، وقد تبناهم الفرنسيون، فإنهم يؤلفون جزءاً من فئات (٨ و ٧٪ على التتالى)(٣). لا تَشابهَ المؤسسات، ولا تقاربَ القيم السياسية والأخلاقية، ولا تقريب طرق الحياة المادية استطاع أن ينال من هذه القناعة الفرنسية الصماء: الأمريكيون ليسوا "مثلنا". إنهم يمثلون أكبر فارق يمكن تصوره دون الاختلاف المرغوب. نشأ هذا اليقين الغريب مع الزمن بواسطة تراكم خطاب إثنى وثقافى عن الخصومة المُبطلة.

هذا الرفض للأمريكي بوصفه "شبيهنا" لا يستجيب لأى تجربة أشخاص، ولا لأى ذكرى حَدَثيّة: إنه نتاج محض للخطاب المعادى لأمريكا. وهناك حادثة راهنة أكدت صلابته: "كلنا أمريكيون"، غداة انفجارات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كان جان مارى كولومباني ينتحل بصراحة كلمة جون ف. كندى لسكان برلين: "أنا برلينى Ich bin Berliner" كان بلعبة الاستشهاد والمرجعيات، يضع بوضوح حديثه تحت علامة التاريخ، لا الجواهر، خيارات تضامن، لا تصريحات انتماء. عذاب لا طائل من ورائه! فقد قرئت رسالة التضامن فى فرنسا بوصفها تأكيد هوية. وفيما وراء ضلال القراءة، كان جنون الإجابات يشهد على الرعب العميق لمجرد فكرة إمكان القول "أمريكيون"، ويلغى بذلك ولو خلال وقت الأزمة، العمل الطويل للتمييز بينـ"هم" وبينـ"نا" الذى يحشد منذ أكثر من قرن جزءاً كبيراً من الطاقات الثقافية الفرنسية.

* * *

قلما جرى الحديث هنا عن ١١ سبتمبر: فهذا الكتاب الذى بدأ العمل فيه منذ عدة سنوات لا "يدين" بشىء للحدث ولا يدّعى إضاءته - ليس مباشرة على كلّ حال. ينتظر مصنف حماقات ردود الفعل الفرنسية من يقوم بإنجازه، لكن القلب لن يطاوعنى.

كنت أشتغل ذلك الصباح فى فصل حول كراهية المدينة الأمريكية حين رأيت مرور أول طائرة مخطوفة بصورة عمودية فوق المبنى الذى أسكن فيه فى الشارع الثالث. وفى أقل من دقيقة تحطمت على البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى، وكما كان يقول كورنيليوس دو بوو من قبل، يجب الحذر من شهود العيان.

لكنى من هذا الصباح، أحتفظ قبل كل شىء بذكرى سمعية: ذكرى الإشاعة التى لا تصدق التى ارتفعت فوق المدينة مرتين عند انهيار كل برج - ضرب من كتلة معدنية هائلة، انبثقت الصرخة فى آن واحد من خمسمائة ألف حنجرة (أو من مليون أو من أكثر)، هدير صاعد من الشارع والساحات والأرصفة والأسطح، بكائيات جوقة *planctus* عتيقة وخارقة لمدينة بكاملها تلفت فى الرعب.

يمكن للصور المكررة حتى الغثيان عن انهيار البرجين أن تفقد كل معنى - لو كان لها أصلاً معنى. هذه الصرخة الخارقة، شديدة الاختلاف عن صخب الملاعب الرياضية أو زمجرة هياج شعبى، تغطى إلى الأبد بالنسبة لى ضوضاء التعليقات "الذكية".

* * *

الأصول تعرض، ولا تلخص. وفى لحظة الختام، لنتلاف التلخيص.

معاداة أمريكا الفرنسية موجودة، وقد التقيناها جميعًا أو مارسناها بمناسبة فرصة ما. لا أحد فى ملجأ من خطاب قومى. ولئن أمكننى، من بودلير إلى بروتون، ومن موراس إلى برنانو أو من دورتين إلى بودريار، أن أتوقف عند بعض الوجوه؛ فليس لأن هدفى أن أجعل منها قاعة عرض للأهواء الخاصة. فبوصفها خطاب استعادة وتأبيد، يجب أن تحلل معاداة أمريكا الفرنسية باعتبارها تقليداً. إنها سلسلة مرمية عبر التاريخ، وبها نحرص على الرغم منا على ماض كامل من النفور ومن الاشمئزاز.

من هذه السلسلة حملنا إلى السطح الحلقات الغريقة: منذ حلقة الخطاب الطبيعانى حتى الحلقة السياسية لأمريكا المعتبرة أقل ديمقراطية من الفاشية وأكثر "شمولية" من النظام السوفياتى مروراً بالحلقة القوية للنمذجة العرقية التى تربط معاداة أمريكا الفرنسية إلى الوجه الإثنى لليانكيه. كل التراكيب التعبيرية الكبرى لهذه البلاغة وضعت بين نهاية القرن التاسع عشر وسنوات ١٩٣٠ . عاش خطاب معاداة أمريكا فيما بعد بسعة على مكتسباته وعلى قفزته معيداً توزيع مقاطع متاحة أصلاً (نكران الجميل، القرض)، مكيفًا إياها مع الظروف (نهاية الانعزالية التى أعادت بعد عام ١٩٤٥ أمريكا الإمبريالية فى سنوات ١٩٠٠)، وضابطة إياها حسب المتطلبات المتغيرة للمرسلة لهم (والدفاع عن العقل يَتَعلْمَنُ فى معركة من أجل الثقافة). كل هذه "الثنيات" فى الخطاب أخذت قبل عام ١٩٥٠، وليست معاداة أمريكا خلال النصف الثانى من القرن العشرين إلا سقوط غطاء قديم.

على امتداد هذا المسار، رأينا الوقائع ـ التنافس، والصراعات، وصدام المصالح تسير بموازاة الخطابات. ليست العلاقة بين واقع الوقائع وواقع الخطابات، علاقة سببية متواطئة. يقوم بين هاتين الدائرتين نظام كامل من الأصداء المتباعدة. بقدر ما يكتسب الخطاب المعادى لأمريكا كثافة فى المعنى بقدر ما ينزع إلى التحرر من الحدث أو، وهو الأمر نفسه، يجعل منه لنفسه حجة. لا يجب إذن البحث بين تاريخ العلاقات الفرنسية الأمريكية وأصول الخطاب المعادى لأمريكا عن اتفاق مصطنع. إن "قاعدة" العلاقة المتبادلة بين تغير النظام السياسى فى فرنسا وتغير الرأى العام تجاه الولايات المتحدة، التى صاغها بعض المؤرخين تبدو عسيرة على التأكيد(٤). لا يسعنا تفكيك الخطاب المعادى لأمريكا دون الكتاب الرفيق ***companion book*** لتاريخ العلاقات الفرنسية الأمريكية: لكن هذا التاريخ لا يرتبط آليًا بالتقلبات.

إن دور المثقفين فى تكوين ونقل هذا الخطاب رفيع دون أن يكون حصريًا. وشأن

كل تقليد، كان لا بد لهذا التقليد من أن يُحمَل، ويعنى به من قبل هيئة مختصة: الهيئة الكهنوتية التي يصفها نيتشه باعتبارها مكلفة بالخيال، والتى أطلقتُ عليها رابطة المثقفين. ويشهد التدفق المنتظم لنتاج الكتب المعادية لأمريكا على مثابرتهم على المهمة: فما كان صحيحًا في سنوات ١٩٣٠ لا يزال صحيحًا على عتبة الألف الثالث.

لكن نجاح المثقفين يتكشف بوجه خاص مع الانتشار الواسع لخطابهم. فقد تبنى "الجمهور" الفرنسى بالتدريج الحجة الجدالية والصورة النمطية السلبية اللتين أنتجتهما الإنتلجنسيا. ليس في هذا الأثر في الجذب ما هو واضح من حيث المبدأ. ولا تزال معاداة أمريكا اليوم أقل تأكيداً لدى الطبقات الشعبية من السكان مما هى عليه لدى المثقفين. إن الأطر العليا وحملة الشهادات هم الذين يقدمون أقوى نسب ردود الفعل المعادية لأمريكا، لكن الفحوى الجوهرى للدراسات الإحصائية الأخيرة يكمن فى التجانس الذى يزداد وضوحًا لردود الأفعال هذه: فالعمر، والبيئة، والمهنة لم تعد تؤثر إلا هامشيًا. وحده الانتماء السياسى لليسار يستمر فى توليد نتائج معادية لأمريكا أعلى بانتظام من نتائج المستطلَع رأيهم من اليمين، لكن الفارق قليل الأهمية كميًا(٥). ولئن كان أقل إقذاعًا فى صياغاته (لكن هذا التخفيف ليس خاصًا به؛ فالجدال قد خفف كثيراً من لهجته في فرنسا بين بداية ونهاية القرن العشرين)، فإن الخطاب المعادى لأمريكا أكثر هدوءًا وأفضل شيوعًا من أى وقت مضى. هذا التجانس فى تقسيمه ضمن الجسم الاجتماعى يتوج الجهد العريق للمثقفين لفرضه على مجموع السوق الرمزى الداخلى.

* * *

قلنا من قبل فى المدخل إنه لا شيء كان يحمل على التنبؤ بسقوط أو بفتور معاداة أمريكا الفرنسية. (لقد أكدت استقصاءات الرأى التى أجريت خلال الجولة الأوروبية لجورج دبليو بوش فى مايو ٢٠٠٢ أن فرنسا تقف على الدوام على أعلى درجة على منصة العداوة.) من غير المفيد العودة إلى التنبؤات المرتبطة بتقدير ظرفى، لكن يمكننا قول كلمة عن التصورين اللذين غالبًا ما يُذكرا اليوم لعرض أطروحة "نهاية معاداة أمريكا" القريبة، إن لم تكن قد بدأت.

أول سيناريو لإطفاء معاداة أمريكا هو من طبيعة اجتماعية. يقال لنا لقد تغير زمن الاختلافات الصارخة بين البلدين بمفردات مستوى الحياة والرخاء والدخل: لقد انتهى عهد من الجفاء ارتبط فى سنوات الخمسينيات بالحسد الذى أثاره النهج الأمريكى فى الحياة، وفقدت معاداة أمريكا هنا غذاء لا غنى عنه. ويضاف أن التبنى

الكثيف لطرق الملبس والغذاء والثقافة الأمريكية من قبل الشبيبة لا يمكنه إلا أن يحمل العداوة إزاء بلد نستهلك منتجاته ونتبنى على الأقل جزئيًا ثقافته على التراجع. خطأ أول يقوم هنا على المغالاة فى تقدير أهمية هذا الطمع المادى فى تكوين الخطاب المعادى لأمريكا فى فرنسا؛ إذ لا نرى أنه لعب فيه دوراً كبيراً. أما الخطأ الثانى فهو افتراض قابلية الانقلاب لصالح التصورات عن "خيارات" الاستهلاك. كل شىء يبين على العكس أن بالوسع تماماً تبنى عدد من المنتجات و"الأذواق" الشهيرة بأمريكيتها دون تغيير الموقف الشامل إزاء أمريكا. وهنا استقصاء للرأى قامت به ***Libération-CSA*** فى عام ١٩٩٩ لا يفسح المجال إلا للقليل من الشك فى هذا المجال. كان ذوو الأعمار التى تتراوح بين ١٨ و ٢٤ سنة آنئذ يؤلفون ٥٥٪ ممن يجدون التأثير الثقافى الأمريكى "شديد الأهمية". كان الآباء كما هو متوقع أكثر نقداً (٦٧٪ لدى الأعمار ٣٥ - ٤٩ سنة)، لكن "الفرق ليس كبيراً، وبما أننا لا يمكن أن نعتقد أن هذا الجيل قد صار قابلاً لاستهلاك ثقافى محض محلى؛ فمما لاشك فيه أن شيئًا آخر يعبر عن نفسه عبر هذه المقاومة"(٦). كنا نتوقع ذلك وهذه الدراسة تؤكده: فالاستهلاك ليس الانضمام. وبشىء من الصلابة عبّر عن ذلك مراقب ميدانى: "أن تلبس ماركة نايك Nikeلا يحول دون إرادة نيـ...أمريكا".

"تصور الخلاص" الثانى الذى يقدمه المعادون لأمريكا أنفسهم طواعية يقوم على القول جوهرياً: طبيعى أننا نستخدم كلمة "أمريكا"؛ طبيعى أننا نستمر فى الكلام عن "الولايات المتحدة" ونقول عنها شراً كثيراً، لكننا فى الواقع، نعرف جيداً - وأنتم أيها القراء أيضاً - أن هذه الكلمات قد غيرت اليوم من معناها. إنها لم تعد تسمى أرضاً ولا شعبًا، بل بالأحرى ضرباً من طريقة الوجود فى العالم صار كوكبيًا. ريجيس دوبريه الذى يسمى نفسه طواعية باعتباره "معادياً لأمريكا" بين قوسين، يضع أيضاً قوسين حول أمريكته، التى يسميها "أمريكا التصدير": "إن النزعة الأمريكية التى أعارضها والتى لم تعد أمريكا بقدر ما إن الشمولية لم تكن روسيا، أعرفها بوصفها النزعة التبسيطية الخاصة بحقبتنا - ومن هنا قوتها." ويضيف دوبرى: يمكن إذن تسمية "الإنسان الأمريكى" الإنسان المستهدف من قبل وسائل الإعلام الجماهيرى، "شريطة أن نعرف أن غريب الأطوار هذا مستقر فى كل واحد منا"(٧). لِمَ لا فى الحقيقة؟ إن القارئ الفرنسى سيعتاد بسهولة على هذه الرياضة العقلية مادام قد اكتسب مرونة منذ سنوات الثلاثينات على يد تقليد معاداة أمريكا برمته. "أمريكا، يجب تسميتها بلاد اليانكيه بالأحرى لكى نبين أننا سنبحث عبثًا على الخارطة عن حدودها"، كما كان يكتب من قبل آرون ودانديو؛ فأمريكا فى نظرهما كما هى فى نظر دوبريه كانت "طريقة فى الحياة أو

فى قول لا للحياة"، "مرض العقل" المنتشر على الأرض كلها(٨). وعندما يضيف دوبريه مخاطبًا الأمريكيين: "لما كانت روح الإمبراطورية ليست أكثر شراسة فى أى مكان مما هى عليه فى المستعمرة، فإننى أذهب إلى الاعتقاد بأننا أكثر أمريكانية منكم"(٩)، فإننا نكاد نسمع صدى جورج دوهاميل: "أكثر الأشياء أمريكية غرابة رأيتها فى ألمانيا"، فى فرنكفورت وفى برلين وفى قلب هذه الأوروبا العتيقة التى "تستعمرها العبقرية الأمريكية"، والتى تشملها فى "إمبراطوريتها الجديدة"(١٠). هاهى عما قريب خمس عشرة سنة ترسم لنا نزعة معاداة أمريكا الفرنسية أمريكا على طريقة ماجريت Magritte مع تعليق: "هذا ليس أمريكا"، لكن إذا كانت السلعة لا تتطابق مع البطاقة أليس من السهل تغيير البطاقة بدلاً من الإكثار من الملاحظات الشارحة؟

يمكننا إذن أن نتنبأ مزيداً من الأيام السعيدة لنزعة معاداة أمريكا الفرنسية. فى عهد نابليون الثالث كانت تروى حكاية هذا الضابط الذى وقد أخبر بنقص الوقود المخصص لمراجل باخرته أجاب بخيلاء: "سخنوها بحماس الجنود!" إن نزعة معاداة أمريكا هى المرجل الذى كان يحلم به هذا المثالى: لا حاجة لتزويدها بنار التاريخ، فحماس المثقفين يكفى للمحافظة على الضغط. إننا لا نرى أنهم قد ضعفوا أو فقدوا احترامهم. ألم يكن هناك بعض الخطر فى أن يهملوا فجأة المستودع ويتركون المرجل لكل الشياطين؟

إذا كان مثقفو فرنسا بعد أن بخّرتهم "البطارية النفسية" للبروفسور جولبير بعناية يطوون راية حملتهم الصليبية، فستغيِّر نزعة معاداة أمريكا الفرنسية شخصيتها وليس على وجه الاحتمال من حدتها. إن النجاح المروع لكتاب تييرى ميسان Thierry Meyssan الكذبة الكبرى. ليس هناك أية طائرة تحطمت على البنتاجون *L Effroyable Imposture. Aucun avion ne s est écrasé sur le Pentagone* الذى يلخص عنوانه عبثيته، يعطى لمحة عما ستصير عليه نزعة معاداة أمريكا الفرنسية وقد حُرِمَت من "قيادتها" التاريخية(١١). وربما وجب بعد أن وُضِعوا كثيراً على كرسى الاتهام لدورهم فى صنع الجوليم Golem المعادى لأمريكا أن يُرجى مثقفو فرنسا ألا يهملوا بسرعة رصدهم المرتاب فى مراكزهم المتقدمة فى الغرب الأقصى؛ لأن الأشد إقلاقًا، ربما، سيتجلى فى أن يتركوا بسبب التعب أو الكلل أو اللامبالاة هذا الخيال بلا طيار.

أما بالنسبة للخطاب نفسه، فلا نخافن من سقوطه فى تركة شاغرة؛ فميله للتوالد الذاتى يُحصِّنُ على نحو واسع ضد صدمات الواقع: فقد قدمت فترة ما بعد ١١

سبتمبر على ذلك برهانًا ساطعًا ودامغًا فى آن واحد. لكنه يمكن أن يوجد أيضًا بين هذا النمط من الخطاب والأزمنة الحاضرة تلاؤم خاص. لقد اقترحنا فى مدخل هذا الكتاب تعريفًا متواضعًا لنزعة معاداة أمريكا بوصفها خطابًا. هل يسعنا تهذيبه فى نهاية المطاف؟

تتقاسم نزعة معاداة أمريكا بعض الملامح مع "الحكايات الكبرى" للحداثة: لاسيما قوتها الموحِّدة وطاقتها التصويرية - بما أنها لا تكف وحديثها يتناول أمريكا عن الحديث عن فرنسا(١٢). مع فارق كبير مع ذلك: يتجلى فى أنّ عناصر خطابات التسويغ تنتظم من حول إيجابيات محضة - تحرر المواطن، تحقيق الروح Esprit، المجتمع بلا طبقات،...إلخ. ماتت "الحكايات الكبرى"، بعد أن فات أوانها بسبب "الشك" الخاص بما بعد الحداثة (١٣). أما نزعة معاداة أمريكا فهى تتمدد وتزدهر: وباعتبارها "حكاية كبرى" فى الأساس فإنها تبقى قابلة للاستخدام فى حين فقدت الخطابات عن الخير كل فعالية وسلطة فى الحمل على الالتحام فى الخيال الاجتماعى. سببٌ آخرَ للنظر إليها بجدية: فربما ترسم هذه "الحكاية - المعادية"، فيما وراء تاريخها الخاص، الصورة الجانبية للخلاصات السلبية العاملة اليوم فى كل أوربا، التى صارت مدفن الحكايات الخَلاصيةّ.

* * *

"إن الأمة التى تستسلم لمشاعر معتادة من الحب أو الكراهية إزاء أمة أخرى تصير بمعنى ما عبْدة. عبْدة كراهيتها أو حبّها." هذه العبارة المأثورة المستخلصة من "وصية" واشنطن والموضوعة فى فاتحة هذا الكتاب تقدم نفس البنية المنطقية التى يملكها حكم شهير لماركس: "إن شعبًا يقمع شعبًا آخر ليس شعبًا حرًا." وإذا لم تعد نزعة معاداة أمريكا اليوم سوى عبودية ذهنية يعاقب بها الفرنسيون أنفسهم، وكسلاً مازوخيًا، وعادة فى الحقد، وبافلوفية بلا هوى؟ سيكون الأمر آنئذ ربما أن هناك فسحة من الأمل. قليلة هى الرذائل، حتى الفكرى منها، التى تقاوم لزمن طويل السأم الذى تستثيره.

لا أفترض أن هذه الصفحات تستطيع أن تستعجل نهايتها، لكن حتى لو استمرت، فإن هذه الدراسة فى أصولها لن تكون لها بلا فائدة؛ فبعد كل شيء، ليس من غير المهم أن تُضاءَ نزعة معاداة أمريكا.

هوامش

(١) R. Barthes, *Roland Barthes par Roland Barthes*, Paris, Seuil, 1975, p. 71.

(٢) A. Maurois, *En Amérique*, Paris, Flammarion, 1933, p. 124.

(٣) Cité dans R. Kuisel, *Le Miroir américain. 50 ans de regard français sur l Amérique*, Paris, J.-C. Lattès, 1993, p. 34.

(٤) Voir D. Echeverria, L Amérique devant l opinion française, *Revue d histoire moderne et contemporaine*, janvier-mars 1962, p. 59. J. Portes y fait référence dans son ouvrage *Une fascination réticente. Les Etats-Unis dans l opinion française*, Presse Universitaire de Nancy, 1990 (p.16).

حتى بالنسبة للقرن التاسع عشر الذى يطبقها عليه د. شفيريا ، فإن هذه "القاعدة" تبدو محاربة بكثير من الاستثناءات.

(٥) انظر استفتاء الرأى الذى قامت به CSA Opinion/*Libération* والذى تم فى ٦ و ٧ أبريل ١٩٩٩ من خلال عينة قومية ممثلة مؤلفة من ١٠٠٠ شخص أعمارهم من ١٨ سنة وأكثر، ومسجلين على اللوائح الانتخابية، والمكونة حسب منهج الحصص، انظر صحيفة *Libération*, 10 et 11 avril 1999

(٦) *Ibid.* Le commentaire est de Jean-Michel Helvig.

(٧) R. Debray, *Contretemps*, Paris, Gallimard-Folio, 1992, pp. 104, 105.

(٨) R. Aron et A. Dandieu, *Le Cancer américain*, Paris, Rioder, 1931, p. 80.

(٩) R. Debray, *Contretmps...*, p. 109.

(١٠) G. Duhamel, *Scènes de la vie future* [1930], Paris, Arthème Fayard, 1938, p.124.

(١١) حول ما تسميه صحيفة الليبراسيون "الكذبة المروعة"، انظر فى هذه الصحيفة المحادثة التى أجراها بيير لاجرانج مع بياتريس فاليز، "إنها نفس بلاغة نزعة النفى" التى تنسق كتاب ميسان، كما يلاحظ عالم الاجتماع المختص "بمتبنى المؤامرة". ونجاح بيع الكتاب (فقد تم الحديث عن مائة ألف نسخة فى أسبوع واحد) يبين الجاذبية الخارقة التى يمارسها على الجمهور الفرنسى كل سيناريو يحرم الأمريكيين من وضعهم كضحايا واضعاً إياهم فى وضع المشتبه بهم، إن لم يكن فى وضع المذنبين.

(١٢) Voir J.-F. Lyotard, *La Condition postmoderne*, Paris, Minuit, 1979.

(١٣) *Ibid.*, p. 7.

المؤلف فى سطور:

فيليب روچيه

باحث بالمركز القومى للبحث العلمى (فرنسا)، ويُدرِّس فى المعهد العالى للدراسات فى العلوم الاجتماعية. وقد ألَّف عدداً من الكتب تتناول بوجه خاص القرن الثامن عشر، كما أنه ألَّف كتاباً عن الناقد الفرنسى رولان بارت صدر له عام ١٩٨٦، وهو الآن مدير تحرير مجلة «نقد».

المترجم فى سطور:

بدر عرودكى

كاتب وناقد سورى يعيش فى باريس منذ أن حصل على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع من جامعة السوربون، ويعمل فى معهد العالم العربى (باريس). كتب العديد من الأبحاث فى مجال النقد الأدبى وسوسيولوچيا الثقافة. كما أنه ترجم عدداً كبيراً من الكتب، منها: «الفكر العربى فى معركة النهضة» لأنور عبدالملك (دار الآداب، بيروت، ١٩٧٤)، «معك» لسوزان طه حسين (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥)، «فن الرواية» لميلان كونديرا (المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١م).

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض .
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم

٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دي ثربانتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	راية التمرد	سادي پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلي
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان

١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغيرعن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت

١٥٥-	الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩-	الإيديولوچية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب
١٨٩-	العمى والبصيرة	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
١٩٣-	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد

١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨-	الاتصال الجماهيري	ادوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوي	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	فخري لبيب
٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدي
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	علي يوسف علي
٢٠٧-	ليل أفريقي	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أورويان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كللر	محمود حمدي عبد الغني
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	محمد محمود محي الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوي
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوي
٢١٨-	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	علي إبراهيم منوفي
٢١٩-	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية في الكون	باري باركر	علي يوسف علي
٢٢١-	شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلي
٢٢٣-	العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادي
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد علي البربري
٢٢٧-	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمري
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١-	الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمي

٢٣٣-	فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيرين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١-	فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالروف البمبى
٢٤٤-	الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤-	الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أفلاطون	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	ڤاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض
٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقى جلال

٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣-	الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا	روميلو جالاجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١-	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر ألن	نخبة من المترجمين
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦-	مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣-	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨-	علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩-	الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠-	يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن

٢١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٢١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٢١٣-	أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٢١٤-	الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٢١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٢١٦-	محاكمة سقراط	آ.ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧-	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٢١٩-	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠-	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٢٢٢-	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كليتباور	خالد مفلح حمزة
٢٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٢٢٤-	اللعب بالنار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٢٢٥-	عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٢٢٦-	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨-	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٢٢٩-	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٢٣١-	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	سامية دياب
٢٣٢-	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣-	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر س كلارك	مصطفى فهمى
٢٣٥-	عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٢٣٦-	متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٢٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٣٨-	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٢٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب
٢٤١-	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢-	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧-	الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين

٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناند	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩- ملك فى الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور

٢٨٩- من الأدب الباكستاني المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٢٩١- الحافلة الليلكية	مايف بينشى	منى الدروبى
٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٢٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٢٩٥- آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٢٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود سلامة علاوى
٢٩٧- نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨- سارتر	فيليب تودى	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩- كامى	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	نخبة
٤١٣- أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى
٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمودد سلامة علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- باندراس الطاغية	باى إنكلان	ثريا شلبى

٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩-	هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. ب. ماك إيفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

٤٦٧-	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار البيغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	نخبة
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	هدى الصدّة	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦-	ربما كان قديساً	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رويفز	نادية رفعت
٥٢٦-	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية – شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	ميلانى كلاين	نخبة	حمدى الجابرى

٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا. ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير رويرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثولينا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩-	تشومسكى	جون ماهر وجودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (جـ١)	جون فيزر وبول سيترجز	محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٤- سفر	محمود دولت آبادی	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبواه	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	نخبة
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود سلامة علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى

٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد دـتيرنر	فتح الله الشيخ
٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سيهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	نخبة	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا- أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى

٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدييار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان - إنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	مدحت الجيار
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك جيمسون - ماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات قصائد فرنسية للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢ ، مج٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	ويليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة	وول سوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجول الجديد	بن أوكرى	صبرى محمد حسن
٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة الكبرى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف	تادروش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	جوزيف ر. سترايير	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	دنيس براين	رمسيس عوض
٦٩٢-	الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	القتل الجماعى: المحرقة	حانيم برشيت وآخران	جمال الجزيرى
٦٩٤-	دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاراتى	جمال الجزيرى
٧٠٠-	حقيقة كاتب	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن

٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد زكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخران
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	فالتر بنيامين	نخبة	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال: التكنولوجيا والثقافة	يان هاتشباى وجومروان - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هارى أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	بشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى الغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التمييز والاختلاف	نخبة	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (جـ٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية (جـ١)	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر (جـ٢)	جيرار دى جورج	محمد عواد

٧٤٠-	خطابات القوة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف . أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	المجاز فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	أيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدتى الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عارورى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندروب دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد
٧٥٩-	النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال السعيد الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف)	خواجة الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢-	برخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف الدولية ج٢	جون فيزر وبول ستيرجز	محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديموقراطية الأمريكية.. التاريخ والمرتكزات	نخبة	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد، ورضا القادرى	حازم محفوظ

٧٧٩-	مختارات من الأدب الياباني المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم، وسارة تاكاهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جلال عبد المقصود
٧٨٣-	العولمة والرعاية الإنسانية	فيك جورج وبول ويلدنج	طلعت السروجي
٧٨٤-	الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل سجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المتنبئة	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجي
٧٨٩-	الانتظار	هاجين	منى الدروبي
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١-	العطور ومعامل العطور في مصر القديمة	محمد الشيمي	ماهر جويجاتي
٧٩٢-	دراسات حول القصص القصيرة	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريفيس	رءوف وصفي
٧٩٤-	التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسباني (جـ١)	نخبة	على البمبى
٧٩٦-	آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن	تشومسكي	حمزة المزيني
٧٩٧-	الرؤية في ليلة معتمة (مختارات)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨-	الإرشاد النفسي للأطفال	كاترين جيلدرد وداڤيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩-	سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد الجمال
٨٠٠-	قضايا في علم اللغة التطبيقي	ميشيل ماكارثي	عبد الجواد توفيق
٨٠١-	نحو مستقبل أفضل	نخبة	نخبة
٨٠٢-	مسلمو غرناطة في الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعي
٨٠٣-	التغير والتنمية في القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤-	سوسيولوجيا الدين	دانيل هيرڤيه ليجيه وچان بول ويلام	درويش الحلوجي
٨٠٥-	من لا عزاء لهم	كازو إيشيجورو ليش	طاهر البربري
٨٠٦-	الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧-	يحي حقي : تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨-	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديفيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢	تأمل العالم: الصورة والأسلوب في الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣	لم أخرج من ليلى	أنى إرنو	نورا أمين
٨١٤	الحياة اليومية في مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥	فلسفة المتكلمين (مج٢)	هارى أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٨١٦	العدو الامريكى : أصول النزعة الفرنسية المعادية لأمريكا	فيليب روچيه	بدر الدين عرودكى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٧١٧٧ / ٢٠٠٥